الكِفايـة

في التَّفسيرِ بالمأثورِ والدِّراية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه

عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء الثامن

سورة آل عمران الآية:[١-١٤٧]

منشور إلكترونياً

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

abdulla.khdhir@gmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة «آل عمران»

سورة «آل عمران»: هي السورة الثالثة من سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف، وعدد آياتها مئتان بإجماع القُرَّاء، وكلماتها: ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون. وحروفها: أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرون حرفاً[١].

والآيات المختلف فيها سبع: {الم} [آل عمران : ١]، {الْإِنْجِيل} [آل عمران : ٤٨]الثاني، }أَنْزَلَ الْفُرْقَان} [آل عمران : ٤]، {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيل} [آل عمران : ٤٩] ، {مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران : ٩٢]، {مَقَامُ إِبْرَاهِيم} [آل عمران : ٩٧]، {وَالْإِنْجِيلَ} [آل عمران : ٣] الأول -في قول بعضهم[٢].

ومجموع فواصل آياتها (ل ق د اط ن ب م ر) يجمعها قولي: (لقد أطنب مُرّ) والقاف آخر آية واحدة: {ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيق} [آل عمران : ١٨١]، والهمز آخر ثلاث آيات {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [آل عمران : ٥]، {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء} [آل عمران : ٣٨]، {كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران : ٤٠][٣].

أسماء السورة:

١- أسماؤها التوقيفية:

ولهذه السورة اسمان توقيفيان:

أحدهما: سورة «آل عمران»:

اشتهرت تسمية هذه السورة بـ«سورة آل عمران»، وبذلك عنونت في المصاحف وفي كتب التفسير والحديث، وقد ثبت تسميتها بهذا الاسم في حديث الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وفي كلام الصحابة-رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

روي عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:" اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزَّهْرَاوَيْنِ البقرة وآل عمران"[٤].

وروي عنه-صلى الله عليه وسلم-:" يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران ... الحديث "[٥].

وقد سماها الإمام عثمان بن عفان سرو آل عمران، إذ أخرج الدارمي في سننه عنه، أنه قال:" من قرأ سورة آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة"[٦].

وقد وردت هذه التسمية عن الإمام ابن عباس-رضي الله عنهما، إذ قال:" بت عند خالتي ميمونة فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع النبي - صلى الله عليه وسلم - وأهله في طولها فنام النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزي، للفيروزآبادي:١٥٨/١.

(٢) انظر: المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(٣) انظر: المصدر نفسه: ١٥٩/١.

(٤)أورده أبو عبيد فى غريب الحديث (٩٣/١) ، وأخرجه أحمد (٢٤٩/٥، رقم ٢٢٢٠٠) ، وابن الضريس فى فضائل القرآن (ص ٥٩، رقم ٩٨) ، وابن حبان (٣٢٢/١، رقم ١١٦) ، والطبرانى (١١٨/٨، رقم ٧٥٤٢) ، والحاكم (٧٥٢/١،
رقم ٢٠٧١) ، والبيهقى (٣٩٥/٢، رقم ٣٨٦٢) . وأخرجه أيضاً: مسلم (٥٥٣/١، رقم ٨٠٤) ، والطبرانى فى الأوسط
(١٥٠/١، رقم ٤٦٨) ، والرويانى (٣٠٥/٢، رقم ١٢٥٤) وأورده الغمارى فى المداوى (١٢٩/٢) وعزاه لحميد بن زنجويه..

(٥)أخرجه أحمد (١٨٣/٤، رقم ١٧٦٧٤) ، ومسلم (٥٥٤/١، رقم ٨٠٥).

(٦) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب"في فضل آل عمران، حديث(٣٣٩٦):ص٥٤٤/٢.

استيقظ فجلس يمسح النوم عن وجهه بيديه ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلق فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلى فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع يده على رأسى وأخذ بأذنى يفتلها فصلى ركعتين ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر فاضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح"[١].

ووجه تسميتها بسورة «آل عمران»، أنها ذكرت فيها أسرة آل عمران وفضائلها، وقد جاء ذكر «عمران» في هذه السورة مرتين في آيتين متاليتين، وذلك في قوله: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)} [آل عمران : ٣٣ - ٣٥].

واختلف في «عمران» المذكور هنا، على قولين:

أحدهما: أنه موسى وهارون ابنا عمران. قاله مقاتل[٢].

والثاني: أنه المسيح، لأن مريم بنت عمران، وهذا قول الحسن[٣].

قال ابن كثير: " المراد بـ«عمران» هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام"[٤].

قال الزمخشري: " وآل عمران موسى وهرون ابنا عمران ابن يصهر. وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة"[٥].

قال الآلوسي:" يرجح كون المراد به أبا مريم أن الله تعالى ذكر اصطفاءها بعد ونص عليه وأنه قال سبحانه: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ} [آل عمران: ٣٥]، والظاهر أنه شرح لكيفية الاصطفاء المشار إليه بقوله تعالى:{وَآلَ عِمْرانَ}"[٦].

والثاني:- سورة «الزهراء»:

وهي تشترك بهذه التسمية مع سورة«البقرة»، وتسمى بذلك، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتابين من شأن عيسى عليه السلام.

وقد وردت تسميتها بذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فيما رواه أبو أمامة الباهلي، إذ قال: " اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران ..الحديث"[٧].

وذكر القرطبي في وجه التسمية ثلاثة أقوال[٨]:

أحدها: إنهما النيرتان، مأخوذ من الزّهْر والزُهْرة ؛ فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما، أي من معانيهما.

والثاني: وإما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة.

---

(١)أخرجه مالك (١٢١/١، رقم ٢٦٥) ، أخرجه عبد الرزاق (٣٧/٣، رقم ٤٧٠٨).

(٢)انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١/ ٢٧١.

(٣)انظر: النكت والعيون: ١/ ٣٨٦.

(٤)تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣.

(٥)الكشاف: ١/ ٣٥٤.

(٦) روح المعاني:١٢٧/٢.

(٧)أورده أبو عبيد فى غريب الحديث (٩٣/١) ، وأخرجه أحمد (٢٤٩/٥، رقم ٢٢٢٠٠) ، وابن الضريس فى فضائل القرآن (ص ٥٩، رقم ٩٨) ، وابن حبان (٣٢٢/١، رقم ١١٦) ، والطبرانى (١١٨/٨، رقم ٧٥٤٢) ، والحاكم (٧٥٢/١،رقم ٢٠٧١) ، والبيهقى (٣٩٥/٢، رقم ٣٨٦٢) . وأخرجه أيضا: مسلم (٥٥٣/١، رقم ٨٠٤) ، والطبرانى فى الأوسط (١٥٠/١، رقم ٤٦٨) ، والرويانى (٣٠٥/٢، رقم ١٢٥٤) وأورده الغمارى فى المداوى (١٢٩/٢) وعزاه لحميد بن زنجويه.

(٨) أنظر: تفسير القرطبي: ٣/٤.

والثالث: سميتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم؛ كما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} والتي في آل عمران {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} "(١)(٢).

٢-أسماؤها الإجتهادية:

ولهذه السورة عدة تسميات اجتهادية:

إحداها:- سورة«طيبة»

لم يثبت هذا الاسم عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولا عن الصحابة-رضوان الله عليهم أجمعين-، وإنماوردت هذه التسمية في كتب المفسرين واستدلوا بما أخرجه سعيد بن منصور عن أبي عطاف، قال:"اسم آل عمران في التوراة طيبة"(٣).

وفي الدارمي عن ابي السليل، قال:" أصاب رجل دما، قال: فأوى إلى وادي مجنة-واد لا يمشي فيه أحد إلا أصابته حية-، وعلى شفير الوادي راهبان، فلما أمسى، قال أحدهما لصاحبه: هلك والله الرجل، قال: فافتتح سورة«آل عمران»، قالا: فقرأ سورة طيبة لعله سينجو، قال: فأصبح سليما"(٤).

ومن المفسرين الذين ذكروا هذا الاسم في كتبهم: ابن عطية(٥)، وأبو حيان(٦)، والقاسمي(٧)، والسيوطي في الإتقان(٨).

وتسمى بذلك، لجمعها من أصناف الطيبين في قوله: {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} [آل عمران : ١٧](٩).

ثانيا:-سورة«الكنز»

وردت هذه التسمية عند بعض المفسرين كأبي حيان(١٠)، والآلوسي(١١)، وكما يبدو أنهم اقتبسوها من حديث عبدالله بن مسعود موقوفا، قال:" نعم كنز الصعلوك سورة آل عمران، يقوم بها الرجل في آخر الليل"(١٢)، كما ذكر القرطبي في تفسيره أنها كنز الصعلوك(١٣).

وسبب تسميتها بـ«الكنز»، لتضمنها الأسرار العيسوية(١٤).

ثالثا:- سورة«الأمان»

سميت بذلك، لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط في شأنه(١٥).

رابعا:- سورة «المجادلة»

وتسمى بذلك، لنزول نيّف وثمانين آية منها في مجادلة رسول الله صلّى الله عليه وسلم نصارى نجران(١٦).

---

(١) تفسير القرطبي: ٤/٣.

(٢)رواه الترمذي (٣٤٧٨) وأبو داود (١٤٩٦) وابن ماجه (٣٨٥٥)

(٣) سنن سعيد بن منصور، كتاب التفسير، تفسير"سورة آل عمران"، حديث رقم(٥٥٣):ص١١٣٨/٣.

(٤) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب" في فضل آل عمران"، حديث(٣٣٩٩):ص٥٤٤/٢.

(٥) انظر: المحرر الوجيز:٣٩٦/١.

(٦) انظر: البحر المحيط:٩/٣.

(٧)انظر: محاسن التأويل:٧٤/٣.

(٨) انظر: الاتقان:١٧٢/١.

(٩) انظر: تفسير المهايمي:١٠١/١.

(١٠)انظر: البحر المحيط:٩/٣ .

(١١) انظر: روح المعاني:٧٣/٣.

(١٢) أخرجه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب"في فضل آل عمران"، حديث(٣٣٩٨):ص٥٤٤/٢.

(١٣) انظر: تفسير القرطبي:٢/٤.

(١٤) انظر: تفسير المهايمي:١٠١/١.

(١٥) انظر: تفسير المهايمي:١٠١/١.

(١٦) انظر: تفسير المهايمي:١٠١/١.

خامسا:- سورة «الاستغفار»

وذلك لما فيها من قوله:{ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ} [آل عمران: ١٧] (١).

سادسا: سورة «المعينة»

ذكرها الألوسي في تفسيره دون أن يورد وجه تسميتها بذلك(٢).

ويجدر القول بأن هذه التسميات التي ذكرها المفسرون لم ترد فيها أحاديث عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، ولا عن صحابته-رضوان الله عليهم-، وإنما هي اوصاف وصفت بها السورة، ولعلهم اقتبسوها من القرطبي فيما ساقه من أوصاف هذه السورة في المسألة الثالثة، إذ يقول:" هذه السورة ورد في فضلها آثار وأخبار، فمن ذلك ما جاء أنها أمان من الحيات، وكنز للصعلوك، وأنها تحاج عن قارئها في الآخرة، ويكتب لمن قرأ آخرها في ليلة كقيام ليلة، إلى غير ذلك."(٣).

مكية السورة ومدنيتها:

وهذه السّورة مَدَنية باتّفاق جميع المفسرين(٤).

أخرج الطبري وابن أبي حاتم(٥)عن الربيع:أن "النصارى أتو النبي صلى الله عليه وسلم، فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا: من أبوه؟ فقالوا على الله الكذب والبهتان، لا إله إلا الله لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلأه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيء؟ قالوا: لا، قال: أفلستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا بلى: قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيء إلا ما علم؟ قالوا لا: قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء، ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم الطعام، ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا، فأنزل الله: {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم}"(٦).

مناسبة السورة لما قبلها:

فمن وجوه المناسبة بين هذه السورة وبين سورة «البقرة» التي قبلها:

أولا:- تسميتهما بالزهراوين.

روى الإمام مسلم في "صحيحه" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:"اقرؤوا الزهراوين: البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ، تحاجَّان عن أصحابهما"(٧).

ففي هذا الحديث، وغيره من الأحاديث الواردة في حق هاتين السورتين، ما يدل على ترابط وتناسب وتلازم بين هاتين السورتين الكريمتين.

ثانيا:- أنهما افتتحتا بذكر الكتاب - وهو القرآن - فجاء في سورة البقرة مجملاً في قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ} [البقرة : ٢]، بينما جاء ذكر الكتاب في سورة آل عمران مؤكّدًا

---

(١) انظر: تفسير المهايمي:١٠١/١.

(٢) انظر: روح المعاني:٧٣/٣.

(٣) تفسير القرطبي:٢/٤.

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزي، للفيروزآبادي:١٥٨/١.

(٥) انظر:تفسير ابن أبي حاتم(٣١٢٤):ص٥٨٥/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٦٥٤٤):ص١٥٤/٦، واخرجه الطبري بنحوه عن جعفر بن الزبير، وفيه تسمية رؤساء وفد نجران، انظر: تفسير الطبري(٦٥٤٣):ص١٥١/٦-١٥٤، وانظر: النكت والعيون: ٣٦٧/١، وأسباب النزول، الواحدي: ٩٧-٩٨، والعجاب في بيان الاسباب: ٦٥٧/٢-٦٥٨.

(٧) سبق تخريجه.

ومفصِّلاً لما في البقرة، قال تعالى :{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [آل عمران : ٣] .

ثالثا:- ومن وجوه المناسبات بين السورتين، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} ، وفاتحة سورة آل عمران:{ الم . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }"(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي سُوَرٍ مِنَ الْقُرآنِ ثَلَاثٍ : فِي «البَقَرَةِ» وَ«آلِ عِمرَانَ» وَ«طَهَ»"(٢).

وبذلك قد اشتملت السورتان الكريمتان على اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب.

رابعا: ولما كانت سورة البقرة قد عالجت شبهات اليهود وادعاءاتهم بشيء من البسط والتفصيل، وتعرضت لشبهات النصارى على وجه الإجمال؛ جاءت -بالمقابل- سورة آل عمران تواجه وتعالج شبهات النصارى بشي من التفصيل، وبخاصة ما يتعلق منها بـ عيسى عليه السلام، وما يتعلق بعقيدة التوحيد الخالص، كما جاء به دين الإسلام. وتصحح لهم ما أصاب عقائدهم من انحراف وخلط وتشويه. وتدعوهم إلى الحق الواحد الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن بتصديقها؛ مع إشارات وتقريعات لليهود، وتحذيرات للمسلمين من دسائس أهل الكتاب .

وقد قال أصحاب كتب أسباب النزول: إن الآيات الأُوَل من سورة آل عمران نزلت في وفد نجران، وكانوا يدينون بالنصرانية، وكانوا من أصدق قبائل العرب تمسكًا بدين المسيح عليه السلام .

وذكر الإمام السيوطي بناء على قاعدته، أن كل سورة تالية شارحة لمجمل ما جاء في السورة قبلها، العديد من أوجه المناسبات، نختار منها الأوجه التالية(٣) :

اولا:- أنه سبحانه ذكر في سورة البقرة إنزال الكتاب مجملاً، في قوله:{ذلك الكتاب}[البقرة:٢] بينما ذكره في سورة آل عمران مفصلاً، قال تعالى:{منه آيات محكمات هنَّ أم الكتاب وأُخَرُ متشابهات}[آل عمران:٧].

ثانيا:- جاء في سورة البقرة قوله سبحانه:{وما أنزل من قبلك}[البقرة:٤]مجملاً، في حين جاء في سورة آل عمران مفصلاً، قال تعالى:{وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس}[آل عمران:٤]، فصرح هنا بذكر الإنجيل؛ لأن السورة خطاب للنصارى، ولم يقع التصريح بالإنجيل في سورة البقرة، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة؛ لأنها خطاب لليهود.

ثالثا:-أنه تعالى ذكر الشهداء في سورة البقرة على وجه الإجمال، فقال تعالى:{ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات}[البقرة:١٥٤]، بينما فصَّل القول في أحوالهم، وما صاروا إليه في سورة آل عمران، فقال سبحانه:{بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل}[آل عمران:١٦٩-١٧١].

رابعا:- أنه سبحانه افتتح سورة البقرة بقصة آدم وخلقه من تراب، دون أب ولا أم؛ وذكر فى سورة آل عمران نظيره فى الخلق من غير أب وهوعيسى عليه السلام؛ ولذلك ضَرَب له المثل بـ آدم .قالوا: وقد اختصت سورة البقرة بذكر آدم عليه السلام؛ لأنها أول السور، وهو أول فى الوجود وسابق؛ ولأنها الأصل، وهذه كالفرع والتتمة لها، فاختصت بالأغرب، ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم عليها السلام ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب؛ ففُوتحوا بقصة آدم؛ لتثبت فى أذهانهم، فلا تأتى قصة عيسى عليه السلام، إلا وقد ذُكِر عندهم ما يشهد لها

---

(١)رواه الترمذي (٣٤٧٨)، وأبو داود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥). والحديث ضعيف ، فيه عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب ، وكلاهما ضعيف. .

(٢)رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وحسَّنه الألباني في " صحيح ابن ماجه " .

(٣) انظر: تناسق الدرر في تناسب السور:٧٠ وما بعدها [بتصرف].

من جنسها، ولأن قصة عيسى عليه السلام قيست على قصة آدم، والمقيس عليه لا بد وأن يكون معلومًا، لتتم الحجة بالقياس، فكانت قصة آدم، والسورة التى هي فيها، جديرة بالتقديم .

خامسا:- ومما يقوي المناسبة والتلازم بين السورتين الكريمتين، أن خاتمة سورة آل عمران جاءت مناسبة لفاتحة سورة البقرة؛ وبيان ذلك أن سورة البقرة افتتحت بذكر المتقين، وأنهم هم المفلحون، بينما خُتمت سورة آل عمران بقوله تعالى:{واتقوا الله لعلكم تفلحون}[آل عمران:٢٠٠] وأيضًا افتتحت سورة البقرة بقوله سبحانه:{والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك}[البقرة:٤] وختمت سورة آل عمران بقوله سبحانه:{وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم}[آل عمران:١٩٩]

سادسا:- وقد ورد أن يهود لما نزل قول الله جلَّ وعلا:{من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا}[البقرة:٢٤٥]، قالوا: يا محمد، افتقر ربك يسأل عباده القرض، فنزل ردُّ الله عليهم:{لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء}[آل عمران:١٨١] وهذا مما يقوي التلازم بين السورتين أيضًا.

سابعا: أنه وقع في سورة البقرة، حكاية قول إبراهيم عليه السلام:{ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك}[البقرة:١٢٩] ووقع في سورة آل عمران قوله سبحانه:{لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم}[آل عمران:١٦٤] والتلازم بين الآيتين هنا في غاية الظهور .

ولا شك أن وراء ما ذكرنا من مناسبات بين السورتين، أمورًا أُخر، لكن حسبنا ما أتينا عليه من أوجه المناسبات، كدلالة على التلازم والتناسب بين سور القرآن الكريم، والذي يدل قبل هذا على أن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين.

أغراض السورة ومقاصدها:

لقد تضمنت هذه السورة الكريمة جملة من المقاصد، نذكر منها :

أولاً :-تقرير أصول الشريعة المتمثلة في عقيدة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، دل على ذلك قوله سبحانه:{الله لا إله إلا هو الحي القيوم}[آل عمران:٢]، وقوله سبحانه:{شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط}[آل عمران:١٨]. وقوله عز وجل:{إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين}[آل عمران:٣٣]. وقوله سبحانه:{ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد}[آل عمران:٩].

كما أنها قصدت إلى تقرير بعض الأحكام التكليفية كالحج :{ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا} [آل عمران:٩٧]، والجهاد:{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون}[آل عمران:١٦٩]، وغيرهما. وأيضاً فقد قصدت إلى بيان جملة من الآداب السلوكية، وهو ما قررته الآية الجامعة وهي قوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}[آل عمران:٢٠٠].

ثانياً:- من المقاصد الرئيسة التي نزلت لأجلها هذه السورة مجادلة النصارى فيما هم فيه من عقائد باطلة، وإبطال مذهبهم، ونفي الشبهات التي تضمنتها معتقداتهم المنحرفة، أو التي تعمدوا نثرها حول صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم. وقصة عيسى عليه السلام -وما جاء من القصص مكملاً لها- تؤكد هذه الحقيقة، وتنفي فكرة الولد والشريك، وتستبعدهما استبعاداً كاملاً؛ وتظهر زيف هذه الشبهة، وسخف تصورها؛ وتبسط مولد مريم عليها السلام وتاريخها، ومولد عيسى عليه السلام وتاريخ بعثته وأحداثها، بطريقة لا تدع مجالاً لإثارة أية شبهة في بشريته الكاملة. فكان من مقاصد هذه السورة الأساسية، بيان فيصل التفرقة بين عقيدة التوحيد الخالصة الناصعة، وبين عقائد أصحاب الديانات المنحرفة والمضللة.

ثالثاً :من مقاصد هذه السورة كشف الصراع الأصيل والدائم بين أهل الإيمان والتوحيد وبين أهل الكفر والشرك. هذا الصراع الذي لم يفتر منذ ظهور الإسلام، بل هو صراع مستمر ومتطور، يبذل فيه أعداء هذا الدين ما وسعهم من جهد وحيلة ومكيدة وخداع وكذب وتدبير؛ للبس الحق

بالباطل، وبث الريب والشكوك، وتبييت الشر والضر لهذه الأمة، من غير ملل ولا كلل. وقد بصَّرت هذه السورة المؤمنين بحقيقة ما هم عليه من الحق، وحقيقة ما عليه أعداؤهم من الباطل، وشرحت طباع أعداء هذه الأمة وأخلاقهم وأعمالهم ونياتهم، وفضحت ما يضفونه على أنفسهم من مظاهر العلم والمعرفة والتقدم .

رابعاً :من مقاصد هذه السورة بيان حال المؤمنين مع ربهم؛ حيث عرضت جملة صالحة من أخبار النخبة المختارة من البشر، التي اصطفاها سبحانه لأداء رسالته، وجعلها ذرية بعضها من بعض. وتتمثل هذه الصور المشرقة في حديث امرأة عمران مع ربها، ومناجاته في شأن وليدتها. وفي حديث مريم مع زكريا عليه السلام. وفي دعاء زكريا عليه السلام ونجواه ربه. وفي رد الحواريين على نبيهم، ودعائهم لربهم.

خامساً :قصدت هذه السورة إلى ولوج ميدان النفس المؤمنة، من حيث تصوراتها، ومشاعرها، وأطماعها، وشهواتها، ودوافعها، وكوابحها. وقد عالجت السورة هذه النفس بكل رفق وتلطف وإرشاد وتوجيه، نلمس ذلك في الآيات التي تحدثت عن وقائع غزوة أُحد، وما جرى فيها من تمحيص للنفوس، وفحص للقلوب، وتمييز للصفوف، وتحرير لكثير من آفات الفكر والسلوك والمشاعر في الصف المسلم؛ وذلك بتميز المنافقين من المؤمنين، وتوضيح سمات النفاق وسمات الصدق، في القول والفعل، وفي الشعور والسلوك، وتبيين تكاليف الإيمان، وتكاليف الدعوة إليه، ومقتضيات ذلك كله من الاستعداد بالعلم والعمل، والتزام الطاعة والاتباع بعد هذا كله، والتوكل على الله وحده، في كل خطوة من خطوات الطريق، ورد الأمر إلى الله وحده في النصر والهزيمة، وفي الموت والحياة، وفي كل أمر وفي كل اتجاه.

سادساً :هدفت هذه السورة إلى تقرير سُنَّة بالغة الأهمية في حياة المسلم، وهي أن وقائع الحياة وأحداثها -نصراً وهزيمة، نجاحاً وفشلاً، تقدماً وتأخراً- إنما تجري وفق سنن الله الجارية التي أقام على وفقها هذا الكون، أنها سُنَّة الأخذ بالأسباب الظاهرة، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى:{أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم}[آل عمران:١٦٥]، فالأمور كلها منوطة بالعمل وَفْق سنن الله التي وضعها، فإذا أخذ بها المسلم نجح وتقدم، وإذا أعرض عنها أو تجاهلها خسر وتأخر، وما أصاب الإنسان من شر، إنما هو بما كسبت يداه.

سابعاً :من مقاصد هذه السورة بيان أن هذا الكون كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته; ويوحي بأن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى وحساباً وجزاء. يرشد لهذا المقصد ما جاء من آيات في أواخر هذه السورة، التي ابتدأت بقوله سبحانه:{إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}[آل عمران:١٩٠]، وخُتمت بقوله تعالى:{ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار}[آل عمران:١٩٣].

فجاءت هذه الآيات لتوجه القلوب والأنظار إلى هذا الكتاب المفتوح -كتاب الكون-؛ الذي لا تفتأ صفحاته تقلب على مر السنين والأيام، فتتبدى في كل صفحة آية موحية، تستجيش في الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب، وفي روعة صنع هذا النظام، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الكون(١).

الناسخ والمنسوخ:

السورة تحتوي من المنسوخ على عشر آيات:

- الآية الأولى: قوله تعالى: {فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا} [آل عمران : ٢٠] هذا محكم، والمنسوخ قوله تعالى {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغ} [آل عمران : ٢٠]، نسختها آية السيف.

(١) انظر: مقاصد سورة آل عمران، إسلام ويب.

- الآية الثانية: قوله تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران : ٢٨] هذا محكم، والمنسوخ قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاة} [آل عمران : ٢٨]، نسختها أية السيف.
- الآية الثالثة والرابعة والخامسة متصلات أولهن بآخرهن، قوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِم} [آل عمران : ٨٦] الى قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} [آل عمران : ٨٨]، نزلت في ستة رهط ارتدوا عن الإسلام ثم استثنى الله واحدا منهم يقال له سويد ين الصامت من الأنصار وذلك أنه ندم على فعاله وأرسل إلى أهله يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل له من توبة فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:" نعم"، فصارت فيه وفي كل نادم إلى يوم القيامة.
- الآية السادسة: قوله تعالى: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} [آل عمران : ٩٧]، قال السدي: فهذه على العموم ثم استثنى الله بما بعدها فصار ناسخا لها وهو قوله تعالى: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } [آل عمران : ٩٧]، فخص المستطيعين فسئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن السبيل ما هو فقال: "هو الزاد والراحلة"(١).
- الآية السابعة: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران : ١٠٢]، وذلك أنه لما نزلت الآية لم يعلموا ما تأويلها حتى سألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم)-، فقالوا: يا رسول الله ما حق تقاته؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر"(٢). فشق نزولها عليهم فقالوا يا رسول الله إننا لا نطيق ذلك فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:" لا تقولوا كما قالت اليهود سمعنا وعصينا ولكن قولوا سمعنا وأطعنا"(٣). ونزل وبعدها بيسير: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج : ٧٨] ، فكان هذا أعظم عليهم من الأول، ومعناها: اعملوا حق عمله وكادت عقولهم تذهل حتى يسر الله تعالى ذلك وسهل فنزل: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن : ١٦]، فصارت ناسخة لما كان قبلها.
- الآية الثامنة: قوله تعالى: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى} [آل عمران : ١١١] الآية، نسختها: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة : ٢٩].
- الآية التاسعة: قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا} [آل عمران : ١٤٥] هذا محكم، والمنسوخ قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} [آل عمران : ١٤٥]، فنسخ ذلك قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ} [الإسراء : ١٨].
- الآية العاشرة: قوله تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } [آل عمران : ١٨٦] هذا محكم الى قوله تعالى:، {أَذًى كَثِيرًا} [آل عمران : ١٨٦]، قوله تعالى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ

---

(١)حديث ابن عمر: أخرجه ابن جرير (١٦/٤) ، والبيهقى (٣٢٧/٤، رقم ٨٤٠٦) .

حديث الحسن: أخرجه ابن جرير (١٦/٤) ، والبيهقى (٣٢٧/٤، رقم ٨٤٠٧).

حديث الحسن عن أمه عن عائشة: أخرجه البيهقى (٣٣٠/٤، رقم ٨٤٢٣).

(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٦٢.
وأخرج ابن أبي حاتم (٣٩٠٨):٧٢٢/٣، عن عبد الله :" {اتقوا الله حق تقاته}، قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. قال: قال ابن أبي حاتم: وروي عن مرة الهمداني والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، والحسن، وطاوس، وقتادة، وإبراهيم النخعي وأبي سنان، والسدي نحو ذلك".
(٣) . قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح موقوف ٢/ ٧١
(٣) سبق تخريجه.

ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران : ١٨٦] نسخ ذلك بقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة : ٢٩] [١].

فضائل السورة:

ورد في هذه السورة مجموعة من الفضائل:

أولا:- عن النواس بن سمعان، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: " يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنها غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنها فرقان من طير صاف يحاجان عن صاحبهما"[٢].

ثانيا:- عن أبي أمامه قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أصحابهما...الحديث"[٣].

ثالثا:- عن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:" من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حَبر"[٤].

ومعنى:«من أخذ السبع» :قيل: حفظها, وعمل بها, وجعل تلاوتها وردًا له، وقيل معنى أَخْذِهَا: المواظبة على تلاوتها, والتدبر في معانيها, والعمل بما فيها.

فهو حبر :أي: عالم. وفي بعض روايات الحديث :فهو خير .أي: في أخذها خير كثير وأجر عظيم.

قال الإمام المناوي:" «من أخذ السَّبع»، أي: السور السبع الأول من القرآن كما في رواية أحمد وغيره «فهو خير له»، أي: من حفظها واتخذ قراءتها وردا فذلك خير كثير، يعني بذلك: كثرة الثواب عند الله تعالى"[٥].

والسور السبع الطوال من أول القرآن هي: «البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والتوبة»[٦].

رابعا:- وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال :"أعطيت السبع الطّوَل مكان التوراة"[٧].

قال الإمام المناوي:" «مكان التوراة»، أي: بدل ما فيها"[٨].

خامسا:- عن مكحول، قال:" من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة، صلّت عليه الملائة إلى الليل"[٩].

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٦٠-٦٤.

(٢)أخرجه أحمد (١٨٣/٤، رقم ١٧٦٧٤) ، ومسلم (٥٥٤/١، رقم ٨٠٥)..

(٣)أورده أبو عبيد فى غريب الحديث (٩٣/١) ، وأخرجه أحمد (٢٤٩/٥، رقم ٢٢٢٠٠) ، وابن الضريس فى فضائل القرآن (ص ٥٩، رقم ٩٨) ، وابن حبان (٣٢٢/١، رقم ١١٦) ، والطبرانى (١١٨/٨، رقم ٧٥٤٢) ، والحاكم (٧٥٢/١، رقم ٢٠٧١) ، والبيهقى (٣٩٥/٢، رقم ٣٨٦٢) . وأخرجه أيضا: مسلم (٥٥٣/١، رقم ٨٠٤) ، والطبرانى فى الأوسط(١٥٠/١، رقم ٤٦٨) ، والرويانى (٣٠٥/٢، رقم ١٢٥٤) وأورده الغمارى فى المداوى (١٢٩/٢) وعزاه لحميد بن زنجويه..

(٤)رواه أحمد (٢٤٤١٢) ورجاله ثقات سوى حبيب بن هند ، وثق. ورواه الحاكم (٢١١٤) بلفظ (من أخذ السبع الأول من القرآن فهو خير) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال المحدث الألباني في السلسلة الصحيحة(٢٣٠٥): الحديث حسن أو قريب منه.اهـ.

(٥) فيض القدير:٤١/٦.

(٦) انظر: السلسلة الصحيحة للشيخ العلامة الالباني(٢٣٠٥).

(٧)رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٢٠)، والطبراني في الكبير(١٨٧/١٧) والبيهقي في الشعب (٢٢٥٦)، قال المحدث أحمد شاكر في تفسير الطبري(١٠٠/١): إسناده صحيح. وقال المحدث الألباني في الصحيحة(١٤٨٠): الحديث بمجموع طرقه صحيح.

(٨) فيض القدير:٥٦٥/١.

(٩) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرىن، باب"في فضل آل عمران"، حديث(٣٣٩٧):ص٥٤٤/٢،

سادسا:- وقال عبدالله بن مسعود:" نعم كنز الصعلوك سورة آل أعمران، يقوم بها في آخر الليل"[1].
هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

القرآن
{الم (١)} [آل عمران : ١]
التفسير:
الله أعلم بمراده، والأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها دون سند شرعي، واليقين بأن الله أنزلها لحكمة قد لا نعلمها.
القرآن
{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)} [آل عمران : ٢]
التفسير:
هو الله، لا معبود بحق إلا هو، المتصف بالحياة الكاملة كما يليق بجلاله، القائم على كل شيء.
قوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[آل عمران:٢]،" أي لا ربَّ سواه ولا معبود بحقٍ غيره"[2].
قال أبو السعود:"أي هو المستحقُّ للعبودية لا غير"[3].
قال الطبري:" خبرٌ من الله جل وعز ، أخبرَ عبادَه أن الألوهية خاصةٌ به دون ما سواه من الآلهة والأنداد"[4].

والحديث رجاله كلهم ثقات.
(١) اخرجه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن باب" في فضل آل عمران"، حديث(٣٣٩٨):ص٥٤٤/٢، كما أخرجه أبو عبيد في فضائله:ص١٢٧، باب "فضل سورة البقرة وآل عمران والنساء"، والبيهقي (٢٦١٦):ص٥٢٩/٢، وعبدالرزاق في مصنف:٣٧٥/٣.
والحديث إسناده ضعيف، لاجل جابر بن زيد، وهو ضعيف كما قال الحافظ في التقريب:١٣٧، وقال النسائي وغيره: متروك، وقال يحيى: لايكتب حديثه، واتهم بالكذب. انظر: الميزان:٣٧٩/١، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه على الاعتبار ولا يحتج به، وقال أبو زرعة: جابر الجعفي لين. انظر: الجرح والتعديل: ٤٩٧/٢.
(٢) صفوة التفاسير: ١٦٧/١.
(٣) تفسير أبي السعود: ٢/٢.
(٤) تفسير الطبري: ١٤٨/٦.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عن جابر بن زيد أنه قال: "اسم الله الأعظم هو الله"(١).

قوله تعالى:{ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[آل عمران:٢]، " أي: الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون عباده"(٢).

قال مقاتل بن سليمان:" يعني الحي الَّذِي لا يموت، القيوم يعني القائم عَلَى كُلّ نفس بما كسبت"(٣).

قال قتادة: "الحي: الذي لا يموت"(٤). وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك(٥).

قال أبو السعود:" معنى "الحى": الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، ومعنى "القيوم": الدائمُ القيام بتدبير الخلق وحفظِه، ومن ضرورة اختصاص ذينك الوصفين به تعالى اختصاصُ استحقاقِ المعبودية به تعالى لاستحالة تحققِه بدونهما"(٦).

واختلف في تفسير قوله تعالى: { الْقَيُّومُ}[آل عمران:٢] على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يعني:" القائم على كل شيء". قاله مجاهد(٧).

والثاني: القيم على الخلق بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، وهذا قول قتادة(٨)، وروي عن الربيع بن أنس(٩) مثله.

الثالث: أن المعنى:" القائم على مكانته الذي لا يزول، وعيسى لحم ودم، وقد قضى عليه بالموت زال عن مكانه الذي يحدث به". وهذا قول محمد بن إسحاق(١٠)، وروي عن الحسن(١١) نحو ذلك.

واختلفت القراءة في قوله تعالى{ الم اللَّهُ}[آل عمران١-٢]، على قولين(١٢):

أحدهما: {الم الله} الميم مفتوحة والألف ساقطة. وهو القول المشهور.

واختلف النحويون في علة فتح الميم،على قولين(١٣):

الأول: أنها فتحت لالتقاء الساكنين. حركت إلى أخف الحركات. وهذا قول البصريين.

والثاني: جائِز أن يكون طرحت عليها فتحة الهمزة لأن نية حروف الهجاءِ الوقف، وهذا قول الكوفيين.

قال البيضاوي:" إنما فتح "الميم" في المشهور وكان حقها أن يوقف عليها لإِلقاء حركة "الهمزة" عليها ليدل على أنها في حكم الثابت، لأنها أسقطت للتخفيف لا للدرج، فإن "الميم" في حكم الوقف كقولهم واحد اثنان بإلقاء حركة "الهمزة" على "الدال" لا لالتقاء الساكنين، فإنه غير محذور في باب الوقف، ولذلك لم تحرك الميم في لام"(١٤).

والثاني: {الم الله} بتسكين الميم وقطع الألف. رواه أبوبكر عن عاصم(١٥) ،ورويت هذه القراءة عن الحسن ، وعمرو بن عبيد ، والرؤاسي ، والأعمش ، والبرجمي ، وابن القعقاع(١٦).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٣١٢٢):٥٨٧/٢.
(٢) صفوة التفاسير: ١٦٧/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٦٢/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٢٦):٥٨٦/٢.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٥٨٦/٢.
(٦) تفسير أبي السعود: ٢/٢-٣.
(٧)تفسير ابن أبي حاتم(٣١٢٧):٥٨٦/٢.
(٨)تفسير ابن أبي حاتم(٣١٢٨):٥٨٦/٢.
(٩)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٢٨):٥٨٦/٢.
(١٠)تفسير ابن أبي حاتم(٣١٣٠):٥٨٦/٢.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٣٠):٥٨٦/٢.
(١٢) انظر: السبعة في القراءات: ٢٠٠، و تفسير البيضاوي: ٥/٢.
(١٣) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٣٧٣/١، وتفسير الكشاف: ٧/٣.
(١٤) تفسير البيضاوي: ٥/٢.
(١٥) انظر: تفسير البيضاوي: ٥/٢، والبحر المحيط: ٢٨٣/٢.
(١٦) انظر: البحر المحيط: ٢٨٣/٢.

ومن قطع "الألف" فله وجهان(١):
أحدهما: نية الوقف ثم قطع الهمزة للابتداء، كقول الشاعر(٢):
لتسمعن وشيكا في ديارهم ... الله أكبر يا ثارات عثمانا
والثاني: أن يكون أجراه على لغة من يقطع ألف الوصل.
كقول الشاعر(٣):
إذا جاوز الاثنين سر ... فإنه بنت وتكثير الوشاة قمين
قال الزمخشري:" ومن فصل وقطع فللتفخيم والتعظيم تعالى الله ابتداء وما بعده خبر"(٤).
والثالث: {الم الله}، بكسر الميم، على توهم التحريك لالتقاء الساكنين(٥)، قرأ بها أبو حيوة، ونسبها ابن عطية إلى الرؤاسي(٦)، ونسبها الزمخشري إلى عمرو بن عبيد(٧)، وأجازه الأخفش(٨).
وضعّفه الزجاج وقال: وهذا غلط ...لأن قبل الميم ياءً مكسوراً ما قبلها، فحقها الفتح لالتقاءِ السَّاكنين، وذلك لثقل الكسرة مع الياءِ"(٩).
والصواب: الفتح قراءة الجمهور. واختاره أبو حيان(١٠). والله أعلم.
الفوائد:
١-من فوائد الآية الكريمة: إثبات ألوهية الله تعالى عزّ وجلّ، لقوله:{ اللَّهُ }.
٢-إنفراده بهذه الألوهية، لقوله:{ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ }.
٣-إثبات اسمين من اسماء الله{ الْحَيُّ الْقَيُّوم}، وقد ورد أنهما اسم الله الأعظم، لاشتمالهما على كمال الذات والصفات والأفعال.
٤-إثبات حياته وقيوميته، لأن كل اسم فإنه متضمن للصفة، وقد يتضمن امرا زائدا وهو الحكم الذي يسمى الأثر.
٥-أن كل شيء مفتقر إلى الله وأن الله غني عما سواه، لأن كمال حياته يستلزم غناه عن كل أحد، وكمال قيوميته يستلزم افتقار كل شيء إليه، وهو كذلك، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ } [الروم : ٢٥]، وقال: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [الرعد : ٣٣].

القرآن

{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣)} [آل عمران : ٣]

التفسير:
نَزَّل عيك القرآن بالحق الذي لا ريب فيه، مصدِّقًا لما قبله من كتب ورسل، وأنزل التوراة على موسى -عليه السلام-، والإنجيل على عيسى -عليه السلام-.
قوله تعالى:{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}[آل عمران: ٣]، "أي نزّل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة"(١١).

---

(١) انظر: الكشاف: ٧/٣.
(٢) انظر: البداية والنهاية: ٧/ ٢١٩ وتاج العروس: ٣/ ٧٠.
(٣) انظر: الصحاح: ١/ ٢٩٤.
(٤) تفسير الكشاف: ٧/٣.
(٥) انظر: تفسير البيضاوي: ٥/٢.
(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٣٩٧/١.
(٧) حكاه أبو حيان في البحر: ٢٨٣/٢، ولم اجده في تفسير الكشاف للزمخشري.
(٨) حكاه عنه الزجاج في معاني القرآن للزجاج: ٣٧٣/١، ولم اجده في معاني القرآن للأخفش.
(٩) معاني القرآن للزجاج: ٣٧٣/١.
(١٠)انظر: البحر المحيط: ٢٨٣/١.
(١١) صفوة التفاسير: ١٦٧/١.

قال مقاتل: "لَمْ ينزله باطلا يعني القرآن"[١].
وفي معنى{ الْكِتَابَ}[آل عمران: ٣]، قولان:
أحدهما: أنه خواتيم البقرة من كنز تحت العرش. قاله سعيد بن جبير[٢].
والثاني: أنه القرآن. وهذا قول قتادة[٣].
وفي قوله تعالى:{ بِالْحَقِّ}[آل عمران: ٣]، وجوه:
إحداها: بالفصل في الذي ادعوا من الباطل. قاله محمد بن إسحاق[٤].
والثاني: بتصدق فيما اختلفوا فيه. عن محمد بن إسحاق في قوله الآخر[٥].
والثالث: بالصدق فيما تضمنه من أخبار القرون الخالية والأمم السالفة. ذكره الماوردي [٦].
والرابع: بالصدق فيما تضمنه من الوعد بالثواب على طاعته ، والوعيد بالعقاب على معصيته. ذكره الماوردي[٧].
الخامس : بالعدل مما استحقه عليك من أثقال النبوة . ذكره الماوردي[٨].
والسادس: بالعدل فيما اختصك به من شرف الرسالة . ذكره الماوردي[٩].
قال الزمخشري:" فإن قلت : لم قيل {نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ}{وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ}؟ قلت : لأن القرآن نزل منجماً ، ونزل الكتابان جملة"[١٠].
وفي قوله تعالى :{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}[آل عمران: ٣]، قراءتان[١١]:
إحداهما: { نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ}، بتخفيف "الزاي"، ونصب "الباء" في {الكتاب}، وهي قراءة إبراهيم بن أبي عبلة.
والثانية: :{نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَاب}، بتشديد"الزاي"، ورفع "الباء" في {الكتاب}، وهي قراءة الباقون. ووجه هذه القراءة على معنى التكثير، " لأن القرآن كان ينزل نجوما شيئا بعد شيء والتنزيل يكون مرة بعد مرة، وقال: (وأنزل التوراة والإنجيل) لأنهما نزلتا"[١٢].
قوله تعالى:{مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}[آل عمران: ٣]، أي: مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة[١٣].
قال مقاتل:" مصدق للكتب التي كَانَتْ قبله"[١٤].
قال الطبري:" يعني بذلك القرآن ، أنه مصدّق لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله ، ومحقق ما جاءت به رُسل الله من عنده، لأن منزل جميع ذلك واحد ، فلا يكون فيه اختلاف ، ولو كان من عند غيره كان فيه اختلاف كثير"[١٥].
قال السعدي:أي:" من الكتب السابقة، فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له

(١) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٦٢/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٣١):ص٥٨٦/٢-٥٨٧.
(٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٣٢):ص٥٨٧/٢.
(٤)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٣٣):ص٥٨٧/٢.
(٥)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٣٤):ص٥٨٧/٢.
(٦) انظر: النكت والعيون: ٢٦٨/١.
(٧) انظر: النكت والعيون: ٢٦٨/١.
(٨) انظر: النكت والعيون: ٢٦٧/١-٢٦٨.
(٩) انظر: النكت والعيون: ٢٦٧/١-٢٦٨.
(١٠) الكشاف: ٣٣٦/١.
(١١) انظر: الكشاف: ٧/٣.
(١٢) الكشاف: ٧/٣.
(١٣) انظر: محاسن التأويل: ٢٥٤/٢.
(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٦٢/١.
(١٥) تفسير الطبري: ١٦٠/٦.

بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم"[1].

وفي قوله تعالى:{مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}[آل عمران: ٣]، وجوه:

أحدها : أن المعنى: مصدّقًا لما قبله من كتاب ورسول. وهذا قول مجاهد[2]، وقتادة[3]، والربيع[4]، وجعفر بن الزبير[5]، وري عن الحسن مثل ذلك[6]، واختاره الطبري[7].

والثاني: معناه مخبراً بما بين يديه إخبار صدق دل على إعجازه. قاله الماوردي[8].

والثالث : معناه أنه يخبر بصدق الأنبياء فيما أتوا به على خلاف من يؤمن ببعض ويكفر ببعض قاله الماوردي[9].

والراجح هو القول الأول، لما يسنده من الروايات. والله أعلم.

قوله تعالى:{ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}[آل عمران: ٣]، أي: "وأنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى"[10].

قال قتادة:" هما كتابان أنزلهما الله: التوراة والإنجيل"[11].

قال محمد بن إسحاق: "وأنزل التوراة التي جاء بها موسى، والإنجيل الذي جاء به عيسى عليهما الصلاة والسلام"[12].

قال الصابوني: "أي: وأنزل الكتابين العظيمين «التوراة» و «الإِنجيل»"[13].

قال القاسمي:" والتوراة اسم عبرانيّ معناه (الشريعة) . والإنجيل لفظة يونانية معناها (البشرى) أي الخبر الحسن. هذا هو الصواب كما نص عليه علماء الكتابين في مصنفاتهم. وقد حاول بعض الأدباء تطبيقهما على أوزان لغة العرب واشتقاقهما منها. وهو خبط. بغير ضبط"[14].

أخرج ابن أبي حاتم " عن واثلة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشر خلت من رمضان"[15].

وقرأ الحسن : {الإنجيل} ، بفتح "الهمزة"[16]، قال الزمخشري:" وهو دليل على العجمة ، لأن "أفعيل - بفتح الهمزة - عديم في أوزان العرب"[17].

الفوائد:

١-إثبات علو الله، لقوله تعالى:{نزّل}، و{أنزل}، والنزول لايكون إلا من الأعلى.

٢-ومنها: أن القرآن الكريم منزل، قال تعالى:{نزّل عليك}، ومجرد كونه منزلا لايستلزم ألا يكون مخلوقا، لأن الله قد ينزل المخلوق، قال تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا} [ق : ٩]،

---

(١) تفسير السعدي: ١٢١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٦٥٥٤)، و(٦٥٥٥):ص٦/١٦٠-١٦١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٥٥٧):ص٦/١٦١.
(٤)انظر: تفسير الطبري(٦٥٥٨):ص٦/١٦١.
(٥)انظر: تفسير الطبري(٦٥٥٦):ص٦/١٦١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٣٦):ص٢/٥٨٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري: ٦/١٦٠.
(٨) انظر: النكت والعيون: ١/٢٦٨.
(٩) انظر: النكت والعيون: ١/٢٦٨.
(١٠) تفسير الطبري: ٦/١٦١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٣٨):ص٢/٥٨٨.
(١٢) أخرجه ابن أبي ٩حاتم(٣١٣):ص٢/٥٨٨.
(١٣) صفوة التفاسير: ١/١٦٧.
(١٤) محاسن التأويل: ٢/٢٥٤.
(١٥) تفسير ابن أبي حاتم(٣١٣٧):ص٢/٥٨٧، ومسند احمد: ٤/١٠٧.
(١٦) انظر: الكشاف: ١/٣٣٥.
(١٧) الكشاف: ١/٣٣٥-٣٣٦.

وقال: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ} [الرعد : ١٧]، والماء مخلوق، لكن بالنظر لكون القرآن كلاما يستلزم ألا يكون مخلوقا، لأن الكلام صفة المتكلم، وصفة الخالق غير مخلوقة.

نستنتج بأن القرآن غير مخلوق لكونه نزل من عند الله وهو كلام، والكلام صفة المتكلم، والصفة تابعة للموصوف.

٣-فضل رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وميزته، لقوله تعالى:{نزّل عليك الكتاب بالحق}، فأنزل القران الى الرسول مباشرة وبواسطته الينا،إذ بلّغه الينا، ومعلوم أن الأصل أشرف من الفرع.

٤-أن القرآن مشتمل على الحق، لقوله:{بالحق}، فقد جاء بالحق ونزل به، قال تعالى: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء : ١٠٥]، فالحق في الأخبار الصدق، والحق في الأحكام العدل، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام : ١١٥].

٥-فضيلة القرآن لوصفه بالحق نزولا وتضمنا، ولوصفه بالتصديق لما بين يديه.

٦-جواز التعبير بالمجاز، لقوله تعالى{لما بين يديه}، لأن الكلمة دلت على معناها في سياقها.

٧-أن التوراة النازلة على موسى، والإنجيل النازل على عيسى عليهما الصلاة والسلام حق، لقوله: :{ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ}، والإشارة أنهما نسخا بالقرآن، كما قال في سورة المائدة: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة : ٤٨].

القرآن

{مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)} [آل عمران : ٤]

التفسير:

من قبل نزول القرآن; لإرشاد المتقين إلى الإيمان، وصلاح دينهم ودنياهم، وأنزل ما يفرق بين الحق والباطل. والذين كفروا بآيات الله المنزلة، لهم عذاب عظيم. والله عزيز لا يُغَالَب، ذو انتقام بمن جحد حججه وأدلته، وتفرُّده بالألوهية.

قوله تعالى: {مِنْ قَبْلُ}[آل عمران:٤]، أي: "من قبل هذا القرآن"(١).

قال الطبري: " من قبل الكتاب الذي نزله عليك"(٢).

قال الصابوني:" من قبل إنزال هذا القرآن "(٣).

وقوله{ مِنْ قَبْلُ } متعلق بـ{أَنْزَلَ}، والمعنى: وأنزل التوراة والإنجيل من قبل تنزيل القرآن(٤).

قوله تعالى:{ هُدًى لِلنَّاسِ}[آل عمران:٤]، أي:"هدى للناس من الضلال"(٥).

قال الشعبي:" هدى من الضلالة"(٦).

قال قتادة:" بيان من الله"(٧).

وعن قتادة ايضا:" عصمة لمن أخذ به، وصدق به، وعمل بما فيه"(١).

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/٢، وانظر: تفسير النسفي: ١٤٨/١.
(٢) تفسير الطبري: ١٦١/٦.
(٣) صفوة التفاسير: ١٦٧/١.
(٤) انظر: محاسن التأويل: ٢٥٥/٢.
(٥) تفسير السعدي: ١٢١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٤٠):ص٥٨٨/٢.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٤١):ص٥٨٨/٢.

قال الثعلبي:" هاد لمن تبعه"[٢].
قال ابن كثير:" أي : في زمانهما"[٣].
قال الصابوني:أي:" هداية لبني إسرائيل"[٤].
قال الطبري: أي:"بيانًا للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله وتصديق رسله ، ونَعْتِيك يا محمد بأنك نبيّى ورسولى، وفي غير ذلك من شرائع دين الله"[٥].
قال ابن عطية:"وقال ابن فورك: التقدير هنا :هدى للناس المتقين، ويرد هذا العام إلى ذلك الخاص، وفي هذا نظر"[٦].
قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ}[آل عمران: ٥]، أي: وأنزل ما فرق بين الحق والباطل[٧].
قال مقاتل:" يعني القرآن بعد التوراة والإنجيل، والفرقان: يعني به المخرج في الدين من الشبهة والضلالة، فيه بيان كل شيء يكون إلى يوم القيامة نظيرها في الأنبياء ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان [٨] يعنى المخرج من الشبهات وفى البقرة"[٩].
قال الطبري:" وأنزل الفصْل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزابُ وأهلُ الملل في أمر عيسى وغيره"[١٠].
قال النسفي:" أي جنس الكتب لأن الكل يفرق بين الحق والباطل"[١١].
قال ابن كثير:"وهو الفارق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والغي والرشاد ، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات ، والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ، ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك"[١٢].
قال السعدي:" أي: الحجج والبينات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جلية ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته"[١٣].
وفي تفسير{ الْفُرْقَانَ} في هذه الآية وجوه:
أحدها: أنه القرآن. فرق بين الحق والباطل، قاله الربيع[١٤]. وروي عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان[١٥]نحو ذلك[١٦]، وهو قول الجمهور.
قال أهل العلم: وإنما كرر ذكر "القرآن" بما هو نعت له، ومدح له، من كونه فارقا بين الحق والباطل، بعد ما ذكره باسم الجنس، تعظيما لشأنه، وإظهارا لفضله"[١٧].
وقال الرازيّ: "أو يقال إنه تعالى أعاد ذكره ليبيّن أنه أنزله بعد التوراة والإنجيل، ليجعله فرقا بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل"[١]. وعلى هذا التقدير فلا تكرار.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٤٢):ص٥٨٨/٢.
(٢) تفسير الثعلبي: ٩/٣.
(٣) تفسير ابن كثير: ٥/٢.
(٤) صفوة التفاسير: ١٦٧/١.
(٥) تفسير الطبري: ١٦١/٦-١٦٢.
(٦) المحرر الوجيز: ٣٩٩/١.
(٧)انظر: معاني القرآن للزجاج: ١/ ٣٧٥،ومعاني القرآن للنحاس: ١/ ٣٤٣، وتفسير البغوي: ٢/ ٦.
(٨)سورة الأنبياء: ٤٨ وتمامها: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ}.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٦٢/١.
(١٠) تفسير الطبري: ١٦٢/٦.
(١١) تفسير النسفي: ١٤٨/١.
(١٢) تفسير ابن كثير: ٥/٢.
(١٣) تفسير السعدي: ١٢١.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٤٥):ص٥٨٨/٢.
(١٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٢٦/١.
(١٦)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٤٥)، و(٣١٤٦):ص٥٨٨/٢-٥٨٩. قاله دون ذكر السند.
(١٧) انظر: محاسن التأويل: ٢٥٥/٢.

والثاني: أنه خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش. قاله سعيد بن جبير[٢].
والثالث: أنه التوراة. قاله أبو صالح[٣]. ورده ابن كثير؛ نظرا لتقدم ذكر التوراة[٤].
والرابع: أنه كتاب بحق. قاله الحسن[٥].
والخامس: أنه الزبور. كما قال تعالى : {وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا}[النساء: ١٦٣][٦].
والسادس: أن في الآية تقديم وتأخير تقديره: "وأنزل التوراة والانجيل والفرقان فيه هدى للناس". قاله السدي[٧].
السابع: يريد به جميع الكتب، لأنه فرّق فيها بين الحق والباطل. قاله ابن باس في رواية عطاء عنه[٨].
قال الزمخشري: أنه "جنس الكتب السماوية، لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل"[٩] .
واختلف في سبب تسمية القرآن بـ{الفرقان} على أقوال[١٠]:
أحدها: أنه سمي بذلك، لأنه فرق بين الحق والباطل في أمر عيسى عليه السلام، الذي جادل فيه الوفد. قاله محمد بن جعفر[١١]، وأبو سليمان الدمشقي[١٢].
الثاني: أنه فرق بين الحق والباطل في أحكام الشرائع، وفي الحلال والحرام ونحوه. قاله قتادة والربيع وغيرهما[١٣].
الثالث: "أن الْفُرْقانَ هنا كل أمر فرق بين الحق والباطل، فيما قدم وحدث، فيدخل في هذا التأويل طوفان نوح، وفرق البحر لغرق فرعون، ويوم بدر، وسائر أفعال الله تعالى المفرقة بين الحق والباطل، فكأنه تعالى ذكر الكتاب العزيز، ثم التوراة والإنجيل، ثم كل أفعاله ومخلوقاته التي فرقت بين الحق والباطل، كما فعلت هذه الكتب. حكاه ابن عطية عن بعض المفسرين[١٤].
قال ابن عطية:" والْفُرْقانَ يعم هذا كله"[١٥].
قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}[آل عمران: ٥]، أي: إن الذين جحدوا بها وأنكروها ، وردّوها بالباطل، لهم عذاب شديد يوم القيامة[١٦].
قال الربيع بن أنس:" يعني: النصارى"[١٧].
قال السدي:" قوله: {بآيات الله}، بمحمد صلى الله عليه وسلم"[١٨].
قال الطبري:" إنّ الذين جحدوا أعلام الله وأدلته على توحيده وألوهته ، وأن عيسى عبدٌ له ، واتخذوا المسيح إلهًا وربًّا ، أو ادَّعوه لله ولدًا ، لهم عذاب من الله شديدٌ يوم القيامة"[١].

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٣٣/٧.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٤٤):ص٥٨٨/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٤٨):ص٥٨٩/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٦/٢.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٤٧):ص٥٨٩/٢.
(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٢٨٧/٢، والكشاف: ٣٣٦/١.
(٧) انظر: زاد المسير: ٣٥٠/١.
(٨) انظر: التفسير البسيط، الواحدي: ٢٩/٥، ولم لأقف على مصدر هذه الرواية فيما توفرت عندي من المصادر.
(٩)الكشاف: ٣٣٦/١.
(١٠) انظر: المحرر الوجيز: ٣٣٩/١.
(١١)انظر: المحرر الوجيز: ٣٣٩/١.
(١٢) انظر: زاد المسير: ٣٥٠/١.
(١٣) نظر: المحرر الوجيز: ٣٩٩/١.
(١٤)انظر: المحرر الوجيز: ٣٣٩/١.
(١٥)المحرر الوجيز: ٣٣٩/١.
(١٦) انظر: تفسير ابن كثير: ٦/٢.
(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٤٩):ص٥٨٩/٢.
(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٥٠):ص٥٨٩/٢.

قال الصابوني: أي: "جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل، لهم عذاب عظيم أليم في الآخرة"(٢).

قال القاسمي:" وهذا الوعيد. جيء به إثر ما تقدم حملا على الإذعان، وزجرا عن العصيان"(٣).

وفي قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ }[آل عمران:٤]، وجهان من التفسير(٤) :

أحدهما : بدلائله وحججه .

والثاني : بآيات القرآن ، قال ابن عباس: "يريد وفد نجران حين قَدِموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم – لمحاجّته"(٥).

والراجح أنه"عام داخل فيه من نزلت الآيات بسببهم ، وهم نصارى وفد نجران"(٦).

قوله تعالى:{ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ }[آل عمران: ٥]، " أي غالب على أمره لا يُغلب، منتقم ممن عصاه"(٧).

قال الواحدي:" أي: [ينتقم] ممن كفر به، لأن ذكر الكافرين جرى ههنا"(٨).

قال القاسمي:" وَاللَّهُ عَزِيزٌ لا يغالب يفعل ما يشاء ذُو انْتِقامٍ أي معاقبة"(٩).

قال محمد بن جعفر:" أي : إن الله منتقم ممن كفرَ بآياته بعد علمه بها ، ومعرفته بما جاء منه فيها"(١٠).

قال ابن عطية:" والنقمة والانتقام، معاقبة المذنب بمبالغة في ذلك"(١١).

قال البيضاوي:" وَاللَّهُ عَزِيزٌ غالب لا يمنع من التعذيب. ذُو انْتِقامٍ لا يقدر على مثله منتقم، والنقمة عقوبة المجرم ...وهو وعيد جيء به بعد تقرير التوحيد والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النبوة تعظيماً للأمر، وزجراً عن الإعراض عنه"(١٢).

قال الزمخشري:" انتقام شديد لا يقدر على مثله منتقم"(١٣).

وفي قوله تعالى:{وَاللهُ عَزِيزٌ}[آل عمران: ٤] وجهان(١٤):

أحدهما : في امتناعه .

الثاني : في قدرته .

الفوائد:

١-إثبات الحكمة لله تعالى في احكامه الشرعية كما تثبت في احكامه الكونية، لقوله:{هدى للناس}.

٢-أن هداية القرآن نوعان: عامة بمعنى الدلالة عامة، مثل قوله تعالى:{هدى للناس}، وهداية خاصة بمعنى التوفيق والاهتداء، مثل قوله تعالى: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة : ٢].

---

(١) تفسير الطبري: ١٦٤/٦.
(٢) صفوة التفاسير: ١٦٧/١. [بتصرف بسيط].
(٣) محاسن التأويل: ٢٥٥/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون: ٣٦٩/١.
(٥) حكاه عنه الماوردي، انظر: النكت والعيون: ٣٦٩/١.
(٦) البحر المحيط: ٢٨٧/٢.
(٧) صفوة التفاسير: ١٦٧/١. [بتصرف بسيط].
(٨) التفسير البسيط: ٢٩/٥.
(٩) محاسن التأويل: ٢٥٥/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(٦٥٦٤):ص١٦٥/٦.
(١١) المحرر الوجيز: ٣٣٩/١.
(١٢) تفسير البيضاوي: ٥/٢.
(١٣) الكشاف: ٣٣٦/١.
(١٤) انظر: النكت والعيون: ٣٦٩/١.

٣-أن الكتب كلها فرقان تتضمن الفرق بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، وبين المرمن والكافر، وبين الضار والنافع، فإن الكتب تفرقه.
٤-بيان عقوبة الكافر وهي العذاب الشديد، وذكر عقوبة الكافر تستلزم التحذير من الكفر.
٥- الإشارة إلى أن الناس ينقسمون إلى قسمين: كافر له العذاب الشديد، ومؤمن له الثواب الجزيل، لأنه إذا ذكر عقوبة الضد، فإن ضده تثبت له ضد تلك العقوبة.
٦-إثبات اسم من أسماء الله، وهو{العزيز}، أي ذو عزة، وهي ثلاثة أصناف:
أ-عزة القدر، بمعنى أن الله ذو قدر شريف عظيم، قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم- "السيد الله"[1]، فهذه عزة القدر.
ب-عزة القهر: بمعنى أنه القاهر لكل شيء، لا يغلب، بل هو الغالب، قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام : ٦١].
ت-عزة الامتناع: أنه عزّ وجلّ يمتنع أن يناله سوء أو نقص، ومن هذا قولهم: هذا ارض عزاز، أي: صلب قوية لاتؤثر فيها المعاول.
٧-إن صفة الانتقام لله تعالى ليست على سبيل الإطلاق، بل هو منتقم ممن يستحق ذلك، وهم المجرمون كما قال تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} [السجدة : ٢٢].

القرآن
{إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)} [آل عمران : ٥]
التفسير:
إن الله محيط علمه بالخلائق، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قلَّ أو كثر.
قوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ}[آل عمران: ٥]، " إن الله لا يخفى عليه شيء هو في الأرض ولا شيء هو في السماء"[2].
قال الزمخشري: عيّر عن [العالم] بالسماء والأرض ، فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن وهو مجازيهم عليه"[3].
قال محمد بن جعفر بن الزبير : " أي : قد علم ما يريدون وما يَكيدون وما يُضَاهون بقولهم في عيسى ، إذ جعلوه ربًّا وإلهًا ، وعندهم من علمه غيرُ ذلك ، غِرّةً بالله وكفرًا به"[4].
قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماوات والأرض ، ولا يخفى عليه شيء من ذلك"[5].
قال ابن عطية:" هذه الآية خبر عن علم الله تعالى بالأشياء على التفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى ولا لأحد من المخلوقين"[6].
قال القاسمي:" أي هو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه"[7].
قال البيضاوي:" وإنما قدم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها. وهو كالدليل على كونه حياً"[8].
الفوائد:
١-التحذير من مخالفة الله، لأن الله يعلم بمخالفتك إياه.

(١) أخرجه احمد:٤/٢٤-٢٥، والبخاري في الأدب المفرد:٢١١.
(٢) تفسير الطبري: ١٦٦/٦,
(٣) الكشاف:٣٣٦/١.
(٤) أخرجه الطبري(٦٥٦٦):ص:١٦٦/٦.
(٥) تفسير ابن كثير:٦/٢.
(٦)المحرر الوجيز: ٤٠٠/١-٤٠١.
(٧) محاسن التأويل:٢٥٥/٢.
(٨) تفسير البيضاوي: ٦/٢.

٢-الرد على غلاة القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم الشيء الذي يفعله العبد إلا بعد وقوعه.

٣-إن الله عالم بالكليات والجزئيات، لقوله تعالى:{شيء}، لأن النكرة في سياق النفي تعم كل شيء.

٤-إن صفات الله إما مثبتة أو منفية، فالمثبتة يسمونها: ثبوتية، والمنفية يسمونها سلبية، والسلبية متضمنة لثبوت كمال الضد، فلكمال علمه لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

القرآن

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)} [آل عمران : ٦]

التفسير:

هو وحده الذي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، لا معبود بحق سواه، العزيز الذي لا يُغالب، الحكيم في أمره وتدبيره.

قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}[آل عمران:٦]، أي: " الله الذي يصوّركم فيجعلكم صورًا أشباحًا في أرحام أمهاتكم كيف شاء وأحب"[١].

قال ابن كثير:"أي : يخلقكم كما يشاء في الأرحام من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ،وشقي وسعيد"[٢].

قال محمد بن جعفر:"أي : قد كان عيسى ممن صُوّر في الأرحام ، لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه ، كما صُوّر غيره من بني آدم ، فكيفَ يكون إلهًا وقد كان بذلك المنزل ؟"[٣]. وروي عن الربيع نحو ذلك[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم والطبري عن السدي في قوله:{هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء} قال: "إذا وقعت النطفة في الرحم [طارت في الجسد أربعون يوما][٥] ثم تكون علقة أربعين يوما، ثم تكون مضغة أربعون يوما، فإذا بلغ أن يخلق، بعث الله ملكا يصورها، فيأتي الملك بتراب بين أصبعيه فيخلط في المضخة، ثم يعجنه بها، ثم يصورها كما يؤمر فيقول: أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ وما رزقه؟ وما عمره؟ وما أثره؟ وما مصائبه؟ فيقول الله تعالى، ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد، دفن حيث أخذ ذلك التراب"[٦].

وعن قتادة قوله: {كيف يشاء}، قال: من ذكر أو أنثى، وأحمر وأسود وتام وغير تام الخلق"[٧].

قوله تعالى:{ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران: ٦]، "أي: لا ربّ سواه، متفردٌ بالوحدانية والألوهية، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه"[٨].

عن ابن عباس قوله: {لا إله إلا هو}، قال: توحيد"[٩].

وعن محمد بن إسحاق، قوله: {العزيز}: في نصرته مم كفر به إذا شاء"[١٠]، [و]"قوله: {الحكيم}: في عذره وحجته إلى عباده"[١].

---

(١) تفسير الطبري: ١٦٦/٦.
(٢) تفسير ابن كثير: ٦/٢.
(٣) أخرجه الطبري(٦٥٦٧):ص١٦٧/٦.
(٤) انظر: الطبري(٦٥٦٨):ص١٦٧/٦.
(٥) إضافة عن الطبري(٦٥٦٩):ص١٦٧/٦.
(٦) تفسير ابن ابي حاتم(٣١٥٧):ص٥٩٠/٢، وتفسير الطبري(٦٥٦٩):١٦٧/٦.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٥٩):ص٥٩١/٢، والطبري(٦٥٧٠):ص١٦٨/٦.
(٨) صفوة التفاسير: ١٦٧/١.
(٩)أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٦٠):ص٥٩١/٢.
(١٠)أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٦١):ص٥٩١/٢.

وعن أبي العالية قوله تعالى: {العزيز}، يقول: عزيز في نعمته إذا انتقم"[٢]، [وقوله] "{الحكيم}، قال: حكيم في أمره"[٣].

قال الطبري:" وهذا القول تنزيه من الله تعالى ذكره نفسَه أن يكون له في ربوبيته ندّ أو مِثل ، أو أن تَجوز الألوهة لغيره وتكذيبٌ منه للذين قالوا في عيسى ما قالوا ، من وفد نجران الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسائر من كان على مثل الذي كانوا عليه من قولهم في عيسى ، ولجميع من ادّعى مع الله معبودًا ، أو أقرّ بربوبية غيره"[٤].

قال ابن كثير:" وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق ، كما خلق الله سائر البشر ؛ لأن الله تعالى صوره في الرحم وخلقه ، كما يشاء ، فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى - عليهم لعائن الله - وقد تقلب في الأحشاء ، وتنقل من حال إلى حال ، كما قال تعالى :{يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }[الزمر : ٦]"[٥].

الفوائد:

١-من فوائد الآية بيان قدرة الله عز وجل إذ يصور المخلوقات في الأرحام.

٢-يكون تصوير المخلوقات في الأرحام بأمر الله وإذنه كيف يشاء.

٣-بيان رحمة الله تعالى إذ يتولى شؤون الجنين ويصوره، ويستفاد منها ان هذا التصوير لا يرجع إلى فعل العبد وإنما يرجع لمشيئة الله تعالى.

٤-إثبات المشيئة لله تعالى، لقوله:{كيف يشاء}، والمشيئة إذا اطلقت فهي مقرونة بالحكمة، فما من شيء يشاؤه الله إلا لحكمة.

٥-إثبات انفراد الله عزّ وجلّ بالألوهية، لقوله:{لا إله إلا هو}.

٦-إثبات الاسمين الكريمين:"العزيز الحكيم"، وما تضمناه من صفة، وكل اسم من أسماء الله دال على الذات وعلى الوصف المشتق منه. فإن كان متعديا ففيه دلالة ثالثة وعي الأثر المترتب على ذلك.

القرآن

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)} [آل عمران : ٧]

التفسير:

هو وحده الذي أنزل عليك القرآن: منه آيات واضحات الدلالة، هن أصل الكتاب الذي يُرجع إليه عند الاشتباه، ويُرَدُّ ما خالفه إليه، ومنه آيات أخر متشابهات تحتمل بعض المعاني، لا يتعيَّن المراد منها إلا بضمها إلى المحكم، فأصحاب القلوب المريضة الزائغة، لسوء قصدهم يتبعون هذه الآيات المتشابهات وحدها; ليثيروا الشبهات عند الناس، كي يضلوهم، ولتأويلهم لها على مذاهبهم الباطلة. ولا يعلم حقيقة معاني هذه الآيات إلا الله. والمتمكنون في العلم يقولون: آمنا بهذا القرآن، كله قد جاءنا من عند ربنا على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويردُّون متشابهه إلى محكمه، وإنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح أولو العقول السليمة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٦٣):ص٢/٥٩١.

(٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٦٢):ص٢/٥٩١.

(٣)أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٦٤):ص٢/٥٩١.

(٤) تفسير الطبري: ٦/١٦٨.

(٥)تفسير ابن كثير: ٢/٦.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ}[آل عمران:٧]، أي: الله الذي أنزل عليك يا محمد القرآن[١].

قال سعيد بن جبير:" يعني: القرآن"[٢].

قوله تعالى:{مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}[آل عمران:٧]، " أي: فيه آيات بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام، هنَّ أصل الكتاب وأساسه"[٣].

قال القاسمي: أي:"واضحات الدلالة هُنَّ أصل الكتاب المعتمد عليه في الأحكام"[٤].

قال الطبري: "وإنما سماهن {أمّ الكتاب}، لأنهن معظم الكتاب ، وموضع مَفْزَع أهله عند الحاجة إليه ، وكذلك تفعل العرب ، تسمي الجامعَ معظم الشيء " أمًّا " له، فتسمى راية القوم التي تجمعهم في العساكر : " أمّهم " ، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة :" أمها""[٥].

قوله تعالى:{ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}[آل عمران:٧]، أي:" وآيات أخر محتمِلاتٌ لمعانٍ متشابهة"[٦].

قال الطبري:" فإن معناه : متشابهات في التلاوة ، مختلفات في المعنى ، كما قال جل ثناؤه : { وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا } [سورة البقرة : ٢٥] ، يعني في المنظر ، مختلفًا في المطعم، وكما قال مخبرًا عمن أخبر عنه من بني إسرائيل أنه قال : {إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا } [سورة البقرة : ٧٠] ، يعنون بذلك : تشابه علينا في الصفة ، وإن اختلفت أنواعه"[٧].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}[آل عمران: ٧] على أقاويل[٨]:

أحدها : أن المحكم الناسخ ، والمتشابه المنسوخ ، قاله ابن عباس[٩]، وابن مسعود[١٠]، وقتادة[١١]، والربيع[١٢] والضحاك[١٣].

والثاني : أن المحكم ما أحكم الله بيان حلاله وحرامه فلم تشتبه معانيه ، قاله مجاهد[١٤] .

والثالث : أن المحكم ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً ، قاله الشافعي[١٥] ومحمد بن جعفر بن الزبير[١٦] .

والرابع : أن المحكم الذي لم تتكرر ألفاظه ، والمتشابه الذي تكررت ألفاظه ، قاله ابن زيد[١٧].

والخامس : أن المحكم الفرائض والوعد والوعيد ، والمتشابه القصص والأمثال[١٨].

---

(١) انظر :تفسير الطبري: ١٧٠/٦، وصفوة التفاسير: ١٦٧/١.
(٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٦٥):ص٥٩١/٢.
(٣) صفوة التفاسير: ١٦٧/١.
(٤) محاسن التأويل: ٢٥٦/٢.
(٥) تفسير الطبري: ١٧٠/٦.
(٦) تفسير أبي السعود: ٧/٢.
(٧) تفسير الطبري: ١٧٣/٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ١٧٤/٦ ومابعدها، والنكت والعيون: ٣٦٩/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٦٥٧٣):ص١٧٤/٦.
(١٠)انظر: تفسير الطبري(٦٥٧٦):ص١٧٥٤/٦.
(١١)انظر: تفسير الطبري(٦٥٧٧):ص١٧٥/٦.
(١٢)انظر: تفسير الطبري(٦٥٧٩):ص١٧٥/٦-١٧٦.
(١٣)انظر: تفسير الطبري(٦٥٨٠)-(٦٥٨٤):ص١٧٦/٦.
(١٤)انظر: تفسير الطبري(٦٥٨٥)، (٦٥٨٦):ص١٧٧/٦.
(١٥) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ٣٦٩/١، ولم اجده في تفسير الشافعي.
(١٦) نظر: تفسير الطبري(٦٥٨٧):ص١٧٧/٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٦٥٨٨):ص١٧٨/٧.
(١٨) انظر: النكت والعيون: ٣٦٩/١.

والسادس : أن المحكم ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره ، والمتشابه ما لم يكن إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج عيسى ونحوه ، وهذا قول جابر بن عبد الله(١)، واختاره الطبري(٢).

والسابع : أن المحكم ما قام بنفسه ولم يحتج إلى استدلال(٣) .

والثامن: أن المحكم ما كانت معاني أحكامه معقولة ، والمتشابه ما كانت معاني أحكامه غير معقولة ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام بشهر رمضان دون شعبان . قاله الماوردي(٤) .

وفي قوله تعالى:{هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}[آل عمران: ٧] وجهان :

أحدهما : أصل الكتاب . قاله سعيد بن جبير(٥).

والثاني : معلوم الكتاب(٦) .

وفي سبب تسميته بأم الكتاب قولان:

الأول: وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب. قاله سعيد بن جبير(٧).

والثاني : وإنما قال: هن أم الكتاب، لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن(٨).

وفي المراد بقوله تعالى:{هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}[آل عمران: ٧] ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه أراد الآي التي فيها الفرائض والحدود(الأمر والنهي والحلال) ، قاله يحيى بن يعمر(٩).

والثاني : أنه أراد فواتح السُّوَر التي يستخرج منها القرآن ، وهو قول أبي فاختة(١٠) .

والثالث : أن يريد به أنه معقول المعاني لأنه يتفرع عنه ما شاركه في معناه ، فيصير الأصل لفروعه كالأم لحدوثها عنه ، فلذلك سماه أم الكتاب(١١).

قوله تعالى:{ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}[آل عمران:٧]، أي:"فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وانحرافٌ عنه"(١٢).

قال الزمخشري:" هم أهل البدع"(١٣).

وفي تفسيرالـ{زيغ} في قوله تعالى:{ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}[آل عمران:٧] وجهان من التفسير :

أحدهما : أنه ميل عن الهدى . قاله محمد بن إسحاق(١٤).

والثاني : أن المعنى :شكّ ، قاله ابن مسعود(١٥)، ومجاهد(١٦) والسدي(١٧).

واختلف فيمن عني بهذه الآية على أقوال:

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٤٦):ص١/٢١٥-٢١٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦/١٨٠.
(٣)انظر: النكت والعيون: ١/٣٦٩.
(٤)انظر: النكت والعيون: ١/٣٦٩.
(٥) انظر :تفسير ابن أبي حاتم(٣١٧٣):ص٢/٥٩٣.
(٦) انظر: النكت والعيون: ١/٣٧٠.
(٧) انظر :تفسير ابن أبي حاتم(٣١٧٣):ص٢/٥٩٣.
(٨) انظر :تفسير ابن أبي حاتم(٣١٧٣):ص٢/٥٩٣.
(٩) انظر :تفسير ابن أبي حاتم(٣١٧٢):ص٢/٥٩٣.
(١٠) انظر :تفسير ابن أبي حاتم(٣١٧٢):ص٢/٥٩٣.
(١١) انظر: النكت والعيون: ١/٣٧٠.
(١٢) تفسير الطبري: ٦/١٨٣.
(١٣) الكشاف: ١/٣٣٨.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٨٣):ص٢/٥٩٥.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٦٥٩٦):ص٦/١٨٤.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٦٥٩٣):ص٦/١٨٤.
(١٧)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٨١):ص٢/٥٩٥.

أحدها: أنهم أهل الشك. قاله ابن عباس(١).
والثاني: أنهم المنافقون. قاله ابن جريج(٢).
والثالث: أنه يعني: حيي بن أخطب، وأصحابه من اليهود. قاله مقاتل بن حيان(٣).
والرابع: أنهم الخوارج. رواه أبو أمامة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم-(٤).
والخامس: أنه عُني به الوفدُ من نصارى نجران الذين قَدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاجُّوه بما حاجُّوه به ، وخاصموه بأن قالوا : ألست تزعم أنّ عيسى روح الله وكلمته ؟ وتأولوا في ذلك ما يقولون فيه من الكفر. وهذا قول الربيع(٥).
قوله تعالى: { فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ}[آل عمران: ٧] ، أي:" فيتبع المتشابه منه ويفسّره على حسب هواه"(٦).
قال ابن كثير:"أي : إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها ، لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم"(٧).
قال الزمخشري:" فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق"(٨).
وفي قوله تعالى:{ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ}[آل عمران: ٧] ثلاثة تأويلات(٩) :
أحدها : أنه الأجل الذي أرادت اليهود أن تعرفه من الحروف المقطعة من حساب الجُمّل في انقضاء مدة النبي - صلى الله عليه وسلم -.
والثاني : أنه معرفة عواقب القرآن في العلم بورود النسخ قبل وقته .
والثالث : أن ذلك نزل في وفد نجران لمَّا حاجّوا النبي - صلى الله عليه وسلم - في المسيح ، فقالوا : أليس كلمة الله وروحه ؟ قال: " بلى " فقالوا : حسبنا ، فأنزل الله تعالى : { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ } وهو قول الربيع(١٠).
قوله تعالى:{ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ}[آل عمران: ٧]، أي:"إرادة الفتنة"(١١).
قال الزمخشري:" طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم"(١٢).
قال الصابوني:" أي طلباً لفتنة الناس في دينهم"(١٣).
قال ابن كثير:" أي : الإضلال لأتباعهم ، إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهذا حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى:{ إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ } [الزخرف : ٥٩] وبقوله : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ

(١) انظر: تفسير الطبري(٦٥٩٥):ص٦/١٨٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٦٥٩٧):ص٦/١٨٤.
(٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٨٢١):ص٢/٥٩٥.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٧٩):ص٢/٥٩٤، وانظر: (٣١٨٩):ص٢/٥٩٤-٥٩٥.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٦٦٠٢):ص٦/١٨٦-١٨٧.
(٦) صفوة التفاسير: ١/١٦٧.
(٧) تفسير ابن كثير: ٢/٨.
(٨) الكشاف: ١/٣٣٨.
(٩)انظر: النكت والعيون: ١/٣٧٠-٣٧١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣١٨٧):ص٢/٥٩٦-٥٩٧.
(١١) تفسير ابن أبي حاتم(٣١٨٩):ص٢/٥٩٦. قاله السدي.
(١٢) الكشاف: ١/٣٣٨.
(١٣) تفسير الصابوني: ١/١٦٧.

فَيَكُونُ } [آل عمران : ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله ، وعبد ، ورسول من رسل الله"[١].

وفي قوله تعالى:{ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ}[آل عمران: ٧] خمسة تأويلات :

أحدها : الشرك ، قاله السدي[٢]، والربيع[٣].

والثاني : اللّبْس . قاله محمد بن إسحاق[٤]، ومحمد بن جعفر[٥].

والثالث: ابتغاء الشبهات ، قاله مجاهد[٦].

الرابع : الشبهات التي حاجّ بها وفد نجران[٧] .

الخامس : إفساد ذات البَيْن[٨] .

قوله تعالى: { وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [آل عمران:٧]، "وإيهاماً للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله"[٩].

قال ابن كثير:"أي : تحريفه على ما يريدون"[١٠].

قال الزمخشري:" وطلب أن يأوّلوه التأويل الذي يشتهونه"[١١].

وفي قوله تعالى:{ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}[آل عمران: ٧] في التأويل وجهان :

أحدهما : أنه التفسير .

والثاني : أنه العاقبة المنتظرة .

قوله تعالى: قوله تعالى:{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ}[آل عمران:٧]، " أي لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده"[١٢].

قال الزمخشري:" أي لا يهتدى[١٣] إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا اللّه"[١٤].

وفي قوله تعالى:{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ}[آل عمران:٧] ثلاثة أقاويل :

أحدها : تأويل جميع المتشابه ، لأن فيه ما يعلمه الناس ، وفيه ما لا يعلمه إلا الله ، قاله الحسن[١٥].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٨/٢.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٩٠):ص٥٩٦/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٦١٧):ص١٩٦/٦.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٩٠):ص٥٩٦/٢.
(٥)انظر: تفسير الطبري(٦٦٢١):ص١٩٧/٦.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣١٩٢):ص٥٩٧/٢.
(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٧١/١.
(٨)انظر: النكت والعيون: ٣٧١/١.
(٩) صفوة التفاسير: ١٦٧/١.
(١٠)تفسير ابن كثير: ٨/٢.
(١١) الكشاف: ٣٣٨/١.
(١٢) صفوة التفاسير: ١٦٨/١.
(١٣) قال المحقق رحمه اللّه : وقوله «لا يهتدى إليه إلا اللّه» عبارة قلقة ، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم اللّه تعالى ، مع أن في هذه اللفظة إيهاما إذ الاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جبل وضلال - جل اللّه وعز - حتى إن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه : فلان المهتدى ، ذلك مقتضى اللغة فيه فانه مطاوع هدى. يقال : هديته فاهتدى ، والإجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه وكان موهما لا يجوز إطلاقه على اللّه عز وجل. ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم اللّه تعالى حيث حد مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه. فلأن ينكر على الزمخشري إطلاق الاهتداء على علم اللّه تعالى أجدر. وما أراها صدرت منه إلا وهما حيث أضاف العلم إلى اللّه تعالى وإلى الراسخين في العلم ، فأطلق الاهتداء على الراسخين ، أو عقل عن كونه ذكرهم مضائين إلى اللّه تعالى في الفعل المذكور واللّه أعلم.[حاشية الكشاف: ٣٣٨/١].
(١٤) الكشاف: ٣٣٨/١.
(١٥) انظر: النكت والعيون: ٣٧١/١.

والثاني : أن تأويله يوم القيامة لما فيه من الوعد والوعيد ، كما قال الله تعالى :{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَومَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ}[الأعراف : ٥٣] يعني يوم القيامة ، قاله ابن عباس [١].

والثالث : تأويله وقت حلوله ، قاله بعض المتأخرين[٢].

وقرأ عبد اللّه : "إن تأويله إلا عند اللّه"[٣].

قوله تعالى:{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}[آل عمران: ٧]، " أي والثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله"[٤].

قال الطبري: أي:"صدقنا بما تشابه من آي الكتاب ، وأنه حقّ وإن لم نَعلم تأويله"[٥].

قال ابن عباس:" يعني: ما نسخ وما لم ينسخ"[٦]، وروي عن عائشة والسدي نحو ذلك[٧].

روي عن الضحاك : "{والراسخون في العلم يقولون آمنا به}، قال : المحكم والمتشابه"[٨].

وعنه أيضا:" {والراسخون في العلم يقولون آمنا به}، نعمل بمحكمه ونؤمن بمتشابهه: ولا نعمل به، يعني: بمتشابهه"[٩].

قال قتادة:" آمنوا بمتشابهه وعملوا بمحكمه، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه"[١٠].

قال الطبري:" العلماء الذين قد أتقنوا علمهم ووَعَوْه فحفظوه حفظًا ، لا يدخلهم في معرفتهم وعلمهم بما علموه شكّ ولا لبس"[١١].

وري عن أبي الدرداء وأبي أمامة قالا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن الراسخ في العلم ؟ قال : " من بَرَّت يمينهُ ، وصَدَقَ لسانه ، واستقام به قلبه ، وعفّ بطنه ، فذلك الراسخُ في العلم"[١٢].

وفي قوله تعالى:{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ }[آل عمران:٧] وجهان [١٣]:

أحدهما : يعني الثابتين فيه ، العاملين به .

والثاني : يعني المستنبطين للعلم والعاملين ، وفيهم وجهان [١٤]:

أحدهما : أنهم داخلون في الاستثناء ، وتقديره : أن الذي يعلم تأويله الله والراسخون في العلم جميعاً .

روى ابن أبي نجيح عن ابن عباس أنه قال : "أنا ممن يعلم تأويله"[١٥] .

الثاني : أنهم خارجون من الاستثناء ، ويكون معنى الكلام : ما يعلم تأويله إلا الله وحده ، ثم استأنف فقال {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} .

وقرأ أبيّ : «ويقول الراسخون»[١٦].

قوله تعالى:{ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا}[آل عمران: ٧]، "أي كلّ من المتشابه والمحكم حقٌ وصدق لأنه كلام الله"[١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٦٦٢٣):ص١٩٩/٦.
(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٧١/١.
(٣) الكشاف: ٣٣٩/١.
(٤) صفوة التفاسير: ١٦٨/١.
(٥) تفسير الطبري: ٢٠٨/٦.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢١٤):ص٦٠٠/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢١٤):ص٦٠٠/٢.
(٨) أخرجه الطبري(٦٦٤٢):ص٢٠٨/٦.
(٩)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢١٦):ص٦٠٠/٢-٦٠١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢١٥):ص٦٠٠/٢.
(١١) تفسير الطبري: ٢٠٦/٦.
(١٢) أخرجه الطبري(٦٦٣٧):ص٢٠٦/٦.
(١٣) نظر: النكت والعيون: ٣٧٢/١.
(١٤) نظر: النكت والعيون: ٣٧٢/١.
(١٥) أخرجه الطبري(٦٦٣٢):ص٢٠٣/٦.
(١٦) الكشاف: ٣٣٩/١.

قال الزمخشري:" أي كل واحد منه ومن المحكم من عنده ، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند اللّه الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه"(٢).

ويحتمل قوله تعالى:{ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا}[آل عمران: ٧] جهين (٣):

أحدهما : علم ذلك عند ربنا .

والثاني : ما فصله من المحكم والمتشابه ، فنزل من عند ربنا .

قوله تعالى:{ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }[آل عمران: ٧]، "أي ما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة"(٤).

قال مقاتل بن حيان:" إلا كل ذي لبّ"(٥).

قال السعدي:" أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة"(٦).

الفوائد:

١-من فوائد الآية الكريمة أن القرآن كلام الله، لقوله تعالى{هو الذي أنزل عليم الكتاب}، وكلام الله ليس مخلوقا بل صفته عزّ وجلّ.

٢-إثبات علو الله تعالى، لقول:{أنزل}، والإنزال لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، فالله فوق كل شيء.

٣- إن القرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه، لقوله تعالى{ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}.

٤- وحوب الرجوع إلى المحكم لإزالة الشبهة، لقوله: {هنّ أمّ الكتاب}، يعني مرجعه، وهذا لايختص بالقرآن، بل حتى في السنة، إذا وحت احاديث متشابهة واحاديث محكمة واضحة، فالواجب رد المتشابه إلى المحكم ليكون الجميع محكما.

٥-حكمة الله في جعل القرآن ينقسم إلى قسمين: ووجه الحكمة انه بهذا يحصل الابتلاء والامتحان، فلامؤمن لايضل بهذا الانقسام، والذي في قلبه زيغ يضل.

٦-الابتعاد عن إيراد الآيات المتشابهات دون بيان إشكالها، لأنه يؤدي إلى الحيرة والشك.

٧-ومن الفوائد: فضيلة الرسوخ في العلم، وهو الثبات فيه والتعمق فيه حتى تصل إلى جذوره، لقوله تعالى:{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ }.

٨-ومنها: أن مقتضى الربوبية أن الله ينزل على عباده كتابا لا كون فيه اختلاف يوقعهم في الشك و الاشتباه، لقوله:{ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}، وما كان من عند الرب المعتني بعباده بربوبيته، فلن يكون فيه شيء يتناقض ويختلف.

٩-ومنها: أنه لا يتذكر بهذا القرآن ولا بغيره إلا أصحاب العقول، لقوله:{ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }.

١٠- ومن الفوائد ان العقل غير الذكاء، لأننا نجد كثيرا من الناس أذكياء، ولكن لايتذكرون بالقرآن، وهؤلاء عقلاء لكن الذي انتفى عنهم العقل هو عقل التصرف والرشد، أما عقل الإدراك فهم يدركون، ولهذا تقوم عليهم الحجة.

---

(١) صفوة التفاسير: ١٦٨/١.
(٢) الكشاف: ٣٣٩/١.
(٣) نظر: النكت والعيون: ٣٧٢/١.
(٤) صفوة التفاسير: ١٦٨/١.
(٥)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢٠):ص٦٠١/٢.
(٦) تفسير السعدي: ١٢٢.

١١-إن من القرآن ما لايعلم تأويله إلا اللهـ لقوله:{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ }على قراءة الوقف، والفائدة: امتحان العباد بتأدبهم مع الله عزّ وجلّ.

القرآن
{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)} [آل عمران : ٨]

التفسير:

ويقولون: يا ربنا لا تَصْرِف قلوبنا عن الإيمان بك بعد أن مننت علينا بالهداية لدينك، وامنحنا من فضلك رحمة واسعة، إنك أنت الوهاب: كثير الفضل والعطاء، تعطي مَن تشاء بغير حساب.

قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا }[آل عمران:٨]، " أي : لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه"[١].

قال محمد بن إسحاق:" أي: لا تمل قلوبنا وإن ملنا بأحداثنا"[٢]،"بعد ما بصرتنا من الهدى فيما جاء به أهل البدعة والضلالة"[٣].

قال مقاتل:" يعني: لا تحول قلوبنا عن الهدى بعد ما هديتنا كما أزغت اليهود عن الهدى"[٤].

قال الزجاج:" أي لا تمِلْها عن الهدى والقَصْد، أي لا تضلَّنَا بعد إذ هديتنا، وقيل أيضاً: {لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا}: لاَ تَتَعبَّدْنا بما يكون سبباً لزيغ قلوبنا وكلاهما جيد"[٥].

قال الزمخشري:" لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا[٦][بعد إذ] أرشدتنا لدينك، أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا"[٧].

قال السعدي:" أي: لا تملها عن الحق جهلا وعنادا منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافنا مما ابتليت به الزائغين"[٨].

قال القاسمي:أي:" ولا تجعلها كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم"[٩].

وقرئ: "{لا تزغ قلوبنا}، بالتاء والياء ورفع {القلوب}"[١٠].

عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول:" "يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك" ثم قرأ : { رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ }"[١١].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١٣/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢١):ص٦٠١/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢٤):ص٦٠٢/٢.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٦٤/١.
(٥) معاني القرآن: ٣٧٩/١.
(٦)وقال المقق-رحمه الله-" أما أهل السنة فيدعون اللّه بهذه الدعوة غير محرفة ، لأنهم يوحدون حق التوحيد ، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيغ مخلوق للّه تعالى. وأما القدرية فعندهم أن الزيغ لا يخلقه اللّه تعالى وإنما يخلقه العبد لنفسه ، فلا يدعون اللّه تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف به ، وإن كنا ندعو اللّه تعالى مضافا إلى هذه الدعوة بأن لا يبتلينا ولا يمنعنا لطفه آمين ، لأن الكل فعله وخلقه ، ولا موجود إلا هو وأفعاله ، التي نحن وأفعالنا منها".[الكشاف: ٣٣٩/١].
(٧) الكشاف: ٣٣٩/١.
(٨) تفسير السعدي:١٢٢.
(٩) محاسن التأويل: ٢٨٦/٢.
(١٠) الكشاف: ٣٣٩/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢٢):ص٦٠١/٢-٦٠٢، والطبري(٦٦٥٠):ص٢١٣/٦. اسناده صحيح.

قوله تعالى: { وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً }[آل عمران:٨]، أي: امنحنا من فضلك وكرمك رحمة تثبتنا بها على دينك الحق"(١).

قال ابن كثير:" أي : من عندك { رَحْمَةً } تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا"(٢).

قال السعدي:" أي: عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات"(٣).

قوله تعالى: { إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[آل عمران:٨]، أي:" كثير النعم والإفضال، جزيل العطايا والنوال"(٤).

قال السعدي:" أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات"(٥).

قال القاسمي:" وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى"(٦).

الفوائد:

١-مشروعي تصدير الدعاء باسم الرب، لقوله:{ربنا}.

٢-الهداية يكون من عند الله وحده.

٣-ومنها: ان الانسان لا يملك قلبه، فكم من انسان مؤمن زلّ والعياذ بالله.

٤-الدلالة أن في صلاح القلب صلاح جميع الجسد، لقوله:{ربنا لاتزغ قلوبنا}.

٢- الثناء على الله بهدايته فهو من باب التحدث بنعم الله عز وجل، قال تعالى:{بعد إذ هديتنا}.

٣-ان الانسان مضطر إلى ربه في الدفع والرفع.

٣-الإخلاص، وذلك من خلال طلب الرحمة التي من لدن الله، وأن العطاء يكون على قدر المعطيـ لقوله:{وهب لنا من لدنك رحمة}.

٤-التوسل بأسماء الله تعالى، لقوله{إنك انت الوهاب]، فمن اسماءه تعالى{الوهاب}، وهو للمبالغة لكثرة من يهب له فإن الموهوب لهم لا يحصيهم إلا الله عز وجل.

القرآن

{رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)} [آل عمران : ٩]

التفسير

يا ربنا إنا نُقِرُّ ونشهد بأنك ستجمع الناس في يوم لا شَكَّ فيه، وهو يوم القيامة، إنَّك لا تُخلف ما وعَدْتَ به عبادك.

قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}[آل عمران: ٩]، " ربنا إنك إنك جامع الخلائق في يوم الحساب الذي لاشك فيه"(٧).

قال ابن كثير:" أي : يقولون في دعائهم : إنك - يا ربنا - ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلا بعمله ، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر"(٨).

قال القرطبي:" أي باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم، وفي هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة"(٩).

---

(١) صفوة التفاسير: ١٦٨/١.
(٢) تفسير ابن كثير: ١٣/٢.
(٣) تفسير السعدي:١٢٢.
(٤) محاسن التأويل: ٢٨٦/٢.
(٥) تفسير السعدي:١٢٢.
(٦)محاسن التأويل: ٢٨٦/٢.
(٧) صفوة التفاسير: ١٦٨/١.[بتصرف].
(٨) تفسير ابن كثير: ١٥/٢.
(٩) تفسير القرطبي: ٢١/٤.

قال الزجاج:" إقرار بالبعث ودليل أنهم خالفوا من يتبع المتشابه لأن الذين ابتغوا المتشابه هم الذين أنكروا البعث"(١).

عن أم هاني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد يوم القيامة"(٢).

وعن أبي الدرداء قال: "الريب: يعني الشك من الكفر"(٣).

قوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران : ٩]، أي: " وأنت يا رب لا تخلف الموعد"(٤).

قال ابن عباس:" ميعاد من قال لا إله إلا الله"(٥).

قال الزمخشري: "معناه أنّ الإلهية تنافى خلف الميعاد كقولك : إن الجواد لا يخيب سائله والميعاد : الموعد"(٦).

قال الزجاج:" جائز أن يكون حكاية عن الموحدين، وجائز أن يكون إخباراً عن اللَّه، وجائز فتح {أن اللَّه لا يخلف الميعاد}، فيكون المعنى" جامع الناس لأنك لا تخلف الميعاد، أي: قد أعلمتنا ذلك ونحن غير شَاكِّين فيه"(٧).

قال الواحدي:" ولا يدل هذا على تخليد مرتكبي الكبائر من المسلمين في النار، وإن وعد ذلك بقوله: {ومن يعص الله ورسوله} [النساء: ١٤]. الآية؛ لأن المراد بالميعاد ههنا يوم القيامة، لأن الآية وردت في ذكره. أو يحمل هذا على ميعاد الأولياء دون وعيد الأعداء؛ لأن خلف الوعيد كرم عند العرب، والدليل: أنهم يمدحون بذلك، ومنه قول الشاعر(٨):

إذا وعد السراء أنجز وعده ... وإن وعد الضراء فالعفو مانعه

قال الأصمعي: جمعنا بين أبي عمرو بن العلاء، وبين محمد بن مسعود الفدكي، فقال أبو عمرو: ما تقول؟ قال: أقول: إن الله وعد وعدا، وأوعد إيعادا، فهو منجز إيعاده، كما هو منجز وعده. فقال أبو عمرو: إنك رجل أعجم، لا أقول: أعجم اللسان، ولكن أعجم القلب. إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، وأنشد(٩):

---

(١) معاني القرآن: ٣٧٩/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢٥):ص٦٠٢/٢، ورواه مسلم في كتاب الإيمان برقم(٣٢٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢٦):ص٦٠٢/٢.

(٤) صفوة التفاسير: ١٦٨/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢٧):ص٦٠٢/٢.

(٦) الكشاف:٣٣٩/١.

(٧)معاني القرآن: ٣٧٩/١.

(٨)البيت، لأبي الحسن، السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء الموصلي. وهو في: "ديوانه" ٢/ ٣٦٨. وورد منسوبا له، في "يتيمة الدهر" ٢/ ١٥٦. وروايته في "الديوان" "واليتيمة": (.. وإن أوعد الضراء ..).

(٩)البيت لعامر بن الطفيل، وهو في "ديوانه" ٥٨. وقد ورد منسوبا له، في "العقد الفريد" لابن عبد ربه: ١/ ٢٨٤، وأورده بنفس رواية المؤلف: "يتيمة الدهر" للثعالبي: ٢/ ١٥٧، "لسان العرب" ٢/ ١٠٩٨ (ختأ)، ٨/ ٤٨٧١ (وعد)، ٢/ ١١٠٣ (ختا)، "تاج العروس" ١/ ١٤٣ (ختأ)، ١٩/ ٣٦٩ (ختا). كما ورد غير معزو، في "عيون الأخبار" لابن قتيبة: ٢/ ١٤٢، "ضرورة الشعر" للسيرافي، تحقيق د. رمضان عبد التواب: ١٣٨، "مجالس العلماء" للزجاجي: ٦٢، "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩١٥ (وعد)، "الصحاح" ٢/ ٥٥١ (وعد) "طبقات النحويين واللغويين" للزبيدي: ٣٩، "العمدة" لابن رشيق: ١/ ٥٨٩، "الحماسة البصرية" لصدر الدين البصري: ٢/ ٣٠. وروايته في "الديوان":

وإني إن أوعدته أو وعدته ... لأخلف إيعادي وأنجز موعدي

وبرواية أخرى:

لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

كما ورد في "اللسان" ١/ ٦٣ كالآتي:

ليأمن ميعادي ومنجز موعدي

وانظر الفرق بين (وعد) و (أوعد) في: "ما تلحن فيه العامة" للكسائي: ١١٠، "مجاز القرآن" لأبي عبيدة: ٢/ ١٨٩، "أدب الكاتب" لابن قتيبة: ١/ ٢٧٢، "مجالس ثعلب" ١/ ٢٢٧، "والخاطريات" لابن جني: ١٩٨، "خزانة

وإني وإن أوعدته أو وعدته ليكذب إيعادي ويصدق موعدي

أو تقول: هذا عام في وعيد الأولياء، ووعيد الكفار، فأما مرتكبو الكبائر، فهم مخصوصون بقوله تعالى: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: ٤٨]"[1].

الفوائد:

١- أن يوم القيمة آت لاريب فيه؛ لقوله: {ليوم لاريب فيه}، وقوله:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران : ٩].

٢- ومنها: تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بجمع الناس كلهم في هذا اليوم؛ ومع هذا فإن هذا الجمع لا يحتاج إلى مدة {فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة }[النازعات:١٣-١٤].

٣- ومنها: حكمة الله عزوجل في جمع الناس لهذا اليوم؛ لأن هذا الجمع له ما بعده وهو جزاء كل عامل بما عمل كما قال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التغابن : ٩-١٠-]، إذا فهذا الجمع لحكمة وهو: جزاء العامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب علينا أن نؤمن إيمانا لاشك فيه بهذا اليوم؛ فإن شك أحد أو أنكر فليس بمؤمن فهو كافر؛ والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام وإن شئت فقل: أربعة: مؤمن إيمانا لاريب فيه؛ وشاك؛ وكافر منكر؛ وكافر مجادل؛ يعني مع كونه منكرا يجادل ويخاصم؛ كفار قريش من أي الأنواع؟ من النوع الرابع، المنكر المجادل؛ ومن الناس من هو منكر لا يجادل لكنه في نفسه منكر ما صدق؛ ومن الناس من هو متردد شاك؛ ومن الناس من هو مؤمن إيمانا يقينيا كأنه رأي العين في قلبه .

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: انتفاء صفة خلف الوعد عن الله عز وجل؛ لقوله: :{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران : ٩]، وانتفاء هذه الصفة يتضمن كماله في شيئين وهما: الصدق والقدرة؛ فلكمال صدق الله عزوجل ولكمال قدرته لا يخلف الميعاد بل لابد أن يقع ما وعد به

٥-الفرق بين الشك والريب، أن"الريب" شك مع قلق، وأما "الشك": فشك بدون قلق؛ يعني يكون متردد لكن ما يكون معه قلق نفسي؛ لكن هذا لأن الأمر فيه هام يكون فيه قلق للمشك فيه، لكن المؤمنين لا يشكون فيه لا يرتابون فيه.

٦-أفاد الالتفات في قوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران : ٩]، تنبيه المخاطب، كما أن مجيئه بصيغة الغائب أبلغ في التعظيم.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)} [آل عمران : ١٠]

التفسير:

إن الذين جحدوا الدين الحق وأنكروه، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا إن وقع بهم في الدنيا، ولن تدفعه عنهم في الآخرة، وهؤلاء هم حطب النار يوم القيامة.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا }[آل عمران: ١٠]، " أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم"[2].

الأدب" للبغدادي: ٥/ ١٨٩، ١٩٠. وانظر مادة (وعد) في "تهذيب اللغة" "الصحاح" "اللسان". وقد وردت هذه المحاورة في "عيون الأخبار" ٢/ ١٤٢، "مجالس العلماء" ٦٢، "طبقات النحويين واللغويين" ٣٩، "إنباه الرواة" ٤/ ١٣٣، "مدارج السالكين" لابن القيم: ١/ ٣٩٦، "ميزان الاعتدال" للذهبي: ٤/ ١٩٨، ١٩٩، "لوامع الأنوار" للسفاريني: ١/ ٣٧١.

(١) التفسير البسيط: ٦٥/٥-٦٧.

(٢) صفوة التفاسير: ٢٧/١.

قال الطبري:" إن الذين جحدوا الحق الذي قد عرفوه من نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم من يهود بني إسرائيل ومنافقيهم ومنافقي العرب وكفارهم"(١).

وأصْلُ (الكفر) عند العرب : تَغطيةُ الشيء، ولذلك سمَّوا الليل " كافرًا "، لتغطية ظُلمته ما لبِسَه، كما قال الشاعر(٢) :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلا رَثِيدًا، بَعْدَ مَا ... أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ

وقال لبيدُ بن ربيعة(٣):

يَعْلُو طَرِيقةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرًا ... فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومُ غَمَامُهَا

يعني غَطَّاها، فكذلك الذين جحدوا النبوّة من الأحبار من اليهود غَطَّوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكَتَمُوه الناسَ - مع علمهم بنبوّته، ووُجُودِهم صِفَتَه في كُتُبهم - فقال الله جل ثناؤه فيهم : {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ} [سورة البقرة : ١٥٩](٤).

قوله تعالى:{لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}[آل عمران: ١٠]،" أي لن تفيدهم الأموال والأولاد في الآخرة، من عذاب الله وأليم عقابه "(٥).

قال الطبري:" يعني بذلك أنّ أموالهم وأولادهم لن تُنجيهم من عقوبة الله إن أحلَّها بهم - عاجلا في الدنيا على تكذيبهم بالحق بعد تبيُّنهم"(٦).

قال الثعلبي:" أي لن ينفع، ولن يدفع وإنما سمى المال غنى لأنه ينفع الناس ويدفع عنهم الفقر والنوائب"(٧).

قال أبو السعود:" وتأخيرُ الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفي بينهما إما لعراقة الأولادِ في كشف الكروب أو لأن الأموال أولُ عُدّة يُفزع إليها عند نزول الخطوب"(٨).

وفي قوله تعالى:{لَنْ تُغْنِيَ }[آل عمران:١٠]، وجوه من القراءة:

أحداها: {لن تغنى} بسكون الياء، قرأ بها قرأ على -رضى اللّه عنه-"وهذا من الجدّ في استثقال الحركة على حروف اللين"(٩).

والثاني: {يغني}، بالياء المتقدمة من الفعل ودخول [الحائل] بين الاسم والفعل. قرأ بها السلمي(١٠).

قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} [آل عمران: ١٠]، أي أولئك "هم حطب جهنم الذي تُسْجر وتوقد به النار""(١١).

قال الطبري:" يعني بذلك : حَطَبُها"(١٢).

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢٣/٦.

(٢)الشعر لثعلبة بن صعير المازني ، شرح المفضليات : ٢٥٧ . والضمير في قوله " فتذكرا " للنعامة والظليم . والثقل : بيض النعام المصون ، والعرب تقول لكل شيء نفيس خطير مصون : ثقل . ورثد المتاع وغيره فهو مرثود ورثيد : وضع بعضه فوق بعض ونضده . وعنى بيض النعام ، والنعام تنضده وتسويه بعضه إلى بعض . وذكاء : هي الشمس.

(٣) انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني: ١٠٠، ويروى " ظلامها " . يعني البقرة الوحشية ، قد ولجت كناسها في أصل شجرة ، والرمل يتساقط على ظهرها .

(٤) تفسير الطبري: ٢٥٥/١.

(٥) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(٦) تفسير الطبري: ٢٢٣/٦.

(٧) تفسير الثعلبي: ١٨/٣.

(٨) تفسير أبي السعود: ١٠/٢.

(٩) الكشاف:٣٣٩/١.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي: ١٨/٣.

(١١) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(١٢) تفسير الطبري: ٢٢٣/٦.

عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت: "بينما نحن بمكة، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فنادى: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، ثلاثا، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم، ثم أصبح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليظهرن الإسلام حتى يرد الكفر إلى موطنه، وليخوضن البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرءونه ثم يقولون: قد قرأنا القرآن، وعلمنا فمن هذا الذي هو خير منا، فهل في أولئك من خير؟ قالوا: يا رسول الله: فمن أولئك؟. قال أولئك منكم [١]، وأولئك هم وقود النار"[٢].

الفوائد:

١-من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الكفار لا ينتفعون بأموالهم ولا أولادهم.

٢-ومن الفوائد أيضا: إن الكفار لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا .

٣- ومن فوائدها: أن المؤمنين قد ينتفعون بأموالهم وأولادهم وهو كذلك؛ فالمؤمن يتصدق بماله فينتفع، ويدعوا له ولده في حياته وبعد موته فينتفع؛ أما الكافر فلا ينتفع ولو دعا له ولده، كما لا يحل لولده أن يدعوا له، إلا إذا كان حيا فيحل أن يدعوا له بالهداية، وأما أن يدعوا له بعد موته فلا يمكن أن يدعوا له.

٤-ومن فوائد الآية الكريمة: أن الكافر يملك؛ وجهه قوله: {أموالهم}، فأضاف المال إليه وهو دليل على أن الكافر يملك ماله .

٥-ومن فوائد الآية: تشجيع قلوب المؤمنين على الكافرين؛ وجهه أن أموالهم وأولادهم لا تغني من الله شيئا؛ فإذا انتصرنا بالله فإن ما عندهم من الأسلحة، والذخائر، والأموال، والأولاد لا يغنيهم من الله شيئا ،ولهذا لو شاء الله عزوجل أن يبطل جميع ما فعلوه لأبطله.

القرآن

{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)} [آل عمران : ١١]

التفسير:

شأن الكافرين في تكذيبهم وما ينزل بهم، شأن آل فرعون والذين من قبلهم من الكافرين، أنكروا آيات الله الواضحة، فعاجلهم بالعقوبة بسبب تكذيبهم وعنادهم. والله شديد العقاب لمن كفر به وكذَّب رسله.

قوله تعالى: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ} [آل عمران : ١١]، "أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون، وصنيعُهم مثلُ صنيعهم"[٣].

قال الطبري:" كسُنَّة آل فرعون وعادتهم"[٤].

قال القاسمي:" أي دأب هؤلاء في الكفر كدأب آل فرعون"[٥].

قال الزمخشري:" تقول : إنك لتظلم الناس كدأب أبيك تريد كظلم أبيك ومثل ما كان يظلمهم "[٦].

وفي قوله تعالى:{ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ}[آل عمران:١١] وجوه من التفسير[٧]:

أحدها : أن معناه : كسُنَّتهم. قاله الربيع[٨].

---

(١)إضافة عن ابن كثير ٢/ ١١ وقال: وكذا رأيته بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٢٩):ص٦٠٣/٢.

(٣) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(٤) تفسير الطبري: ٢٢٣/٦.

(٥) محاسن التأويل: ٢٨٩/٢.

(٦) الكشاف: ٣٤٠/١.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٧٢/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٦٦٥٩):ص٢٢٣/٦.

الثاني: أن معناه: كصنعهم وعملهم. قاله ابن عباس[١]، والضحاك[٢]، وابن زيد[٣]، وعكرمة[٤]، ومجاهد[٥].
الثالث: أن المعنى: كشبيه آل فرعون. قاله الربيع[٦].
الرابع: أن معنى ذلك : كتكذيب آل فرعون.وهذا قول السدي[٧].
الخامس: أن الدأب : العادة ، أي: كعادة آل فرعون والذين من قبلهم[٨] .
فإذا قيل إنه "العادة"، ففيما أشار إليه من عادتهم وجهان[٩] :
أحدهما : كعادتهم في التكذيب بالحق .
الثاني : كعادتهم من عقابهم على ذنوبهم .
السادس : أن الدأب هنا: الاجتهاد ، مأخوذ من قولهم : دأبت في الأمر ، إذا اجتهدت فيه[١٠] .
وإذا قيل إنه الاجتهاد ، احتمل ما أشار إليه من اجتهادهم وجهين [١١]:
أحدهما : كاجتهادهم في نصرة الكفر على الإيمان .
والثاني : كاجتهادهم في الجحود والبهتان .
قال الطبري:" وأصل " الدأب " من : " دأبت في الأمر دأبًا " ، إذا أدمنت العمل والتعب فيه. ثم إن العرب نقلت معناه إلى : الشأن ، والأمر ، والعادة ، كما قال امرؤ القيس بن حجر[١٢] :

وَإنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَة ... فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِث قَبْلَهَا ... وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

يعني بقوله : " كدأبك " ، كشأنك وأمرك وفعلك"[١٣].
وفيمن أشار إليهم أنهم {كدأب آل فرعون} قولان[١٤] :
أحدهما : أنهم مشركو قريش يوم بدر ، كانوا في انتقام الله منهم لرسله والمؤمنين ، كآل فرعون في انتقامه منهم لموسى وبني إسرائيل ، فيكون هذا على القول الأول تذكيراً للرسول والمؤمنين بنعمة سبقت ، لأن هذه الآية نزلت بعد بدر استدعاء لشكرهم عليها.
وعلى القول الثاني: وعداً بنعمة مستقبلة لأنها نزلت قبل قتل يهود بني قينقاع ، فحقق وعده وجعله معجزاً لرسوله .
قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [آل عمران : ١١]، أي والذين "من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة"[١٥].
قال الصابوني:" أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب"[١٦].
قوله تعالى: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}[آل عمران:١١]، أي:" حين كذبوا بآياتنا"[١].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٣٠):ص٦٠٣/٢، وتفسير الطبري(٦٦٦٤):ص٢٢٤/٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٦٦٦٠)، (٦٦٦١):ص٢٢٣/٦-٢٢٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٦٦٢):ص٢٢٤/٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٦٦٦٣):ص٢٢٤/٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٦٦٦٣):ص٢٢٤/٦.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٣٠):ص٦٠٣/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٦٦٦٥):ص٢٢٤/٦.
(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٧٢/١.
(٩) انظر: النكت والعيون: ٣٧٢/١.
(١٠) انظر: النكت والعيون: ٣٧٢/١.
(١١) انظر: النكت والعيون: ٣٧٣/١.
(١٢)ديوانه : ١٢٥ من معلقته المشهورة
(١٣) تفسير الطبري:٢٢٥/٦.
(١٤) انظر: النكت والعيون: ٣٧٣/١.
(١٥) محاسن التأويل: ٢٨٩/٢.
(١٦) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

قوله تعالى:{ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}[آل عمران:١١]،" أي عاقبهم وأهلكهم بسببها"[٢].
قال الثعلبي:" فعاقبهم، بذنوبهم: نظيره قوله :{ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ }[العنكبوت:٤٠]"[٣].
قال النسفي:" بسبب ذنوبهم"[٤].
قال السعدي:" عدلا منه لا ظلما"[٥].
قوله تعالى:{ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[آل عمران:١١]، " أي أليم العذاب شديد البطش"[٦].
قال الطبري:" والله شديد عقابه لمن كفر به وكذّب رسله بعد قيام الحجة عليه"[٧].
قال البيضاوي:"تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف الكفرة"[٨].
الفوائد:

١- فوائدها: أن الكفار المتأخرين كالكفار السابقين؛ لأن سنة الله تعالى بالخلق واحدة؛ لأنه عزوجل ليس بينه وبين الحلق نسب يراعيه ويحابي من يتصل به؛ فالناس عند الله تعالى سواء؛ أكرمهم عند الله أتقاهم؛ لقوله: { كدأب آل فرعون ...}.

٢-ومنها:أن فرعون وآله قد عذبوا في الدنيا كما سيعذبون في الآخرة؛ لقوله: {فأخذهم الله بذنوبهم }.

٣-ومن فوائدها: الرد على من زعم أن فرعون أسلم فنفعه إسلامه؛ لأن الله تعالى ذكر ذلك على وجه المؤاخذة والمعاقبة؛ ولو كان تائبا توبة تنفعه ما ذكر ذنبه بدون ذكر توبته؛ لأن الله تعالى عدل لا يذكر أحدا بذنب تاب منه إلا أن يبين توبته.

٤-ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الآية لله وهي العلامات الدالة على الله عزوجل على وجوده وعلى ما تتضمنه هذه الآيات من صفاته؛ فمثلا نزول الرحمة نزول الغيب دليل على الرحمة، آية على رحمة الله على وجوده وعلى رحمته؛ نزول العقوبات دليل على وجود الله وعلى غضبه؛ وهكذا كل آية تدل على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى ما تقتضيه تلك الآية من الصفات سواء كانت آية رحمة أو آية عذاب .

٥-ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله لا يظلم الناس شيئا وإنما يؤاخذهم بالذنوب؛ { فأخذهم الله بذنوبهم } ؛ ونظير ذلك قوله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى : ٣٠].

٦-ومنها: الرد على الجبرية الذين لا ينسبون فعل العبد إليه؛ لقوله: { بذنوبهم}، فأضاف الذنوب إليهم؛ والفعل لا ينسب إلا لمن قام به حقيقة؛ والجبرية يقولون: إن الفعل لا ينسب إلى الإنسان على وجه الحقيقة . ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات صفة شدة العقاب لله؛ لقوله:{والله شديد العقاب}.

القرآن

{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)} [آل عمران : ١٢]

التفسير:

---

(١) تفسير الطبري: ٢٢٣/٦.
(٢) محاسن التأويل: ٢٨٩/٢.
(٣) تفسير الثعلبي:١٩/٣.
(٤) تفسير النسفي: ١٤٩/١.
(٥) تفسير السعدي: ١٢٣.
(٦)صفوة التفاسير: ١٧١/١.
(٧) تفسير الطبري:٢٢٥/٦.
(٨) تفسير البيضاوي: ٧/٢.

قل -أيها الرسول-، للذين كفروا من اليهود وغيرهم والذين استهانوا بنصرك في "بَدْر": إنكم ستُهْزَمون في الدنيا وستموتون على الكفر، وتحشرون إلى نار جهنم; لتكون فراشًا دائمًا لكم، وبئس الفراش

في سبب نزول هذه الآية أقوال :

أحدها : أنها نزلت في قريش قبل بدر بسنة ، فحقق الله قوله ، وصدق رسوله ، وأنجز وعده بمن قتل منهم يوم بدر ، قاله ابن عباس(١)، والضحاك(٢).

والثاني : أنها نزلت في بني قينقاع لمَّا هلكت قريش يوم بدر ، فدعاهم النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام ، وحذرهم مثل ما نزل بقريش ، فأبوا وقالوا : لسنا كقريش الأغمار الذين لا يعرفون الناس ، فأنزل الله فيهم هذه الآية ، قاله قتادة(٣)، وابن إسحاق(٤).

والثالث : أن أبا سفيان في جماعة من قومه جمعوا جمعوا لرسول الله صلى الله عليه و سلم بعد وقعة بدر فنزلت هذه الآية قاله ابن السائب (٥).

والرابع: أنها نزلت في عامة الكفار .

والخامس: أنه لما شمت اليهود بالمسلمين يوم أحد، قيل لهم{ستغلبون وتحشرون إلى جهنم}، يعني على القراءة بالياء المثناة التحتانية فيهما. وهذا قول ابن المظفر(٦).

قوله تعالى:{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ}[آل عمران:١٢]، " أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار: ستهزمون في الدنيا"(٧).

وفي الغلبة هنا قولان (٨):

أحدهما : بالقهر والاستيلاء ، إن قيل إنها خاصة .

والثاني : بظهور الحجة ، إن قيل إنها عامة .

واختلفت القراءة في قوله: {سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ }[آل عمران:١٢]، على وجهين(٩): احدهما: { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ} بالتاء ، على وجه الخطاب للذين كفروا بأنهم سيغلبون. قراءة نافع، وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر.

والثاني: {سَيُغْلَبُونَ وَيُحْشَرُونَ}، على معنى : قل لليهود : سيغلب مشركو العرب ويحشرون إلى جهنم. قرأت ذلك وحمزة والكسائي.

قوله تعالى:{ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ }[آل عمران:١٢]، "أي تُجمعون وتساقون إلى جهنم"(١٠).

قوله تعالى:{ وَبِئْسَ الْمِهَادُ }[آل عمران:١٢]، أي بئس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم"(١١).

قال الطبري:أي:"وبئس الفراش جهنم التي تحشرون إليها"(١٢).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: (٦٦٦٦):ص٦/ ٢٢٧، والأسباب للواحدي: ٩١-٩٢، والعجاب في بيان الأساب: ٦٦٥/٢، وسيرة ابن هشام: ٤٧/٢، وقد عزاه السيوطي في "اللباب:ص٥١، إلى أبي داود في "سننه" والبيهقي في "الدلائل".

(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٧٣/١، وزاد المسير: ٣٥٦/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٦٦٧):ص٢٢٧/٦، و

(٤) انظر: تفسير الطبري(٦٦٦٨):ص٢٢٧/٦، و

(٥) انظر: زاد المسير: ٣٥٦/١.

(٦) انظر: العجاب في بيان الأسباب: ٦٦٦/٢.

(٧) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٧٤/١-٣٧٥.

(٩) انظر: السبعة في القراءات:٢٠٢.

(١٠) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(١١) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(١٢) تفسير الطبري: ٢٢٩/٦.

وفي تفسير: قوله تعالى:{وَبِئْسَ الْمِهَادُ }[آل عمران: ١٢]، وجهان:
أحدهما : بئس ما مهدوا لأنفسهم ، قاله مجاهد[١] .
والثاني : معناه بئس القرار ، قاله الحسن[٢].
وفي {بِئْسَ} وجهان[٣]:
أحدهما : أنه مأخوذ من البأس ، وهو الشدة .
والثاني : أنه مأخوذ من البأساء وهو الشر .
الفوائد:
١-أن الله يجمع للكفار بين عقوبتين: عقوبة في الدنيا وأخرى في القيامة.
٢-إثبات عذاب النار، لقوله:{وتحشرون إلى جهنك}.
٣-إنشاء الذم للنار، لقوله:{وبئس المهاد}.

القرآن

{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)} [آل عمران : ١٣]

التفسير:
قد كان لكم -أيها اليهود المتكبرون المعاندون- دلالة عظيمة في جماعتين تقابلتا في معركة "بَدْر": جماعة تقاتل من أجل دين الله، وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجماعة أخرى كافرة بالله، تقاتل من أجل الباطل، ترى المؤمنين في العدد مثليهم رأي العين، وقد جعل الله ذلك سببًا لنصر المسلمين عليهم. والله يؤيِّد بنصره من يشاء من عباده. إن في هذا الذي حدث لَعِظة عظيمة لأصحاب البصائر الذين يهتدون إلى حكم الله وأفعاله.
قوله تعالى:{ {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا}[آل عمران: ١٣]، أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر"[٤].
قال ابن عباس:" أي أصحاب بدر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٥].
قال الربيع:" كان ذلك يوم بدر، كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا. وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا"[٦].
قال الواحدي:" وأراد بالـ{آية}: علامة تدل على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم –"[٧].
قال ابن عطية:" والفئة: الجماعة من الناس سميت بذلك لأنها يفاء إليها، أي يرجع في وقت الشدة"[٨].
وقال الزجاج: الفئة الفرقة، مأخوذة من فأوت رأسه بالسيف، ويقال: فأيته إذا فلقته"[٩].
قوله تعالى:{ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[آل عمران:١٣]، " أي طائفة مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله "[١٠].
قال مجاهد:" محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه"[١].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٣٥):ص٦٠٤/٢، وتفسير الطبري(٦٦٧١)، و(٦٦٧٢):ص٢٢٩/٦، وتفسير مجاهد: ١٢٢/١.
(٢)انظر: النكت والعيون:٣٧٥/١.
(٣)انظر: النكت والعيون:٣٧٥/١.
(٤) صفوة التفاسير: ١٧١/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٣٧):ص٦٠٥/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٣٨):ص٦٠٥/٢.
(٧) التفسير البسيط:٧٩/٥.
(٨) المحرر الوجيز: ٤٠٧/١.
(٩) معاني القرآن: ٣٨١/١.
(١٠) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

قال سعيد بن جبير:" {في سبيل الله}، يعني: في طاعة الله"[٢].
قال القاسمي:" وهم النبيّ وأصحابه وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا. معهم فرسان وست أدرع وثمانية سيوف وأكثرهم رجالة"[٣].
وفي قوله تعالى:{ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[آل عمران:١٣]، وجوه من القراءة[٤]:
إحداها: {فئة تقاتل}، برفع {فئة} على خبر ابتداء، تقديره إحداهما فئة، وهي قراءة الجمهور.
والثانية: {فئة}، بالخفض على البدل، قرأ بها مجاهد والحسن والزهري وحميد.
والثالثة: {فئة}، بالنصب، وهي قراءة ابن أبي عبلة.
قوله تعالى:{وَأُخْرَى كَافِرَةٌ}[آل عمران:١٣]، " أي :وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش"[٥].
قال مجاهد:" مشركي قريش يوم بدر"[٦].
قال القاسمي:" وهم مشركو قريش وكانوا قريبا من ألف"[٧].
وقرأ ابن أبي عبلة:{كافرة}، بالنصب[٨]، اجازه الزجاج، وقال: "المعنى: التقتا مؤمنة وكافرة، ويجوز نصبها على: أعني فئة تقاتل.."[٩].
قوله تعالى: {يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ}[آل عمران:١٣]، أي يرى الكافرون المؤمنين أكثر منهم مرتين"[١٠].
قال قتادة:" يضعفون عليهم، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين يوم بدر"[١١].
قال السدي:" هذا يوم بدر. قال عبد الله بن مسعود : قد نظرنا إلى المشركين ، فرأيناهم يُضْعِفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدًا ، وذلك قول الله عز وجل : (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ) [سورة الأنفال : ٤٤]"[١٢].
قوله تعالى: {رَأْيَ العين}[آل عمران:١٣]، أي:رؤية حقيقية لا بالخيال"[١٣].
قال الزمخشري:" يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها ، معاينة كسائر المعاينات"[١٤].
وفي تفسير{ مِّثْلَيْهِمْ}[آل عمران:١٣]، قولان :
أحدهما : أنهم مثلان زائدان على العدد المُتَحَقّق ، فيصير العدد ثلاثة أمثال، قاله الفراء[١٥].
والثاني : هو المزيد في الرؤية ، قاله الزجاج [١٦].
واختلفوا في المخاطب بهذه الرؤية على قولين :
أحدهما : أنها الفئة المؤمنة التي تقاتل في سبيل الله ، بأن أراهم الله مشركي قريش يوم بدر مثلي عدد أنفسهم ، لأن عدة المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وعدة المشركين في رواية

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٤٠):ص٦٠٥/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٤١):ص٦٠٥/٢.
(٣) محاسن التأويل: ٢٩٠/٢.
(٤) المحرر الوجيز: ٤٠٨/١.
(٥) صفوة التفاسير: ١٧١/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٤٢):ص٦٠٥/٢.
(٧) محاسن التأويل: ٢٩٠/٢.
(٨) المحرر الوجيز: ٤٠٨/١.
(٩) معاني القرآن: ٣٨٢/١.
(١٠) صفوة التفاسير: ١٧١/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٤٣):ص٦٠٦/٢.
(١٢) أخرجه الطبري(٦٦٨١):ص٢٣٤/٦، وابن أبي حاتم(٣٢٤٣):ص٦٠٦/٢.
(١٣) صفوة التفاسير: ١٧١/١.
(١٤) الكشاف: ٣٤١/١.
(١٥) انظر: معاني القرآن:١٩٤/١.
(١٦) انظر: معاني القرآن: ٣٨١/١-٣٨٢.

عليٍّ[١] وابن مسعود[٢] ألف ، وفي رواية عروة[٣] ، وقتادة[٤] ، والربيع[٥] ما بين تسعمائة إلى ألف ، فقلّلهم الله في أعينهم تقوية لنفوسهم ، قاله ابن مسعود [٦]، والحسن [٧]، وابن جريج[٨].

والثاني : أن الفئة التي أراها الله ذلك هي الفئة الكافرة، أراهم الله المسلمين مثلي عددهم مكثراً لهم ، لتضعف به قلوبهم[٩] .

قال الماوردي:"والآية في الفئتين هي تقليل الكثير في أعين المسلمين ، وتكثير القليل في أعين المشركين ، وما تقدم من الوعد بالغلبة ، فتحقق ، قتلاً ، وأسراً ، وسبياً "[١٠].

قوله تعالى: {والله يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ}[آل عمران:١٣]، أي: والله"يقوي بنصره من يشاء"[١١].

قال الماوردي:" يعني من أهل طاعته"[١٢].

قال ابن عباس:" فأيد الله المؤمنين بنصره قال: كان هذا في التخفيف على المؤمنين"[١٣].

وفي معنى التأييد في هذا الموضع وجهان [١٤]:

أحدهما : أنه المعونة .

والثاني : القوة .

قال ابن عطية:" {يُؤَيِّدُ}، معناه: يقوي من الأيد وهو القوة[١٥].

قوله تعالى:{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً }[آل عمران:١٣]، أي:" لقد كان لهم في هؤلاء عبرة وتفكر"[١٦].

قال الربيع:" لقد كان في هؤلاء عبرة ومتفكر"[١٧].

قال النسفي: أي : "في تكثير القليل لعظة "[١٨].

قال ابن كثير:" أي : إن في ذلك لمعتبرًا لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكم الله وأفعاله ، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد"[١٩].

قوله تعالى:{ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}[آل عمران:١٣]، أي:"لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة"[٢٠].

قال النسفي: أي:" لذوي البصائر"[٢١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٦٦٨٣):ص٦/٢٣٥-٢٣٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٦٦٨٤):ص٦/٢٣٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٦٨٥):ص٦/٢٣٦-٢٣٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٦٦٨٦):ص٦/٢٣٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٦٦٨٨):ص٦/٢٣٦، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٢٣٨):ص٢/٦٠٥.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٦٦٩٠):ص٦/٢٤٠.
(٧) انظر: النكت والعيون: ١/٣٧٤.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٦٦٨٩):ص٦/٢٣٧.
(٩) انظر: النكت والعيون: ١/٣٧٤.
(١٠) النكت والعيون: ١/٣٧٤.
(١١) تفسير الطبري: ٦/٢٤٢.
(١٢) النكت والعيون: ١/٣٧٥.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٤٥):ص٢/٦٠٦.
(١٤) انظر: النكت والعيون: ١/٣٧٥.
(١٥) المحرر الوجيز: ١/٤٠٨.
(١٦) قاله قتادة، انظر: تفسير الطبري: (٦٦٩٢):ص٦/٢٤٣.
(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٤٦):ص٢/٦٠٦.
(١٨) تفسير النسفي: ١/١٥٠.
(١٩) تفسير ابن كثير:٢/١٨.
(٢٠) صفوة التفاسير:١٧١.
(٢١) تفسير النسفي: ١/١٥٠.

قال الصابوني:" ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء، وأن النصر لا يكون بكثرة العَدد والعتاد، وإنما يكون بمعونة الله وتأييده كقوله:{إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ} [آل عمران: ١٦٠]"(١).

الفوائد:

١-ضرب الأمثال بالأمور الواقعة، لأن ذلك أبلغ في التصديق والطمأنينة.

٢-إن النصر ليس بكثرة العدد، ولا بقوة العُدد، ولكنه من الله.

٣-ومن فوائد الآية: أن القتال لايكون سببا للنصر إلا إذا كان في سبيل الله، إخلاصا، وموافقة للشرع، واجتنابا للمحارم.

٤-إثبات أفعال الله، لقوله:{والله يؤيد بنصره من يش **وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ}**.

٥-الرد على الجبرية في قوله:{ **تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}**، فأضاف الفعل إليها، والجبرية تقول: لا يضاف الفعل إلى الفاعل إلا على سبيل المجاز، كما تقول: أكلت النار الحطب.

٦-إثبات المشيئة لله، لقوله:{ مَنْ يَشَاءُ}.

٧-ومن الفوائد انه لا يعتبر بالأمور إلا أولو الأبصار، لقوله:{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ}.

٨-الثناء على أهل البصيرة، لأن السياق فيهم، ويتضمن القدح في عُمي القلوب.

القرآن

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)} [آل عمران : ١٤]

التفسير:

حُسِّن للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين، والأموال الكثيرة من الذهب والفضة، والخيل الحسان، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والأرض المتَّخَذة للغراس والزراعة. ذلك زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية. والله عنده حسن المرجع والثواب، وهو الجنَّة.

قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ }[آل عمران:١٤]، " أي حُسِّن إليهم وحُبّب إلى نفوسهم الميل نحو الشهوات"(٢).

قال الطبري:" زُيِّن للناس محبة ما يشتهون"(٣).

قال الثعلبي:" الشهوات: جمع شهوة وهي نزوع عن النفس إليه"(٤).

وفي تفسير الناس في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن المراد: الناس عامة. وهو قول الجمهور. وهو الصحيح.

والثاني: يعني الكفار. قاله مقاتل بن سليمان(٥).

وفي المُزّيِّن لحب الشهوات ثلاثة أقاويل:

أحدها : أنه الشيطان ، لأنه لا أحد أشد ذمًّا لها من الله تعالى الذي خَلَقَها ، قاله الحسن(٦).

الثاني : أن الله زيّن ذلك. وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-(٧).

---

(١)صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(٢) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(٣) تفسير الطبري:٣٤٣/٦.

(٤) تفسير الثعلبي:٢٢/٣.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٦٦/١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٤٩)، و(٣٢٥٠):ص٦٠٧/٢.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٤٨):ص٦٠٦/٢-٦٠٧.

وتأويله: أن الله زين حب الشهوات لِمَا جعله في الطبائع من المنازعة كما قال تعالى:{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا}[الكهف : ٧] ، قاله الزجاج[١] .

والثالث : أن الله زين من حبها ما حَسُن ، وزين الشيطان من حبها ما قَبُح[٢].

قال ابن عطية:" وإذا قيل زين الله، فمعناه بالإيجاد والتهيئة لانتفاع وإنشاء الجبلة عن الميل إلى هذه الأشياء، وإذا قيل زين الشيطان فمعناه بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية تحتمل هذين النوعين من التزيين ولا يختلف مع هذا النظر. وهذه الآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توضيح لمعاصري محمد عليه السلام من اليهود وغيرهم، والشَّهَواتِ ذميمة واتباعها مرد وطاعتها مهلكة، وقد قال عليه السلام: "حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره"[٣] فحسبك أن النار حفت بها، فمن واقعها خلص إلى النار"[٤].

قوله تعالى: {مِنَ النِّسَاءِ}[آل عمران:١٤]، أي: شهوة الجنس.

قال النسفي:" والإماء داخلة فيها "[٥].

قال الثعلبي:" بدأ بهن[أي النساء] لأنهن حبائل الشيطان وأقرب إلى الفتان"[٦].

قال ابن كثير:" فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت في الصحيح أنه ، عليه السلام ، قال مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّساء". فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد ، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه ، "وإنَّ خَيْرَ هَذه الأمَّةِ كَانَ أكْثَرهَا نسَاءً" [٧]وقوله ، عليه السلام الدُّنْيَا مَتَاع ، وخَيْرُ مَتَاعِهَا المرْأةُ الصَّالحةُ ، إنْ نَظرَ إلَيْها سَرَّتْهُ ، وإنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْه ، وإنْ غَابَ عَنْها حَفِظَتْه في نَفْسهَا وَمَالِهِ" [٨] وقوله في الحديث الآخر : "حُبِّبَ إلَيَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ وجُعلتْ قُرة عَيْني فِي الصَّلاةِ" [٩] وقالت عائشة ، رضي الله عنها : لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء إلا الخيل ، وفي رواية : من الخيل إلا النساء [١٠]"[١١].

قوله تعالى: {وَالْبَنِينَ }[آل عمران:١٤]، أي: ومن البنين.

قال النسفي:" جمع "ابن" وقد يقع في غير هذا الموضع على الذكور والإناث ، وهنا أريد به الذكور فهم المشتهون في الطباع والمعدون للدفاع"[١٢].

قال ابن كثير:"وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح ، كما ثبت في الحديث : "تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ"[١٣]"[١].

---

(١) انظر: معاني القرآن: ٣٨٣/١.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٧٥/١.

(٣)أخرجه مسلم ٤/ ٢١٧٤، كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم: ٢٨٢٣، والترمذي ٤/ ٥٩٨، كتاب صفة الجنة، رقم: ٢٥٥٩.

(٤) المحرر الوجيز:٤٠٨/١.

(٥) تفسير النسفي: ١٥٠/١.

(٦) تفسير الثعلبي:٢٣/٣، وانظر: تفسير البغوي: ٤١٧/١.

(٧)رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٦٩) موقوفا على ابن عباس.

(٨)) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٦٧) والنسائي في السنن (٦٩/٦) وابن ماجه في السنن برقم (١٨٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٩)رواه أحمد في المسند (١٢٨/٣) والنسائي في السنن (٦١/٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١٠)رواه النسائي في الكبرى (٤٤٠٤) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك ، به. وله شاهد من حديث معقل بن يسار ، رواه أحمد في مسنده (٢٧/٥).

(١١) تفسير ابن كثير:١٩/٢.

(١٢) تفسير النسفي: ١٥٠/١.

(١٣)رواه أبو داود في السنن برقم (٢٠٥٠) والنسائي في السنن (٦٥/٦) وابن حبان في صحيحه برقم

قوله تعالى:{وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ }[آل عمران:١٤]، " أي: الأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضة"[٢].

قال الواحدي:" الذهب: التبر. والقطعة ذهبة ، والفضة: الفض في اللغة معناه: التفريق، والكسر ، ومنه: لا يفضض الله فاك، فالفضة سميت؛ لأن من شأنها أن تفرق بضرب الدراهم"[٣].

واختلفوا في مقدار القنطار على سبعة أقاويل :

أحدها : أنه ألف ومائتا أوقية ، وهو قول معاذ بن جبل[٤]، وأبي هريرة[٥]، وعاصم بن أبي النجود[٦]، ورواه زر بن حبيش عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " القنطار ألف أوقية ومئتا أوقية"[٧] .

والثاني : أنه ألف ومائتا دينار ، وهو قول ابن عباس[٨]، والضحاك[٩]، والحسن[١٠]، وقد رواه الحسن عن النبي - صلى الله عليه وسلم -[١١].

والثالث : أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار ، وهو قول ابن عباس[١٢]، والضحاك[١٣]، والحسن[١٤].

والرابع : أنه ثمانون ألفاً من الدراهم ، أو مائة رطل من الذهب ، وهو قول سعيد بن المسيب[١٥]، وقتادة[١٦]، وأبي صالح[١٧]، والسدي[١٨].

والخامس : أنه سبعون ألفاً ، قاله ابن عمر[١٩]، ومجاهد[٢٠] .

والسادس : أنه ملء مسك ثور ذهباً ، قاله أبو نضرة[٢١]، والكلبي[٢٢].

والسابع : أنه المال الكثير ، وهو قول الربيع [٢٣].

(١٢٢٩) "موارد" والحاكم في المستدرك (١٦٢/٢) وصححه وأقره الذهبي من حديث معقل بن يسار.

(١) تفسير ابن كثير:١٩/٢.

(٢)صفوة التفاسير: ١٧١/١.

(٣) التفسير البسيط: ٩٧/٥، وانظر: العين: ١٣/٧، وتهذيب اللغة: ٢٧٩٩/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٦٦٩٦):ص٢٤٤/٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٠):ص٢٤٤/٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٦٦٩٩):ص٢٤٤/٦.

(٧) أخرجه الطبري(٦٧٠١):ص٢٤٥/٦.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٤):ص٢٤٦/٦.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٥):ص٢٤٦/٦.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٣):ص٢٤٦/٦.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٢):ص٢٤٥/٦.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٦):ص٢٤٦/٦.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٧):ص٢٤٦/٦.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٨)-(٦٧١٢):ص٢٤٦/٦-٢٤٧.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٣):ص٢٤٦٧/٦.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٥):ص٢٤٧/٦.

(١٧) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٧):ص٢٤٦/٦.

(١٨) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٨):ص٢٤٦/٦-٢٤٧.

(١٩) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢١):ص٢٤٨/٦، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٢٦١):ص٦٠٩/٢.

(٢٠) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٩):ص٢٤٨/٦، وابن أبي حاتم(٣٢٦٢):ص٦٠٩/٢.

(٢١) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢٢):ص٢٤٨/٦.

(٢٢)أورد قوله: أبو عبيدة في "مجاز القرآن" ١/ ٨٩، وأورده نقلا عن النقاش ابن عطية، في "المحرر الوجيز" ٣/ ٤٢، والقرطبي في "تفسيره" ٤/ ٣١، وفي "الزاهر" ١/ ٤٣٢، ينقل عن الكلبي، أن القنطار: ألف مثقال، ذهب أو فضة، وكذا في "زاد المسير" ١/ ٣٥٩.

(٢٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢٤):ص٢٤٩/٦.

والراجح أن القنطار: هو المال الكثير، كما قال الربيع بن أنس ، ولا يحدُّ قدرُ وزنه بحدٍّ على تَعسُّف[1].

وفي تفسير {المُقَنْطَرَةِ}[آل عمران: ١٤] ستة أقاويل :

أحدها : أنها المضاعفة ، وهو قول قتادة[2] والضحاك[3].

والثاني : أنها الكاملة المجتمعة[4] .

والثالث : هي تسعة قناطير ، قاله الفراء[5] .

والرابع : هي المضروبة دراهم أو دنانير ، وهو قول السدي[6] .

والخامس : أنها المجعولة كذلك ، كقولهم دراهم مدرهمة[7] .

والسادس : أن القناطير المذكورة مأخوذة من قنطرة الوادي ، إما لأنها بتركها مُعَدَّة كالقناطر المعبورة ، وإما لأنها معدة لوقت الحاجة ، والقناطير مأخوذة من عقد الشيء وإحكامه كالقنطرة . قاله الماوردي[8].

قال ابن عطية:" والذي أقول: إنها إشارة إلى حضور المال وكونه عتيدا، فذلك أشهى في أمره وذلك أنك تقول في رجل غني من الحيوان والأملاك: فلان صاحب قناطير مال أي لو قومت أملاكه لاجتمع من ذلك ما يعدل قناطير، وتقول في صاحب المال الحاضر العتيد هو صاحب قناطير مقنطرة أي قد حصلت كذلك بالفعل بها، أي قنطرت فهي مقنطرة، وذلك أشهى للنفوس وأقرب للانتفاع وبلوغ الآمال"[9].

قوله تعالى:{وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ }[آل عمران:١٤]، أي: الأصيلة الحسان"[10].

وفي قوله تعالى:{ وَالْخَيلِ الْمُسَوَّمَةِ}[آل عمران: ١٤] أقوال :

أحدها : أنها الراعية ، قاله سعيد بن جبير[11]، والربيع[12]، وعبدالرحمن بن أبزى[13]، وابن عباس[14]، والحسن[15] ومجاهد[16]، ومنه قوله تعالى:{ فِيهِ تُسِيمُونَ} [النحل : ١٠] } أي ترعون .

والثاني : أن المسومة الحسنة ، قاله مجاهد[17]، وعكرمة[18]، والسدي[19].

والثالث : أنها المعلَّمة ، قاله ابن عباس[20] ، وقتادة[21] .

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٤٩/٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢٥):ص٢٤٩/٦.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢٦):ص٢٥٠/٦.
(٤) انظر: النكت والعيون: ٣٧٥/١.
(٥) انظر: معاني القرآن: ١٩٥/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢٧):ص٢٥٠/٦.
(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٧٥/١، والتفسير السيط:٩٦/٥.
(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٧٥/١.
(٩) المحرر الوجيز: ٤٠٩/١.
(١٠) صفوة التفاسير: ١٧١/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢٠):ص٢٥١/٦-٢٥٢.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٦٧٣٦):ص٢٥٢/٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧٣٣):ص٢٥٢/٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٦٧٣٤):ص٢٥٢/٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٦٧٣٥):ص٢٥٢/٦.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٦٧٣٧):ص٢٥٢/٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٦٧٣٨)-(٦٧٤٢):ص٢٥٢/٦-٢٥٣.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٦٧٤٣):ص٢٥٣/٦.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(٦٧٤٥):ص٢٥٣/٦.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري(٦٧٤٦):ص٢٥٤/٦.
(٢١) انظر: تفسير الطبري(٦٧٤٧):ص٢٥٤/٦.

والرابع : أنها المعدة للجهاد ، قاله ابن زيد[١] .
والخامس: أنها: الغرة والتحجيل. قاله مكحول[٢].
والسادس: أن المسومة: منطقة بحمرة. قاله مطر[٣].
والسابع : أنها من السيما مقصورة وممدود ، قاله الحسن[٤] ، ومنه قال الشاعر[٥] :
غلامٌ رماه اللهُ بالحُسْن يافعاً   له سيمياء لا تَشُقُّ على البصر
والصواب ان {الخيل المسوّمة }، هي "المعلَمة بالشِّيات ، الحسان ، الرائعة حسنًا من رآها. لأن " التسويم " في كلام العرب : هو الإعلام"[٦]. والله أعلم.
قوله تعالى:{ وَالْأَنْعَامِ }[آل عمران:١٤]، أي: الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة"[٧].
قال السدي:" الأنعام الراعية"[٨].
قوله تعالى: :{ والحَرْثِ}[آل عمران: ١٤]، " أي الأرض المتخذة للغراس والزراعة"[٩].
قال الصابوني: " أي: الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم"[١٠].
وفي قوله تعالى:{ والحَرْثِ}[آل عمران: ١٤]، تفسيران:
أحدهما: أنه الزرع .
والثاني: أنه أرض الحرث، لأنها أصل ، ويكون الحرث بمعنى المحروث. أفاده الماوردي[١١].
قوله تعالى:{ذَلِكَ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا}[آل عمران:١٤]، " أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتُها الفانية الزائلة"[١٢].
قال البيضاوي:" إشارة إلى ما ذكر"[١٣].
قال الآلوسي:" أي ما يتمتع به أياما قلائل ثم يزول عن صاحبه"[١٤].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[آل عمران:١٤]، أي :وعند الله حسن المرجع والثواب"[١٥].
قال السدي:" يقول : حسن المنقلب ، وهي الجنة"[١٦].
قال البيضاوي:" أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية[١٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٦٧٤٩):ص٢٥٤/٦.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٧٥):ص٦١١/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٧٤):ص٦١١/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون: ٣٧٧/١، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٢٧٣):ص٦١١/٢.
(٥) البيت لأسيد بن عنقاء الفزاري، انظر: الأغاني:٢٠٨/١٩، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ١٥٨٦، وللتبريزي: ٢٦٨/٤، وزهر الآداب: ٩٥٩، وسمط الآلي: ٥٤٣، واللسان، مادة"سوم"، وتهذيب اللغة: ١١٢/١٣، والمخصص: ١٦/١٦.
(٦) تفسير الطبري: ٢٥٤/٦.
(٧)صفوة التفاسير: ١٧١/١-١٧٢.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٣٧٦):ص٦١١/٢.
(٩) محاسن التأويل: ٢٩١/٢.
(١٠) صفوة التفاسير:١٧٢.
(١١) انظر: النكت والعيون: ٣٧٧/١.
(١٢) صفوة التفاسير: ١٧٢/١.
(١٣) تفسير البيضاوي: ٨/٢.
(١٤) روح المعاني: ٩٧/٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ٢٥٨/٦، وصفوة التفاسير:١٧٢.
(١٦) أخرجه الطبري(٦٧٥٠):ص٣٤٢/٦.
(١٧) تفسير البيضاوي: ٨/٢.

قال الطبري:" وإنما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثرُوا الدنيا وحبَّ الرياسة فيها ، على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم بعد علمهم بصدقه"[1].

قال السعدي:" فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين:

قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي: وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقا يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها {ذلك متاع الحياة الدنيا} فجعلوها معبرا إلى الدار الآخرة ومتجرا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادا إلى ربهم.

وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغترين بها وتزهيد لأهل العقول النيرة بها، وتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلكم المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع الثمار، والأنهار الجارية على حسب مرادهم والأزواج المطهرة من كل قذر ودنس وعيب ظاهر وباطن، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم، مع الرضوان من الله الذي هو أكبر نعيم، فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الحقيرة، ثم اختر لنفسك أحسنهما واعرض على قلبك المفاضلة بينهما"[2].

الفوائد:

١-من فوائد الآية: حكمة الله عزّ وجلّ في ابتلاء الناس بتزيين حب الشهوات لهم في هذه الأمور السبعة، ووجه الحكمة أنه لولا هذه الشهوات التي تنازع الإنسان في اتجاهه إلى ربه لم يكن للاختبار في الدين فائدة.

٢-ومنها: انه لا يذم من احب هذه الامور على غير هذا الوجه، وهو محبة الشهوة، لأنه إذا زينت له محبة هذه الأمور لا لأجل الشهوة لم يكن ذلك سببا لصده عن دين الله.

٣-ومنها: تقديم الأشد فالأشد، ولهذا قدّم النساء، لكونها اعظم فتنة.

٤-انه كلما كثرة المال ازدادت الفتنة في شهوته، لقوله:{ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ}، لذلك نرى أن بعض الأغنياء كلما كثر مالهم اشتد بخلهم ومنعهم.

٥- ومن الفوائد ان هذه الأشياء كلها لاتعدو ان تكون متاع الحياة الدينا. لقوله:{ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

٦-التزهيد في التعليق بهذه الأشياء، أن ماعند الله خير من هذه الدنيا، لقوله:{ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ }.

٧-تنقيص هذه الحياة الدنيا. لقوله:{ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }.

القرآن

{قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)} [آل عمران : ١٥]

التفسير:

---

(١) تفسير الطبري:٣٤٣/٦.

(٢) تفسير السعدي: ١٢٣/١.

قل -أيها الرسول- : أأخبركم بخير مما زُيِّن للنَّاس في هذه الحياة الدنيا، لمن راقب الله وخاف عقابه جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها، ولهم فيها أزواج مطهرات من الحيض والنفاس وسوء الخلق، ولهم أعظم من ذلك: رضوان من الله. والله مطَّلِع على سرائر خلقه، عالم بأحوالهم، وسيجازيهم على ذلك.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء بن السائب عن أبي بكر بن حفص قال:" لما نزلت: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} إلى آخر الآية، قال عمر: الآن يا رب حين زينتها لنا، فنزلت: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ}الآية كلها"(١).

قوله تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ}[آل عمران:١٥]، " أي: قل يا محمد أأخبركم بخيرٍ ممّا زُيِّن للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل؟"(٢).

قال ابن كثير:" أي : قل يا محمد للناس : أأخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها ، الذي هو زائل لا محالة"(٣).

قوله تعالى:{ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ }[آل عمران:١٥]،" أي للمتقين يوم القيامة"(٤).

قال الطبري:أي:" للذين خافوا الله فأطاعوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه عند ربهم"(٥).

قال قتادة:" أن عمر بن الخطاب كان يقول: اللهم زينت لنا الدنيا، وأنبأتنا أن ما بعدها خير منها، فاجعل حظنا في الذي هو خير وأبقى"(٦).

قوله تعالى:{جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ }[آل عمران:١٥]، "أي:جناتٌ فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار"(٧).

قال أبو مالك" يعني المساكن تجري أسفلها أنهار"(٨).

قال عبدالله:" أنهار الجنة تفجر من جبل مسك"(٩).

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا}[آل عمران:١٥]، أي : ماكثين فيها أبد الآباد"(١٠).

قال ابن عباس:" يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له"(١١).

قوله تعالى:{وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ}[آل عمران:١٥]، أي منزهةٌ عن الدنس والخبث، الحسي والمعنوي، لا يتغوَّطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن، ولا يعتريهن نساء الدنيا"(١٢).

قال ابن عباس:" مطهرة من القذر والأذى"(١٣).

قال مجاهد:" مطهرة من الحيض، والغائط والبول، والنخام، والبزاق، والمني، والولد"(١٤).

قوله تعالى:{وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ}[آل عمران:١٥]، "أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله"(١٥).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٤٧):ص٦٠٦/٢، وانظر: العجاب في بيان الأسباب(١٨٢):ص ٦٦٧/٢.

(٢) صفوة التفاسير:١٧٢.

(٣) تفسير ابن كثير:٢٢/٢.

(٤) تفسير ابن كثير:٢٢/٢.

(٥) تفسير الطبري:٢٦١/٦.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٧٩):ص٦١٢/٢.

(٧) تفسير ابن كثير:٢٢/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٨٢):ص٦١٢/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٨١):ص٦١٢/٢.

(١٠) تفسير ابن كثير:٢٢/٢.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٨٤):ص٦١٢/٢-٦١٣.

(١٢) صفوة التفاسير: ١٧٢/١.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٨٥):ص٦١٣/٢.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٨٦):ص٦١٣/٢.

(١٥) صفوة التفاسير: ١٧٢/١.

قال ابن كثير:" أي : يحل عليهم رضوانه ، فلا يَسْخَط عليهم بعده أبدا ؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة : { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة : ٧٢] أي : أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم "(١).

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟

فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبدا"(٢).

قوله تعالى:{ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }[آل عمران:١٥]، أي والله "عليم بأحوال العباد"(٣).

قال عامر:" رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية: {سميع بصير}.يقول: بكل شيء بصير"(٤).

قال ابن كثير:" أي : يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء"(٥).

الفوائد:

١-أهمية هذا النبأ وذلك من وجهين: الأول تصديره بالأمر والثاني إتيانه بصيغة الاستفهام التقريري الدال على التشويق.

٢-العناية الإلهية بخلقه، إذ أنه لما ذكر ما زيّن لهم من الشهوات، أنبأهم بما هو خير من ذلك.

٣-تكريم المتقين والعناية بهم بان لهم هذا الخير بجوار رب العالمين، لقوله:{عند ربهم جنات}.

٤- ومن الفوائد: أن تمام نعيم المتقين يكون برضوان الله، وهو اكبر نعيم، لقوله:{ورضوان من الله}.

٥-إثبات صفة الرضا لله تعالى، وهو من الصفات الفعلية، لأنه يتعلق بمشيئته، فمتى وجب سبب الرضا وجد الرضا، وكل سبب تكون متعلقة بسبب فغنها من الصفات الفعلية.

٦-إحاطته جلّ وعلا بالعباد علما ورؤية، لقوله:{والله بصير بالعباد}.

٧-أن عامة الخلق هم عباد الله، المتقي منهم وغير المتقي، لقوله:{والله بصير بالعباد}.

٨-التحذير من مخالفة امره تعالى، لأنه متى علم الانسان أن الله بصير به، فسوف يردع نفسه عن مخالفة ربه.

القرآن

{الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)} [آل عمران : ١٦]

التفسير:

هؤلاء العباد المتقون يقولون: إننا آمنا بك، واتبعنا رسولك محمدًا صلى الله عليه وسلم، فامْحُ عنا ما اقترفناه من ذنوب، ونجنا من عذاب النار.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا}[آل عمران:١٦]، " الذين يقولون : ربنا إننا صدّقنا بك وبنبيك وما جاء به من عندك"(٦).

قال ابن كثير:" أي:[صدّقنا] بك وبكتابك وبرسولك"(١).

---

(١) تفسير ابن كثير:٢/٢٢-٢٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٨٨):ص٢/٦١٣، ومسلم في كتاب الجنة: رقم (٢٨٢٩):ص٤/ ٢١٧٦.

(٣) صفوة التفاسير: ١/١٧٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٩٠):ص٢/٦١٣-٦١٤.

(٥) تفسير ابن كثير:٢/٢٣.

(٦) تفسير الطبري:٦/٢٦٣.

قال الراغب الأصفهاني:" {الَّذِينَ} جرّ صفة للعباد، أو رفع على تقدير: هم الذين، أو نصب على المدح، وقوله: (يَقُولُونَ) ليس يعني أن ذلك منهم بالقول فقط، بل باعتقادهم وفعلهم"[٢].

قوله تعالى: {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}[آل عمران:١٦]، أي:" فاستر علينا ذنوبنا، بعفوك عنها، وتركك عقوبتنا عليها"[٣].

قال ابن كثير:" أي: بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك"[٤].

قوله تعالى: {وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[آل عمران:١٦]، أي:" ونجنا من عذاب النار"[٥].

قال الحاكم: "في الآية دلالة على أنه يجوز للداعي أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى الله، ثم يدعو ويؤيده ما في الصحيحين من حديث أصحاب الغار [٦]، وتوسل كل منهم بصالح عمله، ثم تفريج الباري تعالى عنهم"[٧].

قال السعدي:" توسلوا بمنة الله عليهم بتوفيقهم للإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ويقيهم شر آثارها وهو عذاب النار"[٨].

الفوائد:

١-إن من صفات المؤمنين إعلانهم الإيمان بالله، واعترافهم بالعبودية له، والقول هنا باللسان ويكون بالقلب، ويصدقه العمل.

٢-جواز التوسل بالإيمان، لقوله:{ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فإن الفاء هنا سببية، أي ان مابعدها سبب عما قبلها.

٣-ومن الفوائد: الشعور بالتقصير وعدم الإعجاب بالنفس، لأن التقوى لاتعصم العبد من الذنوب، بل قد يكون له ذنوب، لكن المتقي يبادر بالتوبة إلى الله تعالى.

٤-ومن الفوائد: إثبات عذاب النار، لقوله:{ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

القرآن

{الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)} [آل عمران : ١٧]

التفسير:

هم الذين اتصفوا بالصبر على الطاعات، وعن المعاصي، وعلى ما يصيبهم من أقدار الله المؤلمة، وبالصدق في الأقوال والأفعال وبالطاعة التامة، وبالإنفاق سرا وعلانية، وبالاستغفار في آخر الليل; لأنه مَظِنَّة القبول وإجابة الدعاء.

قوله تعالى:{الصَّابِرِين}[آل عمران : ١٧]، أي: الصابرين " في البأساء والضراء وحين البأس"[٩].

قال قتادة:" قوم صبروا على طاعة الله ، وصَبروا عن محارمه"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات"[١١].

وفي تفسير{الصَّابِرِينَ}[آل عمران:١٧] أربعة تأويلات [١]:

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٣/٢.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني:٤٥٨/٢.

(٣) تفسير الطبري:٢٦٣/٦.

(٤) تفسير ابن كثير:٢٣/٢.

(٥) صفوة التفاسير:١٧٢.

(٦)أخرجه البخاري في: البيوع، ٩٨- باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي.

(٧) محاسن التأويل: ٢٩٣/٢.

(٨) تفسير السعدي:١٢٤.

(٩)تفسير الطبري:٢٦٤/٦.

(١٠) أخرجه الطبري(٦٧٥٢):ص٢٦٤/٦-٢٦٥.

(١١)تفسير ابن كثير:٢٣/٢.

أحدها : الصابرين عما نهوا عنه من المعاصي .
والثاني : يعني في المصائب .
والثالث : الصائمين .
الرابع : الصابرين عما زُيِّن للناس من حب الشهوات . أفاده الماوردي[٢].
قوله تعالى:{ وَالصَّادِقِينَ }[آل عمران : ١٧] ، "أي الصادقين في إيمانهم وأقوالهم ونياتهم"[٣].
قال قتادة:"قوم صدَقت أفواههم واستقامت قلوبهم وألسنتهم، وصَدَقوا في السرّ والعلانية"[٤].
قال سعيد بن جبير:" يقول: على أمر الله"[٥].
قال الطبري:أي:" الذين صدقوا الله في قولهم بتحقيقهم الإقرارَ به وبرسوله وما جاء به من عنده ، بالعمل بما أمره به والانتهاء عما نهاه عنه"[٦].
قال ابن كثير:"فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة"[٧].
وفي قوله :{ وَالصَّادِقِينَ}[آل عمران:١٧] أربعة اوجه :
أحدها : في قولهم[٨].
والثاني: في إيمانهم. قاله سعيد[٩].
والثالث: أنهم العابدون. قاله عباد بن منصور[١٠].
والرابع: في القول والفعل والنيَّة ، وهذا معنى قول قتادة[١١].
قال الماوردي:"والصدق في القول : الإخبار بالحق ، والصدق في الفعل : إتمام العمل ، والصدق في النية : إمضاء العزم [١٢].
قوله تعالى:{ وَالْقَانِتِينَ }[آل عمران : ١٧] ، أي:" المطيعين لله الخاضعين له"[١٣].
قال ابن كثير:"والقنوت : الطاعة والخضوع "[١٤].
وفي قوله{وَالْقَانِتِينَ}[آل عمران:١٧] ثلاثة اقوال:
أحدها : يعني المطيعين ، قاله سعيد بن جبير[١٥]، وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك[١٦].
والثاني :أنهم المصلون. قاله عطاء[١٧].
والثالث: معناه القائمون على بادة الله، قاله الزجاج[١٨].

---

(١)انظر: النكت والعيون: ٣٧٧/١-٣٧٨.
(٢) انظر: النكت والعيون: ٣٧٨/١.
(٣) محاسن التأويل: ٢٩٣/٢.
(٤) أخرجه الطبري(٦٧٥٢):ص٢٦٤/٦-٢٦٥.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢٩١):ص٦١٤/٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٦٤/٦.
(٧)تفسير ابن كثير:٢٣/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٧٨/١.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٩٣):ص٦١٤/٢.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٩٥):ص٦١٥/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٦٧٥٢):ص٢٦٤/٦-٢٦٥.
(١٢) النكت والعيون: ٣٧٨/١.
(١٣) محاسن التأويل: ٢٩٤/٢.
(١٤)تفسير ابن كثير:٢٣/٢.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٩٧):ص٦١٥/٢.
(١٦)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٩٧):ص٦١٥/٢.
(١٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٩٦):ص٦١٥/٢.
(١٨) انظر: معاني القرآن: ٣٨٥/١.

قوله تعالى:{ والْمُنفِقِينَ }[آل عمران : ١٧] ،"أي الذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير"[١].
قال القاسمي:" أموالهم في سبيل الله تعالى من الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات"[٢].
قال الطبري:" فهم المؤتون زكوات أموالهم ، وواضعوها على ما أمرهم الله بإتيانها ، والمنفقون أموالهم في الوجوه التي أذن الله لهم جل ثناؤه بإنفاقها فيها"[٣].
قال ابن كثر: "أي : من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقرابات ، وسد الخَلات ، ومواساة ذوي الحاجات"[٤].
ويحتمل قوله{ والْمُنفِقِينَ}[آل عمران:١٧] تأويلان[٥] :
أحدهما : في الجهاد .
والثاني : في جميع البِرِّ .
قوله تعالى:{ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأسْحَارِ }[آل عمران : ١٧]، أي: والمستغفرين "وقت السحر فبيل طلوع الشمس"[٦].
قال الزجاج:" فالله عز وجل وصف هؤلاء بالتصديق والإنفاق في سبيله والقيام بعبادته، ثم وصفهم بأنهم مع ذلك لشدة خوفهم ووجلهم يستغفرون بالأسحار"[٧].
قال الرازيّ: واعلم أن المراد منه من يصلي بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء، لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلّى قبل ذلك، فقوله: وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل"[٨].
قال ابن كثير:"دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل : إن يعقوب ، عليه السلام ، لما قال لبنيه : { سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي } [يوسف : ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر"[٩].
وذكر أهل العلم في تفسير قوله تعالى:{وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأسْحَارِ}[آل عمران:١٧]، ثلاثة تأويلات :
أحدها يعني المصلين بالأسحار ، قاله قتادة[١٠].
والثاني : أنهم المستغفرون قولاً بالأسحار يسألون الله تعالى المغفرة ، قاله ابن مسعود[١١]، وابن عمر[١٢]، وأنس بن مالك[١٣]، وجعفر بن محمد[١٤].
والثالث : أنهم يشهدون الصبح في جماعة ، قاله زيد بن أسلم[١٥].
قال الزجاج:" السحر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، العرب تقول جئتك بأعلى السحر تريد في أول السحر، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر الظاهر البين"[١٦].
الفوائد:

---

(١) صفوة التفاسير:١٧٢.
(٢) محاسن التأويل: ٢/٢٩٤.
(٣) تفسير الطبري:٦/٢٦٥.
(٤)تفسير ابن كثير:٢/٢٣.
(٥)انظر: النكت والعيون: ١/٣٧٨.
(٦) صفوة التفاسير:١٧٢.
(٧) معاني القرآن: ١/٣٨٥، وانظر:النكت والعيون: ١/٣٧٨.
(٨) مفاتيح الغيب:٧/١٦٧.
(٩)تفسير ابن كثير:٢/٢٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٦٧٥٣):ص٦/٢٦٥.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٦٧٥٥):ص٦/٢٦٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٦٧٥٦):ص٦/٢٦٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧٥٧):ص٦/٢٦٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٦٧٥٨):ص٦/٢٦٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٦٧٥٩):ص٦/٢٦٧.
(١٦) معاني القرآن: ١/٣٨٥، وانظر:النكت والعيون: ١/٣٧٨.

١-فضيلة هذه الصفات التي أثنى الله عليها، وهي: الصبر، والصدق، والقنوت، والإنفاق، والاستغفار، في الأسحار، والحث على الاتصاف بها.
٢-إن الصبر أفضل هذه الصفات، لأن الانسان إذا حقق الصبر، حقق جميع هذه الصفات، فمن أقسام الصبر: السبر على طاعة الله وعن معصيته.
٣-ذم الاتصاف بضدّ هذه الصفات، وهي: الجزع، والذب، وقلة الطاعة، والبخل، والشح، والاستكبار عن الاستغفار.

القرآن
{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)} [آل عمران : ١٨]
التفسير:
شهد الله أنه المتفرد بالإلهية، وقرَنَ شهادته بشهادة الملائكة وأهل العلم، على أجلِّ مشهود عليه، وهو توحيده تعالى وقيامه بالعدل، لا إله إلا هو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء أراده، الحكيم في أقواله وأفعاله.
في سبب نزول الآية:
قال الواحدي:"قال الكلبي: لما ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان، فلما دخلا على النبي - صلى الله عليه وسلم - عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: "نعم"، قالا: وأنت أحمد؟ قال: "نعم"، قالا: إنا نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "سلاني"، فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فأنزل الله تعالى على نبيه: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم} فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله - صلى الله عليه وسلم –"(١). وذكره الثعلبي عن الكلبي(٢).
قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[آل عمران:١٨]، "أي بيّن وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية"(٣).
قال ابن كثير:" شهد تعالى - وكفى به شهيدا ، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم ، وأصدق القائلين - { أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ } أي : المتفرِد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، والفقراء إليه ، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى : { لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزلَ إِلَيْكَ أَنزلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ (٣) شَهِيدًا } الآية [النساء : ١٦٦]"(٤).
واختلف القراء في قوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}[آل عمران:١٨]، على ثلاثة اوجه(٥):
أحدها:{شهد الله}، بالرفع والمد على معنى: هم شهداء يعني: الذين مر ذكرهم. قراءة أبي نهيك وأبي الشعثاء.
والثاني: {شهد الله}، منصوبة على الحال والمدح. رواه المهلب عن محارب بن دثار.
والثالث: {شهد الله}، على الفعل، أي: بيّن لأن الشهادة تبيين، قراءة الباقين.
قوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ }[آل عمران:١٨]، أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه"(٦).

---

(١) أسباب النزول للواحدي:٩٩.
(٢) تفسير الثعلبي:٣٢/٣.
(٣) صفوة التفاسير:١٧٤.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٤/٢.
(٥) انظر: تفسير الثعلبي:٣٢/٣.
(٦) صفوة التفاسير:١٧٤.

قال ابن كثير:" وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام"(١).
قوله تعالى:{قائِماً بِالْقِسْطِ}[آل عمران:١٨]، " أي مقيماً للعدل في جميع أموره"(٢).
قال القاسمي:"أي بالعدل في أحكامه"(٣).
قال أبو السعود:" بيان لكماله تعالى في أفعاله إثرَ بيانِ كماله في ذاته"(٤).
قوله تعالى:{ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ}[آل عمران:١٨]،" أي: لا معبود في الوجود بحق إلا هو(٥).
قوله تعالى:{ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[آل عمران:١٨]، " أي: العزيز في ملكه الحكيم في صنعه"(٦).
قال ابن كثير:"{العزيز}: الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء، {الحكيم} في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره"(٧).
الفوائد:
١-بيان فضيلة التوحيد، إذ أخبر الله به عباده بلفظ الشهادة.
٢-ومن الفوئاد: بيان فضيلة الملائكة، إذ جعلهم الله تعالى في المرتبة الأولى في الشهادة بالتوحيد بعدع سبحانه وتعالى.
٣-فضيلة العلم وأهله، لقوله:{وأولوا العلم}.
٤-وصف الله تعالى بتمام العدل، لقوله:{قائما بالقسط}.
٥-إثبات العزة والحكمة لله، لقوله:{العزيز الحكيم}، وأن عزة الله مبنية على الحكمة، وتنزيل الأشياء في منازلها، وهذا مأخوذ من ضم الاسمين الكريمين بعضهما إلى البعض، لأن العزيز من المخلوقين قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقول الحق، أما الله تعالى فإنه يقول الحق مع كمال عزته.

القرآن
{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)} [آل عمران : ١٩]
التفسير:
إن الدين الذي ارتضاه الله لخلقه وأرسل به رسله، ولا يَقْبَل غيره هو الإسلام، وهو الانقياد لله وحده بالطاعة والاستسلام له بالعبودية، واتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي لا يقبل الله مِن أحد بعد بعثته دينًا سوى الإسلام الذي أرسل به. وما وقع الخلاف بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتفرقوا شيعًا وأحزابًا إلا من بعد ما قامت الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب; بغيًا وحسدًا طلبًا للدنيا. ومن يجحد آيات الله المنزلة وآياته الدالة على ربوبيته وألوهيته، فإن الله سريع الحساب، وسيجزيهم بما كانوا يعملون.
في سبب نزول الآية أقوال:
أحدها: أخرج الطبري من طريق الربيع بن أنس في هذه الآية قال: قال أبو العالية: {بَغْيًا بينهم}، يقول : بغيًا على الدنيا ، وطلبَ ملكها وسلطانها ، فقتل بعضهم بعضًا على الدنيا ، من بعد ما

(١) تفسير ابن كثير:٢٤/٢.
(٢) تفسير أبي السعود:١٧/٢.
(٣) محاسن التأويل: ٢٩٥/٢.
(٤) تفسير أبي السعود:١٧/٢.
(٥) صفوة التفاسير:١٧٤.
(٦) صفوة التفاسير:١٧٤.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٤/٢.

كانوا علماءَ الناس"[1]، قال الربيع: "إن موسى لما حضره الموتُ دعا سبعين حَبرا من أحبار بني إسرائيل ، فاستودعهم التوراة ، وجعلهم أمناء عليه ، كلّ حبر جُزءًا منه، واستخلف موسى يوشع بن نون. فلما مضى القرن الأول ومضى الثاني ومضى الثالث ، وقعت الفرقة بينهم - وهم الذين أوتوا العلم من أبناء أولئك السبعين – حتى أهَرقوا بينهم الدماء ، ووقع الشرّ والاختلاف. وكان ذلك كله من قبل الذين أتوا العلم ، بغيًا بينهم على الدنيا ، طلبًا لسلطانها وملكها وخزائنها وزخرفها ، فسلّط الله عليهم جبابرتهم ، فقال الله : {إن الدّين عند الله الإسلام} إلى قوله :{والله بصير بالعباد} "[2].

والثاني: أخرج الطبري من طريق ابن إسحاق عن محمد بن جعفر ابن الزبير في هذه الآية، قال: "يعني بذلك النصارى"[3].

والثالث: نقل الثعلبي عن الكلبي قال: " نزلت في يهوديين تركوا اسم الإسلام وتسموا باليهودية والنصرانية، قال الله تعالى: { وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ} قال: دين الله هو الإسلام بغيا منهم، فلما وجدا نظيره قوله: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة : ٤]، فقالت اليهود والنصارى: لسنا على ما سميتنا به يا محمد إن اليهودية والنصرانية سب هو الشرك، والدين هو الإسلام ونحن عليه"[4].

قوله تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ }[آل عمران:١٩]، أي: إن "الشرع المقبول عند الله هو الإسلام"[5].

قال البيضاوي:" أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم"[6].

قال أبو الرباب القشيري :"يأمرهم بالإسلام وينهاهم عما سواه"[7].

قال أبو العالية:" الإسلام: الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسائر الفرائض لها تبع"[8].

قال الطبري:" ومعنى «الدين»، في هذا الموضع : الطاعة والذّلة ، من قول الشاعر[9]:

وَيَوْمُ الحَزْنِ إِذْ حُشِدَتْ مَعَدٌّ ... وَكَانَ النَّاسُ ، إلا نَحْنُ دِينَا

يعني بذلك : مطيعين على وجه الذل ، ومنه قول القطامي[10]:

كانَتْ نَوَارُ تَدِينُك الأدْيانا

يعني : تُذلك ، وقول الأعشى ميمون بن قيس[11]:

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ إِذْ كَرِهُوا الدِّ ... ينَ دِرَاكًا بِغَزْوَةٍ وَصِيَالِ

يعني بقوله : " دان " ذلل وبقوله : " كرهوا الدين " ، الطاعة"[12].

وفي أصل "الاسلام"، قولان[13]:

---

(١) تفسير الطبري(٦٧٦٧):ص٢٧٧/٦.

(٢) تفسير الطبري(٦٧٦٩):ص٢٧٧/٦-٢٧٨.

(٣)تفسير الطبري(٦٧٧٠):ص٢٧٨/٦، ورواه ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق ٢ / ٢٢٧، وقوله : " يعني بذلك النصارى " ، ليس في ابن هشام ، وكأنه من تفسير الطبري للخبر.

(٤) تفسير الثعلبي: ، وانظر: العجاب: ٦٦٩/٢.

(٥) صفوة التفاسير:١٧٤.

(٦) تفسير البيضاوي: ٩/٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣١٢):ص٦١٧/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣١٣):ص٦١٧/٢-٦١٨.

(٩)البيت من شواهد الطبري في تفسيره: ٢٧٤/٦، ولم أتعرف على قائله.

(١٠)ديوانه:١٥، وتمامه: "رَمَتِ المَقَاتِلَ مِنْ فُؤَادِكَ ، بَعْدَ ما ... كانَتْ جَنُوبُ تَدِينُكَ الأدْيانَا".

(١١)ديوانه : ١٢,

(١٢) تفسير الطبري:٢٧٤/٦.

(١٣) انظر: النكت والعيون: ٣٧٩/١-٣٨٠.

أحدهما : أن أصله مأخوذ من السلام وهو السلامة ، لأنه يعود إلى السلامة .
والثاني : أن أصله التسليم لأمر الله في العمل بطاعته .
قوله تعالى: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}[آل عمران:١٩]، " أي: وما اختلف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام"(١).
قال سعيد: يعني:"بنو اسرائيل"(٢).
وفي أهل الكتاب الذين اختلفوا ثلاثة أقاويل :
أحدها : أنهم أهل التوراة من اليهود ، قاله الربيع(٣).
والثاني : أنهم أهل الإنجيل من النصارى ، قاله محمد بن جعفر بن الزبير(٤)، ورجحه الطبري(٥).
والثالث : أنهم أهل الكتب كلها ، والمراد بالكتاب الجنس من غير تخصيص ، وهو قول بعض المتأخرين(٦).
وفيما اختلفوا فيه ثلاثة أقاويل(٧):
أحدها : في أديانهم بعد العلم بصحتها .
والثاني : في عيسى وما قالوه فيه من غلو وإسراف .
والثالث : في دين الإسلام .
قوله تعالى: { إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ}[آل عمران:١٩]،" أي: إلا بعد أن علموا بالحجج النيرّة والآيات الباهرة حقيقة الأمر"(٨).
قال أبو العالية:" إلا من بعد ما جاءهم الكتاب"(٩).
قوله تعالى:{ بَغْيًا بَيْنَهُمْ }[آل عمران:١٩]، " أي حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة"(١٠).
قال أبيّ بن كعب:" بغيا على الدنيا، وطلب ملكها وزخرفها وزينتها، أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، فبغى بعضهم على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعضهم"(١١).
قال أبو العالية:" بغيا على الدنيا، وطلب ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضا على الدنيا بعد ما كانوا علماء الناس"(١٢).
وروي عن سعيد بن جبير في قوله:{بغيا بينهم}، قال: "كثرت أموالهم، فتنازعوا فيها"(١٣).
قال ابن كثير:" أي : بغى بعضهم على بعض ، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم ، فحمل بعضهم بُغْض البَعْض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله ، وإن كانت حقا"(١٤).

---

(١) صفوة التفاسير:١٧٤.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣١٥):ص٦١٨/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧٦٩):ص٦/٢٧٧-٢٧٨.
(٤)انظر: تفسير الطبري(٦٧٧٠):ص٦/٢٧٨.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٢٧٦/٦.
(٦) انظر: النكت والعيون:٣٨٠/١.
(٧) انظر: النكت والعيون:٣٨١/١.
(٨) صفوة التفاسير:١٧٤.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣١٦):ص٦١٨/٢.
(١٠) صفوة التفاسير:١٧٤.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣١٨):ص٦١٨/٢.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣١٩):ص٦١٨/٢.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣١٩):ص٦١٨/٢.
(١٤) تفسير ابن كثير:٢٥/٢.

قوله تعالى:{ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }[آل عمران:١٩]، " أي : [و] من جحد بما أنزل الله في كتابه، فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه"(١).

قال ابن عطية:" توعد عز وجل الكفار"(٢).

قال الصابوني:" أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعاً فيجازيه على كفره"(٣).

وفي قوله تعالى:{ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }[آل عمران:١٩]، وجهان:

أحدهما: أنه يحتمل أن يراد بها سرعة مجيء القيامة والحساب إذ هي متيقنة الوقوع، فكل آت قريب. أفاده ابن عطية(٤).

والثاني: أن المعنى: إحصاؤه عليهم، فيحتمل أن يراد بسرعة الحساب أن الله تعالى بإحاطته بكل شيء علما لا يحتاج إلى عد ولا فكرة، وهذا معنى قول مجاهد(٥).

الفوائد:

١-من فوائد الآية الكريمة: ان الدين الذي يعتد به ويكون مقبولا عند الله هو الاسلام، وكل دين يخالف الاسلام في اي زمان فليس بمقبول مرضي عند الله.

٢-ومنها: أن اختلاف اليهود والنصارى كان عن علم، وأن اختلافهم ليس لقصد الحق، وإنما لقصد البغي والعدوان بعضهم على بعض، حتى ليضل بعضهم بعضا.

٣-ومنها: الإشارة إلى التحذير مما وقع هؤلاء الكفار الذين أوتوا الكتاب، ومعلوم أن البغي محذر منه، غير مرغوب فيه.

٤-ومنها: التحذير من الكفر بآيات الله، وبالتالي الحثّ على الايمان بآيات الله، لأن القدح في الشيء مدح لضده.

٥-بيان قدرة الله عزّ وجلّ بكونه سريع الحساب.

٦-يستفاد من الآية الرد على الجبرية، ووجه ذلك أن الله تعالى أسند هذه الأفعال إلى فاعليها{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، {بَغْيًا بَيْنَهُمْ}،{وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ}، وما اشبه ذلك، كل ذلك يفيد أن للإنسان إرادة وفعلا اختياريا، خلافا للجبرية الذين قالوا: إن أفعال العباد يجبر عليها الانسان.

القرآن

{فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)} [آل عمران : ٢٠]

التفسير:

فإن جادلك -أيها الرسول- أهل الكتاب في التوحيد بعد أن أقمت الحجة عليهم فقل لهم: إنني أخلصت لله وحده فلا أشرك به أحدًا، وكذلك من اتبعني من المؤمنين، أخلصوا لله وانقادوا له. وقل لهم ولمشركي العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وليس عليَّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة. والله بصير بالعباد، لا يخفى عليه من أمرهم شيء.

سبب النزول:

---

(١) تفسير ابن كثير:٢/٢٥-٢٦.
(٢) المحرر الوجيز: ٤١٣/١.
(٣) صفوة التفاسير:١٧٤.
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ٤١٣/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٢٢٠):ص٦١٩/٢.

قال ابن حجر: "قال ابن الكلبي: لما نزلت: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ} قالت اليهود والنصارى: لسنا على ما تسمينا به يا محمد إنما اليهودية والنصرانية ليست لنا، والدين هو الإسلام ونحن عليه، فأنزل الله تعالى: {فَإِنْ حَاجُّوكَ} أي: خاصموك في الدين: {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ} قال: فقالوا: أسلمنا، فقال لليهود: "أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله، فقالوا: لا فنزلت: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ}"(١).

قوله تعالى: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ}[آل عمران: ٢٠]، "أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدِّين فقل لهم: أنا عبدٌ لله قد استسلمتُ بكليتي لله، وأخلصت عبادتي له وحده"(٢).

قال محمد بن جعفر بن الزبير: "أي : بما يأتونك به من الباطل ، من قولهم : " خَلقنا ، وفعلنا ، وجعلنا ، وأمرنا " ، فإنما هي شبه باطلة قد عرفوا ما فيها من الحق { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ}"(٣).

قال الحسن:" إن حاجك اليهود والنصارى فقل: { أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ }"(٤).

قال ابن كثير:" أي : جادلوك في التوحيد فقل أخلصت عبادتي لله وحده ، لا شريك له ولا ند له، ولا ولد ولا صاحبة له"(٥).

قال الزمخشري:"فإن جادلوك في الدين، فقل: أخلصت نفسي وجملتي للّه وحده لم أجعل فيها لغيره شركا بأن أعبده وأدعوه إلها معه يعنى أن دينى التوحيد وهو الدين القديم الذي ثبتت عندكم صحته كما ثبتت عندي ، وما جئت بشيء بديع حتى تجادلونى فيه. ونحوه (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً}[آل عمران:٦٤]، فهو دفع للمحاجة بأن ما هو عليه ومن معه من المؤمنين هو حق اليقين الذي لا لبس فيه فما معنى المحاجة فيه"(٦).

قال القاسمي:" {فإن حاجوك} في الدين وجادلوك فيه بعد إقامة تلك الآيات فَقُلْ:انقدت لآيات الله المنزلة، وأخلصت نفسي وعبادتي له، لا أشرك فيها غيره"(٧).

قال ابن عطية:" الضمير في حَاجُّوكَ لليهود ولنصارى نجران والمعنى: إن جادلوك وتعنتوا بالأقاويل المزورة، والمغالطات فاسند إلى ما كلفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك، [وقل]: جعلت مقصدي لله أو أسلمت شخصي وذاتي وكليتي وجعلت ذلك لله"(٨).

قال الطبري:" وإنما خَصّ جل ذكره بأمره بأن يقول : {أسلمت وجهي لله}، لأن الوجه أكرمُ جوارح ابن آدم عليه ، وفيه بهاؤه وتعظيمه ، فإذا خضع وجهه لشيء ، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه"(٩).

قال أبو السعود:" وإنما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهرُ القُوى والمشاعر ومجمع معظم ما يقع به العبادةُ من السجودِ والقراءة وبه يحصل التوجُّه إلى كل شيء"(١٠).

قال الماوردي:" فإن قيل : في أمره تعالى عند حِجَاجِهِمْ بأن يقول{أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ}عدول عن جوابهم وتسليم لحِجَاجِهم ، فعنه جوابان:

---

(١) العجاب: ٦٧٠/٢. وهذا القول غريب جدا.
(٢) صفوة التفاسير:١٧٤.
(٣) أخرجه الطبري(٦٧٧٣):ص٢٨٠/٦.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٢١):ص٦١٩/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٦/٢.
(٦) الكشاف: ٣٤٧/١.
(٧) محاسن التأويل: ٢٧٩/٢.
(٨) المحرر الوجيز: ٤١٤/١.
(٩) تفسير الطبري:٢٨٠/٦.
(١٠) تفسير أبي السعود: ١٨/٢.

أحدهما : ليس يقتضي أمره بهذا القول النهي عن جوابهم والتسليم بحِجَاجِهم ، وإنما أمره أن يخبرهم بما يقتضيه معتقده ، ثم هو في الجواب لهم والاحْتِجَاج على ما يقتضيه السؤال .
والثاني : أنهم ما حاجُّوه طلباً للحق فيلزمه جوابهم ، وإنما حاجُّوه إظهاراً للعناد ، فجاز له الإعراض عنهم بما أمره أن يقول لهم " [1].

قوله تعالى:{ وَمَنِ اتَّبَعَنِ }[آل عمران:٢٠]، " أي:وأسلم من اتبعني أيضًا وجهه لله"[2].

قال ابن كثير: أي:" على ديني ، يقول كمقالتي ، كما قال تعالى : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي [وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف : ١٠٨]"[3].

أخرج ابن أبي حاتم عن " عباد بن منصور قال: سألت عن قوله: {ومن اتبعن}، قال: ليقل من اتبعك مثل ذلك، وبها تخاصم اليهود والنصارى"[4].

قوله تعالى:{وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ}[آل عمران : ٢٠]،" وقل " ، يا محمد ، للذين أوتوا الكتاب " من اليهود والنصارى " والأميين " الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب"[5].

وفي تفسير قوله:{وَالأُمِّيِّينَ}[آل عمران: ٢٠]، وجهان من التفسير:
أحدهما: انهم الذين لا كتاب لهم، قاله محمد بن إسحاق [6].
والثاني: أنهم الذين لايكتبون، وهم مشركو العرب . قاله ابن عباس[7].

قوله تعالى:{ أَأَسْلَمْتُمْ }[آل عمران : ٢٠]،أي:" هل أفردتم التوحيد وأخلصتم العبادة والألوهة لرب العالمين"[8].

قوله تعالى:{فَإِنْ أَسْلَمُوا}[آل عمران:٢٠]، " أي فإن أسلموا كما أسلمتم"[9].

قال أبو السعود:" أي كما أسلمتم وإنما لم يصرح به كما في قوله تعالى {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم بِهِ} حسماً لباب إطلاق اسم الإسلام على شئ آخر بالكلية "[10].

قوله تعالى:{فَقَدِ اهْتَدَوْا} [آل عمران : ٢٠]، أي:" فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور"[11].

قال الربيع:" من تكلم بهذا صدقا من قلبه، يعني: الإيمان، فقد اهتدى"[12].
قال البيضاوي:أي:" فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال"[13].
قال أبو السعود:" أي فازوا بالحظ الأوفر ونجَوْا عن مهاوي الضلال"[14].

قوله تعالى:{وَإِنْ تَوَلَّوْا } [آل عمران : ٢٠]، أي: وإن "أعرضوا عن الاتباع وقبول الإسلام"[15].

قال محمد ابن إسحاق: "وإن تولوا على كفرهم"[16].
وعن الربيع بن أنس قوله: "{وإن تولوا}عنه يعني: عن الإيمان"[1].

---

(١) النكت والعيون:٣٨١/١.
(٢)تفسير الطبري:٢٨٠/٦.
(٣)تفسير ابن كثير:٢٦/٢.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٢٤):ص٦١٩/٢.
(٥) تفسير الطبري:٢٨١/٦.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٢٦):ص٦١٩/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٢٧):ص٦٢٠/٢.
(٨)تفسير الطبري:٢٨١/٦.
(٩)صفوة التفاسير:١٧٤.
(١٠) تفسير أبي السعود: ١٩/٢.
(١١)صفوة التفاسير:١٧٤.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٢٨):ص٦٢٠/٢.
(١٣) تفسير البيضاوي: ١٠/٢.
(١٤) تفسير أبي السعود: ١٩/٢.
(١٥)تفسير أبي السعود: ١٩/٢.
(١٦)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٢٩):ص٦٢٠/٢.

قوله تعالى:{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ} [آل عمران : ٢٠]، أي: "فلم يضرّوك شيئاً إذْ ما عَلَيْكَ إلاَّ البلاغُ"(٢).

قال ابن كثير:" أي : والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة في ذلك ، والحجة البالغة"(٣).

قال البيضاوي:" أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت"(٤).

قال ابن عطية:" ذكر بعض الناس أنها آية موادعة وأنها مما نسخته آية السيف، وهذا يحتاج أن يقترن به معرفة تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزول هذه الآية في وقت وفد نجران فإنما المعنى فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ بما فيه قتال وغيره"(٥).

قوله تعالى:{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[آل عمران : ٢٠]، " أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها"(٦).

قال ابن عطية:" وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين"(٧).

قال ابن كثير:" أي : هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة ، وهو الذي { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء : ٣٣] وما ذاك إلا لحكمته ورحمته، وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ، صَلَوات الله وسلامه عليه ، إلى جميع الخلق"(٨).

قال ابن الجوزي في قوله:{وإن تولوا فإنما عليك البلاغ}:" قد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الكلام اقتضى الاقتصار على التبليغ دون القتال ثم نسخ بآية السيف(٩)، وقال بعضهم لما كان صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمانهم مزعجا نفسه في الاجتهاد في ذلك سكن جأشه بقوله: {إنما أنت نذير}(١٠) و {فإنما عليك البلاغ} والمعنى: لا تقدر على سوق قلوبهم إلى الصلاح فعلى هذا لا نسخ"(١١).

الفوائد:

١- التسليم لله وتفويض الأمر إليه.

٢-أن الوجه أشرف الأعضاء، وهو الذي يكون به الانقياد وعدمه، ولهذا اقرب مايكون العبد من ربه إذا كان ساجدا، لأنه يضع اشرف الأعضاء على موطئ الأقدام.

٢-أن النبي-صلى الله عليه وسلم- متبع لا تابع، لقوله:{ومن اتبعن}، عليه الواجب على من تبين له الحق ان يأخذ به.

٣-لا يون قول أحد أهل العلم حجة على الىخرين، لأن الكل تابعون لا متبوعون.

٤-بيان عظيم منة الله تعالى على العرب ببعثة الرسول-صلى الله عليه وسلم-، ووجه ذلك أنه قال:{للذين اوتوا الكتاب والأميين}، وفرق بين الوصفين، بين من اوتي الكتاب وبين الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، لكنهم ببعثة الرسول-صلى الله عليه وسلم- كانوا هم اهل الكتاب حقا.

---

(١)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٣٠):ص٦٢٠/٢.

(٢)تفسير أبي السعود: ١٩/٢.

(٣)تفسير ابن كثير:٢٦/٢.

(٤)تفسير البيضاوي: ١٠/٢.

(٥) المحرر الوجيز: ٤١٤/١.

(٦) صفوة التفاسير:١٧٤.

(٧) المحرر الوجيز: ٤١٤/١.

(٨)تفسير ابن كثير:٢٦/٢.

(٩)ذكر دعوى النسخ في هذه الآية ابن حزم في معرفة الناسخ والمنسوخ ص:٣٢٦، وهبة الله في الناسخ والمنسوخ ص: ٢٨ وأبو هلال في الإيجاز لمعرفة الناسخ والمنسوخ، المخطوط ورقة ٢١.

(١٠) الآية:١٢، من سورة هود.

(١١) نواسخ القرآن:٣٢٣.

٥-وجوب الاسلام والاستسلام لله تعالى، وأن أهل الهدى هم المسلمون، قال تعالى:{فإن أسلموا فقد اهتدوا}.

٦-إن من لم يسلم فهو ضال، وإن كان علم الحق فكان من الضالين المغضوب عليهم، لأن كل من علم الحق ولم يتبعه فهو مغضوب عليه، قال تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)} [آل عمران : ٢٠]

٧-ومن الفوائد: أنه لايجب على الداعية إلا البلاغة، أما الهداية فإلى الله، لقوله:{ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}.

٨-ومن الفوائد أيضا: أن الانسان لايسأل عن عمل غيره، فيقوم بما يجب عليه، وأما غيره فامره إلى الله تعالى، لقوله:{ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}.

٩-ومنها: عموم علم الله تعالى، لقوله:{ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}، أي: بجميع أحوالهم، ويتضمن التحذير من مخالفة الله.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)} [آل عمران : ٢١]

التفسير:

إن الذين يجحدون بالدلائل الواضحة وما جاء به المرسلون، ويقتلون أنبياء الله ظلمًا بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل واتباع طريق الأنبياء، فبشِّرهم بعذاب موجع.

قوله تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}[آل عمران:٢١]، " أي يكذبون بما أنزل الله"[(١)].

قوله تعالى:{ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ }[آل عمران:٢١]،" أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة"[(٢)].

قال الزمخشري:" وهم أهل الكتاب. قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا ، وكانوا حول قتل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين لولا عصمة اللّه"[(٣)].

أخرج ابن المنذر عن عبد الله، " إن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سوقهم من آخر النهار "[(٤)].

أخرج الطبري عن أبي عبيدة بن الجراح قال : "قلت : يا رسول الله ، أىّ الناس أشدّ عذابًا يوم القيامة ؟ قال : " رجل قتل نبيًّا ، أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف. ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس " إلى أن انتهى إلى " وما لهم من ناصرين " ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًّا من أول النهار في ساعة واحدة! فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عُبَّاد بني إسرائيل ، فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوا جميعًا من آخر النهار في ذلك اليوم ، وهم الذين ذكر الله عز وجل"[(٥)].

واختلفت القراءة في قوله تعالى{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ}[آل عمران:٢١]، على وجوه[(٦)]:

---

(١) صفوة التفاسير:١٧٤.

(٢) صفوة التفاسير:١٧٤.

(٣) الكشاف: ٣٤٧/١.

(٤) تفسير ابن المنذر(٣١٧):ص١٥٢/١.

(٥) تفسير الطبري(٦٧٨٠):ص٢٨٥/٦-٢٨٦، وأخرجه ابن أبي جاتم (٣٣٣٢):ص٦٢٠/٢-٦٢١، والثعلبي في تفسيره:٣٦/٣-٣٧.

(٦) انظر: الكشاف: ٣٤٧/١، والسبعة في القراءات:٢٠٣.

أحدها: {يقتلون النبيين}، قراءة الحسن.
والثاني: {ويقاتلون الذين يأمرون}. قراءة حمزة.
والثالث:{وقاتلوا}، قراءة عبدالله.
والرابع:{يقتلون النبيين و الذين يأمرون}، قرأ بها أبيّ.

قوله تعالى:{ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ }[آل عمران:٢١]، أي:" ويقتلون أيضا الذين يأمرون الناس بالعدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(١).

قال مقاتل:" يعني بالعدل بين الناس من مؤمني بني إسرائيل من بعد موسى"(٢).

أخرج ابن المنذر عن معقل بن أبي مسكين، قال " كان الوحي يأتي بني إسرائيل، فيذكرون قومهم فيقتلون فيهم الذين يأمرون بالقسط من الناس"(٣).

وأخرج ابن المنذرأيضا عن سعيد، قال: " أقحط الناس في زمان ملك من ملوك بني إسرائيل سنين، فقال الملك: ليرسلن علينا السماء أو لنؤذينه، فقال له جلساؤه: كيف تقدر على أن تؤذيه أو تغيظه، وهو في السماء، قال: أقتل أولياءه من أهل الأرض، فيكون ذلك إيذاء له، قال: فأرسل الله عليهم السماء "(٤).

واختلف في الذين أمروا بالقسط من الناس، على أقوال:

احدها: أن" هؤلاء أهل الكتاب، كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذكرونهم بالله، فيقتلونهم". قاله قتادة (٥)، وري عن مجاهد نحو ذلك(٦).

والثاني:أن الذين أمروا بالقسط من الناس: هم خلفاء الأنبياء. وهذا قول سفيان(٧) .

والثالث: أنهم النبيون الذين يأمرون بالقسط من الناس. قاله الحسن(٨).

قوله تعالى:{ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[آل عمران:٢١]، "، فأخبرهم يا محمد وأعلمهم : أنّ لهم عند الله عذابًا موجعا"(٩).

قال الربيع بن أنس:" الأليم الموجع"(١٠)، وروي عن أبي مالك نحو ذلك"(١١).

قال مقاتل:"فبشرهم يا محمد بعذاب وجيع، يعني اليهود لأن هؤلاء على دين أوائلهم الذين قتلوا الأنبياء والآمرين بالقسط"(١٢).

قال السعدي:" فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح"(١٣).

الفوائد:

١-من فوائد الآية: وجوب الإيمان بآيات الله الشرعية والكونية، لأن الله تعالى توعد هؤلاء الكافرين بالعذاب الأليم.

٢-تحريم قتل النبيين، وأنه بغير حق وهو من جملة الكفر، لكن نصّ عليه لشدة شناعته.

٣-شناعة كل من يقتل أو يقاتل من يامر بالقسط من الناس.

---

(١) تفسير السعدي:١٢٦/١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٦٨/١.
(٣) تفسير ابن المنذر(٣١٩):ص١٥٣/١.
(٤) تفسير ابن المنذر(٣٢٩):ص١٥٣/١-١٥٤.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٣٣):ص٦٢١/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٣٤):ص٦٢١/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٣٥):ص٦٢١/٢.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٣٤):ص٦٢١/٢.
(٩) تفسير الطبري:٢٨٧/٦.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٣٧):ص٦٢٢/٢.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٣٧):ص٦٢٢/٢.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٦٨/١.
(١٣) تفسير السعدي:١٢٦/١.

٤-ثبوت العذاب على هؤلاء المتصفين بهذه الصفات، لقوله:{فبشرهم بعذاب أليم}، وأن هذا العذاب ليس هينا وإنما هو عذاب موجع.

القرآن

{أولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)} [آل عمران : ٢٢]

التفسير:

أولئك الذين بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة، فلا يُقبل لهم عمل، وما لهم من ناصرٍ ينصرهم من عذاب الله.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}[آل عمران:٢٢]، أي: أولئك "بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات، ولم يبق لها أثر في الدارين"(١).

قال أبو مالك:" يعني: بطلت أعمالهم"(٢).

قال أبو السعود:" أي أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون بأسوأ الحال الذين بطلت أعمالُهم التي عمِلوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر في الدارين بل بقي لهم اللعنة والخزيُ في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة"(٣).

قال الثعلبي:" حبطت:ذهبت وبطلت، وأصله من «الحبط» وهو أن ترعى الماشية [بلا دليل ورديع] «٤» فتنتفخ من ذلك بطونها، وربما ماتت منه، ثم جعل كل شيء يهلك حبطا، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا إذ يلم»(٤) "(٥).

قال القرطبي:" الحبط: هو فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها الكلأ فتنتفخ أجوافها وربما تموت من ذلك"(٦).

قال الراغب:"يعني بقوله {أُولَئِكَ}: هم الذين يكفرون ويقتلون، بطلت في الدنيا والآخرة أعمالهم، أما في الدنيا فلأنهم لم يحصِّلوا منها محمدةً، وأما في الآخرة فلم يحصِّلوا منها مثوبة، وذلك، نحو قوله تعالى: { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}[الفرقان:٢٣]"(٧).

قال ابن عطية:" و{حَبِطَتْ} معناه:بطلت وسقط حكمها، وحبطها في الدنيا بقاء الذم واللعنة عليهم، وحبطها في الآخرة كونها هباء منبثا وتعذيبهم عليها"(٨).

وقرأ ابن عباس وأبو السمال العدوي: "{حبطت} بفتح "الباء"، وهي لغة"(٩).

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران : ٢٢]، " أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه"(١٠).

قال ابن عطية:" نفى النصر عنهم في كلا الحالين"(١١).

قال أبو السعود:{من ناصرين}، "ينصرونهم من بأس الله وعذابِه في إحدى الدارين وصيغةُ الجميع لرعاية ما وقع في مقابلته لا لنفي تعددِ الأنصار من كل واحدٍ منهم كما في قوله تعالى {وَمَا للظالمين مِنْ أنصَارٍ}[البقرة:٢٧٠]"(١).

---

(١) صفوة التفاسير:١٧٥.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٣٨):ص٦٢٢/٢.
(٣) تفسير أبي السعود:٢٠/٢.
(٤)صحيح ابن حبان: ٨/ ٢٣، كنز العمال: ٣/ ٢٠٤.
(٥) تفسير الثعلبي:٣٧/٣.
(٦) تفسير القرطبي:٤٦/٣.
(٧) تفسير الراغب الأصفهاني:٤٧٩/٢.
(٨) المحرر الوجيز:٤١٥/١.
(٩) المحرر الوجيز:٤١٥/١.
(١٠) صفوة التفاسير:١٧٥.
(١١) المحرر الوجيز:٤١٥/١.

الفوائد:
١-من فوائد الآية: حبوط عمل هؤلاء الذين كفروا بآيات الله وقتلوا انبياءه، وقتلوا الآمرين بالقسط من الناس.
٢-ومنها ان الكفر محبط للأعمال، لقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}.
٣-أن هؤلاء الكفار ليس لهم ناصر في الآخرة، اما في الدنيا فقد ينصرهم من كان على شاكلتهم، ولكن هم ومن نصرهم مآلهم إلى الذل والخذلان، لأن الله تعالى يقول: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة : ٢١].

القرآن
{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)} [آل عمران : ٢٣]
التفسير:
أرأيت -أيها الرسول- أعجب من حال هؤلاء اليهود الذين أتاهم الله حظا من الكتاب فعلموا أن ما جئت به هو الحق، يُدْعون إلى ما جاء في كتاب الله -وهو القرآن- ليفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فإن لم يوافق أهواءهم يَأْبَ كثير منهم حكم الله; لأن من عادتهم الإعراض عن الحق؟
في سبب نزول الآية أقوال:
أحدها: قال مقاتل: نزل في"اليهود: كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، ومالك ابن الضيف، ويحيى بن عمرو، ونعمان بن أوفى، وأبو ياسر بن أخطب، وأبو نافع بن قيس، وذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال لهم: أسلموا تهتدوا ولا تكفروا. فقال للنبي- صلى الله عليه وسلم-: نحن أهدى وأحق بالهدى منكم، ما أرسل الله نبيا بعد موسى. فقال النبي- صلى الله عليه وسلم- :لم تكذبون، وأنتم تعلمون أن الذي أقول حق، فأخرجوا التوراة نتبع نحن، وأنتم ما فيها، وهي بينكم فإني مكتوب فيها أني نبي ورسول. فأبوا ذلك فأنزل الله- عز وجل- فيهم:{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب}"(٢).
والثاني: قال ابن عباس:" دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المِدْرَاس على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو ، والحارث ابن زيد : على أيّ دين أنت يا محمد ؟ فقال : " على ملة إبراهيم ودينه. فقالا فإنّ إبراهيم كان يهوديًّا! فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلمُّوا إلى التوراة ، فهي بيننا وبينكم! فأبيا عليه، فأنزل الله عز وجل : {ألم تَر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يُدْعونَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يَتولى فريق منهم وهم معرضون} إلى قوله :{ ما كانوا يفترون}"(٣).
والثالث: نقل الواحدي عن السدي: "دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - اليهود إلى الإسلام فقال له النعمان ابن أوفى: هلم يا محمد نخاصمك إلى الأحبار، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "بل إلى كتاب الله"، فقال: بل إلى الأحبار، فأنزل الله تعالى هذه الآية"(٤).
والرابع: قال ابن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: "إن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا، فذكر القصة الآتية في سورة المائدة، وفيها: فحكم عليهما بالرجم، فقال له نعمان بن أبي أوفى وبحري بن عمرو: جرت علينا يا محمد، فقال: بيني وبينكم التوراة، القصة، وفيها ذكر ابن

---
(١) تفسير أبي السعود:٢/٢٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٦٩.
(٣) اخرجه الطبري(٥٧٨١):ص٦/٢٨٨-٢٨٩، وانظر: سيرة ابن هشام:١/٥٥٢-٥٥٣، و عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم(٢٨٦) :ص٢/ ١/ ١٦٥ وابن المنذر انظر "اللباب:٥١.
(٤) أسباب النزول:٩٩، ولم يذكر المصدر.

صوريا، وفي آخرها فأنزل الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ} إلى قوله: {وَهُمْ مُعْرِضُونَ}"[١].

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ } [آل عمران : ٢٣]، "أي: ألم يا محمد إلى الذين أعطوا حظًّا من الكتاب"[٢].

قال مقاتل:"يعني: أعطوا حظا من التوراة"[٣]. وروي عن السدي مثله[٤].

قال الزمخشري:" يريد أحبار اليهود، وأنهم حصلوا نصيبا وافرا من التوراة"[٥].

قال الصابوني:" أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب"[٦].

وفي الكتاب الذي دعوا إليه قولان:

أحدهما: أنه التوراة ، دعي إليها اليهود فأبوا ، قاله ابن عباس[٧]، ورجّحه الطبري[٨].

والثاني:القرآن، لأن ما فيه موافق لما في التوراة من أصول الدين ، قاله قتادة[٩]، وابن جريج[١٠].

قوله تعالى:{ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ }[آل عمران : ٢٣]،أي: "يدعون إلى التوراة ليقضي بينهم فيما تنازعوا فيه"[١١].

قال مقاتل:" يعني التوراة ليقضي بينهم "[١٢].

قال الزمخشري:" وهو التوراة"[١٣].

قال ابن كثير:أي:" وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما ، من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم"[١٤].

قوله تعالى:{ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[آل عمران : ٢٣]، أي:" ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله، وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق"[١٥].

قال سعيد بن جبير:" فريق يعني: طائفة"[١٦].

قال الطبري:أي:" ثم يستدبر عن كتاب الله الذي دعا إلى حكمه ، معرضًا عنه منصرفًا ، وهو بحقيقته وحجته عالم"[١٧].

قال ابن كثير:" وهذا في غاية ما يكون من ذمهم ، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد"[١٨].

الفوائد:

١-من فوائد الآية: أنه ليس كل من اعطى علما يوفق للعمل به، لقوله:{ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ}.

---

(١) العجاب في بيان الأسباب: ٦٧٤/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٨٨/٦.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٦٩/١.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٣٩):ص٦٢٢/٢.
(٥) الكشاف: ٤٣٨/١.
(٦) صفوة التفاسير: ١٧٥/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٦٧٨١):ص٢٨٨/٦-٢٨٩.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٩٠/٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٦٧٨٣):ص٢٨٩/٦-٢٩٠.
(١٠)انظر: تفسير الطبري(٦٧٨٥):ص٢٩٠/٦.
(١١) انظر: صفوة التفاسير: ١٧٥/١.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٦٩/١.
(١٣) الكشاف: ٤٣٨/١.
(١٤) تفسير ابن كثير:٢٨/٢.
(١٥) صفوة التفاسير:١٧٥.
(١٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٣٤١):ص٦٢٢/٢.
(١٧) تفسير الطبري:٢٩١/٦.
(١٨) تفسير ابن كثير:٢٨/٢.

٢-أن هؤلاء المعرضون قد قامت عليهم الحجة، لكونهم دعوا، وهذا هو محط الذم، أما لو لم يدعوا، ولم يعلموا الحق، فإنهم لا يذمون على ذلك إذا لم يفرطوا بطلب الحق.
٣-إن الواجب التحاكم إلى كتاب الله، وأن يكون الحكم فيه كتاب الله في كل شيء، العبادات والمعاملات والأخلاق والاعمال، لأنه لم يخصص منها شيء، لقوله:{ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ}.
٤-إن الذين دعوا الى كتاب الله ممن اوتوا نصيبا من الكتاب لم يتولوا جميعا، والأمر كذلك فإن كثيرا من اليهود والنصارى اسلموا وحسن اسلامهم.
٥-ذم من يتولى بإعراض، لقوله:{ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ}، فالتولي إذا كان بإعراض وعدم المبالاة كان اشد، والتولي مذموم كله.

القرآن

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)} [آل عمران : ٢٤]

التفسير:

ذلك الانصراف عن الحق سببه اعتقاد فاسد لدى أهل الكتاب; بأنهم لن يعذَّبوا إلا أيامًا قليلة، وهذا الاعتقاد أدى إلى جرأتهم على الله واستهانتهم بدينه، واستمرارهم على دينهم الباطل الذي خَدَعوا به أنفسهم.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}[آل عمران:٢٤]،" أي ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله وزعمهم أن النار لن تصيبهم إلا مدةً يسيرة"[١].

قال ابن كثير:"أي : إنما حملهم وجَرّأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام ، عن كل ألف سنة في الدنيا يوما"[٢].

واختلفوا في قوله اليهود{ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}[آل عمران:٢٤] على أربعة أقاويل :

أحدها : أنها الأيام التي عبدوا فيها العجل وهي أربعون يوماً ، قاله قتادة[٣]، والربيع[٤] .

والثاني : أنها سبعة أيام ، وهذا قول الحسن[٥].

والثالث:أنهم يعنون الأيام التي خلق فيهم آدم. قاله مجاهد[٦].

والرابع : أنها متقطعة لانقضاء العذاب فيها، نسبه الماوردي إلى بعض المتأخرين[٧].

قوله تعالى:{وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }[آل عمران:٢٤]،" أي غرهم كذبهم على الله"[٨].

قال أبو عبيدة: يعني:" يختلقون الكذب"[٩].

قال ابن كثير:" أي : ثَبَّتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات ، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه ، ولم ينزل الله به سلطانا"[١٠].

ويحتمل قوله تعالى:{وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }[آل عمرام:٢٤]، وجهين:

---

(١) صفوة التفاسير:١٧٥.
(٢)تفسير ابن كثير:٢٨/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧٨٦):ص٢٩٣/٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٦٧٨٧):ص٢٩٣/٦.
(٥) انظر: النكت والعيون: ٣٨٣/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٤٥):ص٦٢٣/٢.
(٧) انظر: النكت والعيون: ٣٨٣/١.
(٨) صفوة التفاسير:١٧٥.
(٩) أخرجه ابن المنذر(٣٢٨):ص١٥٧/١.
(١٠)تفسير ابن كثير:٢٨/٢.

أحدهما: حين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. قاله الربيع(1)، وقتادة(2).
والثاني: أنهم غرهم قولهم: {لن تمسنا النار إلا أياما معدودات}. قاله مجاهد(3).
الفوائد:
١-من فوائد الآية: بطلان الأماني، وأن النفس قد تُمني الإنسان ما لا يكون.
٢-التحذير من الاتكال على الأماني، لأن هذا من صنع اليهود والنصارى، وكثير من العامة يقعون في المعاصي ويمنون انفسهم بالمغفرة إذا وقعوا في المعصية.
٣-إن هؤلاء يؤمنون بالبعث، ولكن لم ينفعهم الإيمان، لقوله:{ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}، ويتفرغ من هذا أنه لا يكفي في الإيمان أن يؤمن الانسان بوجود الله، وباليوم الىخر، دون أن يستلزم هذا الإيمان قبولا وإذعانا، فمجرد التصديق لايعد إيمانا.
٤-أن الانسان قد يغره ما هو عليه من الدين، لقوله:{ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، فقد يغتر الانسان بعباداته، فيقول بأنه لن يعذب، وهذا قصور في النظر، لأنه ليس الشأن أن تصلي وتزكي وتصوم أو تحج، وإنما الشان كل الشأن أن يقبل منك هذا العمل، فكم من عامل ليس له من عمله إلا التعب لوجود مبطل سابق كعدم الإخلاص او مبطل لاحق كالإعجاب مثلا، وقد يبتلى الإنسان بالبدعة، فكم من اناس يحبون الخير ولجهلهم يبتدعون في دين الله ما ليس منه، فيكون عملهم مردودا، لأن من شط قبول العمل أن يكون موافقا لما جاء بع الرسول-صلى الله عليه وسلم- لقوله:"من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو ردّ"(4).

القرآن
{فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)} [آل عمران : ٢٥]
التفسير:
فكيف يكون حالهم إذا جمعهم الله ليحاسَبوا في يوم لا شك في وقوعه -وهو يوم القيامة-، وأخذ كل واحد جزاءَ ما اكتسب، وهم لا يظلمون شيئا؟
قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} [آل عمران : ٢٥]، " أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب"(5).
قال الثعلبي:" أي فكيف يصنعون ليوم لا ريب فيه: وهو يوم القيامة"(6).
قال الزمخشري:أي:" فكيف يصنعون فكيف تكون حالهم، وهو استعظام لما أعد لهم وتهويل لهم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم في دفعه والمخلص منه، وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وتطمع بما لا يكون"(7).
قال ابن عثيمين: والاستفهام للتعظيم، أي: ما أعظم ما تكون حالهم في ذلك اليوم، وما اشد حسرتهم"(8).
نقل الثعلبي عن الضحاك عن ابن عباس، قال: "أول راية ترفع لأهل الموقف ذلك اليوم من رايات الكفار راية اليهود، فيقمعهم الله على رؤوس الاشهاد ثم يأمر بهم الى النار"(9).

---

(1) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٤٦):ص٦٢٣/٢.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٤٦):ص٦٢٣/٢.
(٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٤٧):ص٦٢٣/٢.
(٤) أخرجه مسلم(١٧١٨).
(٥) صفوة التفاسير:١٧٥.
(٦) تفسير الثعلبي:٣٩/٣.
(٧) الكشاف:٣٤٩/١.
(٨) تفسير ابن عثيمين:١٥١/١.
(٩)تفسير الثعلبي:٣٩/٣.

قوله تعالى:{ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ }[آل عمران : ٢٥]،" أي نالت كل نفسٍ جزاءها العادل"[١].

قال سعيد بن جبير: يعني: توفى كل نفس أو فاجر ما عملت من خير أو شر"[٢].

قوله تعالى:{ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }[آل عمران : ٢٥]، وهم "لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب"[٣].

قال الثعلبي: أي:" لا ينقصون من حسناتهم ولا يزداد على سيئاتهم"[٤].

قال سعيد بن جبير:" يعني: من أعمالهم"[٥].

الفوائد:

١-من فوائد الآية: عظم يوم القيامة، لقوله: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}.

٢-ومنها: النداء بالنعي على هؤلاء الذين ليس لهم في ذلك اليوم إلا الخيبة والخسران، إذ خسروا الدنيا والآخرة.

٣-إثبات يوم القيامة، وأن من شكّ فيه فهو كافر، لقوله:{ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}.

٤-أن يوم القيامة هو يوم التوفية الكاملة، لقوله: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ}، والانسان قد يوفى شيئا من عمله في الدنيا مثل المخرج من الضيق وسعة الرزق، قال تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الطلاق : ٢]، فهذا جزاء في الدنيا، واجر الآخرة أعظم.

٥-انتفاء الظلم عن الله تعالى، لقوله: {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، ويكون نفي الظلم لكمال العدل، فكل صفة نفاها الله عن نفسه فإنما يراد بها ثبوت كما الضد"[٦].

القرآن

{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)} [آل عمران : ٢٦]

التفسير:

قل -أيها النبي متوجها إلى ربك بالدعاء-: يا مَن لك الملك كلُّه، أنت الذي تمنح الملك والمال والتمكين في الأرض مَن تشاء مِن خلقك، وتسلب الملك ممن تشاء، وتهب العزة في الدنيا والآخرة مَن تشاء، وتجعل الذلّة على من تشاء، بيدك الخير، إنك -وحدك- على كل شيء قدير. وفي الآية إثبات لصفة اليد لله تعالى على ما يليق به سبحانه.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال قتادة:" وذكر لنا : أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه جل ثناؤه أن يجعل له ملك فارسَ والروم في أمته ، فأنزل الله عز وجل : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ} إلى{ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }"[٧]. وهكذا ذكره مقاتل[٨].

الثاني: ونقل الثعلبي عن ابن عباس، وأنس بن مالك: "لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ووعد أمته ملك فارس والروم. قالت: المنافقين واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس، هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم. فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٩].

---

(١)صفوة التفاسير:١٧٥.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٤٨):ص٢/٦٢٣-٦٢٤.
(٣)صفوة التفاسير:١٧٥.
(٤) تفسير الثعلبي:٣/٣٩.
(٥)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٤٩):ص٢/٦٢٤.
(٦) تفسير ابن عثيمين:١/١٥٤.
(٧) أخرجه الطبري(٦٧٩٠):ص٦/٣٠٠، وابن أبي حاتم(٣٣٥٢):ص٢/٦٢٤.
(٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٦٩.
(٩) تفسير الثعلبي:٣/٤٠.

الثالث: وذكر الثعلبي هنا حديث عمرو بن عوف المزني في قصة ضرب الصخرة بالخندق وفي آخره: "فأنزل القرآن:{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}، وأنزل الله في هذه القصة قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} في ذلك"[1].

قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ}[آل عمران:٢٦]، " أي قل: يا ألله يا مالك كل شيء"[2].

قال محمد بن إسحاق: يعني:" ملك النبوة الذي أعز به من اتبعه، وأذل به من خالفه"[3].

ولأهل العلم في تفسير قوله تعالى{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ}[آل عمران:٢٦]، ثلاثة اقوال:

أحدها: : يريد به ملك أمر الدنيا والآخرة [4].

والثاني: مالك العباد وما ملكوه ، قاله الزجاج[5]، وروي عن محمد بن إسحاق مثله[6].

والثالث: مالك النبوة ، قاله مجاهد وروي عن محمد بن إسحاق مثله[7].

قوله تعالى: {تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ}[آل عمران:٢٦]، "أي تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء"[1].

---

(١)تفسير الثعلبي:٣/٤٠-٤١. ونص الرواية:" روي كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده، قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق في عام الأحزاب. ثم قطع أربعين ذراعا بين كل عشرة، قال: فاحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلا قويا، فقال المهاجرون: سلمان منا. وقال الأنصار: سلمان منا.فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سلمان منا أهل البيت» [رواه الطبراني، وفيه: كثيرَ بن عبد اللَّه المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد: ٦/ ١٨٩]. .

قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعا، فحفرنا حتى بلغنا الصدى أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقت علينا. فقلنا يا سلمان: آت إلى رسول الله وأخبره خبر هذه الصخرة. فإما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمر، فإنا لا نحب أن نجاوز خطة.

قال: فرقى سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركية. فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق، وكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يجيء منها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك فإنا لا نحب أن نجاوز خطك، قال: فهبط رسول الله مع سلمان الخندق وبقينا نحن التسعة على شفة الخندق. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول من سلمان فضربها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، يعني المدينة، حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، وكبر المسلمون، ثم ضربها صلى الله عليه وسلم فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، وكبر المسلمون معه. فأخذ بيد سلمان ورقى. فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئا ما رأيت مثله قط! فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم فقال: رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا وقد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج، فرأيناك تكبر فنكبر ولا نرى شيئا غير ذلك، قال: ضربت ضربتي الأولى، فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل (عليه السلام) أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور بصرى من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل (عليه السلام) أن أمتي ظاهرة عليها. ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا. فاستبشر المسلمون، وقالوا:الحمد لله موعود صدق بأن وعدنا النصر بعد الحصر. فطبقت الأحزاب فقال: المسلمون:{هذا ما وعدنا الله ورسوله} الآية[الأحزاب:٢٢] .

وقال المنافقون: ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا، قال: فأنزل القرآن: {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا} [الأحزاب:١٢]، وأنزل الله في هذه القصة قوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك}".

(٢) صفوة التفاسير:١٧٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٤٩):ص٢/٦٢٤.

(٤) انظر: النكت والعيون:١/٣٨٤.

(٥) نقله عنه الماوردي في النكت:١/٣٨٤، ولم اجده في معاني القرآن للزجاج.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥٠):ص٢/٦٢٤.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٤٩):ص٢/٦٢٤.

وفي قوله تعالى: قوله تعالى: {تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ}[آل عمران:٢٦]، وجوه:
أحدها : أن المُلك هنا النبوة ، قاله ابن عباس[2] ومجاهد[3]، والحسن[4].
والثاني : أنه الإيمان. أفاده الماوردي[5].
والثالث : أنه السلطان، وهو معنى قول قتادة[6].
قال ابن عباس:" اسم الله الأعظم : {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، إلى قوله:{ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}"[7].
قوله تعالى: {وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ}[آل عمران:٢٦]، "أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء"[8].
قوله تعالى: {بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[آل عمران:٢٦]،" أي: بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت كل على كل شيء قدير"[9].
أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن إسحاق: قوله"{ بِيَدِكَ الخير}، أي: لا إلى غيرك"[10]، { إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }، أي:" أي: لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك"[11].
الفوائد:
١-من فوائد الآية الكريمة: تفويض الأمر إلى الله، لقوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْك }، والخطاب الموجه للرسول-صلى الله عليه وسلم- موجه لأمته إما عن طريق التأسي، وإما لأنه الإمام، والخطاب للإمام خطاب له ولمن اتبعه.
٢-ومنها: بيان تمام ملك الله وسلطانه، لقوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْك }، ولكونه يعطي الملك من يشاءه، وينزعه بعد ثبوته ممن يشاء، لقوله: {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ }، ولكون العزة من عنده، لقوله: { وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ }، عليه فإن الإعزاز والإذلال بيد الله وحده، ولا تطلب العزة إلا منه تعالى، ومن ابتغى العزة من غير الله فهو ذليل.
٣- أنه تعالى يؤتي الملك من يشاء، لقوله{تُؤْتِي الملك من تشاء}.
٤-ومنها: أن ملك المخلوقين ليس ملكا استقلاليا وإنما هو ملك بإعطاء، لقوله: {تُؤْتِي الملك}، والملك بإعطاء لاشك بأنه ناقص عن ملك المعطي.
٥-إثبات المشيئة لله تعالى في قوله{تُؤْتِي الملك}، وكل أمر قرنه الله بالمشيئة، فإنه مبني على الحكمة، متى اقتضته شاءه الله، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان : ٣٠].
٦-ومنها: أن الخير بيد الله، لقوله:{ بِيَدِكَ الْخَيْرُ}، فلا يطلب الخير إلا منه تعالى.
٧-ومنها: ان الشر لا يضاف إلى الله، وإن كان تعالى هو الذي خلق كل شيء، لأن أفعاله كلها خير، والشر في المفعولات، ثم ان هذا الشر في المفعولات قد يكون خيرا فكم من مرض

---

(١)صفوة التفاسير:١٧٧.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥١):ص٦٢٤/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥١):ص٦٢٤/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥١)، و(٣٣٥٤):ص٦٢٤/٢-٦٢٥.
(٥) انظر: النكت والعيون:٣٨٤/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٦٧٩٠):ص٣٠٠/٦، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥٢):ص٦٢٤/٢.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٥٣):ص٦٢٤/٢.
(٨)صفوة التفاسير:١٧٧.
(٩)صفوة التفاسير:١٧٧.
(١٠) تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥٥):ص٦٢٥/٢.
(١١) تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥٦):ص٦٢٥/٢.

صار سببا لصحة الجسم، وكم من آفات في الزروع وغيرها صارت اسبابا للنمو الاقتصادي من جهة اخرى.
٨-ومنها: عموم قدرة الله، لقوله: {إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وهذا يشمل ما كان من أفعاله وما كان من افعال الخلق، فيكون في ذلك الرد على القدرية الذين يرون بان الله لا يخلق أعمال العباد ولا يريدها، وأن الانسان مستقبل بإرادته وعمله، فإذا كانت بقدرة الله، قلنا: يلزم أن يكون مرادا ومخلوقا لله، لأنه مادام الأمر بقدرته، فلابد أن يكون مخلوقا له، ومرادا له.

القرآن
{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)} [آل عمران : ٢٧]
التفسير:
ومن دلائل قدرتك أنك تُدخل الليل في النهار، وتُدخل النهار في الليل، فيطول هذا ويقصر ذاك، وتُخرج الحي من الميت الذي لا حياة فيه، كإخراج الزرع من الحب، والمؤمن من الكافر، وتُخرج الميت من الحي كإخراج البيض من الدجاج، وترزق من تشاء مَن خلقك بغير حساب.
قوله تعالى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}[آل عمران : ٢٧]، أي:" أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس"[١].
قال مجاهد:" ما نقص من أحدهما دخل في الآخر"[٢]. وروي عن عبدالله نحو ذلك[٣].
قال السدي:" تولج الليل في النهار حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة، والنهار تسع ساعات. وتولج النهار في الليل حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات"[٤].
قال مقاتل:" يعني ما تنقص في الليل داخل في النهار حتى يصير الليل تسع ساعات والنهار خمس عشرة ساعة. فذلك قوله- سبحانه- { يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ }[الزمر:٥]، و"يكور" يعنى: يسلط النهار على الليل، وهما هكذا إلى أن تقوم الساعة[٥].
قال الطبري:أي:" تدخل ما نقصتَ من ساعات الليل في ساعات النهار ، فتزيد من نقصان هذا في زيادة هذا، وتدخل ما نقصتَ من ساعات النهار في ساعات الليل ، فتزيد في ساعات الليل ما نقصت من ساعات النهار "[٦].
قال الزجاج:" المعنى: تدخل أحدهما في الآخر يقال: ولج الشيءُ إذا دخل يلج وُلُوجاً وَوَلْجَة، وَالْوَلَج والوَلْجَةُ شيء يكون بين يدي فناء، فمعنى: {تولج الليل في النهار}، أي: تنقص من الليل فتدخل ذلك النقصان زيادة في النهار، وتنقص من النهار فتدخل ذلك النقصان زيادة في الليل"[٧].
قال الراغب:" الولوج: الدخول في مضيق، فهو أخص من الدخول"[٨].
وفي قوله تعالى:{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}[آل عمران:٢٧] وجهان من التفسير[٩]:
أحدهما : معناه تدخل نقصان الليل في زيادة النهار ، ونقصان النهار في زيادة الليل ، وهو قول جمهور المفسرين .

---

(١) صفوة التفاسير:١٧٧.
(٢) تفسير مجاهد:٢٥٠.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٥٧):ص٦٢٥/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٥٩):ص٦٢٥/٢.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٦٩/١.
(٦) تفسير الطبري:٣٠٢/٦.
(٧) معاني القرآن:٣٩٥/١.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني:٤٩٨/٢.
(٩) انظر: النكت والعيون:٣٨٤/١.

والثاني : أن معناه تجعل الليل بدلاً من النهار ، وتجعل النهار بدلاً من الليل ، وهو قول بعض المتأخرين .

قوله تعالى:{ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}[آل عمران:٢٧]، أي: و"تخرج الإنسان الحيّ والأنعام والبهائم الأحياءَ من النُّطف الميتة"[١].

قال مقاتل: "فهو الناس والدواب والطير خلقهم من نطفة وهي ميتة وخلق الطير من البيضة وهي ميتة"[٢].

قال الزجاج:" أي تخرج الإنسان من النطْفَةِ، والطائِر من البَيضةِ، وتخرج للناس الحب الذي يعيشون به من الأرض الميتة"[٣].

قال ابن كثير:" أي : وتخرج الحبَّة من الزرع، والنخلة من النواة، والمؤمن من الكافر، والدجاجة من البيضة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء"[٤].

وفي تفسير إخراج الحي من الميت ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يخرج الحيوان الحي في النطفة الميتة ، ويخرج النطفة الميتة من الحيوان الحي ، وهذا قول ابن مسعود[٥]، وابن عباس[٦]، ومجاهد[٧]، وسعيد بن جبير[٨]، والضحاك[٩]، وقتادة[١٠]، والسدي[١١]، والنخعي[١٢]، وابن زيد[١٣].

والثاني : أنه يخرج المؤمن من الكافر ، ويخرج الكافر من المؤمن ، وهذا قول سلمان[١٤] ، والحسن[١٥]، وقتادة[١٦].

قال قتادة : " إنما سمي يحيى، لأن الله أحياه بالإيمان"[١٧] .

والثالث: أنه يخرج النخلة من النواة ، والنواةَ من النخلة ، والسنبل من الحب ، والحبّ من السنبل ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض. قاله عكرمة[١٨]، وروي عن أبي مالك نحو ذلك[١٩].

قوله تعالى:{وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}[آل عمران:٢٧]، أي:" وتخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء"[٢٠].

قال مقاتل:" يعني يخرج الله- عز وجل- هذه النطفة من الحي وهم الناس والدواب والطير"[١].

---

(١) تفسير الطبري:٣٠٩/٦.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٦٩/١-٢٧٠.
(٣) معاني القرآن:٣٩٥/١.
(٤) تفسير ابن كثير:٩٢/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٦٨٠٤):ص٣٠٤/٦.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٦٨):ص٦٢٧/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٦٨٠٥):ص٣٠٤/٦.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٦٨):ص٦٢٧/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٦٨٠٧):ص٣٠٥/٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٦٨١٠):ص٣٠٥/٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٦٨٠٨):ص٣٠٥/٦.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٦٨):ص٦٢٧/٢.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٦٨١٢):ص٣٠٦/٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٦٨٢٠):ص٣٠٧/٦. مع شكّ في الرواية.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٦٨١٥):ص٣٠٦/٦.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٦٧):ص٦٢٧/٢.
(١٧) أخرجه الطبري(٦٩٥٠):ص٣٧٠/٦-٣٧١.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٦٨١٣):ص٣٠٦/٦.
(١٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٣٧٠):ص٦٢٨/٢.
(٢٠) تفسير الطبري:٣٠٩/٦.

قال ابن كثير:" أي : وتخرج الزرع من الحبة، والنواة من النخلة، والكافر من المؤمن، والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء"[٢].

قال المراغي:"كالجاهل من العالم، والكافر من المؤمن، والنواة من النخلة، والبيضة من الطائر، وقد أثبت علماء الطب أن في النطفة والبيضة والنواة حياة، ولكن هذه حياة اصطلاحية لأهل هذا الفن، لا في العرف العام الذي جاء به التنزيل"[٣].

وفي قوله تعالى :{وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ }[آل عمران:٢٧]، وجهان من القراءة[٤]:

أحدهما: {الميّت}، بالتشديد ، قراءة نافع وحمزة والكسائي.

والثاني:{الميت}، بالتخفيف، قراءة الباقين.

واختلفوا في معنى كلمة "الميت" بالتخفيف والتشديد، على قولين[٥]:

أحدهما: أن الميْت بالتخفيف الذي قد مات، وبالتشديد الذي لم يمت بعد. قاله الكوفيون.

والثاني: أنهما سواء، حكاه أبو العباس عن البصريين، وأنشد لابن الرعلاء القلابي[٦]:

لَيْسَ مَنْ ماتَ فاستراحَ بِمَيْتٍ ... إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحْياءِ

قوله تعالى:{ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }[آل عمران:٢٧]، " أي: وتعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدٍّ ولا تضييق"[٧].

قال ميمون بن مهران:أي:"غدقا"[٨]، وروي عن الوليد بن قيس نحو هذا[٩].

قال الربيع:"يخرج الرزق من عنده بغير حساب، لا يخاف أن ينقُص ما عنده تبارك وتعالى"[١٠].

قال محمد ابن إسحاق :" لا يقدر على ذلك غيرك ولا يصنعه إلا أنت، وترزق من تشاء برا وفاجرا حي بغير حساب"[١١].

قال مقاتل:" يقول- سبحانه- ليس فوقي ملك يحاسبني، أنا الملك أعطي من شئت بغير حساب، لا أخاف من أحد يحاسبني"[١٢].

قال الطبري:" : أنه يُعطى من يشاء من خلقه فيجود عليه ، بغير محاسبة منه لمن أعطاه ، لأنه لا يخاف دخولَ انتقاص في خزائنه ، ولا الفناءَ على ما بيده"[١٣].

قال ابن كثير:" أي : تعطي من شئت من المال ما لا يَعده ولا يقدر على إحصائه ، وتقتر على آخرين ، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة والعدل"[١٤].

الفوائد:

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٦٩/١-٢٧٠.

(٢) تفسير ابن كثير:٩٢/٢.

(٣) تفسير المراغي:١٤٤/٣.

(٤) انظر: السبعة في القراءات:٢٠٣.

(٥) انظر: النكت والعيون:٣٨٤/١-٣٨٥.

(٦) انظر: الأصمعيات: ٥، ومعجم الشعراء: ٢٥٢، وتهذيب الألفاظ: ٤٤٨، واللسان (موت) وحماسة ابن الشجرى: ٥١، والخزانة ٤: ١٨٧، وشرح شواهد المغني: ١٣٨.

(٧) صفوة التفاسير:١٧٧.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٧٢):ص٦٢٨/٢.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٧٢):ص٦٢٨/٢.

(١٠) أخرجه الطبري(٦٨٢٣):ص٣١٠/٦-٣١١.

(١١)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٧٤):ص٦٢٨/٢.

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٠/١.

(١٣) تفسير الطبري:٣١١/٦.

(١٤) تفسير ابن كثير:٢٩/٢-٣٠.

١-من فوائد الآية: تمام قدرة الله تعالى وسلطانه في كونه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، فلا أحد يستطيع أن يزيد دقيقة من الليل في النهار أو بالعكس.
٢-إثبات حكمة الله، لأن هذا الإيلاج له حكم عظيمة لاتقوم مصالح الخلق إلا بها، لما يترتب على هذا الايلاج اختلاف فصول السنة التي يترتب على اختلافها نمو الاجساد والنبات، فمن النبات ما يكون شتويا ومنه ما يكون صيفيا.
٣-ومنها ما يترتب على هذا الإيلاج من اختلاف درجة حرارة الجو، فيعرف الإنسان ضعفه وافتقاره الى ربه، إذ هو محتاج إلى ربه في الحالين، لما يتطلب ما يدفئه في البرد، أو مايبرده في حر الصيف.
٤-ومن حكمته تعالى المترتبة على إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، أن هناك جراثيم مؤذية لا يقتلها إلا شدة البرد، ومنها لا يقتلها إلا شدة الحر.
٥-تمام قدرة الله وسلطانه بإخراج الحي من المين، وإخراج الميت من الحي، إذ أن إخراج الشيء من ضده دليل على أن قدرته تامة، وسلطانه نافذ سبحانه وتعالى.
٦-ومنها: أن الرزق بيد الله، لقوله:{وترزق من تشاء}، عليه فلا ينبغي لعقل أن يطلب الرزق من ايدي الناس.
٧-ومنها: أن عطاء الله بلا عوض، لقوله:{بغير حساب}.
٨-ومنها: إثبات المشيئة لله عزّ وجلّ، لقوله:{من يشاء}.

القرآن
{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)} [آل عمران : ٢٨]
التفسير:
ينهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء بالمحبة والنصرة من دون المؤمنين، ومَن يتولهم فقد برئ من الله، والله بريء منه، إلا أن تكونوا ضعافًا خائفين فقد رخَّص الله لكم في مهادنتهم اتقاء لشرهم، حتى تقوى شوكتكم، ويحذركم الله نفسه، فاتقوه وخافوه. وإلى الله وحده رجوع الخلائق للحساب والجزاء.
في سبب نزول الآية أقوال:
أحدها: قال مقاتل:" نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره كانوا يظهرون المودة لكفار مكة فنهاهم الله- عز وجل- عن ذلك"[(١)].
والثاني: قال محمد بن إسحاق:" قال محمد بن أبي محمد وكان الحجاج بن عمرو، وابن أبي الحقيق، وقيس بن زيد، قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر، وعبد الله بن جبير وسعد ابن خثيمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء النفر من اليهود واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر، فأنزل الله عز وجل فيهم لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلى قوله: والله على كل شيء قدير"[(٢)]. ونقله الثعلبي عن ابن عباس[(٣)].
والثالث: روي الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: "نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه، كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم"[(٤)].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٠/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٧٧):ص٦٢٩/٢.
(٣) تفسير الثعلبي:٤٦/٣.
(٤) تفسير الثعلبي:٤٧/٣.

والرابع: وروي جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: "نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري، وكان بدريا تقيا، وكان له حلفاء من اليهود، فلمّا خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم يوم الأحزاب، قال عبادة: يا نبي الله إنّ معي خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهرتهم على العدوّ، فأنزل الله تعالى: {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ} الآية"(١).

قوله تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}[آل عمران: ٢٨]، أي:" لا تتخذوا ، أيها المؤمنون ، الكفارَ ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم ، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين"(٢).

قال السدي:" أما أولياء فيواليهم في دينهم، ويظهرهم على عورة المؤمنين"(٣).

قال الزمخشري:" نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو صداقة قبل الإسلام أو غير ذلك من الأسباب التي يتصادق بها ويتعاشر"(٤).

قوله تعالى: { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ }[آل عمران: ٢٨]، أي : و"من يرتكب نهى الله في هذا فقد برئ من الله"(٥).

قال السدي:" ومن يفعل هذا فهو مشرك"(٦)، "فقد برىء الله منه"(٧).

قال الثعلبي:" أي موالاة الكفار في نقل الأخبار إليهم، وإظهارهم على عدّة المسلمين"(٨).

ويحتمل قوله تعالى:{ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ }[آل عمران: ٢٨]، وجهان:

أحدهما: أي ليس من دين الله في شيء. أفاده الثعلبي(٩).

والثاني: أن المعنى: ليس من الولاية في شيء، فقد بريء الله منه. قاله الحسن(١٠) والسدي(١١).

قوله تعالى:{ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً }[آل عمران: ٢٨]، "أي: إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم، فأظهروا موالاتهم باللسان دون للقلب"(١٢).

قال ابن عباس:" فالتقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله، فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره إنما التقية باللسان"(١٣).

قال مجاهد:" يعني: إلا مصانعة في الدنيا "(١٤).

قال ابن كثير:"أي : إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته"(١٥).

قال الثعلبي:" يعني: إلّا أن تخافوا منهم مخافة"(١)، "وأنكر قوم التقيّة اليوم: فقال معاذ بن جبل عن مجاهد: كانت التقيّة في جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، فأمّا اليوم فقد أعزّ الله عزّ وجل الإسلام، فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتّقوا من عدوهم"(٢).

---

(١) تفسير الثعلبي:٤٧/٣، وأسباب النزول للواحدي: ١٠٢-١٠٣، والعجاب: ٦٧٧/٢، وزاد "في تفسيره" أي جويبر، وهذه الرواية ضعيفة جدًا بسبب جويبر، ومنقطعة أيضًا؛ لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٢) تفسير الطبري:٣١٣/٦.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٣٧٦):ص٦٢٩/٢.

(٤) الكشاف: ٣٥١/١.

(٥) تفسير ابن كثير:٣٠/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٧٨):ص٦٢٩/٢.

(٧)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٧٩):ص٦٢٩/٢.

(٨) تفسير الثعلبي:٤٧/٣.

(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٤٧/٣.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:٤٧/٣.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٧٩):ص٦٢٩/٢.

(١٢) صفوة التفاسير:١٧٨.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٨١):ص٦٢٩/٢.

(١٤) تفسير مجاهد:٢٥١.

(١٥) تفسير ابن كثير:٣٠/٢.

وقال يحيى البكاء: "قلت لسعيد بن جبير في أيام الحجّاج: إنّ الحسن كان يقول لكم: التقيّة باللسان والقلب مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمان. قال سعيد: ليس في الإسلام تقيّة إنّما التقيّة في أهل الحرب"(٣).

ولأهل العلم في تفسير "التقية" في قوله تعالى:{ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً }[آل عمران: ٢٨]، وجوها:

أحدها: أن التقية باللسان وليست بالعمل. قاله ابن عباس(٤)، وعكرمة(٥)، وأبو العالية(٦)، وعطاء بن أبي رباح(٧)، والضحاك(٨) وجابر بن زيد(٩).

والثاني:أن معناه: إلا أن يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك. قاله قتادة(١٠).

الثالث: أن المعنى: إلا مصانعة في الدنيا ومخالقة. وهذا قول مجاهد(١١).

واختلفوا في قراءة قوله تعالى:{ تُقَاةً }[آل عمران: ٢٨]، على وجوه(١٢):

أحدها: {تقية}، على وزن "نقية"، قرأ بها أبو العالية عن الحسن، والضحاك وأبو رجاء وجابر بن زيد وحميد بن مجاهد.

والثاني: {تقية}، بالاحتجاج فكان الياء. قرأ بها حمزة والكسائي وخلف.

والثالث: {تُقاةً}، بالتضميم. قرأ بها الباقون وأختاره أبو عبيدة.

والرابع: {تقاءة}، مثل تكأة ويؤده ونحوها، وهي مصدر "أتقى". قرأ بها الأخفش.

قوله تعالى:{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ }[آل عمران: ٢٨]، أي: و"يخوفّكم الله عقابه الصادر منه تعالى"(١٣).

قال ابن كثير:" أي : يحذركم نقمته ، أي مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه"(١٤).

قال الثعلبي:" أي يخوّفكم الله على موالاة الكفار وارتكاب المنهي ومخالفة المأمور، {من نفسه}: قال المفسرون: من عذاب نفسه وعقوبته وبطشه"(١٥).

قوله قال تعالى:{ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ }[آل عمران: ٢٨]، أي : "إليه المرجع والمنقلب ، فيجازي كل عامل بعمله"(١٦).

قال ابن الجوزي:" قوله تعالى: {إلا أن تتقوا منهم تقاة}، قد ذهب قوم إلى أن المراد بالآية اتقاء المشركين أن يوقعوا فتنة أو ما يوجب القتل والفرقة ثم نسخ ذلك بآية السيف(١٧)، وليس هذا بشيء، وإنما المراد من الآية جواز اتقائهم إذا أكرهوا المؤمن على الكفر بالقول الذي لا يعتقده وهذا الحكم باق غير منسوخ، وهو المراد بقوله تعالى: {إلا من أكره وقلبه مطمئن

---

(١)تفسير الثعلبي:٤٧/٣.
(٢) تفسير الثعلبي:٤٨/٣.
(٣) تفسير الثعلبي:٤٨/٣.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٨١)، و(٣٣٨٢):ص٦٢٩/٢.
(٥)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٨٠):ص٦٢٩/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٨٣):ص٦٣٠/٢.
(٧)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٨٤):ص٦٣٠/٢.
(٨)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٨٤):ص٦٣٠/٢.
(٩)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٣٨٤):ص٦٣٠/٢.
(١٠)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٣٨٥):ص٦٣٠/٢.
(١١) انظر: تفسير مجاهد:٢٥١، و تفسير ابن ابي حاتم(٣٣٨٦):ص٦٣٠/٢، وفيه زيادة"مخالقة".
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٤٧/٣، والسبعة في القراءات: ٢٠٤.
(١٣) صفوة التفاسير:١٧٨.
(١٤) تفسير ابن كثير:٣٠/٢.
(١٥) تفسير الثعلبي:٤٩/٣.
(١٦) تفسير ابن كثير:٣٠/٢.
(١٧)ذكر هبة الله هذه الآية من الآيات المنسوخة بآية السيف. انظر: الناسخ والمنسوخ ص: ٢٦.

بالإيمان}[1]...وقد زعم إسماعيل السدي، أن قوله: {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين} منسوخة بقوله: {إلا أن تتقوا منهم تقاة}، ومثل هذا ينبغي تنزيه الكتب عن ذكره فضلا عن رده فإنه قول من لا يفهم ما يقول"[2].

الفوائد:

١-من فوائد الآية: تحريم اتخاذ الكفار أولياء، لقوله {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ}، عليه فإن اتخاذ الكافرين أولياء من الكبائر وينافي اصل الإيمان، او كمال الإيمان، لأن الحكم إذا عُلّق بوصف، فإنه يتبع ذلك الوصف قوة وضعفا، فكلما كمل الإيمان كملت المعاداة وانتفت الموالاة، والعكس صحيح.

٢-ومنها: اتخاذ المؤمنون اولياء من المؤمنين وهو مقتضى الإيمان، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة : ٧١]

٣-سهولة الاسلام ويسره إذ رفع الحرج عن الأمة، وذلك بما اباح من اتخاذ التقاة عنج الضرورة، لقوله: :{ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً }، شريطة ان ينوي اللإنسان أنها وقاية مما يخاف منهم، لا رضى بما فعلوا، او اطمئنانا إليه.

٤-إن من اعظم الأشياء أن يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين، لقوله:{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ }.{نفسه}، أي: ذاته، والتعبير بالنفس اولا من التعبير بالذات وإن كان التعبير بالذات هو المشهور عند العلماء، لكن التعبير بالذات عن النفس ليس من اللغة العربية الفصحى، وإنما هو متلقي من اصطلاح عرفي.

٥-وجوب رد الأشياء إلى الله تعالى، لقوله:{ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}.

القرآن

{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)} [آل عمران : ٢٩]

قل -أيها النبي- للمؤمنين: إن تكتموا ما استقر في قلوبكم من موالاة الكافرين ونصرتهم أو تظهروا ذلك لا يَخْفَ على الله منه شيء، فإنَّ علمه محيط بكل ما في السماوات وما في الأرض، وله القدرة التامة على كل شيء.

قوله تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ}[آل عمران : ٢٩]، أي : قل يا محمد "إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا يخفى عليه خافية"[3].

قال السدي: "أخبرهم أنه يعلم ما أسرّوا من ذلك وما أعلنوا ، فقال:{إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ}"[4].

قال الزمخشري:أي:" إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه من ولاية الكفار أو غيرها مما لا يرضى الله يعلمه ولم يخف عليه"[5].

---

(١)الآية (١٠٦) من سورة النحل.

(٢) نواسخ القرآن:٣٢٤-٣٢٥. ويجدر القول بأن ابن الجوزي لم يعترض لدعوى النسخ في هذه الآية في زاد المسير أصلا، وإنما رد ذلك واختار النسخ في مختصر عمدة الراسخ المخطوط ورقة (٤) وقد أعرض عن ذكر دعوى النسخ في هذه الآية أمهات كتب النسخ المتقدمة.

(٣) صفوة التفاسير:١٧٨.

(٤) أخرجه الطبري(٦٨٣٩):ص٣١٨/٦.

(٥) الكشاف: ٣٥٢/١.

وفي قوله تعالى:{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ}[آل عمران:٢٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن المراد ما يخفون من مودة الكفار، وموالاتهم. هذا قول أكثر المفسرين(١).

والثاني: أنه يعني: تكذيب محمد - صلى الله عليه وسلم -، يقول: إن أخفيتموه أو أظهرتم تكذيبه، بحربه وقتاله، يعلمه الله.

والثالث: أنه يريد: الضمير، وهذا يعم كل ما في قلب الإنسان. قاله عطاء(٢).

والراجح أنه لما نهى الله في الآية الأولى عن موالاة الكفار، خوف وحذر في هذه الآية عن إبطان موالاتهم؛ بأنه يعلم الإسرار، كما يعلم الإعلان(٣).

قوله تعالى:{ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}[آل عمران:٢٩]، أي: و"يعلم كل ما هو حادث في السماوات والأرض"(٤).

قال الطبري:" يعني: أنه إذ كان لا يخفى عليه شيء هو في سماء أو أرض أو حيث كان ، فكيف يخفى عليه - أيها القوم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - ما في صدوركم من الميْل إليهم بالمودة والمحبة ، أو ما تبدونه لهم بالمعونة فعلا وقولا"(٥).

قال ابن عباس:" خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب، فقال القلم:وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم القيامة الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة فذلك يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يعلم ما في السماوات والأرض"(٦).

قوله تعالى:{ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[آل عمران : ٢٩]، " أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره"(٧).

قال محمد بن إسحاق:" أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير"(٨).

قال البيضاوي:أي:" فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه. والآية بيان لقوله تعالى: وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وكأنه قال ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلها، وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها"(٩).

قال ابن كثير:" أي : قدرته نافذة في جميع ذلك، وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته ، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يَبْغضه منهم ، فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإنْ أنظر من أنظر منهم ، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر"(١٠).

الفوائد:

١-من فوائد الآية: وجوب إبلاغ الناس بعلم الله تعالى بما في صدورهم، لقوله: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ}.

٢-ومنها: عموم علم الله تعالى بما اخفاه الإنسان وما أبداه.

٣-ومنها: أن العقل في القلب، والتدبير في القلب، والإرادة في القلب، لأنه قال: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ }، وهي مسالة اختلف فيه اهل الكلام، هل العقل في القلب أو في

---

(١) انظر: التفسير البسيط، للواحدي:١٧٥/٥.
(٢) حكاه عنه الواحدي ولم اهتد إلى مصدر قوله، انظر: التفسير البسيط: ١٧٦/٥.
(٣)انظر: التفسير البسيط، للواحدي:١٧٦/٥.
(٤) صفوة التفاسير:١٧٨.
(٥) تفسير الطبري:٣١٨/٦.
(٦)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٩٠):ص٦٣١/٢.
(٧) صفوة التفاسير:١٧٨.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٣٩١):ص٦٣١/٢.
(٩) تفسير البيضاوي:١٢/٢.
(١٠) تفسير ابن كثير:٣١/٢.

الدماغ، ولكن تشير آيات القران والحديث الشريف بأن العقل في القلب، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج : ٤٦]، وقال الرسول-صلى الله عليه وسلم:"ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"(١).

٤-ومن فوائد الآية: الرد على الجبرية الذين يوقولن بان الإنسان مجبر على عمله وليس له فيه إرادة، ووجه الرد عليهم: ان الله اضاف الفعل إلى الإنسان فقال:{إن تخفوا}.

٥-ومنها: ان الله محيط بكل شيء علما، حتى ما بين جوانح الإنسان، لقوله: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ}، وبالتالي التحذير من أن يسرّ الإنسان في نفسه ما لا يرضى الله.

٦-ومنها: عموم علم الله، لقوله: {وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}.ومنها: إثبات السماوات، وأنها جمع، وقد صرّح الله تعالى في كتابه بانها سبع سماوات، فقال: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء : ٤٤]، في حين لم تأتي كلمة "الأرض" في القرآن مجموعة، وإنما جاءت في السنة مجموعة، وقد دلّت عليه النص القرآن بانه ايضا سبع طبقات، فقال: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق : ١٢].

٧-ومنها: إثبات قدرة الله تعالى، لقوله: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وعموم هذه القدرة لقوله:{ كُلِّ شَيْءٍ}.

٨-ومنها: إرشاد الانسان أن يتعلق بربه، لأنه متى ما عرف الانسان بأن ربه على كل شيء قدير فإنه لن يمنعه مانع من ان يلتجئ إليه سبحانه وتعالى بسؤال ما يريد.

القرآن

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)} [آل عمران : ٣٠]

التفسير:

وفي يوم القيامة يوم الجزاء تجد كل نفس ما عملت من خير ينتظرها موفرًا لتُجزَى به، وما عملت من عمل سيِّئ تجده في انتظارها أيضًا، فتتمنى لو أن بينها وبين هذا العمل زمنًا بعيدًا. فاستعدوا لهذا اليوم، وخافوا بطش الإله الجبار. ومع شدَّة عقابه فإنه سبحانه المتصف بكمال الرحمة بالعباد.

قوله تعالى: { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا}[آل عمران:٣٠]، " أي: يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضراً لا يغيب عنه"(٢).

قوله {محضرا}، يعني: "موفرا"، قاله قتادة(٣).

وقال مطر: يعني:" موفرا مكنزا"(٤).

قال ابن كثير:" يعني : يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر، كما قال تعالى : { يُنَبَّأُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ } [القيامة : ١٣]"(٥).

---

(١) أخرجه البخاري(٥٢)، ومسلم(٤٠٩٤).
(٢) صفوة التفاسير:١٧٨.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٣٩٢):ص٦٣١/٢.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٣٩٣):ص٦٣١/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٣١/٢.

قوله تعالى:{وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا}[آل عمران:٣٠]، " أي وإن كان عمله سيئاً تمنّى أن لا يرى عمله، وأحبَّ أن يكون بينه وبين عمله القبيح غايةً في نهاية البعد"[١].

قال مقاتل:" يعني أجلا بعيدا بين المشرق والمغرب"[٢].

قال الثعلبي:" الأمد: الأجل والغاية التي ينتهي إليها، قال الله: {أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا} [الجن : ٢٥] ، وقال: {فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ} [الحديد : ١٦]، قال النابغة[٣]:

ألا لمثلك أو من أنت سابقة   بسبق الجواد إذا ستويا على الأمد"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا}[آل عمران:٣٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن المعنى:" يسر أحدهم أن لا يلقى عمله ذلك أبدا يكون ذلك مناه، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها". قاله الحسن[٥]، وروي عن مجاهد نحو ذلك[٦].

والثاني: أن قوله {أمدا بعيدا}، معناه: مكانا بعيدا. قاله السدي[٧].

والثالث: أن معناه أجلا وغاية بعيدا. قاله مقاتل بن سليمان[٨]، وابن جريج[٩]، وأبو عبيدة[١٠].

قوله تعالى:{ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}[آل عمران:٣٠]، أي: والله "يخوفكم عقابه"[١١].

قال مقاتل:" يعني: عقوبته في عمل السوء"[١٢].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ }[آل عمران:٣٠]، أي: والله رحيم بخلقه"[١٣].

قال الحسن:" من رأفته بهم أن حذَّرهم نفسه"[١٤].

الفوائد:

١-من فوائد الآية: التحذير والتذكير لهذا اليوم العظيم الذي يجد فيه الانسان جزاء عمله خيره وشره.

٢-ومنها: ثبوت الجزاء لكل نفس، وانه جزاء شامل وان غير المكلف يكتب له ولا يكتب عليه، ولا شك بأنه ليس على عمومه فيما يتعلق بالبهائم، فإنها لا تجد هذا.

٣-ومنها: كمال قدرة الله تعالى بإحضار ما عمله الإنسان من قليل وكثير، لقول:{ما} الموصولة التي تفيد العموم.

٤-ومنها: كمال رقابته عزّ وجلّ، وانه لا يفوته شيء، فما عمل الإنسان فسوف يجده.

٥-إثبات يوم الآخر، الذي هو يوم الجزاء.

٦-ومنها: ان الشر يسوء صاحبه، لقوله:{وما عملت من سوء}.

---

(١) صفوة التفاسير:١٧٨.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٠/١.
(٣) ديوانه: ١٣.
(٤) تفسير الثعلي:٥٠/٣.
(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٣٩٤):ص٦٣١/٢.
(٦)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٣٩٥):ص٦٣١/٢-٦٣٢.
(٧)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٣٩٧):ص٦٣٢/٢.
(٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٠/١.
(٩) انظر: تفسير ابن المنذر(٣٥٩):ص١٦٨/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن المنذر(٣٦٠):ص١٦٨/١.
(١١) تفسير ابن كثير:٣١/٢.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٠/١.
(١٣) صفوة التفاسير:١٧٨.
(١٤) أخرجه الطبري(٦٨٤٤):ص٣٢١/٦.

٧-إثبات الشعور في ذلك اليوم لقوله:{تودّ}، لأن المودة خالص المحبة، وهي فرع من الشعور بالشيء.
٨-ومنها: كراهة المسيء لما عمله في ذلك اليوم، لقوله:{تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا}، وأنه يحب ان يكون بينه وبين عمله السيء امدا بعيدا.
٩-رحمة الله بعباده بتحذيرهم من عقوبته، لقوله:{ ويحذركم الله نفسه}.
١٠-إثبات الرأفة لله عزّ وجلّ، لقوله {رءوف}، والرأفة أسد الرحمة وأرقها.

القرآن

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)} [آل عمران : ٣١]

التفسير:

قل -أيها الرسول-: إن كنتم تحبون الله حقا فاتبعوني وآمنوا بي ظاهرًا وباطنًا، يحببكم الله، ويمحُ ذنوبكم، فإنه غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيم بهم.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال:

أحدها: قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: "إن اليهود لما قالت: نحن أبناء الله وأحباؤه، أنزل الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ} الآية، فلما نزلت عرضها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأبوا أن يقبلوها"(١).

وقال مقاتل بن سليمان: "لما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- كعب بن الأشرف وأصحابه إلى الإسلام قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه ولنحن أشد حبا لله مما تدعونا إليه، فقال الله- عز وجل- لنبيه- صلى الله عليه وسلم-{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي} "(٢).

والثاني: قال الحسن:" قال قومٌ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، إنا نحبّ ربنا! فأنزل الله عز وجل : " قُل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " ، فجعل اتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عَلَمًا لحبه ، وعذاب من خالفه"(٣). وروي عن ابن جريج مثل ذلك(٤).

والثالث: وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: "وقف النبي - صلى الله عليه وسلم - على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام، وجعلوا في آذانها الشنوف والقرطة، وهم يسجدون لها، فقال: "يا معشر قريش لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل، ولقد كانا على الإسلام"، فقالت قريش: يا محمد إنما نعبد هذه حبا لله ليقربونا إلى الله زلفى، فأنزل الله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله} وتعبدون الأصنام لتقربكم إليه {فاتبعوني يحببكم الله} "فأنا رسوله إليكم وحجته عليكم، وأنا أولى بالتعظيم من أصنامكم"(٥).

قال ابن حجر:" وهذا من منكرات جويبر فإن آل عمران مدنية، وهذه القصة إنما كانت بمكة قبل الهجرة، ولعل الذي نزل فيهما في أوائل الزمر"(٦).

والرابع: ونقل الواحدي عن محمد بن جعفر بن الزبير:" نزلت في نصارى نجران، وذلك أنهم قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبده حبا لله وتعظيما له، فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليهم(١).

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٠٣.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١/٢٧٠-٢٧١.
(٣)أخرجه الطبري(٦٨٤٥):ص٦/٣٢٣.
(٤)أخرجه الطبري(٦٨٤٧):ص٦/٣٢٣، وابن المنذر(٣٦٢):ص١/١٦٩، وابن أبي حاتم (٣٤٠٢):ص٢/٦٣٣، من طريق بكر بن الأسود عن الحسن به، ونقله الواحدي في أساب النزول:١٠٣، وإسناده ضعيف جدا بسبب بكر، انظر: ميزان الاعتدال: ١/٣٤٢ - رقم: ١٢٧١، وضعف الإمام ابن جرير هذا السبب، انظر: تفسيرالطبري: ٦/٣٢٤ .
(٥) اسباب النزول: ١٠٣.
(٦) العجاب:٢/٦٧٨.

قوله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران : ٣١]، أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله"[٢].

أخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن أبي الدرداء في قوله {إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} على البر، والتقوى، والتواضع، وذلة النفس"[٣].

وقال الحسن:" فكان علامة حبه إياهم اتباع سنة رسوله"[٤].

قال ابن كثير:" أي : يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض الحكماء العلماء : ليس الشأن أن تُحِبّ ، إنما الشأن أن تُحَبّ"[٥].

قوله تعالى: { وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}[آل عمران:٣٢]، أي:" ويغفر لكم ما سلف من الذنوب"[٦].

قال محمد بن إسحاق:" أي: ما مضى من كفركم"[٧].

قال الطبري: أي:" فإنه إن اتبعتموني وصدّقتموني على ما أتيتكم به من عند الله يغفرُ لكم ذنوبكم ، فيصفح لكم عن العقوبة عليها ، ويعفو لكم عما مضى منها"[٨].

قال ابن كثير:" أي : باتباعكم للرسول صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته"[٩].

قوله تعالى:{ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[آل عمران:٣٢]، أي: والله غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيمٌ بهم"[١٠].

قال محمد ابن إسحاق:" والله {غفور}: يغفر الذنب، {رحيم}: يرحم العباد على ما فيهم"[١١].

قال ابن كثير:" هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ"[١٢]"[١٣].

الفوائد:

١- إن الله تعالى أمر نبيه محمدا-صلى الله عليه وسلم- أن يتحدى هؤلاء المدعين لمحبته بهذا الميزان القسط، وهو اتباعهم للرسول-عليه الصلاة والسلام-.

٢- إن محبة الله تعالى غاية لكل الناس حتى من غير المسلمين، لقوله:{إن كنتم تحبون الله فاتبعوني}.

٣- قد جعل الله اتباع رسوله سببا لمحبة الله للعبد، وكلما قوي اتباع الإنسان للرسول-عليه الصلاة والسلام- كان أقوى برهانا على صدق محبته لله.

---

(١) اسباب النزول: ١٠٣، والعجاب:٦٧٧/٢، وانظر: سيرة ابن هشام:٥٧٨/١-٥٧٩ في قصة وفد نجران.
(٢) صفوة التفاسير:١٧٨.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٠٠):ص٦٣٢/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٠١):ص٦٣٢/٢-٦٣٣.
(٥) تفسير ابن كثير:٣٢/٢.
(٦) صفوة التفاسير:١٧٨.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٠٤):ص٦٣٢/٢-٦٣٣.
(٨) تفسير الطبري:٣٢٤/٦.
(٩) تفسير ابن كثير:٣٢/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٣٢٤/٦.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٠٤٥):ص٦٣٢/٢-٦٣٣.
(١٢) أخرجه مسلم(١٧١٨).
(١٣) تفسير ابن كثير:٣٢/٢.

٤- ومن الفوائد: إثبات المحبة بين العبد والرب من الجانبين، لقوله:{تحبون الله}، وقوله:{يحببكم الله}، وهذه المحبة هي حقيقية خلافا لمن أوّلها، فقال: تحبون الله: أي: تحبون ثوابه، يحببكم الله: أي: يثيبكم الله، فهذا وأيم الله تحريف، وأن محبة الله غير محبة الثواب.

٥- إن اتباع الرسول-عليه الصلاة والسلام- برهان لصدق دعوى محبة الله، وسبب لمغفرة الله للذنب.

٦- ومنها: كمال إحسان الله تعالى، لجزائه على العمل أكثر منه، لأن المتبع للرسول يحصل محبة الله ومغفرة الذنوب.

٧- اثبات هذين الاسمين وما تضمناه من صفة في قوله:{والله غفور رحيم}.

القرآن

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)} [آل عمران : ٣٢]

التفسير:

قل -أيها الرسول-: أطيعوا الله باتباع كتابه، وأطيعوا الرسول باتباع سنته في حياته وبعد مماته، فإن هم أعرضوا عنك، وأصروا على ما هم عليه مِن كفر وضلال، فليسوا أهلا لمحبة الله; فإن الله لا يحب الكافرين.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال الثعلبي:" فلما نزلت هذه الآية[١] قال عبد الله بن أبي لأصحابه: إنّ محمّدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبّه كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم، فنزل: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}"[٢].

الثاني: وقال مقاتل بن سليمان: يعني: "قل لليهود"[٣]. ورجحه ابن حجر[٤].

قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}[آل عمران:٣٢]، أي: قل يا محمد: "أطيعوا أمر الله وأمر رسوله"[٥].

قال محمد ابن إسحاق: "أطيعوا الله والرسول وأنتم تعرفونه وتجدونه في كتابكم"[٦].

قال الطبري:أي:" قل ، يا محمد ، لهؤلاء الوفد من نصارى نجران: أطيعوا الله والرسول محمدًا ، فإنكم قد علمتم يقينًا أنه رسولي إلى خلقي، ابتعثته بالحق ، تجدونه مكتوبًا عندكم في الإنجيل"[٧].

قوله تعالى:{فَإِنْ تَوَلَّوْا}[آل عمران:٣٢]، أي: فإن" استدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك، وأعرضوا عنه"[٨].

قال ابن عباس:" يعني: الكفار تولوا عن النبي صلى الله عليه وسلم"[٩].

قال محمد بن إسحاق: "فإن تولوا على كفرهم"[١٠].

قال الثعلبي:أي:" أعرضوا عن طاعتهما"[١١].

قال ابن كثير: أي فإن" أي : خالفوا عن أمره"[١].

---

(١) وهو قوله: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}[آل عمران: ٣١].
(٢) تفسير الثعلبي:٥١/٣.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧١/١.
(٤) انظر: العجاب: ٦٧٩/٢.
(٥) صفوة التفاسير:١٧٨.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٠٦):ص٦٣٣/٢.
(٧) تفسير الطبري:٣٢٥/٦.
(٨) تفسير الطبري:٣٢٥/٦.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٠٧):ص٦٣٤/٢.
(١٠)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٠٩):ص٦٣٤/٢.
(١١)تفسير الثعلبي:٥١/٣.

قوله تعالى:{ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:٣٢]، أي: فإن الله "لا يحب من كفر بآياته"[٢].

قال الثعلبي: أي:" لا يرضى فعلهم ولا شيء لهم ولا يغفر لهم"[٣].

أخرج ابن أبي حاتم "عن سفيان بن عيينة قوله: {فإن الله لا يحب}، قال: لا يقرب"[٤].

قال ابن كثير:" فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب لله ويتقرب إليه ، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء - بل المرسلون ، بل أولو العزم منهم - في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه ، والدخول في طاعته ، واتباع شريعته"[٥].

الفوائد:

١-عناية الله تعالى بطاعته وطاعة الرسول، وذلك لتصدر الأمر بـ{قل}، والقرآن كله قد أمر الرسول-صلى الله عليه وسلم- أن يقوله.

٢-من فوائد الآية وجوب طاعة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، وأن طاعته من طاعة الله.

٣-إثبات رسالته –صلى الله عليه وسلم، لقوله:{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}.

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)} [آل عمران : ٣٣]

التفسير:

إن الله اختار آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران، وجعلهم أفضل أهل زمانهم.

قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ}[آل عمران:٣٣]، أي: إن الله "اختار للنبوة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر"[٦].

قال أبو مالك:" {اصطفى}، يعني: اختار"[٧].

قال الحسن:" فضلهم الله على العالمين بالنبوة على الناس كلهم، كانوا هم الأنبياء والأتقياء المطيعين لربهم"[٨].

قال مقاتل:" يعني: اختار من الناس لرسالته آدم"[٩].

قال ابن كثير:" فاصطفى آدم ، عليه السلام ، خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها ، لما له في ذلك من الحكمة"[١٠].

قال الزجاج:" معنى اصطفاهم في اللغة: اختارهم أي جعلهم صفوة خلقه، وهذا تمثيل بما يُرى، لأن العرب تمثل المعلوم بالشيءِ المرئي، وإذا سمع السامع ذلك المعلوم كان عنده بمنزلة ما يشاهده عِياناً، فنحن نعين الشيء الصافي أنه النقى من الكدر، فكذلك صفوة اللَّه من خلقه"[١١].

وفي معنى الإصطفاء في قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى}[آل عمران:٣٣]، ثلاثة أوجه:

---

(١) تفسير ابن كثير:٣٢/٢.
(٢) صفوة التفاسير:/١٧٨/١.
(٣)تفسير الثعلبي:٥١/٣.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٠٨):ص٦٣٤/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٣٢/٢.
(٦) صفوة التفاسير:١٨٠.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٤١٠):ص٦٣٤/٢.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٤١٠):ص٦٣٤/٢.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧١/١.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٣/٢.
(١١)معاني القرآن: ٣٩٩/١.

أحدها: اصطفى دينهم أي اختاره على سائر الأديان. والتقدير: إن الله اصطفى دينهم وهو دين الإسلام، فحذف المضاف. وهذا قول الفراء(١).

والثاني:أن المعنى: اختارهم للنبوة على عالمي زمانهم، فاصطفى آدمَ بالرسالة إلى الملائكة وإلى ولده، واصطفى نوحاً وإبراهيم وآله بالرِّسالة. أفاده الزجاج(٢).

والثالث: أنه اصطفاهم بتفضيلهم في الأمور التي ميزهم بها على أهل زمانهم . أفاده الماوردي(٣).

قوله تعالى:{وَنُوحًا}[آل عمران:٣٣]، أي: واختار نوحا"شيخ المرسلين"(٤).

قال ابن كثير:" واصطفى نوحا ، عليه السلام ، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض ، لما عبد الناس الأوثان ، وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطانا ، وانتقم له لما طالت مدته بين ظَهْرَاني قومه ، يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا ، سرا وجهارًا ، فلم يزدهم ذلك إلا فرارًا ، فدعا عليهم ، فأغرقهم الله عن آخرهم ، ولم يَنْجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به"(٥).

قوله تعالى:{وَآلَ إِبْرَاهِيمَ}[آل عمران:٣٣]،" أي عشيرته وذوي قرباه"(٦).

قال مقاتل:" يعني إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب والأسباط"(٧).

قال ابن عباس:" هم المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد صلى الله عليه وسلم"(٨).

وقال أيضا:" إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمدا بالرؤية "(٩).

قال ابن كثير:" واصطفى آل إبراهيم ، ومنهم : سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد صلى الله عليه وسلم"(١٠).

قال قتادة:" ذكر الله تعالى أهل بيتين صالحين ،ففضلهما على العالمين ، فكان محمد صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم"(١١).

قوله تعالى:{وَآلَ عِمْرَانَ }[آل عمران:٣٣]، أي: أهل عمران"(١٢).

قال مقاتل:" يعني موسى، وهارون، ذرية آل عمران اختارهم للنبوة والرسالة"(١٣).

قال ابن كثير:" المراد بعمران هذا : هو والد مريم بنت عمران ، أم عيسى ابن مريم ، عليهم السلام"(١٤).

قال الزمخشري:" وآل عمران موسى وهرون ابنا عمران ابن يصهر. وقيل عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة"(١٥).

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء: ٢٩٧/١، ومعاني القرآن للزجاج: ٣٩٩/١، وتفسير القرطبي:٦٢/٤.
(٢) انظر: معاني القرآن: ٣٩٩/١.
(٣) انظر: النكت والعيون:٣٨٦/١.
(٤) تفسير البيضاوي:٢٤٩/١.
(٥) تفسير ابن كثير: ٣٣/٢.
(٦) صفوة التفاسير:١٨٠.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧١/١.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٤١٤):ص٦٣٥/٢.
(٩) تفسير ابن المنذر: (٣٦٨):ص١٧١/١.
(١٠) تفسير ابن كثير: ٣٣/٢.
(١١) تفسير عبدالرزاق(٣٨٨):ص٣٨٦/١.
(١٢) صفوة التفاسير:١٨٠.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧١/١.
(١٤) تفسير ابن كثير: ٣٣/٢.
(١٥) الكشاف:٣٥٤/١.

وفي :{وَآلَ عِمْرَانَ }[آل عمران:٣٣]،قولان :
أحدهما : أنه موسى وهارون ابنا عمران. قاله مقاتل(١). وآخرون.
والثاني : أنه المسيح ، لأن مريم بنت عمران ، وهذا قول الحسن(٢) .
قوله تعالى:{عَلَى الْعَالَمِينَ}[آل عمران:٣٣]، "أي: على عالمي زمانهم"(٣).
قال الحسن:"على الناس كلهم"(٤).
قال مقاتل:" يعني: عالمي ذلك الزمان"(٥).
قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض "(٦).

الفوائد:

١- إن الله يختار من خلقه ما يشاء، كما قال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [القصص : ٦٨].

٢- إن التفاضل يكون في الأعمال والأعيان والأشخاص، ولهذا فإن جنس العرب أفضل من غيرهم، ومحمد-عليه الصلاة والسلام- أشرفهم.

٣- ومنها ما ذكره بعض أهل العلم من أن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة، لقوله:{على العالمين}، والملائكة عالم.

القرآن

{ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)} [آل عمران : ٣٤]

التفسير:

هؤلاء الأنبياء والرسل سلسلة طُهْر متواصلة في الإخلاص لله وتوحيده والعمل بوحيه. والله سميع لأقوال عباده، عليم بأفعالهم، وسيجازيهم على ذلك.

قوله تعالى: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ}[آل عمران : ٣٤]، "أي: اصطفاهم متجانسين في الدين والتُّقى والصلاح"(٧).

قال قتادة:"يقول: في النية والعمل والإخلاص والتوحيد له"(٨).

قال محمد بن إسحاق:" فمن تلك الذرية كان ينسب عيسى إذ لم يكن له أب من غيرهم، فدعي إلى نسبه"(٩).

وقال أبو روق:" بعضها على دين بعض"(١٠).

قال الطبري:أي:" ذرية دينُ بعضها دينُ بعض ، وكلمتهم واحدةٌ ، وملتهم واحدة في توحيد الله وطاعته"(١١).

قال الراغب:" يعني في الموالاة الدينية، لقوله: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة : ٧١] وقوله: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} [التوبة : ٦٧] وقوله لنوح: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود : ٤٦] ردا عليه لما قال في الكناية عن هذا العدو"(١٢).

---

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٧١.
(٢) انظر: النكت والعيون: ١/٣٨٦.
(٣) تفسير البيضاوي: ١/٢٤٩، وانظر: صفوة التفاسير:١٨٠.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤١٥):ص٢/٦٣٥.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٧١.
(٦) تفسير ابن كثير: ٢/٣٣.
(٧) صفوة التفاسير:١٨٠.
(٨) أخرجه الطبري(٦٨٥٥):ص٦/٣٢٨.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤١٩):ص٢/٦٣٦.
(١٠)مجمع البيان: ٥/ ٨٤، وانظر: تفسير الثعلبي:٣/٥٣.
(١١) تفسير الطبري:٦/٣٢٧.
(١٢) تفسير الراغب الأصفهاني:٢/٥٢٧.

وفي قوله تعالى:{ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ }[آل عمران : ٣٤] وجهان:
أحدهما : أنهم صاروا ذرية بالتناصر لا بالنسب، كما قال تعالى:{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ } [التوبة : ٦٧] يعني في الاجتماع على الضلال ، وهذا قول الحسن[١]، وقتادة[٢].
والثاني : أنهم في التناسل والنسب ، إذ جميعهم من ذرية آدم ، ثم من ذرية نوح ، ثم من ذرية إبراهيم ، وهذا قول بعض المتأخرين[٣].
قوله تعالى:{ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [آل عمران : ٣٤] أي: والله " سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم"[٤].
قال محمد بن إسحاق:" أي: سميع لما يقولون، عليم بما يخفون"[٥].
قال مقاتل: {سميع}: "لقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه ونحن أشد حبا لله، {عليم} بما قالوا، يعنى اليهود"[٦].
قال الطبري:أي:" والله ذُو سمع لقول امرأة عمران ، وذو علم بما تضمره في نفسها ، إذ نذَرت له ما في بطنها مُحرَّرًا"[٧].
الفوائد:
١- بيان أن البشر جنس بعضه من بعض، لقوله:{ذرية بعضها من بعض}.
٢- الرد على من زعم بأن البشر تطور من جنس لآخر، من القردة إلى الآدميين إلى البشر، والصحيح أن أصل البشر من آدم، الذي خلقه الله من تراب.
٣- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: السميع، والعليم، فالسميع يتعلق بالأصوات، والعليم يتعلق بكل شيء بالأصوات والأحوال والأعيان.

القرآن
{إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)} [آل عمران : ٣٥]
التفسير:
اذكر -أيها الرسول- ما كان من أمر مريم وأمها وابنها عيسى عليه السلام; لتردَّ بذلك على من ادعوا ألوهية عيسى أو بنوَّته لله سبحانه، إذ قالت امرأة عمران حين حملت: يا ربِّ إني جعلت لك ما في بطني خالصا لك، لخدمة «بيت المقدس» ، فتقبَّل مني; إنك أنت وحدك السميع لدعائي، العليم بنيتي.
قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ}[آل عمران : ٣٥]، " أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران"[٨].
قال البيضاوي:" وهذه حنة بنت فاقوذ جدة عيسى، وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهارون فظن أن المراد زوجته ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصراً لابن ماثان وتزوج بنته ايشاع، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روي أنها كانت عاقراً عجوزاً، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنت إلى الولد

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤١٦)، و(٣٤١٧):ص٦٣٥/٢.
(٢) أخرجه الطبري(٦٨٥٥):ص٣٢٨/٦.
(٣) انظر: النكت والعيون:٣٨٦/١.
(٤) صفوة التفاسير:١٨٠.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٢٠):ص٦٣٦/٢.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧١/١.
(٧) تفسير الطبري:٣٢٨/٦.
(٨) صفوة التفاسير:١٨٠.

وتمنته فقالت: اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وكان هذا النذر مشروعاً في عهدهم للغلمان فلعلها بنت الأمر على التقدير أو طلبت ذكراً"[١].

قوله تعالى: { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي }[آل عمران : ٣٥]، أي: ربّي إني "نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني"[٢].

قال عكرمة:" أن امرأة عمران كانتْ عجوزًا عاقرًا تسمى حَنَّة ، وكانت لا تلد ، فجعلت تغبطُ النساء لأولادهن ، فقالت : اللهمّ إنّ عليّ نذرًا شكرًا إن رزقتني ولدًا أن أتصدّق به على بيت المقدس، فيكون من سَدَنته وُخدَّامه" [٣].

قال الحسن:" نذرت ما في بطنها ، ثم سيَّبَتْها" [٤].

قوله تعالى: { مُحَرَّراً}[آل عمران : ٣٥]،" أي: مخلصاً للعبادة والخدمة"[٥].

قال سعيد بن جبير:"للبيعة والكنيسة"[٦].

قال عكرمة:" قوله: {نذرتُ لك ما في بطني محرّرًا}، إنها للحرّة ابنة الحرائر {محررًا} للكنيسة يخدمها"[٧].

قال محمد بن جعفر بن الزبير:"تقول: جعلته عتيقًا لعبادة الله ، لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا"[٨].

قال مجاهد:" خالصًا ، لا يخالطه شيء من أمر الدنيا"[٩]،

قال قتادة:" كانت امرأة عمران حَرّرت لله ما في بطنها ، وكانوا إنما يحرّرُون الذكور ، وكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل في الكنيسة لا يبرَحها ، يقوم عليها ويكنُسها"[١٠].

قال السدي:" وذلك أن امرأة عمران حملت ، فظنت أن ما في بطنها غلام ، فوهبته لله محرّرًا لا يعمل في الدنيا"[١١].

قال الربيع:" كانت امرأة عمران حرّرَت لله ما في بطنها. قال : وكانوا إنما يحرّرون الذكور ، فكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل في الكنيسة لا يبرحها ، يقوم عليها ويكنسها"[١٢].

قال الضحاك:" جعلت ولدها لله ، وللذين يدرُسون الكتاب ويتعلّمونه"[١٣].

قال التستري:" أي حررته وأعتقته من رق الدنيا من متابعة هواه ومرادات نفسه، وجعلته خادماً لعباد بيت المقدس خالصا لله تعالى"[١٤].

قال البيضاوي:" معتقاً لخدمته لا أشغله بشيء، أو مخلصاً للعبادة"[١٥].

قال الطبري:" يعني بذلك : حبستُه على خدمتك وخدمة قُدْسك في الكنيسة ، عتيقةً من خدمة كلّ شيء سواك ، مفرّغة لك خاصة"[١٦].

---

(١) تفسير البيضاوي:١٤/٢.
(٢) صفوة التفاسير:١٨٠.
(٣) أخرجه الطبري(٦٨٧٥):ص٦/٣٣٢-٣٣٣.
(٤) أخرجه الطبري(٦٨٧٦):ص٦/٣٣٣.
(٥) صفوة التفاسير:١٨٠.
(٦) أخرجه الطبري(٦٨٦٨):ص٦/٣٣١.
(٧) أخرجه الطبري(٦٨٧٥):ص٦/٣٣٢-٣٣٣.
(٨) أخرجه الطبري(٦٨٥٨):ص٦/٣٣٠.
(٩) أخرجه الطبري(٦٨٦٧):ص٦/٣٣١.
(١٠) أخرجه الطبري(٦٨٧٠):ص٦/٣٣٢.
(١١) أخرجه الطبري(٦٨٧٢):ص٦/٣٣٢.
(١٢) أخرجه الطبري(٦٨٧٣):ص٦/٣٣٢.
(١٣) أخرجه الطبري(٦٨٧٤):ص٦/٣٣٢.
(١٤) تفسير التستري:٤٨.
(١٥) تفسير البيضاوي:١٤/٢.
(١٦) تفسير الطبري:٣٢٩/٦.

ولأهل العلم في تفسير قوله تعالى: { مُحَرَّراً}[آل عمران : ٣٥]،" ثلاثة أقاويل:
أحدها : أن معناه: فرّغته للعبادة ، وهذا قول الشعبي[١].
والثاني : أنه: يعني: خادماً للبيعة ، وهذا قول مجاهد[٢]، وروي عن الربيع بن أنس وشرحبيل بن سعد نحو ذلك[٣].
والثالث : معناه: عتيقاً من الدنيا لطاعة الله ، وهذا قول محمد بن جعفر بن الزبير[٤].
قوله تعالى:{فَتَقَبَّلْ مِنِّي}[آل عمران:٣٥]، " أي : فتقبل مني ما نذرت لك يا ربّ"[٥].
قوله تعالى:{إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[آل عمران:٣٥]، أي إنك أنت "السميع لدعائي العليم بنيتي"[٦].
قال الطبري:" إنك أنتَ يا رب {السميع} لما أقول وأدعو، {العليمُ} لما أنوي في نفسي وأريد ، لا يخفى عليك سرّ أمري وعلانيته"[٧].
الفوائد:
١- من فوائد الآية الكريمة جواز النذر في الأمر المجهول.
٢- جواز تصدق المراة بدون إذن زوجها، ووجهه: انها نذرت تحرير هذا الولد بدون إذن الزوج.
٣- ومنها: ان الولد يخدم والده من أم أو أب، لأنها قالت: {محررا}، يعني محررا من الخدمة بحيث لا أستخدمه ولا أستغل حياته.
٤- ومن الفوائد ايضا: الافتقار إلى الله، لقولها:{فتقبّل منّي}.
٥- إثبات اسمين من اسماء الله تعالى وهما: السميع، والعليم، والسميع يكون بمعنى استجابة الدعاء وبمعنى إدراك المسموع، والعليم هو: إدراك الشيء على ما هو عليه.

القرآن
{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)} [آل عمران : ٣٦]
التفسير:
فلما تمَّ حملها ووضعت مولودها قالت: ربِّ إني وضعتها أنثى لا تصلح للخدمة في «بيت المقدس» -والله أعلم بما وضَعَتْ، وسوف يجعل الله لها شأنًا- وقالت: وليس الذكر الذي أردت للخدمة كالأنثى في ذلك; لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقْوَم بها، وإني سمَّيتها مريم، وإني حصَّنتها بك هي وذريَّتها من الشيطان المطرود من رحمتك.
قوله تعالى: {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا}[آل عمران: ٣٦]، "أي: لمَّا ولدتها"[٨].
قال الثعلبي:" أي ولدتها وإذا هي جارية"[٩].
قال الطبري:أي:"فلما وضعت حَنَّة النذيرةَ"[١٠].
قال ابن عباس: "فلما وضعتها أنثى ضنت بها، قالت: {رب إني وضعتها أنثى}"[١١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٦٨٦٢)-(٦٨٦٤):ص٣٣١/٦.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٢٣):ص٦٣٦/٢.
(٣)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٢٣):ص٦٣٦/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٦٨٥٨):ص٣٣٠/٦.
(٥) تفسير الطبري:٣٢٩/٦.
(٦)تفسير ابن كثير:٣٣/٢، وانظر: صفوة التفاسير:١٨٠.
(٧) تفسير الطبري:٣٢٩/٦.
(٨) صفوة التفاسير:١٨١.
(٩) تفسير الثعلبي:٥٥/٣.
(١٠) تفسير الطبري:٣٣٣/٦.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٢٤):ص٦٣٦/٢.

قوله تعالى:{ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى }[آل عمران: ٣٦]، أي: يا ربي إني "ولدت النذيرة أنثى"[١].

قال ابن عباس:" وكانت ترجو أن يكون ذكرا"[٢].

قال السدي:" فلما وضعت إذا هي جارية، فقالت تعتذر إلى الله: {رب إني وضعتها أنثى}"[٣].

قال الربيع:" يعني أن المرأة لا تستطيع ذلك"[٤].

قال عكرمة:" قالت: ليس في الكنيسة إلا الرجل، فلا ينبغي لإمرأة أن تكون مع الرجال، أمها تقوله، فذلك الذي منعها أن يجعلها في الكنيسة وينفذ نذرها بتحريرها في الكنيسة"[٥].

قال البيضاوي:" وإنما قالته تحسراً وتحزناً إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره"[٦].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}[آل عمران:٣٦]، أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت"[٧].

قال الطبري:أي:" والله أعلم من كل خلقه بما وضعت"[٨].

قال البيضاوي:يعني:" أي بالشيء الذي وضعت. هو استئناف من الله تعالى تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بشأنها"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَضَعَتْ }[آل عمران:٣٦]، قراءتان[١٠]:

إحداهما: {بما وضعتْ}، بتسكين التاء، على أنه من قول الله عز وجل، قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي، ورواية حفص والمفضل عن عاصم.

والثانية:{بما وضعتُ}، بضم التاء، على أنها تاء المتكلم ، وأن ذلك من تمام قولها، وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن الضحاك فلما وضعتها فرأتها أنثى قالت: إني وضعتها أنثى وأنت أعلم بما وضعت، يعني: برفع التاء"[١١].

قوله تعالى: { وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى }[آل عمران:٣٦]، "أي ليس الذكر الذي طَلَبْته كالأنثى التي وُهِبتها"[١٢].

قال عكرمة:"يعني : في المحيض ، ولا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرجال أمها تقول ذلك"[١٣].

قال الضحاك:" أي لما جعلها له نذيرة، والنذيرة أن تعبد الله لأن الذكر هو أقوى على ذلك من الأنثى"[١٤].

قال ابن كثير:"أي : في القوة والجَلَد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى"[١].

---

(١) تفسير الطبري:٣٣٤/٦.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٢٥):ص٦٣٧/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٢٦):ص٦٣٧/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٢٧):ص٦٣٧/٢.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٢٨):ص٦٣٧/٢.
(٦) تفسير البيضاوي:١٤/٢.
(٧) صفوة التفاسير:١٨١.
(٨)تفسير الطبري:٣٣٤/٦.
(٩) تفسير البيضاوي:١٤/٢.
(١٠) انظر: السبعة:٢٠٤، وتفسير ابن كثير:٣٣/٢.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣٠):ص٦٣٧/٢.
(١٢) صفوة التفاسير:١٨١.
(١٣)أخرجه الطبري(٦٨٨٣):ص٣٣٦/٦.
(١٤)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣١):ص٦٣٧/٢.

قال الطبري:" قالت [ذلك] اعتذارًا إلى ربها مما كانت نذرتْ في حملها فحررته لخدمة ربها، لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها ، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدْس والقيام بخدمة الكنيسة ، لما يعتريها من الحيض والنفاس"(٢).

قال قتادة:" كانت المرأة لا يستطاع أن يصنع بها ذلك يعني أن تحرر للكنيسة ، فتجعل فيها ، تقوم عليها وتكنسها فلا تبرحها مما يصيبها من الحيض والأذى ، فعند ذلك قالت :{ليس الذكر كالأنثى}"(٣).

قال الربيع:"كانت امرأة عمران حرّرت لله ما في بطنها ، وكانت على رَجاء أن يهبَ لها غلامًا ، لأن المرأة لا تستطيع ذلك يعني القيامَ على الكنيسة لا تَبرحها ، وتكنُسها لما يصيبها من الأذى"(٤).

قال السدي:" أن امرأة عمران ظنتّ أن ما في بطنها غلامٌ ، فوهبته لله. فلما وضعت إذا هي جارية ، فقالت تعتذر إلى الله :{رب إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى}، تقول : إنما يحرّر الغلمان"(٥).

قوله تعالى: { وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ }[آل عمران:٣٦]، " أي: وإني "أسميت هذه الأنثى مريم"(٦).

قال الثعلبي:" وهي بلغتهم: الخادمة والعبادة، وكانت أجمل النساء في وقتها وأفضلها"(٧).

قال ابن كثير:" فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق ؛ لأنه شرع من قبلنا "(٨).

قوله تعالى: { وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ }[آل عمران:٣٦]، أي: وإني "أجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم"(٩).

عن أبي مالك قوله: {الرجيم}، يعني: ملعون"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : عَوَّذتها بالله ، عز وجل ، من شر الشيطان ، وعوذت ذريتها ، وهو ولدها عيسى ، عليه السلام"(١١).

عن أبي هريرة قال :" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نَفْس مولود يُولد إلا والشيطان ينال منه تلك الطعنة ، ولها يَستهلّ الصبي ، إلا ما كان من مريم ابنة عمران ، فإنها لما وضعتها قالت : {رب إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم}، فضُرب دُونها حجاب ، فطعَن فيه"(١٢).وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد من بني آدم يمسُّه الشيطان بإصبعه ، إلا مريم وابنها"(١٣).

وعن ابن عباس ، قال : "ما ولد مولود إلا وقد استهلّ ، غير المسيح ابن مريم ، لم يسلَّط عليه الشيطان ولم يَنْهَزْه"(١٤).

---

(١) تفسير ابن كثير:٣٣/٢.

(٢)تفسير الطبري:٣٣٤/٦.

(٣) أخرجه الطبري(٦٨٧٩):ص٣٣٥/٦.

(٤) أخرجه الطبري(٦٨٨١):ص٣٣٥/٦.

(٥) أخرجه الطبري(٦٨٨٢):ص٣٣٥/٦.

(٦) صفوة التفاسير:١٨١.

(٧) تفسير الثعلبي:٥٥/٣، وانظر: قصص الأنبياء للثعلبي: ٣٧١- ٣٧٤.

(٨) تفسير ابن كثير:٣٣/٢-٣٤.

(٩) صفوة التفاسير:١٨١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣٤):ص٦٣٨/٢.

(١١) تفسير ابن كثير:٣٣/٢-٣٤.

(١٢) أخرجه الطبري(٦٨٨٤):ص٣٣٦/٦، ورواه الحاكم في المستدرك ٢ / ٥٩٤.

(١٣)أخرجه الطبري(٦٨٨٩):ص٣٣٨/٦، و رواه أحمد في المسند : (٧٨٦٦).

(١٤) أخرجه الطبري(٦٨٩٣):ص٣٤٠/٦. اسناده صحيح.

وقال وهب بن منبه: "لما وُلد عيسى أتت الشياطينُ إبليس ، فقالوا : أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها! فقال : هذا في حادث حدث! وقال : مكانَكم! فطارَ حتى جاء خَافقي الأرض ، فلم يجد شيئًا ، ثم جاء البحار فلم يجد شيئًا ، ثم طار أيضًا فوجد عيسى قد ولد عند مِذْوَد حمار ، وإذا الملائكة قد حفَّت حوله ، فرجع إليهم فقال : إن نبيًّا قد ولد البارحة ، ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا أنا بحضرتها ، إلا هذه! فأيسوا أن تُعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بني آدم من قبل الخفّة والعجَلة"[1].

الفوائد:

١-من فوائد الآية: ان الأم تتكلف الطفل، لقوله:{وضتها}، ومنه قوله تعالى: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} [الأحقاف : ١٥].

٢-ومنها: عظم حق الأم على ولدها.

٣-ومنها: اعتذار الانسان إلى ربه إذا وقع الأمر خلاف ما أراد.

٤-التوسل إلى الله تعالى بربوبيته.

٥-أنه من تمام البلاغة الاحتراز عن كل موهم لأمر خطأ، سواء كان في المقال أو في الفعل، لقوله:{والله أعلم بما وضعت} على قراءة الضم.

٦-إثبات التفضيل في اوصاف الله من قوله:{أعلم بما وضعت}.

٧-أنه لا يستوي الذكور والإناث في الطبيعة ولا في المعاملة، بل ولا في الأحكام في بعض الأحيان.

٨-ومن الفوائد: جواز تسمية المولود حين يولد.

٩-مشروعية إعاذة الانسان أبناءه بالله عزّ وجل من الشيطان الذي هو عد الانسان ومن شر الخلق.

١٠-جواز الدعاء للمعدوم، من قوله:{وذريتها}.

القرآن

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)} [آل عمران : ٣٧]

التفسير:

فاستجاب الله دعاءها وقبل منها نَذْرها أحسن قَبول، وتولَّى ابنتها مريم بالرعاية فأنبتها نباتًا حسنًا، ويسَّر الله لها زكريا عليه السلام كافلا فأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما دخل عليها هذا المكان وجد عندها رزقًا هنيئًا معدّاً قال: يا مريم من أين لكِ هذا الرزق الطيب؟ قالت: هو رزق من عند الله. إن الله -بفضله- يرزق مَن يشاء مِن خلقه بغير حساب.

قوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ}[آل عمران:٣٧]، أي: قبلها الله قبولاً حسناً"[2].

قال شرحبيل بن سعد:" وقبل الله أنثاهم أن يجعلوها في البيعة"[3].

قال الماوردي:" معناه أنه رضيها في النذر الذي نذرته بإخلاص العبادة في بيت المقدس"[4].

قال ابن كثير:" يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة"[5].

---

(١) أخرجه الطبري(٦٨٩٤):ص٣٤١/٦.

(٢) صفوة التفاسير:١٨١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣٥):ص٦٣٨/٢.

(٤) النكت والعيون:٣٨٨/١.

(٥) تفسير ابن كثير:٣٥/٢.

قال البيضاوي:أي:" فرضي بها في النذر مكان الذكر بوجه حسن يقبل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذكر، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة"(١).

قوله تعالى:{وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}[آل عمران:٣٧]،" أي: ربّاها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة"(٢).

قال الماوردي:" يعني: أنشأها إنشاءً حسناً في غذائها وحسن تربيتها"(٣).

قال ابن كثير:" أي : جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا ، ويَسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين"(٤).

قال عباد بن منصور: "سألت الحسن فقال: {تقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتا حسنا}، وتقارعها القوم فقرع زكريا"(٥).

قوله تعالى:{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا }[آل عمران:٣٧]،" أي: جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها"(٦).

قال الربيع:" يقول: ضمها إليه"(٧).

قال مجاهد:" ساهمهم بقلمه"(٨).

قال قتادة: "تساهموا على مريم أيهم يكفلها"(٩).

قال السدي:" كان زكريا أفضلهم يومئذ، وكان نبيهم، وكانت أخت مريم تحته، فلما أتوا بها اقترعوا عليها، وقال لهم زكريا: أنا أحقكم بها تحتي أختها، فأبوا فخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها، أيهم يقوم قلمه فيكفلها، فجرت الأقلام وقام قلم زكريا على هيئته كأنه في طين، وأخذ الجارية فذلك قوله تعالى: :{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا }"(١٠).

وفي قوله تعالى:{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا }[آل عمران:٣٧]، قراءتان(١١):

إحداهما: {وكفلها}، مفتوحة الفاء خفيفة، و{زكرياء}، رفع ممدود، قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر.

والثانية: {وكفّلها} مشددة الفاء، و{زكريآء}، نصبا، قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر، وكان يمد {زكرياء} في كل القرآن.

قوله تعالى:{ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ}[آل عمران:٣٧]، "أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها"(١٢).

قال السعدي: "وهو[أي: المحراب] محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها"(١٣).

قال الطبري:" وأما " المحراب " ، فهو مقدم كل مجلس ومصلًّى ، وهو سيد المجالس وأشرفُها وأكرمُها ، وكذلك هو من المساجد ، ومنه قول عديّ بن زيد (١٤):

---

(١) تفسير البيضاوي:١٤/٢.
(٢) صفوة التفاسير:١٨١.
(٣) النكت والعيون:٣٨٨/١.
(٤)تفسير ابن كثير:٣٥/٢.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣٧):ص٦٣٨/٢.
(٦) صفوة التفاسير:١٨١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣٩):ص٦٣٩/٢.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣٨):ص٦٣٩/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٣٨):ص٦٣٩/٢.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤٠):ص٦٣٩/٢.
(١١) انظر: السبعة:٢٠٤.
(١٢) صفوة التفاسير:١٨١.
(١٣) تفسير السعدي:٩٦٦.
(١٤) ديوانه: ٤٥٥.

كَدُمَى العَاجِ فِي المَحَارِيبِ أَوْ ... كالبَيْضِ فِي الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ
و " المحاريب " جمع " محراب " ، وقد يجمع على " محارب "[١].

قوله تعالى:{وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً}[آل عمران:٣٧]،أي:"وجد عندها فاكهة وطعاماً"[٢].

قال الخطيب:" أي رزقا متجددا، ما يراه اليوم غير ما رآه أمس، وغير ما سيراه غدا"[٣].

قال ابن عباس:" وجد عندها عنبا في مكتل في غير حينه"[٤].

وقال عكرمة:" فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء"[٥].

وقال مجاهد:" الرمان والعنب في غير حينه"[٦]. وروي عن سعيد بن جبير وجابر بن زيد، والضحاك وإبراهيم النخعي، وقتادة والربيع بن أنس والسدي، وعطية العوفي نحو ذلك[٧].

وفي قوله تعالى:{وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً}[آل عمران:٣٧]، ثلاثة اوجه:

أحدها : أن الرزق الذي أتاها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وهذا قول ابن عباس[٨]، ومجاهد[٩]، والضحاك[١٠]، وقتادة [١١]، والسدي[١٢]، وسعيد[١٣]، وإبراهيم[١٤]، وإبراهيم[١٤]، والربيع[١٥].

والثاني : أنها لم تطعم ثدياً قط حتى تكلمت في المهد، وإنما كان يأتيها رزقها من الجنة، وهذا قول الحسن [١٦].

والثالث: أن المعنى: وجد عندها "عرما أو صحفا فيها علم. قاله مجاهد[١٧].

واختلف في السبب الذي يأتيها هذا الرزق لأجله على قولين :

أحدهما : أنه كان يأتيها بدعوة زكريا لها .

والثاني : أنه كان ذلك يأتيها لنبوة المسيح عليه السلام .

قوله تعالى:{قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا }[آل عمران:٣٧]، أي: قال يا مريم "من أين لك هذا؟"[١٨].

قال الضحاك:" يقول: من أتاك بهذا؟"[١٩].

قال أبو مالك قوله: {أنى}، يعني: من أين؟"[٢٠].

قال البيضاوي:أي:" من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء. جعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه"[١].

---

(١) تفسير الطبري:٣٥٧/٦-٣٥٨.
(٢) صفوة التفاسير:١٨١.
(٣) التفسير القرآن للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب:٤٣٧/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤٤):ص٦٤٠/٢.
(٥)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤٥):ص٦٤٠/٢.
(٦)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤٦):ص٦٤٠/٢.
(٧) انظر: ابن أبي حاتم(٣٤٤٦):ص٦٤٠/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٦٩١٧):ص٣٥٤/٦، و(٦٩٣٣):ص٣٥٦/٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٦٩٢٤):ص٣٥٤/٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٦٩٢٠):ص٣٥٤/٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٦٩٢٨):ص٣٥٥/٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٦٩٣١):ص٣٥٥/٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٦٩١٨):ص٣٥٤/٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٦٩١٩):ص٣٥٤/٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٦٩٣٠):ص٣٥٥/٦.
(١٦) انظر: النكت والعيون:٣٨٨/١.
(١٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٤٦):ص٦٤٠/٢.
(١٨) معاني القرآن للزجاج: ٤٠٣/١، وانظر: تفسير ابن كثير:٣٦/٢.
(١٩) تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٤٧):ص٦٤٠/٢.
(٢٠) تفسير ابن أبي حاتم(٤٤٤٨):ص٦٤٠/٢.

قال الزجاج:" وإنما سأل زكريا عن الرزق لأنه خاف أن يأتيها - من غير جهته فتبين عنده أنه من عند اللَّه، وذلك من آيات مريم، قال اللَّه تبارك وتعالى:{وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء:٩١] فمن آياتها أنها أول امرأة قُبلت في نذر في المتعبد، ومنها أن اللَّه أنشأ فيها عيسى - عليه السلام - من كلمة ألقاها إليها، ومنها أن اللَّه عزَّ وجلَّ - غذاها برزق من عنده لم يجْرِهِ على يد عبد من عبيده، وقد قيل في التفسير أنَّها لم تُلْقَمْ ثدياً قط"[٢].

قوله تعالى:{ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}[آل عمران:٣٧]، " أى: قالت له :إن هذا الرزق من عند الله- تعالى-"[٣].

قال البغوي"أي: من قطف الجنة"[٤].

قال أبو السعود:أي:" فلا تعجبْ ولا تستبعد"[٥].

قال ابن عباس:" فإنه وجد عندها الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد، وكان زكريا يقول: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب"[٦].

وفي قوله تعالى:{قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، وجهان[٧]:

أحدهما : أن الله تعالى كان يأتيها بالرزق .

والثاني : أن بعض الصالحين من عباده سخره الله تعالى لها لطفاً منه بها حتى يأتيها رزقها .

قال الماوردي: "والأول أشبه"[٨].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }[آل عمران:٣٧]، أي: إن الله يرزق من يشاء "رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب"[٩].

قال الزجاج: " أي بغير تقتير"[١٠]."

قال البيضاوي:أي:" بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به. وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى"[١١].

الفوائد:

١-من فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى سميع قريب مجيب، لأنها دعت فسمعها، ولأنها دعت فأجابها، وفي القرآن الكريم: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة : ١٨٦].

٢-أن الله تعالى منّ على هذه الطفلة بشيئين: بالقبول الحسن والنبات الحسن، فصار في ذلك تنمية لأخلاقها ولجسمها وبدنها.

٣-أن الله تعالى هو المسبب وهو المكوّن للإنسان والمنبت له.

٤-إثبات الحضانة للطفل، لقوله:{وكفّلها زكريا}.

٥-إن الله قد ييسر للإنسان من الرزق ما لايكون في حسبانه.

٦-أن الأشياء تضاف إلى الله تعالى، وإن كان لها سبب، لقوله:{هو من عند الله}.

٧-أن الانبياء لا يعلوم الغيب، لقوه:{يا مريم أنى لك هذه}.

---

(١) تفسير البيضاوي:١٥/٢.
(٢) معاني القرآن: ٤٠٤/١.
(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي:٩١/٢.
(٤) تفسير البغوي:٣٢/٢.
(٥) تفسير أبي السعود:٣٠/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٤٩):ص٦٤٠/٢.
(٧) انظر: النكت والعيون:٣٨٨/١.
(٨)النكت والعيون:٣٨٨/١.
(٩) صفوة التفاسير:١٨١.
(١٠) معاني القرآن: ٤٠٤/١.
(١١) تفسير البيضاوي:١٥/٢.

٨-إثبات أن الله تعالى يرزق بغير مكافأة ولا انتظار لمكافأة، لقوله:{إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }.

القرآن

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)} [آل عمران : ٣٨]

التفسير:

عندما رأى زكريا ما أكرم الله به مريم مِن رزقه وفضله توجه إلى ربه قائلا :يا ربِّ أعطني من عندك ولدًا صالحًا مباركًا، إنك سميع الدعاء لمن دعاك.

قوله تعالى:{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ}[آل عمران : ٣٨]، أي:" في ذلك الوقت دعا زكريا ربه متوسلاً ومتضرعاً"(١).

قال البيضاوي:أي:" في ذلك المكان، أو الوقت إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى... وقيل لما رأى الفواكه في غير أَوَانِهَا انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ"(٢).

قال ابن كثير:" لما رأى زكريا ، عليه السلام، أن الله تعالى يرزق مريم ، عليها السلام ، فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد ، وإن كان شيخا كبيرا قد ضعف ووَهَن منه العظم ، واشتعل رأسه شيبا، وإن كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خَفيا"(٣).

قال الزمخشري:أي:" في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت، فقد يستعار هنا وثم وحيث للزمان. لما رأى حال مريم في كرامتها على الله ومنزلتها، رغب في أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله، وإن كانت عاقرا عجوزا فقد كانت أختها كذلك. وقيل لما رأى الفاكهة في غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ذرية ولدا. والذرية يقع على الواحد والجمع"(٤).

قال المراغي:" أي في هذا المكان الذي خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه بهذا الدعاء، فإنه حين رأى حسن حالها ومعرفتها بالله تمنى أن يكون له ولد صالح مثلها هبة وفضلا من عنده فرؤية الأولاد النجباء مما تشوّق نفوس الناظرين إليهم وتجعلهم يتمنون أن يكون لهم مثلهم"(٥).

---

(١) انظر: صفوة التفاسير:١٨١.

(٢) تفسير البيضاوي:١٥/٢.

(٣) تفسير ابن كثير:٣٧/٢.

(٤) الكشاف:٣٥٩/١. قال المحقق:" لا يليق بالنبي أن يقف علمه بجواز ولادة العاقر على مشاهدة مثله، فان العقل يقضى بجواز ذلك في قدرة الله تعالى وإن لم يقع نظيره. وأحسن من هذه العبارة وأسلم أن يقال: لما شاهد وقوع هذا الحادث كرامة لمريم امتد أمله إلى حادث يناسبه كرامة له، والله أعلم".

وفيه يقول الرازي:" فإن قيل: إن قلتم إن زكريا عليه السلام ما كان يعلم قدرة الله تعالى على خرق العادات إلا عند ما شاهد تلك الكرامات عند مريم عليها السلام كان في هذا نسبة الشك في قدرة الله تعالى إلى زكريا عليه السلام.

فإن قلنا: إنه كان عالما بقدرة الله على ذلك لمن تكن مشاهدة تلك الأشياء سببا لزيادة علمه بقدرة الله تعالى، فلم يكن لمشاهدة تلك الكرامات أثر في ذلك، فلا يبقى لقوله هنالك أثر.

والجواب: أنه كان قبل ذلك عالما بالجواز، فأما أنه هل يقع أم لا فلم يكن عالما به، فلما شاهد علم أنه إذا وقع كرامة لولي، فبأن يجوز وقوع معجزة لنبي كان أولى، فلا جرم قوي طمعه عند مشاهدة تلك الكرامات".[مفاتيح الغيب:٢٠٩/٨].

(٥) تفسير المراغي:١٤٧/٣.

قال ابن عباس:" فلما رأى ذلك زكريا - يعني فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف - عند مريم قال : إنّ الذي يأتي بهذا مريمَ في غير زمانه ، قادرٌ أن يرزقني ولدًا ، قال الله عز وجل :{هنالك دعا زكريا ربه}، قال : فذلك حين دعا"[1].

قال السدي:" فلما رأى زكريا من حالها ذلك يعني : فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف قال : إنّ ربًّا أعطاها هذا في غير حينه ، لقادرٌ على أن يرزقني ذرية طيبة! ورغب في الولد ، فقام فصلّى ، ثم دعا ربه سرًّا فقال : {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}[سورة مريم : ٤ - ٦] ، وقوله :{رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} وقال : {رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} [سورة الأنبياء : ٨٩]"[2].

قال محمد بن إسحاق:" حدثني بعض أهل العلم قال : فدعا زكريا عند ذلك بعد ما أسنّ ولا ولد له، وقد انقرض أهل بيته فقال : " ربّ هب لي من لدنك ذرية طيبه إنك سميع الدعاء " ، ثم شكا إلى ربه فقال:{رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} إلى{وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} { فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ }الآية"[3].

واختلف في سبب دعاء زكريا-عليه السلم- على قولين :

أحدهما : أن الله تعالى أذن له في المسألة، لأن سؤال ما خالف العادة يُمْنَع منه إلا عن إذن لتكون الإجابة إعجازاً . أفاده الماوردي[4].

والثاني : أنه لما رآى فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف طمع في رزق الولد من عاقر . وهذا قول ابن عباس[5]، والسدي[6].

قال الماتريدي:" قيل: فعند ذلك دعا زكريا ربه لما كانت نفسه الخاشية تحدث بالولدان تهب له، لكنه لم يدعو لما رأى نفسه متغيرة عن الحال التي يطمع منها الولد، فرأى أن السؤال في مثل ذلك لا يصلح؛ فلما رأى عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف غير متغيرة عن حالها - علم عند ذلك أن السؤال يصلح، وأنه يجاب للدعاء في غير حينه، فذلك معنى قوله: (هنالك دعا زكريا ربه)، والله أعلم.

ويحتمل أنه لما رأى ما أكرمت امرأة عمران في قبول دعوتها وتبليغ ابنتها في الكرامة المبلغ الذي رأى فيها مما لعل أطماع الأنفس لا تبلغ ذلك - دعا الله - جل جلاله - أن يكرمه ممن يبقى له الأثر فيه والذكر، وإن كانت تلك الحال حال لا تطمع الأنفس فيما رغب - عليه السلام - مع ما كان يعلم قدرة الله - تعالى - على ما يشاء من غير أن كان يحس على طلب الإكرام بكل ما يبلغه قدره، حتى رأى ما هو في الأعجوبة قريب مما كانت نفسه تتمنى، والله أعلم بالمعنى الذي سأل"[7].

قال أبو حيان:" أصل: {هنالك}، أن يكون إشارة للمكان، وقد يستعمل للزمان وقيل بهما في هذه الآية، أي في ذلك المكان دعا زكريا، أو: في ذلك الوقت لما رأى هذا الخارق العظيم لمريم، وأنها ممن اصطفاها الله، ارتاح إلى طلب الولد واحتاج إليه لكبر سنه، ولأن يرث منه ومن آل يعقوب، كما قصه تعالى في سورة مريم، ولم يمنعه من طلب كون امرأته عاقرا، إذ رأى من

---

(١) أخرجه الطبري(٦٩٤١):ص٣٦٠/٦-٣٦١.
(٢) أخرجه الطبري(٦٩٤٠):ص٣٦٠/٦.
(٣)أخرجه الطبري(٦٩٤٣):ص٣٦١/٦.
(٤) نظر: النكت والعيون: ٣٨٩/١.
(٥) أخرجه الطبري(٦٩٤١):ص٣٦٠/٦-٣٦١.
(٦) أخرجه الطبري(٦٩٤٠):ص٣٦٠/٦.
(٧) تفسير الماتريدي:٣٦٠/٢.

حال مريم أمرا خارجا عن العادة، فلا يبعد أن يرزقه الله ولدا مع كون امرأته كانت عاقرا، إذ كانت حنة قد رزقت مريم بعد ما أيست من الولد"(١).

قوله تعالى:{ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً }[آل عمران : ٣٨]، أي: قال: ربي "أعطني من عندك ولداً صالحاً"(٢).

قال السدي:"{ ذرية طيبة}، يقول : مباركة"(٣).

قال الطبري:أي:" رب هب لي من عندك ولدًا مباركًا"(٤).

قوله تعالى:{ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}[آل عمران : ٣٨]، أي: "إنك مجيب الدعاء"(٥).

قال الماوردي:" أي تجيب الدعاء ، لأن إجابة الدعاء بعد سماعه"(٦).

الفوائد:

١-أن جميع الخلق حتى الأنبياء مفتقرون إلى الله تعالى، لقوله:{دعا زكريا ربه}.

٢-إثبات القياس، لأن زكريا-عليه السلام- لما هذه الكرامة لمريم، أخذ هذا الموقف عبرة وهو أن يسأل الله امرا وإن كان الأمر مستبعدا.

٣-أن الصيغة التي يتوسل بها غالبا في الدعاء هي اسم "الرب"، لقوله:{ربّه}.

٤-عدم جواز سؤال مطلق الذرية، لقوله:{ذرية طيبة}. أي صالحة.

٥-الأخذ بالأسباب للحصول على الذرية الطيبة، ومنها الدعاء، بل وهو من اكبر الأسباب.

٦-التوسل إلى الله تعالى باسمائه المناسبة للحاجة، لقوله:{إنك سميع الدعاء}، أي: مجيبه.

٧-ومن فوائد الآية: إثبات سمع الله وكرم الله وقدرته.

القرآن

{فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)} [آل عمران : ٣٩]

التفسير:

فنادته الملائكة وهو واقف بين يدي الله في مكان صلاته يدعوه: أن الله يخبرك بخبر يسرُّك، وهو أنك سترزق بولد اسمه يحيى، يُصَدِّق بكلمة من الله -وهو عيسى بن مريم عليه السلام-، ويكون يحيى سيدًا في قومه، له المكانة والمنزلة العالية، وحصورًا لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، ويكون نبيّاً من الصالحين الذين بلغوا في الصَّلاح ذروته.

قوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ}[آل عرمان:٣٩]، " أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائماً في الصلاة"(٧).

قال ابن كثير:" أي : خاطبته الملائكة شفاها خطابًا أسمعته ، وهو قائم يصلي في محراب عبادته ، ومحل خَلْوَته ، ومجلس مناجاته ، وصلاته"(٨).

قال مقاتل:" فبينما هو يصلي في المحراب حيث يذبح القربان إذا برجل عليه بياض حياله وهو جبريل- عليه السلام- فقال: أن الله يبشرك بيحيى اشتق يحيى من أسماء الله- عز وجل-"(٩).

أخرج ابن المنذر عن جعفر، قال: سمعت ثابتا، يقول: " الصلاة خدمة الله في الأرض، ولو علم الله شيئا أفضل من الصلاة ما قال: {فنادته الملائكة وهو قائم يصلي} "(١).

---

(١) البحر المحيط:١٢٥/٣.
(٢)صفوة التفاسير:١٨١.
(٣)أخرجه الطبري(٦٩٤٤):ص٣٦١/٦.
(٤) تفسير الطبري:٣٦٣/٦.
(٥)تفسير البيضاوي:١٥/٢.
(٦) النكت والعيون:٣٨٩/١.
(٧) صفوة التفاسير:١٨١.
(٨)تفسير ابن كثير:٣٨/٢.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٤/١.

قال أبو عبيدة: "المحراب سيد المجالس وأشرفها، وأكرمها، وكذلك هو من المساجد"[٢].
وفي قوله تعالى:{ فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ}[آل عمران:٣٩]، وجهان من القراءة [٣]:
أحدهما:{ فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ}، بالتاء، قرأ به ابن كثير ونافع وعاصم وألو عمرو وابن عامر.
والثاني: {فَنَادَاه الْمَلاَئِكَةُ}، قرأ به حمزة ، والكسائي.
قال الزجاج:" الوجهان جميعاً جائزان، لأن الجماعة يلحقها اسم التأنيث، لأن معناها معنى جماعة، ويجوز أن يعبر عنها بلفظ التذكير. كما يقال جمع الملائكة"[٤].
قال بن مجاهد البغدادي:" وكلهم فتح الراء من {المحراب} إلا ابن عامر فإنه أمالها"[٥].
قوله تعالى: { أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى}[آل عمران:٣٩]، أي: إن الله يبشرك: "بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى"[٦].
قال قتادة: " إن الملائكة شافهته بذلك مشافهة، وبشرته بيحيى"[٧].
قال السدي:" لم يسمها أحد قبله"[٨].
وقوله{ بِيَحْيَى}، أي: "أحياه الله بالإيمان". قاله قتادة[٩].
واختلفت القراءة في قوله تعالى:{ يُبَشِّرُكَ }[آل عمران:٣٩]، على وجوه [١٠]:
أحدها: { يُبَشِّرُكَ}، بضم الياء وفتح الباء والتشديد، قرأ به ابن كثير وأبو عمرو.
والثاني:{يبشر}، بالتخفيف، قرأ به حمزة والكسائي.
وفي قوله تعالى:{ أَنَّ اللَّهَ }[آل عرمان:٣٩]، قراءتان [١١]:
إحداهما: { إِنّ اللَّهَ}، بالكسر، وهي قراءة ابن عامر وحمزة.
والثانية: { أَنَّ اللَّهَ}، بالفتح، وهي قراءة الباقين.
قوله تعالى: { مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ }[آل عمران:٣٩]، "أي مصدقاً بعيسى مؤمناً برسالته"[١٢].
قال ابن عباس:" عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم هو الكلمة"[١٣].
قال الضحاك:" وأما قوله جل وعز في يحيى: {مصدقا بكلمة من الله} " مصدق بعيسى، وكان يحيى أو من صدق بعيسى، وشهد أنه كلمة من الله، وكان يحيى بن خالة عيسى، وكان اكبر من عيسى"[١٤].
قال قتادة:" مصدقا بعيسى ابن مريم على منهاجه"[١٥].
وقال أبو عبيدة:" أي: بكتاب من الله، تقول العرب للرجل: أنشدني كلمة كذا أي قصيدة فلان إن طالت"[١٦]. وهو قول أهل البصرة[١٧].

---

(١) تفسير ابن المنذر(٤٠٨):ص١٨٥/١.
(٢) تفسير ابن المنذر(٤٠٩):ص١٨٥/١.
(٣) انظر: السبعة:٢٠٥.
(٤) معاني القرآن: ٤٠٥/١.
(٥)السبعة:٢٠٥.
(٦)تفسير ابن كثير:٣٨/٢.
(٧) أخرجه ابن المنذر(٤١٠):ص١٨٦/١.
(٨) أخرجه ابن المنذر(٤١٣):ص١٨٦/١.
(٩) انظر: تفسير ابن المنذر(٤١١):ص١٨٦/١.
(١٠) انظر: السبعة:٢٠٥-٢٠٦.
(١١) انظر: السبعة:٢٠٥.
(١٢) صفوة التفاسير:١٨١.
(١٣) أخرجه ابن المنذر(٤١٥):ص١٨٧/١.
(١٤) أخرجه ابن المنذر(٤١٦):ص١٨٧/١.
(١٥) أخرجه ابن المنذر(٤١٧):ص١٨٧/١.
(١٦) أخرجه ابن المنذر(٤١٨):ص١٨٨/١.
(١٧) انظر: النكت والعيون:٣٩٠/١.

قال مقاتل:" وكان يحيى أول من صدق بعيسى- عليهما السلام- وهو ابن ثلاث سنين، قوله الأول وهو ابن ستة أشهر[1] فلما شهد يحيى أن عيسى من الله- عز وجل- عجبت بنو إسرائيل لصغره، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمه إليه، وهو في خرقة وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين، يحيى وعيسى ابنا خالة"[2].

قوله تعالى: { وَسَيِّدًا}[آل عمران:٣٩]، "أي: ويسود قومه"[3].

قال مقاتل:" يعني حليما"[4].

قال الزجاج:" السيِّد :الذي يفوق في الخير قومه"[5].

وفي معنى قوله تعالى:{وَسَيِّداً}[آل عمران:٣٩]، أقاويل :

أحدها: أنه الحليم. قاله أبو العالية[6]، وسعيد بن جبير[7]، والربيع بن أنس[8]، وقتادة[9]، ومطر[10].

والثاني: أنه السيد في العبادة والحلم والعلم والوَرَع. قاله قتادة-في احد قوليه-[11].

والثالث: أنه التقي ، وهو قول أبي صالح[12] ، وقال سعيد بن جبير: السيد التقي[13].

والرابع:أنه الحليم التقي. قاله ابن عباس[14]، وسفيان[15]، والضحاك-في أحد قوليه-[16].

والخامس : أنه الشريف ، وهو قول ابن زيد[17] .

والسادس: أنه الفقيه العالم ، وهو قول سعيد بن المسيب[18].

والسابع:أن السيد: الذي لا يغلبه غضبه. قاله عكرمة[19].

والثامن: أن المعنى: السيد في خلقه ودينه. قاله عطية[20]، وروي عن الضحاك-في أحد قوليه: قال: "حسن الخلق"[21].

والتاسع: أنه الخليفة ، وهو قول قتادة[22].

والعاشر: أن السيد: الكريم على الله. حكاه ابن أبي نجيح عن مجاهد[23]، والرقاشي[24].

---

(١)المراد: أن عيسى حين نطق فى المهد كان ابن ستة أشهر (أي: أشهر الحمل) وقد صدقه يحيى وكان عمر يحيى حينئذ ثلاث سنوات.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٧٤.

(٣) صفوة التفاسير:١٨١.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٧٤.

(٥) معاني القرآن: ١/٤٠٦.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٥٩):ص٢/٦٤٢.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٦٩٦٩):ص٦/٣٧٥.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٥٩):ص٢/٦٤٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٦٩٦٨):ص٦/٣٧٥.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٥٩):ص٢/٦٤٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٦٩٦٧):ص٦/٣٧٤.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٥٩):ص٢/٦٤٢.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٦٩٧٠):ص٦/٣٧٥.

(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٥٩):ص٢/٦٤٢.

(١٥)انظر:تفسير الطبري(٦٩٧٥):ص٦/٣٧٥.

(١٦) انظر:تفسير الطبري(٦٩٧٣):ص٦/٣٧٥، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٤٥٩):ص٢/٦٤٢.

(١٧)انظر:تفسير الطبري(٦٩٧٦):ص٦/٣٧٥.

(١٨)انظر:تفسير الطبري(٦٩٧٧):ص٦/٣٧٥-٣٧٦.

(١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٦٠):ص٢/٦٤٢.

(٢٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٦١):ص٢/٦٤٢.

(٢١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٦١):ص٢/٦٤٢.

(٢٢) انظر: النكت والعيون:١/٣٩٠.

(٢٣) انظر: تفسير الطبري(٦٩٧١):ص٦/٣٧٥.

(٢٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٦٢):ص٢/٦٤٣، وتفسير الطبري(٦٩٧٢):ص٦/٣٧٥.

والحادي عشر: أن السيد: ليس له شرك. قاله مجاهد[١].
والثاني عشر : سيد المؤمنين ، يعني بالرياسة عليهم ، وهذا قول بعض المتكلمين[٢].
قوله تعالى:{ وَحَصُورًا}[آل عمران:٣٩]، "أي: ويحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً"[٣].
قال مقاتل:" والحصور الذي لا حاجة له في النساء"[٤].
قال الطبري:" يعني بذلك : ممتنعًا من جماع النساء"[٥].
قال الزجاج: أي لا يأتي النَساءَ، وإنما قيل للذي لا يأتي النَساءَ حصور لأنه حُبِسَ عما يكون من الرجال، كما يقال في الذي لا يتيسر له الكلام قد حُصِرَ في منطقه"[٦].
قال الفراء:" يقال : إن الحصور : الذي لا يأتي النساء"[٧].
قال الشافعي:" وذكر - اللَّه - عبداً كرمه، فقال: {وَسَيِّدًا وَحَصُورًا} الآية، والحصور: الذي لا يأتي النساء، ولم يندبه إلى النكاحْ، فدلَّ ذلك - واللَّه أعلم - على أن المندوب إليه من يحتاج إليه، ممن يكون مُحصناً له عن المحارم والمعاني التي في النكاح"[٨].
قال المبرد" الحصور الذي لا يدخل في اللعب والعبث والأباطيل، وأصله من قول العرب الذي لا يدخل في الميسر: حصور"[٩] ، ومنه قول الأخطل[١٠]:
وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادَمَنِي لا بِالْحَصُورِ وَلا فِيهَا بِسَوَّارِ
ويقال أيضًا للذي لا يخرج سره ويكتمه "حصور" ، لأنه يمنع سره أن يظهر ، كما قال جرير[١١]:
وَلَقَدْ تَسَاقَطَنِي الوُشَاةُ ، فَصَادَفُوا ... حَصِرًا بِسِرِّكِ يَا أُمَيْمَ ضَنِينَا
فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو.
قال الزمخشري:" والحصور: الذي لا يقرب النساء حصرا لنفسه أي منعا لها من الشهوات، وقيل هو الذي لا يدخل مع القوم في الميسر... فاستعير لمن لا يدخل في اللعب واللهو. وقد روى أنه مر وهو طفل بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت"[١٢].
قال الزجاج: "والحصير هذا المرمُول الذي يُجلس عليه، إنما سمي حصيراً، لأنه دوخل بعضه في بعض في النسيج أي حبس بعضه على بعض، ويقال للسجْن الحصير لأنَّ الناس يُحصرون فيه، ويقال حصرت الرجلَ إذا حبسته، وأحصره المرض إذا منعه من السير، (والحصير الملك)، وقول اللَّه - جل وعلا: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}[الإسراء:٨]، أي حبسا، ويقال أصاب فلاناً حَصَرٌ، إذا احتبس عليه بطنه، ويقال في البول أصابه أسر إذا احتبس عليه بوله"[١٣].
وفي قوله:{وَحَصُوراً}[آل عمران: ٣٩] ثلاثة أقاويل :

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٦٣):ص٦٤٣/٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:٣٩٠/١.
(٣) صفوة التفاسير:١٨١.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٤/١-٢٧٥.
(٥) تفسير الطبري:٣٧٦/٦.
(٦) معاني القرآن: ٤٠٧/١.
(٧) معاني القرآن:٢١٣/١.
(٨) تفسير الإمام الشافعي:٤٦٩/١.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٦٥/٣.
(١٠)ديوانه : ١١٦ ، ومجاز القرآن ١ : ٩٢ ، وطبقات فحول الشعراء : ٤٣٢ ، واللسان (حصر) (سأر) (سور).
(١١)ديوانه : ٥٧٨ ، ومجاز القرآن ١ : ٩٢ واللسان (حصر) (سقط)
(١٢) الكشاف:٣٦٠/١.
(١٣)معاني القرآن: ٤٠٧/١.

أحدها : أن الحصور هو الذي لا ينزل الماء، وهو قول ابن عباس(١).
وقال الضحاك ومقاتل: "الذي لا ماء له"(٢)، وفي لفظ آخر للضحاك:"الذي لايولد له ولا ماء له"(٣).
وروي عن أبي العالية والربيع قالا:" الذي لايولد له"(٤).
الثاني: أنه كان لا يأتي النساء، وهو قول وعبدالله بن مسعود(٥)، وابن عباس- في احد قوليه-(٦)، والحسن(٧)، ومجاهد(٨)، وقتادة(٩)، والسدي(١٠)، وعكرمة(١١)، وعطية(١٢)، وجابر بن زيد(١٣)، وابن زيد(١٤)، وسعيد بن جبير(١٥)، والرقاشي(١٦).
الثالث:أنه لم يكن له ما يأتي به النساء، لأنه كان معه مثل الهْدبة ، وهو قول سعيد بن المسيب(١٧).
قال ابن عطية:" وأجمع من يعتدّ بقوله من المفسرين على أن هذه الصفة ليحيى عليه السلام إنما هي الامتناع من وطء النساء"(١٨).
قال ابن كثير:" المقصود أنه مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال :{ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} كأنه قال : ولدًا له ذرية ونسل وعَقِب ، والله سبحانه وتعالى أعلم...وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان { حَصُورًا } ليس كما قاله بعضهم : إنه كان هيوبا ، أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حُذَّاقُ المفسرين ونقاد العلماء ، وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء ، عليهم السلام ، وإنما معناه : أنه معصوم من الذنوب ، أي لا يأتيها كأنه حصر عنها"(١٩).
قوله تعالى { وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}[آل عمران: ٣٠]، " أي: ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين"(٢٠).
قال الزجاج:" الصالح الذي يؤَدي إلى اللَّه ما عليه ويؤَدي إلى الناس حقوقهم"(٢١).

---

(١)انظر: تفسير الطبري(٦٩٩٧):ص٣٧٩/٦.
(٢) تفسير الطبري(٦٩٩٢):ص٣٧٩/٦، وتفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٤/١.
(٣)تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٦٨):ص٦٤٤/٢.
(٤)تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٦٨):ص٦٤٤/٢.
(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٦٦):ص٦٤٣/٢، وتفسير الطبري(٦٩٨٠):ص٣٧٧/٦.
(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٦٦):ص٦٤٣/٢.
(٧)انظر: تفسير الطبري(٧٠٠٠):ص٣٨٠/٦.
(٨)انظر: تفسير الطبري(٦٩٨٨):ص٣٧٨/٦-٣٧٩، وتفسيره:٢٥١.
(٩)انظر: تفسير الطبري(٦٩٩٣):ص٣٧٩/٦.
(١٠)انظر: تفسير الطبري(٦٩٩٩):ص٣٨٠/٦.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٦٦):ص٦٤٣/٢.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٦٦):ص٦٤٣/٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٦٦):ص٦٤٣/٢.
(١٤)انظر: تفسير الطبري(٦٩٩٨):ص٣٧٩/٦.
(١٥)انظر: تفسير الطبري(٦٩٨٥):ص٣٧٨/٦.
(١٦)انظر: تفسير الطبري(٦٩٩٠):ص٣٧٩/٦.
(١٧)انظر: تفسير الطبري(٦٩٨٢)، و(٦٩٨٣)، و(٦٩٨٤):ص٣٧٨/٦.
(١٨) المحرر الوجيز:٤٣٠/١.
(١٩) تفسير ابن كثير:٣٨/٢-٣٩.
(٢٠) صفوة التفاسير:١٨١.
(٢١) معاني القرآن:٤٠٧/١.

قال ابن كثير:" هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته ، وهي أعلى من الأولى كقوله تعالى لأم موسى:{ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }[القصص : ٧]"[١].

الفوائد:

١-إثبات الملائكة، وأنهم عالم غيبي مخلوقون من نور، خلقهم الله تعالى لما أعدّ لهم، فقاموا به على حسب ما اراد خالقهم عزّ وجل.

٢-إن الملائكة تتكلم بصوت مسموع، لقوله:{فنادته الملائكة}.

٣-جواز تكليم المصلي من قوله: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ}، لكن المكلَّم لا يخاطب الآخر، وإنما يجيبه بالاشارة، والأفضل تركه إلا لحاجة، لأن ذلك يشوش على المصلي.

٤-مشروعية تبشير الانسان بما يسره.

٥-جواز تقديم التسمية على اليوم السابع، في حال كان الاسم مهيئا.

٦-الثناء على من صدّق المرسلين، لقوله:{مصدقا لكلمة من الله}.

٧-ومن الفوائد: أن يحيى-عليه السلام- سيكون سيدا ونبيا و ممنوعا من مساوئ الأخلاق.

٨-أن الأنبياء من الصالحين، بل هم في أعلى مراتب الصلاح التي هي أربعة: النبوة، الصديقية، الشهادة، الصلاح.

القرآن

{قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)} [آل عمران : ٤٠]

التفسير:

قال زكريا فرحًا متعجبًا: ربِّ أنَّى يكون لي غلام مع أن الشيخوخة قد بلغت مني مبلغها، وامرأتي عقيم لا تلد؟ قال: كذلك يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة المخالفة للعادة.

قوله تعالى:{قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ }[آل عمران:٤٠]، أي: يا ربّي"من أين يكون لي غلام"[٢].

قال السدي:" يقول: من أين"[٣].

وقال الربيع بن انس:" كيف يكون لي"[٤].

قال يحيى بن سلام: قال الحسن:" أراد زكرياء أن يعلم كيف ذلك "[٥].

قال البيضاوي:" استبعاداً من حيث العادة، أو استعظاماً أو تعجبا أو استفهاماً عن كيفية حدوثه"[٦].

قوله تعالى:{ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ}[آل عمران:٤٠]، أي: وقد "أدركتني الشيخوخة"[٧].

قال مقاتل:" وكان زكريا يومئذ ابن خمس وسبعين سنة"[٨] .

قال البيضاوي:أي وقد" دركني كبر السن وأثر فيّ، وكان له تسع وتسعون ولامرأته ثمان وتسعون سنة"[٩].

---

(١)تفسير ابن كثير:٣٩/٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٦٢١/٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٧١):٦٤٤/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٧٢):٦٤٤/٢.

(٥) تفسير يحيى بن سلام:٢١٥/١.

(٦) تفسير البيضاوي:١٦/٢.

(٧) صفوة التفاسير:١٨١.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٦٢١/٢.

(٩) تفسير البيضاوي:١٦/٢.

قال أبو عبيدة:" أي: بلغت الكبر، والعرب تصنع مثل هذا تقول: هذا القميص لا يقطعني"[١].

قوله تعالى:{ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ }[آل عمران:٤٠]، أي: وامرأتي عقيم "لا تلد"[٢].

والعاقر من النساء، هي التي لا تلد، وهو القطع، لأنها ذات عقر من الأولاد، يقال منه: امرأة عاقر، ورجلٌ عاقرٌ [٣]، ومنه قول عامر بن الطفيل[٤]:

لبِئْسَ الفَتَى! إنْ كُنْتُ أعْوَرَ عَاقِرًا ... جَبَانًا ، فَمَا عُذْري لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ!!

وقد ذكر أهل العلم في سبب قول زكريا-عليه السلام- :{رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ}[آل عمران:٤٠]، وجوها:

أحدها: أنه راجع ليعلم على أي حال يكون منه الولد ، بأن يُرَدّ هو وامرأته إلى حال الشباب ، أم على حال الكبر ، فقيل له : كذلك الله يفعل ما يشاء ، أي على هذه الحال ، وهذا قول الحسن[٥].

قال ابن عطية:" وهذا تأويل حسن يليق بزكرياء عليه السلام "[٦].

والثاني : أنه: "لما سمع النداء - يعني زكريا ،لما سمع نداء الملائكة بالبشارة بيحيى - جاءه الشيطان فقال له : يا زكريا ، إن الصوت الذي سمعت ليس هو من الله ، إنما هو من الشيطان يسخرُ بك! ولو كان من الله أوحاه إليك كما يُوحى إليك في غيره من الأمر! فشكّ مَكانه، وقال : {أنَّي يكون لي غلام} ، ذكرٌ ؟ يقول : من أين ؟ {وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر}". وهذا قول السدي[٧]، وروي عن عكرمة مثله[٨].

والثالث: أنه قال ذلك استعظاماً لمقدور الله وتعجباً [٩].

والرابع: أنه إنما سأل لأنه نسي دعاءه لطول المدة بين الدعاء والبشارة وذلك أربعون سنة. قاله مكي[١٠].

قال ابن عطية:" وهذا قول ضعيف المعنى"[١١].

قوله تعالى: { كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }[آل عمران:٤٠]، أي : قال الملك: "هكذا أمْرُ الله عظيم ، لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر"[١٢].

قال أبو مالك:" قوله: {كذلك}، يعني هكذا"[١٣].

قال البيضاوي:" أي يَفْعَلُ مَا يَشَاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فان وعجوز عاقر، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يَفْعَلُ مَا يَشَاء من خلق الولد أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي الله على مثل هذه الصفة"[١٤].

الفوائد:

---

(١) تفسير ابن المنذر(٤٣٤):ص١٩٢/١.

(٢) تفسير البيضاوي:١٦/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري:٣٨١/٦، وتفسير البيضاوي:١٦/٢.

(٤)ديوانه ١١٩ ، ومجاز القرآن ١ : ٩٢ ، وحماسة الشجري : ٧ وغيرها.

(٥) انظر: النكت والعيون:٣٩٢/١، وتفسير يحيى بن سلام:٢١٥/١.

(٦) المحرر الوجيز: ٤٣١/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٠٠١):ص٣٨٢/٦.

(٨)انظر: تفسير الطبري(٧٠٠٢):ص٣٨٢/٦.

(٩) انظر: النكت والعيون:٣٩٢/١.

(١٠) انظر: المحرر الوجيز: ٤٣١/١.

(١١)المحرر الوجيز: ٤٣١/١.

(١٢) تفسير ابن كثير:٣٩/٢.

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٧٤):ص٦٤٥/٢.

(١٤) تفسير البيضاوي:١٦/٢.

١-من فوئاد الآية الكريمة: أنه لا حرج على الإنسان في طلب ما تطمئن به نفسه، فزكريا- عليه السلام- لم يشكّ في خبر الله، لكن أراد أن يتقدم إليه الفرح والاستبشار بقوة البراهين، وخبر الله لاشك أنه برهان، لكن كلما ازدادت البراهين ازدادت قوة اليقين.

٢-جواز وصف الانسان بما يكره لغرض البيان لا القدح والعيب، لقوله:{ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ}.

٣-إثبات فعل الله، لقوله:{ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}، ومذهب اهل السنة إثبات أفعال الله الاختيارية المتعلقة به والمتعدية إلى غيره.

٤-إثبات المشيئة لله تعالى، لقوله:{ مَا يَشَاءُ}، وهي مقرونة بالحكمة، لقوله: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان : ٣٠].

القرآن

{قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)} [آل عمران : ٤١]

التفسير:

قال زكريَّا: رب اجعل لي علامةً أستدلُّ بها على وجود الولد مني; ليحصل لي السرور والاستبشار، قال: علامتك التي طلبتها: ألا تستطيع التحدث إلى الناس ثلاثة أيام إلا بإشارة إليهم، مع أنك سويٌّ صحيح، وفي هذه المدة أكثِرْ من ذكر ربك، وصلِّ له أواخر النهار وأوائله.

قوله تعالى: { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً }[آل عمران:٤١]، أي: ربّي اجعل لي "علامة على حمل امرأتي"[١].

قال ابن كثير:"أي: علامة أستدل بها على وجود الولد مني"[٢].

قال السدي:" قال زكريا: رب فإن كان هذا الصوت منك فـ{اجعل لي آية}، قال: {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا}"[٣].

قوله تعالى:{ قَالَ آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا }[آل عمران:٤١]، " أي: علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام"[٤].

قال الطبري: يعني: "يا زكريا ، {آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا}، بغير خرس ولا عاهة ولا مرض"[٥].

قال ابن كثير:"أي : إشارة لا تستطيع النطق ، مع أنك سوي صحيح"[٦].

قال عبدالرحمن السلمي:" اعتقل لسانه من غير مرض"[٧].

قال السدي:" اعتقل لسانه ثلاثة أيام وثلاث ليال"[٨].

قال قتادة:"إنما عوقب بذلك ، لأن الملائكة شافهته مشافهة بذلك ، فبشّرته بيحيى ، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه. فأخِذَ عليه بلسانه ، فجعل لا يقدر على الكلام إلا ما أومأ وأشار ، فقال الله تعالى ذكره ، كما تسمعون : {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا}"[٩].

قال الربيع:" : ذكر لنا ، والله أعلم ، أنه عوقب ، لأن الملائكة شافهته مشافهة ، فبشرته بيحيى ، فسأل الآية بعدُ ، فأخِذَ بلسانه"[١٠] .

---

(١) صفوة التفاسير:١٨٢.
(٢) تفسير ابن كثير:٣٩/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٧٥):ص٦٤٥/٢.
(٤) صفوة التفاسير:١٨٢.
(٥) تفسير الطبري:٣٩٠/٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٣٩/٢.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٧٦):ص٦٤٥/٢.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٧٧):ص٦٤٥/٢.
(٩) أخرجه الطبري(٧٠٠٥):ص٣٨٦/٦.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٠٠٧):ص٣٨٦/٦-٣٨٧.

وفي قوله تعالى:{ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا }[آل عمران:٤١]، ثلاثة أوجه من التفسير:

أحدها : الرمز بالشفتين، وهو قول ابن عباس-في احد قوليه-[١].

وقال مجاهد: "تحريك الشفتين"[٢]، وفي رواية أخرى له:"كلام بالشفتين""[٣] ، وروي عن عكرمة وخصيف نحو ذلك[٤].

والثاني : الإماءة والإشارة ، وهو قول ابن عباس[٥]، والحسن[٦]، والسدي[٧]، وقتادة[٨]، ومحمد بن إسحاق[٩]، وابن زيد[١٠]، والضحاك[١١]، والربيع[١٢]، وعبدالله بن كثير[١٣]، وأبي عبدالرحمن السلمي[١٤]، ومحمد بن كعب[١٥]، وزيد بن أسلم[١٦].

والثالث: أنه: "ربَا لسانه في فيه حتى ملأه ، ثم أطلقه الله بعد ثلاثٍ". قاله جبير بن نفير[١٧].

قوله تعالى:{ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا}[آل عمران:٤١]، "أي: وأذكر الله ذكرا كثيرا"[١٨].

قال الطبري:أي: " فإنك لا تمنع ذكرَه ، ولا يحالُ بينك وبين تسبيحه وغير ذلك"[١٩].

قال الماوردي:" لم يمنع من ذكر الله تعالى ، وذلك هي الآية"[٢٠].

قال محمد بن كعب: "لو كان الله رخص لأحد في ترك الذكر، لرخَّص لزكريا حيث قال:{ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا واذكر ربك كثيرًا}، أيضًا"[٢١].

قال مجاهد:" لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما ومضطجعا"[٢٢].

قوله تعالى:{وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ }[آل عمران:٤١]، أي: و"نزّه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله"[٢٣].

قال الطبري:أي:" عَظِّم ربك بعبادته بالعشي"[٢٤].

قال مجاهد:" الإبكار أوّل الفجر ، والعشيّ مَيْل الشمس حتى تغيب"[١].

---

(١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٧٩):ص٦٤٥/٢.
(٢) أخرجه الطبري(٧٠١٠):ص٣٨٩/٦.
(٣)أخرجه ابن ابي حاتم(٣٤٨٠):ص٦٤٥/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٨٠):ص٦٤٥/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٠١٥):ص٣٨٩/٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٠٢٢):ص٣٩٠/٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٠٢٠):ص٣٩٠/٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٠١٨):ص٣٩٠/٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٠١٦):ص٣٨٩/٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٠١٧):ص٣٨٩/٦-٣٩٠.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٠١٣):ص٣٨٩/٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٠١٩):ص٣٩٠/٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٠٢١):ص٣٩٠/٦.
(١٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٨١):ص٦٤٥/٢.
(١٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٨١):ص٦٤٥/٢.
(١٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٤٨١):ص٦٤٥/٢.
(١٧) أخرجه الطبري(٧٠٠٩):ص٣٨٧/٦.
(١٨) صفوة التفاسير:١٨٢.
(١٩) تفسير الطبري:٣٩٠/٦.
(٢٠) النكت والعيون:٣٩١/١.
(٢١) أخرجه الطبري(٧٠٢٣):ص٣٩١/٦.
(٢٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٨٣):ص٦٤٦/٢.
(٢٣) صفوة التفاسير:١٨٢.
(٢٤) تفسير الطبري:٣٩١/٦.

واخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: { وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}، قال: "صلاة المكتوبة"[٢].

و"العشي" : من حين زوال الشمس إلى أن تغيب ، ومنه قول حميد بن ثور الهلالي[٣]:

فَلا الظِّلَّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ ، وَلا الفَيْءَ مِنْ بَرْدِ العَشِيِّ تَذُوقُ

فالفيء ، إنما تبتدئ أوْبته عند زوال الشمس ، وَيتناهى بمغيبها.

وأصل العشي الظلمة ، ولذلك كان العشى ضعف البصر ، فَسُمِّي ما بعد الزوال عِشاءً لا تصاله بالظلمة [٤].

وأما "الإبكار": فمن حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى ، وأصله التعجيل ، لأنه تعجيل الضياء، يقال فيه: أبكر فلان، و بكر يَبكر بُكورًا ، فمن "الإبكار"، قول عمر بن أبي ربيعة[٥] :

أَمِنْ آلِ نُعَمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ ... غَدَاةَ غَدٍ؟ أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجِّر؟

ومن " البكور"، قول جرير[٦] :

أَلا بَكَرَتْ سَلْمَى فَجَدَّ بُكُورُهَا ... وَشَقَّ العَصَا بَعْدَ اجْتِمَاعٍ أَمِيرُهَا

ويقال من ذلك:بكر النخلُ يَبْكُر بُكورًا وأبكر يُبكر إبكارًا ، والباكور من الفواكه : أوّلها إدراكًا[٧].

الفوائد:

١-جواز البحث عما يزيد به الإيمان، وإن كان الإيمان موجودا، والانسان مطلوب منه ان يقوي إيمانه بكل وسيلة.

٢-تمام قدرة الله سبحانه وتعالى بخوارق العادات، فإن كون زكريا –عليه السلام- لايكلم الناس إلا رمزا، لكن في باب التسبيح ينطلق لسانه.

٣-أن الإشارة تقوم مقام العبارة، لقوله:{ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا}، ولاسيما عند العجز عن التعبير.

٤-ومنها: أن الانسان ينبغي إذا انقطع عن الناس أن يشغل وقته بذكر الله عزّ وجل.

٥-ومنها: فضيلة التسبيح والذكر في هذين الوقتين: العشي والإبكار.

٦-الذكر يكون اكثر من التسبيح، و الجمع بينهما ايضا فيه فائدة، وهي الجمع بين الثناء على الله وتنزيهه من النقائض.

القرآن

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)} [آل عمران : ٤٢]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- حين قالت الملائكة: يا مريم إن الله اختاركِ لطاعته وطهَّركِ من الأخلاق الرذيلة، واختاركِ على نساء العالمين في زمانك.

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ} [آل عمران : ٤٢]، "أي اذكر وقت قول الملائكة:يا مريم إن الله اختارك بين سائر النساء"[٨].

---

(١) أخرجه الطبري(٧٠٢٤):ص٣٩٢/٦-٣٩٣، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٤٨٦)، و(٣٤٨٧):ص٦٤٦/٢—٦٤٧.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٨٤):ص٦٤٦/٢.

(٣)ديوانه : ٤٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري:٣٩١/٦، والنكت والعيون:٣٩١/١.

(٥)ديوانه : ١.

(٦)ديوانه : ٢٩٣ ، والنقائض : ٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري:٣٩٢/٦، والنكت والعيون:٣٩١/١.

(٨) صفوة التفاسير:١٨٣.

قال الطبري:" اختارك واجتباك لطاعته وما خصّك به من كرامته"[١].
قال ابن أبي زمنين: "أي: اختارك لدينه"[٢].
قال الثعلبي:أي:" بولادة عيسى من غير أب"[٣].
قال ابن كثير:" أي : اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها"[٤].
وفي قوله تعالى:{يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصطفاك}[آل عمران:٤٢]،وجهان :
أحدهما : اصطفاها على عالمي زمانها ، وهذا قول الحسن[٥] ، وابن جريج[٦] .
والثاني : أنه اصطفاها لولادة المسيح ، وهو قول مقاتل[٧]، والزجاج[٨] .
قال الراغب:" وقول الملائكة لها قيل: كان بالإلهام، فإنه ما أوحى الله إلى امرأة وحي النبوة فلذلك قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ } [النحل : ٤٣]، وقيل: بل قد أوحي إليهن ولكن لم يبعثن رسلا"[٩].
قوله تعالى:{ وَطَهَّرَكِ} [آل عمران : ٤٢]، " أي جعلك طاهرة من سائر الأدناس"[١٠].
قال مجاهد:" جعلك طيبةً إيمانًا"[١١].
قال السدي: "{وطهرك} من الحيض"[١٢]. وروي عن عرمة نحو ذلك[١٣].
قال مقاتل:" من الفاحشة والألم"[١٤].
قال ابن أبي زمنين: وطهرك من الكفر"[١٥]. كقوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب : ٣٣]
قال الثعلبي : "من مسيس الرجل"[١٦].
قال الطبري: أي:" وطهَّر دينك من الرّيب والأدناس التي في أديان نساء بني آدم"[١٧].
قال ابن كثير:" أي : وطهرها من الأكدار والوسواس"[١٨].
قال أبو السعود: أي مما يُستقذر من الأحوال والأفعال ومما قذفك به اليهودُ بإنطاق الطفل"[١٩].
قوله تعالى:{ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ } [آل عمران : ٤٢]، أي:و"اختارك على نساء العالمين في زمانك"[٢٠].
قال مقاتل:" يعنى :واختارك على {نساء العالمين} بالولد من غير بشر"[١].

---

(١) تفسير الطبري:٣٩٣/٦.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٢٨٨/١.
(٣) تفسير الثعلبي:٦٧/٣.
(٤) تفسير ابن كثير:٣٩/٢.
(٥) انظر: النكت والعيون:٢٩١/١.
(٦) أخرجه الطبري(٧٠٣٦):ص٤٠٠/٦.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٥/١.
(٨) انظر: معاني القرآن:٤١٠/١.
(٩) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٥٣/٢-٥٥٤.
(١٠)معاني القرآن للزجاج:٤١٠/١.
(١١) أخرجه الطبري(٧٠٣٤):ص٤٠٠/٦.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٩٠):ص٦٤٧/٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٩٠):ص٦٤٧/٢.
(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٥/١.
(١٥) تفسير ابن أبي زمنين:٢٨٨/١.
(١٦) تفسير الثعلبي:٦٧/٣.
(١٧) تفسير الطبري:٣٩٣/٦.
(١٨) تفسير ابن كثير:٣٩/٢.
(١٩) تفسير أبي السعود:٣٥/٢.
(٢٠) تفسير الطبري:٣٩٣/٦.

قال السدي:" على نساء ذلك الزمان الذي هم فيه"[٢].
قال ابن جريج : "ذلك للعالمين يومئذ"[٣].
قال الزجاج:" أي اختارك لعيسى على نساءِ العالمين كلهم، فلم يجعل مثل عيسى من امرأة من نساءِ العالمين[٤].
قال الثعلبي:" بالتحرير في المسجد"[٥].
قال ابن كثير:أي "واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين"[٦].
قال الراغب:" تكرير الاصطفاء قيل لمعنيين: الأول فرغها لعبادته وأغناها عن الكسب، والثاني أن جعلها أما لعيسى وآية له، وقيل الأول الاصطفاء الذي هو الاجتباء. والثاني الاصطفاء الذي هو على سبيل الهداية"[٧].
قال أبو السعود:" بأن وهبَ لك عيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب ولم يكُنْ ذلكَ لأحدٍ من النساء وجعلكما آيةً للعالمين فعلى هذا ينبغي أنْ يكونَ تقديمُ حكاية هذه المقاولة على حكايةِ بشارتِها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مرارا من التَّنبيه على أنَّ كلاً منهما مستحِقٌّ للاستقلال بالتذكير ولو روعيَ الترتيبُ الخارجيُّ لتبادر كونُ الكل شيئاً واحداً وقيل المرادُ بالاصطفاءين واحدٌ والتكريرُ للتأكيد وتبيينِ مَن اصطفاها عليهن فحينئذ لا إشكالَ في ترتيب النظم الكريم إذ يُحمل حينئذ الاصطفاءُ على ما ذُكر أولاً وتُجعل هذه المقاولةُ قبل بشارتها بعيسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ إيذاناً بكونها قبل ذلك متوفرةً على الطاعات والعبادات حسبما أُمِرت بها مجتهدةً فيها مُقْبِلة على الله تعالى مُتبتِّلةً إليه تعالى منسلخةً عن أحكام البشرية مستعدةً لفيضان الروح عليها"[٨].
قال محمد بن إسحاق:" كانت مريم حبيسًا في الكنيسة ، ومعها في الكنيسة غُلام اسمه يُوسف ، وقد كانَ أمه وأبوه جعلاه نذيرًا حبيسًا ، فكانا في الكنيسة جميعًا ، وكانت مريم ، إذا نَفِدَ ماؤها وماء يوسف ، أخذا قُلّتيهما فانطلقا إلى المفازة التي فيها الماء الذي يستعذِبان منه، فيملآن قلتيهما ، ثم يرجعان إلى الكنيسة ، والملائكة في ذلك مقبلة على مريم : {يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين}، فإذا سمع ذلك زكريا قال : إنّ لابنة عمرانَ لشأنًا"[٩].
عن عبد الله بن جعفر قال : "سمعت عليًّا بالعراق يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خيرُ نسائها مريم بنت عمران ، وخيرُ نسائها خديجة"[١٠].
عن موسى الأشعريّ قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كمل من الرّجال كثيرٌ ، ولم يكمل من النساء إلا مريم ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد"[١].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٥/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٩١):ص٦٤٧/٢.
(٣) أخرجه الطبري(٧٠٣٦):ص٤٠٠/٦.
(٤) انظر: معاني القرآن:٤١٠/١.
(٥)تفسير الثعلبي:٦٧/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٣٩/٢.
(٧) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٥٢/٢.
(٨) تفسير أبي السعود:٣٥/٢.
(٩) أخرجه الطبري(٧٠٣٧):ص٤٠٠/٦-٤٠١.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٠٢٦):ص٣٩٣/٦، والحديث رواه أحمد في المسند ، عن عبد الله بن نمير : ٦٤٠ ، وعن وكيع : ١١٠٩ ، وعن محمد ابن بشر : ١٢١١، ورواه البخاري ٦ / ٣٣٩ ، و ٧ / ١٠٠ - ١١٠ ، ومسلم ٢ / ٢٤٣ ، والترمذي ٤ / ٣٦٥ ، ورواه الحاكم في المستدرك ٣ / ١٨٤ ، عن طريق ابن نمير ، ثم من طرق المسند عن وكيع وابن نمير، وذكره ابن كثير في التفسير ٢ / ١٣٨ ، وفي التاريخ ٢ /٥٩ ، عن رواية الصحيحين.

الفوائد:
١- تعظيم شأن مريم-عليها الصلاة والسلام- إذ أمر الله نبيه بأن يذكر قصتها لهذه الأمة.
٢- فضيلة مريم-عليها السلام- إذ خاطبتها الملائمة.
٣- استدل بعض أهل العلم على نبوة مريم بمخاطة الملائكة إياها، ولكن في هذا الاستدلال نظر، لأن مجرد المخاطبة لها لا يثبت نبوتها، لكون النبوة إنما هي لمن أوحي إليه بشرع لا لمن أوحي إليه بثناء أو بتهيئته لما سيكون.
٤- إن الله يصطفي من الناس من يشاء.
٥- براءة مريم-عليها السلام- مما ادعاه اليهود من كونها بغيا، لقوله تعالى:{وطهرك}.
٦- إن مريم مفضلة ومصطفاة على نساء العالمين، كما ثبت في الحديث الشريف.
٧- ومنها: جواز تكرار المناقب، لأن اوصاف الكمال كلما كررت ظهر من كمال الموصوف ما لم يكن معلوما من قبل.

القرآن
{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)} [آل عمران : ٤٣]
التفسير:
يا مريم داومي على الطاعة لربك، وقومي في خشوع وتواضع، واسجدي واركعي مع الراكعين; شكرًا لله على ما أولاكِ من نعمه.
قوله تعالى:{ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ }[آل عمران:٤٣]، أي: يا مريم: " إلزمي عبادة ربك وطاعته"[٢].
قال الحسن: يقول: اعبدي لربك"[٣].
قال الطبري:أي:" أخلصي الطاعة لربك وحده"[٤].
قال الزجاج:" أيْ اعبديه بالقول والعمل"[٥].
قال الثعلبي: أي:" أطيعي وأطيلي الصلاة، لربك: كلمت به الملائكة شفاها، قال[الأوزاعي : لما قالت لها الملائكة ذلك، قامت في الصلاة حتى ورمت قدماها وسالتا دما وقيحا"[٦].
قال مجاهد:" كانت تقوم حتى يتورم كعباها"[٧].
قال ابن كثير:" أما القنوت: فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى:{ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } [البقرة : ١١٦]"[٨].
قال الراغب:" القنوت: إدامة الطاعة صلاة كانت أو غيرها من العبادات، ولهذا قال: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا} [الزمر : ٩] فجعل من جملة القنوت"[٩].
وفي قوله تعالى:{ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي }[آل عمران : ٤٣]، ثلاثة أقاويل :
أحدها : يعني أخلصي لربك ، وهو قول سعيد[١٠].
والثاني : أن معناه: أطيعي ربك، وهو قول السدي[١١]، وقتادة[١]، والحسن[٢].

(١) أخرجه الطبري(٧٠٣١):ص٣٩٦/٦-٣٩٧.
(٢) صفوة التفاسير:١٨٣.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٩٥):ص٦٤٨/٢.
(٤) تفسير الطبري:٤٠١/٦.
(٥) معاني القرآن:٤١٠/١.
(٦) تفسير الثعلبي:٦٧/٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٩٤):ص٦٤٨/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٤١/٢.
(٩) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٥٦/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٠٤٧):ص٤٠٣/٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٠٤٩):ص٤٠٣/٦.

والثالث : أطيلي القيام في الصلاة ، وهو قول مجاهد[3]، والربيع[4]، والأوزاعي[5].
قوله تعالى: { وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران : ٤٣]، أي:و"صلي مع المصلين"[6].
قال مقاتل:" يعني مع المصلين في بيت المقدس"[7].
قال العز بن عبدالسلام: أي:"افعلي كفعلهم، أو صلي في جماعة"[8].
قال الزمخشري: أي:" ولتكن صلاتك مع المصلين في الجماعة"[9].
قال الطبري: أي:" واخشعي لطاعته وعبادته مع من خشع له من خلقه ، شكرًا له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتَّطهير من الأدناس ، والتفضيل على نساء عالم دَهرك"[10].
قال الأوزاعي:" ركدت في محرابها قائمة وراكعة وساجدة حتى نزل الماء الأصفر في قدميها"[11].
قال البيضاوي:" أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها، وقدم السجود على الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب"[12].
قال الراغب:" ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ولا تكون مع من لا يركع"[13].
قال الزجاج:" معنى الركوع قيل: السُّجود، المعنى: اركعي واسجدي، إلا أن الواو إذا ذكرت فمعناها الاجتماع، وليس فيها دليل أن أحد الشَيئين قبل الآخر. لأنها ثؤذن بالاجتماع، والعمل، والحال تدل على تقدم المتقدِّم من الإثنين"[14].
قال الراغب:" وتقديم السجود على الركوع، قيل: لكونه كذلك في شريعتهم، وقيل: تنبيها أن الواو لا تقتضي الترتيب، وقيل: عنى بالسجود الصلاة، لقوله: {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق : ٤٠] ، وعنى بالركوع الشكر، لقوله تعالى في قصة داود: {رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص : ٢٤] أي شاكرا، وهذا تخصيص للركوع بحال مقترنة به، وقيل: نبه بقوله: { وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ } أي كوني مع العابدين والمصلين"[15].
الفوائد:
١-بيان أنه كلما منّ الله سبحانه وتعالى على انسان بشيء كانت مطالبته بالعبادة اكثر، لقوله:{ {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}. إذ أمرتها بالقنوت والسجود والركوع.
٢-فضيلة القنوت لله، وهو دوام الطاعة والخشوع، والاشتغال بالطاعة عما سواها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٠٤٨):ص٦/٤٠٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٠٥١):ص٦/٤٠٣.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٩٤):ص٢/٦٤٨، وتفسير الطبري(٧٠٣٨)-(٧٠٤٣):ص٦/٤٠١-٤٠٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٠٤٤):ص٦/٤٠٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٠٤٦):ص٦/٤٠٣.
(٦) تفسير الجلالين:٧٢.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٧٦.
(٨) تفسير العز بن عبدالسلام:١/٢٦٢.
(٩) الكشاف:١/٣٦٢.
(١٠) تفسير الطبري:٦/٤٠٤.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٤٩٦):ص٢/٦٤٨.
(١٢) تفسير البيضاوي:٢/١٦.
(١٣) الكشاف:١/٣٦٢.
(١٤) معاني القرآن:١/٤١٠.
(١٥)تفسير الراغب الأصفهاني:٢/٥٥٧.

٣-فضيلة السجود والركوع، لقوله: { وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ }.
٤-جواز ترك الترتيب لمصلحة، لقوله: { وَاسْجُدِي وَارْكَعِي}، إذ نصّ على السجود قبل الركوع، لأن السجود أبلغ في القنوت من الركوع.
٥-فضيلة صلاة الجماعة، لقوله:{ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}.

القرآن

{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)} [آل عمران : ٤٤]

التفسير:

ذلك الذي قصصناه عليك -أيها الرسول- من أخبار الغيب التي أوحاها الله إليك، إذ لم تكن معهم حين اختلفوا في كفالة مريم أيُّهم أحق بها وأولى، ووقع بينهم الخصام، فأجْرَوْا القرعة بإلقاء أقلامهم، فأصابت زكريا عليه السلام، ففاز بكفالتها.

قوله تعالى: { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } [آل عمران : ٤٤]، " أي: ذلك من أخبار الغيب ننزله إليك يا محمد"(١).

قال الثعلبي:" ذلك: الذي ذكرت من حديث زكريا ومن حديث ويحيى ومريم وعيسى، من أخبار، الغيب نوحيه إليك"(٢).

قال الزمخشري:" ذلك إشارة إلى ما سبق من نبإ زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، يعنى أن ذلك من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي"(٣).

قال الصابوني:" أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إنما هو من الانبياء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد"(٤).

قال الماوردي:" يعني ما كان من البشرى بالمسيح"(٥).

قال الزجاج:" أي: الأخبار التي قصصناها عليك في زكريا ويحيى ومريم وعيسى من أنباء الغيب، أي من أخبار ما غاب عنك، وفي هذا دليل على تثبيت نبوة النَبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه أنبأ بما لا يعلم إلا من كتاب أو وحي وقد أجمعوا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان أمياً، فإنباؤه إياهم بالأخبار التي في كتبهم علي حقيقتها من غير قراءَة الكتب دليل على أنه نبى وأن اللَّه أوحى إليه بها"(٦).

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن إسحاق قوله:{ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك}، ثم قد جئتهم به ذليلا علي نبوتك والحجة لك عليهم"(٧).

وأصل "الوحي": إلقاء المعنى إلى صاحبه، والوحي إلى الرسل الإلقاء بالإنزال ، وإلى النحل بالإلهام ، ومن بعض إلى بعض بالإشارة ، كما قال تعالى : {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم : ١١] . قال العجاج(٨) :

بِإِذْنِهِ الأَرْضُ وما تَعَتَّتِ ... وَحَى لَهَا القرارَ فَاسْتَقَرَّتِ

بمعنى ألقى إليها ذلك أمرًا(٩).

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٤٠٤/٦.[بتصرف].
(٢) تفسير الثعلبي:٦٧/٣.
(٣) الكشاف:٣٦٢/١.
(٤) صفوة التفاسير:١٨٤.
(٥) النكت والعيون:٣٩٣/١.
(٦) معاني القرآن:٤١٠/١.
(٧) تفسير ابن أبي حاتم(٣٤٩٩):ص٦٤٩/٢.
(٨)ديوانه: ٥.
(٩) انظر: النكت والعيون:٣٩٣/١، وتفسير الطبري:٤٠٥/٦.

قوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَم} [آل عمران : ٤٤]، " أي: وما كنت حاضرا لديهم حين يضربون بسهامهم القرعة، وينظرون ليعلموا أيهم يكون كافلا لمريم"(١).

قال الصابوني:" أي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كلٌ يريدها في كنفه ورعايته"(٢).

قال الزجاج:" أي هذا أيضاً مما لم تحضره[إذ يلقون أقداحهم] لينظروا أيهم تجب له كفالة مريم، وهو الضمان للقيام بأمرها"(٣).

قال ابن كثير:" أي :ما كنت عندهم يا محمد فَتُخْبِرهم عنهم معاينة عما جرى ، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرا وشاهدًا لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر"(٤).

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن إسحاق: "{وما كنت لديهم}، يقول: ما حضرت ولا عنيت"(٥).

وقال قتادة:" تساهموا على مريم أيهم يكفلها فقرعهم زكريا"(٦).

وروي عن مجاهد والضحاك قالا: "استهموا بأقلامهم"(٧).

وقال عكرمة:" ألقوا أقلامهم في الماء فذهبت مع الجرية، وصعد قلم زكريا يغلب الجرية فكفلها زكريا"(٨).

وفي تفسير قوله:{أَقْلاَمَهُمْ}[آل عمران:٤٤]، وجوه:

أحدها: أن المراد: أقلامهم التي يكتبون بها الوحي. قاله سفيان(٩)، ونقله ابن جريج عن آخرين(١٠) . ورجّحه القرطبي فقال:" وهو أجود، لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال" ذلكم فسق" [المائدة: ٣]، إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التي كانت عليها الجاهلية تفعلها"(١١).

والثاني: أن أقلامهم: عصيّهم. قاله الربيع(١٢).

والثالث: أن أقلامهم: قداحهم وسهامهم. قاله عطاء(١٣)، والزجاج(١٤)، وأبو عبيدة(١٥).

قال الزجاج:"وإنما قيل للسهم :القلم لأنه يقْلَمَ أي يبْرَى، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قَلَمْتَه، من ذلك القلم الذي يكتب به، إنما سمي لأنه قلم مرة بعد مرة، ومن هذا قلمت أظافري"(١٦).

والظاهر ان المراد الأقلام حقيقة التي يكتب بها، ولا نعدل عن ظاهر القرآن إلا بدليل. والله أعلم.

---

(١) تفسير المراغي:١٥١/٣.
(٢) صفوة التفاسير:١٨٤.
(٣) معاني القرآن:١/٤١٠-٤١١.
(٤) تفسير ابن كثير:٤٢/٢.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٠٠):ص٦٤٩/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٠٢):ص٦٤٩/٢.
(٧)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٠٢):ص٦٤٩/٢.
(٨)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٠٣):ص٦٤٩/٢.
(٩) انظر: تفسير ابن المنذر(٤٥٩):ص١٩٩/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٥٠٥):ص٦٤٩/٢، وتفسير ابن المنذر(٤٦٠):ص١٩٩/١.
(١١) تفسير القرطبي:٨٦/٤.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٥٠٦):ص٦٥٠/٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٥٠٤):ص٦٤٩/٢. وتفسير ابن المنذر(٤٦٠):ص١٩٩/١.
(١٤) معاني القرآن:٤١١/١.
(١٥) انظر: تفسير ابن المنذر(٤٦٠):ص١٩٩/١.
(١٦)معاني القرآن:٤١١/١.

قال الثعالبي:" وجمهور العلماء على أنه استهام لأخذها والمنافسة فيها، فروي أنهم ألقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في النهر، فروي أن قلم زكريا صاعد الجرية، ومضت أقلام الآخرين، وقيل غير هذا، قلت: ولفظ ابن العربي في «الأحكام» قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فجرت الأقلام وعلا قلم زكريا» (1) اهـ، وإذا ثبت الحديث، فلا نظر لأحد معه"(2).

قوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران : ٤٤]، أي: وما كنت معهم حين اختلفوا في كفالة مريم أيُّهم أحق بها وأولى، ووقع بينهم الخصام"(3).

قال الطبري:" وما كنتَ، يا محمد، عند قوم مريم، إذ يختصمون فيها أيُّهم أحقّ بها وأولى"(4).

قال محمد بن إسحاق:" أي ما كنت معهم إذ يختصمون فيها، يخبره بخفي ما كتموا منه من العلم عندهم، لتحقيق نبوته، والحجة عليهم لما يأتيهم به مما أخفوا منه"(5).

قال قتادة:" كانت ابنة إمامهم وسيدهم، فتشاح عليها بنو إسرائيل فاقترعوا بها أيهم يكفلها"(6).

الفوائد:

١-إن الوحي من أخبار الأمم السابقة التي لم تكن تعلمها الرسول-صلى الله عليه وسلم- ولا امته، دليل على أنه-صلى الله عليه وسلم- رسول الله حقا، وأن الوحي يأتيه من الله تعالى.

٢-ومن الفوائد: جواز الاقتراع والقرعة، قال ابن عطية:" وفي هذه الآية استعمال القرعة والقرعة سنة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر أقرع بين نسائه"(7).

٣-الإشارة إلى أن الذي أنبئ به كأنما يراه بعينه، وكانه حاضر وهو كذلك، لأن أخبار الله تعالى أشد ثبوتا وحقيقة مما يرى في العين.

القرآن

{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)} [آل عمران : ٤٥]

التفسير:

وما كنت -يا نبي الله- هناك حين قالت الملائكة: يا مريم إن الله يُبَشِّرُكِ بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: «كن» ، فيكون، اسمه المسيح عيسى ابن مريم، له الجاه العظيم في الدنيا والآخرة، ومن المقربين عند الله يوم القيامة.

قوله تعالى:{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ }[آل عمران : ٤٥]، أي وما كنت، يا محمد، عند القوم حين قالت الملائكة: يا مريم إن الله يبشرك "برسالة منه وخبر من عنده"(8).

قال ابن عباس: " { بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}، قال: عيسى، وهو الكلمة من الله "(9).

---

(١) تفسير القرطبي:٨٦/٤. ولك نقف عليه مرفوعا، وعلقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم عن ابن عباس-رضي الله عنهما- في الشهادات، باب القرعة في المشكلات(الفتح:٢٩٢)، ووصله البيهقي في السنن:٢٨٦/١٠-٢٨٧، وأخرجه الطبري مطولا عن السدي.(٦٩٠٤):ص٣٤٨/٦-٣٤٩، وكذلك عن عكرمة(٦٩٠٢):ص٣٤٨/٦-٣٤٩.

(٢) تفسير الثعالبي:٤٥/٢.

(٣) التفسير الميسر: ٥٥.

(٤) تفسير الطبري: ٤١٠/٦.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥١١):ص٦٥٠/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥١٠):ص٦٥٠/٢.

(٧) المحرر الوجيز:٤٣٥/١.

(٨) تفسير الطبري:٤١١/٦.

(٩) أخرجه ابن المنذر في تفسيره(٤٦٣):ص٢٠٠/١.

وقال أبو عبيدة:"{ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}، أي: الرسالة هو ما أوحى الله به إلى الملائكة في أن يجعل لمريم ولدا"[١].

قال ابن كثير:" أي : بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي : بقوله له : "كن" فيكون ، وهذا تفسير قوله :{ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ } [آل عمران : ٣٩] كما ذكره الجمهور"[٢].

قال الطبري:" والتبشير: إخبار المرء بما يسره من خبر"[٣].

قال الزجاج:" سمى الله عز وجل عيسى المسيح، وسماه عيسى، وسمي ابتداء أمره كلمة منه فهو - صلى الله عليه وسلم - كلمة من الله ألقاها إلى مريم، ثم كون تلك الكلمة بشرا"[٤].

قوله تعالى:{اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ }[آل عمران:٤٥]، " أي اسمه عيسى ولقبه المسيح"[٥].

قال ابن كثير:"أي يكون مشهورًا بهذا في الدنيا ، يعرفه المؤمنون بذلك"[٦].

وفي تسميته بالمسيح أقوال:

أحدها: أنه سمّي بذلك لكثرة سياحته. حكاه ابن كثير عن بعض السلف[٧].

والثاني :لأنه مُسِحَ بالبركة ، وهذا قول الحسن[٨] وسعيد[٩].

والثالث:أنه مُسِحَ بالتطهر من الذنوب. وأن المسيح: الصدّيق. قاله إبراهيم[١٠] وهو اختيار الإمام الطبري[١١].

والرابع: وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أخْمَص لهما[١٢].

والخامس: وقيل : المسيح بمعنى الماسح، لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى، فيمسح عين الأعمى والأعور فيبصر[١٣] .

والسادس. ان المسيح: الملك. قاله الكلبي[١٤]، وأبو عمرو بن علاء[١٥].

والسابع: وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن. قاله أبو سليمان الدمشقي[١٦].

والثامن: أن المسيح ضد المسيخ، يقال: مسحه الله أي خلقه خلقا حسنا مباركا، ومسخه أي خلقه خلقا ملعونا قبيحا. قاله أبو الهيثم[١٧].

والتاسع: وقيل: أن المسيح أصله بالعبرانية "مشيحا" بالشين، فعرّب كما عرّب: موشى بموسى. قاله أبو عبيدة[١٨].

والقول الأول أشهر، وعليه الأكثر، فـ"سمي به، لأنه يسيح في الأرض أي يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبئت المقدس، فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض

---

(١) أخرجه ابن المنذر في تفسيره(٤٦٤):ص١/٢٠٠.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٣/٢.
(٣) تفسير الطبري:٤١٠/٦.
(٤) معاني القرآن:٤١١/١.
(٥) صفوة التفاسير:١٨٤.
(٦) تفسير ابن كثير:٤٣/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٣/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٠٦٤)، و(٧٠٦٥):ص٤١٤/٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٠٦٦):ص٤١٤/٦.
(١٠) انظر: النكت والعيون:٣٩٤/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٤١٤/٦.
(١٢) تفسير ابن كثير:٤٣/٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن كثير:٤٣/٢، وتفسير الماتريدي:٣٧١/٢، وتفسير السمرقندي:٣١٢/١.
(١٤) انظر: تفسير السمرقندي:٣١٢/١.
(١٥) انظر: تفسير الثعلبي:٦٨/٣.
(١٦) انظر: زاد المسير:٣٣١/١، وتفسير الثعلبي:٦٨/٣. لم ينسبه الثعلبي.
(١٧) انظر: تفسير القرطبي:٨٩/٤.
(١٨) انظر: تفسير القرطبي:٨٩/٤.

محنة، وابن مريم يمسحها منحة، وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول[1]. ومنه قول الشاعر[2]:

إن المسيح يقتل المسيحا

قال الثعلبي:" قرأ أبو السماك وهب بن يزيد العدوي: {بكلمة}، مكسورة الكاف مجزومة اللام في جميع القرآن، وهي لغة فصيحة"[3].

قال الماتريدي:" يحتمل: {بكلمة منه}: أن قال: " كن " - فكان من غير أب ولا سبب، وسائر البشر لم يكونوا إلا بالآباء والأسباب: من النطفة، ثم من العلقة، ثم من مضغة مخلقة على ما وصف - عز وجل - في كتابه، وكان أمر عيسى - عليه السلام - على خلاف ذلك.

ويحتمل {بكلمة منه}: ما ذكر أنه كلم الناس في المهد: (إني عبد الله آتاني الكتاب) وذلك مما خص به عيسى، وهو بكلمة من الله قال ذلك"[4].

قوله تعالى: { وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ }[آل عمران : ٤٥]، أي:"ذا جاه وقدر في الدنيا والآخرة"[5].

قال النحاس:" الوجية الذي له القدر والمنزلة الرفيعة يقال لفلان جاه وجاهة وقد وجه يوجه وجاهة"[6].

قوله تعالى: { وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ }[آل عمران : ٤٥]، أي:"ومن المقربين عندالله يوم القيامة"[7].

قال الطبري:" أنه ممن يقرِّبه الله يوم القيامة ، فيسكنه في جواره ويدنيه منه"[8].

قال قتادة:" : من المقربين عند الله يوم القيامة"[9]. وروي عن الربيع مثله[10].

قال الهرري:أي:" إلى الله في جنة عدن، وهذا الوصف كالتنبيه على أن عيسى سيرفع إلى السماء، وتصاحبه الملائكة"[11].

الفوائد:

١- البشارة بالأخبار التي تسر. لقوله:{إن الله يبشرك}.

٢- بيان نسبة عيسى-عليه السلام- إلى أمه، لكي لا يقول قائل إنه نسب إلى كافله كان زكريا-عليه السلام-.

٣- من فوائد الآية وجاهة عيسى-عليه السلام- عند الله، لقوله:{ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}.

القرآن

{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)} [آل عمران : ٤٦]

التفسير:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي:٨٩/٤.

(٢) البيت من شواهد الثعلبي في تفسيره:٦٩/٣، والقرطبي في تفسيره:٨٩/٤، ولم اتعرف على قائله فيما توفرت لديّ من المصادر.

(٣) تفسير الثعلبي:٦٨/٣.

(٤) تفسير الماتريدي:٣٧١/٢.

(٥)تفسير الثعلبي:٦٩/٣.

(٦) معاني القرآن:٤٠١/١.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٢٠):ص٦٥٢/٢. وهو قول الربيع بن أنس.

(٨) تفسير الطبري:٤١٥/٦.

(٩) أخرجه الطبري(٧٠٦٨):ص٤١٦/٦.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٠٦٩)،و(٧٠٧٠):ص٤١٦/٦.

(١١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن:٣٠٤/٤.

ويكلم الناس وهو رضيع قبل أوان الكلام، ويدعوهم إلى الله وهو كبير قد اجتمعت قوته وكمل شبابه بما أوحاه الله إليه. وهذا تكليم النبوَّة والدعوة والإرشاد، وهو معدود من أهل الصلاح والفضل في قوله وعمله.

قوله تعالى:{ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا }[آل عمران : ٤٦]، "أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، في حال صغره ، معجزة وآية ، وفي حال كهوليته حين يوحي الله إليه بذلك"(١).

قال محمد بن إسحاق:" يخبرهم بحالاته التي يتقلب فيها عمره كتقلب بني في آدم أعمارهم صغارا أو كبارا، لأن الله تعالى جده خصه بالكلام في مهده، آية لنبوته، وتعريفا للعباد مواقع قدرته"(٢).

قال الزمخشري:أي:" يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء"(٣).

قال الماوردي:" والمهد : مضجع الصبي ، مأخوذ من التمهيد"(٤).

قال ابن عباس:"{ويكلم الناس في المهد}، قال : مضجع الصبي في رَضَاعه"(٥).

واختلفوا في تفسير قوله تعالى:{وَكَهْلاً}[آل عمران:٤٦]، وفيه أقوال :

أحدها : أن المراد بالكهل الحليم ، وهذا قول مجاهد (٦)، وعكرمة(٧)، وقال يزيد بن أبي حبيب: "الكهل: منتهى الحلم"(٨).

الثاني : أنه أراد الكهل في السنّ، وهو قول ابن عباس(٩). قال النحاس:" يقال اكتهل النبت إذا تم، والكهل ابن الاربعين أو ما قاربها"(١٠).

الثالث: يعني: إذا اجتمع قبل أن يرفع إلى السماء. قاله مقاتل(١١).

الرابع: أن (كهلا) بعد نزوله من السماء. قاله الحسن بن الفضل(١٢).

الخامس: المراد: أنه تعالى أخبرهما أنه يبقى حتى يكتهل. قاله ابن كيسان(١٣).

السادس: وقيل: يكلم الناس في المهد: صبيا وكهلا نبيا، ولم يتكلم في المهد من الأنبياء، إلا عيسى -عليه السلام- ، فكلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة(١٤).

السابع: {وكهلا}: أي عظيما، والعرب تمدح بالكهولة لأنها أعظم؟ على في احتناك السن، واستحكام العقل، وجودة الرأي والتجربة. وهذا احد قولي مجاهد(١٥).

واختلفوا في تحديد سن الكهل على ثلاثة اقوال:

أحدها: أنه بلوغ أربع وثلاثين سنة(١٦) .

والثاني: أن الكهل ابن أربعين إلى الخمسين سنة. حكاه الهرري عن ثابن بن أبي ثابت(١).

---

(١) نظر: تفسير ابن كثير:٤٣/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٢٧):ص٦٥٣/٢.
(٣) الكشاف:٣٦٤/١.
(٤) انظر: النكت والعيون:٣٩٤/١.
(٥) أخرجه الطبري(٧٠٧١):ص٤١٧/٦.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٢٥):ص٦٥٢/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن المنذر(٤٧٣):ص٢٠٣/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٢٦):ص٦٥٣/٢.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٢٤):ص٦٥٢/٢،والنكت والعيون:٣٩٤/١.
(١٠) معاني القرآن للنحاس:٤٠١/١.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:٦٩/٣.
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي:٦٩/٣.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:٦٩/٣.
(١٤) انظر: تفسير الثعلبي:٦٩/٣.
(١٥) انظر: تفسير الثعلبي:٦٩/٣.
(١٦) انظر: النكت والعيون:٣٩٤/١، و تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القران:١٥٩/٨.

والثالث:أنه فوق حال الغلام ودون حال الشيخ، مأخوذ من القوة من قولهم اكتهل البيت إذ طال وقوي[٢].

قال الطبري:" وأما قوله : {وكهلا}، فإنه : وُمحتَنِكًا فوق الغُلومة، ودُون الشيخوخة ، يقال منه : رجل كهل وامرأة كهلة ، كما قال الراجز[٣] :

وَلا أَعُودُ بَعْدَهَا كَرِيَّا ... أُمَارِسُ الكَهْلَةَ وَالصَّبِيَّا

وإنما عنى جل ثناؤه بقوله : {ويكلم الناسَ في المهد وكهلا}، ويكلم الناس طفلا في المهد دلالةً على براءَة أمه مما قَرَفها به المفترون عليها ، وحجة له على نبوّته وبالغًا كبيرًا بعد احتناكه، بوحي الله الذي يوحيه إليه، وأمره ونهيه، وما ينزل عليه من كتابه"[٤].

قال الماوردي: "فإن قيل فما المعنى في الإخبار بكلامه كهلاً وذلك لا يستنكر ؟ ففيه قولان:

أحدها : أنه يكلمهم كهلاً بالوحي الذي يأتيه من الله تعالى .

والثاني : انه يتكلم صغيراً في المهد كلام الكهل في السنّ "[٥].

قال الماتريدي: "فإن قيل: ما معنى قوله: {ويكلم الناس في المهد وكهلا} والكهل: مما يكلم الناس؟ قيل: لأن كلامه في المهد آية، والآية لا تدوم؛ كقوله: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ} [النور : ٢٤] الآية، وإنما يكون ذلك مرة لا أنها تشهد وتنطق أبدا، فأخبر أن تكليمه الناس في المهد - وإن كانت آية - فإنه ليس بالذي لا يدوم، ولا يكون إلا مرة.

والثاني: أمن من الله لمريم، وبشارة لها عن وفاته إلى وقت كهولته، والله أعلم"[٦].

والتحقيق في هذا الإخبار من قبل الله تعالى من أمر المسيح "وإن كان الغالب من أمر الناس أنهم يتكلمون كهولا وشيوخًا احتجاجًا به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى الباطلَ، وأنه كان منذ أنشأه مولودًا طفلا ثم كهلا يتقلب في الأحداث ، ويتغير بمرُور الأزمنة عليه والأيام ، من صِغر إلى كبر ، ومن حال إلى حال وأنه لو كان ، كما قال الملحدون فيه ، كان ذلك غيرَ جائز عليه. فكذّب بذلك ما قاله الوفدُ من أهل نجران الذين حاجُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، واحتج به عليهم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعلمهم أنه كان كسائر بني آدم ، إلا ما خصه الله به من الكرامة التي أبانه بها منهم"[٧].

قوله تعالى:{ وَمِنَ الصَّالِحِينَ }[آل عمران:٤٦]، أي: وهو من العباد الصالحين"[٨].

قال الصابوني: " أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح"[٩].

قال ابن كثير:"أي : في قوله وعمله ، له علم صحيح وعمل صالح"[١٠].

قال عطاء:" يريد: مثل: موسى، وإسرائيل[١١]، وإسحاق، وإبراهيم "[١٢].

---

(١) انظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القران:١٥٩/٨.
(٢) انظر: النكت والعيون:٣٩٤/١.
(٣) انظر: الجمهرة ٣ : ٣٣٩ ، المخصص ١ : ٤٠ أمالي ، القالي ٢ : ٢١٥ ، والسمط : ٨٣٦ ، شرح أدب الكاتب لابن السيد : ٢١٧ ، ٣٨٩ ، وللجواليقي : ٢٩٥ ، واللسان (كهل) (كرا) (شعفر) (أمم).
(٤) تفسير الطبري:٤١٧/٦-٤١٨.
(٥)النكت والعيون:٣٩٤/١.
(٦) تفسير الماتريدي:٣٧١/٢.
(٧) تفسير الطبري:٤١٨/٦-٤١٩.
(٨) تفسير الثعلبي:٦٩/٣.
(٩) صفوة التفاسير:١٨٤.
(١٠) تفسير ابن كثير:٤٣/٢.
(١١)إسرائيل، هو: يعقوب عليه السلام. انظر: "تفسير الطبري" ١/ ٢٤٨، "فتح القدير" ١/ ١١٧.
(١٢) نقله الواحدي في التفسير البسيط:٢٦٤/٥، ولم أقف على مصدر قوله.

قال الهرري:أي:" وحالة كونه كائنًا من العباد {الصَّالِحِينَ} ومعدودًا منهم، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، الذين تعرف مريم سيرتهم؛ مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى، وغيرهم من الأنبياء"(١).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: "أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويعيش إلى أن يكلمهم كهلا، إذ كانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعش"(٢). قاله المهدوي.

٢- نزول عيسى قبل القيامة، وذلك لقوله:{وكهلا}، على تفسير الحسن بن الفضل(٣). وقد تواترت الأخبار في نزوله -عليه السلام- قبل يوم القيامة، روي عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد"(٤).

٣- ومنها: أنه تعالى" ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين، بعدما وصفه بالأوصاف العظيمة؛ لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات؛ لأنه لا يسمى المرء صالحًا حتى يكون مواظبًا على النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله، فلما وصفه الله تعالى بكونه وجيهًا في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، وأنه يكلم الناس في المهد وكهلًا .. أردفه بقوله: {وَمِنَ الصَّالِحِينَ}؛ ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات"(٥).

القرآن

{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)} [آل عمران : ٤٧]

التفسير:

قالت مريم متعجبة من هذا الأمر: أنَّى يكون لي ولد وأنا لست بذات زوج ولا بَغِيٍّ؟ قال لها المَلَك: هذا الذي يحدث لكِ ليس بمستبعد على الإله القادر، الذي يوجِد ما يشاء من العدم، فإذا أراد إيجاد شيء فإنما يقول له: «كُن» فيكون.

قوله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}[آل عمران : ٤٧]، " أي قالت: ياربي: كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟"(٦).

قال السدي:"تقول:من أين لي"(٧).

قال مقاتل: "يعني: الزوج"(٨).

قال الطبري: يعني: "من أيِّ وجه يكون لي ولد ؟ أمِن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه ، أمْ تبتدئ فيَّ خلقه من غير بعل ولا فحل، ومن غير أن يمسَّني بشر"(٩).

قال السمرقندي:" وهو كناية عن الجماع"(١٠).

---

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القران:٣٠٤/٤.

(٢) تفسير القرطبي:٩٠/٤.

(٣) انظر: تفسير الثعلبي:٦٩/٣.

(٤) صحيح البخاري(٢٢٢٢):ص٨٢/٣، وانظر: مسند أحمد(٧٢٦٩).

(٥)تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القران، للهرري:٣٠٤/٤.

(٦)صفوة التفاسير:١٨٤.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٢٨):ص٦٥٣/٢.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٦/١.

(٩) تفسير الطبري:٤٢٠/٦.

(١٠) تفسير السمرقندي:٢١٤/١.

قال الهرري:" أي قالت: كيف يكون لي ولد وليس لي زوج؟ أي: لم يصبني رجل بالحلال ولا بالحرام؟؛ لأن المحررة لا تتزوج أبدًا كالذكر المحرر.
وقد يكون مرادها: أيحدث ذلك بزواج أم يحصل بقدرتك؟ وقد يكون قصدها: التعجب من قدرة الله واستعظام شأنه"(١).
قال السمعاني:" قالت ذلك تعجبا؛ إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد بلا أب"(٢).
قوله تعالى:{ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ }[آل عمران:٤٧]، أي:" إن الأمر كذلك، أن الله يخلق ما يشاء"(٣).
قال الصابوني:" أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسببٍ من الوالدين وبغير سبب"(٤).
قال محمد بن إسحاق:" أي يضع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر"(٥).
قال السمعاني:" أي: لا يعسر عليه شيء، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد"(٦).
قال الهرري:" أي: كما قلت لكِ من خلق ولد منك بلا أب {اللَّهُ} سبحانه وتعالى {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} كيف شاء بسبب، وبلا سبب، مثل هذا الخلق العجيب، والإحداث البديع - وهو خلق الولد بغير أبٍ - يخلق الله ما يشاء، فإن قلت: لِمَ عبَّر هنا بالخلق، وفي قصة يحيى بالفعل[يفعل ما يشاء}؟
قلت: لأن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير، فكأن الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل كما سبق"(٧).
قوله تعالى:{ إِذَا قَضَى أَمْرًا}[آل عمران:٤٧]، " أي إذا أراد شيئاً"(٨).
قال القشيري: أي:إذا" أراد إمضاء حكم"(٩).
قال الهرري:" أي: إذا أراد خلق شيء من الكائنات"(١٠).
قال الراغب:" القضاء: الفصل، وذلك إما بالتدبير، وإما بالقول، وإما بالفعل، فالأول لا يصح على الله عز وجل إلا بمعنى الحكم إذ كان التدبير: التفكر في الشيء وارتياد الصلاح فيه، وذلك لمن كان ناقص العلم، فقوله: قضى، ها هنا إما للقول، وإما للفعل، أو لهما جميعا"(١١).
قوله تعالى:{فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[آل عمران:٤٨]، أي:" إنما فيقول له كن فيكون من غير تأخر ولا حاجة إلى سبب"(١٢).
قال محمد بن إسحاق:" مما يشاء وكيف يشاء فيكون كما أراد"(١٣).
قال الهرري:أي يقول له:" أحدث وأخرج من العدم، فذلك الأمر يوجد بسرعة من غير تباطؤ"(١٤).

---

(١) تفسير حدائق الروح والريحان:٣٠٥/٤.
(٢) تفسير السمعاني:٣٢٠/١.
(٣) تفسير ابن عثيمين:٢٧٢/١.
(٤)صفوة التفاسير:١٨٤.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٢٩):ص٦٥٣/٢.
(٦) تفسير السمعاني:٣٢٠/١.
(٧)تفسير حدائق الروح والريحان:٣٠٥/٤.
(٨) صفوة التفاسير:١٨٤.
(٩) تفسير القشيري:٢٤٤/١.
(١٠)تفسير حدائق الروح والريحان:٣٠٥/٤.
(١١) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٦٧/٢.
(١٢) صفوة التفاسير:١٨٤.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٣٠):ص٦٥٣/٢.
(١٤)تفسير حدائق الروح والريحان:٣٠٥/٤.

قال التستري:" إذا كان في علمه السابق الأزلي أمر فأراد إظهاره قال له كن فيكون"[1].

الفوائد:

١- من فوائد الأية: الإشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجًا بأسباب ومواد .. يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك، وهذا تمثيل لكمال قدرته، ونفوذ مشيئته وتصوير لسرعة حصول ما يريد بلا إبطاء بصورة آمر مطاع لمأمور قادر على العمل مطيع يفعل ما يطلب منه على الفور، وهذا الأمر يسمى أمر تكوين، وهناك أمر آخر هو أمر تكليف، يعرف بوحي الله لأنبيائه، والجاحدون لآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب وقوقًا عند العادة، وذهولًا عن كيفية بدء العالم، ولكن ليس لهم دليل عقلي ينبيء بالاستحالة، وإنا نشاهد كل يوم حدوث شيء في الكون لم يكن معتادًا من قبل، بعضه له أسباب معروفة، فيسمونه: استكشافًا أو اختراعًا، وبعضه ليس بمعروف له سببٌ، ويسمونه: فلتات الطبيعة[2].

٢- إن من البشر من خلق بلا أب، كعيسى-عليه السلام-، ومنهم من خلق من غير أم ولا أب كآدم-عليه السلام-، ومن البشر من خلق بلا أم، كحواء امرأة آدم، وسائر الناس من أب وأم.

٣- إن الله يخلق ما يشاء كمّا وكيفا ونوعا، وبسبب معتاد وبسبب غير معتاد، لا حجر على الله عزّ وجل، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء.

٤- إثبات مشيئة الله تعالى لقوله:{الله يخلق ما يشاء}.

القرآن

{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)} [آل عمران : ٤٨]

التفسير:

ويعلمه الكتابة، والسداد في القول والفعل، والتوراة التي أوحاها الله إلى موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل الله عليه.

قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ}[آل عمران:٤٩]، أي: ويعلمه "الكتابة"[3].

قال ابن عباس:"الكتاب: الخط بالقلم"[4]. وروي عن يحيى بن أبي كثير، ومقاتل بن حيان، وعثمان بن عطاء مثل ذلك[5].

وقال الحسن: "الكتاب: القرآن"[6].

قال ابن كثير:" الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة"[7].

قال الطبري:أي:" فيعلمه الكتاب ، وهو الخطّ الذي يخطه بيده"[8].

قال البغوي:" أي الكتابة والخط"[9].

وقال القرطبي:" وقيل: هو كتاب غير التوراة والإنجيل علمه الله عيسى عليه السلام"[10].

قال الماتريدي:" بشارة منه لها -أيضا-: أنه يعلمه الكتاب... ويحتمل {الكتاب} الكتاب نفسه: التوراة والإنجيل، ويحتمل {الكتاب}: كتب النبيين"[1].

---

(١) تفسير التستري:٤٨.

(٢) انظر: تفسير حدائق الروح والريحان:٣٠٥/٤-٣٠٦.

(٣) صفوة التفاسير:١٨٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٣١):ص٦٥٣/٢.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٣١):ص٦٥٣/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٣٢):ص٦٥٣/٢.

(٧) تفسير ابن كثير:٤٤/٢.

(٨)تفسير الطبري:٤٢٢/٦.

(٩) تفسير البغوي:٣٩/٢.

(١٠) تفسير القرطبي:٩٣/٤.

والظاهر-والله أعلم- أن {الكتاب}:" أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم}"(٢) .

وفي قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ}[آل عمران:٤٩]، وجهان من القراءة(٣):

أحدهما: {وَيُعلِّمُهُ} بالياء ، ردًّا على قوله : {كذلك الله يخلق ما يشاء}، {ويعلمه الكتاب}. قرا بهذا الوجه نافع وعاصم.

والثاني: {وَنُعَلِّمُهُ} بالنون ، عطفًا به على قوله : {نوحيه إليك}، كأنه قال: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، ونعلمه الكتاب. قرأ به ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي.

قال الطبري: و"قراءتان مختلفتان، غير مختلفتي المعاني ، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب الصوابَ في ذلك ، لاتفاق معنى القراءتين ، في أنه خبر عن الله بأنّه يعلم عيسى الكتاب ، وما ذكر أنه يعلمه"(٤).

قوله تعالى: { وَالْحِكْمَةَ }[آل عمران:٤٩]، أي: ويعلمه الحكمة.

قال ابن عباس:" {والحكمة }:الفقه وقضاء النبيين"(٥).

قال قتادة:" الحكمة: السنة"(٦). وروي عن الحسن(٧)، وأبي مالك(٨)، ومقاتل بن حيان(٩)، وابن جريج(١٠) مثله.

وقال السدي:"{والحكمة}، يعني: النبوة"(١١).

وقال زيد بن أسلم:" الحكمة: العقل في الدين"(١٢).

قال الطبري:" وهي السنة التي يُوحيها إليه في غير كتاب"(١٣).

قال البغوي:أي:" العلم والفقه"(١٤).

قال الماتريدي:" {والحكمة}:قيل: الحكم بين الخلق، وقيل: الفقه، وقيل: الحلال والحرام، وقيل: السنة، {والحكمة}: هي الإصابة "(١٥).

قال ابن عثيمين: "{الحكمة}: يعني الشريعة، لأن الشريعة من الله، وكل ما كان من الله فهو متضمن للحكمة، قال تعالى لنبينا محمد-صلى الله عليه وسلم-:{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء : ١١٣]"(١٦).

---

(١) تفسير الماتريدي:٣٧٣/٢.
(٢) تفسير السعدي:١٣١.
(٣) انظر: السبعة: ٢٠٦، وتفسير الطبري:٤٢١/٦-٤٢٢.
(٤) تفسير الطبري:٤٢٢/٦.
(٥) زاد المسير:٢٨٤/١.
(٦) أخرجه الطبري(٧٠٨١):ص٤٢٣/٦.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٣٣):ص٦٥٤/٢.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٣٣):ص٦٥٤/٢.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٣٣):ص٦٥٤/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٠٨٣):ص٤٢٣/٦.
(١١)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٣٤):ص٦٥٤/٢.
(١٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٣٥):ص٦٥٤/٢.
(١٣)تفسير الطبري:٤٢٢/٦.
(١٤) تفسير البغوي:٣٩/٢.
(١٥) تفسير الماتريدي:٣٧٣/٢.
(١٦) تفسير ابن عثيمين:٢٧٧/١.

قال السعدي:" والمراد بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتنانا على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه"(١).

قوله تعالى: { وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ }[آل عمران:٤٩]، أي: "ويعلمه التوراة والإنجيل"(٢).

قال الزجاج:" أي يعلمه ذلك وحيا وإلهاما"(٣).

قال محمد بن إسحاق:" أي: كتاب لم يسمعوا به جاءهم به، وكتاب قد سمعوا به مضى ودرس علمه من بين أظهرهم فرده به عليهم"(٤).

قال قتادة:" كان عيسى يقرأ التوراةَ والإنجيل"(٥).

قال محمد بن جعفر بن الزبير:" يعني أخبر الله مريم - ما يريد به فقال : {ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة} التي كانت فيهم من عهد موسى {والإنجيل}، كتابًا آخر أحدثه إليه لم يكن عندهم علمه ، إلا ذِكرُه أنه كائن من الأنبياء قبله"(٦).

قال ابن كثير:" فالتوراة : هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران. والإنجيل : الذي أنزله الله على عيسى -عليهما السلام -، وقد كان عيسى عليه السلام ، يحفظ هذا وهذا"(٧).

الفوائد:

١-بيان فضيلة العلم، لقوله:{ويعلمه الكتاب}.أي علمه الكتابة.

٢-إن عيسى –عليه السلام- كغيره من البشر لايعلم إلا ما علمه اللهـ قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦)إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} [الجن :٢٦- ٢٧]

٣-أن الانجيل هو الكتاب الذي أنزله تعالى على عيسى كمكمل للتوراة، كما قال تعالى: {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [آل عمران : ٥٠].

٤-أن السنة هي شرع النبي الذي جاء به من الله، فعلمه الله عزّ وجل الحكمة، لقوله:{والحكمة}.

القرآن

{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)} [آل عمران : ٤٩]

التفسير:

ويجعله رسولا إلى بني إسرائيل، ويقول لهم: إني قد جئتكم بعلامة من ربكم تدلُّ على أني مرسل من الله، وهي أني أصنع لكم من الطين مثل شكل الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا حقيقيا بإذن الله، وأشفي مَن وُلِد أعمى، ومَن به برص، وأحيي من كان ميتًا بإذن الله، وأخبركم بما تأكلون وتدَّخرون في بيوتكم من طعامكم. إن في هذه الأمور العظيمة التي ليست في قدرة البشر لدليلا على أني نبي الله ورسوله، إن كنتم مصدِّقين حجج الله وآياته، مقرِّين بتوحيده.

---

(١) تفسير السعدي:١٣١.
(٢) انظر: تفسير البغوي:٣٩/٢.[بتصرف].
(٣) معاني القرآن:٤١٣/١.
(٤)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٣٧):ص٦٥٤/٢.
(٥) أخرجه الطبري(٧٠٨٢):ص٤٢٣/٦.
(٦) أخرجه الطبري(٧٠٨٤):ص٤٢٣/٦.
(٧) تفسير ابن كثير:٤٤/٢.

قوله تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [آل عمران : ٤٩]، "أي:ويجعله رسولا إلى بني إسرائيل قائلا لهم:"(١).

قال محمد بن إسحاق:" أي: رسول منه إليكم"(٢).

قال الزمخشري:" وقرأ اليزيدي: {ورسول}: عطفا على كلمة "أني قد جئتكم" أصله: أرسلت بأنى قد جئتكم، فحذف الجار وانتصب بالفعل"(٣).

قوله تعالى:{ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}[آل عمران: ٤٩]، "أي بأني قد جئتكم بعلامةٍ من ربكم تدل على صدقي"(٤).

قال مقاتل:" يعني بعلامة"(٥).

قال محمد بن إسحاق:" أي : يُحقق بها نبوّتي ، أني رسولٌ منه إليكم"(٦).

قال الطبري:"يعني: بعلامة من ربكم تحقق قولي ، وتصدق خبري أني رسول من ربكم إليكم"(٧).

قوله تعالى:{أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ}[آل عمران: ٤٩]، أي: إني"أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير"(٨).

قال الزمخشري:" أى: أقدر لكم شيئا مثل صورة الطير"(٩).

قال مقاتل:" فخلق الخفاش بإذن الله لأنه أشد الخلق إنما هو لحم وشيء يطير بغير ريش فطار بإذن الله"(١٠).

قال ابن جريج:"قوله :{أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير}، قال: أيّ الطير أشدّ خلقًا ؟ قالوا : الخفاش ، إنما هو لحم. قال ففعل"(١١).

قال ابن إسحاق : "إنّ عيسى صلوات الله عليه جلسَ يومًا مع غلمان من الكُتّاب ، فأخذ طينًا ، ثم قال : أجعل لكم من هذا الطين طائرًا ؟ قالوا : وتستطيع ذلك! قال : نعم! بإذن ربي. ثم هيّأه ، حتى إذا جعله في هيئة الطائر نفخ فيه ، ثم قال : " كن طائرًا بإذن الله " ، فخرج يطيرُ بين كفيه. فخرج الغلمان بذلك من أمره ، فذكروه لمعلّمهم فأفشوه في الناس. وترعرع ، فهمَّت به بنو إسرائيل ، فلما خافت أمه عليه حملته على حُمَيرٍ لها ، ثم خرجت به هاربة"(١٢).

وعن ابن إسحاق أيضا:" ثم جعل الله على يديه يعني: عيسى أمورا تدل به على قدرته في بعثه، بعث من يريد أن يبعث بعد الموت، وخلقه ما يشاء أن يخلق من شيء، يرى أو لا يرى فجعله ينفخ في الطين فيكون طيرا بإذن الله"(١٣).

وقرأ نافع:{أني أخلق}، بكسر الألف، على الاستئناف(١٤)

قوله تعالى:{ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}[آل عمران: ٤٩]، " أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله"(١).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٦/١، وتفسير ابن كثير:٤٤/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٣٨):ص٦٥٤/٢.
(٣) الكشاف:٣٦٤/١.
(٤) صفوة التفاسير:١٨٤.
(٥)تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٦/١.
(٦) أخرجه الطبري(٧٠٨٥):ص٤٢٤/٦.
(٧) تفسير الطبري:٤٢٤/٦.
(٨) صفوة التفاسير:١٨٤.
(٩) الكشاف:٣٦٤/١.
(١٠)تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٦/١.
(١١) أخرجه الطبري(٧٠٨٧):ص٤٢٦/٦.
(١٢) أخرجه الطبري(٧٠٨٦):ص٤٢٥/٦-٤٢٦.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٤١):ص٦٥٥/٢.
(١٤) انظر: السبعة:٢٠٦.

قال الزمخشري:" وقيل: لم يخلق غير الخفاش"[٢].
وقرأ عبد الله: {فأنفخها}[٣].
وقرأ نافع:{ فَيَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}، على التوحيد[٤]، وهي قراءة مخالفة لخط المصحف استبعدها الطبري[٥].
قوله تعالى:{وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ}[آل عمران: ٤٩]، " أي وأشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص"[٦].
قال مقاتل:{ الْأَكْمَهَ }:" الذي ولدته أمه أعمى الذي لم ير النور قط فيرد الله بصره[٧].
قال الثعلبي:" أي أشفيهما وأصححهما...والأبرص الذي به وضح، وإنّما خصّ هذين لأنهما عميان وكان الغالب على زمن عيسى الطبّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك داعيا لا دواء له"[٨].
وقد اختلف أهل التفسير في معنى {الأكمه} على أقوال:
أحدها: أنه الذي يُبصر بالنهار، ولايبصر بالليل. قاله مجاهد[٩].
والثاني: أنه الأعمى الذي ولدته أمه كذلك ولم يبصر ضوءا قط. قاله ابن عباس[١٠]، وقتادة[١١]، ومقاتل بن سليمان[١٢]، وأبو عبيدة[١٣]، والزجاج[١٤].
ورجّحه ابن كثير، وقال: " وهو أشبه ؛ لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي"[١٥].
والثالث: أنه الأعمى على الإطلاق. وهذا قول الحسن[١٦]، والسدي[١٧]، وكذلك روي عن ابن عباس-في أحد قوليه-[١٨]، وقتادة-في أحد قوليه-[١٩]، وعكرمة- في أحد قوليه-[٢٠].
والرابع: أنه الأعمش. قاله عكرمة[٢١].
والراجح –والله أعلم- هو القول الثاني، أي: الذي يولد أعمى، وعليه الجمهور، كما يقول ابن حجر في فتح الباري؛ لأن إبراء الذي يولد أعمى هو الذي فيه المعجزة، أما من يصيب عينيه مرض عارض، فهذا قد يعالجه الطب البشري[٢٢].
والمشهور في كلام العرب، أن الأكمه، هو الأعمى، قال سويد بن أبي كاهل[٢٣]:

---

(١) صفوة التفاسير:١٨٤.
(٢)الكشاف:٣٦٤/١.
(٣) انظر: الكشاف:٣٦٤/١.
(٤) انظر: السبعة:٢٠٦.
(٥) انظر: تفسيرالطبري:٤٢٥/٦.
(٦) صفوة التفاسير:١٨٤.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.
(٨) تفسير الثعلبي:٧١/٣.
(٩) انظر: تفسير مجاهد:٢٥٢، وتفسير الطبري(٧٠٨٨):ص٤٢٨/٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٠٩٢):ص٤٢٩/٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٠٩٠):ص٤٢٨/٦.
(١٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.
(١٣) تفسير ابن المنذر(٤٩٣):ص١٨٥/١.
(١٤) معاني القرآن:٤١٤/١.
(١٥) تفسير ابن كثير:٤٤/٢.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٠٩٦):ص٤٢٩/٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٧٠٩٣):ص٤٢٩/٦.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٧٠٩٦٤):ص٤٢٩/٦.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(٧٠٩٥):ص٤٢٩/٦.
(٢٠) انظر: تفسير ابن المنذر(٤٩٥):ص٢١٠/١.
(٢١) انظر: تفسير الطبري(٧٠٩٧):ص٤٢٩/٦.
(٢٢) انظر: فتح الباري:٤٧٢/٦.
(٢٣) انظر: المفضليات : ٤٠٥ ، اللسان (كمه).

كَمَّهَتْ عَيْنَيْهِ حَتَّى ابْيَضَّتَا ... فَهْوَ يَلْحَى نَفْسَهُ لَمَّا نزعْ

ومنه قول رؤبة(١) :

هَرَّجْتُ فَارْتَدَّ ارْتِدَادَ الأَكْمَهِ ... فِي غَائِلاتِ الحَائِرِ المُتَهْتِهِ

قوله تعالى:{وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ }[آل عمران: ٤٩]، " أي وأحيي بعض الموتى بمشيئة الله وقدرته"(٢).

قال مقاتل:" ففعل ذلك وهم ينظرون وكان صنيعه هذا آية من الله- عز وجل- بأنه نبي ورسول إلى بني إسرائيل، فأحيا سام بن نوح بن ملك من الموت بإذن الله، فقالوا له: إن هذا سحر فأرنا آية نعلم أنك صادق"(٣).

روي عن عبدالصمد بن معقل، أنه سمع وهب بن منبه، قال: "لما صار عيسى ابن اثنتي عشرة سنة ، أوحى الله إلى أمه وهي بأرض مصر ، وكانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر : أنِ اطّلعي به إلى الشام. ففعلت الذي أمرت به. فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة ، وكانت نبوّته ثلاث سنين ، ثم رفعه الله إليه قال : وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفًا ، من أطاق منهم أن يبلغه بلغه ، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشي إليه ، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله"(٤).

قال الزمخشري:" وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده. وكرر بإذن الله دفعا لوهم من توهم فيه اللاهوتية"(٥).

قال الكلبي: "كان عيسى -عليه السلام- يحيي الأموات بـ: يا حي يا قيوم"(٦).

قال الثعلبي:" قيل: أحيا أربعة أنفس: عازر، وكان صدّيقا فأرسل أخته إلى عيسى أنّ أخاك عازر يموت فأته وكان بينه وبين داره ثلاثة أيّام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيّام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلى قبره، فانطلقت معهم إلى قبره وهو في صخرة مطبقة. فقال عيسى: اللهم ربّ السموات السّبع والأرضين السّبع، إنّك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأخبرهم أنّي أحيي الموتى بإذنك فأحيي عازر. قال: فقام عازر وودكه تقطر، فخرج من قبره وبقي وولد له.

وابن العجوز مرّ به ميّتا على عيسى -عليه السلام- على سرير يحمل فدعا الله عيسى (عليه السلام) فجلس على سريره ونزّل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقي وولد له.

والبنت العاقر، قيل له: أتحييها وقد ماتت أمس؟ فدعا الله فعاشت فبقيت وولد لها.

وسام بن نوح دعا عيسى -عليه السلام- باسم الله الأعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه. فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا ولكني دعوتك باسم الله الأعظم. قال: ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزّمان. وكان سام قد عاش خمسمائة سنة وهو شاب"(٧)، "فكلمه؛ ومات من ساعته، وأما الثلاثة الذين أحياهم عاشوا، وولد لهم"(٨).

وهذه الأخبار بصرف النظر عن إمكان وقوع ما ورد فيها، فإنها لا تعدو أن تكون من الإسرائيليات، التي وإن لم يكن عندنا ما ينفيها، فليس عندنا ما يصدقها من خبر صحيح عن

---

(١)ديوانه : ١٦٦ ، واللسان (كمه) (هرج) (تهته)، ومجاز القرآن ١ / ٩٣، وسيرة ابن هشام ٢ / ٢٣٠.

(٢) صفوة التفاسير:١٨٤.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.

(٤) أخرجه الطبري(٧٠٩٨):ص٤٣١/٦-٤٣٢.

(٥) الكشاف:٣٦٥/١.

(٦) تفسير الثعلبي:٧٣/٣.

(٧) تفسير الثعلبي:٧٢/٣-٧٣.

(٨) تفسير السمعاني:٣٢١/١.

الصادق المعصوم - صلى الله عليه وسلم -. والاكتفاء بإجمال القرآن في مثل هذه المواطن، أولى من السير وراء تفصيلات أخبار، الله أعلم بصحتها ووقوعها.

قال ابن كثير:" قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى ، عليه السلام ، السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بَهَرَت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى ، عليه السلام ، فبُعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه ، والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد ؟ وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله ، عز وجل ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدًا"[١].

قوله تعالى:{وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ }[آل عمران: ٤٩]، أي: و"أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغده"[٢].

قال مجاهد:" يعني: ما أكلتم البارحة، [و] ما خبأتم منه"[٣].

قال قتادة:" قال: أنبئكم بما تأكلون من المائدة , وما تدخرون منها , قال: وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا , فادخروا وخانوا , فجعلوا خنازير حين ادخروا , فذلك قوله تعالى: {فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين} [المائدة: ١١٥]"[٤].

قال سعيد بن جبير:" لما ترعرع عيسى جاءت به أمه إلى الكتاب، فدفعته إليه فقعد مع الصبيان، وكان يخبر الصبيان بما يأكلون، وما تدخر لهم أمهاتهم في بيوتهم"[٥].

وفي رواية ابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير:" أن عيسى كان يقول للغلام في الكتاب: إن أهلك قد خبأوا لك من الطعام كذا وكذا، فهل تطعمني منه، فهو قوله: {وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم}"[٦].

قال مقاتل:" وقال عيسى- صلى الله عليه وسلم-:أرأيتم إن أنا أخبرتكم وأنبئكم بما تأكلون في بيوتكم من الطعام فيها تقديم وما تدخرون في بيوتكم يعني وما ترفعون في غد تعلمون أني صادق. قالوا: نعم قال عيسى- صلى الله عليه وسلم-: فلان أكلت كذا وكذا، وشربت كذا وكذا، وأنت يا فلان أكلت كذا وكذا، وأنت يا فلان. فمنهم من آمن ومنهم من كفر"[٧].

وقال الكلبي:" فلما أبرأ عيسى الأكمه والأبرص وأحيى الموتى قالوا: هذا سحر، ولكن أخبرنا بما نأكل وما ندخر وكان يخبر الرجل بما أكل من غدائه وبما يأكل في عشائه"[٨].

قال الثعلبي:"وقرأ مجاهد وأيوب السختياني: {تذخرون}، بالذال المعجمة وسكونها وفتح الخاء من ذخر يذخر ذخرا"[٩].

قوله تعالى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ}[آل عمران: ٤٩]، " أي : في ذلك كله لعلامة على صدْقي فيما جئتكم به"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٥/٢.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٥/٢.
(٣) تفسير مجاهد:٢٥٣.
(٤) تفسير عبدالرزاق(٤٠٦):ص٣٩٥/١.
(٥) أخرجه ابن المنذر في تفسيره(٤٩٧):ص٢١٠/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٥٠):ص٦٥٦/٢.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.
(٨) تفسير الثعلبي:٧٣/٣.
(٩) تفسير الثعلبي:٧٣/٣.

قال مقاتل:" يعني: لعلامة لكم فيما أخبرتكم به"[٢].
قال محمد بن إسحاق:" أي: رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله إليكم"[٣].
قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[آل عمران: ٤٩]، أي:" إن كنتم مصدّقين بآيات الله"[٤].
قال سعيد بن جبير:"يعني: مصدقين"[٥].
قال مقاتل:" يعني مصدقين بعيسى بأنه رسول"[٦].
الفوائد:
١-أن عيسى-عليه السلام- قد جاء بالبينة من الله، فكل رسول الى البشر لابد أن يأتي بآية.
٢-تقييد فعل عيسى بإذن الله، فيدل أن الرسل-عليهم الصلام والسلام- لايملكون شيئا من الربوبية، لأن الربوبية حق الله الخالص الذي لايشركه فيه أحد، وفي ذلك ردّ على النصارى في زعمهم ان عيسى-عليه السلام- له حق في الربوبية، وكذبوا في ذلك فعيسى عبدالله ورسوله.
٣-إن الإيمان يحمل صاحبه على قبول الآيات التي جاءت بها الرسل، لقوله: :{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

القرآن
{وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)} [آل عمران : ٥٠]
التفسير:
وجئتكم مصدقًا بما في التوراة، ولأحلَّ لكم بوحي من الله بعض ما حرَّمه الله عليكم تخفيفًا من الله ورحمة، وجئتكم بحجة من ربكم على صدق ما أقول لكم، فاتقوا الله ولا تخالفوا أمره، وأطيعوني فيما أبلغكم به عن الله.
قوله تعالى: {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ}[آل عمران:٥٠]، "أي وجيئتكم مصدقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة"[٧].
قال محمد بن إسحاق:" أي لما سبقني منها"[٨].
قال ابن كثير:" أي : مقرر لهم ومُثَبِّت"[٩].
روي عن عبد الصمد بن معقل: "أنه سمع وهب بن منبه يقول : إن عيسى كان على شريعة موسى صلى الله عليه وسلم ، وكانَ يسبت ، ويستقبل بيت المقدس ، فقال لبني إسرائيل : إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة ، إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، وأضع عنكم من الآصار"[١٠].
قوله تعالى:{ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}[آل عمران:٥٠]، "أي ولأحلّ لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى"[١١].
قال محمد بن جعفر بن الزبير:" أي : أخبركم أنه كان حرامًا عليكم فتركتموه ، ثم أحله لكم تخفيفًا عنكم ، فتصيبون يُسْرَه ، وتخرجون من تِباعَته"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٥/٢.[بتصرف].
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.
(٣)أخرجه ابن المنذر في تفسيره(٤٩٩):ص٢١١/١.
(٤)صفوة التفاسير:١٨٥.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٥٤):ص٦٥٧/٢.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.
(٧) صفوة التفاسير:١٨٥.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٥٥):ص٦٥٧/٢.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٥/٢.
(١٠)أخرجه الطبري(٧١١١):ص٤٣٨/٦.
(١١) صفوة التفاسير:١٨٥.

قال مقاتل:" من اللحوم والشحوم وكل ذي ظفر والسمك فهذا البعض الذي أحل لهم غير السبت فإنهم يقومون عليه فوضع عنهم في الإنجيل ذلك"[٢].

قال ابن كثير:" فيه دلالة على أن عيسى ، عليه السلام ، نسَخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئًا ، وإنما أحَلّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا ، فكشف لهم عن المغطى في ذلك ، كما قال في الآية الأخرى : { وَلأبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ } [الزخرف : ٦٣]"[٣].

قال الحسن:" : كان حرّم عليهم أشياء ، فجاءهم عيسى ليحلّ لهم الذي حرّم عليهم ، يبتغي بذلك شُكْرهم"[٤].

قال قتادة:" كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى ، وكان قد حُرّم عليهم فيما جاء به موسى لحومُ الإبل والثُّروب[٥]، وأشياء من الطير والحيتان"[٦].

قال الربيع:" كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى. قال: كان حرم عليهم فيما جاء به موسى من التوراة: لحوم الإبل، والثروب، فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرمت عليهم أشياء من الطير مالا صيصة له، في الإنجيل، فكان الذي جاء به عيسى ألين مما جاءهم به موسى"[٧].

قال ابن جريج:" : لحوم الإبل والشحوم. لما بُعث عيسى أحلّها لهم ، وبُعث إلى اليهود فاختلفوا وتفرّقوا"[٨].

قال الزجاج:" قال أبو عبيدة: معنى: {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم}، قال معناه: كل الذي حرم عليكم، وهذا مستحيل في اللغة وفي التفسير"[٩].

قوله تعالى: {وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}[آل عمران:٥٠]، "أي وجئتكم بعلامة من عند ربكم، شاهدة على صحة رسالتي"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم"[١١].

قال مقاتل:أي:" بعلامة من ربكم يعني العجائب التي كان يصنعها الله"[١٢].

قال مجاهد:" ما بيَّن لهم عيسى من الأشياء كلها ، وما أعطاه ربه"[١٣].

قال الطبري:أي:" وجئتكم بحجة وعبرة من ربكم ، تعلمون بها حقيقة ما أقول لكم"[١٤].

قال الزجاج:" أي لم احل لكم شيئا بغير برهان، فهو حق عليكم اتباعي لأني أنبئكم ببرهان، وتحليل طيبات كانت حرمت عليكم"[١٥].

قال البغوي:" يعني: ما ذكر من الآيات، وإنما وحدها لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته"[١٦].

---

(١)أخرجه الطبري(٧١١٥):ص٦/٤٤٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.
(٣)تفسير ابن كثير:٤٥/٢.
(٤)أخرجه الطبري(٧١١٦):ص٦/٤٤٠.
(٥)أي الشحم الرقيق.
(٦)أخرجه الطبري(٧١١٢):ص٦/٤٣٨.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٥٧):ص٢/٦٥٧-٦٥٨.
(٨)أخرجه الطبري(٧١١٤):ص٦/٤٣٩.
(٩) معاني القرآن:٤١٥/١.
(١٠) صفوة التفاسير:١٨٥، وتفسير الطبري:٤٤١/٦.
(١١) تفسير ابن كثير:٤٥/٢.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.
(١٣) أخرجه الطبري(٧١١٧):ص٦/٤٤٠.
(١٤) تفسير الطبري:٤٤٠/٦.
(١٥) معاني القرآن:٤١٥/١.
(١٦) تفسير البغوي:٤٤٣/١.

قال الزمخشري:" وقرأ عبد الله. وجئتكم بآيات من ربكم"(١).

قوله تعالى:{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }[آل عمران:٥٠]،" أي خافوا الله وأطيعوا أمري"(٢).

قال ابن عطية:" تحذير ودعاء إلى الله تعالى"(٣).

قال مقاتل:"يعني: فوحدوا الله وأطيعون فيما آمركم به من النصيحة فإنه لا شريك له"(٤).

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، في قوله:{فاتقوا الله}، قال:"يعني: المؤمنين، يحذرهم"(٥).

قال الزمخشري:أي:" فاتقوا الله لما جئتكم به من الآيات، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه"(٦).

الفوائد:

١-أن عيسى ابن مريم جاء بما يصدق به التوراة، فشاهد صدق التوراة بأنه حق، كما انه مطابق لما أخبر به عيسى-عليه السلام-.

٢-جواز النسخ في الشرائع، لقوله: :{ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}.

٣-تكرار الأمور الهامة لقوله: {وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}.

٤-إن الطاعة مشترك بين الرسل وبين الله عزّ وجل، وأما التقوى فهي خاصة بالله، لقوله: :{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }.

٥-أن التقوى واجبة في كل شريعة ولكن المتقى به قد يختلف باختلاف الشرائع، قال: { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } [المائدة : ٤٨]

القرآن

{إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)} [آل عمران : ٥١]

التفسير:

إن الله الذي أدعوكم إليه هو وحده ربي وربكم فاعبدوه، فأنا وأنتم سواء في العبودية والخضوع له، وهذا هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ}[آل عمران:٥٠]، أي: إن الله ربي وربكم "فاجعلوا عبادتكم له وحده"(٧).

قال النسفي:" إقرار بالعبودية ونفي للربوبية عن نفسه بخلاف ما يزعم النصارى"(٨).

قال المراغي:" وهذا أمر لهم بالاعتقاد الحق وهو التوحيد، ثم بملازمة الطاعة بالقيام بأداء ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه"(٩).

قال ابن كثير:" أي : أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه"(١٠).

قال أبو زهرة:" أي أن الله تعالى خلقني وهو الذي يربني ويكلؤني ويحييني، وهو أيضا الذي خلقكم وينميكم ويكلؤكم ويحييكم، وإذا كان كذلك فحق علينا أن نعبده وحده ولا نشرك به أحدا سواه، فإن العبادة تكون شكرا لهذه النعمة، وقياما بحقها، وصلاحا لأمر الناس في هذه الدنيا"(١١).

---

(١) الكشاف:٣٦٥/١.
(٢) صفوة التفاسير:١٨٥.
(٣) المحرر الوجيز:٤٤١/١.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٧/١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٥٩):ص٦٥٨/٢.
(٦) الكشاف:٣٦٥/١.
(٧) التفسير الوسيط:٥٧٣/١.
(٨) تفسير النسفي:٢٥٧/١.
(٩) تفسير المراغي:١٦٥/٣.
(١٠) تفسير ابن كثير:٤٥/٢.
(١١) زهرة التفاسير:١٢٣٤/٣.

قال الراغب:" لما وصف عيسى نفسه بأفعال إلهية، وأتى على ما ذكر، وكان قد قال:{وأطيعون} خطر له ما فعلته جماعة من النصارى، وهو اتخاذهم إياه معبودهم، فقال:{إن الله ربي وربكم}، ولم يقل: ربنا، ليكون أبعد من التأويل فيما ادعوه، وأمر بأن يعبد الله وحده"[١].

وقرئ {أَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ}، بفتح الالف، قال الطبري:«إن» بدل من «آية» ، في قوله {جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ}[٢] ، وضعفه ابن عطية[٣].

قوله تعالى:{ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[آل عمران:٥٠]، " أي: هذا طريق الدين مستويا"[٤].

قال السمعاني:" أي: طريق واضح"[٥].

قال المراغي:" أي هذا الذي أمرتكم به هو الطريق السوىّ الذي أجمع عليه الرسل قاطبة، وهو الموصل إلى خيرى الدنيا والآخرة"[٦].

قال الصابوني:" أي فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه"[٧].

قال الراغب: "وقال:{ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}، تنبيها أن العدول عن ذلك ليس بالمستقيم"[٨].

الفوائد:

١-عموم ربوبية الله للبشر، لقوله:{ربي وربكم}، وربوبية الله ثابتة لكل السماوات والأرض ومن فيهن، قال: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ} [الرعد : ١٦].

٢-أن عيسى مربوب وليس ربّا، لقوله:{ربي وربكم}.

٣-الرد على النصارى في دعواهم أن الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة : ٧٣].

٤-وجوب العبادة لله تعالى وحده، وأن الإقرار بالربوبية مستلزم للإقرار بالعبودية، لقوله:{فاعبدوه}.

٥-أن الصراط المستقيم عبادة الله، لقوله:{ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}، وعبادة الله هي اتباع شرعه المرسل سبحانه وتعالى.

القرآن

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)} [آل عمران : ٥٢]

التفسير:

فلما استشعر عيسى منهم التصميم على الكفر نادى في أصحابه الخُلَّص: مَن يكون معي في نصرة دين الله؟ قال أصفياء عيسى: نحن أنصار دين الله والداعون إليه، صدَّقنا بالله واتبعناك، واشهد أنت يا عيسى بأنا مستسلمون لله بالتوحيد والطاعة.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ}[آل عمران:٥٢]، "أي استشعر عيسى من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال"[٩].

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٨١/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٤٤١/٦-٤٤٢.
(٣) انظر: المحرر الوجيز:٤٤١/١.
(٤) معاني القرآن للزجاج:٤١٦/١.
(٥) تفسير السمعاني:٣٢٢/١.
(٦) تفسير المراغي:١٦٥/٣.
(٧)صفوة التفاسير:١٨٥.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٨١/٢.
(٩) صفوة التفاسير:١٨٧.

قال الطبري:أي:" : فلما وَجد عيسى - من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم - جحودًا لنبوّته ، وتكذيبًا لقوله ، وصدًّا عما دعاهم إليه من أمر الله "[١].

قال ابن كثير:" أي : استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال"[٢].

قال ابن جريج:" كفروا وأرادوا قتله فذلك حين استنصر قومه فذلك حين يقول: {فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} [الصف : ١٤] }[٣]"[٤].

قال الزجاج:" معنى أحس فى اللغة علم ووجد، ويقال هل أحست في معنى هل أحسست ويقال حسيت بالشيء إذا علمته وعرفته"[٥].

و"الإحساس"، هو الوجود ، ومنه قول الله عز وجل : {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ }[سورة مريم : ٩٨].

فأما "الحَسُّ"، بغير"ألف"، فهو الإفناء والقتل، ومنه قوله: {إذ تحسونهم بإذنه}[سورة آل عمران : ١٥٢].

و"الحَسُّ" أيضًا العطف والرقة ، ومنه قول الكميت[٦]:

هَلْ مَنْ بَكَى الدَّارَ رَاجٍ أَنْ تَحِسَّ لَهُ ... أَوْ يُبْكِيَ الدَّارَ مَاءُ العَبْرَةِ الخَضِلُ؟

يعني بقوله : أن تحس له، أن ترقّ له[٧].

قوله تعالى: {قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}[آل عمران:٥٢]، "أي: قال: من أنصاري في الدعوة إلى الله"[٨].

وفي قوله تعالى: {قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}[آل عمران:٥٢]، أربعة أقوال:

أحدها:أنه: يعني من أنصاري مع الله. قاله السدي [٩]، وابن جريج [١٠]، وسفيان الثوري[١١].

قال الزجاج:" و (إلى) ههنا إنما قاربت (مع)معنى بأن صار اللفظ لو عبر عنه بـ " مع " أفاد مثل هذا المعنى، لا أن (إلى) في معنى " مع ""[١٢].

والثاني: أن المعنى: من أنصاري في السبيل إلى الله. وهذا قول الحسن[١٣] .

والثالث:أن معناه: من يتبعني إلى الله. قاله مجاهد[١٤].

والرابع: أن معناه: من ينصرني إلى نصر الله. قاله الماوردي[١٥].

قال ابن كثير:" وقول مجاهد أقربُ، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله ؟ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج ، قبل أن يهاجر : "مَنْ رَجُل يُؤْوِيني عَلى أن أبلغ كلامَ رَبِّي ، فإنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُوني أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي" [١٦]، حتى وجد الأنصار

---

(١) تفسير الطبري:٤٤٣/٦.
(٢) تفسير ابن كثير:٤٦/٢.
(٣) سورة الصف:١٤.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٦٤):ص٦٥٩/٢.
(٥) معاني القرآن:٤١٦/١.
(٦)معاني القرآن للفراء ١ : ٢١٧ ، ومجالس ثعلب : ٤٨٦ ، وإصلاح المنطق : ٢٤٠ ، واللسان (حسس). والخضل : المتتابع الدائم الكثير الهمول.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٤٤٢/٦-٤٤٣.
(٨) صفوة التفاسير:١٨٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧١٢٠):ص٤٤٤/٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧١٢١):ص٤٤٤/٦.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٦٦):ص٦٥٩/٢.
(١٢) كعاني القرآن:٤١٦/١.
(١٣) انظر: النكت والعيون:٣٩٦/١.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٦٥):ص٦٥٩/٢.
(١٥) انظر: النكت والعيون:٣٩٦/١.
(١٦)رواه أحمد في المسند (٣٢٢/٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

فآووه ونصروه ، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم ، انْتَدَبَ له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه"(١).

قوله تعالى: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ}[آل عمران:٥٢]، "أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله"(٢).

قال محمد بن إسحاق:" هذا قولهم الذي أصابوا الفضل من ربهم"(٣).

قال الماوردي:"وأصل الحواري : الحَوَر وهو شدة البياض ، ومنه الحواري من الطعام لشدة بياضه ، والحَوَر نقاء بياض العين "(٤).

واخْتُلِف في تسميتهم بالحواريين على أقاويل :

أحدها : انهم سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم، وهذا قول ابن عباس(٥)، وسعيد بن جبير(٦)، ومسلم البطين(٧).

والثاني : أنهم كانوا قصَّارين يبيضون الثياب ، وهذا قول ابن أبي نجيح (٨)، والضحاك(٩) في -أحد قوليه.

والثالث : أنهم خاصة الأنبياء وصفوتهم، سموا بذلك لنقاء قلوبهم ، وهذا قول قتادة(١٠)-في أحد قوليه-، والضحاك(١١)، ورجّحه الزجاج(١٢).

والرابع: ان الحواري: الناصر. قاله سفيان بن عيينة(١٣).

والخامس: أن الحواري: الوزير. قاله قتادة(١٤).

قال الطبري:" وأشبه الأقوال في معنى "الحواريين"، قولُ من قال: " سموا بذلك لبياض ثيابهم، ولأنهم كانوا غسّالين"(١٥).

قال ابن كثير:"والصحيح أن الحواري الناصر ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نَدبَ الناس يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدَبَ الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًا وَحَوَارِيي الزُّبَيْرُ»(١٦)"(١٧).

واختلفوا في سبب استنصار المسيح بالحواريين على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه استنصر بهم طلباً للحماية من الكفار الذين أرادوا قتله حين أظهر دعوته. وهذا قول مجاهد(١٨).

والثاني : أنه استنصر بهم ليتمكن من إقامة الحجة وإظهار الحق. وهذا معنى قول السدي(١)، والحسن(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٦/٢.
(٢) صفوة التفاسير:١٨٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٧٤):ص٦٦٠/٢.
(٤) النكت والعيون:٣٩٦/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٦٨):ص٦٥٩/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧١٢٤):ص٤٤٥/٦.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٦٨):ص٦٥٩/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧١٢٥):ص٤٤٦/٦.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٦٩):ص٦٥٩/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧١٢٦):ص٤٤٦/٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧١٢٧):ص٤٤٦/٦.
(١٢) انظر: معاني القرآن:٤١٦/١.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٧١):ص٦٦٠/٢.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٧٣):ص٦٦٠/٢.
(١٥) تفسير الطبري:٤٤٦/٦.
(١٦) تفسير ابن كثير:٤٦/٢.
(١٧)صحيح البخاري برقم (٣٧١٩) وصحيح مسلم برقم (٢٤١٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٧١٢٣):ص٤٤٥/٦.

والثالث : لتمييز المؤمن الموافق من الكافر المخالف .أفاده الماوردي(٣).
قوله تعالى: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[آل عمران:٥٢]، أي:" صدقنا بالله، واشهد أنتَ يا عيسى بأننا مسلمون"(٤).
قال محمد بن إسحاق:"{واشهد بأنا مسلمون}، لا ما يقول هؤلاء الذين يحاجونك فيه"(٥).

الفوائد:

١-عتو بني إسرائيل، واهم مع هذه الآيات العظيمة التي جاء بها عيسى-عليه السلام- لم يؤمنوا منهم احد.
٢-فضيلة الإخلاص، والصفوة المخلصين في الدعوة الى الدين.
٣-ينبغي للانسان أن يعلن اتباعه للرسول بين أئمة الكفر حتى لا يداهن في دين الله، لأن المداهنة في دين الله والتقية نفاق في الواقع.
٤-ومن فوائد الآية: أن النصارى مسلمون لقوله:{واشهد بأنا مسلمون}، إلا أنهم مسلمون بالمعنى العام، وذلك ان كل انسان متبع لرسول شرعه قائم فهو مسلم، وأما إذا وجد ما ينسخه فلايسمى مسلما إلا إذا اتبع الشرع الجديد.

القرآن

{رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)} [آل عمران : ٥٣]

التفسير:

ربنا صدَّقنا بما أنزلت من الإنجيل، واتبعنا رسولك عيسى عليه السلام، فاجعلنا ممن شهدوا لك بالوحدانية ولأنبيائك بالرسالة، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون للرسل بأنهم بلَّغوا أممهم.
قوله تعالى: {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ}[آل عمران:٥٣]، أي: ربنا صدّقنا بما أنزلت على نبيّك عيسى من كتابك"(٦).
قال الماتريدي:" يعني - والله أعلم -: بما أنزلت من الكتب السماوية التي أنزلها على الرسل جميعا، فإن أرادوا بما أنزلت على عيسى - عليه السلام - فالإيمان بواحد من الكتب أو بواحد من الرسل: إيمان بالكتب كلها وبالرسل جميعا"(٧).
قوله تعالى: { وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ }[آل عمران:٥٣]، : أي:"صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به"(٨).
قال محمد بن إسحاق:" أي هكذا كان قولهم وإيمانهم"(٩).
قوله تعالى: { فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ }[آل عمران:٥٣]، " أي: فاكتبنا مع الذين شهدوا للأنبياء بالتصديق"(١٠).
أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس:"{ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}: أمة محمد صلى الله عليه وسلم"(١١).

---

(١)انظر: تفسير الطبري(٧١٢٢):ص٦/٤٤٤-٤٤٥.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧١٢٢):ص٦/٤٤٥.
(٣) انظر: النكت والعيون:١/٣٩٦.
(٤) تفسير الطبري:٦/٤٥١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٧٥):ص٢/٦٦٠.
(٦)تفسير الطبري:٦/٤٥٣.
(٧) تفسير الماتريدي:٢/٣٨١.
(٨)تفسير الطبري:٦/٤٥٣.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٧٦):ص٢/٦٦٠.
(١٠) معاني القرآن للزجاج:١/٤١٨.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٧٧):ص٢/٦٦٠. قال ابن كثير وهذا إسناد جيد:٢/٤٦.

وفي رواية ابن المنذر عن ابن عباس:" مع محمد وأمته إنهم شهدوا له أنه بلغ، وشهدوا للرسل أنهم بلغوا "[(١)].

ونقل الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس :"{ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}:مع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم"[(٢)].

قال الطبري:أي:" فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق ، وأقرُّوا لك بالتوحيد ، وصدّقوا رسلك ، واتبعوا أمرك ونهيك ، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك ، وأحِلّنا محلهم ، ولا تجعلنا ممن كفر بك ، وصدَّ عن سبيلك ، وخالف أمرك ونهيك"[(٣)].

قال الزجاج:" وحقيقة الشاهد أنه الذي يبين تصحيح دعوى المدعي، فالمعنى صدقنا بالله واعترفنا بصحة ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وثبتنا، فاكتبنا مع من فعل فعلنا"[(٤)].

الفوائد:

١-فضيلة الحواريين في لجوئهم إلى الله تعالى، إذ قالوا:{ربنا آمنا بما انزلت}.

٢-التوسل الى الله تعالى بربوبيته، لأن الربوبية تدور على ثلاثة اشياء، وهي: الخلق، والملك، والتدبير، وإجابة الدعاء داخل في هذه الثلاثة.

٣-شمولية الإيمان لكل ما انزل الله، لقوله:{ربنا آمنا بما انزلت}.

٤-الإشارة الى تحريف التوراة، يتبيّن ذلك من احتراز الحواريين في قولهم:{بما أنزلت}، إذ لم يطلقوا الإيمان مثلا بالتوراة، وذلك لتحريفها بيد اليهود.

٥-ان الإيمان لابدّ له من اتباع، لقوله:{واتبعنا الرسول}، ولذلك يقرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح في آيات كثيرة في القران الكريم.

٦-فضيلة صحبة الأخيار لقوله، {فاكتبنا مع الشاهدين}، لذلك يجب على الانسان أن يختار من الجلساء أصلهم، لأن الجليس الصالح كله خير، والجليس السوء كله شر.

القرآن

{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)} [آل عمران : ٥٤]

التفسير:

ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، بأن وكَّلوا به من يقتله غِيْلة، فألقى الله شَبَه عيسى على رجل دلَّهم عليه فأمسكوا به، وقتلوه وصلبوه ظناً منهم أنه عيسى عليه السلام، والله خير الماكرين. وفي هذا إثبات صفة المكر لله -تعالى- على ما يليق بجلاله وكماله; لأنه مكر بحق، وفي مقابلة مكر الماكرين.

قوله تعالى: { وَمَكَرُوا}[آل عمران : ٥٤]، أي:" ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل"[(٥)].

قال ابن أبي زمنين:أي:" مكروا بقتل عيسى"[(٦)].

قال الطبري:" وكان مكرهم الذي وصفهم الله به ، مُواطأة بعضهم بعضًا على الفتك بعيسى وقتْله"[(٧)].

قال ابن عباس:" يريد: أن عامة بني إسرائيل كفروا به، وهموا بقتله، وتواطئوا على الفتك به، فذلك مكرهم به"[(٨)].

---

(١) تفسير ابن المنذر(٥٢١):ص١/٢١٨.
(٢) أخرجه ابن المنذر (٥٢٢):ص١/٢١٨.
(٣)تفسير الطبري:٦/٤٥٣.
(٤) معاني القرآن:١/٤١٨.
(٥) تفسير الطبري:٦/٤٥٣.
(٦) تفسير ابن أبي زمنين:١/٢٩٠.
(٧) تفسير الطبري:٦/٤٥٣.
(٨) نقله عنه الواحدي في التفسير البسيط:٥/٢٩٨، وأورد معناه ابن الجوزي في زاد المسير:١/٣٩٥، ولم اقف على مصدر القول.

قال الماتريدي:أي:" مكروا بنبي الله عيسى - عليه السلام - حيث كذبوه وهموا بقتله"[١].
قال الواحدي:" أصل "المكر" في اللغة: السعي في الفساد في خفية، ومداجاة"[٢].
قال الزجاج: يقال: "مكر الليل، وأمكر": إذا أظلم"[٣].
قوله تعالى: { وَمَكَرَ اللَّهُ}[آل عمران : ٥٤]، أي:" ومكر الله بهم فأهلكهم، ورفع عيسى إليه"[٤].
قال أبو عبيدة: يعني"أهلكهم الله"[٥].
قال السمرقندي:" أي جازاهم جزاء المكر"[٦].
قال الزمخشري: وذلك" أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل"[٧].
قال عبدالقاهر الجرجاني:أي:" صونه عيسى عن بأسهم وصرفه الشرّ إليهم في الدنيا والآخرة من حيث لا يشعرون، وإنما قيل: {خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} لأن إيصال الشر ما يمدح وذلك إذا كان مع العدو من غير غدر وخيانة، فالله متصف به خير الماكرين"[٨].
قال مقاتل:" وذلك أن كفار بني إسرائيل عمدوا إلى رجل فجعلوه رقيبا على عيسى ليقتلوه فجعل الله شبه عيسى على الرقيب فأخذوا الرقيب فقتلوه وصلبوه، وظنوا أنه عيسى، ورفع الله- عز وجل- عيسى إلى سماء الدنيا من بيت المقدس، ليلة القدر في رمضان، فذلك قوله- سبحانه-: {ومكروا} بعيسى ليقتلوه يعني اليهود {ومكر الله} بهم حين قتل رقيبهم وصاحبهم"[٩].
قال السدي:" ثم إن بني إسرائيل حَصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريِّين في بيت ، فقال عيسى لأصحابه : من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة ؟ فأخذها رجل منهم ، وصُعِد بعيسى إلى السماء ، فذلك قوله : {ومكرُوا ومكر الله والله خير الماكرين}، فلما خرج الحواريون أبصرُوهم تسعة عشر ، فأخبروهم أن عيسى قد صُعد به إلى السماء ، فجعلوا يعدّون القوم فيجدُونهم ينقصون رجلا من العِدّة ، ويرون صورةَ عيسى فيهم ، فشكُّوا فيه. وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم يُرَوْن أنه عيسى وصَلبوه ، فذلك قول الله عز وجل:{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ }[سورة النساء : ١٥٧]"[١٠].
ونقل الثعلبي عن ابن عباس:"إنّ ملك بني إسرائيل أراد قتل عيسى، وقصده أعوانه. فدخل خوخة فيها كوّة، فرفعه جبرئيل من الكوّة إلى السماء. فقال الملك: لرجل منهم خبيث أدخل عليه فاقتله فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى فخرج إلى النّاس فخبرّهم أنّه ليس في البيت فقتلوه وصلبوه وظنّوا أنّه عيسى"[١١].

---

(١) تفسير الماتريدي:٣٨١/٣.
(٢) التفسير البسيط:٢٩٨/٥، وانظر: مادة: "مكر" في: كتاب العين: ٥/ ٣٧٠، وتهذيب اللغة: ٤/ ٣٤٣٤، واللسان: ٧/ ٤٢٤٧، والتاج: ٧/ ٤٩٣-٤٩٤، و"المداجاة": من: داجى الرجل: ساتره بالعداوة، وأخفاها عنه، فكأنه أتاه في الظلمة. والمداجاة: المداراة، و"داجيتة": داريته، وكأنك ساترته العداوة، انظر: اللسان، مادة:"دجا":ص ٣/ ١٣٣٢.
(٣) نقله عنه الواحدي والسمين الحلبي، انظر: التفسير البسيط:٢٩٨/٥، والدر المصون:٢١٢/٣، ولم أقف على مصدره.
(٤) تفسير ابن أبي زمنين:٢٩٠/١.
(٥) أخرجه ابن المنذر(٥٢٥):ص٢٢٠/١.
(٦) تفسير السمرقندي:٢١٧/١.
(٧) الكشاف:٣٦٦/١.
(٨) درج الدرر في تفسير الآي والسور:٤٩٢/٢.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٨/١.
(١٠) أخرجه الطبري(٧١٣٢):ص٤٥٤/٦.
(١١) تفسير الثعلبي:٧٩/٣.

وفي المعنى نفسه نقل الواحدي عن ابن عباس:" وذلك أن أحد الإنجيلية ممن آمن به، نافق، فدل عليه، فجعله الله تعالى في سورة عيسى، فأخذ فصلب"(١).

قال أهل التواريخ: "حملت مريم بعيسى ولها ثلاثة عشر سنة ودارت بعيسى بيت اللحم من أرض أورشليم لمضي خمسة وستين سنة من غلبة الإسكندر على أرض بابل، ولإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الكلدانيين وأوحى الله عز وجلّ لأمّه على رأس ثلاثين سنة، ورفعه إليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاثين سنة وكانت نبوّته ثلاث سنين، وعاشت أمّه مريم بعد رفعه ستّ سنين"(٢).

قال ابن الجوزي:" قال سعيد بن المسيب: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. وقال مقاتل: رفع من بيت المقدس ليلة القدر في رمضان. وقيل: عاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين. ويقال: ماتت قبل رفعه"(٣).

وفي قوله تعالى :{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ}[آل عمران:٥٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم مكروا بالمسيح عليه السلام بالحيلة عليه في قتله، ومكر الله في ردهم بالخيبة لإلقاء شبه المسيح على غيره ، وهو معنى قول السدي(٤)، ومحمد بن إسحاق(٥).

الثاني: مكروا بإضمار الكفر ، ومكر الله بمجازاتهم بالعقوبة. وهذا معنى قول الفراء(٦).

الثالث: أن مكره بهم أن سلط عليهم فارس، فقتلوهم، وسبوا ذراريهم، لقوله: { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا} [الإسراء : ٥]. قاله الأصم(٧).

قال الزجاج:" المكر من الخلائق خب وخداع، والمكر من الله المجازاة على ذلك فسمي باسم ذلك لأنه مجازاة عليه كما قال - عز وجل:{الله يستهزئ بهم}، فجعل مجازاتهم على الاستهزاء بالعذاب، لفظه لفظ الاستهزاء، وكما قال جل وعز: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى : ٤٠] فالأولى سيئة والمجازاة عليها سميت باسمها، وليست في الحقيقة سيئة.

وجائز أن يكون مكر الله استدراجهم من حيث لا يعلمون لأن الله سلط عليهم فارس فغلبتهم وقتلتهم، والدليل على ذلك قوله عز وجل:{الم (١) غلبت الروم (٢) في أدنى الأرض(٣)}[الروم:١-٣].

وقيل في التفسير أيضا إن مكر الله بهم كان في أمر عيسى أنه - صلى الله عليه وسلم - كان في بيت فيه كوة فدخل رجل ليقتله، ورفع عيسى من البيت وخرج الرجل في شبهه يخبرهم أنه ليس في البيت فقتلوه.

وجملة المكر من الله مجازاتهم على ما فعلوا"(٨).

قال الواحدي:" قال أهل المعاني: المكر من المخلوقين: خب وخداع، وهو من الله: استدراجه العباد، قال الله تعالى: { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف : ١٨٢] و[القلم:٤٤]، قال ابن عباس في تفسيره: كلما أحدثوا خطيئة، جددنا لهم نعمة، وليس المراد بـ {مكر الله} في هذه الآية، هذا الوجه. ووجه {مكر الله} بهم في هذه القصة، ما قال الزجاج"(٩).

قال الماوردي: وإنما جاز قوله:{وَمَكَرَ اللَّهُ} على مزواجة الكلام وإن خرج عن حكمه ، نحو قوله:{فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[البقرة : ١٩٤]، وليس الثاني

---

(١) التفسير البسيط:٣٠٠/٥.
(٢) تفسير الثعلبي:٨٠/٣.
(٣) زاد المسير:٢٨٧/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧١٣٢):ص٤٥٤/٦.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٧٤):ص٦٦١/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن المنذر(٥٢٦):ص٢٢١/١، فقال:" والله أعلم: إن المكر من الله، إنما هو استدراجه العباد، وليس على مكر المخلوقين، يعني الخديعة والخبء ".
(٧) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني:٥٩٠/٢.
(٨) معاني القرآن:٤١٩/١.
(٩) التفسير البسيط:٢٩٩/٥.

اعتداءً ، وأصل المكر : الالتفاف ، ولذلك سمي الشجر الملتف مكراً ، والمكر هو الاحتيال على الإنسان لالتفاف المكروه به، والفرق بين المكر والحيلة أن الحيلة قد تكون لإظهار ما يعسر من غير قصد إلى الإضرار ، والمكر : التوصل إلى إيقاع المكروه به"(١).

قال الراغب:" المكر في الأصل: حيلة يجلب بها الإنسان إلى مفسدة. وحيلة قد تقال فيما يجلب به إلى مصلحة، وقد يقال في ذلك المكر والخديعة اعتبارا بظاهر الفعل دون المقصد، والحكيم قد يفعل ما صورته صورة المكر، ولكن قصده المصلحة لا المفسدة هذا سئل بعض المحققين عن مكر الله فأنشد(٢):

وَيُقَبِّحُ مِنْ سِوَاك الفِعْل عِنْدِي ... وَتَفْعَلُهُ فَيُحْسِنُ مِنْك ذاكا

فإذن مكر الله قد يكون تارة فعلا يقصد به مصلحة، ويكون تارة جزاء المكر، ويكون تارة بأن لا يقبح مكرهم في عينهم، وذاك بانقطاع التوفيق عنهم وتزيين ذلك في أعينهم، حتى كأنه زينه في أعينهم ومكر بهم، ويكون تارة بإعطائهم ما يريدون من دنياهم. فإذا أعطاهم واستعملوه على غير ما يحب، فكأنه مكر بهم، واستدرجهم من حيث لا يعلمون"(٣).

قوله تعالى: { وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }[آل عمران : ٥٤]، أي: والله:" أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب"(٤).

قال مقاتل:" يعني: أفضل مكرا منهم"(٥).

قال الثعلبي:" أي أفضل المعاقبين"(٦).

قال الواحدي:" أي: أفضل المجازين بالسيئة العقوبة"(٧).

قال ابن عثيمين:أي:" ما من أحد يمكر إلا ومكر الله فوقه وخير منه"(٨).

قال الماتريدي:" أي: خير الجازين أهل الجور بالعدل، وأهل الخير بالفضل.. والمكر: هو الأخذ بالغفلة، والله يأخذهم بالحق من حيث لا يعلمون؛ فسمي مكرا لذلك؛ كما يقال: امتحنه الله وهو الاستظهار، ولكن لا يراد به هذا في حق الله"(٩).

الفوائد:

١-كيد ومكر أعداء الرسل للرسل وأتباعهم، لقوله:{ومكروا}.

٢-لايوصف الله بالمكر على سبيل الاطلاق، بل يقال: إن الله يمكر بمن يمكر به، ليعود المكر صفة كمال، لأن المكر إذا ذكر مطلقا صار محتملا للنقص، فإذا ذكر مقيدا بأن قيل: إن الله يمكر بمن يمكر به وبأوليائه، صار صفة كمال تدل على قوة الله عزّ وجل وإحاطة علمه، وأن علمه ادق من علم هؤلاء الماكرين على عباد الله بالأسباب الخفية والطرق الملتوية.

القرآن

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)} [آل عمران : ٥٥]

---

(١) النكت والعيون:٣٩٦/١.

(٢) لم اتعرف على قائله، وانظر البيت في إفحام المخاصم لشيث بن إبراهيم: ٣٩، وتفسير الثعلبي:٧٩/٣، ومحاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني:٥٣١/١، وتفسير الراغب الأصفهاني:٥٨٨/٢، ومصادر أخرى، والبيت منسوب لسمنون في شرح المشكاة للطيبي:١٧٨٩/٦.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٨٧/٢-٥٨٩.

(٤) الكشاف:٣٦٦/١.

(٥)تفسير مقاتل بن سليان:٢٧٨/١.

(٦) تفسير الثعلبي:٨٠/٣.

(٧) التفسير البسيط:٣٠١/٥.

(٨) تفسير ابن عثيمين:٣٢١/١.

(٩) تفسير الماتريدي:٣٨٢/٣.

التفسير:

ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى: إني قابضك من الأرض من غير أن ينالك سوء، ورافعك إليَّ ببدنك وروحك، ومخلصك من الذين كفروا بك، وجاعل الذين اتبعوك -أي على دينك وما جئت به عن الله من الدين والبشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمَنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، بعد بعثته، والتزموا شريعته- ظاهرين على الذين جحدوا نبوتك إلى يوم القيامة، ثم إليّ مصيركم جميعًا يوم الحساب، فأفصِل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمر عيسى عليه السلام.

قوله تعالى:{ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}[آل عمران:٥٥]، أي:" إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ"[١].

قال الحسن:" رفعه إليه وهو عنده في السماء"[٢].

وقد اختلف المفسرون في معنى "التوفي" في قوله: { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}[آل عمران:٥٥]، على أقوال:

أحدها : أن معناه: إني قابضك برفعك إلى السماء من غير وفاة بموت، وهذا قول الحسن[٣]، وابن جريج[٤]، وابن زيد[٥]، والكلبي[٦]، ومطر الورّاق[٧]، ومحمد بن جعفر بن الزبير[٨].

قال الثعلبي:" يدل عليه قوله فلما {تَوَفَّيْتَنِي } [المائدة : ١١٧]، أي: قبضتني إلى السماء وأنا حي، لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه لا بعد موته. وعلى هذا القول للتوفي تأويلان:

أحدهما: إني رافعك إلي وافيا لن ينالوا منك. من قولهم: توفيت كذا واستوفيته أي أخذته تاما[٩].

والآخر: إني مسلمك، من قولهم: توفيت منه كذا أي سلمته"[١٠].

والثاني : متوفيك وفاة نوم للرفع إلى السماء ، وهذا قول الربيع[١١].

والمعنى:" ورافعك وأنت نائم، حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب"[١٢].

ورجّحه ابن كثير، فقال:" وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا : النوم ، كما قال تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ [وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام : ٦٠] وقال تعالى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر : ٤٢] وكان رسول الله صلى الله عليه

---

(١) تفسير الطبري:٤٥٨/٦، وانظر: تفسير الطبري(٧١٤٤)-٧١٤٥):ص٤٥٨/٦-٤٥٩.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٨٤):ص٦٦١/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٧١٣٥):ص٤٥٦/٦،و(٧١٤٠):ص٤٥٧/٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٧١٣٦):ص٤٥٧/٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٧١٣٩):ص٤٥٧/٦.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٨١/٣.

(٧)انظر: تفسير الطبري(٧١٣٤):ص٤٥٦/٦، وتفسير الثعلبي:٨١/٣.

(٨)انظر: تفسير الطبري(٧١٣٩):ص٤٥٧/٦، وتفسير الثعلبي:٨١/٣.

(٩) نقل ابن الجوزي عن ابن قتيبة:" التوفي، من استيفاء العدد يقال:
توفيت، واستوفيت، كما يقال: تيقنت الخبر، واستيقنته، ثم قيل للموت: وفاة، وتوف. وأنشد أبو عبيدة:
إن بني الأدرد ليسوا من أحد   ليسوا إلى قيس وليسوا من أسد
ولا توفاهم قريش في العدد أي: لا تجعلهم وفاء لعددها، والوفاء: التمام"[زاد المسير:٢٨٧/١، الرجز لمنظور الوبري. انظر «اللسان» مادة (وفي)].

(١٠)تفسير الثعلبي:٨١/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٧١٣٣):ص٤٥٥/٦.

(١٢) البحر المحيط:١٧٦/٣.

وسلم يقول - إذا قام من النوم - : "الْحَمْدُ لله الَّذِي أحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ" [(١)]، وقال الله تعالى : { وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ } إلى قوله تعالى:{ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا } [النساء : ١٥٦ - ١٥٩] والضمير في قوله : { قَبْلَ مَوْتِهِ } عائد على عيسى ، عليه السلام ، أي : وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، على ما سيأتي بيانه ، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلّهم ؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام"[(٢)].

قال الثعلبي:" يدل عليه قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام : ٦٠]، أي: ينيمكم، لأن النوم أخو الموت، وقوله الله: {يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر : ٤٢]"[(٣)].

والثالث : متوفيك وفاة بموت، وهذا قول ابن عباس[(٤)]، ووهب بن منبه[(٥)]، وضعّفه الطبري[(٦)]، والواحدي[(٧)].

ومعنى الآية على هذا الوجه:" قال الله لعيسى: إني متوفيك حين يأتي أجلك. ولن أسلطهم عليك ليقتلوك. وقد حقق الله وعده إذ ألقى شبهه على يهوذا فقتلوه، وأنجى عيسى ورفعه إليه. وسيبقى إلى آخر الزمان ليبلغ شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - للناس. ثم يتوفاه بعد ذلك... فالآية على هذا كناية عن عصمته من الأعداء، مشفوعة بالبشارة برفعته"[(٨)].

قال الثعلبي:" يدل عليه: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ } [السجدة : ١١] ، وقوله : {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} [يونس : ٤٦]، وله على هذا القول تأويلان:

أحدهما: ما قال وهب: «توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه»[(١)(٩)].

---

(١)أخرجه الإمام البخاري في الدعوات، باب ما يقول إذا نام، رقم ٦٣١٢، وفي باب ما يقول إذا أصبح، رقم ٦٣٢٤، وابن أبي شيبة في المصنف [٩/ ٧١، ١٠/ ٢٤٧]، والإمام أحمد في المسند [٥/ ٣٨٥، ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٧]، والبخاري في الأدب المفرد برقم ١٢٠٥، وأبو داود في الأدب، باب ما يقال عند النوم، رقم ٥٠٤٩، والنسائي في اليوم والليلة برقم ٧٤٧، ٨٥٦، ٨٥٧، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو إذا انتبه من الليل، رقم ٣٨٨٠.

وأخرجه الإمام البخاري في الدعوات، باب وضع اليد اليمنى تحت الخد، رقم ٦٣١٤، وفي التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم ٧٣٩٤، والترمذي في الدعوات باب ما يدعو به عند النوم، رقم ٣٤١٧، وفي الشمائل برقم ٢٥٣، من طرق عن عبد الملك بن عمير به.

وأخرجه النسائي في اليوم والليلة برقم ٧٤٩، ٧٥٠، ٨٦٠.

(٢)انظر: تفسير ابن كثير:٤٧/٢.

(٣)تفسير الثعلبي:٨١/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٧١٤١):ص٤٥٧/٦، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٥٨٠):ص٦٦١/٢، اسنادهما حسن.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٧١٤٢):ص٤٥٧/٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري:٤٦٠/٦، إذ يقول:" ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عز وجل ، لم يكن بالذي يميته مِيتة أخرى ، فيجمع عليه ميتتين ، لأن الله عز وجل إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يُميتهم ثم يُحييهم ، كما قال جلّ ثناؤه : {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ } [سورة الروم : ٤٠]".

(٧) انظر: التفسير البسيط:٥٧٨/١، إذ قال:" ولكن هذا النقل معارض بما سنذكره من الأحاديث الدالة على بقائه إلى آخر الزمان، وبقوله تعالى: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}[النساء:١٥٩]، وهذا الوعد لم يتحقق إلى الآن، فإن اليهود - وأكثر الناس - لم يؤمنوا به. وذلك يدل على أنه لا يزال حيًا. وسيظل كذلك. حتى يؤمن به جميع الناس قبل موته، تحقيقًا لوعد الله تعالى. وسيكون ذلك آخر الزمان.

كما أنه معارض بما صح نقله عن ابن عباس من أنه رفع من غير وفاة، وعلى هذا يكون قوله تعالى: {وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} مرادا منه: رافعك حيًّا بدون وفاة يشهد له نزوله آخر الزمان".

(٨) التفسير البسيط:٥٧٨/١.

(٩) أخرجه الطبري(٧١٤٢):ص٤٥٧/٦. بتفاوت:" توفى الله عيسى ابن مريم ثلاثَ ساعات من النهار حتى رفعه إليه".

والآخر: ما قاله الضحاك وجماعة من أهل المعاني: إن في الكلام تقديما وتأخيرا، معناه إني رافعك إلي ...ومطهرك من الذين كفروا: ومتوفيك بعد إنزالك من السماء كقوله عز وجل: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى} [طه : ١٢٩].

وقال الشاعر(٢):

ألا يا نخلة من ذات عرق ... عليك ورحمة الله السلام

أي عليك السلام ورحمة الله.

وقال آخر(٣):

جمعت وعيبا نخوة ونميمة ... ثلاث خصال لسن من ترعوي

أي: جمعت نخوة ونميمة وعيبا.

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الأنبياء إخوة لعلات شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه عامل على أمتي وخليفتي عليهم، إذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن شعره ممطر وإن لم يصبه بلل، بين ممصرتين يدق الصليب ويقتل الخنزير ويفيض المال، وليسلكن الروحاء حاجا أو معتمرا أو كلتيهما جميعا، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملك كلها ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال، ويقع في الأرض الأمنة حتى يرتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الأغنام، ويلعب الصبيان بالحيات لا يضر بعضهم بعضا، ويلبث في الأرض أربعين سنة»(٤).

وفي رواية كعب: «أربعا وعشرين سنة، ثم يتزوج ويولد، ثم يتوفى ويصلي المسلمون عليه ويدفنونه في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم»(٥).

وقيل للحسن بن الفضل: «هل تجد نزول عيسى (عليه السلام) في القرآن. فقال: نعم. قوله: {وَكَهْلًا } [آل عمران : ٤٦]، وهو لم يكتهل في الدنيا، وإنما معناه: وكهلا بعد نزوله من السماء»(٦).

---

(١) أو سبع ساعات، كما رواه الطبري عن ابن إسحاق :" والنصارى يزعمون أنه توفاه سبع ساعات من النهار ، ثم أحياهُ الله". أخرجه الطبري(٧١٤٣):٤٥٨/٦. قال البيضاوي:" وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى".[تفسير البيضاوي:١٩/٢].

(٢)لم أتعرف على قائله، وانظر البيت في تفسير الثعلبي:٨١/٣، ومعاني القرآن للنحاس: ١/ ٤٠٠، تفسير القرطبي: ٤/ ١٠٠.

(٣)لم أتعرف على قائله، وانظر البيت في تفسير الثعلبي:٨٢/٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٧١٤٥):ص٤٥٨/٦-٤٥٩. بتفاوت، ونص رواية الطبري:" عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنبياء إخوَةٌ لعَلاتٍ ، أمَّهاتهم شتى ، ودينهم واحد. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وأنه خليفتي على أمتي. وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه : فإنه رجل مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، سَبِط الشعر ، كأن شَعرَه يقطُر ، وإن لم يصبه بَلَلٌ ، بين مُمصَّرَتين ، يدق الصَّليبَ ، ويقتل الخنزير ، ويُفيضُ المال ، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه المِلَلَ كلها ، ويهلك الله في زمانه مسيحَ الضّلالة الكذاب الدجال وتقعُ في الأرض الأمَنَةُ حتى ترتع الأسُود مع الإبل ، والنمر مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الغلمانُ بالحيات ، لا يَضرُّ بعضُهم بعضًا ، فيثبت في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ، ويصلي المسلمون عليه ويدفنونه".

(٥) انظر: تفسير الطبري(٧١٣٧):ص:٤٥٦/٦، بتفاوت، ونص رواية الطبري:" : ما كان الله عز وجل ليميت عيسى ابن مريم ، إنما بعثه الله داعيًا ومبشرًا يدعو إليه وحده ، فلما رأى عيسى قِلة من اتبعه وكثرة من كذّبه ، شكا ذلك إلى الله عز وجل ، فأوحى الله إليه : " إني متوفيك ورافعك إليّ " ، وليس مَنْ رفعته عندي ميتًا ، وإني سأبعثك على الأعوَر الدجّال فتقتله ، ثم تعيش بعد ذلك أربعًا وعشرين سنة ، ثم أميتك ميتة الحيّ.

قال كعب الأحبار : وذلك يصدّق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : كيف تهلك أمة أنا في أوّلها ، وعيسى في آخرها".

(٦)تفسير الثعلبي:٨١/٣.

وعن محمد بن إبراهيم أن أمير المؤمنين أبا جعفر حدثه عن الآية عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها والمهدي من أهل بيتي في أوسطها»[١] "[٢].

والرابع : أنه من المقدم والمؤخر، بمعنى: رافعك ومتوفيك بعده، وهذا قول الفراء [٣].

والخامس: وقيل: أن معناه: إني متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك، قاله أبو بكر محمد بن موسى الواسطي[٤].

قال البيضاوي:" أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت"[٥].

وحسّنه الثعلبي قائلا: "ولقد أحسن فيما قال، لأن عيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة"[٦].

والسادس. وقيل: أجعلك كالمتوفى، لأنه بالرفع يشبهه[٧].

والسابع: وقيل: آخذك وافيا بروحك وبدنك[٨].

والثامن: وقيل: متوفيك: متقبل عملك[٩]. قال أبو حيان:"ويضعف هذا من جهة اللفظ"[١٠].

والتاسع: وقيل:{ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ }:" معناه: رافعك إلى كرامتي"[١١].

قال الثعلبي:" وقيل: معناه رافعك بالدرجة في الجنة ومقربك إلى الإكرام"[١٢].

والراجح-والله أعلم- ان المعنى: "إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ، لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ، ثم يمكث في الأرض مدة ذكَرها ، اختلفت الرواية في مبلغها ، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه"[١٣].

قال ابن عطية: وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من:"أن عيسى في السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويقتل الدجال، ويفيض العدل، وتظهر به الملة، ملة محمد صلى الله عليه وسلم، ويحج البيت، ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعا وعشرين سنة، وقيل: أربعين سنة ثم يميته الله تعالى"[١٤].

قال البشالي والشيباني: كان عيسى على [....][١٥]فهبت ريح فهرول عيسى -عليه السلام- فرفعه الله عز وجل في هرولته، وعليه مدرعة من الشعر"[١٦].

قال ابن عباس: "ما لبس موسى إلا الصوف وما لبس عيسى إلا الشعر حتى رفع"[١٧].

قوله تعالى:{ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}[آل عمران:٥٥]، أي: "ومخلصك من الذين جحدوا بما جئتهم به من الحق"[١].

---

(١)كنز العمال: ١٤/ ٢٦٩ ح ٣٨٦٨٢.
(٢)تفسير الثعلبي:٨١/٣.
(٣) انظر: معاني القرآن للفراء:٢١٩/١.
(٤) انظر: تفسير الثعلبي:٨٢/٣.
(٥) تفسير البيضاوي:١٩/٢.
(٦)تفسير الثعلبي:٨٢/٣.
(٧) انظر: البحر المحيط:١٧٧/٣.
(٨)انظر: البحر المحيط:١٧٧/٣.
(٩)انظر: البحر المحيط:١٧٧/٣.
(١٠) البحر المحيط:١٧٧/٣.
(١١) النكت والعيون:٣٩٧/١.
(١٢) تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(١٣) تفسير الطبري:٤٥٨/٦، وانظر: تفسير الطبري(٧١٤٤)-٧١٤٥):ص٤٥٨/٦-٤٥٩.
(١٤) المحرر الوجيز:٤٤٤/١.
(١٥) هكذا في الأصل. قال المحقق: كلمة غير مقروءة في المخطوط.
(١٦) تفسير الثعلبي:٨٢/٣.
(١٧)تفسير الثعلبي:٨٢/٣.

قال الحسن:" : طهَّره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه"[٢].
قال الثعلبي:" أي مخرجك من بينهم ومنجيك منهم"[٣].
قال ابن كثير:" أي : برفعي إياك إلى السماء"[٤].
قال البيضاوي:أي:" من سوء جوارهم أو قصدهم"[٥].
قال سعيد حوى:" أي: من سوء جوارهم، وخبث صحبتهم؛ برفعي إياك إلى السماء"[٦].
وقيل:" أن تطهيره منهم هو منعهم من قتله"[٧].

قوله تعالى:{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}[آل عمران:٥٥]، أي:" وجاعل الذين اتبعوك على منهاجِك وملّتك من الإسلام وفطرته ، فوق الذين جحدوا نبوّتك وخالفوا سبيلهم"[٨] إلى يوم القيامة.

قال النسفي:" أي المسلمين، لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى"[٩].

قال قتادة:" هم أهلُ الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسُنته ، فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة"[١٠].

قال ابن جريج:" : ناصرُ من اتبعك على الإسلام ، على الذين كفروا إلى يوم القيامة"[١١].

قال السدي:" أما {الذين اتبعوك}، فيقال : هم المؤمنون ، ويقال : بل هم الرّوم"[١٢].

قال الحسن:" جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. قال : المسلمون من فوقهم ، وجعلهم أعلى ممن ترك الإسلام إلى يوم القيامة"[١٣].

وفي رواية أخرى عن الحسن:" هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته، لا يزالون ظاهرين على أهل الشرك إلى يوم القيامة"[١٤].

قال الربيع: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته، وملته، وسنته لا يزالون ظاهرين على أهل الشرك إلى يوم القيامة"[١٥].

وقال ابن زيد في قول الله : {ومطهرك من الذين كفروا}: قال: الذين كفروا من بني إسرائيل، {وجاعل الذين اتبعوك }:قال: الذين آمنوا به من بني إسرائيل وغيرهم، {فوق الذين كفروا}: النصارى فوقَ اليهود إلى يوم القيامة. قال : فليس بلدٌ فيه أحدٌ من النصارى ، إلا وهم فوق يهودَ ، في شرقٍ ولا غرب ، هم في البلدان كلّها مستذلون"[١٦].

قال ابن كثير:" وهكذا وقع ؛ فإن المسيح ، عليه السلام ، لما رفعه الله إلى السماء تَفَرَّقت أصحابه شيَعًا بعده ؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته ، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا : هو الله. وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة. وقد حكى

---

(١) تفسير الطبري:٤٦١/٦.[بتصرف].
(٢) أخرجه الطبري(٧١٤٨):ص٤٦١/٦-٤٦٢.
(٣) تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(٤) تفسير ابن كثير:٤٧/٢.
(٥) تفسير البيضاوي:١٩/٢.
(٦) الأساس في التفسير:٧٧٠/٢.
(٧) النكت والعيون:٣٩٧/١.
(٨) تفسير الطبري:٤٦٢/٦.
(٩) تفسير النسفي:٢٥٩/١.
(١٠) أخرجه الطبري(٧١٤٩):ص٤٦٢/٦.
(١١) أخرجه الطبري(٧١٥٢):ص٤٦٣/٦.
(١٢) أخرجه الطبري(٧١٥٣):ص٤٦٣/٦.
(١٣) أخرجه الطبري(٧١٥٤):ص٤٦٣/٦.
(١٤)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٩٣):ص٦٦٣/٢.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٨٩):ص٦٦٢/٢.
(١٦)أخرجه الطبري(٧١٥٥):ص٤٦٣/٦.

الله مقالاتهم في القرآن ، ورَد على كل فريق ، فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة ، ثم نَبَع لهم ملك من ملوك اليونان ، يقال له : قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية ، قيل : حيلة ليفسده ، فإنه كان فيلسوفا ، وقيل : جهلا منه ، إلا أنه بَدل لهم دين المسيح وحرفه ، وزاد فيه ونقص منه ، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة - التي هي الخيانة الحقيرة - وأحل في زمانه لحم الخنزير ، وصَلّوا له إلى المشرق وصوروا له الكنائس ، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه ، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارت ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد ، وبنى المدينة المنسوبة إليه ، واتبعه الطائفة المَلْكِيَّة منهم. وهم في هذا كله قاهرون لليهود ، أيَّدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجميع كفار ، عليهم لعائن الله فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كُل نبي على وجه الأرض - إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي ، خاتم الرسل ، وسيد ولد آدم ، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولى بكل نبي من أمته ، الذين يزعمون أنهم على ملّته وطريقته ، مع ما قد حَرّفوا وبدلوا "[١].

وذكر أهل العلم في معنى "الفوقية" في قوله تعالى:{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}[آل عمران:٥٥]، ثلاثة أوجه من التفسير[٢]:

أحدها : أنهم فوقهم بالبرهان والحجة. رجّحه الراغب[٣].

والثاني :أنهم فوقهم في اليد والبسطة والعز والغلبة. قاله ابن زيد[٤] .

والثالث: أنهم فوقهم يوم القيامة في الجنة، إذ هم في الغرفات آمنون، والذين كفروا في أسفل السافلين![٥]

قال النسفي:" يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف"[٦].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}[آل عمران:٥٥]وجوه:

أحدها : أنهم المسلمون من أمة محمد عليه السلام، لأنهم صدقوا بنبوته، وأنه روح الله وكلمته، فو الله ما اتبعه من دعاه ربا[٧] ، ومعنى الآية: أن الذين آمنوا به فوق الذين كذّبوه وكذبوا عليه، وهذا قول السدي[٨]، الحسن[٩]، وقتادة[١٠]، والربيع[١١] ، وابن جريج[١٢] ، والشعبي[١٣]، ومقاتل[١٤]، والكلبي[١٥]، ورجّحه الزجاج[١٦].

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٧/٢-٤٨.
(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج:٤٢٠/١، وتفسير الثعلبي: ٨٣/٣، والنكت والعيون:٣٩٧/١.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني:٥٩٣/٢.
(٤)انظر: الطبري(٧١٥٥):ص٤٦٣/٦.
(٥)انظر: تفسير الراغب الأصفهاني:٥٩٥/٢.
(٦) تفسير النسفي:٢٥٩/١.
(٧) انظر: تفسير الثعلبي: ٨٣/٣، وزاد المسير:٢٨٧/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٩٠):ص٦٦٢/٢.
(٩) انظر: الطبري(٧١٥٤):ص٤٦٣/٦، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٥٩٣):ص٦٦٣/٢.
(١٠) انظر: الطبري(٧١٤٩):ص٤٦٢/٦.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٨٩):ص٦٦٢/٢.
(١٢) انظر: الطبري(٧١٥٢):ص٤٦٣/٦.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(١٤)انظر: تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(١٥)انظر: تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(١٦) انظر: معاني القرآن:٤٢٠/١.

والثاني : أنهم النصارى فوق اليهود، لأن النصارى أعز واليهود أذل. وهذا معنى قول ابن زيد[1].
قال الماوردي:" وفي هذا دليل على أنه لا يكون مملكة إلي يوم القيامة بخلاف الروم "[2].
والثالث: أنهم الحواريون فوق الذين كفروا. قاله الضحاك[3] ومحمد بن ابان[4].
والرابع: وقيل: هم الروم. حكاه السدي[5].
وعلى القول بأنهم :النصارى أو الحواريون، "يكون معنى الاتباع الادعاء والمحبة لا اتباع الدين والملة"[6].
والراجح أن متبعوه " هم المسلمون، لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى"[7]. والله أعلم.
قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ}[آل عمران:٥٥]: أي "ثم مصيركم إليّ يوم البعث"[8].
قال أبو العالية:" يرجعون إليه بعد الحياة"[9].
قال السمرقندي:" يعني الذين اتبعوك، والذين كفروا كلهم مرجعهم إليّ "[10].
قوله تعالى:{فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[آل عمران:٥٥]، أي:" فأقضي حينئذ بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى"[11].
قال الثعلبي: يعني: "من الدين وأمر عيسى -عليه السلام-"[12].
قال السمرقندي: أي: " بين المؤمنين والكفار من الدين"[13].
قال أبو حيان:" هذا إخبار بالحشر والبعث، والمعنى ثم إلى حكمي، وهذا عندي من الالتفات"[14].
قال المراغي:" وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به"[15].
قال ابن عطية:" الخطاب لعيسى، والمراد الإخبار بالقيامة والحشر فلذلك جاء اللفظ عاما من حيث الأمر في نفسه لا يخص عيسى وحده فكأنه قال له: ثُمَّ إِلَيَّ، أي إلى حكمي وعدلي، يرجع الناس، فخاطبه كما تخاطب الجماعة إذ هو أحدها، وإذ هي مرادة في المعنى ، وفي قوله تعالى: فَأَحْكُمُ إلى آخر الآية وعد لعيسى والمؤمنين ووعيد للكافرين"[16].
الفوائد:
١-في هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم[17].

---

(١)انظر: الطبري(٧١٥٥):ص٤٦٣/٦.
(٢)النكت والعيون:٣٩٧/١.
(٣)انظر: تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(٤)انظر: تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥٩٠):ص٦٦٢/٢.
(٦)تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(٧) الكشاف:٣٦٧/١.
(٨) تفسير المراغي:١٧٠/٣.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم:٦٦٣/٢.
(١٠) تفسير السمرقندي:٢١٨/١.
(١١) تفسير الطبري:٤٦٤/٦.[بتصرف].
(١٢) تفسير الثعلبي:٨٣/٣.
(١٣) تفسير السمرقندي:٢١٨/١.
(١٤) البحر المحيط:١٨٠/٣.
(١٥)تفسير المراغي:١٧٠/٣.
(١٦) المحرر الوجيز:٤٤٥/١.
(١٧) انظر: تفسير السعدي:١٣٢/١.

٢-تذكرة احوال الأنبياء السابقين لما فيها من محبتهم والثناء عليهم ومعرفة أحوالهم وإبقاء ذكراهم.

٣-الرد على من قال: إن كلام الله هو المعنى النفسي القائم بنفسه، لأن ذلك لايسمى قولا، وإن اطلق عليه القول فلابد ان يقيد كما في قوله: { وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ} [المجادلة : ٨]، وأما إذا جاء القول غير مقيد فالمراد به ما يسمع.

٤-فضيلة عيسى ومنقبته بخطاب الله إياه.

٥-أن الله تعالى رفع عيسى بجسمه، لقوله:{ورافعك}، والخطاب لعيسى المون من بدن وروح فيكون رفعه ببدنه.

٦-ومنها: إثبات منقبة لرسولنا الكريم-صلى الله عليه وسلم- إذ رفعه الله في الاسراء والمعراج وهو يقظان، وعيسى لم يرفع إلا وهو نائم، وذلك على قول من قال أن معنى :{متوفيك} أي منيمك.

٧-أن أتباع عيسى منصورون إلى يوم القيامة، لقوله: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، وأتباعه هم امة محمد-صلى الله عليه وسلم-، واما من كفر بمحمد-عليه السلام- فهو لم يتبع عيسى.

٨-ومنها: إثبات يوم القيامة، لقوله:{ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، وأنه يوم الجزاء، فقال: {فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ}.

٩-إن مرجع الخلائق إلى ربهم عزّ وجل غذ تكون النهاية إليه وحده، لقوله:{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ}.

١٠-إثبات حكم الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال: {فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ}، هذا في الآخرة، وقال: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى : ١٠]، فهو تعالى الحكم في الدنيا والآخرة.

١١-بشارة المؤمنين بأن خلافهم مع الكفار سوف يجري فيه الحكم على يد الواحد القهار الحكم العدل الذي يظلم مثال ذكرة، وقد أخبرنا تعالى ان الخاصم الغالب هم المؤمنون، فقال: {فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء : ١٤١].

١٢-إثبات علم الله تعالى، لأنه لا حكم إلا بعد علم.

القرآن

{فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)} [آل عمران : ٥٦]

التفسير:

فأمَّا الذين كفروا بالمسيح من اليهود أو غَلَوا فيه من النصارى، فأعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا: بالقتل وسلْبِ الأموال وإزالة الملك، وفي الآخرة بالنار، وما لهم مِن ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله.

قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}[آل عمران:٥٦]، أي:" فأما الذين جَحدوا نبوّتك يا عيسى وخالفوا ملتك"(١).

قوله تعالى: { فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}[آل عمران:٥٦]، أي:" فإني أعذبهم عذابًا شديدًا ، أما في الدنيا فبالقتل والسباء والذلة والمسكنة، وأما في الآخرة فبنار جهنم"(٢).

قال أبو مالك:" فهم أصحاب النار يعذبون فيها"(٣).

---

(١) تفسير الطبري:٤٦٥/٦.

(٢) تفسير الطبري:٤٦٥/٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٩٥):ص٦٦٣/٢.

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[آل عمران:٥٦]، " أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله"(١).

قال الطبري:" وما لهم من عذاب الله مانعٌ ، ولا عن أليم عقابه لهم دافع بقوة ولا شفاعة ، لأنه العزيز ذُو الانتقام"(٢).

الفوائد:

١-إثبات العذاب للكافرين، لقوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}.

٢-ومن الفوائد: أن العذاب في الدنيا قد لايغني عن العذاب في الآخرة بالنسبة للكفار، بل لهم الهزيمة والخزي في الدنيا، وهم لاينجون من عذاب النار يوم القيامة.

٣-إثبات الجزاء، وأن الجزاء من جنس العمل، لقوله:{فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}.

٤-أن الكفار لا ناصر لهم من عذاب الله، فلا تنفعهم الشفاعة في الآخرة. القرآن

القرآن

{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)} [آل عمران : ٥٧]

التفسير:

وأما الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الأعمال الصالحة، فيعطيهم الله ثواب أعمالهم كاملا غير منقوص. والله لا يحب الظالمين بالشرك والكفر.

قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [آل عمران : ٥٧]، أي: وأما "الذين آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الأعمال الصالحات"(٣).

قال ابن عباس:"يقول : أدوا فرائضي"(٤).

وعنه أيضا: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر"(٥).

قال زيد بن أسلم:" رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم"(٦).

قال الطبري:أي:" وأما الذين صدّقوك يا عيسى وأقرّوا بنبوتك وبما جئتهم من الحق وعملوا بما فرضت من فرائضي على لسانك"(٧).

قوله تعالى:{ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ } [آل عمران : ٥٧]، أي:" : فيعطيهم جزاءَ أعمالهم الصالحة كاملا لا يُبخسون منه شيئًا ولا يُنقصونه"(٨).

قال مقاتل:" يعني فيوفوا أجورهم في الآخرة"(٩).

قال ابن كثير:" أي : في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العاليات"(١٠).

وقرأ الحسن وحفص ويونس:{ فَيُوَفِّيهِمْ}بالياء، والباقون بالنون(١١).

---

(١) صفوة التفاسير:١٨٧.

(٢) تفسير الطبري:٤٦٥/٦.

(٣) تفسير ابن عثيمين: ٣٨٠/٣.

(٤) أخرجه الطبري(٧١٥٦):ص٤٦٥/٦.

(٥)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٩٧):ص٦٦٤/٢.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٥٩٦):ص٦٦٣/٢-٦٦٤.

(٧) تفسير الطبري:٤٦٥/٦.

(٨)تفسير الطبري:٤٦٥/٦.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٧٩/١.

(١٠) تفسير ابن كثير:٤٨/٢.

(١١) انظر: السبعة:٢٠٦.

قوله تعالى: { وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }[آل عمران : ٥٧]، "أي: والله لا يحبُّ من ظلم غيرَه حقًا له، فكيف يظلم عباده"(١).

قال سفيان بن عيينة:" لا يقرب الظالمين"(٢).

قال ابن عباس:"قوله:{الظالمين}، يقول: الكافرين"(٣).

قال أبو عبيدة:" أي: الكافرين"(٤).

قال محمد ابن إسحاق: "{الظالمين}: أي المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم الطاعة وقلوبهم مصرة على المعصية"(٥).

قال السمعاني:" أي: لا يرحم الكافرين، ولا يثني عليهم بالجميل"(٦).

قال ابن أبي زمنين: يعني: المشركين"(٧).

قال الزجاج:" أي لا يرحمهم، ويعذبهم ولا يثني عليهم خيرا، هذا معنى البغض من الله، ومعنى المحبة منه الرحمة والمغفرة والثناء والجميل"(٨).

قال الماتريدي:" لأنه لا يحب الظلم"(٩).

قال السمرقندي:" أي لا يرضى دين الكافرين"(١٠).

قال الراغب:" تنبيه أنه لا يظلم خلقه، فمن لا يحب شيئا لا يتعاطاه مع استغنائه عنه"(١١).

الفوائد:

١-أن وفاء الأجر مرتبط بوصفين، هما: الإيمان والعمل الصالح، عليه فإن الإيمان وحده لا يكفي، بل لابد من عمل صالح ينمي هذا الإيمان ويشهد صحته.

٢-أن العمل لاينفع إلا إذا كان صالحا، وأن العمل الصالح ما جمع بين وصفين: الإخلاص واتباع الرسول-صلى الله عليه وسلم-.

٣-منة الله سبحانه وتعالى على عباده إذ جعل هذا الجزا كالاجور اللازم وفاؤها، لقوله:{فيوفيهم أجورهم}.

٤-إثبات المحبة لله تعالى، لقوله:{والله لايحب الظالمين}، إذ أن نفي المحبة عن الظالمين دليل على ثبوتها لغيرهم. والله أعلم.

٥-شؤم الظلم على الانسان وأنه من الذنوب التي تكون سببا لانتفاء محبة الله له، وبالتالي هلاك العبد.

القرآن

{ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)} [آل عمران : ٥٨]

التفسير:

ذلك الذي نقصُّه عليك في شأن عيسى، من الدلائل الواضحة على صحة رسالتك، وصحة القرآن الحكيم الذي يفصل بين الحق والباطل، فلا شك فيه ولا امتراء.

سبب النزول:

---

(١) تفسير الطبري:٣٦٦/٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٥٩٩):ص٦٦٤/٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٠٠):ص٦٦٤/٢.

(٤) أخرجه ابن المنذر(٥٣٦):ص٢٢٤/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٠١):ص٦٦٤/٢.

(٦) تفسير السمعاني:٣٢٦/١.

(٧) تفسير ابن أبي زمنين:٢٩١/١.

(٨) معاني القرآن:٤٢١/١.

(٩) تفسير الماتريدي:٣٨٨/٢.

(١٠) تفسير السمرقندي:٢١٩/١.

(١١) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٩٧/٢.

قال الحسن:" أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم راهبا من نجران فقال أحدهما: من أبو عيسى؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجل حتى يأمره ربه ، فنزل عليه: {ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم} إلى قوله: {من الممترين}"[١].

قوله تعالى:{ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ}[آل عمران:٥٨]، "أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد"[٢].

قال محمد ابن إسحاق:"{ ذلك نتلوه عليك} يا محمد من الآيات"[٣].

قال ابن كثير:" أي : هذا الذي قَصَصْنَاه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره"[٤].

قوله تعالى:{ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ}[آل عمران:٥٨]،" أي من آيات القرآن الكريم المحكم"[٥].

قال ابن كثير:أي:" هو مما قاله الله تعالى ، وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ ، فلا مرية فيه ولا شك"[٦].

قال محمد بن إسحاق: {والذكر الحكيم}: القاطع الفاصل الحق الذي لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى وعن ما اختلفوا فيه من أمره، فلا تقبلن خبرا غيره"[٧].

عن علي-رضي الله عنه- قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ستكون فتن- قلت: فما المخرج منها؟ قال: كتاب الله هو الذكر الحكيم والصراط المستقيم"[٨].

الفوائد:

١- أن الله تعالى تكلم في القرآن فقال:{ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ}، إذ كانت التلاوة لله حقيقة، ونقلها جبريل إلى الرسول-صلى الله عليه وسلم-.

٢- أن القرآن الكريم آيات عظيمة لايحصيها البشر، يجدها ويتدبرها من فتح الله قلبه بالإيمان والعمل الصالح.

٣- أن القرآن ذكر، ذكر يتقرب إلى الله به وذكر يتذكر به الإنسان، فهو شامل لهذا وهذا.

٤- ومنها: وصف القرآن العظيم بهذا الوصف العظيم وهو الحكمة والذكر الحكيم، والحكيم هنا بمعنى الحاكم والمحكم، لأن القرآن حكم بين الناس، فقال: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء : ٥٩]، أي إلى كتابه، فهو حكم، وهو أيضا محكم متقن ليس فيه اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض.

٥- فضيلة الرسول-صلى الله عليه وسلم- لقوله:{نتلوه عليك}، فخصه –صلى الله عليه وسلم- بالتلاوة لأنه-صلى الله عليه وسلم- أشرف من يتلقى القرآن، وأقوم الناس عملا به، فكأنه هو المخصوص بالتلاوة عليه.

القرآن

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)} [آل عمران : ٥٩]

التفسير:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٠٢):ص٦٦٤/٢.

(٢) صفوة التفاسير:١٨٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٠٣):ص٦٦٥/٢.

(٤) تفسير ابن كثير:٤٩/٢.

(٥) صفوة التفاسير:١٨٧.

(٦)تفسير ابن كثير:٤٩/٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٠٥):ص٦٦٥/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٠٤):ص٦٦٥/٢. والترمذي- فضائل القرآن رقم ٢٩٠٦ /٥ ١٥٨ في حديث طويل.

إنَّ خَلْقَ الله لعيسى من غير أب مثله كمثل خلق الله لآدم من غير أب ولا أم، إذ خلقه من تراب الأرض، ثم قال له: «كن بشرًا» فكان. فدعوى إلهية عيسى لكونه خلق من غير أب دعوى باطلة; فآدم عليه السلام خلق من غير أب ولا أم، واتفق الجميع على أنه عَبْد من عباد الله.

سبب النزول:

قال ابن عباس:" وذلك أن رهطًا من أهل نجران قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم وكان فيهم السيّد والعاقب فقالوا لمحمد : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : عيسَى ، تزعم أنه عبدُ الله! فقال محمد : أجل ، إنه عبد الله. قالوا له : فهل رأيت مثلَ عيسى ، أو أنبئت به ؟ ثم خرجوا من عنده ، فجاءه جبريل صلى الله عليه وسلم بأمر ربِّنا السميع العليم فقال : قل لهم إذا أتوك : {إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم}، إلى آخر الآية" [١].

وروي عن قتادة[٢]، والسدي[٣]، وعكرمة[٤]، وابن زيد[٥]، والحسن [٦]، والأزرق بن قيس[٧]، مثل ذلك.

قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ } [آل عمران : ٥٩]، " أي: إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم"[٨].

قوله تعالى:{خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران : ٥٩]، أي: خلقه من تراب من غير أب ولا أم، ثم قال له كن فكان"[٩].

قال محمد بن جعفر بن الزبير:" فإن قالوا : خُلق عيسى من غير ذكر ، فقد خلقت آدمَ من تراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذكر ، فكان كما كانَ عيسى لحمًا ودمًا وشعرًا وبَشرًا ، فليس خلقُ عيسى من غير ذكر بأعجبَ من هذا" [١٠].

قال ابن كثير:" والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى بكونه مخلوقا من غير أب ، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل ، فدعواها في عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادًا. ولكن الرب ، عَزّ وجل ، أراد أن يظهر قدرته لخلقه ، حين خَلَق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى في سورة مريم : { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ } [مريم : ٢١]"[١١].

الفوائد:

١- من الفوائد: بيان إقامة الحجة بمثل ما يحتج به الخصم، لأنه أقام الحجة على النصارى بمثل ما احتجوا به، فقال: إذا قلتم: إن عيسى ابن الله، لأنه خلقة بلا أب، فقولوا: إن آدم ابن الله، وإلا فأنتم متناقضون.

٢- ومنها: بيان قدرة الله تعالى إذ خلق ىدم من غير أم ولا أب، وخلق عيسى من أم بلا أب.

٣- إثبات القياس، وذلك في قوله: {كمثل آدم}، وكل مثل مضروب في القرآن فإنه دليل على ثبوت القياس، لأنه إلحاق المورد بالمضروب، يعني: أنك ألحقت الممثل بالممثل به.

---

(١) انظر:تفسير الطبري(٧١٦١):ص٤٦٨/٦-٤٦٩.

(٢)انظر:تفسير الطبري(٧١٦٢):ص٤٦٩/٦.

(٣)انظر:تفسير الطبري(٧١٦٣):ص٤٦٩/٦-٤٧٠.

(٤)انظر:تفسير الطبري(٧١٦٤):ص٤٧٠/٦.

(٥)انظر:تفسير الطبري(٧١٦٦):ص٤٧١/٦.

(٦) انظر: أسباب النزول:١٠٤. اسناده ضعيف.

(٧) انظر: العجاب في بيان الأسباب:٦٧٩/٢.

(٨) صفوة التفاسير:١٨٨.

(٩)صفوة التفاسير:١٨٨.

(١٠) أخرجه الطبري(٧١٦٥):ص٤٧٠/٦-٤٧١.

(١١)تفسير ابن كثير:٥٠/٢.

٤- إثبات القول للرب عزّ وجل، لقوله:{ثم قال له}.
٥- إثبات صفة الخلق لله، وهي صفة فعلية، وجنس الصفات الفعلية ذاتية، لأن الله لم يزل ولايزل فعّالا.

القرآن
{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)} [آل عمران : ٦٠]
التفسير:
الحق الذي لا شك فيه في أمر عيسى هو الذي جاءك -أيها الرسول- من ربك، فدم على يقينك، وعلى ما أنت عليه من ترك الافتراء، ولا تكن من الشاكِّين، وفي هذا تثبيت وطمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
قوله تعالى: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} [آل عمران : ٦٠]، أي:" هذا الذي قصّ عليك هو الحق"[١].
قال محمد بن جعفر بن الزبير:" ما جاءك من الخبر عن عيسى"[٢].
قال مقاتل:"يعني: من هذا الذي قال الله في عيسى "[٣].
قال ابن كثير:" أي : هذا القول هو الحق في عيسى ، الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه "[٤].
قال الزجاج: أي:" الذي أنبأناك به في قصة عيسى عليه السلام هو الحق من ربك"[٥].
قوله تعالى: { فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [آل عمران : ٦٠]، أي: "فلا تكن من الشاكين"[٦].
قال ابن عباس:" قال الحسن: يقول: يا محمد فلا تكن في شك مما قالا"[٧].
قال قتادة:"يعني : فلا تكن في شكّ من عيسى أنه كمثل آدم ، عبدُ الله ورسوله ، وكلمةُ الله ورُوحه"[٨].
قال الربيع:" ، يقول : فلا تكن في شكّ مما قصصنا عليك أنّ عيسى عبدُ الله ورسوله ، وكلمةٌ منه ورُوحٌ ، وأنّ مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تُراب ثم قال له كن فيكون"[٩].
قال محمد بن جعفر بن الزبير:" أي : قد جاءك الحق من ربك فلا تمتَر فيه"[١٠].
قال الثعلبي:" الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته لأنه لم يكن ينهاه في أمر عيسى"[١١].
الفوائد:
١-أن الله لايصدر عنه إلا الحق.
٢-فضيلة رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بإضافة الربوبية إليه، وهي ربوبية خاصة تفيد معنى أخص من الربوبية العامة.
٣-النهي عن الشك فيما اخبر الله به.
٤-ومنها: أن الممترين كثيرون لقوله{من الممترين}، وإن كان يحتمل أن يراد به الجنس فيصدق بواحد، ولكن الظاهر الأول.

---

(١) تفسير ابن عثيمين:٣٥٣/١.
(٢)أخرجه الطبري(٧١٦٩):ص٤٧٣/٦.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨١/١.
(٤) تفسير ابن كثير:٤٩/٢.
(٥) معاني القرآن:٤٢٢/١.
(٦) تفسير الطبري:٤٧٢/٦.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦١١):ص٦٦٦/٢.
(٨) أخرجه الطبري(٧٢٦٧):ص٤٧٢/٦.
(٩) أخرجه الطبري(٧٢٦٨):ص٤٧٢/٦.
(١٠)أخرجه الطبري(٧١٧٠):ص٤٧٣/٦.
(١١) تفسير الثعلبي:٨٤/٣.

٥-جواز المخاطبة بالتعريض، لأن قوله:{فلا تكن من الممترين}، لا يعني أن الرسول يمكن أن يكون منهم، بل هو تعريض بهؤلاء وأنهم ذوو خلق سيء فلا تكن منهم وإن كان هو ليس منهم لا باعتبار الواقع ولا المستقبل.

القرآن

{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)} [آل عمران : ٦١]

التفسير:

فمَن جادلك -أيها الرسول- في المسيح عيسى ابن مريم من بعد ما جاءك من العلم في أمر عيسى عليه السلام، فقل لهم: تعالوا نُحْضِر أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نتجه إلى الله بالدعاء أن يُنزل عقوبته ولعنته على الكاذبين في قولهم، المصرِّين على عنادهم.

قوله تعالى: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ}[آل عمران:٦١]، أي:"فمن خاصمك وجادلك في أمر عيسى"(١).

قال الربيع:" يقول : من حاجك في عيسى"(٢).

قال قتادة:" أي : في عيسى : أنه عبدُ الله ورسوله ، من كلمة الله وروحه"(٣).

قال الطبري:أي:" فمن جادلك ، يا محمد ، في المسيح عيسى ابن مريم"(٤).

قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ }[آل عمران:٦١]، أي:"بعدما وضح لك الحق واستبان"(٥).

قال الطبري:" من بعد ما جاءك من العلم الذي قد بيَّنته لك في عيسى أنه عبد الله"(٦).

قال محمد بن جعفر بن الزبير:" أي : من بعد ما قصصت عليك من خبره ، وكيف كان أمره"(٧).

قوله تعالى:{فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ }[آل عمران:٦٢]، أي: فقل لهم: هلمّوا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة"(٨).

قال ابن كثير:"أي : نحضرهم في حال المباهلة"(٩).

قال الربيع:" فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: هلم أداعيكم فأتيا كان الكاذب أصابته اللعنة والعقوبة من الله عاجلا. قالوا: نعم"(١٠).

قال الشعبي: "لما نزلت: {فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم}، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين ثم انطلق"(١١).

روي عن الحسن في قوله: "{تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم} قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهما ودعاهما إلى المباهلة وأخذ بيد فاطمة والحسن

---

(١) تفسير الثعلبي:٨٤/٣.
(٢)أخرجه الطبري(٧١٧٣):ص٤٧٤/٦.
(٣) أخرجه الطبري(٧١٧١):ص٤٧٤/٦.
(٤) تفسير الطبري:٤٧٣/٦.
(٥) صفوة التفاسير:١٨٨.
(٦)تفسير الطبري:٤٧٤/٦.
(٧) أخرجه الطبري(٧١٧٢):ص٤٧٤/٦.
(٨) صفوة التفاسير:١٨٨.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٩/٢.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦١٥):ص٦٦٧/٢.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦١٦):ص٦٦٧/٢.

والحسين وقال أحدهما لصاحبه: اصعد الجبل ولا تباهله فإنك إن باهلته بؤت باللعن قال: فما ترى؟ قال: أرى أن تعطيه الخراج ولا نباهله"[(١)].

وقال السدي:" فأخذ بيد الحسن والحسين وفاطمة وقال لعلي: اتبعنا، فخرج معهم ولم يخرج يومئذ النصارى قالوا: إنا نخاف أن يكون هذا هو النبي وليس دعوة الأنبياء كغيرهم فتخلفوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو خرجوا إلا احترقوا، فصالحوه على صلح على أن له عليهم ثمانين ألفا"[(٢)].

وعن أبي جعفر: {وأنفسنا وأنفسكم}، قال: النبي وعلي"[(٣)].

قوله تعالى:{ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}[آل عمران:٦٢]، أي: ثم "نتضرع إلى الله فنقول: اللهم العن الكاذب منا في شأن عيسى"[(٤)].

قال ابن عباس:{ثم نبتهل}: نجتهد"[(٥)].

قال ابن كثير:أي: ثم "نلتعن"[(٦)].

قال التستري:" أي يدعو بعضنا على بعض باللعنة"[(٧)].

قال ابن زيد:" { ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}، قال: منا ومنكم"[(٨)].

قال الزجاج:" قيل له هذا بعد أن أوحيت إليه البراهين والحجج القاطعة في تثبيت أمر عيسى إنه عبد، فأمر بالمباهلة بعد إقامة الحجة، لأن الحجة قد بلغت النهاية في البيان فأمر الله أن يجتمع هو والنساء والأبناء من المؤمنين، وأن يدعوهم إلى أن يتجمعوا هم وآباؤهم ونساؤهم، ثم يبتهلون ومعنى الابتهال في اللغة المبالغة في الدعاء، وأصله الالتعان ويقال بهله الله أي لعنه الله، ومعنى لعنة الله باعده الله من رحمته، يقال: ناقة باهل وباهلة إذا لم يكن عليها صرار، وقد أبهل الرجل ناقته إذا تركها بغير صرار ورجل باهل إذا لم يكن معه عصا. فتأويل البهل في اللغة المباعدة والمفارقة للشيء"[(٩)].

قال ابن عباس:" لو خرج الذين يباهلون النبي صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا"[(١٠)].

قال ابن جريج: "قال لي ابن كثير: أما الذين دعوا إلى الابتهال فالنصارى"[(١١)].

أخرج الطبري عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي :أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " ليتَ بيني وبين أهل نجرانَ حجابًا فلا أراهم ولا يروني! من شدّة ما كانوا يمارون النبي صلى الله عليه وسلم"[(١٢)].

الفوائد:

١-إثبات أن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- حق، لأن الله أمره أن يلتعن مع هؤلاء.

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦١٧):ص٦٦٧/٢.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦١٨):ص٦٦٧/٢.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦١٩):ص٦٦٨/٢، ومسلم كتاب فضائل الصحابة (٣٧٢٤).

(٤) صفوة التفاسير:١٨٨.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٢٣):ص٦٦٨/٢، وأخرج ابن أبي حاتم(٣٦٢٢):ص٦٦٨/٢، عن أنس بن مالك قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم بعرفات وهو يدعو، ورفع يديه فانفلت زمام الناقة من يده، فتناوله فرفع يده، فقال أصحاب محمد: هذا الابتهال وهذا التضرع".

(٦)تفسير ابن كثير:٤٩/٢.

(٧) تفسير التستري:٤٨.

(٨)أخرجه الطبري(٧١٧٣):ص٤٧٤/٦.

(٩) معاني القرآن:٤٢٣/١.

(١٠)أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦٢٠):ص٦٦٨/٢.

(١١)أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦٢١):ص٦٦٨/٢.

(١٢) تفسير الطبري(٧١٧٥):ص٤٧٥/٦.

٢-ومن الفوائد: أنه لاتجوز المباهلة إلا بعلم يقيني.
٣-جواز طلب المباهلة عند عناد الخصم، لكن بشرطين: أولهما: العلم، والثاني أن تكون في امر هام.
٤-أن من آداب الالتعان احضار النساء والاولاد، لأنه أشد خوفا للنسا في المباهلة.
٥-جواز الدعاء بالله على من خالف الحق لكن بالوصف لا بالشخص، لأن الكاذبين وصف، أما الشخص فلايجوز الدعاء عليه حتى لو كان كافرا، لأن النبي-صلى الله عليه وسلم-لما دعا على أبي جهل وغيره من كبار قريش، نهاه الله عن ذلك.

القرآن

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)} [آل عمران : ٦٢]

التفسير:

إن هذا الذي أنبأتك به -أيها الرسول- من أمر عيسى لهو النبأ الحق الذي لا شك فيه، وما من معبود يستحق العبادة إلا الله وحده، وإن الله لهو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره وفعله.

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [آل عمران : ٦٢]،" أي: إن هذا الذي أوحينا إليك من هذه البينات والحجج التي آتيناك لهو القصص الحق"[١].

قال ابن كثير:" أي : هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا مَعْدل عنه ولا محيد"[٢].

قال ابن عباس:" يقول: إن هذا الذي قلنا في عيسى هو الحق"[٣].

قال الطبري:" إن هذا الذي أنبأتك به ، يا محمد ، من أمر عيسى فقصصته عليك من أنبائه ، وأنه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتها إلى مريم وروح منّي ، لهو القصَص والنبأ الحق، فاعلم ذلك"[٤].

قوله تعالى:{ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران : ٦٢]، " أي: ولا يوجد إله غير الله"[٥].

قال الطبري:أي:" واعلم أنه ليس للخلق معبودٌ يستوجبُ عليهم العبادةَ بملكه إياهم إلا معبودك الذي تعبُدُه"[٦].

قال السعدي: أي:" فهو المألوه المعبود حقا الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة"[٧].

قال الزجاج:" «من» دخلت توكيدا. ودليلا على نفي جميع من ادعى المشركون أنهم آلهة، أي إن عيسى ليس بإله، لأنهم زعموا إنه إله، فأعلم الله عز وجل أن لا إله إلا هو، وأن من آتاه الله آيات يعجز عنها المخلوقون فذلك غير مخرج له من العبودية لله، وتسميته إلها كفر بالله"[٨].

قوله تعالى:{ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران : ٦٢]، أي هو جل شأنه "العزيز في ملكه الحكيم في صنعه"[٩].

---

(١) معاني القرآن للزجاج:٤٢٤/١.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٥/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٢٤):ص٦٦٨/٢.
(٤) تفسير الطبري:٤٧٦/٦.
(٥) صفوة التفاسير:١٨٨.
(٦) تفسير الطبري:٤٧٦/٦.
(٧) تفسير السعدي:١٣٣.
(٨)معاني القرآن:٤٢٤/١.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٢/١، وصفوة التفاسير:١٨٨.

قال الطبري:أي "العزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، الحكيم في تدبيره، لا يدخل ما دبره وَهَنٌ ، ولا يلحقه خللٌ"(١).

الفوائد:

١-تأكيد أن ما اخبر الله به عيسى ابن مريم هو الحق، ويفرغ من هذه القاعدة ان كل ما خالفه مما تكلمت به النصارى في شأن عيسى فهو كذب باطل لايوافق الواقع.

٢-أنه لا إله في الوجود إلا الله، فهو وحدة المستحق بالعبادة، وفيه رد على إدعاء ألوهية المسيح.

٣-إثبات تمام العزة لله تعالى، قال:{لهو العزيز}، و«أل» هنا تفيد الاستغراق، أي: جميع انواع العزة ثابتة لله سبحانه وتعالى.

٤-إثبات تمام الحكمة لله تعالى، فقال:{الحكيم}، فيتفرغ أنه لا حاكم إلا الله.

القرآن

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)} [آل عمران : ٦٣]

التفسير:

فإن أعرضوا عن تصديقك واتباعك فهم المفسدون، والله عليم بهم، وسيجازيهم على ذلك.

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} [آل عمران : ٦٣]، "أي: فإن أعرضوا عما أتيت به من البيان"(٢).

قال أبو عبيدة:" فإن كفروا، وتركوا أمر الله "(٣).

قال محمد بن إسحاق:" فإن تولوا على كفرهم"(٤).

قال البغوي:أي:" أعرضوا عن الإيمان"(٥).

قال الطبري:أي:"فإن أدبر هؤلاء الذين حاجُّوك في عيسى ، عما جاءك من الحق من عند ربك في عيسى وغيره من سائر ما آتاك الله من الهدى والبيان"(٦).

قال الراغب:" أي إن أعرضوا عن الإصغاء إلى الحق والتزامه، وعن الإجابة إلى المباهلة"(٧).

قال الصابوني: " أي :إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد"(٨).

قوله تعالى: { فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ } [آل عمران : ٦٣]،أي: " فإن الله يعلم من يفسد من خلقه فيجازيه على إفساده"(٩).

قال الطبري:أي:" : فإن الله ذو علم بالذين يعصون ربهم ، ويعملون في أرضه وبلاده بما نهاهم عنه ، وذلك هو إفسادهم، فهو عالم بهم وبأعمالهم ، يحصيها عليهم ويحفظها ، حتى يجازيهم عليها جزاءَهم"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به ، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء ، وهو القادر ، الذي لا يفوته شيء"(١١).

---

(١)تفسير الطبري:٤٧٦/٦.

(٢) معاني القرآن:٤٢٤/١.

(٣) أخرجه ابن المنذر(٥٦٠):ص٢٢٤/١.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٢٥):ص٦٦٩/٢.

(٥) تفسير البغوي:٤٩/٢.

(٦)تفسير الطبري:٤٧٦/٦.

(٧) تفسير الراغب الأصفهاني:٦١٠/٢.

(٨) صفوة التفاسير:١٨٨.

(٩)تفسير الطبري:٤٧٦/٦.

(١٠)تفسير الطبري:٤٧٧/٦.

(١١)تفسير ابن كثير:٥٥/٢.

قال الراغب:أي" فإن حالهم في كونهم مفسدين ظاهرة، وعقوبتهم واجبة، فهو تعالى معاقبهم"(١).

قال الصابوني: أي:"فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء"(٢).

قال البغوي:{بالمفسدين}: أي:" الذين يعبدون غير الله، ويدعون الناس إلى عبادة غير الله"(٣).

قال البيضاوي:" وعيد لهم ووضع المظهر موضع المضمر ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد، إفساد للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس بل وإلى فساد العالم"(٤).

الفوائد:

١-تهديد من تولى عن دين الله تعالى، فقال:{فإن الله عليم بالمفسدين}، لأن المقصود من ذكر علمه بهم تهديدهم، وأنه لا يخفى عليه حالهم، وسيعاقبهم بما تقتضيه حالهم.

٢-أن التولي عن دين الله فساد، قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم : ٤١].

٣-أن كل من تولى عن دين الله فهو مفسد، ولو زعم أنه مصلح، لقوله:{فإن الله عليم بالمفسدين}، ولهذا قال أهل التفسير في قوله: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف : ٥٦]، أي: لا تفسدوها بالمعاصي، فكل عاص مفسد شاء ام أبى، وكل مطيع هو مصلح، لأن بضدها تتبيّن الأشياء.

القرآن

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)} [آل عمران : ٦٤]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: تعالَوْا إلى كلمة عدل وحق نلتزم بها جميعًا: وهي أن نَخُص الله وحده بالعبادة، ولا نتخذ أي شريك معه، من وثن أو صنم أو صليب أو طاغوت أو غير ذلك، ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة من دون الله. فإن أعرضوا عن هذه الدعوة الطيبة فقولوا لهم -أيها المؤمنون-: اشهدوا علينا بأنا مسلمون منقادون لربنا بالعبودية والإخلاص. والدعوة إلى كلمة سواء، كما تُوجَّه إلى اليهود والنصارى، توجَّه إلى من جرى مجراهم.

في سبب نزول الآية، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في الوفد من نصارى نجران. قاله السدي (٥)، وابن زيد(٦)، ومحمد بن جعفر بن الزبير(٧)، والحسن(٨).

الثاني: أنها: نزلت في يهود بني إسرائيل الذين كانوا حَوالى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا قول قتادة(٩)، والربيع(١)، وابن جريح (٢).

---

(١)تفسير الراغب الأصفهاني:٦١٠/٢.

(٢) صفوة التفاسير:١٨٨.

(٣) تفسير البغوي:٤٩/٢.

(٤) تفسير البيضاوي:٢١/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٥):ص٤٨٤/٦. إلا أنه لم يذكر مكان اجتماعهم.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٦):ص٤٨٤/٦-٤٨٥.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٤):ص٤٨٤/٦.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٣٩٩/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٧١٩١):ص٤٨٣/٦.

والثالث: أنها نزلت في قصة وفد نجران مع يهود المدينة وذلك حين اختصموا في إبراهيم.

قال الثعلبي:" قال المفسرون: قدم وفد نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاختصموا في إبراهيم فأتاهم النبي صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: يا محمد إنّا اختلفنا في إبراهيم ودينه فزعمت النصارى أنّه كان نصرانيا وهم على دينه وأولى النّاس به. وقالت اليهود: بل كان يهوديا وأنّهم على دينه وأولى النّاس به. فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه بل كان إبراهيم حنيفا وأنا على دينه فأتبعوا دينه الإسلام. فقالت اليهود: يا محمد ما تريد إلا أن نتّخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ربا. وقالت النصارى: والله يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير. فأنزل الله تعالى:{ قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ عدل بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ}"(3).

قال ابن حجر:" أنزلها الله في قصة وفد نجران قبل أن يقع اجتماعهم باليهود، فلما أبوا وبذلوا الجزية واطمأنوا اجتمعوا بيهود المدينة عند النبي -صلى الله عليه وسلم- أو فيما بينهم، فتجادلوا إلى أن ذكروا إبراهيم ونزلت الآيات التي بعدها في إبراهيم"(4).

قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}[آل عمران:٦٤]، أي: "قل يا محمد لأهل الكتاب: هلمّوا إلى كلمة عدل بيننا وبينكم"(5).

قال الربيع:أي" عدل بيننا وبينكم"(6).

قال مقاتل:يعني:" كلمة العدل وهي الإخلاص"(7).

قال ابن كثير:" هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن جرى مجراهم"(8).

وفي تفسير:{ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}[آل عمران:٦٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن كلمة السواء: لا إله إلا الله. قاله أبو العالية(9).

والثاني: أنها: الدعوة إلى الإسلام. قاله الحسن(10).

والثالث: أن الرسول-صلى الله عليه وسلم- دعاهم إلى النصف وقطع عنهم الحجة. وهذا قول محمد بن إسحاق(11)، ومحمد بن جعفر بن الزبير(12).

وفي الذين عناهم الله في الآية الكريمة قولان :

أحدهما : أنهم الوفد من نصارى نجران، وهذا قول الحسن والسدي(13)، وابن زيد(14)، ومحمد بن جعفر بن الزبير(15).

والثاني : انهم يهود المدينة، وهذا قول قتادة(16)، والربيع(1)، وابن جريح (2).

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٢):ص٦/٤٨٤.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٢٨):ص٢/٦٦٩.

(٣) تفسير الثعلبي:٣/٨٥-٨٦. ونقله ابن حجر، ثم علّق عليه قائلا:" وإطلاقه على قائل هذا -مع ضعفه- أنه قول المفسرين مما ينكر عليه".[العجاب:٢/٦٨٨].

(٤) العجاب:٢/٦٨٨.

(٥) تفسير الطبري:٦/٤٨٣.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٣٢):ص٢/٦٧٠.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٨١.

(٨) تفسير ابن كثير:٢/٥٥.

(٩)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٢٩):ص٢/٦٦٩.

(١٠)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٣٠):ص٢/٦٧٠.

(١١)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٣١):ص٢/٦٧٠.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٤):ص٦/٤٨٤.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٥):ص٦/٤٨٤.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٦):ص٦/٤٨٤-٤٨٥.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٤):ص٦/٤٨٤.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧١٩١):ص٦/٤٨٣.

والراجح-والله أعلم- " أن يكون كل كتابيّ معنيًّا به. لأن إفرادَ العبادة لله وحدَه ، وإخلاصَ التوحيد له ، واجبٌ على كل مأمور منهيٍّ من خلق الله"[٣].

قوله تعالى: { أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا }[آل عمران:٦٤]، " أي: أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً"[٤].

قال الطبري:" والكلمة العدل ، هي أن نوحِّد الله فلا نعبد غيره ، ونبرأ من كل معبود سواه ، فلا نشرك به شيئًا"[٥].

قال التستري:" وأصل العبادة: التوحيد مع أكل الحلال وكف الأذى، ولا يحصل الأكل الحلال إلاّ بكف الأذى، ولا كف الأذى إلاّ بأكل الحلال، وأن تعلموا أكل الحلال وترك أذى الخلق والنية في الأعمال كما تعلموا فاتحة الكتاب، ليصفوا إيمانكم وقلوبكم وجوارحكم، فإنما هي الأصول"[٦].

قوله تعالى: { وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ }[آل عمران:٦٤]، أي: ولا يعبد بعضنا بعضا من دون الله[٧].

قال ابن جريج:" يقال: إن الربوبية أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم في غير عبادة"[٨].

قال عكرمة: " سجود بعضهم لبعض"[٩] ،" قوله: {أربابا}: يعني الأصنام"[١٠].

قال مقاتل:" لأنهم اتخذوا عيسى ربا"[١١].

قال الطبري:أي:" ولا يدين بعضُنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي الله ، ويعظّمه بالسجود له كما يسجدُ لربه"[١٢].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ}[آل عمران:٦٤] وجهان:

أحدهما : هو طاعة الاتباع لرؤسائهم في أوامرهم بمعاصي الله ، وهذا قول ابن جريج [١٣].

والثاني : سجود بعضهم لبعض ، هذا قول عكرمة [١٤].

قوله تعالى: { فَإِنْ تَوَلَّوْا }[آل عمران:٦٤]، أي:" فإن أعرضوا عما دعوتَهم إليه"[١٥].

قال ابن كثير:" أي : فإن تولوا عن هذا النَّصَف"[١٦].

قوله تعالى: { فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }[آل عمران:٦٤]، " أي :فأشْهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم"[١٧].

قال مقاتل:" يعني فإن أبوا التوحيد فقولوا لهم أنتم: اشهدوا باننا مخلصون بالتوحيد"[١٨].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧١٩٢):ص٤٨٤/٦.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٢٨):ص٦٦٩/٢.
(٣) تفسير الطبري:٤٨٥/٦.
(٤) صفوة التفاسير:١٩٠.
(٥) تفسير الطبري:٤٨٣/٦.
(٦) تفسير التستري:٤٨.
(٧) انظر: صفوة التفاسير:١٩٠.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٣٤):ص٦٧٠/٢.
(٩)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٣٥):ص٦٧٠/٢.
(١٠)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٣٣):ص٦٧٠/٢.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨١/١.
(١٢) تفسير الطبري:٤٨٣/٦.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٣٤):ص٦٧٠/٢.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٣٥):ص٦٧٠/٢.
(١٥) تفسير الطبري:٤٨٣/٦.
(١٦)تفسير ابن كثير:٥٦/٢.
(١٧)تفسير ابن كثير:٥٦/٢.
(١٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨١/١.

قال الزجاج:" أي مقرون بالتوحيد مستسلمون لما أتتنا به الأنبياء من قبل الله عز وجل"[١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: التنزّل مع الخصم لالتزامه الحق، لقوله:{سواء بيننا وبينكم}، ولاشك بان الحق مع الرسول-صلى الله عليه وسلم-، لكن من تنزّل معه من أجل إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه.
٢- جود استعمال العدل في المناظرة حتى مع العدو.
٣- اتفاق الرسل على هذه الكلمة:{ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا}، لكونها كلمة سواء.
٤- أن الحكم لله بين الناس، وأنه ليس لأحد أن يشرع من دون الله.
٥- أن الحكم بين الناس والعبادة مقترنان، لأن عبادة الله تكون في شريعته.
٦- التزام الحق والبراءة من الخصم، وذلك إذا تولى وأعرض بعد إقامة الحجة عليه.
٧- لاعتزاز بالدين، لقوله:{فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}.

القرآن

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)} [آل عمران : ٦٥]

التفسير:

يا أصحاب الكتب المنزلة من اليهود والنصارى، كيف يجادل كل منكم في أن إبراهيم عليه السلام كان على ملّته، وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده؟ أفلا تفقهون خطأ قولكم: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، وقد علمتم أن اليهودية والنصرانية حدثت بعد وفاته بحين؟

في سبب نزول الآيات[٦٥-٦٧] أقوال:

أحدها: أنها نزلت في اختصام اليهود والنصارى في إبراهيم ، وادعاء كل فريق منهم أنه كان منهم. وهذا قول ابن عباس[٢]، والسدي[٣]، وقتادة[٤]، والشعبي[٥].

والثاني: أنها نزلت في دعوى اليهود إبراهيم أنه منهم. قاله مجاهد[٦]، وقتادة[٧]، والربيع[٨].

والثالث: وقال مقاتل:"وذلك أن رؤساء اليهود كعب بن الأشرف، وأبا ياسر، وأبا الحقيق وزيد بن التابوه، ونصارى نجران، يقولون: إبراهيم أولى بنا والأنبياء منا كانوا على ديننا، وما تريد إلا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ربا، وقالت النصارى: ما تريد بأمرك إلا أن نتخذك ربا كما اتخذت اليهود عزيرا ربا. قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: معاذ الله من ذلك، ولكني أدعوكم إلى أن تعبدوا الله جميعا، ولا تشركوا به شيئا، فأنزل الله- عز وجل:{يا أهل الكتاب لم تحاجون}"[٩].

قوله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ}[آل عمران : ٦٥]، " أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم"[١٠].

---

(١) معاني القرآن:٤٢٦/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٢٠٢):ص٤٩٠/٦.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٦٣٧):ص٦٧١/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٢٠٣):ص٤٩١/٦.
(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٦٣٧):ص٦٧١/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٢٠٦):ص٤٩١/٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٢٠٤):ص٤٩١/٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٢٠٥):ص٤٩١/٦.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٢/١-٢٨٣.
(١٠) صفوة التفاسير:١٩٠.

قال مجاهد:يعني:" اليهود والنصارى، برأه الله منهم حين ادعت كل أمة أنه منهم، وألحق به المؤمنين من كان من أهل الكتاب الحنيفية"[١]. وروي عن أبي العالية والسدي نحو ذلك[٢].

قوله تعالى:{وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ} [آل عمران : ٦٥]،" أي: والحال أنه ما حدثت هذه الأديان إلا من بعده"[٣].

قال مقاتل:" أى: بعد موت إبراهيم"[٤].

قال الثعلبي:أي:" بعد مهلك إبراهيم بزمان طويل، وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة"[٥].

قال ابن عباس:" فأخبرهم الله أنّ التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده ، وبعده كانت اليهودية والنصرانية"[٦].

قال الحسن:" والله ما أنزلت التوراة والإنجيل إلا على ملة إبراهيم، فلم تحاجون في إبراهيم"[٧].

قال قتادة:" كانت اليهودية بعد التوراة، وكانت النصرانية بعد الإنجيل"[٨].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [آل عمران : ٦٥]، أي: أفلا" تفقهون خطأ قيلكم"[٩].

قال ابن زيد:" أفلا تتفكرون"[١٠].

قا المراغي:أي:" أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعا له"[١١].

قال السعدي:" أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك"[١٢].

الفوائد:

١-توبيخ أهل الكتاب بسبب مجادلتهم في إبراهيم –عليه الصلاة والسلام-.
٢-علو شأن إبراهيم-عليه السلام- بين جميع الطوائف: اليهود والنصارى والمسلمين.
٣-بيان الاحتجاج بالعقل، ولاينبغي إهمال العقل في الاستدلال.
٤-إثبات أن التوراة والانجيل منزلة من عندالله.
٥-إثبات علو الله، لأن النزول لايكون إلا من أعلى.
٦-النداء على بني إسرائيل بالسفه.
٧-الإشادة بالعقل، وأنه يحمل صاحبه على السداد والصواب.

القرآن

{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)} [آل عمران : ٦٦]

التفسير:

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦٣٨):ص٦٧١/٢.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٦٣٨):ص٦٧١/٢.
(٣) صفوة التفاسير:١٩٠.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٣/١.
(٥) تفسير الثعلبي:٨٧/٣.
(٦) أخرجه الطري(٧٢٠٢):ص٤٩٠/٦.
(٧) تفسير ابن ابي حاتم(٣٦٣٩):ص٦٧١/٢.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦٤٠):ص٦٧١/٢.
(٩) تفسير الطبري:٤٩٢/٦.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٦٤١):ص٦٧١/٢.
(١١) تفسير المراغي:١٨١/٣.
(١٢) تفسير السعدي:١٣٤.

ها أنتم يا هؤلاء جادلتم رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم فيما لكم به علم مِن أمر دينكم، مما تعتقدون صحته في كتبكم، فلِمَ تجادلون فيما ليس لكم به علم من أمر إبراهيم؟ والله يعلم الأمور على خفائها، وأنتم لا تعلمون.

قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} [آل عمران : ٦٦]، أي: ها انتم جادلتم وخاصمتم "بما كان في زمانكم وأدركتموه"(١).

قال الثعلبي:" يعني: في أمر محمد، لأنهم كانوا يعلمونه مما يجدون من نعته في كتابهم فحاجوا به بالباطل"(٢).

قال الصابوني: "أي: ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصمتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه"(٣).

قال قتادة:"يقول : فيما شهدتم ورأيتم وعاينتم"(٤). وروي عن أبي العالية(٥) نحو ذلك.

قال السدي:" أما {الذي لهم به علم}، فما حرّم عليهم وما أمروا به"(٦).

قال الحسن:" يعذر من حاج بعلم، ولا يعذر من حاج بالجهل"(٧).

قال ابن كثير:" هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به ، فإنَّ اليهود والنصارى تَحَاجوا في إبراهيم بلا علم ، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علْم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لكان أولى بهم ، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به ، فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة ، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها"(٨).

واختلفت القراءة في قوله: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ} [آل عمران : ٦٦]، فقرأه أهل المدينة بغير همز ولا مد إلا بقدر خروج الألف الساكنة، وقرأ أهل مكة مهموزا مقصورا على وزن "هعنتم"، وقرأ أهل الكوفة بالمد والهمز، وقرأ الباقون بالمد دون الهمز(٩).

قوله تعالى: { فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ } [آل عمران : ٦٦]، أي:"فلم تجادلون وتخاصمون في الذي لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه"(١٠).

قال الثعلبي:أي:" من حديث إبراهيم فليس في كتابكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا"(١١).

قال البغوي:يقول:" وليس في كتابكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا، وقيل حاججتم فيما لكم به علم يعني في أمر محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم وجدوا نعته في كتابهم، فجادلوا فيه بالباطل"(١٢).

قال قتادة: يعني:" فيما لم تشاهدوا ولم تروا ولم تعاينوا"(١٣). وروي عن أبي العالية(١٤) نحو ذلك

قال السدي:" وأما {الذي ليس لهم به علم}، فشأن إبراهيم"(١).

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين:٢٩٤/١.
(٢) تفسير الثعلبي:٨٧/٣.
(٣) صفوة التفاسير:١٩٠.
(٤) أخرجه الطبري(٧٢٠٩):ص٤٩٣/٦.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٤٢):ص٦٧٢/٢.
(٦) أخرجه الطبري(٧٢٠٨):ص٤٩٢/٦-٤٩٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٤٤):ص٦٧٢/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٥٧/١.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٨٧/٣، والسبعة:٢٠٧.
(١٠) تفسير الطبري:٤٩٢/٦.
(١١) تفسير الثعلبي:٨٧/٣.
(١٢) تفسير البغوي:٥١/٢.
(١٣) أخرجه الطبري(٧٢٠٩):ص٤٩٣/٦.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٤٥):ص٦٧٢/٢.

قال الحسن:" لا يعذر من حاج بالجهل"[2].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}[آل عمران : ٦٦]، أي:" والله يعلم ما حاججتم فيه، وأنتم جاهلون به"[3].

قال الزمخشري:" والله يعلم علم ما حاججتم فيه وأنتم جاهلون به"[4].

قال الصابوني: "أي: والله يعلم الحقَّ من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك"[5].

الفوائد:

١ – ذم المحاجة بغير علم.

٢ – إقرار الإنسان على المحاجة بالعلم شريطة القصد الحسن والوصول إلى الحق.

٣ – إثبات العلم لله عزّ وجل.

٤ – أن المحاج فيما ليس له به علم، ليس عنده علم، لأن المحاجة فرع من العلم.

٥ – إثبات علم الله في الحاضر والمستقبل دائما، لقوله:{يعلم}.

القرآن

{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)} [آل عمران : ٦٧]

التفسير:

ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، فلم تكن اليهودية ولا النصرانية إلا من بعده، ولكن كان متبعًا لأمر الله وطاعته، مستسلمًا لربه، وما كان من المشركين.

في سبب نزول الآية، قولان:

أحدها: قال عامر:": قالت اليهود : إبراهيم على ديننا. وقالت النصارى : هو على ديننا. فأنزل الله عز وجل : {ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا}الآية ، فأكذبهم الله ، وأدحض حجتهم - يعني : اليهودَ الذين ادّعوا أن إبراهيم ماتَ يهوديًّا"[6]. وروي عن الربيع[7] مثله.

الثاني: قال مقاتل: " قال كعب وأصحابه ونفر من النصارى: إن إبراهيم منا وموسى منا والأنبياء منا، فقال الله عز وجل: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}"[8].

قوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} [آل عمران : ٦٧]، " أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية"[9].

قوله تعالى: { وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا } [آل عمران : ٦٧]، أي: ولكن كان"مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم"[10].

قال ابن كثير:" أي : مُتَحَنِّفًا عن الشرك قصدًا إلى الإيمان"[11].

---

(١) أخرجه الطبري(٧٢٠٨):ص٤٩٢/٦-٤٩٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٤٧):ص٦٧٢/٢.

(٣) تفسير البيضاوي:٢٢/٢.

(٤) الكشاف:٣٧١/١.

(٥) صفوة التفاسير:١٩٠.

(٦) أخرجه الطبري(٧٢١١):ص٤٩٤/٦. وانظر: سبب نزول الآية:٦٥.

(٧) انظر:تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٤٩):ص٦٧٣/٢، وتفسير الطبري(٧٢١٢):ص٤٩٤/٦.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٤٨):ص٦٧٣/٢.

(٩)صفوة التفاسير:١٩٠.

(١٠) صفوة التفاسير:١٩٠.

(١١) تفسير ابن كثير:٥٨/٢.

قال الطبري:"{حنيفا}: يعني: متبعًا أمرَ الله وطاعته ، مستقيمًا على محجَّة الهدى التي أمر بلزومها، {مسلما}:يعني : خاشعًا لله بقلبه ، متذللا له بجوارحه ، مذعنًا لما فَرَض عليه وألزمه من أحكامه "[1].

وقوله تعالى:{حَنِيفًا}[آل عمران:٦٧]، لأهل اللغة فيه قولان:[2]:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم.

قال الطبري: "(الحنيف)، فإنه المستقيم من كل شيء"[3].

ومنه قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم، والمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف[4].

الثاني: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال، فالمعنى أن إبراهيم عليه السلام حنف إلى دين الله، أي مال إليه، فقوله: {بل ملة إبراهيم حنيفا}، أي: مخالفا لليهود والنصارى منحرفا عنهما.

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى:{حَنِيفًا}[آل عمران:٦٧]، على أقوال[5]:

أحدها: أن الحنيفية حج البيت، والحنيف هو الحاج. وهذا قول ابن عباس[6]، والحسن[7]، ومجاهد[8]، وعطية[9]، وكثير بن زياد[10]، وعبدالله بن قاسم[11]، والضحاك[12]، والسدي[13].

وقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم الإسلام (الحنيفية)، لأنه أول إمام لزم العباد - الذين كانوا في عصره ، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة - اتباعه في مناسك الحج ، والائتمام به فيه. قالوا : فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته ، فهو (حنيف)، مسلم على دين إبراهيم"[14].

والثاني: أنها اتباع الحق، قاله مجاهد[15]، والربيع بن أنس[16].

والثالث: أنها: اتباع إبراهيم في شرائعه التي هي شرائع الإسلام.

فقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم (الحنيفية)، لأنه أول إمام سن للعباد الختان ، فاتبعه من بعده عليه. قالوا : فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم ، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام ، فهو " حنيف " على ملة إبراهيم"[17].

والرابع: أن "الحنيف": هو المخلص دينه لله وحده[18]، قاله السدي[19]، ومقاتل بن سليمان[1]، سليمان[1]، وخصيف[2].

---

(١) تفسير الطبري:٤٩٤/٦.
(٢)انظر: مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(٣) تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
(٥)انظر: مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٧):ص١٠٦/٣، وابن أبي حاتم(١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢، وتفسير الطبري(٢٠٩١):ص١٠٤/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٤):ص١٠٦/٣.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٢)، و(٢٠٩٣):ص١٠٤/٣-١٠٥.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٥):ص١٠٦/٣.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٨):ص١٠٦/٣.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
(١٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
(١٤) تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٩):ص١٠٦/٣، وابن أبي حاتم(١٢٩٢):ص٢٤١/١.
(١٦)انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩٢):ص٢٤١/١.
(١٧) تفسير الطبري: ١٠٦/٣.
(١٨) انظر: تفسير الطبري: ١٠٦/٣.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(٢١٠٠):ص١٠٧/٣.

والخامس: وقيل: (الحنيفية) الإسلام. فكل من ائتم بإبراهيم في ملته فاستقام عليها ، فهو (حنيف).
قال القفال: "وبالجملة فالحنيف لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب الديانات، وأصله من إبراهيم عليه السلام"(٣).
والسادس: أن الحنيف: المستقيم. قاله محمد بن كعب(٤)، وروي عن عيسى بن جارية(٥) مثله.
السابع: أن الحنيف: الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة(٦).
الثامن: أن الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا. قاله أبو العالية(٧).
التاسع: أن الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات، والعمات، وما حرم الله عز وجل، والختان. وكانت حنيفة في الشرك: كانوا أهل الشرك، وكانوا يحرمون في شركهم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وكانوا يحجون البيت، وينسكون المناسك. قاله قتادة(٨).
والصواب: أن (الحنيفية) هو الإستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته.
قال الثعلبي: "فالحنيف الذي يوحد ويحج ويضحي ويختن ويستقبل القبلة وهو أسهل الأديان وأحبها إلى الله وأهله أكرم الخلق على الله"(٩).
قال الإمام الطبري: "لو كانت الحنيفية حج البيت ، لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء. وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفا بقوله : {ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} [سورة آل عمران : ٦٧]، فكذلك القول في الختان. لأن " الحنيفية " لو كانت هي الختان ، لوجب أن يكون اليهود حُنفاء. وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله : {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [سورة آل عمران : ٦٧].
فقد صحّ إذًا أن " الحنيفية " ليست الختانَ وحدَه ، ولا حجَّ البيت وحده ، ولكنه هو ما وصفنا : من الاستقامة على ملة إبراهيم ، واتباعه عليها ، والائتمام به فيها. فإن قال قائل : أوَ ما كان مَنْ كان من قبل إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، من الأنبياء وأتباعهم ، مستقيمين على ما أمروا به من طاعة الله استقامة إبراهيم وأتباعه ؟
قيل : بَلى. فإن قال : فكيف أضيف " الحنيفية " إلى إبراهيم وأتباعه على ملته خاصة ، دون سائر الأنبياء قبله وأتباعهم ؟ قيل : إنّ كل من كان قبل إبراهيم من الأنبياء كان حنيفًا متّبعًا طاعة الله ، ولكن الله تعالى ذكره لم يجعل أحدًا منهم إمامًا لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة ، كالذي فعل من ذلك بإبراهيم ، فجعله إمامًا فيما بيّنه من مناسك الحج والختان ، وغير ذلك من شرائع الإسلام ، تعبُّدًا به أبدًا إلى قيام الساعة. وجعل ما سنّ من ذلك عَلَمًا مميّزًا بين مؤمني عباده وكفارهم ، والمطيع منهم له والعاصي. فسمِّي الحنيفُ من الناس " حنيفًا " باتباعه ملته ، واستقامته على هديه ومنهاجه ، وسُمِّي الضالُّ من ملته بسائر أسماء الملل ، فقيل : " يهودي ، ونصرانيّ ، ومجوسيّ " ، وغير ذلك من صنوف الملل"(١٠).

---

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤١/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٥):ص٢٤٢/١.
(٣) مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٣):ص٢٤٢/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٤):ص٢٤٢/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٦):ص٢٤٢/١.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٧):ص٢٤٢/١.
(٩) تفسير الثعلبي:٨٨/٣.
(١٠) تفسير الطبري: ١٠٧/٣-١٠٨.

قوله تعالى: { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }[آل عمران : ٦٧]،"أي: كان مسلماً ولم يكن مشركاً"[١].

قال الطبري:"وهذا تكذيبٌ من الله عز وجل دعوَى الذين جادلوا في إبراهيم وملته من اليهود والنصارى ، وادَّعوا أنه كان على ملتهم وتبرئة لهم منه ، وأنهم لدينه مخالفون وقضاءٌ منه عز وجل لأهل الإسلام ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم هم أهل دينه ، وعلى منهاجه وشرائعه ، دون سائر أهل الملل والأديان غيرهم"[٢].

الفوائد:

١-تبرئة إبراهيم-عليه الصلاة والسلام- من دين اليهود والنصارى.

٢-الثناء على إبراهيم-عليه السلام- لقوله:" {وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا}، إذ وصفه بالتوحيد الخالص الذي لايشوبه أي نوع من الشرك.

٣-أنه لابد في التوحيد من شيئين: نفي وإثبات، النفي في قوله:{ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا}، والإثبات في قوله:{ مُسْلِمًا}، لأن الحنيف هو المائل عن الشرك وعن كل دين يخالف الاسلام.

٤-الثناء على إبراهيم بأنه لم يكن فيه صفة من صفات المشركين، فقال:{ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

القرآن

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)} [آل عمران : ٦٨]

التفسير:

إنَّ أحق الناس بإبراهيم وأخصهم به، الذين آمنوا به وصدقوا برسالته واتبعوه على دينه، وهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به. والله وليُّ المؤمنين به المتبعين شرعه.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: نقل الثعلبي[٣] والواحدي عن ابن عباس: "قال رؤساء اليهود: والله يا محمد لقد علمت أنا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك، وأنه كان يهوديا، وما بك إلا الحسد، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٤].

الثاني: نقل السيوطي[٥] وابن حجر عن عبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم[٦]:"أنه لما أن خرج أصحاب رسول الله صلة الله عليه وسلم إلى النجاشي انتدب لهم عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معيط -كذا قال وإنما هو عمارة بن الوليد بن المغيرة[٧]- أرادوا عنتهم والبغي عليهم، فقدموا على النجاشي فأخبروه أن هؤلاء الرهط الذين قدموا عليك من أهل مكة، إنما يريدون أن يخبلوا عليك ملكك، ويفسدوا عليك أرضك، ويشتموا ربك، فأرسل إليهم، فذكر القصة مطولة، وفيها: إن الذي خاطبهم من المسلمين حمزة وعثمان بن مظعون فقال النجاشي لما سمع كلامهم: لا دهوره -أي: لا خوف- على حزب إبراهيم فقال عمرو: من هم حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده، ومن اتبعه، فأنزلت ذلك

---

(١)صفوة التفاسير:١٩٠.

(٢) تفسير الطبري:٤٩٣/٦.

(٣) تفسير الثعلبي:٨٨/٣.

(٤) أسباب النزول:١٠٦.

(٥) انظر الدر المنثور:٢٣٧/٢-٢٣٨.

(٦)قال في "التقريب" "ص٣٤٨": "مختلف في صحبته، وذكره العجلي في كبار ثقات التابعين مات سنة "٧٨".

(٧)قال الحافظ في "الإصابة" القسم الرابع "٣/ ١٧١": "مات كافرا؛ لأن قريشا بعثوه إلى النجاشي فجرت له معه قصة فأصيب بعقله وخام مع الوحش وقد بينت أنه ممن دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم من قريش لما وضع عقبة بن أبي معيط سلا الجزور على ظهره وهو يصلي". وأما ابن أبي معيط فقد أسلم في "الفتح" انظر "الإصابة" "٢/ ٥١٦".

اليوم يوم خصومتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيّ} الآية"[١].

قوله تعالى:{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} [آل عمران:٦٨]،أي: إن "أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه"[٢].

قال ابن عباس:" وهم المؤمنون"[٣].

قال قتادة:" يقول : الذين اتبعوه على ملّته وسنَّته ومنهاجه وفطرته"[٤].

قال الطبري: أي" إنّ أحقّ الناس بإبراهيم ونصرته وولايته، هم: الذين سلكوا طريقه ومنهاجه ، فوحَّدوا الله مخلصين له الدين ، وسنُّوا سُنته ، وشرَعوا شرائعه ، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به"[٥].

قوله تعالى:{وَهَذَا النَّبِيُّ}[آل عمران:٦٨]، أي:" محمد -صلى الله عليه وسلم –"[٦].

قال قتادة:" وهو نبي الله محمد"[٧].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا}[آل عمران:٦٨]، أي:"والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومَنْ بعدهم"[٨].

قال الطبري:" يعني : والذين صدّقوا محمدًا ، وبما جاءهم به من عند الله"[٩].

قال قتادة:" وهم المؤمنون الذين صدّقوا نبيّ الله واتبعوه. كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه من المؤمنين ، أولى الناس بإبراهيم"[١٠].

قال الحسن:" كل مؤمن ولي لإبراهيم ممن مضى وممن بقي"[١١].

عن أبي الحويرث سمع الحكم بن ميناء يقول: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا معشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون فكونوا أنتم بسبيل ذلك فانظروا أن لا يلقاني الناس يحملون الأعمال، وتلقوني بالدنيا تحملونها فأصد عنكم بوجهي، ثم قرأ عليهم هذه الآية: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين}"[١٢].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ }[آل عمران:٦٨]، أي:" والله ناصرُ المؤمنين"[١٣].

قال ابن كثير:" أي : ولي جميع المؤمنين برسله"[١٤].

عن عبد الله بن مسعود قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبيّ ولاةً من النبيين ، وإن وليِّي منهم أبي وخليل ربِّي ، ثم قرأ : {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين}"[١٥].

---

(١) العجاب:٦٩٠/٢. وانظر: قصة عمرو بن العاص وجعفر بن ابي طالب عند النجاشي في سيرة ابن هشام:٣٣٤/١، والمعجم الكبير للطبراني:{١٤٧٨):ص١١٠/٢-١١١، و(١٤٧٩):١١١/٢-١١٢.
(٢) تفسير ابن كثير:٥٨/٢.
(٣) أخرجه الطبري(٧٢١٨):ص٤٩٩/٦.
(٤) أخرجه الطبري(٧٢١٤):ص٤٩٧/٦.
(٥) تفسير الطبري:٤٩٧/٦.
(٦)تفسير الطبري:٤٩٧/٦، انظر:تفسير ابن كثير:٥٨/٢.
(٧) أخرجه الطبري(٧٢١٤):ص٤٩٧/٦.
(٨)تفسير ابن كثير:٥٨/٢.
(٩) تفسير الطبري:٤٩٧/٦.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٢١٤):ص٤٩٧/٦.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٢):ص٦٧٥/٢.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٠):ص٦٧٥/٢.
(١٣) تفسير الطبري:٤٩٧/٦.
(١٤)تفسير ابن كثير:٥٨/٢.
(١٥) أخرجه الطبري(٧٢١٦):ص٤٩٨/٦.

وقال قتادة:" لقد أعظم على الله الفرية من قال: يكون مؤمنا فاسقا، ومؤمنا جاهلا، ومؤمنا خائنا قال الله تعالى في كتابه: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين}، فالمؤمن ولي الله والمؤمن حبيب الله"[1].

الفوائد:

١-إن الولاية درجات، وأحق الناس بالولاية لإبراهيم من اتبعوه في عهده، لكونهم متبعين لابراهيم في أصل الدين وفروع الدين.

٢-شرف النبي-صلى الله عليه وسلم- ومن آمن معه لكونهم أولى الناس بإبراهيم الذي تتنازعه الأمم.

٣-بيان كذبة اليهود والنصارى بانهم اولى الناس بإبراهيم.

٤-تشريف النبي-صلى الله عليه وسلم- بالإشارة إليه من رب العالمين.

٥-إثبات نبوة الرسول محمد-صلى الله عليه وسلم-، وهذا امر لا شك فيه، وكل من وصف بالنبوة في القرآن فهو رسول.

٦-إثبات ولاية الله تعالى للمؤمنين، وهي ولاية خاصة تقتضي عناية تامة.

٧-كل من كان أكمل إيمانا فولاية الله له أكمل.

٨-ان الله جعل الإيمان سببا لولايته.

القرآن

{وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)} [آل عمران : ٦٩]

التفسير:

تمنَّت جماعة من اليهود والنصارى لو يضلونكم -أيها المسلمون- عن الإسلام، وما يضلون إلا أنفسهم وأتباعهم، وما يدرون ذلك ولا يعلمونه.

في سبب نزول الآية، أقوال:

أحدها: تقدم في قوله تعالى في سورة البقرة{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا} البقرة:١٠٩]. وذلك على النحو الآتي:

أ- أنها أنزلت في عامة اليهود والمشركين. قاله الطبري[2].

ب- أخرج الواحدي وابن أبي حاتم، عن عبدالله بن كعب بن مالك: "أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرا، وكان يهجو النبي - صلى الله عليه وسلم - ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يؤذون النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى نبيه بالصبر على ذلك والعفو عنهم وفيهم أنزلت: {ود كثير من أهل الكتاب} إلى قوله: {فاعفوا واصفحوا}"[3]. وروي نحوه عن الزهري[4] وقتادة[5].

ت- وأخرج الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس: " كان حُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا، إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ، وكانا جاهِدَين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٣):ص٦٧٥/٢.

(٢) تفسير الطبري: ٤٩٨/٢-٤٩٩.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٨٣):ص٢٠٤/١-٢٠٥، واخرجه أبو داود في سننه كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة :١٥٤/ ٣ (٣٠٠٠).

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٨٢):ص٢٠٤/١، وتفسير الطبري(١٧٨٦)، و(١٧٨٧):ص٤٩٩/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري(١٧٨٦):ص٤٩٩/٢.

في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله فيهما: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم} الآية"[١].

ث- وقال الواحدي "قال ابن عباس: نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة بدر ألم تروا إلى ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم"[٢].

والثاني: وقال مقاتل بن سليمان:" نزلت في عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان وذلك أن اليهود جادلوهما ودعوهما إلى دينهم. وقالوا: إن ديننا أفضل من دينكم ونحن أهدى منكم سبيلا فنزلت:{ودت طائفة من أهل الكتاب ...} إلى آخر الآية"[٣].

قوله تعالى: {وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ } [آل عمران : ٦٩]، أي:" تمنّت جماعة من اهل الكتاب لو يصدّونكم عن الاسلام"[٤].

قال سفيان:" كل شيء في آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو في النصارى"[٥].

قال الطبري:" و " الإضلال " في هذا الموضع ، الإهلاكُ، من قول الله عز وجل :{ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ }[السجدة : ١٠] ، يعني : إذا هلكنا ، ومنه قول الأخطل في هجاء جرير[٦]:

كُنْتَ القَذَى فِي مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ ... قَذَفَ الأَتِيُّ بِهِ فَضَلّ ضلالا

يعنى : هلك هلاكًا ، وقول نابغة بني ذبيان[٧]:

فَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ ... وَغُودِرَ بِالجَوْلانِ حَزْمٌ ونَائِلُ

يعني مهلكوه"[٨].

قوله تعالى: {وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} [آل عمران : ٦٩]، "أي: وما يهلكون غير أنفسهم"[٩].

قال الطبري:" يعني بـ {أنفسهم}: أتباعهم وأشياعَهم على ملَّتِهم وأديانهم ، وإنما أهلكوا أنفسَهم وأتباعهم بما حاولوا من ذلك لاستيجابهم من الله بفعلهم ذلك سخَطه ، واستحقاقهم به غَضبَه ولعنته ، لكفرهم بالله ، ونقضِهم الميثاقَ الذي أخذ الله عليهم في كتابهم ، في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه ، والإقرار بنبوّته"[١٠].

قوله تعالى: { وَمَا يَشْعُرُونَ} [آل عمران : ٦٩]، أي: وما يفطنون لذلك"[١١].

قال الطبري:" {وما يشعرون}، بأنهم لا يضلون إلا أنفسهم ، بمحاولتهم إضلالكم أيها المؤمنون"[١٢].

الفوائد:

١-بيان عداوة أهل الكتاب للمسلمين إذ يودون الإضلال.

٢-التحذير من أهل الكتاب وأنهم يحاولون صد المسلمين عند دينهم.

٣-أن المعتدي يجازي بمثل عدوانه، ويبتلى ما ابتلى غيره به، لقوله:{وما يضلون إلا أنفسهم}.

---

(١) أخرجه الطبري(١٧٨٨):ص٤٩٩/٢، وابن أبي حاتم(١٠٨١):ص٢٠٤/١.
(٢) أسباب النول للواحدي: ٣٥.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٣/١.
(٤) تفسير الطبري:٤٠٠/٦.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٤):ص٦٧٦/٢.
(٦)) ديوانه : ٥٠ ، ونقائض جرير والأخطل : ٨٣.
(٧)) ديوانه : ٨٣ ، واللسان (ضلل) (جلا).
(٨) تفسير الطبري:٥٠٠/٦.
(٩) تفسير الطبري:٥٠١/٦.
(١٠)تفسير الطبري:٥٠١/٦.
(١١) صفوة التفاسير:١٩٠.
(١٢)تفسير الطبري:٥٠٢/٦.

٤-إحاطة علم الله تعالى في قلوب الخلق، لقوله:{ودت طائفة}، فإن الود محله القلب، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله.

القرآن

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)} [آل عمران : ٧٠]

التفسير:

يا أهل التوراة والإنجيل لم تجحدون آيات الله التي أنزلها على رسله في كتبهم، وفيها أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الرسول المنتظر، وأن ما جاءكم به هو الحق، وأنتم تشهدون بذلك؟ ولكنكم تنكرونه.

قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ} [آل عمران : ٧٠]أي: يا أهل الكتاب "لم تجحدون بالقرآن"[١].

قال السدي:" أما {آيات الله}، فمحمد صلى الله عليه وسلم"[٢].

وقال مقاتل بن حيان:" {لم تكفرون بآيات الله}، يقول: لم تكفرون بالحجج"[٣].

قال مقاتل بن سليمان: {آيات الله}،"يعني القرآن"[٤].

قال الثعلبي: {أهل الكتاب}: "يعني: اليهود والنصارى، {آيات الله}: يعني القرآن وبيان نعت محمد صلى الله عليه وسلم"[٥].

قال عباد بن منصور:"سألت الحسن عن قوله: {لم تكفرون}، قال: تجحدون"[٦].

قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} [آل عمران : ٧٠]، أي:"وأنتم تعلمون انه حق"[٧].

قال الحسن:يعني:" تعرفون وتجحدون وتعلمون أنه الحق"[٨].

قال ابن جريج:يعني:" على أن الدين الإسلام ليس لله دين غيره"[٩].

قال السدي:" أما {تشهدون}، فتشهدون أنه الحق يجدونه عندهم مكتوبا"[١٠].

قال الربيع بن أنس:" تشهدون أن نعت نبي الله صلى الله عليه وسلم في كتابكم، ثم تكفرون به ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه عندكم في التوراة والإنجيل: النبي الأمي"[١١]. وروي عن قتادة نحو ذلك[١٢].

وعن مقاتل بن حيان:" قوله: {لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون}، أن القرآن حق وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل"[١٣].

وقال مقاتل بن سليمان:أي:" أن محمدا رسول الله ونعته معكم فى التوراة"[١٤].

قال الثعلبي:" إن نعته مذكور في التوراة والإنجيل"[١٥].

---

(١) تفسير السمرقندي:٢٢٢/١.
(٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٦):ص٦٧٦/٢.
(٣)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٧):ص٦٧٦/٢.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٣/١.
(٥) تفسير الثعلبي:٩٠/٣.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٥):ص٦٧٦/٢.
(٧) صفوة التفاسير:١٩٠.
(٨)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٧١):ص٦٧٧/٢.
(٩)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٧٢):ص٦٧٧/٢.
(١٠)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٨):ص٦٧٦/٢.
(١١)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٩):ص٦٧٦/٢-٦٧٧.
(١٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٦٩):ص٦٧٦/٢-٦٧٧.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٧٠):ص٦٧٧/٢.
(١٤)تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٣/١.
(١٥) تفسير الثعلبي:٩٠/٣.

قال ابن كثير:" أي : تعلمون صدقها وتتحققون حقها"(١).
قال السمرقندي:{وأنتم تشهدون}"بأنه نبي، لأنهم كانوا يخبرون بأمره قبل مبعثه ويقال: بآيات الله، يعني بعجائبه ودلائله. ويقال: بآية الرجم"(٢).
قال ابن أبي زمنين:" يعني به خاصة علمائهم؛ لأنهم يجدون نعت محمد في كتابهم، ثم كفروا به وأنكروه"(٣).
قال الطبري:" وإنما هذا من الله عز وجل ، توبيخٌ لأهل الكتابين على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحودهم نبوّته ، وهم يجدونه في كتبهم ، مع شَهادتهم أن ما في كتبهم حقٌّ ، وأنه من عند الله"(٤).
قال الراغب:" لشهادة: الإخبار بالشيء عن مشاهدة: إما ببصر، أو ببصيرة، ثم يعبر بها عن المعرفة القطعية لصحة ما يدعي، وإن كان المدعى عليه منكرا بلسانه كقولك لخصمك: أنت تشهد أن الأمر بخلاف ما تذكره"(٥).
الفوائد:
١-توبيخ اهل الكتاب على كفرهم بآيات الله عزّ وجل، وهم يشهدون صدقها.
٢-الحكم الصريح على أهل الكتاب ممن لم يؤمنوا بمحمد-صلى الله عليه وسلم- بالكفر، فقال:{لم تكفرون بآيات الله}، والكفر بآيات الله كفر بالله.
٣-أن هؤلاء الكفار كفروا عن علم وشهادة، لقوله:{وأنتم تشهدون}.

القرآن
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)} [آل عمران : ٧١]
التفسير:
يا أهل التوراة والإنجيل لِمَ تخلطون الحق في كتبكم بما حرفتموه وكتبتموه من الباطل بأيديكم، وتُخْفون ما فيهما من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن دينه هو الحق، وأنتم تعلمون ذلك؟
سبب النزول:
قال ابن عباس:" قال عبد الله بن الصيِّف ، وعدي بن زيد ، والحارث بن عوف ، بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدْوةً ونكفُر به عشيةً ، حتى نلبس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنعُ ، فيرجعوا عن دينهم! فأنزل الله عز وجل فيهم :{ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحقّ بالباطل} إلى قوله :{والله واسع عليم}"(٦).
قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ} [آل عمران : ٧١]،أي:" يا أهل التوراة والإنجيل لم تخلطون الحق بالباطل"(٧).
قال قتادة:" يقول : لم تلبسون اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أنّ دين الله الذي لا يقبل غيرَه ، الإسلام ، ولا يجزي إلا به ؟"(٨). وري عن الربيع(٩)، وابن جريج(١٠) نحو ذلك.

(١) تفسير ابن كثير:٥٩/٢.
(٢)تفسير السمرقندي:٢٢٢/١.
(٣) تفسير ابن أبي زمنين:٢٩٥/١.
(٤) تفسير الطبري:٥٠٢/٦.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني:٦٢٩/٢.
(٦) أخرجه الطبري(٧٢٢٣):ص٥٠٤/٦.
(٧) تفسير الطبري:٥٠٣/٦.
(٨) أخرجه الطبري(٧٢٢٤):ص٥٠٤/٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٢٢٥):ص٥٠٤/٦.
(١٠)انظر: تفسير الطبري(٧٢٢٦):ص٥٠٤/٦.

وقال ابن زيد:" {الحقّ}: التوراة التي أنزل الله على موسى، و {الباطل}، الذي كتبوه بأيديهم"(١),

قال الطبري:" وكان خلطهم الحقّ بالباطل ، إظهارهم بألسنتهم من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله ، غيرَ الذي في قلوبهم من اليهودية والنصرانية"(٢).

قوله تعالى:{وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران : ٧١]، أي: و" تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنتم تعلمون ذلك"(٣).

قال الطبري:" و{الحق}الذي كتموه : ما في كُتُبهم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه ونبوّته"(٤).

قال قتادة:" كتموا شأنَ محمد ، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وَينهاهم عن المنكر"(٥). وروي عن الربيع(٦) مثل ذلك.

قال مقاتل بن سليمان:" وذلك أن اليهود أقروا ببعض أمر محمد- صلى الله عليه وسلم- وكتموا بعضا"(٧).

وقال ابن جريج : {تكتمون الحق}، الإسلام ، وأمرَ محمد صلى الله عليه وسلم {وأنتم تعلمون} أنّ محمدًا رسولُ الله ، وأنّ الدين الإسلامُ"(٨).

الفوائد:

١-أن هؤلاء ا لكفار من اهل الكتاب كانوا يخادعون ويمكرون بلبس الحق بالباطل.
٢-الحذر وعدم الاغترار من اهل الباطل إذا لبسوا الحق بالباطل.
٣-التوبيخ لمن سلك هذ المسلك، فكل من كان على شاكلتهم يستحق هذا التوبيخ.
٤-وجوب بيان الحق على من علمه، لقوله:{ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }.

القرآن

{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)} [آل عمران : ٧٢]

التفسير:

وقالت جماعة من أهل الكتاب من اليهود: صدِّقوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا أول النهار واكفروا آخره; لعلهم يتشككون في دينهم، ويرجعون عنه.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال السدي :"كان أحبارُ قُرَى عربية اثني عشر حبرًا ، فقالوا لبعضهم : ادخلوا في دين محمد أول النهار ، وقولوا : نشهد أن محمدًا حقّ صادقٌ، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا : إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم ، فحدَّثونا أن محمدًا كاذب ، وأنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم، لعلهم يشكّون ، يقولون : هؤلاء كانوا معنا أوّل النهار ، فما بالهم ؟ فأخبر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك"(٩). وروي عن ابن عباس(١٠)، وأبي مالك الغفاري، والحسن(١) نحو ذلك(٢).

---

(١) أخرجه الطبري(٧٢٢٧):ص٦/٥٠٥.
(٢)تفسير الطبري:٦/٥٠٤.
(٣) صفوة تلفاسير:١/١٩٠-١٩١.
(٤)تفسير الطبري:٦/٥٠٥.
(٥) أخرجه الطبري(٧٢٢٨):ص٦/٥٠٥.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٢٢٩):ص٦/٥٠٥.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٨٤.
(٨) أخرجه الطبري(٧٢٣٠):ص٦/٥٠٥-٥٠٦.
(٩)أخرجه الطبري(٧٢٣٣):ص٦/٥٠٧.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٨٣)، و(٣٦٨٥):ص٢/٦٧٩. في اسناده قابوس، وهو ضعيف.

الثاني: نقل الواحدي عن مجاهد ومقاتل والكلبي:"هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود لمخالفتهم، قال كعب بن الأشرف وأصحابه: آمنوا بالذي أنزل على محمد من أمر الكعبة، وصلوا إليها أول النهار، ثم اكفروا بالكعبة آخر النهار، وارجعوا إلى قبلتكم الصخرة، لعلهم يقولون هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم منا، فربما يرجعون إلى قبلتنا فحذر الله تعالى نبيه مكر هؤلاء، وأطلعه على سرهم، وأنزل: {وقالت طائفة من أهل الكتاب} الآية"[٣].

قوله تعالى: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}[آل عمران:٧٢]، أي: وقالت جماعة من اليهود[٤].

قال الزجاج:" الطائفة الجماعة، وهم إليهود"[٥].

وقد اختلف أهل التفسير في صفة المعنى الذي أمرت به هذه الطائفة من الإيمان وجه النهار وكفر آخره، وفيه قولان:

أحدهما: أن ذلك كان أمرًا منهم إياهم بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم في نبوّته وما جاء به من عند الله ، وأنه حق، في الظاهر من غير تصديقه في ذلك بالعزم واعتقاد القلوب على ذلك وبالكفر به وجحود ذلك كله في آخره. وهذا قول قتادة[٦]، وأبي مالك[٧]، والسدي[٨].

والثاني: بل الذي أمرَت به من الإيمان : الصلاةُ ، وحضورها معهم أول النهار ، وتركُ ذلك آخرَه. وهذا قول ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠].

قوله تعالى: {آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ }[آل عمران:٧٢]، " أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه"[١١].

قال مجاهد:" قال : صلوا معهم الصبح ، ولا تصلّوا معهم آخرَ النهار ، لعلكم تستزلُّونهم بذلك"[١٢].

قال قتادة:"{وجه النهار}: اول النهار"[١٣].

قال الربيع:" {وجه النهار}: أول النهار،{واكفروا آخره}، يقول : آخر النهار"[١٤].

وسمَّى أوّل النهار: وجه النهار، لأنه أحسنه، وأوّلُ ما يواجه الناظرَ فيراه منه ، كما يقال لأول الثوب : وجهه[١٥]، ومن ذلك قول ربيع بن زياد[١٦] :

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ ... فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[آل عمران:٧٢]،أي: "لعلهم يرجعون عن دينهم معكم ويَدَعونه"[١].

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي:٩١/٣، وأسباب النزول:١٠٩.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٢٣٤):ص٥٠٧/٦-٥٠٨.
(٣) اسباب النزول:١٠٩-١١٠.
(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج:٤٢٩/١.
(٥) معاني القرآن:٤٢٩/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٢٣١):ص٥٠٦/٦.
(٧)انظر: تفسير الطبري(٧٢٣٢):ص٥٠٧/٦.
(٨)انظر: تفسير الطبري(٧٢٣٣):ص٥٠٧/٦.
(٩)انظر: تفسير الطبري(٧٢٣٧):ص٥٠٨/٦.
(١٠)انظر: تفسير الطبري(٧٢٣٥):ص٥٠٨/٦.
(١١) تفسير السعدي:١٣٤.
(١٢) أخرجه الطبري(٧٢٤٠):ص٥٠٩/٦-٥١٠.
(١٣) أخرجه الطبري(٧٢٣٨):ص٥٠٩/٦.
(١٤) أخرجه الطبري(٧٢٣٩):ص٥٠٩/٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري:٥٠٨/٦-٥٠٩.
(١٦) انظر البيت في: مجاز القرآن ١ / ٩٧ ، حماسة أبي تمام ٣ / ٢٦ ، والأغاني ١٦ / ٢٧ ، والخزانة ٣ / ٥٣٨ ، واللسان (وجه).

قال ابن عباس:" لعلهم ينقلبون عن دينهم"[2].
قال السدي:" لعلهم يشكّون"[3].
قال مجاهد: "لعلهم يرجعون عن دينهم"[4].
قتادة:" يقول : لعلهم يدَعون دينهم ، ويرجعون إلى الذي أنتم عليه"[5].
قال مقاتل بن سليمان:" يعني :لكي يرجعوا عن دينهم إلى دينكم"[6].
قال ابن كثير:" هذه مكيدة أرادوها ليلبسُوا على الضعفاء من الناس أمْر دينهم ، وهو أنهم اشْتَوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويُصَلّوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس : إنما رَدّهم إلى دينهم اطّلاعهُم على نقيصة وعيب في دين المسلمين"[7].
الفوائد:
١-بيان كيد الكافرين للمسلمين، وذلك بسلوك طرق الحيل المتنوعة.
٢-قد يكون في أهل الكتاب منافقون، لقوله: {آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ }، لأن المؤمن حقا لابد أن يستقر الايمان في قلبه ولا يكفر ولايرجع.
٣-أن المؤمن قد يخدع بمثل هذه الخديعة، فيتظاهر عدوه بانه موافق له ثم يبرأ منه في النهاية.

القرآن
{وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)} [آل عمران : ٧٣]
التفسير:
ولا تصدِّقوا تصديقًا صحيحًا إلا لمَن تبع دينكم فكان يهودياً، قل لهم -أيها الرسول-: إن الهدى والتوفيق هدى الله وتوفيقه للإيمان الصحيح. وقالوا: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلمون منكم فيساووكم في العلم به، وتكون لهم الأفضلية عليكم، أو أن يتخذوه حجة عند ربكم يغلبونكم بها. قل لهم -أيها الرسول-: إن الفضل والعطاء والأمور كلها بيد الله وتحت تصرفه، يؤتيها من يشاء ممن آمن به وبرسوله. والله واسع عليم، يَسَعُ بعلمه وعطائه جميع مخلوقاته، ممن يستحق فضله ونعمه.
في سبب نزول قولان:
أحدهما: قال السدي : "قال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم : {قل إنّ الهدى هُدَى الله أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم}، يقول ، مثل ما أوتيتم يا أمة محمد {أو يحاجوكم عند ربكم}، تقول اليهود : فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة ، حتى أنزل علينا المن والسلوى، فإن الذي أعطيتكم أفضلُ، فقولوا: {إن الفضْل بيد الله يؤتيه من يشاء}، الآية"[8].
الثاني:قال أبو مالك:" كان اليهود يقول أحبارهم للذين من دونهم لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأنزل الله تعالى: {قل إن الهدى هدى الله}"[9].

---

(١) تفسير الطبري:٦/٥١٠.
(٢)أخرجه الطبري(٧٢٤٣):ص٦/٥١٠.
(٣)أخرجه الطبري(٧٢٤٤):ص٦/٥١٠.
(٤)أخرجه الطبري(٧٢٤٥):ص٦/٥١٠.
(٥) أخرجه الطبري(٧٢٤١):ص٦/٥١٠.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٨٤.
(٧) تفسير ابن كثير:٢/٥٩.
(٨) تفسير الطبري(٧٢٥١):ص٦/٥١٣.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٩١):ص٢/٦٨٠، وانظر: (٣٦٩٣):ص٢/٦٨١.

قوله تعالى:{وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران : ٧٣]، أي:" لا تصدقوا ولا تظهروا سرّكم وتطمئنوا لأحدٍ إلا إذا كان على دينكم"[١].

قال أبو عبيدة:أي:" لا تقرّوا: لا تصدّقوا"[٢].

قال الفراء:" فإنه يقال: إنها من قول اليهود. يقول: ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم"[٣].

قال الطبري:أي:" لا تؤمنوا إلا لمن آمن بدينكم، ومَنْ خالفه فلا تؤمنوا له"[٤].

قال الثعلبي:أي:" ولا تصدقوا إلا من وافق ملتكم وصلى إلى قبلتكم"[٥].

قال الزجاج:" قيل:المعنى: لا تجعلوا تصديقكم النبي في شيء مما جاءكم به إلا لليهود، فإنكم إن قلتم ذلك للمشركين كان عونا لهم على تصديقه، وقال أهل اللغة وغيرهم من أهل التفسير: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم، أي لا تصدقوا أن يعطى أحد من علم النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل ما أعطيتم "[٦].

وقال الزمخشري:أي:" ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار، إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ولأن إسلامهم كان أغيظ لهم"[٧].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران : ٧٣]، وجهان[٨]:

أحدهما: معناه لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم. قاله الكلبي[٩]، وهو قول الجمهور.

والثاني: أن المعنى: لا تعترفوا بالحق إلا لمن تبع دينكم.

واخْتُلِفَ في الذين قالوا ذلك على قولين:

أحدهما: أنهم كافة اليهود , قال ذلك بعضهم لبعض , وهذا قول قتادة[١٠]، والربيع[١١]، والسدي[١٢], وابن زيد[١٣].

والثاني: أنهم يهود خبير قالوا ذلك ليهود المدينة , وهذا قول الحسن[١٤].

واختلف في سبب نهيهم أن يؤمنوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دينهم على قولين[١٥]:

أحدهما: أنهم نُهُوا عن ذلك لِئَلاً يكون طريقاً لعبدة الأوثان إلى تصديقه, وهذا قول الزجاج[١٦].

والثاني: أنهم نُهُوا عن ذلك لِئَلاً يعترفوا به فيلزمهم العمل بدينه لإقرارهم بصحته.

وقد ذكر الماتريدي في تفسير قوله تعالى:{وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران : ٧٣]، وجوها[١٧]:

---

(١) صفوة التفاسير:١٩١.
(٢) مجاز القرآن:٩٧/١.
(٣) معاني القرآن:٢٢٢/١.
(٤) تفسير الطبري:٥١٢/٦.
(٥) تفسير الثعلبي:٩١/٣.
(٦) معاني القرآن:٤٣٠/١.
(٧) الكشاف:٣٧٤/١.
(٨) انظر: النكت والعيون:٤٠١/١.
(٩) انظر: تفسير السمرقندي:٢٢٣/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٢٤٦):ص٥١١/٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٢٤٧):ص٥١١/٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٢٤٧):ص٥١١/٦.[أعطاه المحقق –رحمه الله-رقم الخبر السابق نفسه، لعله سهو].
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٢٤٨):ص٥١١/٦-٥١٢
(١٤) انظر: النكت والعيون:٤٠١/١.
(١٥) انظر: النكت والعيون:٤٠١/١.
(١٦) انظر: معاني القرآن:٤٣٠/١.
(١٧) انظر: تفسير الماتريدي:٤٠٦/٢.

أحدها: يحتمل أن يكون في السر، أي لاتصدقوهم في السرّ، وإن أعطيتم لهم الظاهر.
والثاني: أن يكون بعد ما أظهرتم، اكفروا آخره.
والثالث: أن المعنى: لا تؤمنوا بما جاء به، إلا لأجل من تبع دينكم؛ فيكون عندهم قدوة، يتقرر عندهم -بالذي فعلتم- أنكم أهل الحق؛ فيتبعكم كيفما تصيرون إليه.
والرابع: ويحتمل: {لا تؤمنوا}: لا تصدقوا فيما يخبركم عن أوائلكم، {إلا لمن تبع دينكم} على المنع عن تصديق الرسول فيما يخبرهم من التحريف والتبديل.
وفي قوله تعالى:{وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران : ٧٣]، وجهان[١]:
أحدهما: البيان هو ما بين الله؛ إذ هو الحق، وكل ما فيه الصرف عنه فهو تلبيس وتمويه.
والثاني: ويحتمل: أن يكون الدين هو الذي دعا إليه بما أوضحه وأنار برهانه، لا الدين الذي دعا إليه أولئك المنحرفون.
قوله تعالى:{قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ } [آل عمران : ٧٣]، أي:" قل لهم يا محمد: الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه"[٢].
قال الكلبي:"يقول: دين الله هو الإسلام"[٣].
قال الزمخشري:" معناه أن الهدى هدى الله، من شاء أن يلطف به حتى يسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين"[٤].
أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن جريج:" قوله: {إن الهدى هدى الله}، قال: هذا الأمر الذي أنتم عليه"[٥].
قوله تعالى:{أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} [آل عمران : ٧٣]، أي:" خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم"[٦].
أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم[٧]، عن أبي مالك، وسعيد بن جبير: {أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم} قالا: " أمة محمد"[٨].
وعن السدي:" يقول: ما أوتي أحد مثل ما أوتيتم يا أمة محمد"[٩].
قال مجاهد:" حسدا من يهود أن تكون النبوة في غيرهم، وأرادو أن يتابعوا على دينهم "[١٠].
وقال قتادة:" يقول: " لما أنزل الله عز وجل كتابا مثل كتابكم، وبعث نبيا كنبيكم حسدتموهم على ذلك"[١١]. وروي عن الربيع بن انس مثل ذلك[١٢].
قال الأخفش:أي:" لا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم"[١٣].
قال السمرقندي:أي:" لن يعطى أحد مثل ما أوتيتم من دين الإسلام، والقرآن الذي فيه الحلال والحرام"[١٤].

---

(١) انظر: تفسير الماتريدي:٤٠٦/٢.
(٢) صفوة التفاسير:١٩١.
(٣) تفسير السمرقندي:٢٢٣/١.
(٤) الكشاف:٣٧٤/١.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٩٤):ص٦٨١/٢.
(٦) صفوة التفاسير:١٩١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٩٥):ص٦٨١/٢.
(٨) تفسير ابن المنذر(٦٠٢):ص٢٥٣/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٩٦):ص٦٨١/٢.
(١٠) أخرجه ابن المنذر(٦٠٥):ص٢٥٤/١، وابن أبي حاتم(٣٦٩٧):ص٦٨١/٢.
(١١) أخرجه ابن المنذر(٦٠٦):ص٢٥٤/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٠٠):ص٦٨٢/٢.
(١٣) معاني القرآن:٢٢٣/١.
(١٤) تفسير السمرقندي:٢٢٣/١.

قال ابن أبي زمنين:أي:" فإنه لن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم"[١].

قال الزجاج:" قيل في المعنى: {قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم}، أي: الهدى هو هذا الهدى، لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم"[٢].

قال الزمخشري:" يعنى أن ما بكم من الحسد والبغي- أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب- دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، والدليل عليه قراءة ابن كثير: {أأن يؤتى أحد}، بزيادة همزة الاستفهام للتقرير والتوبيخ، بمعنى: إلا أن يؤتى أحد"[٣].

قال الفراء:أي:" لا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أوقعت {تؤمنوا}، على {أن يؤتى}، كأنه قال: ولا تؤمنوا أن يعطى أحد مثل ما أعطيتم، فهذا وجه.

ويقال: قد انقطع كلام اليهود عند قوله {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم}، ثم صار الكلام من قوله :قل يا محمد إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتى أهل الإسلام، وجاءت {أن}، لأن في قوله: {قل إن الهدى} مثل قوله: إن البيان بيان الله، فقد بين أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتى أهل الإسلام"[٤].

قال الماتريدي:" أي: لن يؤتى - والله أعلم - من الكتاب والحجج، ويحتمل أن يكون صلة قوله: {إن الهدى هدى الله}، وهو دينه، أو ما دعا إليه، ثم يقول: {أن يؤتى} بمعنى: لن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أهل الإسلام من الحجج والبينات، التي توضح أن الحق في أيديكم"[٥].

قال النّحّاس:" هذه الآية من أشكل ما في السورة وقد ذكرناه، والإعراب يبيّنها. فيها أقوال:

فمن قال: إنّ في الكلام تقديما وتأخيرا فإنّ المعنى: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلّا من اتّبع دينكم وجعل اللام زائدة فهو عنده استثناء ليس من الأول وإلّا لم يجز التقديم.

ومن قال: المعنى على غير تقديم ولا تأخير جعل اللام أيضا زائدة أو متعلقة بمصدر، أي: لا تجعلوا تصديقكم إلّا لمن اتّبع دينكم بأن يؤتى أحد من العلم برسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم مثل ما أوتيتم.

وتقدير ثالث: أي: كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم"[٦].

فنستنتج أن في قوله تعالى:{أَنْ يُؤْتَى} [آل عمران : ٧٣]، وجهان[٧]:

أحدهما: أن يتصل بقو له: {ولا تؤمنو}، تقديره: ولا تؤمنوا بأن يؤتى أحد، لكن حذف الجار لكثرة حذفه مع "أن".

والثاني: أن يتصل بقوله: {قل إن الهدى هدى الله}، ويكون كلام اليهود قد انقطع عند قوله: {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم}.

قوله تعالى:{أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ } [آل عمران : ٧٣]، أي:" أو خشية أن يحاجوكم به عند ربكم"[٨].

قال ابن جريج: "قال بعضهم لبعض: لا تخبرونهم بما بين الله لكم في كتابه، فيخاصموكم عند ربكم، فتكون لهم حجة عليكم "[٩].

قال الزجاج:" ومعنى: {أو يحاجوكم عند ربكم}:أي: ليس يكون لأحد حجة عند الله في الإيمان به لعلم من عنده. إلا من كان مثلكم"[١٠].

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين:٢٩٦/١.
(٢) معاني القرآن:٤٣٠/١.
(٣) الكشاف:٣٧٤/١.
(٤) معاني القرآن:٢٢٢/١.
(٥) تفسير الماتريدي:٤٠٦/٢.
(٦) معاني القرآن للنحاس:١٦٥/١.
(٧) انظر: تفسير الراغب الصفهاني:٦٣٩/٢-٦٤٢.
(٨) صفوة التفاسير:١٩١.
(٩) أخرجه ابن المنذر(٦٠٧):ص٢٥٤/١، وابن أبي حاتم(٣٦٩٩):ص٦٨٢/٢.
(١٠) معاني القرآن:٤٣٠/١.

قال الأخفش: أي:" ولا تؤمنوا أن يحاجوكم [{عند ربكم}]"[١].

قال ابن أبي زمنين:أي:" ولن يحاجكم بمثل دينكم أحد عند ربكم"[٢].

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن السدي:"{أو يحاجوكم عند ربكم}، يقول اليهود: فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المن والسلوى"[٣].

قال الماتريدي:" قوله: {أو يحاجوكم عند ربكم}:راجع إلى قوله: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ} [آل عمران : ٧٣]، فـ {يحاجوكم عند ربكم} أنهم قد آمنوا به مرة وأقروا له؛ وهو كقوله: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ} [البقرة : ٧٦]: أنهم كانوا يظهرون لهم الإسلام والإيمان، ثم إذا خلوا قالوا: {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة : ١٤]؛ فقال بعضهم لبعض: لا تظهروا لهم الإسلام؛ فيحاجوكم عند ربكم في الآخرة؟!"[٤].

نستنتج بأن في قوله تعالى:{ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} [آل عمران : ٧٣]، وجهان[٥]:

أحدهما: أن في الكلام حذفاً , وتقديره: قل إن الهدى هدى الله ألاَّ يُؤْتَى أحدٌ مثل ما أوتيتم أيها المسلمون , ثم حذف (لا) من الكلام لدليل الخطاب عليها مثل قوله تعالى: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا} [النساء: ١٧٦] أي لا تضلوا , وهذا معنى قول السدى[٦], وابن جريج[٧].

والثاني: أن معنى الكلام: قل إن الهدى هدى الله فلا تجحدوا أن يُؤْتَى أحد مثل ما أوتيتم.

وقرأ ابن كثير: «أأن يؤتى» بهمزتين: الأولى مخففة، والثانية ملينة على الاستفهام، مثل: أأنتم أعلم، أي لا يعطى أحد مثل ما أعطيتم وهو متصل بقوله {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم} {أن يؤتى أحد} ويكون قوله {إن الهدى هدى الله} خبرا اعترض في وسط الكلام ولم يغير من المعنى شيئا وإذا حمل الكلام على هذا كان قوله أن يؤتى بعد من الحكاية عن اليهود يقول لا تصدقوا أن يعطى أحد مثل ما أعطيتم.

وقرأ الباقون: {أن يؤتى}، بلا استفهام، وتأويله ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وقد بينا في كتاب التفسير[٨].

وفي قوله تعالى: {أَوْ يُحَآجُّوكُم عِندَ رَبِّكُمْ}} [آل عمران : ٧٣]، وجهان:

أحدهما: يعني ولا تؤمنوا أن يُحَاجّوكم عند ربكم، لأنه لا حجة لهم , وهذا قول الحسن[٩], وقتادة[١٠].

والثاني: إن معناه حتى يُحَاجُّوكم عند ربكم , على طريق التبعيد , كما يقال: لا تلقاه أو تقوم الساعة , وهذا قول الكسائي [١١], والفراء[١٢].

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران : ٧٣]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: إن الفضل والعطاء والأمور كلها بيد الله وتحت تصرفه"[١٣].

---

(١) معاني القرآن:٢٢٣/١.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٢٩٦/١.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٩٨):ص٦٨٢/٢.
(٤)تفسير ابن أبي زمنين:٢٩٦/١.
(٥) انظر: النكت والعيون:٤٠١/١-٤٠٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٢٥١):ص٥١٣/٦، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٦٩٦):ص٦٨١/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٩٤):ص٦٨١/٢.
(٨) انظر: الحجة للقراء السبعة:٥٥/٣، وحجة القراءات:١٦٥-١٦٦، وزاد المسير:٢٩٤/١.
(٩) انظر: النكت والعيون:٤٠٢/١.
(١٠) انظر: النكت والعيون:٤٠٢/١.
(١١) انظر: تفسير ابن المنذر(٦٠٣):ص٢٥٣/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن المنذر(٦٠٣):ص٢٥٣/١.
(١٣) التفسير الميسر:٥٩.

قال ابن جريج:" {قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء}، يعني:"الإسلام "[1].
قال مقاتل:" قل يا محمد: {إن الفضل} يعني: الإسلام والنبوة"[2].
قال الزجاج:" أي نبوته وهداه يؤتيه من يشاء"[3].
قال السمرقندي:" يعني النبوة، والكتاب والهدى، بتوفيق الله، يوفق من يشآء"[4].
قال ابن أبي زمنين:" وفضل الله: الإسلام"[5].
قال الزمخشري:" يريد الهداية والتوفيق"[6].
قال السدي:" قال: يا أمة محمد فإن الذي أعطيتكم أفضل، فقولوا: {إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء}"[7].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [آل عمران : ٧٣]، أي: والله " كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له"[8].

قال التستري:" أي كثير العطاء يقدر بقدرته الأزلية أن يعطى جميع ما يسأل، وهو المحيط بكل شيء، كما قال: وسع كل شيء علما [طه: ٩٨]"[9].

قال مقاتل:أي:{عليم}"بمن يؤتيه الفضل"[10].

قال السمرقندي:أي:والله" واسع الفضل، عليم بمن يؤتيه الفضل"[11].

الفوائد:

١-تعصب أهل الكتاب لدينهم على ضلالهم.

٢-أن المسلم يرد كيد هؤلاء بإعلان أن الهدى هدى الله، ومن ثم الاعتماد على الرب في طلب الهدى، دون الاعتماد على النفس.

٣-أن الحسد كان سبب صنيعتهم لهذه الخديعة، لقوله:{ **أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ** }.

٤-أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث والحساب، لقوله:{أو يحاجوكم عند ربكم}، ولكن ليس كل من آمن بالبعث يعمل له، وذلك كاليهود والنثارى إذ لو عملوا لهذا البعث لآمنوا بالرسول-صلى الله عليه وسلم-.

٥-إثبات أن العطاء عطاء الله، وأنه إذا منّ على أحدا من خلقه فلن يستطيع أحد منعه.

٦-إثبات المشيئة لله، لقوله:{من يشاء}.

٧-قال الماتريدي:" هذه الآية على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الفضل ليس بيد الله؛ وكذلك الاختصاص؛ إنما ذلك بيد الخلق؛ لأن من قولهم: إنه ليس على الله أن يفعل بالخلق إلا ما هو أصلح لهم في الدين، ليس له أن يؤتى أحدا فضلا، ولا له أن يختص أحدا برسالة، إلا من هو مستحق لذلك مستوجب له؛ فذلك الفضل والاختصاص إنما استوجبوا بأنفسهم لا بالله، على قولهم، ففي الحقيقة الفضل عندهم كان بيدهم لا بيد الله، فأكذبهم الله بذلك؛ إذ الفضل عند الخلق هو فعل ما ليس عليه لا ما عليه؛ فنعوذ بالله من السرف في القول، والزيغ عن الرشد"[12].

---

(١) أخرجه ابن المنذر(٦٠٨):ص٢٥٦/١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٥/١.
(٣) معاني القرآن:٤٣١/١.
(٤) تفسير السمرقندي:٢٢٣/١.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين:٢٩٦/١.
(٦) الكشاف:٣٧٤/١.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٠١):ص٦٨٢/٢.
(٨) صفوة التفاسير:١٩١.
(٩) تفسير التستري:٤٩.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٥/١.
(١١) تفسير السمرقندي:٢٢٣/١.
(١٢) تفسير الماتريدي:٤٠٥/٢-٤٠٦.

القرآن

{يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)} [آل عمران : ٧٤]

التفسير:

إن الله يختص مِن خلقه مَن يشاء بالنبوة والهداية إلى أكمل الشرائع، والله ذو الإحسان والعطاء الكثير الواسع.

سبب النزول:

قال السدي : "قال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم :{قل إنّ الهدى هُدَى الله أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم}، يقول ، مثل ما أوتيتم يا أمة محمد{أو يحاجوكم عند ربكم}، تقول اليهود : فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة ، حتى أنزل علينا المن والسلوى فإن الذي أعطيتكم أفضلُ فقولوا :{إن الفضْل بيد الله يؤتيه من يشاء}، الآية"[١].

قوله تعالى: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ} [آل عمران : ٧٤]، أي: "يخص بالرحمة من يشاء"[٢].

قال الحسن:" رحمته الإسلام يختص بها من يشاء"[٣].

وقال مجاهد:"النبوّة ، يخصُّ بها من يشاء"[٤]. وروي عن الربيع[٥]، وابن جريج[٦] مثل ذلك.

قال الطنطاوي:" أى: يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده"[٧].

قال السمرقندي:" يعني: بدينه يعطيه من يشاء من عباده"[٨].

قال ابن أبي زمنين:" أي: بدينه؛ وهو الإسلام، {من يشاء} يعني: المؤمنين"[٩].

قال المراغي:" أي إن فضله الواسع ورحمته العامة يعطيهما بحسب مشيئته، لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بنى إسرائيل، فهو يبعث من يشاء نبيا ويبعثه رسولا"[١٠].

قال ابن كثير:"أي:اختصكم - أيها المؤمنون - من الفضل بما لا يُحَد ولا يُوصَف ، بما شرف به نبيكم محمدًا صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء وهداكم به لأحمد الشرائع"[١١].

قوله تعالى: {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [آل عمران : ٧٤]، أي:والله صاحب الفضل الواسع الكثير"[١٢].

قال السمرقندي:" أي ذو المن العظيم، لمن اختصه بالإسلام"[١٣].

قال سعيد بن جبير:" العظيم يعني: وافر"[١٤].

الفوائد:

---

(١) أخرجه الطبري(٧٢٥١):ص٥١٣/٦.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٤١٠/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٠٣):ص٦٨٣/٢.
(٤) أخرجه الطبري(٧٢٥٦):ص٥١٧/٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٢٥٨):ص٥١٨/٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٢٥٩):ص٥١٨/٦.
(٧) التفسير الوسيط للطنطاوي:١٤٧/٢.
(٨) تفسير السمرقندي:٢٢٣/١.
(٩) تفسير ابن أبي زمنين:٢٩٦/١.
(١٠) تفسير المراغي:١٨٧/٣.
(١١) تفسير ابن كثير:٦٠/٢.
(١٢) تفسير ابن عثيمين:٤١٠/١.
(١٣) تفسير السمرقندي:٢٢٣/١.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٠٤):ص٦٨٣/٢.

١-أن الله قد يرحم بعض العباد رحمة خاصة، وقد بيّن في آية أخرى أن الله يرحم من يستحق ذلك، وهو الذي تعرض لأسباب الرحمة، فقال: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} [المائدة : ١٦]، وقال: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف : ١٥٦].

٢-أنه لا اعتراض على الله في كونه يختص برحمته من يشاء من الناس، لأن الامر إليه وهو فضل إن شاء منعه وإن شاء أعطاه.

٣-جواز وصف غير الله بالعظين، لقوله:{ذو الفضل العظيم}.

٤- قال الماتريدي:" وقوله: {يختص برحمته من يشاء}، ينقض على المعتزلة قولهم بوجهين:

أحدهما: أنهم لا يرون لله أن يختص أحدا -بشيء فيه صلاح- غيره صرفه عن ذلك الغير، بل إن فعل ذلك كان محابيا عندهم بخيلا، بل في الابتداء لم يكن له ذلك؛ وإنما يعطى بالاستحقاق، وذلك حق يلزمه، وقد ذكر بحرف الامتنان.

وعندهم -أيضا-: ليس له ألا يشاء أو لا يعطى؛ فلا معنى لذكره الذي ذكر مع ما صار ذلك، بيد غيره إذ يلزم ذلك، والله أعلم.

والثاني: أن الذي يحق عليه - أن يبذل كلا الأصلح في الدين، وأنه إن قصر أحدا عن ذلك كان جائزا، ثم الأفضل للعبد شيء مما أعطى حتى يعطيه فيما أمره؛ فيكون الفضل في الحقيقة في يد العبد: يؤتى نفسه إن شاء ويمنع إن شاء"[1].

القرآن

{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)} [آل عمران : ٧٥]

التفسير:

ومن أهل الكتاب من اليهود مَن إنْ تأمنه على كثير من المال يؤدِّه إليك من غير خيانة، ومنهم مَن إنْ تأمنه على دينار واحد لا يؤدِّه اليك، إلا إذا بذلت غاية الجهد في مطالبته. وسبب ذلك عقيدة فاسدة تجعلهم يستحلُّون أموال العرب بالباطل، ويقولون: ليس علينا في أكل أموالهم إثم ولا حرج; لأن الله أحلَّها لنا. وهذا كذب على الله، يقولونه بألسنتهم، وهم يعلمون أنهم كاذبون.

في سبب نزول الآية أقوال:

أ- اختلف أهل العلم في سبب نزول قوله: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [الآية: ٧٥]، على وجوه:

أحدها: قال مقاتل بن سليمان:" يعني: عبد الله بن سلام وأصحابه {ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك}، يعني: كفار اليهود يعني كعب بن الأشرف وأصحابه، يقول منهم من يؤدي الأمانة ولو كثرت، ومنهم من لا يؤديها ولو ائتمنته على دينار لا يؤده إليك"[2].

والثاني: نقل ابن حجر عن ابن عباس:أن "الأول عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفا ومائتي أوقية من ذهب فأداه إليه فمدحه الله، والثاني فنحاص بن عازورا أودعه رجل من قريش دينارا فخانه فيه"[3].

والثالث: قال الثعلبي:" قال أكثر المفسّرين: نزلت هذه الآية في اليهود كلّهم، أخبر الله تعالى إنّ فيهم أمانة وخيانة، والقنطار عبارة عن المال الكثير، والدينار عبارة عن المال القليل"[1].

---

(١) تفسير الماتريدي:٤٠٧/٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٥/١.

(٣) العجاب في بيان الأسباب:٦٩٦/٢.

والرابع:قال السيوطي:" أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} قال: هذا من النصارى: {وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} قال: هذا من اليهود: {إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا} قال: إلا ما طلبته واتبعته"[٢].

ب-كما اختلف أهل العلم في سبب نزول قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الآية: ٧٥]، على وجهين:

أحدهما:قال ابن عباس : " {ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل}، وذلك أن أهل الكتاب كانوا يقولون : ليس علينا جناح فيما أصبنا من هؤلاء ، لأنهم أمِّيُّون. فذلك قوله : {ليس علينا في الأميين سبيل}، إلى آخر الآية"[٣].

والثاني: قال ابن جريج:"{ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل}، قال : بايع اليهودَ رجالٌ من المسلمين في الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم ثمنَ بُيوعهم ، فقالوا : ليس لكم علينا أمانةٌ ، ولا قضاءَ لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه! قال : وادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله عز وجل :{ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون }"[٤]. وروي عن قتادة[٥]، والسدي[٦] ومقاتل[٧]نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [آل عمران : ٧٥]، أي:" ومن أهل الكتاب الذي إنْ تأمنه ، يا محمد ، على عظيم من المال كثير، يؤدِّه إليك ولا يخنْك فيه"[٨].

واختلفوا في مقدار القنطار على سبعة أقاويل :

أحدها : أنه ألف ومائتا أوقية ، وهو قول معاذ بن جبل[٩]، وأبي هريرة[١٠]، وعاصم بن أبي النجود[١١]، ورواه زر بن حبيش عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " القنطار ألف أوقية ومئتا أوقية"[١٢] .

والثاني : أنه ألف ومائتا دينار ، وهو قول ابن عباس[١٣]، والضحاك[١٤]، والحسن[١٥]، وقد رواه الحسن عن النبي - صلى الله عليه وسلم -[١٦].

والثالث : أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار ، وهو قول ابن عباس[١٧]، والضحاك[١٨]، والحسن[١٩].

---

(١) تفسير الثعلبي:٩٤/٢.
(٢) الدر المنثور:٢٣٤/٢، وانظر: العجاب:٦٩٦/٢.
(٣) أخرجه الطبري(٧٢٧١):ص٥٢٣/٦.
(٤) أخرجه الطبري(٧٢٧٢):ص٥٢٣/٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٢٦٦):ص٥٢٢/٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٢٦٨):ص٥٢٢/٦.
(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٥/١.
(٨) تفسير الطبري:٥١٩/٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٦٦٩٦):ص٢٤٤/٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٠):ص٢٤٤/٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٦٦٩٩):ص٢٤٤/٦.
(١٢) أخرجه الطبري(٦٧٠١):ص٢٤٥/٦.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٤):ص٢٤٦/٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٥):ص٢٤٦/٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٣):ص٢٤٦/٦.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٢):ص٢٤٥/٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٦):ص٢٤٦/٦.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٧):ص٢٤٦/٦.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(٦٧٠٨)-(٦٧١٢):ص٢٤٦/٦-٢٤٧.

والرابع : أنه ثمانون ألفاً من الدراهم ، أو مائة رطل من الذهب ، وهو قول سعيد بن المسيب[١]، وقتادة[٢]، وأبي صالح[٣]، والسدي[٤].
والخامس : أنه سبعون ألفاً ، قاله ابن عمر[٥]، ومجاهد[٦] .
والسادس : أنه ملء مسك ثور ذهباً ، قاله أبو نضرة[٧]، والكلبي[٨].
والسابع : أنه المال الكثير ، وهو قول الربيع [٩].
والراجح أن القنطار: هو المال الكثير، كما قال الربيع بن أنس ، ولا يحدُّ قدرُ وزنه بحدٍّ على تَعسُّف[١٠].
وقرأ أبو عمرو وحمزة :{يُؤَدِّهْ}، بجزم الهاء، وهي لغة لبعض العرب، واللغة المعروفة هي بإظهار الكسرة[١١].
قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} [آل عمران : ٧٥]، أي:" ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنْك فيه فلا يؤدِّه إليك"[١٢].
قال مالك بن دينار قال: "إنما سمي الدينار لأنه دين ونار، معناه: إن من أخذه بحقه فهو دينه، ومن أخذه بغير حقه فله النار"[١٣].
قوله تعالى:{إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ} [آل عمران : ٧٥]، أي:" إلا أن تلح عليه بالتقاضي والمطالبة"[١٤].
قال ابن كثير:" أي : بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى ألا يؤديه... يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم"[١٥].
وفي قوله تعالى:{إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ} [آل عمران : ٧٥]، وجوه:
أحدها : أن المعنى: إلا ما دمت عليه قائماً بالمطالبة والإقتضاء ، وهذا قول مجاهد[١٦]، وعطاء[١٧]، وقتادة[١٨]، والربيع بن أنس[١٩].
والثاني: بالبينة. قاله نمير بن اوس[٢٠].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٣):ص٦/٢٤٦٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٥):ص٦/٢٤٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٧):ص٦/٢٤٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٨):ص٦/٢٤٦-٢٤٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢١):ص٦/٢٤٨، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٢٦١):ص٢/٦٠٩.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٦٧١٩):ص٦/٢٤٨، وابن أبي حاتم(٣٢٦٢):ص٢/٦٠٩.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢٢):ص٦/٢٤٨.
(٨)أورد قوله: أبو عبيدة في "مجاز القرآن" ١/ ٨٩، وأورده نقلا عن النقاش ابن عطية، في "المحرر الوجيز" ٣/ ٤٢، والقرطبي في "تفسيره" ٤/ ٣١، وفي "الزاهر" ١/ ٤٣٢، ينقل عن الكلبي، أن القنطار: ألف مثقال، ذهب أو فضة، وكذا في "زاد المسير" ١/ ٣٥٩.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٦٧٢٤):ص٦/٢٤٩.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ٦/٢٤٩.
(١١) انظر: السبعة:٢٠٧.
(١٢) تفسير الطبري:٦/٥١٩.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٠٦):ص٢/٦٨٣.
(١٤) تفسير الطبري:٦/٥١٩.
(١٥) تفسير ابن كثير:٢/٦٠.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٠٧):ص٢/٦٨٣.
(١٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٠٧):ص٢/٦٨٣.
(١٨)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٠٨):ص٢/٦٨٣.
(١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٠٨):ص٢/٦٨٣.
(٢٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧١٠):ص٢/٦٨٤.

والثالث : قائماً على رأسه ، وهو قول السدي[1] .

الرابع: بالملازمة. أفاده الماوردي[2].

قوله تعالى:{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران : ٧٥]، " أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين-يعني العرب"[3].

قال الطبري:" من أجل أنه يقول : لا حرَج علينا فيما أصبنا من أموال العرب"[4].

قال ابن كثير:"أي : إنَّمَا حَمَلَهم على جُحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حَرَج في أكل أموال الأميّين ، وهم العرب ؛ فإن الله قد أحلها لنا"[5].

قال سعيد بن جبير:" لما قال أهل الكتاب: ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل قال نبي الله: كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر"[6].

ولأهل التفسير في سبب استباحتهم له قولان :

أحدهما : لأنهم مشركون من غير أهل الكتاب ، وهو قول قتادة [7]، والسدي[8] .

والثاني : لأنهم تحولوا عن دينهم الذي عاملناهم عليه ، وهذا قول الحسن[9] وابن جريج[10]. جريج[10].

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران : ٧٥]، " أي: يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون "[11].

قال ابن جريج:" يعني : ادّعاءهم أنهم وجدُوا في كتابهم قولهم : {ليس علينا في الأميين سبيل}"[12].

قال السدي:" فيقول على الله الكذب وهو يعلم يعني الذي يقول منهم - إذا قيل له : ما لك لا تؤدي أمانتك ؟ - : ليس علينا حرج في أموال العرب ، قد أحلها الله لنا!"[13].

قال ابن كثير:" أي : وقد اختلقوا هذه المقالة ، وائتفكوا بهذه الضلالة ، فَإن الله حَرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها ، وإنما هم قوم بُهْت"[14].

الفوائد:

١- بيان انقسام أهل الكتاب إلى قسمين: أمين وخائن، كما انقسموا إلى قسمين: مؤمن وكافر، وبالتالي يجب الحذر منهم عند التعامل.

٢- جواز الاقتصار على المثال ليقاس عليه ما يشبهه، لأنه قال قنطار ودينار على سبيل التمثيل.

٣- اعجاب أهل الكتاب بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم، لقولهم:{ليس علينا في الأميين سبيل}.

٤- قولهم على الله الكذب وذلك بنسبتهم الظلم والعدوان إلى شريعة الله.

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٠٩):ص٦٨٣/٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:٤٠٣/١.
(٣) صفوة التفاسير:١٩٣.
(٤) تفسير الطبري:٥٢١/٦.
(٥) تفسير ابن كثير:٦١/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧١٢):ص٦٨٤/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧١٥):ص٦٨٥/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٢٦٨):ص٥٢٢/٦.
(٩) انظر: النكت والعيون:٤٠٣/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧١٤):ص٦٨٤/٢.
(١١) صفوة التفاسير:١٩٣.
(١٢) أخرجه الطبري(٧٢٧٦):ص٥٢٥/٦.
(١٣) أخرجه الطبري(٧٢٧٥):ص٥٢٥/٦.
(١٤) تفسير ابن كثير:٦١/٢.

٥- إن من افترى على الله الكذب وهو يعلم، أشد إثما وعدوانا ممن لايعلم، وإن كان كل منهم على خطأ.
٦- إن الجهل المركب أقبح من الجهل البسيط، لأن الذي يكذب وهو يعلم أقبح من الذي يرى أن هذا هو العلم.

القرآن

{بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)} [آل عمران : ٧٦]

التفسير:

ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكاذبون، فإن المتقي حقاً هو من أوفى بما عاهد الله عليه من أداء الأمانة والإيمان به وبرسله والتزم هديه وشرعه، وخاف الله عز وجل فامتثل أمره وانتهى عما نهى عنه. والله يحب المتقين الذين يتقون الشرك والمعاصي.

قوله تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى}[آل عمران : ٧٦]، " أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكنْ من أدّى الأمانة منهم وآمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتقى الله واجتنب محارمه"(١).

قال الحسن:" أمروا أن يؤدوا إلى كل مسلم عهده"(٢).

قال ابن كثير:" أي : لكن من أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه ، من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث ، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك ، واتقى محارم الله تعالى واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر"(٣).

قال الزمخشري:" والضمير في {بعهده}، راجع إلى {من أوفى}، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه.

فإن قلت، فهذا عام يخيل أنه لو وفي أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله.

قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه.

ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء"(٤).

قال المراغي:" أي: بلى عليكم في الأميين سبيل، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات، فمن أقرضك مالا إلى أجل، أو باعك بثمن مؤجل أو ائتمنك على شيء وجب عليك الوفاء به، وأداء الحق له في حينه دون حاجة إلى الإلحاف في الطلب أو إلى التقاضي، وبذلك قضت الفطرة وحتّمت الشريعة.

وفي هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبا لذاته، بل العبرة عندهم بالمعاهد، فإن كان إسرائيليا وجب الوفاء له، ولا يجب الوفاء لغيره، والعهد ضربان:

أحدهما: عهد المرء لأخيه في العقود والأمانات كما تقدم.

والثاني: عهد الله تعالى، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله.

---

(١) صفوة التفاسير:١٩٣.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧١٧):ص٦٨٥/٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٦٢/٢.
(٤) الكشاف:٣٧٥/١.

واليهود لم يفوا بشيء منهما، إذ لو وفّوا بعهد الله لآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا النور الذي أنزل معه، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى صلوات الله عليه"(١).

قوله تعالى:{ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [آل عمران : ٧٦]، أي:"فإن الله يحب الذين يتقونه فيخافون عقابه ويحذرون عذابه "(٢).

قال أبو حيان:" وأتى بلفظ: المتقين، عاما تشريفا للتقوى دحضا عليها"(٣).

قال البيضاوي: "أشْعَرَ بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي "(٤).

قال المراغي:" وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد المتقين الإخلاف والغدر- محبته تعالى ورحمته لهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا إيماء إلى أن الوفاء بالعهود، واتقاء الإخلاف فيها وفي سائر المعاصي والخطايا هو الذي يقرب العبد من ربه، ويجعله أهلا لمحبته. أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله، وفي هذا تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من اليهود ليسوا على حظ من التقوى، وهى الدعامة الأساسية في كل دين قويم"(٥).

قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:"لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس"(٦).

وعن ميمون أبي حمزة قال: كنت جالسا عند أبي وائل، فدخل رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ، فقال له شقيق بن سلمة: ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى، سمعته يقول: يحبس الناس يوم القيامة في بقيع واحد فينادي مناد: أين المتقون؟ فيقومون في كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة"(٧).

الفوائد:

١-الثناء على الموفين بالعهد.

٢-أن الوفاء بالعهد من اسباب محبة الله.

٣-الحث على التقوى، وأن التقوى عموما سبب لمحبته.

٤-الرد على أهل التعطيل الذي انكروا محبة الله، لقوله:{والله يحب المتقين}.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)} [آل عمران : ٧٧]

التفسير:

إن الذين يستبدلون بعهد الله ووصيته التي أوصى بها في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، عوضًا وبدلا خسيسًا من عرض الدنيا وحطامها، أولئك لا نصيب لهم من الثواب في الآخرة، ولا يكلمهم الله بما يسرهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة بعين الرحمة، ولا يطهرهم من دنس الذنوب والكفر، ولهم عذاب موجع.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال:

---

(١) تفسير المراغي:١٩٠/٣-١٩١.
(٢) تفسير الطبري:٥٢٦/٦.
(٣) البحر المحيط:٢٢٥/٣.
(٤) تفسير البيضاوي:٢٤/٢، وانظر: تفسير أبي السعود:٥١/٢.
(٥) تفسير المراغي:١٩٠/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧١٨):ص٦٨٥/٢، والترمذي(٤٢١٥).
(٧)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧١٩):ص٦٨٦/٢.

أحدها:أنها نزلت في أحبار من اليهود وهم: أبو رافع ، وكنانة بن أبي الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وحُييّ بن أخطب. قاله عكرمة(١)، وقال مقاتل:" يعني رءوس اليهود"(٢).

والثاني:أنها نزلت في الأشعث بن قيس وخصم له، إذ روي عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حَلَف على يمين هو فيها فاجرٌ ليقتطع بها مالَ امرئ مسلم ، لقيَ اللهَ وهو عليه غضبان فقال الأشعث بن قيس : فيّ والله كان ذلك : كان بيني وبين رجل من اليهود أرضٌ فجحدني ، فقدّمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألك بيِّنة ؟ قلت : لا! فقال لليهودي : " احلفْ. قلت : يا رسول الله ، إذًا يحلف فيذهبَ مالي! فأنزل الله عز وجل : " إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا " الآية"(٣).

والثالث: وروى بادان عن ابن عباس قال: "نزلت في امرئ القيس بن عابس الكندي استعدى عليه عبدان بن أشرع فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالحلف، فلمّا همّ أن يحلف نزلت هذه الآية. فامتنع امرئ القيس أن يحلف وأقرّ لعبدان بحقّه ودفعه إليه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: لك عليها الجنّة"(٤).

والرابع:" وقال الثعلبي:" وروى منصور بن أبي وائل قال: قال عبد الله: من حلف على عين يستحقّ بها مالا وهو فيها فاجر لقي الله عزّ وجلّ وهو عليه غضبان. فأنزل الله تعالى تصديق ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا} الآية"(٥).

والخامس: وقال عامر :" أنّ رجلا أقام سِلعته أوّل النهار ، فلما كان آخرُه جاء رجل يساومه ، فحلفَ لقد منعها أوّل النهار من كذا وكذا ، ولولا المساء ما باعها به ، فأنزل الله عز وجل : {إن الذي يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا}" (٦). وروي عن مجاهد(٧) نحوه.

والسادس: وقال الثعلبي:"قال الكلبي: إنّ ناسا من علماء اليهود أولي فاقة كانوا ذوي حظ من علم التوراة فأصابهم سنة. فأتوا كعب بن الأشرف يستميرونه فسألهم كعب: هل تعلمون أنّ هذا الرّجل رسول الله في كتابكم؟ فقالوا: نعم، وما تعلمه أنت؟ قال: لا. قالوا: فإنّا نشهد إنّه عبد الله ورسوله، قال كعب: قد كذبتم عليّ فأنا أريد أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيرا كثيرا. قالوا: فإنّه شبّه لنا. فرويدا حتى نلقاه. قال: فانطلقوا فكتبوا صفة سوى صفته، ثم أتوا نبي الله صلى الله عليه وسلّم فكتموه ثم رجعوا إلى كعب، فقالوا: قد كنّا نرى رسول الله فأتيناه، فإذا هو ليس بالنعت الّذي نعت لنا وأخرجوا الّذي كتبوه. ففرح بذلك كعب، ومكرهم فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، نظيرها قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا }[البقرة:١٧٤] الآية"(٨).

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا } [آل عمران : ٧٧]،أي: إن الذين"يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل"(٩).

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ } [آل عمران : ٧٧]، أي: أولئك" لا حظ لهم في خيرات الآخرة"(١٠).

---

(١) أخرجه الطبري(٧٢٧٨):ص٥٢٨/٦-٥٢٩.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٥/١.
(٣) أخرجه الطبري(٧٢٧٩):ص٥٢٩/٦.
(٤) تفسير الثعلبي:٩٩/٣.
(٥) تفسير الثعلبي:٩٨/٣.
(٦)أخرجه الطبري(٧٢٨٣):ص٥٣٣/٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٢٨٤):ص٥٣٣/٦.
(٨) تفسير الثعلبي:٩٧/٣-٩٨.
(٩) صفوة التفاسير:١٩٣.
(١٠) تفسير الطبري:٥٢٧/٦.

عن ابن عباس: "يعني قوله: {لا خلاق لهم في الآخرة}: يقول:نصيب"[١]. وروي عن مجاهد والسدي نحو ذلك[٢].

وقال قتادة:" ليس لهم في الآخرة جهة عند الله"[٣].

وقال الحسن: "ليس له دين"[٤].

قوله تعالى: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ } [آل عمران : ٧٧]، أي:" ولا يكلمهم الله بما يسرُّهم"[٥].

قال الثعلبي: أي:" كلاما ينفعهم ويسرّهم، قاله المفسرون، وقال المفضل: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ}: بقبول حجّة يحتجّون بها"[٦].

قال أبو السعود:" أي بما يسُرّهم أو بشيء أصلاً وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخِ والتقريعِ في أثناء الحساب من الملائكةِ عليهمِ السَّلامُ أولا ينتفعون بكلماتِ الله تعالى وآياتِه والظاهرُ أنه كناية عن شدة غضبه وسَخَطِه نعوذ بالله من ذلك"[٧].

وذكر الزجاج في قوله تعالى: : {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ } [آل عمران : ٧٧]، وجهان[٨]:

أحدهما: أن يكون إسماع الله أولياءه كلامه بغير سفير، خصوصية يخص الله بها أولياءه كما كلم موسى فكان ذلك خصوصية له دون البشر أجمعين.

والثاني: وجائز أن يكون {ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم} تأويله الغضب عليهم، والإعراض عنهم كما تقول: " فلان لا ينظر إلى فلان ولا يكلمه، وتأويله أنه غضبان عليه، وإن كلمه بكلام سوء لم ينقض ذلك.

قوله تعالى: {وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران : ٧٧]، أي:" ولا يعطف عليهم بخير ، مقتًا من الله لهم"[٩].

قال الأخفش:" فهذا مثل قولك للرجل: ما تنظر إلي، اذا كان لا ينيلك شيئا"[١٠].

قال الثعلبي:" أي لا يرحمهم ولا يعطف عليهم ولا يحسن إليهم ولا يكلمهم خيرا. يقال نظر فلان لفلان، ونظر إليه إذا رحمه وأحسن إليه"[١١].

قوله تعالى: {وَلَا يُزَكِّيهِمْ} [آل عمران: ٧٧]، أي:" ولا يطهرهم من دَنس ذنوبهم وكفرهم"[١٢].

قال الزجاج:أي:" لا يجعلهم طاهرين ولا يثني عليهم خيرا"[١٣].

قال ابن عطية:" يحتمل معنيين، أحدهما يطهرهم من الذنوب وأدرانها، والآخر ينمي أعمالهم، فهي تنمية لهم، والوجهان منفيان عنهم في الآخرة"[١٤].

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران : ٧٧]، أي:" ولهم عذاب موجع"[١٥].

قال ابن عباس:أي:" نكال موجع"[١٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٢٣):ص٦٨٧/٢.
(٢) انظر: ابن أبي حاتم(٣٧٢٣):ص٦٨٧/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٢٤):ص٦٨٧/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٢٤):ص٦٨٧/٢.
(٥) تفسير الطبري:٥٢٧/٦.
(٦) تفسير الثعلبي:٩٩/٣.
(٧) تفسير أبي السعود:٥١/٢.
(٨) انظر: معاني القرآن:٤٣٤/١.
(٩) تفسير الطبري:٥٢٧/٦.
(١٠) معاني القرآن:٢٢٤/١.
(١١) تفسير الثعلبي:٩٩/٣.
(١٢) تفسير الطبري:٥٢٨/٦.
(١٣) معاني القرآن:٤٣٤/١.
(١٤) المحرر الوجيز:٤٦٠/١.
(١٥) تفسير الطبري:٥٢٨/٦.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٣٠):ص٦٨٨/٢.

قال الشَّافِعِي رحمه الله تعالى: من ادعى مالاً، فأقام عليه شاهداً، أو ادعي عليه مال، فكانت عليه يمين، نُظِرَ في قيمة المال، فإن كان عشرين ديناراً فصاعداً، وكان الحكم بمكة: أحْلِف بين المقام والبيت على ما يَدّعى، ويُدعى عليه، وإن كان بالمدينة حُلف على منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ،ومن كان ببلد غير مكة والمدينة، أحْلِفَ على عشرين ديناراً، أو على العظيم من الدم والجراح، بعد العصر في مسجد ذلك البلد ويتلى عليه:{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا} الآية"[1].

عن عباد بن منصور قال: "سألت الحسن عن قوله: {أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم}، فقال: هؤلاء أقوام باعوا خلاقهم بالدنيا فقال: أنبأكم الله كيف يصنع بهم"[2].

الفوائد:

١-تهديد هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا، وينصب هذا على العلماء الذين يكتمون ما انزل الله مداهنة أو مراعاة أو من اجل مال، وقد عهد الله إلى العلما أن يبيّنوا العلم، والعلماء ثلاثة أصناف: عالم امة، وعالم دولة، وعالم ملة. فعالم الملة: هو الي لا يشتري بعهد الله ثمنا قليلا، بل يبين للملة و لايبالي. وأمت عالم الدولة فيشتري بآيات الله ثمنا قليلا ليكون له جاه عند الدولة، وربما ليعطي مالا، واما عالم الأمة: فهو ال١ي يراعي الامة، فينظر ماذا تشتهي عامة الناس(أي الأمة)، فيفتي به أو يقول به، وما لا تشتهيه الأمة يسكت عنه.

٢-تحريم اليمين الغموس، وهو من كبائر الذنوب.

٣-أن من وفى بعهده وحلف على صدق، فإنه لا يحرم نصيبه من خيرات الآخرة.

٤-إثبات الآخرة.

٥-ينبغي للإنسان أن تكون الآخرة هي هدفه، ومغزاه، ومراده، فقد يكون للانسان نصيب في الدنيا ولكن لا خير فيه.

٦-إن من أعظم العقوبات في الآخرة :أن الله لا يكلم هؤلاء عقوبة لهم، ولهذا كان النظر إلى وجه الله من أفضل الثواب واعظمه وأعلاه بل هو غاية الثواب والفضل.

٧-أن هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا لاينظر اليهم الله يوم القيامة، والمراد به النظر الخاص، اما النظر العام فإن الله لا يحجب عن بصره شيء.

٨-إثبات العذاب، وقد يكون العذاب في الدنيا وقد يكون في الآخرة، فالكائن في الدنيا قد يكون بفعل الله وقدي يكون بفعل عباد الله.

القرآن

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)} [آل عمران : ٧٨]

التفسير:

وإن مِن اليهود لَجماعةً يحرفون الكلام عن مواضعه، ويبدلون كلام الله; ليوهموا غيرهم أن هذا من الكلام المنزل، وهو التوراة، وما هو منها في شيء، ويقولون: هذا من عند الله أوحاه الله إلى نبيه موسى، وما هو من عند الله، وهم لأجل دنياهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون.

في سبب نزول الآية أقوال:

---

(١) تفسير الشافعي:٤٧٥/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٢٨):ص٦٨٨/٢.

أحدها: نقل الثعلبي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: "إنّ الآية نزلت في اليهود والنّصارى جميعا والذين هم حرّفوا التوراة والإنجيل، وضربوا كتاب الله بعضه ببعض وألحقوا به ما ليس منه فأسقطوا منه الدين الحنفي، فبيّن الله تعالى كذبهم للمؤمنين"(١).

الثاني: ونقل الثعلبي عن الضحّاك ومقاتل: "{ما كانَ لِبَشَرٍ} يعني عيسى -عليه السلام- {أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ} يؤتى الحكمة. نزلت في نصارى أهل نجران"(٢).

الثالث: وأخرج الطبري عن ابن عباس قال : "قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك ، كما تعبد النصارَى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرِّبِّيس : أوَ ذاك تريد منا يا محمد ، وإليه تدعونا! أو كما قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذَ الله أن نَعبُد غيرَ الله ، أو نأمر بعبادة غيره! ما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني أو كما قال. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم : { ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة}، الآية إلى قوله : {بعد إذ أنتم مسلمون }"(٣).

الرابع: وقال قتادة:" هم أعداء الله اليهود ، حرَّفوا كتابَ الله ، وابتدعوا فيه ، وزعموا أنه من عند الله"(٤). وروي عن ابن عباس(٥)، والربيع(٦) نحو ذلك.

الخامس: وقال مقاتل:"يعني من اليهود، {لفريقا}: يعني طائفة منهم، يعنى: كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف، وأبو ياسر، جدي ابن أخطب، وشعبة بن عمرو"(٧).

السادس: وقال الحسن: " بلغني أن رجلا قال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: "لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله"، فأنزل الله تعالى هذه الآية"(٨).

قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ}[آل عمران:٧٨]، أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد"(٩).

قال ابن عباس:" وهم اليهود"(١٠) " وروي عن الربيع وقتادة نحو ذلك(١١).

وقال الحسن:"هم أهل التاب كلهم"(١٢).

قال مقاتل:" يعني باللي التحريف بالألسن في أمر محمد- صلى الله عليه وسلم-"(١٣).

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن اليهود ، عَليهم لعائن الله ، أن منهم فريقا يُحَرِّفون الكلم عن مواضعه ويُبَدِّلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد به"(١٤).

وفي تفسير قوله تعالى:{ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ}[آل عمران:٧٨]، قولان:

أحدهما: أن المعنى: يزيدون في كتاب الله ما لم ينزل الله. قاله ابن عباس(١٥).

---

(١) تفسير الثعلبي:١٠٠/٣.

(٢) تفسير الثعلبي:١٠٠/٣.

(٣) تفسير الطبري(٧٢٩٦):ص٥٣٩/٦، وانظر: تفسير الثعلبي:١٠٠/٣.

(٤) أخرجه الطبري(٧٢٩٢):ص٥٣٦/٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٢٩٤):ص٥٣٦/٦.

(٦)انظر: تفسير الطبري(٧٢٩٣):ص٥٣٦/٦.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٦/١.

(٨)أخرجه عبد الرزاق في لباب النقول: ٥٤، وعبد بن حميد في فتح القدير: ٣٥٦/١)، وانظر: تفسير الثعلبي:١٠١/٣، وأسباب النزول:١١٣، ومجمع البيان:٣٣١/٢،

(٩) صفوة التفاسير:١٩٣.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٣١):ص٦٨٨/٢.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٣١):ص٦٨٨/٢.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٣٢):ص٦٨٩/٢.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٦/١.

(١٤) تفسير ابن كثير:٦٥/٢.

(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٣٣):ص٦٨٩/٢.

والثاني: أن المعنى: يحرفونه. وهذا قول مجاهد(١)، وروي عن الشعبي والحسن، وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك(٢).

قوله تعالى:{لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ}[آل عمران:٧٨]، "أي: لتظنوا أن هذا المحرّف من كلام الله وما هو إلا تضليل وبهتان"(٣).

قوله تعالى: { وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }[آل عمران:٧٨]، " أي: وينسبونه إلى الله وهو كذبٌ على الله، وهم يعلمون أنهم كذبوا وافتروا على الله"(٤).

قال الربيع بن أنس:" هم أعداء الله اليهود حرفوا كتاب الله، وابتدعوا فيه، وزعموا أنه من عند الله"(٥).

قال وهب بن مُنَبِّه:" إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول"(٦).

قال ابن كثير:" فإن عَنَى وَهْب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص ، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير ، وزيادات كثيرة ونقصان ، ووَهْم فاحش. وهو من باب تفسير المعبر المعرب ، وفَهْم كثير منهم بل أكثرهم ، بل جميعهم فاسد. وأما إن عَنَى كتب الله التي هي كتبه من عنده ، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء"(٧).

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران : ٧٨]، " أي: يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون"(٨).

قال الحسن:" هم أهل الكتاب كلهم قد كذبوا على الله، وحرفوا الكلم عن مواضعه"(٩).

قال الزجاج:" أي وهم يعلمون أنهم يكذبون"(١٠).

قال الطبري:أي: "ويتعمّدون قيل الكذب على الله والشهادة عليه بالباطل ، والإلحاقَ بكتاب الله ما ليس منه ، طلبًا للرياسة والخسيس من حُطام الدنيا"(١١).

قال ابن كثير:" وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله"(١٢).

قال المراغي:" أي وهم يعلمون كذبهم في ذلك لأن ما جاء من عند الله فهو في كتابه، والتوراة التي بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين، ولا أكل أموالهم بالباطل، وهم يعلمون ذلك حق العلم، لكنهم لما لم يكتفوا بالكتاب ولجأوا إلى التقليد وعدّوا كلام أحبارهم دينا، وهؤلاء قالوا في الدين بالرأى والهوى، وحرفوا الكلم عن مواضعه ليؤيدوا آراءهم، وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم على ما يدّعون"(١٣).

---

(١)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٣٤):ص٦٨٩/٢.
(٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٣٤):ص٦٨٩/٢.
(٣) صفوة التفاسير:١٩٣.
(٤) صفوة التفاسير:١٩٣.
(٥)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٣٦):ص٦٨٩/٢.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٣٥):ص٦٨٩/٢.
(٧)تفسير ابن كثير:٦٥/٢.
(٨)صفوة التفاسير:١٩٣.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٦٣٦):ص٦٩٠/٢.
(١٠) معاني القرآن:٤٣٤/١.
(١١) تفسير الطبري:٥٣٥/٦-٥٣٦.
(١٢)تفسير ابن كثير:٦٥/٢.
(١٣) تفسير المراغي:١٩٠/٣.

قال السعدي:" وهذا أعظم جرما ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك"(١).

قال الشافعي:" والناس صنفان:

أحدهما: أهل الكتاب، بدلّوا من أحكامه، وكفروا بالله، فافتعلوا كذباً صاغوه بألسنتهم، فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيه من كفرهم فقال: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[آل عمران:٧٨] الآية، ثم قال: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ }[آل عمران:٧٩].

ثانيهما: وصنف كفروا بالله فابتدعوا ما لم يأذن به اللَّه، ونصبوا بأيديهم حجارة وخُشُباً، وصوراً استحسنوها، ونبذوا أسماء افتعلوها، ودعوها آلهة عبدوها، فإذا استحسنوا غير ما عبدوا منها ألقوه ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه: فأولئك العرب.

وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا، وفي عبادة ما استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره"(٢).

الفوائد:

١-بيان مكر اليهود وتضليلهم وخداعهم لهم باسم الدين والعلم.

٢- جرأة اليهود على الكذب على الناس وعلى الله مع علمهم بأنهم يكذبون وهو قبح أشد وظلم أعظم.

٣- التحذير للمسلم من سلوك اليهود في التضليل والقول على الله والرسول لأجل الأغراض الدنيوية الفاسدة.

القرآن

{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)} [آل عمران : ٧٩]

التفسير:

ما ينبغي لأحد من البشر أن يُنزِّل الله عليه كتابه ويجعله حكمًا بين خلقه ويختاره نبياً، ثم يقول للناس: اعبدوني من دون الله، ولكن يقول: كونوا حكماء فقهاء علماء بما كنتم تُعَلِّمونه غيركم من وحي الله تعالى، وبما تدرسونه منه حفظًا وعلمًا وفقهًا.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال ابن عباس:"قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك ، كما تعبد النصارَى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرِّبِّيس : أوَ ذاك تريد منا يا محمد ، وإليه تدعونا! أو كما قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذَ الله أن نَعبُد غيرَ الله ، أو نأمر بعبادة غيره! ما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني أو كما قال. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم : {ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة}، الآية إلى قوله : {بعد إذ أنتم مسلمون}"(٣). وروي عن قتادة(٤)، والربيع(١)، نحوه.

---

(١) تفسير السعدي:١٣٦.

(٢) تفسير الإمام الشافعي:٢١٢/١.

(٣) أخرجه الطبري(٧٢٩٦):ص٥٣٩/٦.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٢٩٨):ص٥٣٩/٦-٥٤٠.

والثاني: نقل الثعلبي والواحدي عن الضحاك ومقاتل[٢]:"{ما كانَ لِبَشَرٍ}، يعني: عيسى -عليه السلام-، {أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ}، يؤتى الحكمة[٣]. نزلت في نصارى أهل نجران"[٤].
والثالث:قال ابن جريج:" كان ناس من يهود يتعبَّدون الناسَ من دون ربهم ، بتحريفهم كتابَ الله عن موضعه ، فقال الله عز وجل:{ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقولَ للناس كونوا عبادًا لي من دون الله}، ثم يأمر الناس بغير ما أنزل الله في كتابه"[٥].
والرابع: أخرج عبد بن حميد عن روح عن عوف عن الحسن: "بلغني أن رجلًا قال: يا رسول الله: نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال: "لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله"، فأنزل الله عز وجل هذه الآية إلى قوله: {بِأَنَّا مُسْلِمُون}"[٦].

قوله تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ } [آل عمران :٧٩]، " أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحُكْم والنبوة أن يقول للناس : اعبدوني مع الله"[٧].

وفي قوله تعالى:{ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ }[آل عمران:٧٩]، وجهان:
أحدهما: أن الحكم: العلم. قاله ابن عباس[٨].
الثاني: أن الحكم: اللب. قاله مجاهد[٩].

قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران :٧٩]،" أي: ولكن يقول الرسول للناس : كونوا رَبَّانيين"[١٠].

واختلف في تفسير قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ } [آل عمران :٧٩]، على تسعة وجوه:
أحدها: فقهاء. قاله مجاهد[١١].
والثاني: حكماء علماء. قاله أبو رزين[١٢].
والثالث: فقهاء علماء , وهو قول ابن عباس[١٣]، الحسن[١٤]، ومجاهد- في رواية أخرى-[١٥]، والضحاك[١٦]، وقتادة[١٧]،وسعيد بن جبير -في رواية عنه-[١٨]، وعطاء الخراساني[١]، والربيع بن أنس[٢]، وعطية[٣]، ويحيى بن عقيل[٤].

---

(١)انظر: تفسير الطبري(٧٢٩٩):ص٥٤٠/٦.
(٢) نظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٦/١.
(٣) وفي أسباب النزول:" يعني الإنجيل".
(٤) تفسير الثعلبي:١٠١/٣، وانظر: أسباب النزول:١١٢.
(٥) أخرجه الطبري(٧٣٠٠):ص٥٤٠/٦.
(٦) العجاب:٧٠٥/٢، لم ينسبه السيوطي في الدر: ٢/ ٢٥٠، إلى غيره واقتصر في اللباب: ٥٤، على عزوه إلى عبد الرزاق في تفسيره، والثعلبي:١٠١/٣، وأورده الواحدي :١١٣، معزوا إلى الحسن وسياقه سياق الحافظ ابن حجر.
(٧) تفسير ابن كثير:٦٦/٢.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٤٠):ص٦٩٠/٢.
(٩)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٤١):ص٦٩٠/٢.
(١٠) تفسير ابن كثير:٦٦/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٣٠٦)-(٨٣٠٨):ص٥٤١/٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٣٠١)-(٧٣٠٤):ص٥٤٠/٦-٥٤١، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٧٤٧):ص٦٩١/٢
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٣١٥):ص٥٤٢/٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٣٠٥):ص٥٤١/٦.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٧٣١٢):ص٥٤١/٦-٥٤٢.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٣١٧):ص٥٤٢/٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٧٣٠٩):ص٥٤١/٦.
(١٨)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٤٩):ص٦٩٢/٢، ذكره دون إسناد.

والرابع:الفقهاء المعلمون. قاله ابن عباس أيضا [٥].
والخامس: حكماء فقهاء. قاله ابن عباس-في رواية اخرى-[٦]، والسدي[٧].
والسادس: حكماء أتقياء , وهو قول سعيد بن جبير[٨].
والسابع: حلماء علماء حكماء. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا[٩].
والثامن: أن المراد: كونوا أهل عبادة، وأهل تقوى لله. قاله الحسن –في رواية أخرى-[١٠].
والتاسع: أنهم الولاة الذين يربّون أمور الناس , وهذا قول ابن زيد[١١].

قال الطبري:" وأولى الأقوال عندي بالصواب في«الربانيين»: أنهم جمع: «رباني»، وأن«الرباني» المنسوب إلى«الرَّبَّان»، الذي يربُّ الناسَ، وهو الذي يُصْلح أمورهم، ويربّها، ويقوم بها"[١٢].

وفي أصل «الرباني»، قولان:

أحدها: أنه الذي يربُّ أمور الناس بتدبيره, يُصْلح أمورهم، ويقوم بها ، ومنه قول علقمة بن عبدة[١٣]:

وَكُنْتُ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رِبَابَتِي ... وَقَبْلَكَ رَبَّتْني ، فَضِعْتُ ، رُبُوبُ

فسمي العالم ربّانياً لأنه بالعلم يدبر الأمور، بتعليمه إياهم الخيرَ ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم.

ولذلك قال مجاهد :"وهم فوق الأحبار"[١٤]، لأن "الأحبارَ" هم العلماء ، و"الرباني" الجامعُ إلى العلم والفقه ، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية ، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم[١٥].

والثاني: أنه مضاف إلى عالم الرب , وهو علم الدين , فقيل لصاحب العلم الذي أمر به الرب ربّاني[١٦].

قوله تعالى: {بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران :٧٩]، " أي :بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إيّاه"[١٧].

قال الطبري:يعني:" بعلمكم الكتابَ ودراستكم إياه وقراءتكم، ودراستهم إياه: تلاوته، وقيل: دراستهم: الفقه"[١٨].

وقرئ: { تُعَلِّمُون}، بالتشديد، من التعليم[١٩].

---

(١)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٤٩):ص٦٩٢/٢، ذكره دون إسناد.
(٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٤٩):ص٦٩٢/٢، ذكره دون إسناد.
(٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٤٩):ص٦٩٢/٢، ذكره دون إسناد.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٣١٤):ص٥٤٢/٦.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٤٦):ص٦٩١/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٣١٣)، و(٧٣١٦):ص٥٤٢/٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٣١١):ص٥٤١/٦.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٣١٨):ص٥٤٢/٦.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٤٧):ص٦٩١/٢.
(١٠)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٤٨):ص٦٩١/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٣١٩):ص٥٤٣/٦.
(١٢) تفسير الطبري:٥٤٣/٦.
(١٣)البيت في ديوانه: ١٣٢ والمفضليات: ١٩٤/٢، واللسان (ربب) ومقاييس اللغة: ٣٨٣/٢، وتفسير الطبري: ١٤٢/١، و٥٤٣/٦، والصحاح (ربب) والمخصص: ١٥٤/١٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٣١٢):ص٥٤١/٦-٥٤٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري:٥٤٤/٦.
(١٦) انظر: النكت والعيون:٤٠٦/١.
(١٧) صفوة التفاسير:١٩٣.
(١٨)تفسير الطبري:٥٤٥/٦-٥٤٦.
(١٩) انظر: تفسير ابن كثير:٦٦/٢.

الفوائد:
١- لم يكن من الممكن لمن آتاه الله الكتاب والحكمة وشرفه بالنبوة أن يدعو الناس لعبادة نفسه فضلاً عن عبادة غيره.
٢- سادات الناس هم الربانيون الذين يربون الناس بالعلم والحكمة فيصلحونهم ويهدونهم.
٣-عظماء الناس من يعلمون الناس الخير ويهدونهم إليه.
٤-الرد عى منكري الأسباب، لقوله: {بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ }، ولا شك بان الأسباب ثابتة، ولكنها مؤثرة بما اودعه الله فيها من قوة التأثير.
٦-جواز تسمية المعلم بالرباني، لذلك نجد كثيرا ما يصفون العالم بأنه العالم الرباني.

القرآن
{وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)} [آل عمران : ٨٠]
التفسير:
وما كان لأحد منهم أن يأمركم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا تعبدونهم من دون الله. أيُعْقَلُ -أيها الناس- أن يأمركم بالكفر بالله بعد انقيادكم لأمره؟
في سبب نزول الآية قولان:
أحدهما: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نافع القرظي: "حين اجتمعت الأحبار من يهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ قال: فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له: الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعوا وكما قال. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني وألا أمرني أو كما قال عليه السلام، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: {ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون}"(١).
الثاني: ونقل ابن حجر عن مقاتل أنها "نزلت ردًا على كردم بن قيس والأصبغ بن زيد"(٢).
قوله تعالى: {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا} [آل عمران : ٨٠]، " أي: وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله - ملائكة أو أنبياء"(٣).
قال ابن كثير:" أي : ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ولا ملك مُقَرَّب"(٤).
وقرئ: {وَلا يَأْمُرُكُمْ}، برفع الراء، على وجه الابتداء من الله بالخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأمرك(٥).
قوله تعالى:{أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران : ٨٠]، " أي: أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله؟"(٦).
قال الطبري:أي: " أيأمُركم أيها الناس ، نبيُّكم ، بجحود وحدانية الله بعد إذ أنتم له منقادون بالطاعة، متذللون له بالعبودة،أي أن ذلك غير كائن منه أبدًا"(١).

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٥٦):ص٦٩٣/٢.
(٢) العجاب:٧٠٦/٢، أخذ الحافظ هذا من مقاتل ولكن نصه :١/ ٢٨٦-٢٨٧: "{وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا} -يعني عيسى والعزيز، ولو أمركم بذلك لكان كافرا فذلك قوله: {أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ} يعني بعبادة الملائكة والنبيين: {بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} يعني مخلصين له بالتوحيد. فقال الأصبغ بن زيد وكردم بن قيس: أيأمرنا بالكفر بعد الإيمان فأنزل الله عز وجل: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ} ".
والظاهر من هذا أن الآية (٨١) هي التي نزلت ترد على المذكورين لا الآية (٨٠). والله أعلم.
(٣) صفوة التفاسير:١٩٤.
(٤) تفسير ابن كثير:٦٦/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٥٤٧/٦.
(٦)صفوة التفاسير:١٩٤.

قال ابن كثير:" أي : لا يَفْعَل ذلك ؛ لأنَّ من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء : ٢٥] وقال تعالى : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } الآية ، [النحل : ٣٦] وقال تعالى { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } [الزخرف : ٤٥] وقال تعالى إخبارًا عن الملائكة : { وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } [الأنبياء : ٢٩]"(٢).

الفوائد:

١- إثبات الملائكة، وأن الإيمان بهم احد أركان الإيمان الستة.

٢- أن الذي منّ الله عليه بالكتاب والحكم والنبوة لايمكن ان يأمر غيره باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا، كما انه لايدعو الناس إلى عبادة نفسه.

٣- أن السجود لله وحده، لما ورد أن الآية نزلت ردا على من أرادوا السجود لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-.

القرآن

{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)} [آل عمران : ٨١]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- إذ أخذ الله سبحانه العهد المؤكد على جميع الأنبياء: لَئِنْ آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول من عندي، مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنَّه. فهل أقررتم واعترفتم بذلك وأخذتم على ذلك عهدي الموثق؟ قالوا: أقررنا بذلك، قال: فليشهدْ بعضكم على بعض، واشهدوا على أممكم بذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم. وفي هذا أن الله أخذ الميثاق على كل نبي أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأخذ الميثاق على أمم الأنبياء بذلك.

سبب النزول:

قال مقاتل:" {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا} -يعني عيسى والعزيز، ولو أمركم بذلك لكان كافرا فذلك قوله: {أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ} يعني بعبادة الملائكة والنبيين: {بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} يعني مخلصين له بالتوحيد. فقال الأصبغ بن زيد وكردم بن قيس: أيأمرنا بالكفر بعد الإيمان فأنزل الله عز وجل: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ} "(٣).

قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ }[آل عمران:٨١]، " أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيّين"(٤).

قال الحسن:" : أخذ الله ميثاق النبيين : ليبلّغن آخرُكم أولكم ، ولا تختلفوا"(٥).

قال السدي:" لم يبعث الله عز وجل نبيًّا قطُّ من لدُنْ نوح ، إلا أخذ ميثاقه ليؤمننّ بمحمد ولينصرنَّه إن خَرَج وهو حيّ ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به ولينصرُنَّه إن خَرَج وهم أحياء"(٦).

ولأهل العلم في تفسير الميثاق قولان :

---

(١) تفسير الطبري:٥٤٩/٦.

(٢)تفسير ابن كثير:٦٦/٢.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان: ١/ ٢٨٦-٢٨٧.

(٤) صفوة التفاسير:١٩٥.

(٥) أخرجه الطبري(٧٣٣٢):ص٥٥٦/٦.

(٦) أخرجه الطبري(٧٣٣١):ص٥٥٦/٦.

أحدهما : أنه أخذ ميثاق النبيين أن يأخذوا على قومهم بتصديق محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وهذا قول علي[١]، وابن عباس[٢]، وقتادة[٣]، والسدي[٤] .
والثاني : أنه أخذ ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا. وهذا قول طاووس[٥]، وقتادة[٦].
قوله تعالى: {لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ }[آل عمران:٨١]، " أي : لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة"[٧].
وقرأ سعيد بن جبير: {لَمَّا} بتشديد الميم، وقرأ يحيى بن رئاب والأعمش وحمزة والكسائي{ لِمَا }، بجرّ اللام وتخفيف الميم، وأما الباقون: {لما}،بفتح اللام وتخفيف الميم وقرئ[٨].
وقرئ: {آتيتكم} على التفريد وهو المختار لموافقة الخط، وقرأه آخرون : {آتينَاكم} على الجمع[٩].
قوله تعالى: {ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ }[آل عمران:٨١]،" أي:ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم"[١٠].
قال يحيى بن سلام:" أخذ الله على النبيين أن يعلموا أمر محمد، ما خلا محمدا من النبيين فإنه لا نبي بعده، ولكنه قد أخذ عليه أن يصدق بالأنبياء كلهم، ففعل صلى الله عليه وسلم"[١١].
قال طاوس:" هذه الآية لأهل الكتاب , أخذ الله ميثاقهم أن يؤمنوا لمحمد ويصدقوه"[١٢].
قال السدي:" فيقول اليهود: أخذت ميثاق الناس لمحمد وهو الذي ذكر في الكتاب عندكم"[١٣].
قال عطاء:" أخذ ميثاق أهل الكتاب لئن جاءهم رسول مصدق بكتبهم التي عندهم التي جاء بها الأنبياء ليؤمنن به ولينصرنه، فأقروا بذلك، وأشهدوا الله على أنفسهم فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم صدق بكتبهم الأنبياء التي كانت قبله، {فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}"[١٤].
قوله تعالى: {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ }[آل عمران:٨١]،" أي لتصدقنه ولتنصرنه"[١٥].
قال مقاتل:" يعني لتصدقن به إن بعث ولتنصرنه إذا خرج"[١٦].
قوله تعالى: {قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي }[آل عمران:٨١]،" أي أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي؟"[١٧].
قال محمد بن إسحاق:" أي ثقل ما حملتم من عهدي"[١٨].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٣٢٩):ص٥٥٥/٦.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٥٧):ص٦٩٣/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٣٣٠):ص٥٥٥/٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٣٣٧):ص٥٥٩/٦.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٥٨):ص٦٩٣/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٣٣٦):ص٥٥٨/٦.
(٧) تفسير ابن كثير:٦٧/٢.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي:١٠٣/٣، وتفسير الطبري:٥٥٠/٦-٥٥٢.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:١٠٤/٣.
(١٠) صفوة التفاسير:١٩٥.
(١١) تفسير يحيى بن سلام:٧٠٢/٢.
(١٢) أخرجه عبدالرزاق(٤٢١):ص٣٩٩/١.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٥٩):ص٦٩٤/٢.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٧٦٠):ص٦٩٤/٢.
(١٥) صفوة التفاسير:١٩٥.
(١٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٧/١.
(١٧) صفوة التفاسير:١٩٥.
(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٦٦):ص٦٩٥/٢.

والإصر: العهد. قاله ابن عباس(١)، ومجاهد(٢) والربيع بن أنس(٣) والسدي(٤)، وقتادة(٥).
وقرئ: {أصرى}، بالضم(٦).
قوله تعالى: {قَالُوا أَقْرَرْنَا} [آل عمران : ٨١]، أي: "قالوا: اعترفنا"(٧).
قوله تعالى: {قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران : ٨١]،أي: قال الله لهم:" اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم"(٨).
قال الزمخشري:" وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض. وقيل: الخطاب للملائكة"(٩).
الفوائد:
١-بيان سنة الله تعالى في الأنبياء السابقين وهي أن يؤمن بعضهم ببعض وينصر بعضهم بعضاً.
٢-أن الله منّ على النبيين بالكتاب والحكمة، ويتفرغ على ذلك أن من ورث هذا الكتاب والحكمة فإنه قد أخذ بحظ وافر مما انعم الله به على النبيين.
٣-فضيلة النبي محمد-صلى الله عليه وسلم- لكون الله أخذ على جميع الأنبيا الميثاق والعهد ان يؤمنوا به.
٤-أن رسالة النبي-صلى الله عليه وسلم- جامعة للتصديق بجميع الرسالات، وكذلك أن هذه الامة هي المصدقة تماما بجميع الرسل، وهذه ميزة ليست لغيرها.
٥-تقوية هذا العهد بهذه التقريرات والإشهادات المختومة بقوله:{وأنا معكم من الشاهدين}، وما أعظم شهادة الله عزّ وجل في امر من الأمور.
٦-أنه إذا كان واجبا على الأنبياء والأمم السابقين أن يؤمنوا برسول الله-صلى الله عليه وسلم-، كان إيماننا نحن ونصرته من باب أولى، لأننا ننتسب إليه ونعتقده إماما-صلى الله عليه وسلم-.

القرآن
{فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)} [آل عمران : ٨٢]
التفسير:
فمن أعرض عن دعوة الإسلام بعد هذا البيان وهذا العهد الذي أخذه الله على أنبيائه، فأولئك هم الخارجون عن دين الله وطاعة ربهم.
قوله تعالى: {فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ}[آل عمران:٨٢]، أي: فمن "أعرض ونكث عهده"(١٠).
قال ابن كثير:" أي : عن هذا العهد والميثاق"(١١).
قال الطبري:أي:" فمن أعرَض عن الإيمان برسلي الذين أرسلتهم بتصديق ما كان مع أنبيائي من الكتب والحكمة ، وعن نصرتهم ، فأدبر ولم يؤمن بذلك، ولم ينصر ، ونكث عهدَه وميثاقه، بعد العهد والميثاق الذي أخذَه الله عليه"(١).

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٦٥):ص٦٩٥/٢.
(٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٦٦):ص٦٩٥/٢.
(٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٦٦):ص٦٩٥/٢.
(٤)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٦٦):ص٦٩٥/٢.
(٥)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٦٦):ص٦٩٥/٢.
(٦) انظر: الكشاف:٣٨٠/١.
(٧) صفوة التفاسير:١٩٥.
(٨) صفوة التفاسير:١٩٥.
(٩) الكشاف:٣٨٠/١.
(١٠) صفوة التفاسير:١٩٥.
(١١) تفسير ابن كثير:٦٧/٢.

قوله تعالى: { فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }[آل عمران:٨٢]، أي: أولئك هم "الخارجون من دين الله وطاعة ربهم"[٢].

قال علي بن أبي طالب-كرّم الله وجهه-:"فمن تولى عنك ، يا محمد ، بعد هذا العهد من جميع الأمم " فأولئك هم الفاسقون " ، هم العاصون في الكفر"[٣].

الفوائد:

١-أن الفسق يطلق على الكفر.

٢-أن من تولى قبل قيام الحجة عليه، لم يحكم عليه بالفسق، وهذا يعني أن الشرائع لا تلزم قبل العلم، وهي مسألة اختلف فيها العلماء.

القرآن

{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)} [آل عمران : ٨٣]

التفسير:

أيريد هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب غير دين الله -وهو الإسلام الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم-، مع أن كل مَن في السموات والأرض استسلم وانقاد وخضع لله طواعية -كالمؤمنين- ورغمًا عنهم عند الشدائد، حين لا ينفعهم ذلك وهم الكفار، كما خضع له سائر الكائنات، وإليه يُرجَعون يوم المعاد، فيجازي كلا بعمله. وهذا تحذير من الله تعالى لخلقه أن يرجع إليه أحد منهم على غير ملة الإسلام.

سبب النزول:

نقل الثعلبي عن ابن عباس: "اختصم أهل الكتاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما اختلفوا بينهم من دين إبراهيم -عليه السلام- كل فرقة زعمت أنّه أولى بدينه، قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم، فغضبوا وقالوا: والله ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ}"[٤].

قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ} [آل عمران : ٨٣]،أي:: أفغير طاعة الله تلتمسون وتريدون"[٥].

وقرئ:{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ}، على وجه الخطاب[٦].

قوله تعالى:{ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [آل عمران : ٨٣]، أي:"ولله أسلم وانقاد وخضع أهل السماوات والأرض طائعين ومكرهين "[٧].

قال الطبري:أي:" وله خَشع من في السموات والأرض فخضع له بالعبودة، وأقرّ له بإفراد الربوبية ، وانقاد له بإخلاص التوحيد والألوهية"[٨].

قال المراغي:أي:" وقد خضع لله تعالى وانقاد لحكمه أهل السموات والأرض، ورضوا طائعين مختارين لما يحل بهم من تصاريف أقداره"[٩].

---

(١) تفسير الطبري:٥٦٢/٦.
(٢) تفسير الطبري:٥٦٢/٦.
(٣) أخرجه الطبري(٧٣٣٩):ص٥٦٢/٦.
(٤) تفسير الثعلبي:١٠٥/٣.
(٥) تفسير الطبري:٥٦٤/٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٥٦٣/٦.
(٧) صفوة التفاسير:١٩٥-١٩٦.
(٨) تفسير الطبري:٥٦٤/٦.
(٩) تفسير المراغي:٢٠١/٣.

قال أبو السعود:" أي طائعين بالنظر واتباعِ الحجةِ وكارهين بالسيف ومعاينةِ ما يلجىء الى الإسلام كنَتْق الجبلِ وإدراكِ الغرقِ والإشرافِ على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخَّرين كالكفرة فإنهم لايقدرون على الامتناع عما قُضيَ عليهم"(١).

وفي تفسير قوله تعالى:{ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } [آل عمران : ٨٣]، ستة أوجه:

أحدها : أن المؤمن أسلم طوعاً والكافر أسلم عند الموت كَرْهاً ، وهذا قول قتادة(٢) .

والثاني : أنه الإقرار بالعبودية وإن كان فيه من أشرك في العبادة ، وهذا قول مجاهد (٣).

والثالث : أنه سجود المؤمن طائعاً وسجود ظل الكافر كرهاً ، وهو مروي عن مجاهد أيضاً(٤) .

والرابع : طوعاً بالرغبة والثواب . وكرهاً بالخوف من السيف ، وهو قول الحسن(٥)، ومطر(٦) .

والخامس : أن إسلام الكاره حين أخذ منه الميثاق فأقر به ، وهذا قول ابن عباس(٧) .

والسادس : معناه أنه أسلم بالانقياد والذلة وإن أنكر ألوهته بلسانه، وهو قول عامر الشعبي(٨) ، والزجاج (٩).

قوله تعالى:{وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران : ٨٣]" أي: إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة، فيجازي كل عاملٍ بعمله"(١٠).

قال أبو العالية:" يرجعون إليه بعد الحياة"(١١).

قال السعدي:أي:" وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل"(١٢).

قال المراغي:" أي وإليه يرجع من اتخذ غير الإسلام دينا من اليهود والنصارى وسائر الخلق، وحينئذ يجازون بإساءتهم وترك الدين الحق، وفي هذا وعيد وتهديد لهم"(١٣).

وقرئ:{ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، على وجه الخطاب(١٤).

الفوائد:

١- أن من ابتغى غير دين الله، فإنه يستحق هذا التوبيخ العظيم.

٢- أن من شرط صحة العمل وقبوله أن يكون موافقا لشرع الله، وجهه أن الله انكر على من بغى دينا غير دين الله، ولهذا كان شرط العبادة الإخلاص لله، وموافقة شريعة الله.

٣- تشريف هذا الدين، لأن الله أضافه إلى نفسه:{دين الله}.

٤- إقامة الحجة على أنه لايليق بالإنسان أن يبتغي دينا غير دين الله وهو مربوب مملوك لله.

٥- عموم ملك الله وسلطانه.

---

(١) تفسير أبي السعود:٥٤/٢.
(٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٧٨):ص٦٩٧/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٣٤٢)، و(٧٣٤٣):ص٥٦٥/٦.
(٤)انظر: تفسير الطبري(٧٣٤٦)-(٧٣٤٩):ص٥٦٦/٦، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٧٧٧):ص٦٩٧/٢.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٧١):ص٦٩٦/٢، و تفسير الطبري(٧٣٥٢١):ص٥٦٧/٦.
(٦)انظر: تفسير الطبري(٧٣٥٢):ص٥٦٧/٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٣٤٥):ص٥٦٥/٦.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٧٢):ص٦٩٦/٢.
(٩) انظر: معاني القرآن:٤٣٨/١-٤٣٩.
(١٠) صفوة التفاسير:٤٠٦/٢.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨٠):ص٦٩٧/٢.
(١٢) تفسير السعدي:١٣٧.
(١٣)تفسير المراغي:٢٠١/٣.
(١٤)انظر: تفسير الطبري:٥٦٣/٦.

٦-إثبات السماوات، وأنها عدد، وقد جاءت الادلة بأنها سبع، والأرضين هي سبع، إذ جا الإفصاح بها في السنة.

٧-أن المرجع إلى الله، سواء كان في الدنيا وذلك في الاحكام، او في الآخرة وذلك للمحاسبة.

٨-إثبات البقاء لله، لأنه إذا كان مرجع كل الخلق لزم من ذلك أنه سيبقى عزّ وجل ليكون مرجعا لجميع الخلق.

القرآن

{قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)} [آل عمران : ٨٤]

التفسير:

قل لهم -أيها الرسول-: صدَّقنا بالله وأطعنا، فلا رب لنا غيره، ولا معبود لنا سواه، وآمنَّا بالوحي الذي أنزله الله علينا، والذي أنزله على إبراهيم خليل الله، وابنيه إسماعيل وإسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، والذي أنزله على الأسباط -وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة مِن ولد يعقوب- وما أوتي موسى وعيسى من التوراة والإنجيل، وما أنزله الله على أنبيائه، نؤمن بذلك كله، ولا نفرق بين أحد منهم، ونحن لله وحده منقادون بالطاعة، مُقِرُّون له بالربوبية والألوهية والعبادة.

سبب النزول:

قال ابن ظفر: "لما تكلم اليهود بما قالوه، والنصارى بما ليس لهم، أمر الله نبيه أن يقول للمسلمين: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا} الآية، فأخبر أنهم يؤمنون بجميع الأنبياء ولا يفرقون بين أحد منهم"[١].

والظاهر أنه إعلان للجميع بما في ذلك اليهود والنصارى الذين فرقوا بين أنبياء الله. والله أعلم.

قوله تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}[آل عمران:٨٤]، أي:" قل لهم ، يا محمد صدقنا بالله أنه ربنا وإلهنا، وصدَّقنا أيضًا بما أنزل علينا من وَحيه وتنزيله"[٢].

قال ابن كثير:" يعني : القرآن"[٣].

قال عطاء بن يسار: "كان اليهود يجيئون إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فيحدثونهم فيسبحون، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله"[٤].

قوله تعالى: {وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ }[آل عمران:٨٤]، أي:" وصدقنا أيضًا بما أنزل على إبراهيم خليل الله، وعلى ابنيه إسماعيل وإسحاق ، وابن ابنه يعقوب وبما أنزل على الأسباط، وهم ولد يعقوب الاثنا عشر"[٥].

قال ابن كثير:" أي : من الصحف والوحي"[٦].

{ وَالأسْبَاطِ } :"هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - هو يعقوب - الاثنى عشر"[١].

---

(١) العجاب:٢/٧٠٧.

(٢) تفسير الطبري:٦/٥٦٩.

(٣) تفسير ابن كثير:٢/٧٠.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨١):ص٢/٦٩٨.

(٥) تفسير الطبري:٦/٥٦٩.

(٦) تفسير ابن كثير:٢/٧٠.

قال أبو العالية:"{الأسباط}: هو يوسف وإخوته بنوا يعقوب اثنا عشر رجلا، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط"[2]. وروي عن قتادة، والربيع بن أنس نحو ذلك[3].

وقال السدي:" وأما الأسباط فهم بنو يعقوب: يوسف، وبنيامين وروبيل، ويهوذا وشمعون، ولاوي، ودان وقهاث"[4].

قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى}[آل عمران:٨٤]، أي:" وصدّقنا أيضًا مع ذلك بالذي أنزل الله على موسى وعيسى من الكتب والوَحْي"[5].

قال ابن كثير:" يعني : بذلك التوراة والإنجيل"[6].

قوله تعالى: { وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ }[آل عمران:٨٤]أي:" وصدقنا أيضا "بما أنزل على النبيين من عنده"[7].

قال ابن كثير:" وهذا يَعُم جميعَ الأنبياء جملة"[8].

قال قتادة:" أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به، ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله"[9].

قال سليمان بن حبيب المحاربي: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة ولا نعمل بما فيها"[10].

عن معقل بن يسار قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن"[11].

قوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ }[آل عمران:٨٤] أي:" لا نكفر ببعض ونؤمن ببعض"[12].

قال قتادة:" أمر الله المؤمنين أن لا يفرقوا بين أحد منهم"[13].

قال ابن كثير:" يعني : بل نؤمن بجميعهم"[14].

قال الطبري:أي:"لا نصدّق بعضهم ونكذّب بعضَهم، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم ، كما كفرت اليهود والنصارى ببعض أنبياء الله وصدّقت بعضًا ، ولكنا نؤمن بجميعهم ، ونصدّقهم"[15].

قوله تعالى: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[آل عمران:٨٤]، "أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحداً أبداً"[16].

قال مقاتل:يعني: مخلصين"[17].

قال الطبري:أي:" ونحن ندين لله بالإسلام لا ندين غيره، ونحن له منقادون بالطاعة ، متذللون بالعبودة، مقرّون لهُ بالألوهة والربوبية ، وأنه لا إله غيره"[18].

---

(١) تفسير ابن كثير:٧٠/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨٢):ص٦٩٨/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٧٨٢):ص٦٩٨/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨٣):ص٦٩٨/٢.
(٥) تفسير الطبري:٥٦٩/٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٧٠/٢.
(٧) تفسير الطبري:٥٦٩/٦.
(٨) تفسير ابن كثير:٧٠/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨٥):ص٦٩٨/٢.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨٦):ص٦٩٨/٢.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨٤):ص٦٩٨/٢.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٨/١.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨٧):ص٦٩٨/٢.
(١٤) تفسير ابن كثير:٧٠/٢.
(١٥) تفسير الطبري:٥٦٩/٦.
(١٦) صفوة التفاسير:١٩٦.
(١٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٨/١.
(١٨) تفسير الطبري:٥٧٠/٦.

قال ابن كثير:" فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم مُصَدِّقون بما أنزل من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله"(1).

الفوائد:

١-وجوب الإقرار بالإيمان باللسان، كما هو واجب بالقلب.

٢-أن الإيمان بالله هو اصل كل شيء، مقدم على كل شيء، لقوله:{آمنا بالله}، وجعل ما بعده معطوفا عليه.

٣-وجوب الإيمان بما انزل علينا، وهو القرآن، لأنه شريعة ومنهاج.

٤-لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض ما أنزل الله تعالى على رسله ويكفر ببعض.

٥-ثبوت نبوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

٦-وجوب الإيمان بالأسباط، والراجح أن المراد بهم شعوب بني إسرائيل، أي : ما أنزل عليهم بواسطة رسلهم.

٧-ثبوت نبوة موس وعيسى.

٨- وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم من الآيات الكونية(المعجزات)، ومن الآيات الشرعية التي هي الشريعة التي يمشي عليها هؤلاء.

٩-الإسلام: هو الانقياد والخضوع لله تعالى، وهو يتنافى مع التخيير بين رسل الله ووحيه إليهم.

١٠-أن الإسلام ليس فيه العصبية، لقوله:{لا نفرق بين احد منهم}، بخلاف ما يسلكه بنو اسرائيل إذ لايؤمنون إلا بما جاء عن انبيائهم فقط.

١١-وجوب الاستسلام لله عزّ وجل وحده.

القرآن

{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)} [آل عمران : ٨٥]

التفسير:

ومن يطلب دينًا غير دين الإسلام الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والعبودية، ولرسوله النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم بالإيمان به وبمتابعته ومحبته ظاهرًا وباطنًا، فلن يُقبل منه ذلك، وهو في الآخرة من الخاسرين الذين بخسوا أنفسهم حظوظها.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: قال الثعلبي:"نزلت في اثني عشر رجلا ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة ولحقوا بمكة كفارا منهم: الحرث بن سويد الأنصاري أخو الحلاس بن سويد، وطعمة بن أشرف الأنصاري، ومقيس بن صبابة الليثي، وعبد الله بن أنس بن خطل من بني تميم بن مرة، ووجوج بن الأسلت، وأبو عاصم بن النعمان، فأنزل الله فيهم: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}"(2).

والثاني:وقال مقاتل بن سليمان:" نزلت في طعمة بن أبيرق الأنصاري من الأوس من بني صقر، ارتد عن الإسلام ولحق بكفار مكة "(3).

والثالث:أخرج الطبري عن ابن عباس: "قوله : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} إلى قوله : {وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة : ٦٢] ، فأنزل الله عز وجل بعد هذا:{ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه}"(1).

---

(١) تفسير ابن كثير:٧٠/٢.

(٢) تفسير الثعلبي:١٠٧/٣.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٨/١.

قوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [آل عمران : ٨٥]،أي:" ومن يطلب دينا غيرَ دين الإسلام ليدين به ، فلن يقبل الله منه"(٢).

قال ابن كثير:" أي : من سلك طريقًا سوى ما شَرَعَه الله فلن يُقْبل منه"(٣).

وفي الاسلام في هذه الآية قولان(٤):

أحدهما: أن الإسلام هاهنا الاستسلام إلى الله، وتفويض الأمر إليه، وذلك أمر مراد من الناس في كل زمان ومن كل أمة وفي كل شريعة.

قال الراغب:" الدين في اللغة الطاعة وفي التعارف: وضع إلهي ينساق به الناس إلى النعيم الدائم، فبين تعالى أن من تحرى طاعة وانسياقا إلى النعيم من غير الاستسلام له على ما يأمره به. ويصرفه فيه فلن يقبل منه دنيء من أعماله، وهو في الآخرة من الذين خسروا أنفسهم"(٥).

والثاني: أن المراد بالإسلام شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، فبين أن من تحرى بعد بعثته شريعة أو طاعة لله من غير متابعته في شريعته فغير مقبول منه.

قال الراغب:" وهذا الوجه داخل في الأول، فمعلوم أن من الاستسلام الانقياد لأوامر من صحت نبوته وظهر صدقه"(٦).

قوله تعالى:{ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران : ٨٥]، أي: وهو في الآخرة من "الباخسين أنفسَهم حظوظَها من رحمة الله عز وجل"(٧).

قال السمعاني:" وحق لمن يبتغي غير دين الإسلام أن يصبح غدا من الخاسرين"(٨).

قال عكرمة:" قوله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا}، فقالت الملل: نحن مسلمون، فأنزل الله تعالى: {ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا}، فحج المسلمون وقعد الكفار"(٩).

الفوائد:

١-بطلان كل عمل ليس على دين الإسلام، لقوله:{فلن يقبل منه}.

٢-أن جميع الأديان غير دين الإسلام غير مقبولة عند الله ولا نافعة للمتدين بها، لعموم قوله:{غير الإسلام}، فيشمل دين المسيحية واليهودية والبوذية والمجوسية، وكل دين، فإن الله لايقبل غير الإسلام.

٣-الثناء على دين الاسلام، وأنه هو المقبول المحبوب إلى الله.

٤-إثبات الآخرة، وأن فيها خسارة وربح أعظم من خسارة الدنيا وربحها.

القرآن

{كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)} [آل عمران : ٨٦]

التفسير:

كيف يوفق الله للإيمان به وبرسوله قومًا جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم به، وشهدوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم حق وما جاء به هو الحق، وجاءهم الحجج من عند الله والدلائل بصحة ذلك؟ والله لا يوفق للحق والصواب الجماعة الظلمة، وهم الذين عدلوا عن الحق إلى الباطل، فاختاروا الكفر على الإيمان.

---

(١) تفسير الطبري(٧٣٥٩):ص٦/٥٧١-٥٧٢.

(٢)تفسير الطبري:٦/٥٧٠.

(٣) تفسير ابن كثير:٢/٧٠.

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني:٢/٦٩١-٦٩٢.

(٥) تفسير الراغب الأصفهاني:٢/٦٩٢.

(٦) تفسير الراغب الأصفهاني:٢/٦٩٢.

(٧)تفسير الطبري:٦/٥٧٠.

(٨) تفسير السمعاني:١/٣٣٨.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٨٨):ص٢/٦٩٩.

في سبب نزول الآيات(٨٦-٨٩) اقوال:
أحدها: أخرج النسائي[١]، والطبري[٢]، وابن أبي حاتم[٣]، وصححه ابن حبان[٤]، والحاكم[٥]، من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال: "كان رجل[٦] من الأنصار أسلم، ثم ارتد ولحق بالمشركين، ثم ندم فأرسل إلى قومه سلوا لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل لي من توبة فسألوا فقالوا: إن صاحبنا قد ندم، وإنه قد أمرنا أن نسأل هل له توبة فنزلت: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} إلى قوله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} فأرسل إليه فأسلم.

وفي رواية الواحدي:" فلما قرئت عليه قال: والله ما كذبني قومي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا كذب رسول الله، والله تعالى أصدق الثلاثة فرجع تائبًا فقبل منه"[٧].

وأخرجه البزار عن ابن بزيع هذا فقال في أوله: "إن قوما أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون" فذكره[٨].

والثاني:أخرج الطبري[٩]، والواحدي[١٠]، وعبدالرزاق[١١]، وابن المنذر[١٢]، عن مجاهد: "جاء الحارث بن سُوَيد فأسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه ، فأنزل الله عز وجل فيه القرآن : {كيف يَهدي الله قومًا كفروا بعدَ إيمانهم} إلى {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ}، قال : فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه ، فقال الحارث : إنك والله ما علمتُ لصَدُوقٌ ، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدقُ منك ، وإنّ الله عز وجل لأصدق الثلاثة. قال : فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه"[١٣].

وذكر ابن إسحاق في السيرة الكبرى: "إن الحارث بن سويد بن صامت كان منافقا، فخرج يوم أحد مع المسلمين، فلما التقى الناس غدا على مسلمين فقتلهما، ثم لحق بمكة بقريش، ثم بعث إلى أخيه الجلاس يطلب التوبة، فأنزل الله فيه هذه الآيات"[١٤].

وذكر إن المقتول هو المجذر بن زياد وقيس بن زيد من بني ضبيعة، وتعقب ابن هشام فذكر أن قيس بن زيد لم يعد في قتلى أحد[١٥].

---

(١)في "تحريم الدم": باب "توبة المرتد" "٧/ ١٠٧" "٤٠٦٨" وفي التفسير "ص٣٣" الرقم "٨٥" عزاه إليه في "تحفة الأشراف" "٥/ ١٣٣" ورجال سنده ثقات

(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٣٦٠):ص٥٧٢/٦-٥٧٣.

(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٧٨٩):ص٦٩٩/٢.

(٤)انظر "الإحسان"، كتاب "الحدود"، "باب الردة" "١٠/ ٣٢٩" "٤٤٧٧" وقال محققه الأستاذ شعيب: "إسناده صحيح، رجاله ثقات على شرط مسلم غير بشر بن معاذ العقدي، فقد روى له أصحاب "السنن" وهو ثقة".

(٥)انظر "المستدرك"، كتاب "قسم الفيء" "٢/ ١٤٢" وكتاب "الحدود" "٤/ ٣٦٦" وقال في المكانين: "صحيح الإسناد ولم يخرجا" ووافقه الذهبي، وأخرجه كذلك أحمد في "المسند" وانظر "مرويات الإمام أحمد في التفسير" "١/ ٢٨٠" والبيهقي في "الكبرى" "٨/ ١٩٥" وانظر "الإصابة" "١/ ٢٨٠".

(٦)هذه الرواية، ورواية أخرى بعدها تذكر: "رجلا" والآية تقول "قوما" فتأمل

(٧) أسباب النزول:١١٣-١١٤.

(٨) نقلا عن العجاب:٧٠٩/٢، ولم يصل المطبوع من مسنده إلى مسند ابن عباس.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٢٦٣):ص٥٧٣/٦.

(١٠) أسباب النزول:١١٤، من طريق مسدد بن مسرهد.

(١١) انظر: لباب النقول:٥٥.

(١٢) انظر: فتح القدير:٣٥٩/١.

(١٣) تفسير الطبري(٧٢٦٣):ص٥٧٣/٦.

(١٤) سيرة ابن هشام:٥٢٠/١، و٨٩/٢.

(١٥)وعن مصير الحارث بن سويد بعد قتله المجذر والخلاف فيه انظر "سيرة ابن هشام" "٢/ ٨٩" و"الإصابة" في ترجمته "١/ ٢٨٠" وترجمة المجذر "٣/ ٣٦٤" و"الباهر في حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالباطن والظاهر" للسيوطي "ص٥٦-٥٧".

والثالث: أخرج الطبري عن مجاهد:" هو رجل من بني عمرو بن عوف ، كفر بعد إيمانه، لحق بأرض الرّوم فتنصَّر ، ثم كتب إلى قومه : " أرسلوا ، هل لي من توبة ؟ " قال : فحسبتُ أنه آمن ، ثم رَجع"(١).

والرابع: وأخرج الطبري عن عكرمة:" نزلت في أبي عامر الرّاهب ، والحارث بن سويد بن الصامت ، ووَحْوَح بن الأسلت في اثني عشر رجلا رَجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش ، ثم كتبوا إلى أهلهم : هل لنا من توبة ؟ فنزلت : {إلا الذي تابوا من بعد ذلك}، الآيات"(٢).

والخامس: قال مقاتل:" نزلت في اثني عشر رجلا ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة كهيئة البداة ثم انصرفوا إلى طريق مكة، فلحقوا بكفار مكة منهم طعمة بن أبيرق الأنصاري، ومقيس بن ضبابة الليثي، وعبد الله بن أنس بن خطل من بنى ثيم ابن مرة القرشي. ووجوج بن الأسلت الأنصاري، وأبو عامر بن النعمان الراهب، والحارث بن سويد بن الصامت الأنصاري من بني عمرو بن عوف، أخو الجلاس بن سويد بن الصامت، ثم أن الحارث ندم فرجع تائبا من ضرار ثم أرسل إلى أخيه الجلاس إني قد رجعت تائبا فسل النبي- صلى الله عليه وسلم- هل لي من توبة وإلا لحقت بالشام فانطلق الجلاس إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- فأخبره فلم يرد عليه شيئا فأنزل الله- عز وجل- في الحارث فاستثنى {إلا الذين تابوا} فلا يعذبون {من بعد ذلك} يعني من بعد الكفر {وأصلحوا} في العمل فيما بقي {فإن الله غفور} لكفره {رحيم}"(٣).

والسادس: أخرج الطبري عن ابن عباس:" {كيف يهدي الله قومًا كفرُوا بعد إيمانهم}، فهم أهلُ الكتاب ، عرَفوا محمدًا صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به"(٤). وروي عن الحسن مثل ذلك(٥).

قوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}[آل عمران : ٨٦]، "أي: كيف يستحق الهْداية قوم كفروا بعد إيمانهم"(٦).

قال الطبري:أي:" كيف يُرشد الله للصواب ويوفّق للإيمان ، قومًا جحدُوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، بعد تصديقهم إياه وإقرارهم بما جاءَهم به من عند ربه"(٧).

قوله تعالى: {وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ}[آل عمران : ٨٦]، أي:" وشهدوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم حق وما جاء به هو الحق"(٨).

قال الطبري:" يقول: وبعد أن أقرّوا أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلقه حقًّا"(٩).

قوله تعالى: {وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } [آل عمران : ٨٦]،أي:" وجاءهم الحجج من عند الله والدلائلُ بصحة ذلك"(١٠).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [آل عمران : ٨٦]،أي:" والله لا يوفّق للحق والصّواب الجماعة الظَّلمة"(١١).

قال ابن الجوزي:" وقوله: {كيف يهدي الله قوما كفروا} استفهام في معنى الجحد، أي: لا يهديهم الله. وفيه طرف من التوبيخ، كما يقول الرجل لعبده: كيف أحسن إلى من لا يطيعني. أي:

---

(١) تفسير الطبري(٧٣٦٧):ص٥٧٤/٦.
(٢) تفسير الطبري(٧٣٦٧):ص٥٧٤/٦.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٨/١-٢٨٩.
(٤) تفسير الطبري(٧٣٦٨):ص٥٧٤/٦.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٣٦٩)-(٧٣٧١):ص٥٧٥/٦.
(٦) صفوة التفاسير:١٩٦.
(٧) تفسير الطبري:٥٧٦/٦.
(٨) التفسير الميسر: ٦١.
(٩) تفسير الطبري: ٥٧٦/٦.
(١٠)تفسير الطبري:٥٧٦/٦.
(١١) تفسير الطبري:٥٧٦/٦.

لست أفعل ذلك والمعنى: أنه لا يهدي من عاند بعد أن بان له الصواب. وهذا محكم لا وجه لدخول النسخ عليه وقد زعم قوم منهم السدي أن هذه الآيات منسوخات بقوله: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك}"(١).

ثم ذكر ابن الجوزي عن السدي:" {كيف يهدي الله قوما كفروا} قال: نزلت في الحارث ثم أسلم فنسخها الله عزوجل فقال: {إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا}(٢).

قال ابن الجوزي: "وقد بينا فيما تقدم أن الاستثناء ليس بنسخ وإنما هو مبين، أن اللفظ الأول لم يرد به العموم وإنما المراد به من عاند ولم يرجع إلى الحق بعد وضوحه، ويؤكد هذا أن الآيات خبر، والنسخ لا يدخل في الأخبار بحال"(٣).

الفوائد:

١- أن من أضل الله عن بصيرة فإنه يبعد أن يُهدى-نعوذ بالله-.

٢- أن من فسق عن بصيرة فإنه يبعد ان يكون من العدول.

٣- أن الهداية والإضلال بيد الله، فمن كان اهلا للهداية هداه، ومن كان اهلا للضلال أضله الله.

٤- أن الإنسان قد يعاند ويستكبر بعد أن تبين له الحق.

٥- أن الكفر بعد الإيمان أغلظ من الكفر الأصلي، لأن الله تعالى استبعد ان يهتدي هؤلاء، في حين ذكر في موضع آخر ان الله تعالى قد يهدي الكافرين، فقال: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة : ٧].

٦- أن النبي-صلى الله عليه وسلم- حق، لأن الله لام هؤلاء على الكفر بعد أن شهدوا أن الرسول حق.

٧- أن الله لم يدع الخلق هملا، بل أقام لهم الحجج والبينات.

٨- أن من أضله الله فإنما ذلك لظلم منه، لقوله: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

القرآن

{أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)} [آل عمران : ٨٧]

التفسير:

أولئك الظالمون جزاؤهم أنَّ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فهم مطرودون من رحمة الله.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ } [آل عمران : ٨٧]، أي: أولئك" جزاؤهم على كفرهم"(٤).

قوله تعالى: {أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [آل عمران : ٨٧]، أي:" اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين"(٥).

قال ابن كثير:"أي : يلعنهم الله ويلعنهم خلقه"(٦).

قال الطبري:أي:" أن يحلّ بهم من الله الإقصاء والبعد، ومن الملائكة والناس الدعاءُ بما يسوؤهم من العقاب من جميعهم... وإنما جعل ذلك جل ثناؤه ثواب عملهم ، لأن عملهم كان بالله كفرًا"(٧).

---

(١) نواسخ القرآن:٣٢٧.

(٢)الآية (٨١) من سورة آل عمران.

(٣) نواسخ القرآن:٣٢٧.

(٤) صفوة التفاسير:١٩٦.

(٥)صفوة التفاسير:١٩٦.

(٦) تفسير ابن كثير:٧١/٢.

(٧) تفسير الطبري:٥٧٦/٦-٥٧٧.

قال أبو العالية:" يعني {الناس أجمعين}: المؤمنين، إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون"(١).

وقال السدي:" أما: {لعنة الله والملائكة والناس أجمعين}، فإنه لا يتلاعن اثنان مؤمنان ولا كافران فيقول أحدهما: لعن الله الظالم، إلا وجبت تلك اللعنة على الكافر لأنه ظالم، فكل أحد من الخلق يلعنه"(٢)

الفوائد:

١-إثبات الجزاء، وفيها أن الجزاء من جنس العمل، فإن هؤلاء لما ارتكبوا ثلاث جرائم: كان عليهم لعنة الله والملائكة والناس ثلا بثلاث.

٢-أن الملائكة ذو عقول يفهمون ويفعلون.

٣-أن أمثال هؤلاء يلعنهم الناس جميعا.

القرآن

{خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)} [آل عمران : ٨٨]

التفسير:

ماكثين في النار، لا يُرفع عنهم العذاب قليلا ليستريحوا، ولا يُؤخر عنهم لمعذرة يعتذرون بها.

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا}[آلأ عمران:٨٨]، أي: ماكثين في عقوبة الله"(٣).

قال أبو العالية:" يعني في النار، في اللعنة"(٤).

قال مقاتل:" في اللعنة مقيمين فيها"(٥).

قال ابن كثير:أي: في اللعنة"(٦).

قوله تعالى:{ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ}[آلأ عمران:٨٨]، " أي : لا يُفتَّر عنهم العذاب ولا يُخَفَّف عنهم"(٧).

قال الطبري:" لا ينقصون من العذاب شيئًا في حال من الأحوال ، ولا ينفَّسون فيه"(٨).

قوله تعالى:{ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}[آلأ عمران:٨٨]، أي:" ولا هم ينظرون لمعذرة يعتذرون"(٩).

قال مقاتل:" يعني لا يناظر بهم العذاب"(١٠).

قال الطبري:" وذلك كله عَينُ الخلود في العقوبة في الآخرة"(١١).

قال أبو العالية:" هو كقوله: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ(٣٥)وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات:٣٥- ٣٦] "(١٢).

الفوائد:

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٧٩١):ص٦٩٩/٢.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٧٩٢):ص٧٠٠/٢.

(٣) تفسير الطبري:٥٧٧/٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٩٣):ص٧٠٠/٢.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٨/١.

(٦) تفسير ابن كثير:٧١/٢.

(٧) تفسير ابن كثير:٧١/٢.

(٨)تفسير الطبري:٥٧٧/٦.

(٩)تفسير الطبري:٥٧٧/٦.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٨/١.

(١١)تفسير الطبري:٥٧٧/٦.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧٩٣):ص٧٠٠/٢.

١-إثبات ان هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا ان الرسول حق، وجاءهم البينات خالدون في لعنة الله، أي في الطرد والإبعاد عن رحمته.
٢-ومنها: أنهم دائما في عذاب، لا يخفف أبدا ولا ينتظرون الفرج، لا بالتخلص منه، ولا بتخفيفه.

القرآن
{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)} [آل عمران : ٨٩]
التفسير:
إلا الذين رجعوا إلى ربهم بالتوبة النصوح من بعد كفرهم وظلمهم، وأصلحوا ما أفسدوه بتوبتهم فإن الله يقبلها، فهو غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.
قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}[آل عمران : ٨٩]، أي:"إلا الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن إيمانهم"[١].
قال الطبري:" فراجعوا الإيمان بالله وبرسوله ، وصدّقوا بما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم من عند ربهم"[٢].
قوله تعالى:{ وَأَصْلَحُوا}[آل عمران : ٨٩]،أي:" وأصلح ما أفسد من عمله"[٣].
قال مقاتل:" {وأصلحوا} في العمل فيما بقي"[٤].
قال الطبري:أي:" وعملوا الصالحات من الأعمال"[٥].
قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[آل عمران : ٨٩]،أي: فإن الله" متفضل عليه بالرحمة والغفران"[٦].
قال الطبري:أي: إن الله"{غفور}: ساتر عليه ذنبه الذي كان منه من الرّدّة ، فتاركٌ عقوبته عليه ، وفضيحته به يوم القيامة ، غيرُ مؤاخذه به إذا مَات على التوبة منه، {رحيم}: متعطِّف عليه بالرحمة"[٧].
الفوائد:
١-أن التوبة تجبّ ما قبلها.
٢-أنه لابد مع التوبة من الإصلاح.
٣-إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: الغفور الرحيم، وإثبات ما تضمناه من الصفة وهي المغفرة والرحمة.
٤-الثناء على المصلحين، ويستلزم الإصلاح أن يكون المصلح صالحا.

القرآن
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)} [آل عمران : ٩٠]
التفسير:
إن الذين كفروا بعد إيمانهم واستمروا على الكفر إلى الممات لن تُقبل لهم توبة عند حضور الموت، وأولئك هم الذين ضلُّوا السبيل، فأخطؤُوا منهجه.

---

(١) تفسير الطبري:٥٧٧/٦-٥٧٨.
(٢) تفسير الطبري:٥٧٨/٦.
(٣) صفوة التفاسير:١٩٦.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٩/١.
(٥)تفسير الطبري:٥٧٨/٦.
(٦) صفوة التفاسير:١٩٦.
(٧)تفسير الطبري:٥٧٨/٦.

في سبب نزول الآية اقوال:
أحدها: قال الحسن[١] وقتادة[٢] وعطاء الخراساني[٣]: نزلت هذه الآية في اليهود، كفروا بعيسى -عليه السلام- والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.
الثاني: وقال أبو العالية[٤]: نزلت في اليهود والنصارى، كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما رأوه وعرفوه بعد إيمانهم بنعته وصفته في كتبهم، ثم ازدادوا ذنوبا في حال كفرهم.
الثالث: وقال مجاهد[٥]: نزلت في الكفار كلهم، أشركوا بعد إقرارهم بأن الله خالقهم، {ثم ازدادوا كفرا}، أي أقاموا على كفرهم حتى هلكوا عليه.
الرابع: ونقل ابن حجر عن ابن الكلبي أنها: "نزلت في الأحد عشر رفقة الحارث بن سويد لما رجع الحارث قالوا: نقيم بمكة ما بدا لنا فمتى أردنا رجعنا فنزل فينا ما نزل في الحارث، فلما افتتحت مكة دخل في الإسلام من دخل منهم فقبلت توبته ونزلت فيمن مات منهم كافرا هذه الآية"[٦]. ونقل مقاتل نحو ذلك[٧].

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}[آل عمران : ٩٠]، أي:إن الذين ارتدوا عن الإسلام إلى الكفر"[٨].

قال الطبري: أي:"إن الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مَبعثه ، بعد إيمانهم به قبل مبعثه"[٩].

قوله تعالى:{ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا}[آل عمران : ٩٠]،" أي : استمروا على الكفر إلى الممات"[١٠].

قال ابن أبي زمنين:" أي: ماتوا على كفرهم"[١١].

قال السمرقندي:" أي ثبتوا على كفرهم بقولهم: نقيم بمكة ما بدا لنا"[١٢].

قال السعدي:أي:" ثم ازداد كفرا إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى"[١٣].

قوله تعالى:{لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}[آل عمران : ٩٠]،" أي: لا تقبل منهم توبة ما أقاموا على الكفر"[١٤].

قال السعدي:" أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} فالسيئات ينتج بعضها بعضا، وخصوصا لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٣٧٢):ص٥٧٨/٦.
(٢)انظر: تفسير الطبري(٧٣٧٣):ص٥٧٨/٦-٥٧٩.
(٣)انظر: تفسير الثعلبي:١٠٨/٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٣٧٧)-(٧٣٨١):ص٥٧٩/٦-٥٨٠، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٧٩٩):ص٧٠١/٢.
(٥)انظر: تفسير الثعلبي:١٠٨/٣.
(٦) العجاب:٧١٣/٢-٧١٤. وعلى هذا أن الآية تأخر نزولها إلى ما بعد فتح مكة! مثل هذا يحتاج إلى دليل صحيح.
(٧) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٨٨/١-٢٨٩.
(٨) أيسر التفاسير، للجزائري:٣٤٤/١.
(٩) تفسير الطبري:٥٨١/٦.
(١٠) تفسير ابن كثير:٧١/٢.
(١١) تفسير ابن أبي زمنين:٣٠٢/١.
(١٢) تفسير السمرقندي:٢٣٠/١.
(١٣) تفسير السعدي:١٣٧/١.
(١٤) صفوة التفاسير:١٩٦.

عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة"(١).

ولأهل التفسير في قوله تعالى:{لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}[آل عمران : ٩٠]، وجهان:

احدهما: لأنهم: تابوا من بعض ولم يتوبوا من الأصل. وهذا قول أبي العالية(٢).

والثاني:أنهم ازدادوا كفرا حين حضرهم الموت، فـ{لن تقبل توبتهم} حين حضرهم الموت. وهذا قول قتادة(٣)، وعطاء(٤)، والحسن(٥).

قال القاسمي:" وقد أشكل على كثير قوله تعالى لن تقبل توبتهم مع أن التوبة عند الجمهور مقبولة كما في الآية قبلها، وقوله سبحانه: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده} [الشورى: ٢٥]، وغير ذلك.

فأجابوا: بأن المراد عند حضور الموت. قال الواحدي في (الوجيز) : «لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت، وتلك التوبة لا تقبل»(٦)- انتهى-، أي كما قال تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت} [النساء: ١٨] ، الآية. وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أي لا يتوبون، كقوله: {أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} [البقرة: ٦] . وإنما كنى بذلك تغليظا في شأنهم وإبرازا لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، وقيل: لأنهم توبتهم لا تكون إلا نفاقا لارتدادهم وازديادهم كفرا. وبقي للمفسرين وجوه أخرى، هي في لتأويل أبعد مما ذكر. ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء: {إن الذين آمنوا ثم كفروا} إلخ. وكلاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردته لا تقبل توبته، وإلى هذا ذهب إسحاق وأحمد كما قدمنا، وذلك لرسوخه في الكفر"(٧).

قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}[آل عمران : ٩٠]، أي: وأولئك هم" الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي"(٨).

قال الطبري:أي:" هم الذين ضلوا سبيل الحقّ فأخطأوا منهجه ، وتركوا نِصْف السبيل وهُدَى الدين ، حَيرةً منهم ، وعَمىً عنه"(٩).

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على اقوال:

أحدها: أن المراد: {إن الذين كفروا} ببعض أنبيائه الذين بعثوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، {بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا} بكفرهم بمحمد، {لن تقبل توبتهم}، عند حُضور الموت وحَشرجته بنفسه. وهذا قول الحسن(١٠)، وقتادة(١١).

والثاني: أن المعنى: إن الذين كفروا من أهل الكتاب بمحمد ، بعد إيمانهم بأنبيائهم، {ثم ازدادوا كفرًا }، يعني : ذنوبًا، {لن تقبل توبتهم}، من ذنوبهم ، وهم على الكفر مقيمون. قاله أبو العالية(١٢).

---

(١) تفسير السعدي:١٣٧/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٠٣):ص٧٠٢/٢.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٠٤):ص٧٠٢/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٠٤):ص٧٠٢/٢.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٠٤):ص٧٠٢/٢.
(٦) الوجيز:٢٢٢.
(٧) محاسن التأويل:٣٤٨/٢-٣٤٩.
(٨) صفوة التفاسير:١٩٦.
(٩) تفسير الطبري:٥٨٣/٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٣٧٢):ص٥٧٨/٦.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٣٧٣)-(٧٣٧٥):ص٥٧٨/٦-٥٧٩.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٣٧٦)-(٧٣٧٩):ص٥٧٩/٦-٥٨١.

والثالث: أن معنى ذلك : إن الذين كفروا بعد إيمانهم بأنبيائهم ، {ثم ازدادوا كفرًا}، يعني : بزيادتهم الكفر : تمامُهم عليه ، حتى هلكوا وهم عليه مقيمون، {لن تقبل توبتهم}، لن تنفعهم توبتهم الأولى وإيمانهم ، لكفرهم الآخِر وموتهم. وهذا قول عكرمة(١).

والرابع: أن معنى قوله : {ثم ازدادوا كفرًا}، ماتوا كفارًا ، فكان ذلك هو زيادتهم من كفرهم. وقالوا: معنى {لن تقبل توبتهم}، لن تقبل توبتهم عند موتهم. وهذا قول السدي(٢).

والراجح: أنه عنى بها اليهود، لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت ، فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها ، إذ كانت في سياق واحد، ومعنى الآية: "إن الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مَبعثه ، بعد إيمانهم به قبل مبعثه ، ثم ازدادوا كفرًا بما أصَابوا من الذنوب في كفرهم ومُقامهم على ضلالتهم ، لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم ، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويراجعوا التوبة منه بتصديقه بما جاء به من عند الله"(٣).

الفوائد:

١-إن الذي يرتد عن الاسلام فإنه إذا بقي على حاله، فإنه لا تقبل توبته عند الموت.

٢-أنه كلما مادى الإنسان في الكفر، ولم يتب، فإنه يزداد، لأن كل وقت يمر يزداد وزرا إلى وزره، كما ان المؤمن يزداد لأيضا بزيادة الأيام إيمانا.

٣-أن من تاب قبل أن يحضر اجله فإن الله يتوب عليه.

٤-إن من استمر على كفره، فإنه ضال، لأنه اجتنب طريق الحق، قال تعالى: {فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس : ٣٢]

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)} [آل عمران : ٩١]

التفسير:

إن الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وماتوا على الكفر بالله ورسوله، فلن يُقبل من أحدهم يوم القيامة ملء الأرض ذهبًا، ليفتدي به نفسه من عذاب الله، ولو افتدى به نفسه فِعْلا. أولئك لهم عذاب موجع، وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ}[آل عمران : ٩١]، أي: إن الذين" كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا"(٤).

قال الحسن:" هو كل كافر"(٥).

قال ابن كثير:" أي : من مات على الكفر"(٦).

قال الطبري:"أي: جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يصدقوا به وبما جاء به من عند الله من أهل كل ملة ، يهودها ونصاراها ومجوسها وغيرهم، : وماتوا على ذلك من جحود نبوته وجحود ما جاء به "(٧).

قوله تعالى: { فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ}[آل عمران : ٩١]،" أي: لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً"(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٣٨٢):ص٥٨١/٦.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٣٨٣):ص٥٨١/٦.
(٣) تفسير الطبري:٥٨١/٦.
(٤) صفوة التفاسير:١٩٦.
(٥) أخرجه الطبري(٧٣٨٥):ص٥٨٥/٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٧٢/٢.
(٧) تفسير الطبري:٥٨٤/٥.

قال ابن كثير:" أي : من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قُرْبة ، كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جُدْعان - وكان يُقْرِي الضيفَ ، ويَفُكُّ العاني ، ويُطعم الطعام - : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : "لا إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِن الدَّهْرِ : رَبِّ اغْفِرْ لي خَطِيئَتِي يوم الدِّين"(٢)"(٣).

قال الطبري:" : فلن يقبل ممن كان بهذه الصفة في الآخرة جَزَاءٌ ولا رِشْوةٌ على ترك عقوبته على كفره ، ولا جُعْلٌ على العفو عنه ولو كان له من الذهب قدرُ ما يملأ الأرضَ من مشرقها إلى مغربها ، فرَشَا وَجزَى على ترك عقوبته وفي العفو عنه على كفره عوضًا مما الله مُحلٌّ به من عذابه. لأنّ الرُّشا إنما يقبلها من كان ذا حاجة إلى ما رُشى. فأما من له الدنيا والآخرة ، فكيف يقبل الفدية ، وهو خلاق كل فدية افتدَى بها مفتدٍ منْ نفسه أو غيره ؟"(٤).

روي عن أنس بن مالك: "أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيتَ لو كان لك ملءُ الأرض ذهبًا ، أكنت مفتديًا به ؟ فيقول : نعم! قال فيقال : لقد سُئلت ما هو أيسرُ من ذلك! فذلك قوله : {إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهبًا ولو افتدى به} "(٥).

قوله تعالى: {أولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[آل عمران : ٩١]،أي: هؤلاء لهم عند الله في الآخرة عذابٌ موجع"(٦).

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ }[آل عمران : ٩١]، " أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه"(٧).

قال الطبري:" وما لهم من قريب ولا حميم ولا صديق ينصره ، فيستنقذه من الله ومن عذابه كما كانوا ينصرونه في الدنيا على من حاول أذاه ومكروهه"(٨).

قال ابن كثير:" أي : وما لهم من أحد يُنْقِذهم من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه"(٩).

الفوائد:

١-أن من مات على الكفر فلن يقبل منه شيء يمنعه من عذاب الله.

٢-أن الأمر يسير على المؤمن لأنه يفتدي من عذاب الله بما هو أقل من ملء الأرض ذهبا، فإنه إذا آمن وقام بالعمل الصالح، وادى الواجبات نجا من هذا العذاب مع أقل بكثير من ملء الأرض ذهبا.

٣-إثبات العذاب لهؤلاء الكفار، وأن هذا العذاب عذاب شديد مؤلم.

٤-أن هذا الألم ألم بدني وألم نفسي، لأنهم مع العذاب الشديد العظيم على البدن يعذبون عذابا نفسيا، وذلك بالتوبيخ والإهانة.

٥-أنه لا ناصر لهؤلاء الكفار، حتى آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تلقى في نار جهنم إهانة لها وإذلالا لها وإهانة لعابديها وإذلالا لهم.

القرآن

---

(١) صفوة التفاسير:١٩٦.
(٢)رواه مسلم في صحيحه برقم (٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣)تفسير ابن كثير:٧٢/٢.
(٤) تفسير الطبري:٥٨٤/٥-٥٨٥.
(٥) أخرجه الطبري(٧٣٨٤):ص٥٨٥/٦.
(٦) تفسير الطبري:٥٨٥/٦.
(٧) صفوة التفاسير:١٩٦.
(٨)تفسير الطبري:٥٨٥/٦.
(٩) تفسير ابن كثير:٧٣/٢.

{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)} [آل عمران : ٩٢]

التفسير:

لن تدركوا الجنة حتى تتصدقوا مما تحبون، وأي شيء تتصدقوا به مهما كان قليلا أو كثيرًا فإن الله به عليم، وسيجازي كل منفق بحسب عمله.

قوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران : ٩٢]، " أي: لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم"[١].

قال الطبري:أي: "لن تنالوا –أيها المؤمنون- جنة ربكم، حتّى تتصدقوا مما تحبون من نفيس أموالكم"[٢].

قال الحسن: يعني:"من المال"[٣].

قال قتادة:" يقول : لن تنالوا برَّ ربكم حتى تنفقوا مما يعجبكم ، ومما تهوَوْن من أموالكم"[٤].

وفي تفسير{البرّ}[آل عمران:٩٢]، أقوال:

أحدها: أنه الجنة. قاله ابن عباس[٥]، ومجاهد[٦]، وعمر بن ميمون[٧]، والسدّي[٨].

والثاني: انه الطاعة. قاله عطاء[٩].

والثالث: أنه الخير. قاله أبو روق[١٠].

والرابع: انه التقوى. قاله مقاتل بن سليمان[١١].

والخامس: ان المعنى: لن تكونوا أبرارا. قاله الحسن[١٢].

قال الطبري:" قال كثير من أهل التأويل { البر}: الجنة[١٣] ، لأن بر الربّ بعبده في الآخرة ، إكرامه إياه بإدخاله الجنة"[١٤].

قال مجاهد:" كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أنْ يبتاع له جارية من جَلولاء يوم فُتحت مدائن كسرى في قتال سَعد بن أبي وقاص ، فدعا بها عمر بن الخطاب فقال : إن الله يقول : {لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون}، فأعتقها عمر وهي مثل قول الله عز وجل : {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}[سورة الإنسان : ٨] ، و{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}[سورة الحشر : ٩]"[١٥].

وقال أنس بن مالك:"لما نزلت هذه الآية : {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}، أو هذه الآية : {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}[سورة البقرة : ٢٤٥\ الحديد : ١١] ، قال أبو

---

(١) صفوة التفاسير:١٩٨.
(٢) تفسير الطبري:٥٨٧/٦.
(٣) أخرجه الطبري(٧٣٩٠):ص٥٨٨/٦.
(٤) أخرجه الطبري(٧٣٨٩):ص٥٨٧/٦-٥٨٨.
(٥) انظر: تفسير الثعلبي:١٠٩/٣.
(٦)انظر: تفسير الثعلبي:١٠٩/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٣٨٦):ص٥٨٧/٦.
(٨)انظر: تفسير الطبري(٧٣٨٨):ص٥٨٧/٦.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:١٠٩/٣.
(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:١٠٩/٣.
(١١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٠/١.
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي:١٠٩/٣.
(١٣) قاله السدي وعمرو بن ميمون. انظر: تفسير الطبري(٧٣٨٦)-(٧٣٨٨):ص٥٨٧/٦.
(١٤) تفسير الطبري:٥٨٧/٦.
(١٥) أخرجه الطبري(٧٣٩٢):ص٥٨٨/٦.

طلحة ، يا رسول الله ، حائطي الذي بكذا وكذا صَدَقة ، ولو استطعت أن أجعله سرًّا لم أجعله علانية! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلها في فقراء أهلك"[١].

وعن عمرو بن دينار قال : "لما نزلت هذه الآية : {لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون}، جاء زيدٌ بفرس له يقال له : " سَبَل " إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : تصدَّق بهذه يا رسول الله. فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه أسامة بن زيد بن حارثة ، فقال : يا رسول الله ، إنما أردت أن أتصدّق به! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد قُبلتْ صَدَقتك"[٢].

قوله تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران : ٩٢]، أي:" ومهما تنفقوا من شيء فتتصدقوا به من أموالكم، فإن الله ذو علم بذلك كله، فيجازي صاحبه عليه في الآخرة"[٣].

قال قتادة:" يقول : محفوظٌ لكم ذلك ، اللهُ به عليمٌ شاكرٌ له"[٤].

قال مقاتل بن سليمان:" يعنى: عالم به، يعنى: بنياتكم"[٥].

قال الثعلبي:" أي فإنّ الله يجازي عليه لأنّه إذا علمه جازى عليه"[٦].

الفوائد:

١-الحث على الإنفاق مما يحبه الإنسان.

٢-إثبات الأسباب، لأن الله أثبت للبر سببا وهو الانفاق مما نحب.

٣-عموم علم الله عزّ وجل، لقوله:{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}.

٤-إثبات الجزاء، وأن كل انسان سيجازي بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

٥-جواز إنفاق المرء جميع ماله، بناء على أن{من} للجنس، وهي مسألة اختلف فيه العلماء، والأفضل أن لاتتصدق بجميع المال، لقول النبي-صلى الله عليه وسلم-:"إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس"[٧].

القرآن

{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)} [آل عمران : ٩٣]

التفسير:

كل الأطعمة الطيِّبة كانت حلالا لأبناء يعقوب عليه السلام إلا ما حرَّم يعقوب على نفسه لمرض نزل به، وذلك مِن قبل أن تُنَزَّل التوراة. فلما نُزِّلت التوراة حرَّم الله على بني إسرائيل بعض الأطعمة التي كانت حلالا لهم; وذلك لظلمهم وبغيهم. قل لهم -أيها الرسول-: هاتوا التوراة، واقرؤوا ما فيها إن كنتم محقين في دعواكم أن الله أنزل فيها تحريم ما حرَّمه يعقوب على نفسه، حتى تعلموا صدق ما جاء في القرآن من أن الله لم يحرم على بني إسرائيل شيئًا من قبل نزول التوراة، إلا ما حرَّمه يعقوب على نفسه.

في سبب نزول الآية أقوال:

احدها: قال السدي:" " قالت اليهود : إنما نحرِّم ما حرّم إسرائيل على نفسه ، وإنما حرّم إسرائيل العرُوق[١]، كان يأخذه عِرق النَّسا ، كان يأخذه بالليل ويتركه بالنهار ، فحلف لئن الله عافاه منه

(١)أخرجه الطبري(٧٣٩٤):ص٥٨٩/٦. والحديث رواه أحمد في المسند : (١٢١٧٠).
(٢) أخرجه الطبري(٧٣٩٧):ص٥٩٢/٦.
(٣) تفسير الطبري:٥٨٨/٦.
(٤) أخرجه الطبري(٧٣٩١):ص٥٨٨/٦.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٠/١.
(٦) تفسير الثعلبي:١١١/٣.
(٧) رواه البخاري(١٢٩٥).

لا يأكل عِرْقًا أبدًا ، فحرّمه الله عليهم ثم قال : {قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين}، ما حرَّم هذا عليكم غيري ببغيكم ، فذلك قوله : {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} [سورة النساء : ١٦٠]"(٢).

الثاني:وقال الضحاك:" إسرائيل هو يعقوب ، أخذه عرق النسا فكان لا يَبيتُ الليل من وجعه، وكان لا يؤذيه بالنهار، فحلف لئن شفاهُ الله لا يأكل عِرْقًا أبدًا ، وذلك قبل نزول التوراة على موسى، فسأل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم اليهود : ما هذا الذي حرم إسرائيل على نفسه ؟ فقالوا : نزلت التوراة بتحريم الذي حرَّم إسرائيل. فقال الله لمحمد -صلى الله عليه وسلم- : {قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين}إلى قوله : {فأولئك هم الظالمون}، وكذبوا وافتروا ، لم تنزل التوراة بذلك"(٣). وروي عن ابن عباس نحو ذلك(٤)، ونقل مقاتل نحوه(٥).

الثالث:نقل الثعلبي والواحدي(٦) عن أبي روق والكلبي: "كان هذا حين قال النبي صلى الله عليه وسلّم: «أنا على ملة إبراهيم». فقالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها، فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: «كان ذلك حلالا لإبراهيم فنحن نحلّه». فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرّمه فإنّه كان محرّما على نوح وإبراهيم هاجرا حتى انتهى إلينا، فأنزل الله تعالى تكذيبا لهم: {كُلُّ الطَّعامِ المحلل لكم اليوم كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ وهو يعقوب عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ}"(٧).

قوله تعالى:{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}[آل عمران : ٩٣]،" أي كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل"(٨).

قوله تعالى:{إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ}[آل عمران : ٩٣]، أي إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه قبل نزول التوراة "(٩).

قال الطبري:أي:"إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من غير تحريم الله ذلك عليه ، فإنه كان حرامًا عليهم بتحريم أبيهم إسرائيل ذلك عليهم ، من غير أن يحرمه الله عليهم في تنزيل ولا وحي"(١٠).

أخرج عبدالرزاق من طريق الثوري عن ابن عباس:" كان إسرائيل أخذه عرق النسا , فكان يبيت له زقاء , فجعل لله عليه إن شفاه ألا يأكل العروق" فأنزل الله تعالى: {كل الطعام كان

---

(١)العروق جمع العرق وهو كما في "القاموس" "ص١١٧٢": "العظم بلحمه، فإذا أكل لحمه فعراق، أو كلاهما لكليهما". وانظر "النهاية" لابن الأثير "٣/ ٢٢٠".
(٢) أخرجه الطبري(٧٣٩٩):ص٧/٧-٨.
(٣) أخرجه الطبري(٧٤٠٠):ص٩/٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٤٠١)،و(٧٤٠٢):ص١٠/٧.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٠/١، إذ يقول:" وذلك أن يعقوب بن إسحاق خرج ذات ليلة، ليرسل الماء في أرضه، فاستقبله ملك فظن أنه لص يريد أن يقطع عليه الطريق فعالجه في المكان الذي كان يقرب فيه القربان يدعى شانير فكان أول قربان قربه بأرض المقدس. فلما أراد الملك أن يفارقه، غمز فخذ يعقوب برجليه ليريه أنه لو شاء لصرعه، فهاج به عرق النساء، وصعد الملك إلى السماء، ويعقوب ينظر إليه فلقي منها البلاء، حتى لم ينم الليل من وجعه، ولا يؤذيه بالنهار، فجعل يعقوب لله- عز وجل- تحريم لحم الإبل وألبانها- وكان من أحب الطعام والشراب إليه- لئن شفاه الله. قالت اليهود جاء هذا التحريم من الله- عز وجل- «في التوراة قالوا: حرم الله على يعقوب وذريته» لحوم الإبل وألبانها. قال الله- عز وجل- لنبيه- صلى الله عليه وسلم- قل لليهود {فأتوا بالتوراة فاتلوها} فاقرءوها {إن كنتم صادقين} بأن تحريم لحوم الإبل في التوراة، فلم يفعلوا".
(٦) انظر: أسباب النزول:١١٥.
(٧) تفسير الثعلبي:١١٢/٣.
(٨) صفوة التفاسير:١٩٩.
(٩) صفوة التفاسير:١٩٩.
(١٠) تفسير الطبري:٩/٨.

حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه} [آل عمران: ٩٣]، قال سفيان: «له زقاء» قال: «صياح»"(١).

واختلفوا في تحريم إسرائيل على نفسه هل كان بإذن الله تعالى أم لا - على اختلافهم في اجتهاد الأنبياء- على قولين(٢) :

أحدهما : لم يكن إلا بإذنه وهو قول من زعم أن ليس لنبي أن يجتهد.

والثاني : باجتهاده من غير إذن ، وهو قول من زعم أن للنبي أن يجتهد.

واختلف أهل التفسير في الذي كان إسرائيل حرَّمه على نفسه على أقوال:

أحدها:أن الذي حرّمه إسرائيل على نفسه العُرُوق. قاله ابن عباس(٣)، ومجاهد(٤)، وأبي مجلز(٥)، وقتادة(٦).

والثاني: أن الذي حرمه لحوم الإبل وألبانها. وهذا قول الحسن(٧)، وعبدالله بن كثير(٨)، وعطاء بن ابي رباح(٩).

والثالث: أن الذي حرم: زائدة الكبد والكليتين والشحم إلا ما على الظهور. وهذا قول عكرمة(١٠).

قوله تعالى:{قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[آل عمران : ٩٣]،" أي: قل لهم يا محمد ائتوني بالتوراة واقرءوها عليَّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم"(١١).

قال الزمخشري:" أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم مما هو ناطق به من أن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه، فروى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة وبهتوا وانقلبوا صاغرين، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى جواز النسخ الذي ينكرونه"(١٢).

واختلفوا في تحريم اليهود ذلك على أنفسهم على أقوال :

أحدها: أنهم حرموه على أنفسهم اتباعاً لإسرائيل. وهذا قول الضحاك(١٣).

والثاني: أن اسرائيل حرّمه على نفسه وولده، وذلك حين اصابه عرق النساء. ولم يكن ذلك محرما عليهم في التوراة. قاله عطية(١٤).

والثالث: أن التوراة نزلت بتحريمها فحرموها بعد نزولها.وهذا معنى قول السدي(١٥).

والرابع: أن الله لم يحرّمه عليهم في التوراة، وإنّما حرّم عليهم بعد التوراة لظلمهم وكفرهم، وكان بنو إسرائيل كلما أصابوا ذنبا عظيما حرّم الله عليهم طعاما طيبا، أو صبّ عليهم رجزا وهو الموت، وذلك قوله تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

---

(١) تفسير عبدالرزاق(٤٣١):ص٤٠٣/١.

(٢) انظر: النكت والعيون:٤١٠/١.

(٣)انظر: تفسير الطبري(٧٤٠٥):ص١١/٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٤١٢):ص١٣/٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٤٠٧):ص١٢/٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٤٠٨)-(٧٤١٠):ص١٢/٧-١٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٤١٦):ص١٤/٦.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٤١٥):ص١٣/٦-١٤.

(٩)انظر: تفسير الطبري(٧٤١٥):ص١٣/٦-١٤.

(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:١١٣/٣.

(١١) صفوة التفاسير:١٩٩.

(١٢) الكشاف:٣٨٦/١.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٤٠٠):ص٩/٧.

(١٤) انظر: تفسير الثعلبي:١١٣/٣.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(٧٣٩٩):ص٧/٧-٨.

}[النساء:١٦٠]، وقوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ إلى قوله وَإِنَّا لَصادِقُونَ}[الأنعام:١٤٦]. قاله الكلبي[1].

قال الماوردي:" الأول أصح"[2].

الفوائد:

١-أن لله أن يحلّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء.

٢-الرد على اليهود الذين زعموا أنه لا نسخ في الشرائع.

٣-أن التوراة منزلة كالقرآن، وهذا يدل على علو الله جل وعلا، وأنه فوق كل شيء، وهذا هو عقيدة أهل السنة والجماعة.

٤-أنه ينبغي للإنسان أن يقابل الخصم بشيء يقطع نزاعه.

٥-ومن هدي الرسول -صلى الله عليه وسلم- في علاج عرق النسا، عن أنس بن سيرين، عن أنس بن مالك؛ "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصف من عرق النسا ألية كبش عربي، أسود، ليس بالعظيم، ولا بالصغير، يجزأ ثلاثة أجزاء، فيذاب، فيشرب كل يوم جزءا"[3]. قال أنس: "فوصفته لأكثر من مائة فشفاهم الله"[4].

وقال الثعلبي:" روى شعبة أنّه رأى شيخا في زمن الحجاج بن يوسف يقول لعرق النساء: أقسم عليك بالله الأعلى لئن لم تنته لأكوينّك بنار أو لألحقنك بموسى، قال شعبة: فإنّه يقول ذلك ويمسح على ذلك الموضع فيبرأ بإذن الله"[5].

القرآن

{فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)} [آل عمران : ٩٤]

التفسير:

فمَن كذب على الله من بعد قراءة التوراة ووضوح الحقيقة، فأولئك هم الظالمون القائلون على الله بالباطل.

قوله تعالى: {فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [آل عمران : ٩٤]، أي:" فمن كذَب على الله منا ومنكم"[6].

قال مقاتل: "بأن الله حرمه في التوراة"[7].

قال الزمخشري: أي:" بزعمه أن ذلك كان محرما على بنى إسرائيل قبل إنزال التوراة"[8].

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}[آل عمران:٩٤]، أي:" من بعد مجيئكم بالتوراة وتلاوتها إياها"[9].

قال مقاتل: أي:"من بعد ذلك البيان""[10].

قال البيضاوي: أي:" ابتدعه على الله بزعمه أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن قبلهم"[11].

قال الزمخشري:أي:" من بعد ما لزمهم من الحجة القاطعة"[1].

---

(١) تفسير الثعلبي:١١٣/٣-١١٤.
(٢) النكت والعيون:٤١٠/١.
(٣) المسند الجامع(٩٦٦):ص١٥٥/٢.
(٤)المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٢٩٢.
(٥) تفسير الثعلبي:١١٤/٣.
(٦) تفسير الطبري:١٧/٧.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٠/١.
(٨) الكشاف:٣٨٦/١.
(٩) تفسير الطبري:١٧/٧.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٠/١.
(١١) تفسير البيضاوي:٢٨/٢.

قال الصابوني:أي:" من بعد قيام الحجة ظهور البينة"[٢].

وتحتمل الإشارة بـ{ذلك}في الآية الكريمة أن تكون إلى ثلاثة أشياء[٣]:

أحدها: أن تكون إلى التلاوة إذ مضمنها بيان المذهب وقيام الحجة، أي فمن كذب منا على الله تعالى أو نسب إلى كتب الله ما ليس فيها فهو ظالم واضع الشيء غير موضعه.

والثاني: أن تكون الإشارة إلى استقرار التحريم في التوراة، لأن معنى الآية: {كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ} [آل عمران: ٩٣] ، ثم حرمته التوراة عليهم عقوبة لهم، {فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ }، وزاد في المحرمات فهو الظالم.

والثالث: أن تكون الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه، وقبل نزول التوراة، أي من تسنن بيعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله، ومن حرم شيئا ونسبه إلى ملة إبراهيم فهو الظالم، ويؤيد هذا الاحتمال الأخير، قوله تعالى:{ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} [النساء: ١٦٠] فنص على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم، وكانوا يشددون فشدد الله عليهم، كما فعلوا في أمر البقرة.

قوله تعالى: {فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [آل عمران : ٩٤]، أي: فأولئك هم" المعتدون المكابرون بالباطل"[٤].

قال الطبري: " يعني:فهم الكافرون، القائلون على الله الباطل"[٥].

قال الزمخشري:أي:"المكابرون الذين لا ينصفون من أنفسهم ولا يلتفتون إلى البينات"[٦].

قال السعدي:" وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عنادا وتكبرا وتجبرا، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها"[٧].

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك انه قال في تفسير هذه الآية:"وكذبوا وافتروا ولم ينزل التوراة بذلك"[٨]. قال ابن بأبي حاتم: "يعني بتحريم العروق"[٩].

الفوائد:

١-أنه متى ظهر الحق فحاد الانسان عنه، صار أشد ظلما.

٢-أنه لا إثم مع الجهل، لقوله:{من بعد ذلك}.

القرآن

{قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)} [آل عمران : ٩٥]

التفسير:

قل لهم -أيها الرسول- صَدَق الله فيما أخبر به وفيما شرعه. فإن كنتم صادقين في محبتكم وانتسابكم لخليل الله إبراهيم عليه السلام فاتبعوا ملَّته التي شرعها الله على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها الحق الذي لا شك فيه. وما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين بالله في توحيده وعبادته أحدًا.

---

(١) الكشاف:٣٨٦/١.
(٢) صفوة التفاسير:١٩٩.
(٣) المحرر الوجيز:٤٧٣/١-٤٧٤.
(٤) صفوة التفاسير:١٩٩.
(٥) تفسير الطبري:١٧/٧.
(٦) الكشاف:٣٨٦/١.
(٧) تفسير السعدي:١٣٨.
(٨)تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٢٥):ص٧٠٦/٣-٧٠٧.
(٩) تفسير ابن أبي حاتم:٧٠٧/٣.

قوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ} [آل عمران: ٩٥]، " أي : قل يا محمد : صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن"[١].

قال الواحدي:" في هذا وفي جميع ما أخبر به"[٢].

قال السمعاني:" يعني: فيما أخبر وأنزل"[٣].

قال مقاتل:" حين قال الله- سبحانه- { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا}[٤] ... إلى آخر الآية، وقالت اليهود والنصارى: كان إبراهيم والأنبياء على ديننا، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم- فقد كان إبراهيم يحج البيت وأنتم تعلمون ذلك فلم تكفرون بآيات الله يعني بالحج، فذلك قوله- سبحانه- {قل صدق الله}"[٥].

قال الراغب:" معنى قوله: قل اعتقد وأخبر أن ذلك من قول الله تعالى، وهو صادق، وحقيقة قوله: {صدق الله} إقرار بأن الله قد أخبر، فإنه إذا ثبت كونه من خبره ثبت. كونه صدقا، ونبه أن ما أخبر من قوله: {كل الطعام كان حلا} وسائر ما تقدم صدق، وأنه ملة إبراهيم، وأوجب عليهم اتباعه في تحنفه أي في استقامته"[٦].

قوله تعالى:{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ } [آل عمران : ٩٥]،أي: "فاتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم "[٧].

قال الطبري:أي:" فاتبعوا ما قد أجمع جميعُكم على تصويبه من ملته الحنيفية ، ودعوا ما اختلفتم فيه من سائر الملل غيرها ، أيها الأحزاب ، فإنها بدَع ابتدعتموها إلى ما قد أجمعتم عليه أنه حق ، فإن الذي أجمعتم عليه أنه صوابٌ وحق من ملة إبراهيم ، هو الحق الذي ارتضيتُه وابتعثتُ به أنبيائي ورسلي، وسائرُ ذلك هو الباطل الذي لا أقبله من أحد من خلقي جاءَني به يوم القيامة"[٨].

قال ابن كثير:" أي : اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مِرْية ، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم ، كما قال تعالى : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : ١٦١] وقال تعالى : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل : ١٢٣] "[٩].

قوله تعالى:{ حَنِيفًا} [آل عمران : ٩٥]، أي: "مائلاً عن الأديان الزائفة كلها"[١٠].

قوله تعالى:{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران : ٩٥]، أي: و"لم يكن إبراهيم يشرك في عبادته أحدًا من خلقه"[١١].

قال مقاتل:" يقول: لم يكن يهوديا ولا نصرانيا"[١٢].

قال الطبري:" وإنما عنى جل ثناؤه بالمشركين ، اليهودَ والنصارَى وسائر الأديان ، غير الحنيفية. قال : لم يكن إبراهيم من أهل هذه الأديان المشركة ، ولكنه كان حنيفًا مسلمًا"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير:٧٧/٢.
(٢) الوجيز:٢٢٤.
(٣) تفسير السمعاني:٢٤١/١.
(٤) آل عمران:٦٧، وتمامها: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٠/١-٢٩١.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني:٧٢٤/٢.
(٧)صفوة التفاسير:١٩٩.
(٨)تفسير الطبري:١٨/٧.
(٩) تفسير ابن كثير:٧٧/٢.
(١٠)صفوة التفاسير:١٩٩.
(١١) تفسير الطبري:١٨/٧.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩١/١.

قال الراغب:" وفي قوله: {وما كان من المشركين}تعريض بهم، كأنه قيل: أنتم مشركون في اتخاذ بعضكم بعضا أربابا، وإبراهيم لم يكن مشركا، فإذن ليس دينكم دين إبراهيم، وكما نفى في قوله: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا} أنه منهم نفى في هذه الآية كونه مشركا"(٢).

عن عبد الله بن عمرو قال: "أفاض جبريل بإبراهيم صلى الله عليهما، فصلى به بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم غدا من منى إلى عرفة فصلى به الصلاتين: الظهر والعصر، ثم وقف له حتى غابت الشمس، ثم دفع حتى أتى المزدلفة، فنزل بها، فبات وصلى، ثم صلى كأعجل ما يصلي أحد من المسلمين، ثم وقف به كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين، ثم دفع منه إلى منى، فرمى وذبح، ثم أوحى الله تعالى إلى محمد أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين"(٣).

الفوائد:

١-وجود تصديق الله عزّ وجل في جميع ما اخبر به.

٢-وجوب الإيمان بما اخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات.

٣-وجوب إتباع ملة إبراهيم، لكن في أصل الشرائع، قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة : ٤٨]، إذ أن الشرائع تختلف بحسب حاجات الناس ومصالحهم، اما اصلها وهو التوحيد فإن جميع الشرائع تتفق فيه، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء : ٢٥].

٤-الثناء على إبراهيم-صلى الله عليه وسلم- بأنه حنيف وإمام، ولهذا أمرنا باتباعه.

٥-انتقاء الشرك عن إبراهيم-صلى الله عليه وسلم- انتقاءا كاملا، لقوله: :{حنيفا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، ويؤخذ من هذا ذم الشرك والنهي عن اتباعه.

القرآن

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦)} [آل عمران : ٩٦]

التفسير:

إن أول بيت بُني لعبادة الله في الأرض لهو بيت الله الحرام الذي في «مكة» ، وهذا البيت مبارك تضاعف فيه الحسنات، وتتنزل فيه الرحمات، وفي استقباله في الصلاة، وقصده لأداء الحج والعمرة، صلاح وهداية للناس أجمعين.

في سبب نزول الآية وجهان :

أحدهما: ذكر الثعلبي وتبعه الواحدي(٤) وابن ظفر(٥) عن مجاهد(٦): "تفاخر المسلمون واليهود، فقال اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنّها مهاجر الأنبياء في الأرض المقدسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ}"(٧).

الثاني: قال مقاتل بن سليمان:" وذلك أن المسلمين واليهود اختصموا في أمر القبلة. فقال المسلمون: القبلة الكعبة. وقالت اليهود: القبلة بيت المقدس. فأنزل الله- عز وجل- أن الكعبة أول مسجد كان في الأرض، والبيت قبلة لأهل المسجد الحرام، والحرم كله قبلة الأرض"(٨).

---

(١)تفسير الطبري:١٨/٧.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني:٧٢٤/٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٢٦):ص٧٠٧/٣.

(٤) أسباب النزول:١١٥.

(٥) انظر: العجاب:٧١٧/٣.

(٦)قال السيوطي :٢/ ٢٦٦: "أخرج ابن المنذر والأزرقي عن ابن جريج قال: بلغنا" وذكره. ولم يرفعه إلى مجاهد!.

(٧) تفسير الثعلبي:١١٤/٣.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩١/١.

قوله تعالى:{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ}[آل عمران:٩٦] "أي إن أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله: المسجد الحرام الذي هو بمكة"(١).

قال القاسمي: أي لنسكهم وعباداتهم، للبيت الذي في البكة، وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لايخفى"(٢).

قال ابن كثير:" يُخْبر تعالى أن أول بيت وُضع للناس،أي: لعموم الناس ، لعبادتهم ونُسُكهم ، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويَعتكِفُون عنده، { لَلَّذِي بِبَكَّةَ } يعني : الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام-الذي يَزْعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجِه ، ولا يَحجُّون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه"(٣).

قال البيضاوي:" والواضع هو الله عزوجل ومعنى وضع الله بيتاً للناس أنه جعله متعبداً لهم فكأنه قال إن أول متعبد للناس الكعبة"(٤).

واختلف في قوله تعالى: :{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ}[آلأ عمران:٩٦]، على أقوال:

أحدها: أنه أول بيت ظهر على وجه الماء عندما خلق الله السماء والأرض فخلقه الله قبل الأرض بألفي عام، وكان زبدة بيضاء على الأرض فدحيت الأرض من تحتها، هذا قول عبد الله بن عمرو ومجاهد وقتادة والسدي(٥).

والثاني: أنه أوّل بيت وضع: بني في الأرض. قاله علي بن الحسين(٦).

والثالث: أنه أول بيت بناه آدم في الأرض، قاله ابن عباس(٧).

والرابع: أنه أول بيت مبارك، أي: وضع فيه البركة. قاله علي(٨)، والضحاك(٩).

والخامس: انه اول بيت وضع للناس يحج إليه لله. قاله ابن عباس أيضا(١٠).

والسادس: أنه أول بيت جعل قبلة للناس(١١).

والسابع:أن معناه: إن أول مسجد ومتعبد وضع للناس يعبد الله فيه، يدل عليه قوله: {أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً}[يونس:٨٧]، يعني: مساجدهم وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً}، وقوله: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}[النور:٣٦] يعني: المساجد. وهذا قول علي(١٢)، والحسن، والكلبي والفراء(١٣)، ورجحه ابن كثير(١٤).

وفي تفسير قوله تعالى: {بَكَّةَ}[آل عمران:٩٦]، خمسة أقوال :

أحدها : أن بكة البيت والمسجد ، ومكة : الحرم كله ، وهذا قول ابن شهاب(١٥)، وضمرة بن ربيعة(١٦)، وإبراهيم(١٧).

والثاني : أن بكة هي مكة ، وهو الضحاك(١)، وأبي عبيدة (٢).

---

(١) صفوة التفاسير:١٩٩.
(٢) محاسن التأويل:٣٥٥/١.
(٣) تفسير ابن كثير:٧٧/٢.
(٤) تفسير البيضاوي:٢٧٥/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٢٨):ص٧٠٧/٣.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/٣.
(٧) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/٣.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٢٩):ص٧٠٨/٣، وتفسير الثعلبي:١١٥/٣.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/٣.
(١٠) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/٣.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/٣.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٢٧):ص٧٠٧/٣.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/٣.
(١٤) انظر: تفسير ابن كثير:٦٤/٢.
(١٥)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٨):ص٧٠٩/٣، وتفسير الثعلبي:١١٥/٣، والنكت والعيون:٤١٠/١.
(١٦) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/٣، والنكت والعيون:٤١٠/١.
(١٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٨):ص٧٠٩/٣.

والثالث : أن بكة موضع البيت والمطاف، ومكة غيره في الموضع، يريد القرية، قاله أبو مالك[٣]، وروي عن عطية وإبراهيم النخعي، وأبي صالح، ومقاتل بن حيان نحو ذلك[٤].
والرابع: أن مكة من الفج إلى التنعيم، وبكة من البيت إلى البطحاء. قاله ابن عباس[٥].
والخامس: أن البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة. وهذا قول عكرمة[٦]، وميمون بن مهران[٧].
وفي المأخوذ منه بكة أقوال[٨] :
أحدها : أنه مأخوذ من الزحمة ، يقال تَبَاكّ القوم بعضهم بعضاً إذا ازدحموا ، فبكة مُزْدَحَمُ الناس للطواف. وهذا معنى قول عطاء[٩]، وأبو جعفر[١٠].
والثاني :أنها سميت بكة ، لأنها تَبُكُّ الظلمة، وأعناق الجبابرة ، إذ ألحدواْ فيها بظلم لم يمهلواْ. وهذا قول عبدالرحمن بن الزبير[١١]، ومحمد بن زيد بن مهاجر[١٢].
والثالث:أن بكة بكت بكا، الذكر فيها كالأنثى. رواه عتبة بن قيس عن ابن عمر[١٣].
والرابع: إنما سميت بكة لأن الناس يجيئون من كل جانب حجاجا. قاله عبدالله بن الزبير[١٤]، ومقاتل بن حيان[١٥].
والخامس: إن الله بك به الناس جميعا، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك ببلد غيره. وهذا قول قتادة[١٦]، وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعمرو بن شعيب، ومقاتل بن حيان نحو ذلك[١٧] .
وقرأ ابن السميقع:"{ وَضَعَ}، بفتح الواو والضاد، يعني: وضعه الله"[١٨].
قوله تعالى:{ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ }[آل عمران:٩٦]، " أي: وضع ذلك البيت ذا بركة وهدى للعالمين"[١٩].
قال مقاتل بن حيان:" قوله: {مباركا}، جعلناه آمنا وجعل فيه الخير والبركة"[٢٠]، "يعني بالهدى: قبلتهم"[٢١].
قال البيضاوي:"{مباركا}: كثير الخير لما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيآت {وهدى للعالمين} لأنه قبلتهم ومتعبدهم"[١].

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/٣.
(٢)انظر: النكت والعيون:٤١٠/١.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٩):ص٧٠٩/٣، وتفسير الثعلبي:١١٥/٣، والنكت والعيون:٤١٠/١.
(٤)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٩):ص٧٠٩/٣.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٥):ص٧٠٩/٣.
(٦)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٧):ص٧٠٩/٣.
(٧)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٧):ص٧٠٩/٣.
(٨) انظر: النكت والعيون:٤١٠/١.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:١١٦/٣.
(١٠)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٨٣٢):ص٧٠٨/٣.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:١١٦/٣.
(١٢)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٨٣٤):ص٧٠٩/٣.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٨٣١):ص٧٠٨/٣.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٠):ص٧٠٨/٣.
(١٥)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٠):ص٧٠٨/٣.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٣):ص٧٠٩/٣.
(١٧)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٣٣):ص٧٠٩/٣.
(١٨) تفسير الثعلبي:١١٤/٣.
(١٩) تفسير السمعاني:٣٤٢/١.
(٢٠)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٤٠):ص٧١٠/٣.
(٢١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٤١):ص٧١٠/٣.

قال المراغي:" تطلق البركة على معنيين: أحدهما النموّ والزيادة، وثانيهما البقاء والدوام كما يقال تبارك الله، والبركة والهداية من فضائله الحسية والمعنوية.

أما الأولى :فهى أنه قد أفيض عليه من بركات الأرض وثمرات كل شيء مع كونه بواد غير ذى زرع كما قال الله تعالى: {يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ} فترى الأقوات والثمار في مكة كثيرة جيدة، وأقل ثمنا من كثير من البلاد ذوات الخيرات الوفيرة كمصر والشام.

وأما الثانية: فلأن القلوب تهوى إليه، فتأتى الناس مشاة وركبانا من كل فج عميق لأداء المناسك الدينية من الحج والعمرة، ويولّون وجوههم شطره في صلاتهم وربما لا تمضى ساعة من ليل أو نهار إلا وهناك ناس يتوجهون إليه، ولا شك أن هذه الهداية من أشرف أنواع الهدايات.

وكل هذا ببركة دعوة إبراهيم صلوات الله عليه {رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}"[2].

قال السعدي:" {مباركا} أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى {ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام} {وهدى للعالمين} والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التي ذكر الله تعالى في قوله {فيه آيات بينات}"[3].

واختُلِف في معنى: «العالمين»، على أقوال:

أحدها : أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وهذا قول الزجَّاج[4]، وقتادة[5]، ومجاهد[6]، وابن عباس[7] في رواية الضحاك عنه.

الثاني: أنّه الإنس ، والجنِّ، وهذا قول ابن عباس[8]، وسعيد بن جبير[9]، ومجاهد[10]، وابن جريج[11]، ومقاتل[12].

الثالث : أن العالم: الدنيا وما فيها. حكاه الماوردي[13].

الرابع: أن أهل كل زمان عالم، لقوله تعالى : {أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ}[الشعراء: ١٦٥]، أي من الناس[14]، وهذا قول الحسين بن الفضل[15].

الخامس: أن العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم : الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم : عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة[16].

---

(١) تفسير البيضاوي:٢٧٥/١.
(٢) تفسير المراغي:٧/٤-٨.
(٣) تفسير السعدي:١٣٨.
(٤) انظر: معاني القرآن: ٤٦/١.
(٥) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(٦)حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(٧)انظر: تفسير الطبري(١٥٦):ص١٤٤/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٥٧)، و(١٥٨):ص١٤٤/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٥٩)، و(١٦٠):ص١٤٤/١-١٤٥.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٦١)، و(١٦٢):ص١٤٥/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٦٥):ص١٤٦/١.
(١٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦/١.
(١٣) انظر: النكت والعيون: ٥٥/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري: ١٤٤/١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري: ١٤٤/١.
(١٦) انظر: حكاه عنهما القرطبي في تفسيره: ٢١٣/١. وقول أبي عبيدة: أن العالمين: المخلوقين.

السادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة[١]، وأنشد قول لبيد بن ربيعة[٢]:
ما إن رأيت ولا سمعـ   تُ بمثلهم في العالمينا
السابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم[٣]، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء[٤]: هم الروحانيّون، وابن قتيبة[٥]، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض"[٦].
الثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق[٧].
والظاهر-والله أعلم- أن{العالَمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و(العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و(العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم[٨].
الفوائد:
١-ان أول بيت وضع للعبادة هو الكعبة التي في مكة، فيكون سابقا على بيت المقدس، وآخر بيت وضع للعبادة: المسجد النبوي، وهذه هي المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال كما ورد في الحديث[٩] .
٢-أن تقدم المكان في العبادة له أثر في تفضيله، لذلك قال أهل العلم أن المسجد القديم لإقامة الجماعة أفضل من المسجد الحديث.
٣-فضيلة هذا البيت لكونه اول بيت وضع للناس للعبادة.
٤-أن هذا البيت مبار قدرا وشرعا، وأنه هدى ومنار للعالمين، يهتدون به ويهتدون إليه، ويؤمونه في عباداتهم.

القرآن

{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)} [آل عمران : ٩٧]

التفسير:
في هذا البيت دلالات ظاهرات أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظَّمه وشرَّفه، منها: مقام إبراهيم عليه السلام، وهو الحَجَر الذي كان يقف عليه حين كان يرفع القواعد من البيت هو وابنه إسماعيل، ومن دخل هذا البيت أَمِنَ على نفسه فلا يناله أحد بسوء. وقد أوجب الله على المستطيع من الناس في أي مكان قَصْدَ هذا البيت لأداء مناسك الحج. ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غني عنه وعن حجِّه وعمله، وعن سائر خَلْقه.
في سبب نزول الآية وجوه:
أحدها:أخرج الطبري عن عكرمة: " {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه}، قالت اليهود : فنحن المسلمون! فأنزلَ الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم يحُجُّهم أنْ : {لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}"[١٠].

---

(١) انظر: مجاز القرىن:٢٢/١.
(٢) ديوانه: ١٢/١، والأغاني: ٣٧٩/١٥، ونسبه القرطبي للأعشى، ولم نقف عليه للأعشى.
(٣) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:٢١٣/١.
(٤) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(٥) انظر: غريب القرآن: ٣٨، قال:"(العالَمُونَ): أصناف الخلق الرُوحانِيِّين، وهم الإنس والجن والملائكة، كلُّ صِنْفٍ منهم عالم".
(٦) انظر: تفسير الثعلبي: ١١٢/١، وزاد المسير: ١٢/١، وتفسير القرطبي: ٢١٣/١.
(٧) تفسير الثعلبي:١١٢/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري: ١٤٣/١، معاني القرآن للزجاج: ٤٦/١.
(٩) انظر:صحيح البخاري(١١٨٩)، وصحيح مسلم(١٣٩٧).
(١٠) تفسير الطبري(٧٣٥٧):ص٥٧١/٦.وانظر: (٧٣٥٦)، و(٧٣٥٨):ص٥٧١/٦.

والثاني: ونقل ابن حجر من طريق ليث بن اسلم عن مجاهد:"آية فرقت بين المسلمين وأهل الكتاب لما نزلت: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} قالت اليهود: [قد أسلمنا](١) فنزلت: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} الآية فقالوا: لا نحجه أبدًا"(٢).

والثالث: ونقل ابن حجر عن سعيد بن المسيب: "نزلت في اليهود حيث قالوا: الحج إلى مكة غير واجب فأنزل الله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}"(٣).

والرابع: أخرج الطبري عن الضحاك:" لما نزلت آية الحج ، جَمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلَ الأديان كلَّهم فقال : يا أيها الناس ، إن الله عز وجل كتب عليكم الحج فحجُّوا ، فآمنتْ به ملة واحدة ، وهي من صدّق النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وآمن به ، وكفرَتْ به خمس ملل ، قالوا : لا نؤمن به ، ولا نصلي إليه ، ولا نستقبله. فأنزل الله عز وجل:{ومن كفر فإنّ الله غني عن العالمين}"(٤) .

قوله تعالى:{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ } [آل عمران : ٩٧]، أي:" في المسجد الحرام دلائل واضحات منها: مقام إبراهيم"(٥).

قال ابن كثير:" أي : دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن الله تعالى عَظَّمه وشرفه، قوله تعالى:{ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ }، يعني : الذي لمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران ، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل ، وقد كان ملتصقا بجدار البيت ، حتى أخّره عُمَر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف ، ولا يُشَوِّشون على المصلين عنده بعد الطواف ؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال : { وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } [البقرة : ١٢٥]""(٦).

قال الماوردي:" الآية في مقام إبراهيم أثر قدميه وهو حجر صلد ؟ والآية في غير المقام : أمن الخائف ، وهيبة البيت وامتناعه من العلو عليه ، وتعجيل العقوبة لمن عتا فيه ، وما كان في الجاهلية من أصحاب الفيل "(٧).

وقرأ ابن عباس:" {فِيهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ}، يعني بها : مقام إبراهيم ، يراد بها : علامة واحدةٌ"(٨).

واختلف في تفسير قوله تعالى:{مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ }[آل عمران:٩٧]، على أقوال:

أحدها: أن{مقام إبراهيم}، هو الحج كله. وهو قول ابن عباس(٩)، ومجاهد(١٠)، وعطاء(١١)، والشعبي(١٢).

الثاني: أنه عرفة والمزدلفة والجمار. وهو قول عطاء بن أبي رياح(١٣)، وروي عن ابن عباس(١٤)، ومجاهد(١٥)، والشعبي(١)، نحو ذلك.

---

(١)ما بين المعقوفين هو ما ترجح عند المحقق، وفي "الدر المنثور" "٢/ ٢٧٦": "فنحن مسلمون".
(٢) العجاب:٧١٩/٢.
(٣) العجاب:٧٢٠/٢. ولم اجد هذه الرواية في تفسير سفيان المطبوع.
(٤) تفسير الطبري(٧٥١٥):٤٩/٧-٥٠. قال المناوي في "الفتح السماوي" "١/ ٣٨٩": "وهو معضل وجويبر متروك الحديث ساقط. قاله الحافظ بن حجر" في "الكافي الشافي" "ص٢٩" كما بينه المحقق و"١/ ٣٩١" من طبعته مع "الكشاف" نشر دار الكتاب العربي.
(٥) أيسر التفاسير:٣٤٩/١.
(٦) تفسير ابن كثير:٧٩/٢.
(٧) النكت والعيون:٤١١/١.
(٨) تفسير الطبري٢٦/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٠):ص٣٣/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٩٩١):ص٣٣/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٢):ص٣٣/٢.
(١٢)انظر: العيون للماوردي: ١٨٧/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٣):ص٣٣/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٥):ص٣٣/٢.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٤):ص٣٣/٢.

الثالث: أنه الحرم كله[2]. وهو قول مجاهد[3]، والنخعي[4]، وكذا رواه الكلبي عن أبي صالح[5] عن ابن عباس[6].

الرابع: إن المراد بالمقام إنما هو (الحَجَرُ) الذي كان إبراهيم عليه السلام، يقوم عليه لبناء الكعبة، وهذا قول ابن عباس[7]، وسعيد بن جبير[8].

ثم هؤلاء ذكروا وجهين[9]:

أحدهما: هو الحجر الذي قام عليه حين رفع بناء البيت[10]، وهو قول ابن عباس في رواية سعيد ابن جبير عنه[11]، وروي عن جابر وقتادة وسعيد بن جبير. نحو ذلك[12].

إذ لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل ، عليه السلام ، به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، كلَّما كَمَّل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى ، يطوف حول الكعبة ، وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها هكذا ، حتى تم جدارات الكعبة ، بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها ؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية[13]:

ومَوطئُ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيًا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا[14].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٦):ص٣٣/٢.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي: ١٤٨/١ ب، البسيط للواحدي: ٨٦/١أ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١١٣/٢، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٨):ص٣٤/٢.

(٤) هو: أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي، ثقة فقيه، ورع عابد، كان يرسل ويدلس، توفي عام: ٩٦هـ. انظر: تهذيب الكمال للمزي: ٢٣٣/٢، المراسيل لابن أبي حاتم: ٨، جامع التحصيل للعلائي: ١٦٨، تهذيب التهذيب لابن حجر: ١٧٧/١.

(٥) هو: أبو صالح باذان، ويقال: باذام مولئ أم هانئ، تابعي صاحب تفسير، متكلم فيه: وثقه العجلي، وقال ابن معين: لا بأس به، وأبى رد حديثه يحمى القطان، وروى عنه شعبة وروايته عنه تعديل كما يقول ابن تيمية. وترك حديثه ابن مهدي والجوزجاني وأبو حاتم والنسائي، واتهمه الأزدي بالكذب، وقال الحافظ: ضعيف يدلس. انظر: الضعفاء للنسائي: ٢٣، الضعفاء للبخاري: ٢٣، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ٤٣٧/١، مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣٥٠/٢٤، تهذيب الكمال للمزي: ٦/٤، تهذيب التهذيب لابن حجر: ٤١٦/١.

(٦) لم أهتدِ إلى من ذكر قول ابن عباس هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح. وقد عزاه لابن عباس القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١١٣/٢، وابن الجوزي في زاد المسير: ٢٤١/١، والكوكباني في تفسير المنان: ١٢٩٢/٢، وأورده السيوطي في الدر المنثور: ٢٢٣/١ عن ابن عباس، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم، لكن الذي عند ابن أبي حاتم في التفسير: ٣٧١/١ رقم: ١٢٠٧ عن مجاهد عن ابن عباس، وهو الذي أورده ابن كثير في التفسير: ٢١١/١، والعيني في عمدة القاري: ٢١٢/٩.

(٧) انظر: تفسير الطبري(١٩٩٩):ص٣٥/٢.

(٨) تفسير ابن أبي حاتم(١١٩٩):ص:٢٢٦/١.

(٩) انظر: تفسير الرازي: ٤٥/٤-٤٦.

(١٠) هو قول ابن عباس في رواية سعيد ابن جبير عنه في البخاري-فتح-: ٤٥٦/٦-٤٥٨ رقم: ٣٣٦٤، وقول جابر وقتادة وسعيد بن جبير. انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٤٢/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٣/٤، تفسير ابن أبي حاتم: ٣٧٣/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١، جامع البيان للطبري: ٣٤/٣-٣٥.

(١١) انظر: البخاري-فتح-: ٤٥٦/٦-٤٥٨ رقم: ٣٣٦٤.

(١٢)انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ١٤٢/١، مفاتيح الغيب للرازي: ٥٣/٤، تفسير ابن أبي حاتم: ٢٢٦/١-٢٢٧، والبحر المحيط لأبي حيان: ٣٨١/١، وتفسير للطبري: ٣٤/٣-٣٥.

(١٣)البيت في السيرة النبوية لابن هشام (٢٧٣/١). وانظر: تفسير ابن كثير: ٤١٧/١.

(١٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٤١٧/١-٤١٨).

قال الشيخ ابن عثيمين: " اختلف المؤرخون: هل كان الحجر الذي كان يرفع عليه إبراهيم (ص) بناءَ الكعبة لاصقاً بالكعبة، أو كان منفصلاً عنها في مكانه الآن؛ فأكثر المؤرخين على أنه كان ملصقاً بالكعبة، وأن الذي أخره إلى هذا الموضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وبناءً على ذلك يكون للخليفة حق النظر في إزاحته عن مكانه إذا رأى في ذلك المصلحة؛ أما إذا قلنا: إن هذا مكانه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فالظاهر أنه

وثانيهما: وقيل: بل هو الذي وضعته زوج إسماعيل لإبراهيم حيث غسلت رأسه وهو راكب.وهو قول السدي[١]، وحكاه الرازي في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس[٢].

وقال ابن جبير ناقداً هذا القول :"ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه"[٣].

خامسا: وقال آخرون : بل {مقام إبراهيم}، هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام. قاله قتادة[٤]، والربيع[٥]، والسدي[٦].

والراجح: أن المقام هو (الحجر)[٧] لما يعضده هذا القول من الأخبار، إذ ثبت بالأخبار أنه قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ وعليه أكثر أهل العلم. وقد ثبت دليله عند مسلم[٨][٩] من حديث جابر[١٠]، وعند البخاري أيضاً[١١].

كما اختلفوا في قوله: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} [آل عمران : ٩٧]، على وجوه:

أحدها:أن الآيات، هي: مقام إبراهيم والمشعر الحرام ونحو ذلك. قاله ابن عباس[١٢]، ومجاهد[١].

لا يجوز أن يغير؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أقره؛ وإذا أقره النبي صلى الله عليه وسلم فليس لنا أن نؤخره عنه؛ وقد كتب أحد طلبة العلم رسالة في هذا الموضوع، وقرَّظها الشيخ عبد العزيز بن باز، ورأى أنه يجوز إزاحته عن مكانه من أجل المصلحة والتوسعة بناءً على المشهور عند المؤرخين أنه كان لاصقاً بالكعبة، ثم أُخِّر؛ وهذا لا شك أنه لو أُخِّر عن مكانه فيه دفع مفسدة وهي مفسدة هؤلاء الذين يتجمعون عنده في المواسم؛ وفيه نوع مفسدة وهي أنه يبعد عن الطائفين في غير أيام المواسم؛ فهذه المصالح متعارضة هنا: هل الأولى بقاؤه في مكانه؟ أو الأولى تأخيره عن مكانه؟ فإذا كانت المصالح متكافئة فالأولى أن يبقى ما كان على ما كان، وحذراً من التشويش واختلاف الآراء في هذه المسألة؛ ومسألة تضييق المصلين على الطائفين هذا يمكن زواله بالتوعية إذا أفادت؛ أو بالمنع بالقهر إذا لم تفد؛ وفي ظني أنها قلت في السنوات الأخيرة بعض الشيء؛ لأن الناس صار عندهم وعي".(انظر: تفسيره: ٢٢/٢).

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٢):ص٣٥/٢-٣٦، وتفسير القرطبي: ١١٣/٢، وقال ابن الجوزي في زاد المسير: ١٤٢/١: ذكره السدي عن ابن مسعود وابن عباس.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤١٤/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(١١٩٩):ص٢٢٦/١.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٠):ص٣٥/٢.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠١):ص٣٥/٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٠٢):ص٣٥/٢.

(٧) وقد اختار ذلك أيضاً وصوبه: الطبري في جامع البيان: ٣٨/٣، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١١٢/٢، والماوردي في النكت والعيون: ١٨٧/١، وابن الجوزي في زاد المسير: ١٤١/١، وابن العربي في أحكام القرآن: ٤٠/١، والشوكاني في فتح القدير: ٢٠٥/١، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ٢١٣/١، وقد حكى اتفاق المحققين عليه الرازي في مفاتيح الغيب: ٥٣/٤، وأبو حيان في البحر المحيط: ٣٨١/١.

(٨) هو: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، إمام حافظ، ثقة حجة، عالم بالفقه، صاحب الصحيح، توفي عام: ٢٦١هـ. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ١٩٤/٥، سير أعلام النبلاء: ٥٥٧/١٢، تذكرة الحفاظ: ٥٨٨/٢، وكلاهما للذهبي، تقريب التهذيب لابن حجر: ٩٣٨.

(٩) أخرجه مسلم في صحيحه: ٨٨٦/١-٨٨٧ رقم: ١٢١٨ وفيه: (حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبرا هيم-عليه السلام-فقرأ {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} فجعل المقام بينه وبين البيت).

(١٠) هو: أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السَّلَمي-بفتحتين-صحابي ابن صحابي، أحد المكثرين من الرواية، شهد العقبة وتسعة عشر غزوة، ولم يشهد بدراً واحداً، منعه أبوه، توفي عام: ٧٨هـ، وقيل غير ذلك. انظر: أسد الغابة لابن الأثير: ٣٠٧/١، الاستيعاب لابن عبد البر: ٢١٩/١، تهذيب الكمال للمزي: ٤٤٣/٤، الإصابة لابن حجر: ٤٣٤/١.

(١١) انظر: البخاري في جامعه-فتح-: ٦٠١/١ رقم: ٤٠٢ من حديث أنس عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث: فقلت يا رسول الله: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت (وَاتَّخذُوا من مَّقَام إبرَاهيمَ مُصَلًّى)... الحديث).

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٤٤٨):ص٢٦/٧-٢٧.

والثاني: أن الآيات البينات، هي: مقام إبراهيم، ومن دخله كانَ آمنا. وهذا قول الحسن[٢].
والثالث: أن الآيات البينات، هي: مقام إبراهيم. وهذا قول السدي[٣]، ومجاهد[٤] –في إحدى الروايات عنه- على قراءة التوحيد[٥].
والراجح-والله أعلم- أن الآيات البينات، منهنّ مقام إبراهيم، ومنهن الحجرُ ، ومنهن الحطيمُ[٦].
قوله تعالى:{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران : ٩٧]، أي:" ومن يدخله من الناس مستجيرًا به ، يكن آمنًا حتى يخرج منه"[٧]. وهذه آية أخرى.
قال ابن كثير:" يعني : حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمنُ من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية"[٨].
قال الماوردي:" معناه أنه عطّف عليه قلوب العرب في الجاهلية فكان الجاني إذا دخله أمِنَ"[٩].
وأما في "الأمن" ففيه قولان:
أحدهما : أنه من النار ، وهذا قول يحيى بن جعدة[١٠] .
والثاني : من القتال بحظر الإيجال على داخليه، وأما الحدود فتقام على من جنى فيه. وهو قول قتادة[١١]، ومجاهد[١٢]، والحسن[١٣]، والسدي[١٤]، وعطاء[١٥]، وعبيد بن عمير[١٦]، وعامر الشعبي[١٧].
واختلفوا في الجاني إذ دخله في إقامة الحد عليه فيه قولان [١٨]:
أحدهما : تقام عليه ، وهو مذهب الشافعي .
والثاني : لا تقاوم حتى يُلجأ إلى الخروج منه ، وهذا قول ابن عباس[١٩]، وابن عمر[٢٠]، ومجاهد[٢١]، وهو مذهب أبي حنيفة .
قوله تعالى:{ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران : ٩٧]، " أي فرضٌ لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق"[٢٢].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٤٤٩):ص٢٧/٧.
(٢)انظر: تفسير الطبري(٧٤٥٠):ص٢٧/٧.
(٣)انظر: تفسير الطبري(٧٤٥١):ص٢٧/٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٤٥٢)،و(٧٤٥٣):ص٢٧/٧-٢٨.
(٥) أي:{ فيه آية بينة}.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٢٨/٧.
(٧) تفسير الطبري:٣٤/٧.
(٨) تفسير ابن كثير:٧٩/٢.
(٩) النكت والعيون:٤١١/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٤٧٢):ص٣٣/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٤٥٤):ص٢٩/٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٤٥٦):ص٣٠/٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٤٥٨):ص٣٠/٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٤٧١):ص٣٣/٧.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٧٤٥٨):ص٣٠/٧.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٤٦٤):ص٣٢/٧.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٧٤٦٥)، ((٧٤٦٦)):ص٣٢/٧.
(١٨) انظر: النكت والعيون:٤١١/١.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(٧٤٥٩)،و(٧٤٦٠)، و(٧٤٦١)، و(٧٤٦٢):ص٣١/٧-٣٢.
(٢٠)انظر: تفسير الطبري(٧٤٦٣):ص٣٢/٧.
(٢١) انظر: تفسير الطبري(٧٤٥٩):ص٣١/٧.
(٢٢) صفوة التفاسير:١٩٩.

قال الطبري:أي:" وفرضٌ واجبٌ لله على من استطاع من أهل التكليف السبيلَ إلى حجّ بيته الحرام الحج إليه"[١].

قال ابن كثير:" هذه آية وُجُوب الحج عند الجمهور. وقيل : بل هي قوله : { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } [البقرة : ١٩٦] والأول أظهر، وقد وَرَدَت الأحاديثُ المتعددة بأنه أحدُ أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا ، وإنما يجب على المكلَّف في العُمْر مَرّة واحدة بالنص والإجماع"[٢].

وفي الاستطاعة إلى الحج أربعة أقاويل:

أحدها : أنها بالمال، وهي الزاد والراحلة ، قاله عمر بن الخطاب[٣]، وابن عباس[٤]، والحسن[٥]،وعمرو بن دينار[٦]، وعطاء[٧]، والسدي[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، وهو قول الشافعي[١٠].

واستندوا على قولهم بما رواه ابن عمر: "قام رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما السبيل ؟ قال : «الزاد والراحلة»"[١١].

والثاني : أنها بالبدن، وهي الصحة، قاله عكرمة[١٢]،وهو قول مالك[١٣].

والثالث : أنها بالمال والبدن ، وهذا معنى قول ابن زيد[١٤]، وهو قول أبي حنيفة[١٥].

والرابع: أن السبيل التي إذا استطاعها المرء كان عليه الحج : الطاقةُ للوصول إليه بغير مانع ولا حائل. وهذا قول ابن الزبير[١٦]، والضحاك[١٧]،وعطاء[١٨]، وعامر[١٩]، والحسن[٢٠] - في إحدى الروايات عنهم،

والراجح-والله أعلم- إنّ أداء الحج على قدر الطاقة، "لأن " السبيل " في كلام العرب : الطريقُ ، فمن كان واجدًا طريقًا إلى الحج لا مانعَ له منه من زَمانة ، أو عَجز ، أو عدوّ ، أو قلة ماء في طريقه ، أو زاد ، أو ضعف عن المشي ، فعليه فرضُ الحج ، لا يجزيه إلا أداؤه. فإن لم يكن واجدًا سبيلا أعني بذلك : فإن لم يكن مطيقًا الحجَّ ، بتعذُّر بعض هذه المعاني التي

---

(١) تفسير الطبري:٣٧/٧.
(٢) تفسير ابن كثير:٨١/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٤٧٤):ص٣٧/٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٤٧٦):ص٣٨/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٤٨٢):ص٣٩/٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٤٧٥):ص٣٧/٧-٣٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٤٧٩):ص٣٨/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٤٨٠):ص٣٨/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٤٨١):ص٣٨/٧.
(١٠) انظر: النكت والعيون:٤١١/١.
(١١) أخرجه الطبري(٧٤٨٤):ص٣٩/٧. قال الطبري:" فأما الأخبار التي رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك بأنه : " الزاد والراحلة " ، فإنها أخبار : في أسانيدها نظر ، لا يجوز الاحتجاج بمثلها في الدّين".[تفسير الطبري:٤٥/٧].
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٤٩٧):ص٤٤/٧.
(١٣) انظر: النكت والعيون:٤١١/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٤٩٨):ص٤٤/٧-٤٥.
(١٥) انظر: النكت والعيون:٤١١/١.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٤٩٢):ص٤٣/٧.
(١٧)انظر: تفسير الطبري(٧٤٩٣):ص٤٣/٧.
(١٨)انظر: تفسير الطبري(٧٤٩٤):ص٤٤/٧.
(١٩)انظر: تفسير الطبري(٧٤٩٥):ص٤٤/٧.
(٢٠)انظر: تفسير الطبري(٧٤٩٦):ص٤٤/٧.

وصفناها عليه فهو ممن لا يجدُ إليه طريقًا ولا يستطيعه. لأن الاستطاعة إلى ذلك ، هو القدرة عليه"[١].

قوله تعالى:{وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران : ٩٧]، "أي: من ترك الحج فإن الله مستغنٍ عن عبادته وعن الخلق أجمعين"[٢].

قال الطبري:أي:" ومن جَحد ما ألزمه الله من فرض حَجّ بيته ، فأنكره وكفر به ، فإن الله غنيّ عنه وعن حجه وعمله، وعن سائر خَلقه من الجن والإنس"[٣].

قال الجزائري:أي: و"من كفر بالله ورسوله وحج بيته بعد ما ذكر من الآيات والدلائل الواضحات فإنه لا يضر إلا نفسه، أما الله تعالى فلا يضره شيء وكيف وهو القاهر فوق عباده والغني عنهم أجمعين"[٤].

قال أبو صالح:" فرض الله الحج على الناس، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين"[٥].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران : ٩٧]، وجوه: أحدها : يعني: من كفر بزعمه أن الحج ليس بفرض عليه، وهو قول ابن عباس[٦]، والحسن[٧]، ومجاهد[٨]، والضحاك[٩]، وعطاء[١٠]، وعطية العوفي[١١]، وعمران القطان[١٢]. والثاني : هو لا يرى حَجَّهُ براً ولا تركه مأثماً ، وهو أحد قولي ابن عباس[١٣]، ومجاهد –في إحدى الروايات[١٤]، والحسن[١٥]، وسعيد بن جبير[١٦]، وزيد بن أسلم[١٧].

والثالث : أن المعنى: ومن كفر بالله واليوم الآخر. وفي المعنيين قولان:

القول الأول: أنهم اليهود، لأنه لما نزل قوله تعالى:{ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنهُ}، فقالوا نحن مسلمون فأُمِرُوا بالحج فلم يحجوا ، فأنزل الله هذه الآية. وهذا معنى قول عكرمة[١٨]، وسعيد بن المسيب[١٩].

القول الثاني:أنهم الملل الكافرة من أهل الأديان كلها، ممن لم يؤمنوا بالحج ولم يصلوا ولم يستقبلوا البيت، وهذا قول الضحاك[٢٠]، وروي عن مجاهد[٢١]، وعامر[١]، و ابن عباس[٢]، وعكرمة[٣]-في إحدى الروايات عنهما، نحو ذلك.

---

(١) تفسير الطبري:٤٥/٧.
(٢) صفوة التفاسير:١٩٩.
(٣) تفسير الطبري:٤٧/٧.
(٤) أيسر التفاسير:٣٥٠/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٧٧):ص٧١٦/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٥٠٠):ص٤٧/٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٥٠٤)، و(٧٥٠٧):ص٤٧/٧، ٤٨.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٥٠٥):ص٤٧/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٥٠١):ص٤٧/٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٥٠٢):ص٤٧/٧.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٧٣):ص٧١٥/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٥٠٣):ص٤٧/٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٥١٢):ص٤٩/٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٥٠٩):ص٤٨/٧.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٧٢):ص٧١٥/٣.
(١٦)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٧٢):ص٧١٥/٣.
(١٧) انظر: النكت والعيون:٤١١/١.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٧٣٥٧):ص٥٧١/٦.وانظر: (٧٣٥٦)، و(٧٣٥٨):ص٥٧١/٦.
(١٩) انظر: العجاب:٧٢٠/٢.
(٢٠) تفسير الطبري(٧٥١٥):٤٩/٧-٥٠. قال المناوي في "الفتح السماوي" "١/ ٣٨٩": "وهو معضل وجويبر متروك الحديث ساقط. قاله الحافظ بن حجر" في "الكافي الشافي" "ص٢٩" كما بينه المحقق و"١/ ٣٩١" من طبعته مع "الكشاف" نشر دار الكتاب العربي.
(٢١) انظر: تفسير الطبري(٧٥١٤):ص٤٩/٧، والعجاب:٧١٩/٢.

والرابع:أن المعنى: ومن كفر بهذه الآيات التي في مقام إبراهيم. وهذا قول ابن زيد[٤].
والخامس: أن المعنى: ومن كفر بالبيت. وهذا قول عطاء بن ابي رباح[٥]، والضحاك في إحدى الروايات[٦].
والسادس: أن كفره بالبيت: تركه إياه حتى يموت. وهذا قول السدي[٧].
والراجح أن معنى قوله:{ومن كفر}، أي:" ومن جحد فرضَ ذلك وأنكرَ وُجوبه ، فإن الله غني عنه وعن حَجه وعن العالمين جميعًا"[٨]. والله أعلم.
قال ابن الجوزي:" قوله تعالى: {ولله على الناس حج البيت}، قال السدي: «هذا الكلام تضمن وجوب الحج على جميع الخلق الغني والفقير والقادر والعاجز، ثم نسخ في حق عادم الاستطاعة بقوله: {من استطاع إليه سبيلا}»، قلت: وهذا قوله قبيح، وإقدام بالرأي الذي لا يستند إلى معرفة اللغة العربية التي نزل بها القرآن على الحكم بنسخ القرآن، وإنما الصحيح ما قاله النحويون كافة في هذه الآية، فإنهم قالوا: (من) بدل من (الناس) وهذا بدل البعض[٩]، كما يقول: ضربت زيدا برأسه، فيصير تقدير الآية: ولله على من استطاع من الناس الحج أن يحج"[١٠].
الفوائد:
١-أن في هذا البيت آيات ظاهرة لكل احد، منها{مقام إبراهيم}، ومنها: أن من دخله كان آمنا، ومنها فريضة حجه على جميع الناس، فإنها آيات تدل بأن هذا البيت أشرف البيوت.
٢-أن الآيات كما تكون شرعية، تكون كذلك حسية كونية.
٣-التنويه بفضل إبراهيم في قوله:{مقام إبراهيم}.
٤-وجوب تأمين من دخل المسجد الحرام.
٥-أن حرمة المسلم أعظم من حرمة البيت عند الله، ودليله أن القتال في مكة محرم، لكنهم إذا أرادوا الاعتداء على حرمة المسلم أبيحت دماؤهم، فقال: {فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة : ١٩١].
٦-وجوب حج البيت من استطاع إليه سبيلا، وأن الحج لا يجب على غير المستطيع، والاستطاعة تكون بالمال أو البدن أو بهما جميعا.
٧-بيان غنى الله عزّ وجل عن كل احد، وأن العالمين مفتقرون إليه، وليس بهم غنى عن الله.

القرآن
{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)} [آل عمران : ٩٨]
التفسير:

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٥١٦):ص٧/٥٠.
(٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٧٦):ص٣/٧١٦.
(٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٧٥):ص٣/٧١٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٥١٩):ص٧/٥٠.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٥٢٠):ص٧/٥١.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٧٤):ص٣/٧١٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٥٢١):ص٧/٥١.
(٨)تفسير الطبري:٧/٥١.
(٩)انظر تفسير الكشاف للزمخشري١/ ٤٤٨.
(١٠)نواسخ القرآن:٣٢٨.ولم يتعرض لدعوى النسخ المؤلف في زاد المسير كما لم يذكره أصلا أمهات كتب النسخ، إنما نقل هذا القول الضعيف عن السدي، هبة الله بن سلامة في ناسخه ص: ٣٩، بقوله: ثم استثنى فصار ناسخا.

قل -أيها الرسول- لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: لِمَ تجحدون حجج الله التي دلَّتْ على أن دين الله هو الإسلام، وتنكرون ما في كتبهم من دلائل وبراهين على ذلك، وأنتم تعلمون؟ والله شهيد على صنيعكم. وفي ذلك تهديد ووعيد لهم.

في سبب نزول [الآيات:٩٨-١٠١]:

قال محمد بن إسحاق: "وحدثني الثقة، عن زيد بن أسلم قال: وأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع: {يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله}"(١).

قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ } [آل عمران : ٩٨]، أي: " يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم، لم تجحدونُ حججَ الله التي آتاها محمدًا في كتبكم وغيرها ، التي قد ثبتت عليكم بصدقه ونبوَّته وحُجته"(٢).

قال الطبري:" يقول: لم تجحدونُ حجج الله التي آتاها محمدًا في كتبكم وغيرها، التي قد ثبتت عليكم بصدقه ونبوَّته وحُجته"(٣).

قال السدي:" أما{آيات الله}، فمحمد صلى الله عليه وسلم"(٤).

وفي إحدى الروايات عن السدي:"{ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ }، يقول:لما تكفرون بالحج"(٥).

قوله تعالى:{وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران : ٩٨]، " أي: والله مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها"(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٧٨):ص٧١٦/٣. وأخرجه الطبري(٧٥٢٤):ص٥٦/٧-٥٦ مطولا، ونص الرواية:" عن محمد بن إسحاق ، قال ، حدثني الثقة عن زيد بن أسلم ، قال : مرّ شأسُ بن قيس وكان شيخًا قد عَسَا في الجاهلية ، عظيمَ الكفر ، شديد الضِّغن على المسلمين ، شديدَ الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه. فغاظه ما رأى من جَماعتهم وألفتهم وصَلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع مَلأ بني قَيْلة بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم ، إذا اجتمع ملأهم بها ، من قرار! فأمر فَتى شابًّا من يهودَ وكان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، وذكّرهم يَوْم بعاث وما كان قبله ، وأنشدْهم بعض ما كانوا تقاوَلوا فيه من الأشعار وكان يوم بُعَاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفرُ فيه للأوس على الخزرج ففعل. فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجُلان من الحيَّين على الرُّكَب : أوسُ بن قَيْظي ، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس - وجبّار بن صخر ، أحد بني سَلمة من الخزرج. فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رَدَدْناها الآن جَذَعَةً! وغضب الفريقان ، وقالوا : قد فعلنا ، السلاحَ السلاحَ!! موعدُكم الظاهرة والظاهرةُ : الحَرَّة فخرجوا إليها. وتحاوز الناس. فانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغَ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم ، فقال : " يا معشرَ المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُركم بعد إذْ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمرَ الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيدٌ من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكَوْا ، وعانقَ الرجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضًا ، ثم انصرفوا مع رَسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدوِّ الله شَأس بن قيس وما صنع. فأنزل الله في شأس بن قيس وما صنع : {قل يا أهل الكتاب لم تكفرُون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا} الآية. وأنزل الله عز وجل في أوس بن قَيْظيّ وجبّار بن صخر ومَنْ كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس بن قيس من أمر الجاهلية : {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين} إلى قوله : {أولئك لهم عذابٌ عظيم}".

قال الواحدي في أسباب النزول:ص١١٧:" قال جابر بن عبد الله: ما كان من طالع أكره إلينا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأومأ إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما رأيت قط يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم".

(٢) تفسير الطبري:٥٢/٧.

(٣) تفسير الطبري٥٢/٧.

(٤) أخرجه الطبري(٧٥٢٢):ص٥٢/٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٧٩):ص٧١٦/٣.

(٦) صفوة التفاسير:١٩٩.

قال السمعاني:" أي: لا يخفي عليه ما تعملون، ويجازيكم عليه"[1].
قال الحسن:" هم اليهودُ والنصارى"[2].
الفوائد:
١-أمر النبي-صلى الله عليه وسلم- أن يوبخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله، فيتفرغ أن كل من يكفر بآيات الله فهو مستحق للتوبيخ.
٢-إثبات شهادة الله تعالى على كل ما يعمل بنو آدم، لقوله:{والله شهيد على ما تعملون}، لأن {ما}، اسم موصول يفيد العموم.
٣-تهديد من يكفر بآيات الله، لأن الله سوف يحصي عمله ثم يجازيه على ذلك.
٤-إحاطة الله تعالى بكل شيء، وأنه وسع كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من اعمال بني آدم.
٥-ومن الفوائد أن الله لايؤاخذ العبد بحديث النفس، لقوله:{شهيد على ما تعملون}، كما صح ذلك عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:"إن الله تجاوز عن امتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم"[3].

القرآن
{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)} [آل عمران : ٩٩]
التفسير:
قل -أيها الرسول- لليهود والنصارى: لِمَ تمنعون من الإسلام من يريد الدخول فيه تطلبون له زيغًا وميلا عن القصد والاستقامة، وأنتم تعلمون أن ما جئتُ به هو الحق؟ وما الله بغافل عما تعملون، وسوف يجازيكم على ذلك.
في سبب تزول الآية :
إن هذه الآية من فصل كامل يعالج حدث الإغراء بين الأوس والخزرج يمتد من الآية (٩٨) إلى (١٠٥) من سورة آل عمران.
قوله تعالى:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّه مَنْ آمَنَ }[آل عمران : ٩٩]، أي: يا أهل الكتاب" لمَ تصرفون الناس عن دين الله الحق، وتمنعون من أراد الإيمان به؟"[4].
قال الطبري:أي: يا أهل الكتاب" لم تضلُّون عن طريق الله ومحجَّته التي شرَعها لأنبيائه وأوليائه وأهل الإيمان"[5].
قال الربيع:" لم تصدون عن الإسلام وعن نبي الله صلى الله عليه وسلم"[6].
قال الحسن:"هم اليهود والنصارى"[7].
عن ابن عباس:" قوله:{ تصدون عن سبيل الله} قال: عن دين الله"[8].
وقرأ الحسن: {تصدون}، بضم التاء وكسر الصاد وهما لغتان[9].
قوله تعالى:{ تَبْغُونَهَا عِوَجًا}[آل عمران : ٩٩]، " أي: تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجّة"[1].

---

(١) تفسير السمعاني: ٣٤٤/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٨٠):ص٧١٦/٣، والطبري(٧٥٢٣):ص٥٢/٧.
(٣) رواه البخاري(٥٢٦٩)، ومسلم(١٢٧).
(٤) صفوة التفاسير:١٩٩.
(٥) تفسير الطبري:٥٢/٧.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٨٣):ص٧١٧/٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٨١):ص٧١٧/٣.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٨٢):ص٧١٧/٣.
(٩) تفسير الثعلبي:١٥٨/٣.

وفي قوله تعالى:{ تَبْغُونَهَا عِوَجًا}[آل عمران : ٩٩]، وجهان من التفسير:
أحدهما:أنهم -أي اليهود والنصارى-كانوا إذا سألهم أحد: هل تجدون محمدا؟ قالوا: لا. فصدوا الناس عنه وبغوا محمدا عوجا: هلاكا. قاله السدي(٢).
والثاني: أنه يعني: ترجون بمكة غير الإسلام. وهذا قول أبي مالك(٣).
قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ }[آل عمران : ٩٩]، " أي: وأنتم عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم"(٤).
قال أبو جعفر:" وأنتم شهداء على ذلك فيما تقرأون من كتاب الله أن محمدا رسول الله وأن الإسلام دين الله، تجدون ذلك في التوراة والإنجيل"(٥).
قال الطبري:" يعني : شهداء على أنّ الذي تصدّون عنه من السبيل حقٌّ ، تعلمونه وتجدونه في كتبكم"(٦).
قوله تعالى:{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[آل عمران : ٩٩]، أي:" وليس الله بغافل عن أعمالكم"(٧).
قال ابن كثير:" أخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون ، أي : وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون"(٨).
الفوائد:
١-امر رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ان يوبخ أهل الكتاب على عداوتهم على الغير، وذلك بالصد عن سبيل الله.
٢-أن من صدّ عن سبيل الله من المسلمين ففيه شبه من اهل الكتاب(اليهود والنصارى).
٣-سوء القصد من اهل الكتاب، إذ يبغون أن تكون سبيل الله عوجا، وهم يعلمون بأنهم على باطل وان الحق في خلافهم، لكن الذي يمنعهم هو الاستكبار.
٤-إثبات إحاطة الله تعالى بكل شيء علما ورقابة.

القرآن
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)} [آل عمران : ١٠٠]
يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن تطيعوا جماعة من اليهود والنصارى ممن آتاهم الله التوراة والإنجيل، يضلوكم، ويلقوا إليكم الشُّبَه في دينكم; لترجعوا جاحدين للحق بعد أن كنتم مؤمنين به، فلا تأمنوهم على دينكم، ولا تقبلوا لهم رأيًا أو مشورة.
اختلف في سبب نزول الآية على قولين:
أحدهما: قال محمد ابن إسحاق:" حدثني الثقة، عن زيد بن أسلم قال: وأنزل في أويس ابن قيظي وجبار بن صخر، ومن كان معهما من قومهما من الذين صنعوا مما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب}"(٩). وري عن مجاهد نحو ذلك(١).

---
(١) صفوة التفاسير:١٩٩.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٨٤):ص٧١٧/٣.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٨٥):ص٧١٧/٣.
(٤) صفوة التفاسير:١٩٩.
(٥)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٨٧):ص٧١٨/٣.
(٦) تفسير الطبري:٥٤/٧.
(٧) تفسير الطبري:٥٤/٧.
(٨) تفسير ابن كثير:٨٥/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٩٣):ص٧١٨/٣، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٨٧٨):ص٧١٦/٣. وأخرجه الطبري(٧٥٢٤):ص٥٦/٧-٥٦ مطولا، ونص الرواية:" عن محمد بن إسحاق ، قال ، حدثني الثقة عن زيد بن

الثاني: وقال السدي:" نزلت في ثعلبة بن عَنمة الأنصاري، كان بينه وبين أناس من الأنصار كلام ، فمشى بينهم يهوديٌّ من قَيْنُقاع ، فحمَل بعضَهم على بعضٍ، حتى همت الطائفتان من الأوس والخزرج أن يحملوا السلاحَ فيقاتلوا ، فأنزل الله عز وجل : {إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين}، يقول: إن حملتم السلاحَ فاقتتلتم ، كفرتم"(٢).

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران : ١٠٠]،أي:" يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقرُّوا بما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم من عند الله"(٣).

قال ابن عباس:" ما في القرآن آية {يا أيها الذين آمنوا}، إلا أن عليا شريفها وأميرها وسيدها، وما من أصحاب محمد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب فإنه لم يعاتب في شيء منه"(٤).

وقال الأعمش عن خيثمة:" ما تقرأون من القرآن {يا أيها الذين آمنوا}، فإن في التوراة "يا أيها المساكين"(٥).

وروي أن "رجلا أتى عبد الله ابن مسعود فقال: أعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا}، فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(٦).

قوله تعالى: { إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [آل عمران : ١٠٠]، أي:" إن تطيعوا جماعة ممن ينتحل الكتابَ من أهل التوراة والإنجيل ، فتقبلوا منهم ما يأمرونكم به"(٧).

أسلم ، قال : مرّ شأسُ بن قيس وكان شيخًا قد عَسَا في الجاهلية ، عظيمَ الكفر ، شديد الضِّغن على المسلمين ، شديدَ الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه. فغاظه ما رأى من جَماعتهم وألفتهم وصَلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع مَلأ بني قَيْلة بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم ، إذا اجتمع ملأهم بها ، من قرار! فأمر فتى شابًّا من يهودَ وكان معه ، فقال : اعمد إليهم ، فاجلس معهم ، وذكّرهم يَوْم بعاث وما كان قبله ، وأنشدْهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار وكان يوم بُعَاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفرُ فيه للأوس على الخزرج ففعل. فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواثب رجُلان من الحيَّين على الرُّكَب : أوسُ بن قَيْظي ، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس - وجبّار بن صخر ، أحد بني سَلمة من الخزرج. فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رَدَدْناها الآن جَذَعَةً! وغضب الفريقان ، وقالوا : قد فعلنا ، السلاحَ السلاحَ!! موعدُكم الظاهرة والظاهرةُ : الحَرَّة فخرجوا إليها. وتحاوز الناس. فانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغَ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم ، فقال : " يا معشرَ المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُركم بعد إذْ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمرَ الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيدٌ من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكَوْا ، وعانقَ الرجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضًا ، ثم انصرفوا مع رَسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدوِّ الله شَأس بن قيس وما صنع. فأنزل الله في شأس بن قيس وما صنع : {قل يا أهل الكتاب لم تكفرُون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا} الآية. وأنزل الله عز وجل في أوس بن قَيْظيّ وجبّار بن صخر ومَنْ كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس بن قيس من أمر الجاهلية : {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين} إلى قوله : {أولئك لهم عذابٌ عظيم}".

قال الواحدي في أسباب النزول:ص١١٧:" قال جابر بن عبد الله: ما كان من طالع أكره إلينا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأومأ إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما رأيت قط يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم".

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٥٣٠):ص٥٩/٧، وابن ابي حاتم(٣٨٩٤):ص٧١٩/٣.

(٢) أخرجه الطبري(٧٥٢٩):ص٥٨/٧-٥٩. وأخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٩٢):ص٧١٨/٣. مختصرا.

(٣) تفسير الطبري:٥٩/٧.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٨٩):ص٧١٨/٣.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٩٠):ص٧١٨/٣.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٩١):ص٧١٨/٣.

(٧) تفسير الطبري:٥٩/٧.

قال مقاتل بن سليمان:" يعني طائفة من الذين أوتوا الكتاب يعني أعطوا التوراة"(١).
قال سعيد بن جبير:"{فريقا}: يعني طائفة"(٢).
قال الزجاج:" يعني بالفريق الصنف"(٣).
قوله تعالى: {يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران : ١٠٠]، أي:"يضلّوكم فيردّوكم بعد إيمانكم جاحدين" "(٤).
قال السدي:"يقول: إن حملتم السلاح فاقتتلتم كفرتم"(٥).
قال الزجاج:" أي: إن قلدتموهم ردوكم كافرين، أي: وإن كنتم على غير دينهم وكنتم في عقدكم ذلك كافرين فكذلك إن أطعتموهم او اتبعتوهم فأنتم كافرون"(٦).
قال السمعاني:" يعني: يردونكم إلى اليهودية والنصرانية"(٧).
قال الطبري:" فنهاهم جَلّ ثناؤه أن ينتصحوهم ، ويقبلوا منهم رأيًا أو مشورةً ، ويعلّمهم تعالى ذكره أنهم لهم منطوُون على غِلٍّ وغِش وحسد وبغض"(٨).
أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن الربيع بن أنس في قوله: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين}: قال:" فقد تقدم فيهم كما تسمعون، وقد حذركموهم، وأنبأكم بضلالتكم، فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تنتصحوهم على أنفسكم، فإنهم الأعداء والحسدة والضلال، كيف تأتمنون قوما كفروا بكتابهم وقتلوا رسلهم؟ أولئك هم أهل التهمة والعداوة"(٩).
الفوائد:
١-تحذير المؤمنين من طاعة الكفار.
٢-أن الكفار ولو كان أهل كتاب يحاولون غاية المحاولة أن يردّوا المؤمنين عن إيمانهم إلى الكفر، فهم لايرضون منا بما دون الكفر، إلا أن يكون وسيلة إلى الكفر، لأن الغاية: قال{يردّوكم بعد إيمانكم كافرين}. ومن ابرز وسائلهم في ذلك: فتح باب الشهوات والشبهات.
٣-أن طاعة الكفار مخالفة للإيمان.
٤-أنه كلما ازداد المؤمنون تمسكا بالدين ستزداد شراسة الكفار في صدهم عن دينهم.
٥-أن من أهل الكتاب من لايحاول إضلال المؤمنين عن الدين، وذلك لقوله:{فريقا}.

القرآن
{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)} [آل عمران : ١٠١]
وكيف تكفرون بالله -أيها المؤمنون-، وآيات القرآن تتلى عليكم، وفيكم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يبلغها لكم؟ ومَن يتوكل على الله ويستمسك بالقرآن والسنة فقد وُفِّق لطريق واضح، ومنهاج مستقيم.
سبب النزول:

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٢/١.
(٢)تفسير ابن ألبي حاتم(٣٨٩٦):ص٧١٩/٣.
(٣) معاني القرآن:٤٤٨/١.
(٤) تفسير الطبري:٥٩/٧-٦٠.
(٥)أخرجه ابن ألبي حاتم(٣٨٩٧):ص٧١٩/٣.
(٦)معاني القرآن:٤٤٨/١.
(٧) تفسير السمعاني:٣٤٤/١.
(٨)تفسير الطبري:٦٠/٧.
(٩) تفسير ابن ألبي حاتم(٣٨٩٥):ص٧١٩/٣.

قال ابن عباس:" كانت بين الأوس والخزرج حرب في الجاهلية كل شيء، فبينما هم يوما جلوس إذ ذكروا ما بينهم حتى غضبوا، فقام بعضهم إلى بعض بالسلاح فنزلت: {وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله} الآية كلها"(١).

قوله تعالى: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [آل عمران : ١٠١]، " أي :كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تتنزّل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حيٌّ بين أظهركم؟"(٢).

عن قتادة:"قوله:{وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله}، قال: علمان بينان: نبي الله وكتاب الله، فأما نبي الله فمضى عليه الصلاة والسلام، وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم رحمة من الله، ونعمة فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته"(٣).

قوله تعالى:{ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [آل عمران : ١٠١]، "أي: من يتمسك بدينه الحق الذي بيَّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم"(٤).

قال الربيع بن أنس:" والاعتصام هو: الثقة بالله"(٥).

وقال ابن جريج:"{ومن يعتصم بالله}: يؤمن بالله"(٦).

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله قضى على نفسه أنه من آمن به هداه، ومن وثق به أنجاه. قال الربيع: وتصديق ذلك في كتاب الله: {ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم}"(٧).

وفي :{ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [آل عمران : ١٠١]، أربعة اقوال:

أحدها: أن"الصراط المستقيم: كتاب الله عزّ وجل". رواه علي بن أبي طالب عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-(٨).

والثاني: أن" الصراط: الإسلام". رواه النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-(٩).

والثالث:أن "الصراط المستقيم: هو النبي صلى الله عليه وسلم وصاحباه بعده رضي الله عنهما". قاله أبو العالية(١٠). قال الحسن:"صدق أبو العالية ونصح"(١١).

والرابع: أن الصراط المستقيم: الحق. وهذا قول مجاهد(١٢).

الفوائد:

١-إستبعاد أن يرتد المؤمن كافرا، وهو يتلى عليه كتاب الله وفيهم رسوله-صلى الله عليه وسلم-، ورسول الله-صلى الله عليه وسلم- فينا بسنته.

٢-أن كتاب الله وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم- والإقبال عليهما أعظم مانع يمنع من الكفر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٩٨):ص٧٢٠/٣.

(٢) صفوة التفاسير:٢٠٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٨٩٩):ص٧٢٠/٣.

(٤)صفوة التفاسير:٢٠٠.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٠٠):ص٧٢٠/٣.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٠١):ص٧٢٠/٣.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٠١٢):ص٧٢٠/٣.

(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٣):ص٧٢١/٣.

(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٤):ص٧٢١/٣.

(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٥):ص٧٢١/٣.

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٠٥):ص٧٢١/٣.

(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٦):ص٧٢١/٣.

٣- إثبات أن القرآن الكريم آية من آيات الله، لقوله:{آيات الله}. وبذلك لا يمكن أن يأتي احد بمثله.
٤- الحث على الاعتصام بالله.
٥- بشارة من وفق للاعتصام بالله بأنه مهدي إلى الطريق القويم.
٦- أن دين الله عزّ وجل دين مستقيم.

القرآن
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)} [آل عمران : ١٠٢]
التفسير:
يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بشرعه، خافوا الله حق خوفه: وذلك بأن يطاع فلا يُعصى، ويُشكَر فلا يكفر، ويُذكَر فلا ينسى، وداوموا على تمسككم بإسلامكم إلى آخر حياتكم; لتلقوا الله وأنتم عليه.
في سبب نزول الآية قولان:
أحدهما: قال عكرمة:" إن هذه الآية نزلت في الأوس والخزرج وكان بينهم قتال يوم بعاث قبيل مخرج النبي صلى الله عليه وسلم :{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته}"[١].
والثاني: نقل الثعلبي عن عطاء:" إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر وقال: «يا معشر المسلمين ما لي أوذى في أهلي» . يعني الطعن في قصة الإفك، وقال: «ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت منه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي» .
فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله وأكفيك أمره وأنصرك عليه، إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.
فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكنه احتملته الحمية فقال لسعد ابن معاذ: كذبت لعمر الله. فقال سعد: والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ودعوا بالسلاح، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا، فأنزل الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته}"[٢].
قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا }[آل عمران : ١٠٢]، أي:" يا معشر من صدّق الله ورسوله"[٣].
قال مقاتل بن سليمان: "يعني الأنصار"[٤].
قوله تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}[آل عمران : ١٠٢]أي: اتقوا الله تقوى حقة"[٥].
قال الطبري:أي:"خافوا الله وراَقبوه بطاعته واجتناب معاصيه، حقّ خوفه ، وهو أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُشكر فلا يكفر ، ويُذكر فلا يُنسى"[٦].
قال الزجاج:" أي اتقوه فيما يحق عليكم أن تتقوه فيه"[٧].
وفي قوله تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}[آل عمران : ١٠٢] وجوه:
أحدها: معناه: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. قاله عبدالله ابن مسعود[١]،مرة الهمداني[٢]، والربيع بن خثيم[٣]، وعمرو بن ميمون[٤]، والحسن[٥]، وطاوس[٦]،

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٩٠٧):ص٧٢١/٣.
(٢) تفسير الثعلبي:١٦٠/٣-١٦١.
(٣) تفسير الطبري:٦٤/٧.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٢/١.
(٥) صفوة التفاسير:٢٠٠.
(٦) تفسير الطبري:٦٤/٧.
(٧) معاني القرآن:٤٤٨/١.

وطاوس[٦]، وقتادة[٧]، وإبراهيم النخعي"[٨]، وأبي سنان[٩]، والسدي"[١٠]، ومقاتل بن سليمان[١١].
الثاني: المعنى: أن يجاهد في سبيل الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وهذا قول ابن عباس[١٢]، ومجاهد[١٣].
الثالث : هو أن يعترفوا بالحق في الأمن والخوف[١٤] .
الرابع : هو أن يُطَاع ، ولا يُتَّقى في ترك طاعته أحدٌ سواه[١٥] .
الخامس: أنه لا يتق الله العبد حق تقاته، حتى يخزن من لسانه. وهذا قول أنس[١٦].
قوله تعالى: {وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[آل عمران : ١٠٢]، "أي: تمسكوا بالإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام"[١٧].
قال طاوس:أي:" على الإسلام ، وعلى حُرْمة الإسلام"[١٨].
وقال المفضل: "المحسنون الظن بالله"[١٩].
قال الزجاج:أي:" كونوا على الإسلام فإذا ورد عليكم الموت صادفكم على ذلك"[٢٠].
قال ابن كثير:" أي : حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بُعث عليه ، فعياذًا بالله من خلاف ذلك"[٢١].
واختلفوا في نسخ الآية على قولين :
أحدهما : أنها محكمة ، وهو قول ابن عباس[٢٢]، وطاووس[٢٣].
والثاني :أنها منسوخة بقوله تعالى:{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}[التغابن : ١٦]، وهو قول قتادة[١]، وسعيد بن جبير[٢]، وزيد بن أسلم[٣]، و أبي العالية[٤]، ومقاتل بن حيان[٥]، والربيع بن والربيع بن أنس[٦]، والسدي[٧]، وابن زيد[٨]، و مقاتل بن سليمان[٩].

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٨):ص٧٢٢/٢.
[٢]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٨):ص٧٢٢/٢، وتفسير الثعلبي:١٦١/٣. وهو قول ابن مسعود-رضي الله عنه-. انظر: انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٨):ص٧٢٢/٢.
(٣) أخرجه الطبري(٧٥٤٦):ص٦٦/٧.
(٤) أخرجه الطبري(٧٥٤٤):ص٦٦/٧.
(٥) أخرجه الطبري(٧٥٤٩):ص٦٧/٧. قال :" أن يطاع فلا يُعصى".
(٦) أخرجه الطبري(٧٥٤٨):ص٦٦/٧-٦٧. قال :" أن يطاع فلا يُعصى".
(٧) أخرجه الطبري(٧٥٥١):ص٦٧/٧.
[٨]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٨):ص٧٢٢/٢، وتفسير الثعلبي:١٦١/٣. وهو قول ابن مسعود-رضي الله عنه-. انظر: انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٨):ص٧٢٢/٢.
[٩]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٨):ص٧٢٢/٢، وتفسير الثعلبي:١٦١/٣. وهو قول ابن مسعود-رضي الله عنه-. انظر: انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٠٨):ص٧٢٢/٢.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٥٥٠):ص٦٧/٧.
(١١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٢/١.
(١٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩١٠):ص٧٢٢/٢.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:١٦١/٣.
(١٤) انظر: النكت والعيون:٤١٣/١.
(١٥) انظر: النكت والعيون:٤١٣/١.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٠٩):ص٧٢٢/٣.
(١٧)صفوة التفاسير:٢٠٠.
(١٨) أخرجه الطبري(٧٥٦١):ص٧٠/٧.
(١٩) تفسير الثعلبي:١٦١/٣.
(٢٠) معاني القرآن:٤٤٨/١.
(٢١) تفسير ابن كثير:٨٧/٢.
(٢٢)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩١٠):ص٧٢٢/٢، وتفسير الطبري(٧٥٥٣):ص٦٨/٧.
(٢٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩١٣):ص٧٢٣/٢، وتفسير الطبري(٧٥٥٤):ص٦٨/٧.

قال سعيد بن جبير:" لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفا على المسلمين: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن : ١٦]، فنسخت الآية الأولى"(١٠). وروي عن زيد بن أسلم نحو هذا التفسير(١١).

وروي عن أبي العالية وقتادة ومقاتل بن حيان، والربيع بن أنس، والسدي:" إنها نسختها {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن : ١٦]"(١٢).

وقال مقاتل: "وليس في آل عمران من المنسوخ إلا هذا"(١٣).

الفوائد:

١- وجوب تقوى الله حق تقاته للأمر بذلك.

٢- العناية والاهتمام بالتقوى، يؤخذ من تصديره بالنداء.

٣- أن ترك التقوى من نواقص الإيمان.

٤- وجوب البقاء على الاسلام والمبادرة به.

٥- أن المدار على الخاتمة، لقوله:{ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون}، لذلك يجب علينا أن نطهر قلوبنا دائما لكي يختم لنا بحسن الخاتمة، لأنه ليست العبرة بكثرة الصلاة والصوم إذا كان قلبه خربا، لأن الصلاة من أعمال الجوارح فكل انسان يستطيع أن يصلي أحسن صلاة، ولكن الكلام على عمل القلب، فيجب الحرص على اصلاح القلوب.

القرآن

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)} [آل عمران : ١٠٣]

التفسير:

وتمسَّكوا جميعًا بكتاب ربكم وهدي نبيكم، ولا تفعلوا ما يؤدي إلى فرقتكم. واذكروا نعمة جليلة أنعم الله بها عليكم: إذ كنتم -أيها المؤمنون- قبل الإسلام أعداء، فجمع الله قلوبكم على محبته ومحبة رسوله، وألقى في قلوبكم محبة بعضكم لبعض، فأصبحتم بفضله إخوانا متحابين، وكنتم على حافة نار جهنم، فهداكم الله بالإسلام ونجَّاكم من النار. وكما بيَّن الله لكم معالم الإيمان الصحيح فكذلك يبيِّن لكم كل ما فيه صلاحكم; لتهتدوا إلى سبيل الرشاد، وتسلكوها، فلا تضلوا عنها.

قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا }[آل عمران: ١٠٣]، "أي: وتمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً"(١٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٥٥٦):ص٦٨/٧.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٩١١):ص٧٢٢/٣.
(٣)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٩١١):ص٧٢٢/٣.
(٤)انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٩١١):ص٧٢٢/٣.
(٥) أ انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٩١١):ص٧٢٢/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٥٥٨):ص٦٩/٧.
(٧)نظر: تفسير الطبري(٧٥٥٩):ص٦٩/٧، وتفسير ابن ابي حاتم(٣٩١١):ص٧٢٢/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٥٦٠):ص٦٩/٧.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٢/١.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٩١١):ص٧٢٢/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٩١١):ص٧٢٢/٣.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٩١١):ص٧٢٢/٣.
(١٣) تفسير الثعلبي:١٦١/٣.
(١٤) صفوة التفاسير:٢٠٠.

قال الطبري:أي:" وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به ، وعهده الذي عَهده إليكم في كتابه إليكم ، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق ، والتسليم لأمر الله"(١).

وفي تفسير قوله تعالى:{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً}[آل عمران: ١٠٣] ستة أقوال:

أحدها : الحبل : القرآن ، وهو قول ابن مسعود(٢)، وقتادة (٣)، والسدي(٤)، والضحاك(٥).

روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : "كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ"(٦).

والثاني : أنه دين الله وهو الإسلام ، وهذا قول ابن زيد(٧) .

والثالث : أنه عهد الله ، وهو قول مجاهد(٨)، و عطاء(٩). وهو مروي عن قتادة أيضا(١٠).

كما قال في الآية بعدها:{ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ } [آل عمران : ١١٢] أي بعهد وذمة(١١).

والرابع : هو الإخلاص لله والتوحيد ، وهو قول أبي العالية(١٢) .

والخامس : هو الجماعة ، وهو مروي عن ابن مسعود(١٣) .

والسادس:أنه طاعة الله. قاله الحسن(١٤).

و"الحبل"، يطلق على السبب الذي يوصَل به إلى البُغية والحاجة، ولذلك سمي الأمان "حبلا"، لأنه سبب يُوصَل به إلى زوال الخوف ، والنجاة من الجزَع والذّعر ، ومنه قول أعشى بني ثعلبة(١٥):

وَإِذَا تُجَوِّزُهَا حِبَالُ قَبِيلَةٍ ... أَخَذَتْ مِنَ الأُخْرَى إِلَيْكَ حِبَالَها

ومنه قول الله عز وجل :{إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ}[سورة آل عمران : ١١٢](١٦).

قال الماوردي:"وسُمِّي ذلك حبلاً لأن المُمْسِكَ به ينجو مثل المتمسك بالحبل ينجو من بئر أو غيرها"(١٧).

قوله تعالى: { وَلَا تَفَرَّقُوا}[آل عمران: ١٠٣]، أي:" ولا تتفرقوا عن دين الله"(١٨).

وفي قوله تعالى: { وَلَا تَفَرَّقُوا}[آل عمران: ١٠٣]، وجهان :

أحدهما : عن دين الله الذي أمر فيه بلزوم الجماعة ، وهذا قول ابن مسعود(١٩)، وقتادة (٢٠).

والثاني : عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١).

---

(١) تفسير الطبري:٧/٧٠.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٥٦٦):ص٧/٧٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٥٦٤):ص٧/٧١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٥٦٧):ص٧/٧٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٥٧١):ص٧/٧٢.
(٦) أخرجه الطبري(٧٥٧٢):ص٧/٧٢. وفي اسناده عطية العوفي، وهو ضعيف.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٥٧٤):ص٧/٧٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٥٦٨):ص٧/٧٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٥٦٩):ص٧/٧٢.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩١٩):ص٣/٧٢٤.
(١١) انظر: تفسير ابن كثير:٢/٨٩.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٥٧٣):ص٧/٧٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٥٦٢)، و(٧٥٦٣):ص٧/٧١.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩١٧):ص٣/٧٢٤.
(١٥) ديوانه: ٢٤ ، ومشكل القرآن : ٣٥٨ ، والمعاني الكبير : ١١٢٠ ، واللسان (حبل) وغيرها.
(١٦) انظر: تفسير الطبري:٧/٧٠-٧١.
(١٧) النكت والعيون:١/٤١٤.
(١٨) تفسير الطبري:٧/٧٤.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(٧٥٦٢)، و(٧٥٦٣):ص٧/٧١.
(٢٠) انظر:تفسير الطبري(٧٥٧٥):ص٧/٧٤.

قال ابن كثير:" أمَرَهُم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة وقد وردت الأحاديثُ المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف كما في صحيح مسلم من حديث سُهَيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا ، يَرْضى لَكُمْ : أنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وأنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ، وأنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللهُ أمْرَكُمْ ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وإضَاعَةَ الْمَالِ"[٢]"[٣].

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"افترقت بنوا إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة قالوا: يا رسول الله: ومن هذه الواحدة؟ قال: الجماعة. قال: فقبض يده ثم قال: واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا"[٤].

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ }[آل عمران: ١٠٣]، "أي: اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب"[٥].

عن ابن عباس قوله: "{نعمت الله}، يقول: عافية الله"[٦].

قوله تعالى: {إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ}[آل عمران: ١٠٣]،" أي حين كنتم قبل الإسلام أعداء الداءً فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان"[٧].

قال السدي : أما :{إذ كنتم أعداء}، ففي حرب ابن سُمَير[٨]،{فألف بين قلوبكم}، بالإسلام"[٩].

قال قتادة:" كنتم تذابحون فيها ، يأكل شديدكم ضعيفكم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فآخى به بينكم ، وألَّف به بينكم. أما والله الذي لا إله إلا هو ، إنّ الألفة لرحمة ، وإن الفرقة لعذابٌ"[١٠].

واختلف فيمن أريد بهذه الآية على قولين:

أحدهما : أنهم مشركو العرب لِمَا كان بينهم من الصوائل ، وهذا قول الحسن[١١] .

والثاني : أنهم الأوس والخزرج لِمَا كان بينهم من الحروب في الجاهلية حتى تطاولت مائة وعشرين سنة إلى أن ألّفَ الله بين قلوبهم بالإسلام فتركت تلك الأحقاد ، وهذا قول ابن إسحاق [١٢].

قوله تعالى: {فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}[آل عمران: ١٠٣]،أي:" : فأصبحتم بتأليف الله عز وجل بينكم بالإسلام إخوانا متصادقين"[١٣].

قال قتادة:" وذكر لنا أن رجلا قال لابن مسعود : كيف أصبحتم ؟ قال : أصبحنا بنعمة الله إخوانًا"[١].

---

(١) انظر: النكت والعيون:٤١٤/١.

(٢)صحيح مسلم برقم (١٧١٥).

(٣) تفسير ابن كثير:٨٩/٢.

(٤) أ×رجه ابن أبي حاتم(٣٩١٥):ص٧٢٣/٣.

(٥)صفوة التفاسير:٢٠٠.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٢١):ص٧٢٤/٣.

(٧)صفوة التفاسير:٢٠٠.

(٨) قال الطبري:" أنّ مبدأ العداوة التي هيَّجت الحروب التي كانت بين قبيلتَيها الأوس والخزرج وأوّلها ، كان بسبب قتل مَولى لمالك بن العجلان الخزرجيّ ، يقال له : " الحرُّ بن سُمَير " من مزينة ، وكان حليفًا لمالك بن العجلان ، ثم اتصلت تلك العداوة بينهم إلى أن أطفأها الله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم".[تفسير الطبري:٨٤/٧].

(٩) أخرجه الطبري(٧٥٨٨):ص٨٢/٧.

(١٠) أخرجه الطبري(٧٥٨٢):ص٧٧/٧.

(١١) انظر: النكت والعيون:٤١٤/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٥٨٤):ص٧٨/٧.

(١٣) تفسير الطبري:٨٤/٧.

قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا}[آل عمران: ١٠٣]،" أي: وكنتم مشرفين على الوقوع في نارجهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام"[٢].

قال الربيع بن أنس:" يقول : كنتم على الكفر بالله ، " فأنقذكم منها " ، من ذلك ، وهداكم إلى الإسلام"[٣].

قال السدي:" يقول : كنتم على طرَف النار ، من مات منكم أوبِقَ في النار ، فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فاستنقذكم به من تلك الحفرة"[٤].

قال مقاتل بن حيان:" أنقذكم الله من الشرك إلى الإيمان"[٥].

قال الحسن: أي: "العصبية"[٦].

قال الطبري:أي:" على حرف حُفرةٍ من النار. وإنما ذلك مثَلٌ لكفرهم الذي كانوا عليه قبل أن يهديهم الله للإسلام. يقول تعالى ذكره : وكنتم على طرَف جهنم بكفركم الذي كنتم عليه قبل أن يُنعم الله عليكم بالإسلام ، فتصيروا بائتلافكم عليه إخوانًا ، ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على ذلك من كفركم ، فتكونوا من الخالدين فيها ، فأنقذكم الله منها بالإيمان الذي هداكم له"[٧].

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ}[آل عمران: ١٠٣]،" أي: مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات"[٨].

قال السدي:"{كذلك}، يعني: هكذا"[٩].

قال سعيد بن جبير:"يعني ما بيّن في هذه الآية"[١٠].

قال الطبري:أي:"كما بيَّن لكم ربكم في هذه الآيات، فكذلك يبين لكم سائر حججه"[١١].

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[آل عمران: ١٠٣]، أي: لأجل أن تهتدوا"[١٢].

قال الزجاج:" أي: لتكونوا على رجاء هدايته"[١٣].

قال الطبري:أي:" لتهتدوا إلى سبيل الرشاد وتسلكوها ، فلا تضِلوا عنها"[١٤].

قال أبو مالك:"لعلّ: أي: كي"[١٥].

الفوائد:

١-وجوب الاجتماع على شرع الله، لقوله:{جميعا}.

٢-وجوب التحاكم إلى شرع الله، لأن الاعتصام به يقتضي أن يكون هو المحكّم.

٣-أن الإجتماع عصمة.

٤-تحريم التفرق بين القلوب.

---

(١) أخرجه الطبري(٧٥٩٠):ص٨٤/٧-٨٥.

(٢) صفوة التفاسير:٢٠٠.

(٣) أخرجه الطبري(٧٥٩٢):ص٨٨/٧.

(٤) أخرجه الطبري(٧٥٩٣):ص٨٨/٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٣٢):ص٧٢٦/٣.

(٦)أخرجه الطبري(٧٥٩٤):ص٨٩/٧.

(٧) تفسير الطبري:٨٥/٧.

(٨) صفوة التفاسير:٢٠٠.

(٩)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٣٣):ص٧٢٦/٣.

(١٠)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٣٤):ص٧٢٦/٣.

(١١) تفسير الطبري:٨٩/٧.

(١٢) تفسير ابن عثيمين:٦٠٠/١.

(١٣) معاني القرآن:٤٥١/١.

(١٤)تفسير الطبري:٨٩/٧.

(١٥)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٣٥):ص٧٢٦/٣.

٥-وجوب تذكر نعمة الله، لأن الغفلة عن تذكر النعمة يسلتزم الغفلة عن الشكر، والشكر واجب.
٦-إن من اكبر نعم الله على الأمة أن يؤلف بين قلوبها، وبالنتيجة يصبح الناس إخوانا، لأن الروابط الدينية أقوى من الروابط النسبية.
٧-أن التفرقة علامة على الشقاء وسلب النعمة.
٨-أن الله تعالى خالق لعمل العبد، لقوله:{فأنقذكم}، لأن الله أنقذهم بعملهم فأضاق هذا الانقاذ إلى المبني على العمل إلى نفسه، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن الله خالق العبد وخالق عمل العبد، فالعبد مخلوق في ذاتع وإرادته وعمله، قال تعالى:{والله خلقكم وما تعملون}[الصافات:٩٦].
٩- إثبات العقوبة بالنار.

القرآن

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)} [آل عمران : ١٠٤]

التفسير:

ولتكن منكم -أيها المؤمنون- جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف، وهو ما عُرف حسنه شرعًا وعقلا وتنهى عن المنكر، وهو ما عُرف قبحه شرعًا وعقلا وأولئك هم الفائزون بجنات النعيم.

قوله تعالى:{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ } [آل عمران : ١٠٤]، أي:" لتكن منكم جماعة"[١].

قال الكلبي: "يعني :جماعة"[٢].

وقال مقاتل:" يعني: عصبة"[٣].

قال الزجاج:يعني:" ولتكونوا كلكم أمة"[٤].

قال الضحاك:" قال " هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وهم الرواة "[٥].

قال مقاتل بن حيان:" ليكن منكم قوم، يعني: واحد أو اثنين أو ثلاث نفر فما فوق ذلك"[٦].
وفي رواية أخرى له:" قوله: {أمة}، يقول: إماما يقتدى به كما قال لإبراهيم كان أمة قانتا يقول: إماما مطيعا لربه يقتدى به"[٧].

قال الأخفش:" و"أمة" في اللفظ واحد وفي المعنى جمع فلذلك قال {يدعون}"[٨].

قال أبو عبيدة:" قال " الأمة هاهنا الجماعة، والأمة في أشياء سوى هاهنا: الإمام الذي يؤتم به " وقوله {وادكر بعد أمة} معناه: " بعد قرن"[٩].

قال الماتريدي:قوله: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ }،" يحتمل أن يكون هذا خبرا في الحقيقة، وإن كان في الظاهر أمرا؛ فإن كان خبرا ففيه دلالة أن جماعة منهم إذا قاموا على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - سقط ذلك عن الآخرين؛ لأنه ذكر فيه حرف التبعيض، وهو قوله: {منكم أمة. . .} الآية.

---

(١) تفسير السعدي:١٤٢.
(٢) تفسير السمرقندي:٢٣٦/١.
(٣)تفسير السمرقندي:٢٣٦/١.
(٤) معاني القرآن:٤٥٢/١.
(٥)أخرجه ابن المنذر(٧٨٤):ص٣٢٥/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٣٦):ص٧٢٦/٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٣٧):ص٧٢٧/٣.
(٨) معاني القرآن:٢٢٨/١.
(٩) أخرجه ابن المنذر(٧٨٣):ص٣٢٤/١.

ويحتمل أن يكون على الأمر في الظاهر والحقيقة جميعا، ويكون قوله: {منكم} - صلة، فإن كان على هذا ففيه أن على كل أحد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وذلك واجب؛ كأنه قال: كونوا أمة {وينهون عن المنكر} الآية؛ لأنه ذكر - جل وعز - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في آي كثيرة من كتابه، منها هذا: رولتكن منكم أمة. . .} الآية، ومنها قوله: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر}، وذم من تركهما بقوله: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}.

وروي عن عكرمة أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال له: " قد أعياني أن أعلم ما يفعل بمن أمسك عن الوعظ، فقلت: أنا أعلمك ذلك، اقرأ الآية الثانية: {أنجينا الذين ينهون عن السوء. . .}، فقال لي: أصبت"[1].

فاستدل ابن عباس رضي الله عنه - بهذه الآية على أن الله أهلك من عمل السوء، ومن لم ينه عنه من يعمله، فجعل - والله أعلم - الممسكين عن نهي الظالمين مع الظالمين في العذاب"[2].

قوله تعالى:{يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} [آل عمران : ١٠٤]، أي: "يدعون الناس إلى الإسلام وشرائعه"[3].

قال مقاتل بن حيان:" إلى الإسلام"[4].

قال السمرقندي:" ويقال: إلى جميع الخيرات"[5].

قوله تعالى:{ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} [آل عمران : ١٠٤]، أي: ويأمرون "بكل معروف"[6].

قال المظهري:" اى ما عرف من الشرع حسنه واجبا كان او مندوبا"[7].

قال الكلبي: يعني باتباع محمد -صلى الله عليه وسلم-"[8].

قال مقاتل بن حيان:" يأمرون بطاعة ربهم"[9].

قال أبو العالية:" كل آية يذكرها الله في القرآن، فذكر الأمر بالمعروف، فالأمر بالمعروف أنهم دعوا إلى الله وحده وعبادته لا شريك له، دعاء من الشرك إلى الإسلام"[10].

قال الراغب:" المعروف: ما يستحسنه العقل ويرد به الشرع"[11].

قال الطبري:أي:" يأمرون الناس باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الذي جاء به من عند الله"[12].

قوله تعالى:{ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران : ١٠٤]أي: وينهون "عن كل منكر"[13].

قال المظهري:" يعنى: ما أنكره الشرع من المحرمات والمكروهات"[14].

وقال ابن أبي زمنين:" يعني: الشرك بالله"[15].

---

(١) تفسير الماتريدي:٤٤٨/٢-٣٣٩، وأحكام القرآن للجصاص:٤١/٢.
(٢) تفسير الماتريدي:٤٤٨/٢-٤٤٩.
(٣) تفسير الطبري:٩٠/٧.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٣٨):ص٧٢٧/٣.
(٥) تفسير السمرقندي:٢٣٦/١.
(٦) محاسن التأويل:٣٧٤/٢.
(٧) تفسير المظهري:٢ق١١٤/١.
(٨) تفسير السرمقندي:٢٣٦/١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٤٠):ص٧٢٧/٣.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٣٩):ص٧٢٧/٣.
(١١) تفسير الراغب الأصفهاني:٧٧٠/٢.
(١٢) تفسير الطبري:٩١/٧.
(١٣)محاسن التأويل:٣٧٤/٢.
(١٤)تفسير المظهري:٢ق١١٤/١.
(١٥) تفسير ابن أبي زمنين:٣٠٨/١.

قال السمرقندي:" يعني: الجبت والطاغوت. ويقال: المنكر، يعني العمل الذي بخلاف الكتاب والسنة. ويقال: ما لا يصلح في العقل"(١).

قال الطبري:" : يعني وينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد وبما جاء به من عند الله ، بجهادهم بالأيدي والجوارح ، حتى ينقادوا لكم بالطاعة"(٢).

قال مقاتل بن حيان:" وينهون عن معصيته، يعني: معصية ربهم"(٣).

قال أبو العالية:" كل آية ذكر الله في القرآن، فذكر النهي عن المنكر، النهي عن عبادة الأوثان والشيطان"(٤).

وروي عن سفيان الثوري أنه قال:" إنما يجب النهي عن المنكر إذا فعل فعلاً يخرج عن الاختلاف، أي اختلاف العلماء"(٥).

قال بعض أهل العلم:" إنما أمر بعض الناس بقوله، {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ}، ولم يأمر جميع الناس، لأن كل واحد من الناس لا يحسن الأمر بالمعروف، وإنما يجب على من يعلم. ويقال: إن الأمراء، يجب عليهم الأمر والنهي باليد، والعلماء باللسان، والعوام بالقلب، وهنا كما قال عليه الصلاة والسلام: «إذا رَأى أَحَدٌ مُنْكَراً، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلك أَضْعَفُ الإيمان»(٦) .

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: "بحسب امرئ إذا رأى منكراً، لا يستطيع النكير أن يعلم الله من قلبه أنه كاره. "(٧).

وروي عن بعض الصحابة أنه قال: "أن الرجل إذا رأى منكراً، لا يستطيع النكير عليه، فليقل ثلاث مرات: اللهم إنَّ هذا منكر، فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه"(٨).

وقال الزمخشري: قوله{ ولتكن منكم أمة}، "من للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار عليه عبث، كالإنكار على أصحاب المآصر(٩) والجلادين وأضرابهم. وقيل «من» للتبيين، بمعنى: وكونوا أمة تأمرون، كقوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون}"(١٠).

قال الراغب:" المنكر: ما يستقبحه العقل ويحظره الشرع، وعلى ذلك يقال للسخاء المعروف في نحو قول الشاعر(١١):

ولم أر كالمعروف أما مذاقه ... فحلو وأما وجهه فجميل"(١٢).

وقرأ ابن الزبير: «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستعينون بالله على ما أصابهم» ،(١٣). ورويت أيضا عن عثمان بن عفان وابن مسعود(١).

---

(١) تفسير السمرقندي:٢٣٦/١.
(٢) تفسير الطبري:٩١/٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٤٢):ص٧٢٧/٣.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٤١):ص٧٢٧/٣.
(٥) تفسير السمرقندي:٢٣٦/١.
(٦)أخرجه مسلم ١/ ٦٩، كتاب الإيمان، حديث رقم: ٤٩، والبيهقي في "الكبرى" ١٠/ ٩٠.
(٧) تفسير السمرقندي:٢٣٦/١.
(٨) تفسير السمرقندي:٢٣٦/١.
(٩)جمع مأصر، وهو المحبس أى السجن.
(١٠) الكشاف:٣٩٦/١-٣٩٧.
(١١) البيت من شواهد الراغب في تفسيره:٧٧٠/٢، ولم أتعرف على قائله.
(١٢) تفسير الراغب الأصفهاني:٧٧٠/٢.
(١٣) سنن سعيد بن منصور(٥٢١):ص١٠٨٤/٣.

قال ابن الأنباري: "هذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه، غلط فيه بعض الناقلين، فألحقه بألفاظ القرآن، يدل على ذلك أن عثمان بن عفان قرأ: "ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم"، فما يشك عاقل في أن عثمان لا يعتد هذه الزيادة من القرآن؛ إذ لم يكتبها في مصحفه الذي هو إمام المسلمين"[٢].

قال ابن عطية:"فهذا[الوجه من القراءة]، وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهي"[٣].

قوله تعالى:{ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران : ١٠٤]، أي: أولئك "هم الفائزون"[٤].

قال الزجاج:" أي: والذين ذكرناهم المفلحون، والمفلح الفائز بما يغتبط به"[٥].

قال ابن عباس:" أي الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا"[٦].

قال الطبري:أي:" المنجحون عند الله الباقون في جناته ونعيمه"[٧].

قال السعدي:أي:" الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب"[٨].

الفوائد:

١-وجوب الدعوة إلى الخير، وأن ذلك على الكفاية.

٢-الإخلاص في الدعوة، لقوله:{يدعون إلى الخير}، لا لأنفسهم.

٣-وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى وإن كان بالقلب كما ورد في الحديث، عن أبي سهيد الخدري: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من رأى منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان "[٩].

٤-الحث على العلم، لأنه يمكن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا العالم بالخير والمعروف والمنكر.

٥-فضيلة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقوله:{وأولئك هم المفلحون}.

القرآن

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)} [آل عمران : ١٠٥]

التفسير:

ولا تكونوا -أيها المؤمنون- كأهل الكتاب الذين وقعت بينهم العداوة والبغضاء فتفرَّقوا شيعًا وأحزابًا، واختلفوا في أصول دينهم من بعد أن اتضح لهم الحق، وأولئك مستحقون لعذابٍ عظيم موجع.

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}[آل عمران : ١٠٥]، "أي :ولا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه، من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات"[١٠].

قال الحسن:" هم اليهود والنصارى "[١].

---

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية:١٠٨٩/٢، والمحرر الوجيز:٤٨٦/١.
(٢) اللباب في علوم الكتاب:٤٥١/٥.
(٣) المحرر الوجيز:٤٨٦/١.
(٤) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٥) معاني القرآن:٤٥٣/١.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٤٣):ص٧٢٧/٣.
(٧) تفسير الطبري:٩١/٧.
(٨) تفسير السعدي:١٤٢.
(٩) صحيح مسلم(١١١٥٠):ص٢٣٩/١٧.
(١٠) صفوة التفاسير:٢٠٢.

قال الثعلبي:" قال أكثر المفسرين: هم اليهود والنصارى. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة"[2].

قال الربيع:" هم أهل الكتاب ، نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا ، كما تفرق واختلف أهل الكتاب"[3].

قال مقاتل بن حيان:" يقول للمؤمنين: لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا يعني اليهود " {من بعد ما جاءهم البينات} يقول: " تفرقوا واختلفوا من بعد موسى، فنهى الله المؤمنين أن يتفرقوا بعد نبيهم كفعل اليهود"[4].

قال ابن عباس:" ونحو هذا في القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة ، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله"[5].

قال مقاتل بن سليمان:" فوعظ الله المؤمنين لكي لا يتفرقوا، ولا يختلفوا كفعل أهل الكتاب"[6].

قال الزجاج:" أي لا تكونوا كأهل الكتاب، يعني به إليهود والنصارى وكتابهم جميعا التوراة، وهم مختلفون، كل فرقة منهم - وإن اتفقت في باب النصرانية أو اليهودية - مختلفة أيضا، كالنصارى الذين هم نسطورية ويعقوبية وملكانية، فأمر الله بالاجتماع على كتابه، وأعلم أن التفرق فيه يخرج أهله إلى مثل ما خرج إليه أهل الكتاب في كفرهم"[7].

قال ابن كثير:" ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم ، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم"[8].

قال الماتريدي:" و{البينات}: هي الحجج التي أتى بها، ويحتمل: بيان ما في كتابهم من صفة رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ونعته الشريف، ويحتمل: تفرقوا عما نهج لهم الله، وأوضح لهم الرسل؛ فأبدعوا لأنفسهم الأديان بالأهواء، فحذرنا ذلك، وعرفنا أن الخير كله في اتباع من جعله الله حجة له، ودليلا عليه، وداعيا إليه، ولا قوة إلا بالله"[9].

قال الراغب:" التفرق على ثلاثة أضرب: تفرق بالأبدان، وتفرق بالأقو ال والأفعال، وتفرق بالاعتقادات، وكذلك الاختلاف؛ إلا أن الأظهر في الاختلاف أن يكون بالأقوال والأفعال والاعتقادات، وفي التفرق أن يكون بالأبدان، وذكر تعالى اللفظين، ليبين أن أهل الكتاب تجادلوا بكل ذلك"[10].

قال الشافعي:" الاختلاف وجهان:

أحدهما: فما كان لله فيه نص حكم، أو لرسوله سنة، أو للمسلمين فيه إجماع، لم يسع أحداً علم من هذا واحداً أن يخالفه.

والثاني: وما لم يكن فيه من هذا واحد، كان لأهل العلم الاجتهاد فيه بطلب الشبهة بأحد هذه الوجوه الثلاثة، فإذا اجتهد من له أن يجتهد، وسِعهُ أن يقول بما وجد الدلالة عليه، بأن يكون في معنى كتاب، أو سنة، أو إجماع، فإن ورد أمر مشتبه يحتمل حكمين مختلفين، فاجتهد فخالف اجتهاده اجتهاد غيره، وَسِعَه أن يقول بشيء، وغيره بخلافه، وهذا قليل إذا نظر فيه"[11].

---

(١) أخرجه الطبري(٧٦٠٠):ص٩٣/٧..

(٢) تفسير الثعلبي:١٢٣/٣.

(٣) أخرجه الطبري(٧٥٩٨):ص٩٢/٧-٩٣.

(٤) أخرجه ابن المنذر(٧٨٥):ص٣٢٥/١.

(٥) أخرجه الطبري(٧٥٩٩):ص٩٣/٧.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٣/١.

(٧) معاني القرآن:٤٥٣/١.

(٨) تفسير ابن كثير:٩١/٢.

(٩) تفسير الماتريدي:٤٥١/٢.

(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني:٧٧٨/٢.

(١١) تفسير الإمام الشافعي:٤٨٩/١.

قوله تعالى: { وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[آل عمران : ١٠٥]، أي:" وأولئك لهم عذاب عظيم يوم القيامة"[١].

قال البيضاوي:" وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم"[٢].

الفوائد:

١-النهي عن التفرق، والمراد تفرق القلوب، لأن تفرق الآراء أمر لابد منه، فالناس يتفاوتون في العلم والحفظ والفهم والإيمان والعمل، وهي أسباب اختلاف الناس، عليه فإن الواجب اتفاق القلوب.

٢-إن ترك الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق، لأنه أعقب الآية السابقة بهذه الآية.

٣-إن التفرق بعد تبيّن الحق، أشد قبحا من التفرق حين خفاء الحق.

٤-الوعيد الشديد على الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءه البينات.

٥-إن العقاب يختلف باختلاف الجرم، لأنه لمات ان جرم هؤلاء عظيما كان عذابهم عظيما.

القرآن

{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)} [آل عمران : ١٠٦]

التفسير:

يوم القيامة تَبْيَضُّ وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله ورسوله، وامتثلوا أمره، وتَسْوَدُّ وجوه أهل الشقاوة ممن كذبوا رسوله، وعصوا أمره. فأما الذين اسودَّت وجوههم، فيقال لهم توبيخًا: أكفرتم بعد إيمانكم، فاخترتم الكفر على الإيمان؟ فذوقوا العذاب بسبب كفركم.

قوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}[آل عمران : ١٠٦]، " أي: يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي"[٣].

قال السدي:"بالأعمال والأحداث"[٤].

قال ابن عباس:" تبيض وجوه أهل السنة والجماعة"[٥]، "تسود أهل البدع والضلالة"[٦].

قال التستري:" يعني: تبيض وجوه المؤمنين بنور إيمانهم"[٧].

قال الواحدي:" { يَوْمَ تَبْيَضُّ }أيْ: وجوه المهاجرين والأنصار ومَنْ آمنَ بمحمدٍ عليه السَّلام، { وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } اليهود والنَّصارى ومَنْ كفر به "[٨].

قال الماوردي:" يعني به يوم القيامة ، لأن الناس فيه بين مُثَابٌ بالجنة ومُعاقَبٌ بالنار فوصِف وجه المُثَاب بالبياض لإسفاره بالسرور ، ووصف وجه المُعَاقب بالسواد لإنكسافه بالحزن "[٩].

قال السمعاني:" {يوم تبيض وجوه} يعني: بالتوحيد {وتسود وجوه} بالشرك. وقيل: تبيض وجوه بالسنة، وتسود وجوه بالبدعة. وقيل: أراد به: في الدنيا تبيض وجوه بالقناعة، وتسود وجوه بالطمع. والأول أصح، ويشهد لذلك قوله تعالى: {وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة} الآية"[١].

---

(١) تفسير السمعاني:٣٧٤/١.
(٢) تفسير البيضاوي:٣٢/٢.
(٣) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٤) أخرجه ابن المنذر(٧٨٦):ص٣٢٥/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٥٠):ص٧٢٩/٣.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٥١):ص٧٢٩/٣.
(٧) تفسير التستري:٥٠.
(٨) الوجيز:٢٢٦.
(٩) النكت والعيون:٤١٥/١.

قال الطبري:أي:" أولئك لهم عذاب عظيمٌ في يوم تبيضُ وجوه قوم وتسودُّ وجوه آخرين"[٢].

قال الراغب:" ابيضاض الوجه عبارة عن المسرة، واسودادها عن الغم، وعلى ذلك {ظل وجهه مسودا}، ثم قال: {من سوء ما بشر به}، وعلى ذلك قوله: {ووجوه يومئذ عليها غبرة}، وهذا الابيضاض والاسوداد أبلغ من المحسوسين، وقال بعض المتكلمين: يحمل ذلك على المحسوس، لكونه حقيقة فيه، وهذا خطأ، وذلك لأنه لم يعلم أن ذلك حقيقة فيهما جميعا، فليس الاسوداد والابيضاض أكثر من كيفية عارضة في الوجه، قل ذلك أم كثر، ومعلوم أن من ناله غم شديد يعرض لوجهه - لتبرمه وتكدره -اسوداد في وجهه، وليس قلة السواد والبياض مما يخرج اللفظ عن الحقيقة، ثم حمل الآية على هذا أولى، لأن ذلك حاصل لأهل القيامة باتفاق، سواء كانوا في الدنيا سودانا أو بيضانا، وعلى ذلك {وجوه يومئذ ناضرة} وقوله: {وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة}"[٣].

قوله تعالى:{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ }[آل عمران : ١٠٦]، أي:" وأما أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم:أجحتّم بعد إيمانكم"[٤].

قال التستري:" الكافرين بظلم كفرهم"[٥].

قال الواحدي:" لأنَّهم شهدوا لمحمدٍ عليه السَّلام بالنُّبوَّة فلمَّا قدم عليهم كذَّبوه وكفروا به"[٦].

وفي هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم أقاويل :

الأول : أنهم المنافقون، كفرواْ بعد إظهار الإيمان بالنفاق ، وهو قول الحسن[٧].

والثاني : أنهم الذين كفروا بالارتداد بعد إسلامهم ، وهو قول مجاهد، والسدي[٨]، وقتادة[٩].

والثالث : هم الذين كفروا من أهل الكتاب بالنبي - صلى الله عليه وسلم- بعد إيمانهم بِنَعْتِهِ ووصفه ، وهو قول الزجاج [١٠].

قال الزجاج:" وإنَّما قيل لهم :{أكفرتم بعد إيمانكم}، لأنهم كفروا بالنبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد كانوا به مؤمنين قبل مبعثه. وهذا خطاب لأهل الكتاب"[١١].

والرابع: أنهم اليهود. قاله الضحاك[١٢].

والخامس : هم جميع الكفار لإعراضهم عما يوجبه الإقرار بالتوحيد حين أَشْهَدَهُم الله تعالى على أنفسهم :{أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا}[الأعراف : ١٧٢]. وهو قول أبي بن كعب[١٣]، وابن جريج[١٤]، ورجّحه الطري[١٥].

والسادس: انهم الخوارج. قاله أبو أمامة[١٦].

---

(١) تفسير السمعاني:٣٤٧/١.
(٢) تفسير الطبري:٩٦/٧.
(٣) تفسير الراغب الأصفهامي:٧٨١/٢-٧٨٣.
(٤) انظر: صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٥) تفسير التستري:٥٠.
(٦) الوجيز:٢٢٦.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٦٠٥):ص٩٥/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٦٠٢):ص٩٤/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٦٠١):ص٩٤/٧.
(١٠) انظر: معاني القرآن: ٤٥٥/١.
(١١) معاني القرآن: ٤٥٥/١.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٥٤):ص٧٢٩/٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٦٠٤):ص٩٤/٧.
(١٤)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٥٧):ص٧٣٠/٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري:٩٥/٧.
(١٦) انظر:تفسير الطبري(٧٦٠٣):ص٩٤/٧.

قوله تعالى: { فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}[آل عمران : ١٠٦]، " أي: فذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم"[١].

الفوائد:

١-وجوب التذكير بهذا اليوم العظيم الذي ينقسم فيه الناس إلى قسمين: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}، فقسم مبيضة وجوههم: وهم اهل الإيمان والطاعة، وقسم مسودة وجوههم: وهم أهل الكفر والعصيان.

٢-إثبات البعث والجزاء، وهو احد أركان الإيمان.

٣-أنه يجمع لهؤلاء الكافرين بين العذاب البدني والنفسي، وذلك بتوبيخهم:{أكفرتم}، وقوله:{فذوقوا العذاب}.

٤-إثبات الأسباب، من قوله:{بما كنتم تعملون}، لأن الباء سببية.

القرآن

{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)} [آل عمران : ١٠٧]

التفسير:

وأما الذين ابيضَّتْ وجوهم بنضرة النعيم، وما بُشِّروا به من الخير، فهم في جنة الله ونعيمها، وهم باقون فيها، لا يخرجون منها أبدًا.

قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ} [آل عمران : ١٠٧]، "أي: وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم "[٢].

قال قتادة:" هؤلاء أهل طاعة الله، والوفاء بعهد الله"[٣].

قال أبي بن كعب:" الذين استقاموا على إيمانهم ذلك وأخصلوا له الدين فبيض وجوههم وأدخلهم في رضوانه وجنته"[٤].

قال الطبري:أي:" ممن ثبتَ على عهد الله وميثاقه ، فلم يبدِّل دينه ، ولم ينقلب على عَقِبيه بعد الإقرار بالتوحيد ، والشهادة لربه بالألوهة ، وأنه لا إله غيره"[٥].

قوله تعالى: { فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران : ١٠٧]، "أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبداً"[٦].

قال الطبري:أي:"فهم في رحمة الله ، يعني : في جنته ونعيمها باقون فيها أبدًا بغير نهاية ولا غاية"[٧].

قال ابن عباس:"{ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }، أي: خالدا أبدا يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدا لا انقطاع له"[٨].

قال سعيد بن جبير:"{ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }، يعني: لا يموتون"[٩].

الفوائد:

١-أن الذين ابيضت وجوهه في الجنة.

٢-أن الرحمة تطلق على غير صفة الله بل على مخلوقاته، والمراد بالرحمة هنا:الجنة.

---

(١)صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٢)صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٦٠):ص٧٣٠/٣.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٥٩):ص٧٣٠/٣.
(٥) تفسير الطبري:٩٧/٧.
(٦)صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٧) تفسير الطبري:٩٧/٧.
(٨)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٦١):ص٧٣١/٣.
(٩)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٦٢):ص٧٣١/٣.

٣-أن أهل الجنة مخلدون فيها، والخلود فيها أبدي لأنه جاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار.

القرآن

{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨)} [آل عمران : ١٠٨]

التفسير:

هذه آيات الله وبراهينه الساطعة، نتلوها ونقصُّها عليك -أيها الرسول- بالصدق واليقين. وما الله بظالم أحدًا من خلقه، ولا بمنقص شيئًا من أعمالهم; لأنه الحاكم العدل الذي لا يجور.

قوله تعالى:{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}[آل عمران : ١٠٨]، أي:" هذه مواعظ الله وعبره وحججه نقرؤها عليك-يا محمد-، بالصدق واليقين"(١).

قال الزمخشري:أي:" تلك آيات الله الواردة في الوعد والوعيد نتلوها عليك ملتبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه"(٢).

قال الواحدي: أي :"القرآن نبيّنها بالصدق"(٣).

قال قتادة:" {آيات الله}: القرآن"(٤).

قال محمد بن إسحاق: "{ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ }: يقول: بالفضل"(٥).

قال الطبري:" يعني بقوله : {تلك آيات الله: هذه الآيات التي ذكر فيها أمورَ المؤمنين من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمور يهود بني إسرائيل وأهل الكتاب ، وما هو فاعل بأهل الوفاء بعهده ، وبالمبدِّلين دينه ، والناقضين عهدَه بعد الإقرار به. ثم أخبر عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه يتلو ذلك عليه بالحق ، وأعلمه أن من عاقبَ من خلقه بما أخبر أنه معاقبه به: من تسويد وجهه ، وتخليده في أليم عذابه وعظيم عقابه ومن جازاه منهم بما جازاه : من تبييض وجهه وتكريمه وتشريف منزلته لديه ، بتخليده في دائم نعيمه ، فبغير ظلم منه لفريق منهم ، بل بحق استوجبوه ، وأعمال لهم سلفت ، جازاهم عليها"(٦).

قوله تعالى:{وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}[آل عمران : ١٠٨]، " أي: وما كان الله ليظلم أحداً من العالمين"(٧).

قال الزجاج:" أي: من أعلم الله أنه يعذبه فباستحقاق يعذبه"(٨).

قال السمرقندي:" يعني لا يعذبهم بغير ذنب"(٩).

قال الماتريدي:" أي: لا يريد أن يظلمهم، وإن شئت قلت: قلت الإرادة صفة لكل فاعل في الحقيقة؛ فكأنه قال: لا يظلمهم، وكيف يظلم؟! وإنما يظلم بنفع تسره إليه النفس، أو ضرر يدفع به، فالغني بذاته متعال عن ذلك"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : ليس بظالم لهم بل هو الحَكَم العدل الذي لا يجور ؛ لأنه القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه"(١١).

---

(١) تفسير الطبري:٩٧/٧.
(٢) الكشاف:٤٠٠/١.
(٣) الوجيز:٢٢٦.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٦٤):ص٧٣١/٣.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٦٥):ص٧٣١/٣.
(٦) تفسير الطبري:٩٧/٧.
(٧) انظر: صفوة التفاسير:٢٠٢.[بتصرف].
(٨) معاني القرآن:٤٥٥/١.
(٩) تفسير السمرقندي:٢٣٧/١.
(١٠) تفسير الماتريدي:٤٥٤/٢.
(١١) تفسير ابن كثير:٩٣/٢-٩٤.

قال الزمخشري:" ونكر ظلما وقال للعالمين على معنى ما يريد شيئا من الظلم لأحد من خلقه"(١).

قال أبو السعود:" تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه فإن تنكيرَ الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارعِ دون نفسِه وتعليقَ الحكمِ بآحاد الجمع المعرف والالتفاتُ إلى الإسم الجليل إشعارا بعلة الحكم بيان لكمال نزاهتة عز وجل عن الظلم بما لا مزيدَ عليهِ أي ما يريد فرداً من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين في وقتٍ من الأوقاتِ فضلاً عن أن يظلِمَهم فإن المضارعَ كما يفيد الاستمرارَ في الإثبات يفيده في النَّفي بحسبِ المقامِ كما أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوتِ وعند دخولِ حرفِ النفي تدل على دوام الانتفاءِ لا على انتفاء الدوامِ وفي سبك الجملةِ نوعُ إيماءٍ إلى التعريض بأن الكفرَةَ هم الظالمون ظلُموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ الخالد كما في قوله تعالى {إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}"(٢).

الفوائد:

١-إن القرآن كلام الله تعالى، لأنه تعالى أضافه إلى نفسه، فقال:{آيات الله}.

٢-أن من كان وكيلا عن الغير، فله حكم ذلك الذي وكله، لأن الله أضاف التلاوة إليه مع ان التالي رسوله.

٣-أن كتاب الله تعالى كله حق ليس فيه باطل، فجميع أحكامه حق، وجميع اخباره حق، وليس فيه تناقض ولا اختلاف.

٤-إثبات رسالة النبي-صلى الله عليه وسلم- إ١ قال:{نتلوها عليك}، فيكون المتلو عليه هذه الآيات قطعا رسولا لله رب العالمين.

٥-إثبات إرادة الله، لقوله:{وما الله يريد ظلما للعالمين}، وهو نفي لإرادة الظلم، إذن فغير الظلم يريده.

٦-أنه إذا انتفت إرادة الظلم انتفى الظلم.

القرآن

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)} [آل عمران : ١٠٩]

التفسير:

ولله ما في السموات وما في الأرض، ملكٌ له وحده خلقًا وتدبيرًا، ومصير جميع الخلائق إليه وحده، فيجازي كلا على قدر استحقاقه.

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [آل عمران : ١٠٩]، أي: ولله تعالى وحده "ملك السموات والأرض خلقاً وتصرفاً وتدبيراً"(٣).

قال أبو السعود:" أي: له تعالى وحده من غير شركة أصلا ما فيهما من المخلوقات الفانية للحصر ملكا وخلقا إحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا وإيراد كلمة ما إما لتغليب غير العقلاء على العقلاء وإما لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهارا لحقارتهم في مقام بيان عظمته تعالى"(٤).

قال القاسمي:" أي: له تعالى وحده، من غير شركة، ما فيهما من المخلوقات ملكا وخلقا إحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا"(٥).

قال ابن عباس:" ثم قال يا محمد لله الخلق كله السموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن، ومن فيهن وما بينهن مما يعلم ومما لا يعلم"(١).

---

(١) الكشاف:٤٠٠/١.
(٢) تفسير أبي السعود:٧٠/٢.
(٣) أيسر التفاسير:١٩١/١.
(٤) تفسير أبي السعود:٧٠/٢.
(٥) محاسن التأويل:٣٨٤/٢.

قوله تعالى:{وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [آل عمران : ١٠٩]، أي:"إلى الله مصير أمر جميع خلقه فيجازي كلا على قدر استحقاقهم منه"(٢).

قال السمرقندي:" يقول: تصير أمور العباد إلى الله في الآخرة"(٣).

قال أبو السعود:" أي إلى حكمه وقضائه لا إلى غيره شركة أو استقلالا ترجع أمور الخلق، فيجازي كلا منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل في ذلك لأحد قط فالجملة مقررة لمضمون ما ورد في جزاء الفريقين وقيل هي معطوفة على ما قبلها مقررة لمضمونه فإن كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعي إرادة الخير بهم"(٤).

الفوائد:

١- عموم ملك الله تعالى، لقوله:{ولله ملك السماوات والأرض}، و{ما}، موصولة تفيد العموم.

٢- انفراد ملك الله تعالى بلك، أي أن الله وحده هو المالك لها، وهذا يؤخذ من تقديم الخبر الذي أفاد الحصر.

٣- إثبات السماوات والأرض، وبيان عظمة الله تعالى بخلق هذه المخلوقات العزيمة.

٤- أن مرجع الأمور إلى الله وحده.

٥- بيان سعة الله تعالى إذ كانت جميع الامور ترجع إليه الدقيقة والجليلة.

القرآن

{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)} [آل عمران : ١١٠]

التفسير:

أنتم - يا أمة محمد - خير الأمم وأنفع الناس للناس، تأمرون بالمعروف، وهو ما عُرف حسنه شرعًا وعقلا وتنهون عن المنكر، وهو ما عُرف قبحه شرعًا وعقلا وتصدقون بالله تصديقًا جازمًا يؤيده العمل. ولو آمن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عند الله كما آمنتم، لكان خيرا لهم في الدنيا والآخرة، منهم المؤمنون المصدقون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم العاملون بها، وهم قليل، وأكثرهم الخارجون عن دين الله وطاعته.

سبب النزول:

نقل الثعلبي عن عكرمة ومقاتل: "نزلت في ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أن ابن الصيف ووهب بن يهود اليهوديين قالا لهم: إن ديننا خير مما تدعوننا إليه ونحن خير وأفضل منكم. فأنزل الله تعالى هذه الآية"(٥). ونقله الطبري عن عكرمة(٦).

قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس}[آل عمران : ١١٠]، أي: "أنتم يا أمة محمد خير الأمم أخرجت لأجل الناس"(٧).

قال مجاهد:" أنتم خير الناس للناس"(٨).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٦٦):ص٧٣١/٣.
(٢) تفسير الطبري:١٠٠/٧.
(٣) تفسير السمرقندي:١٣٨/١.
(٤) تفسير أبي السعود:٧٠/٢.
(٥) تفسير الثعلبي:١٢٦/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٦٠٩):ص١٠١/٧.
(٧) صفوة التفاسير:٢٠٢.[بتصرف].
(٨) تفسير مجاهد:٢٥٧.

قال مقاتل بن سليمان: "يعني خير الناس للناس في زمانكم كما فضل بني اسرائيل في زمانهم"[١].

قال الشافعي:" ففضيلتهم بكينونتهم من أمته دون أمم الأنبياء قبله"[٢].

وفيمن أريد بهذه الآية، أقوال:

أحدها: أنهم أهل بدر[٣].

والثاني: أنهم المهاجرون. قاله ابن عباس[٤]، وقتادة[٥]، والسدي[٦]، عكرمة[٧]، والضحاك[٨].

والثالث: أنهم الصحابة. قاله الضحاك[٩]، وهو معنى قول عمر بن الخطاب[١٠].

والرابع: أنهم خير أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. قاله أبو جعفر[١١].

والخامس: أنهم جمع المؤمنين من هذه الأمة[١٢].

قال أبو السعود:" وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم لاأوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلة في الحكم"[١٣].

قال ابن كثير:" والصحيح أن هذه الآية عامةٌ في جميع الأمة ، كل قَرْن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بُعثَ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذين يَلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال في الآية الأخرى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } أي : خيارا { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} الآية، وفي مسند الإمام أحمد ، وجامع الترمذي ، وسنن ابن ماجة ، ومستدرك الحاكم ، من رواية حكيم بن مُعَاوية بن حَيْدَة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أنْتُم خَيْرُهَا ، وأنْتُمْ أكْرَمُ عَلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ»[١٤]"[١٥].

وفي قوله تعالى: {كُنْتُمْ}[آل عمران : ١١٠]، ، قولان:

أحدهما: أنها على أصلها، والمراد بها الماضي، ثم فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أن معناه: كنتم في اللوح المحفوظ.

والثاني: أن معناه: خلقتم وجدتم. ذكرهما الطبري[١٦] وغيره[١٧].

والثالث: أن المعنى: كنتم مذ كنتم، ذكره ابن الأنباري[١٨].

والثاني: أن معنى كنتم: أنتم، كقوله تعالى: { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ٩٦] . وهذا قول الكلبي[١٩]، وذكره الفراء[١]، والزجاج[٢]، والثعلبي[٣].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٩٥.
(٢) تفسير الإمام الشافعي:١/٤٩١.
(٣) انظر: زاد المسير:١/٣١٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٦٠٧):ص٧/١٠١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٦١٢):ص٧/١٠٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٦٠٨):ص٧/١٠١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٦٠٩):ص٧/١٠١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٦١٣):ص٧/١٠٢.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٣/١٢٦.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٦٩)، و(٣٩٧٠):ص٣/٧٣٢.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٧٤):ص٣/٧٣٣.
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي:٣/١٢٦، وزاد المسير:١/٣١٤.
(١٣) تفسير أبي السعود:٢/٧١.
(١٤)المسند (٤/٤٤٧) وسنن الترمذي برقم (٣٠٠١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٨٧) والمستدرك (٤/٨٤).
(١٥) تفسير ابن كثير:٢/٩٤.
(١٦) انظر:تفسير الطبري:٧/١٠٦.
(١٧)انظر: زاد المسير:١/٣١٤.
(١٨)انظر: زاد المسير:١/٣١٤.
(١٩) أخرجه ابن المنذر(٧٩٦):ص١/٣٣٠.

قال ابن قتيبة: وقد "يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم، أو مستقبل: كقوله: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠] ، أي أنتم خير أمّة، وقوله: {وَإِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [المائدة: ١١٦] ، أي: وإذ يقول الله يوم القيامة، يدلك على ذلك قوله سبحانه: {هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [المائدة: ١١٩]، وقوله: {أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١] ، يريد يوم القيامة. أي سيأتي قريبا فلا تستعجلوه، وقوله: {قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم: ٢٩] ، أي من هو صبيّ في المهد، وكذلك قوله: {وَكانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً }[النساء: ١٣٤]، وكذلك قوله: {وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً }[الأحزاب: ٢٧] ،إنما هو: الله سميع بصير، والله على كل شيء قدير، وقوله: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ} [فاطر: ٩] ، أي فنسوقه"[٤].

وفي قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، قولان:

أحدهما: أن معناه: كنتم خير الناس للناس. قاله أبو هريرة[٥]، وابن عباس[٦]، وعكرمة[٧]،ومجاهد[٨]، والربيع بن أنس[٩]، وعطاء[١٠]، وعطية[١١].

والثاني: أن معناه: كنتم خير الأمم التي أخرجت[١٢].

قوله تعالى:{تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}[آل عمران : ١١٠]، أي:" تأمرون بالإيمان بالله ورسوله ، والعمل بشرائعه "[١٣].

قال ابن عباس:" تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، والا قرار بما أنزل الله ويقاتلونهم عليه، ولا إله إلا لله أعظم المعروف"[١٤].

وروي عن أبي العالية قال: "التوحيد"[١٥].

قوله تعالى:{ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}[آل عمران : ١١٠]، أي:" وتنهون عن الشرك بالله وتكذيب رسوله، وعن العمل بما نهى عنه"[١٦].

قال ابن عباس:" هو التكذيب وهو أنكر المنكر"[١٧].

وفي قوله تعالى:{تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ }[آل عمران : ١١٠]، قولان:

أحدهما: أنه شرط في الخيرية، وهذا المعنى مروي عن عمر بن الخطاب، ومجاهد، والزجاج. والثاني: أنه ثناء من الله عليهم، قاله الربيع بن أنس[١٨].

قوله تعالى:{وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}[آل عمران : ١١٠]، أي:"وتصدّقون بالله ، فتخلصون له التوحيد والعبادة"[١].

---

(١) انظر: زاد المسير:٣١٤/١.
(٢)انظر: زاد المسير:٣١٤/١.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي:١٢٦/٣.
(٤) تأويل مشكل القرآن:١٨٠، وانظر: زاد المسير:٣١٤/١-٣١٥.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٧١):ص٧٣٢/٣.
(٦)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٧٢):ص٧٣٣/٣.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٧٢):ص٧٣٢/٣.
(٨)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٧٢):ص٧٣٣/٣.
(٩)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٧٢):ص٧٣٣/٣.
(١٠)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٧٢):ص٧٣٣/٣.
(١١)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٧٢):ص٧٣٣/٣.
(١٢) انظر: زاد المسير:٣١٤/١.
(١٣) تفسير الطبري:١٠٥/٧.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٧٧):ص٧٣٣/٣.
(١٥)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٧٧):ص٧٣٣/٣.
(١٦) تفسير الطبري:١٠٥/٧.
(١٧)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٧٨):ص٧٣٤/٣.
(١٨) انظر: زاد المسير:٣١٤/١.

قال سعيد بن جبير:" يعني: تصدقون توحيد الله"[٢].

قال المراغي:" وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أوّلا، وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين كانوا معه وقت التنزيل، فهم الذين كانوا أعداء، فألف بين قلوبهم، واعتصموا بحبل الله جميعا، وكانوا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يخاف ضعيفهم قويّهم، ولا يهاب صغيرهم كبيرهم، وملك الإيمان قلوبهم ومشاعرهم، فكانوا مسخرين لأغراضه فى جميع أحوالهم، وهذا الإيمان هو الذي قال الله فى أهله :{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} وقال فيهم أيضا {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما تركتهما إلا باستبداد الملوك والأمراء من بنى أمية ومن حذا حذوهم، وأول من اجترأ منهم على إعلان هذه المعصية عبد الملك بن مروان حين قال على المنبر: من قال لى اتق الله ضربت عنقه وما زال الشر يزداد، والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل مالها من مزية فى دينها ودنياها بعد الإيمان، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"[٣].

قوله تعالى: { وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}[آل عمران : ١١٠]، "أي: ولو آمن أهل الكتاب بما أنزل على محمد وصدّقوا بما جاء به، لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة"[٤].

قال النيسابوري:" يعني علماء السوء"[٥].

قوله تعالى: { مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران : ١١٠]، " أي: منهم فئة قليلة مؤمنة"[٦].

قال ابن الجوزي: "{منهم المؤمنون}: من أسلم، كعبد الله بن سلام وأصحابه"[٧].

قال قتادة:" استثنى الله منهم ثلاثة كانوا على الهدى والحق"[٨].

قوله تعالى: { وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[آل عمران : ١١٠]، أي: والكثرة الكثيرة منهم خارجة عن طاعة الله"[٩].

قال ابن الجوزي:" يعني: الكافرين، وهم الذين لم يسلموا"[١٠].

قال قتادة:" ذم الله أكثر الناس"[١١].

قال سعيد بن جبير:" الفاسقون يعني هم العاصون"[١٢].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني العاصين يعني اليهود"[١٣].

قال الزجاج:" والفاسق الذي خرج عن أمر الله"[١٤].

الفوائد:

١-أن هذه الأمة خير الأمم، لقوله{كنتم خير أمة أخرجت للناس}، فـ"الناس" عامة تشمل جميع الأمم.

---

(١) تفسير الطبري:١٠٥/٧.
(٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٧٩):ص٧٣٤/٣.
(٣) تفسير المراغي:٢٩/٤.
(٤) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٥) تفسير النيسابوري:٢٣٦/٢.
(٦) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٧) زاد المسير:٣١٥/١.
(٨)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٨١):ص٧٣٤/٣.
(٩) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(١٠) زاد المسير:٣١٥/١.
(١١)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٨٢):ص٧٣٤/٣.
(١٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٨٣):ص٧٣٤/٣.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٥/١.
(١٤) معاني القرآن:٤٥٦/١.

٢-أن هذه الأمة فضلت غيرها بالخيرية لوصف ليس في غيرها، وهي أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.
٣-أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن ترتب الخيرية عليه.
٤-التنديد بأهل الكتاب إذ كفروا بالرسول-صلى الله عليه وسلم- مع أنهم يدّعون أنهم يريدون الخير.
٥-أن من أهل الكتاب من هو مؤمن ومنهم من هو فاسق، وهم الاكثرون"أل" في قوله{الممنون} للعهد الذهني، يعني الإيمان المعروف عندكم، وهو الإيمان بمحمد-صلى الله عليه وسلم-.

القرآن

{لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)} [آل عمران : ١١١]

التفسير:

لن يضركم هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب إلا ما يؤذي أسماعكم من ألفاظ الشرك والكفر وغير ذلك، وإن يقاتلوكم يُهْزَموا، ويهربوا مولّين الأدبار، ثم لا ينصرون عليكم بأي حال.

سبب النزول:

قال مقاتل بن سليمان:" وذلك أن رؤساء اليهود كعب بن مالك، وشعبة، وبحري، ونعمان، وأبا ياسر، وأبا نافع، وكنانة بن أبي الحقيق، وابن صوريا. عمدوا إلى مؤمنيهم فآذوهم لإسلامهم وهم عبد الله بن سلام وأصحابه. فأنزل الله- عز وجل- {لن يضروكم}"[١].

قوله تعالى: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى} [آل عمران : ١١١]، أي:" لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذى باللسان"[٢].

قال الثعلبي:" يعني وعيدا وطعنا. وقيل: دعاء إلى الضلالة. وقيل: كلمة الكفر إن يسمعوها منهم يتأذوا بها"[٣].

قال السمرقندي:" يعني باللسان بالسب وغيره، وليس لهم قوة القتال"[٤].

قال قتادة:" لن يضروكم إلا أذى تسمعونه منهم"[٥].

قال ابن جريج:" إشراكهم في عُزير وعيسى والصَّليب"[٦].

قال الحسن:" تسمعون منهم كذبًا على الله ، يدعونكم إلى الضلالة"[٧].

قال الزجاج:" أي يؤذونكم بالبهت والتحريف، فأما العاقبة فتكون للمؤمنين"[٨].

قال الطبري:أي:" لن يضركم ، يا أهل الإيمان بالله ورسوله ، هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب بكفرهم وتكذيبهم نبيَّكم محمدًا صلى الله عليه وسلم شيئا، ولكنهم يؤذونكم بشركهم ، وإسماعكم كفرهم ، وقولهم في عيسى وأمه وعزير ، ودعائهم إياكم إلى الضلالة ، ولن يضروكم بذلك"[٩].

---

(١)تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٩٥/١.
(٢) تفسير الثعلبي:١٢٩/٣.
(٣) تفسير الثعلبي:١٢٩/٣.
(٤) تفسير السمرقندي: ١٣٨/١.
(٥) أخرجه الطبري(٧٦٢٦):ص١٠٨/٧.
(٦) أخرجه الطبري(٧٦٢٧):ص١٠٨/٧-١٠٩.
(٧) أخرجه الطبري٧٦٢٩):ص١٠٩/٧.
(٨) معاني القرآن: ٤٥٧/١.
(٩) تفسير الطبري:١٠٨/٧.

قال الماتريدي:" فيه بشارة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين، بالأمن لهم عن أذى المشركين وضررهم، إلا أذى باللسان"[١].

قوله تعالى:{وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ} [آل عمران : ١١١]،أي:" وإن يقاتلكم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى يهزَموا عنكم ، فيولوكم أدبارهم"[٢].

قال الزجاج:" يعني به أهل الكتاب؛ وأعلمهم في هذه الآية أنهم إن قاتلوهم ولوهم الأدبار وسلبوا النصر وكذلك كان أمر إليهود"[٣].

قال السمرقندي:" يعني إن أعانوكم في القتال، فلا منفعة لكم منهم لأنهم {يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ} وينهزمون، ويقال: إن خرجوا إلى قتالكم، وأرادوا قتالكم يولون الأدبار، أي ينهزمون منكم"[٤].

قوله تعالى:{ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران : ١١١]، أي:" ثم لا ينصرهم الله"[٥].

قال البيضاوي:أي:" ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفي إضرارهم سوى ما يكون بقول وقرر ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدبرة عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان"[٦].

قال السمرقندي: أي:" لا يُمْنَعون من الهزيمة، فكأنه يحكي ضعفهم عن القتال، يقول: لو كانوا عليكم لا يضرونكم، ولو كانوا معكم لا ينفعونكم، وهذا حالهم إلى يوم القيامة وَهُمْ اليهود ليس لهم شوكة، ولا قوة القتال في موضع من المواضع"[٧].

وقرئ: {لا ينصروا}، عطفا على يولوا على أن ثم للتراخي في الرتبة، فيكون عدم النصر مقيدا بقتالهم[٨].

قال ابن الجوزي:" قال جمهور المفسرين: معنى الكلام: لن يضروكم ضرا باقيا في جسد أو مال، إنما هو شيء يسير سريع الزوال، وتثابون عليه. وهذا لا ينافي الأمر بقتالهم فالآية محكمة على هذا، ويؤكده أنها خبر، والأخبار لا تنسخ.

وقال السدي: الإشارة إلى أهل الكتاب وذلك قبل أن يؤمر بقتالهم فنسخت بقوله: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر}[٩]، والأول أصح"[١٠].

الفوائد:

١-أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يضروا المسلمين، وهذا الضمان الإلهي لما كان المؤمنون على الإيمان حقا.

٢-أن هؤلاء لاينصرهم الله على المؤمنين، وهو أيضا مشروط بأن نتمسك بديننا عقيدة وقولا وعملا.

القرآن

---

(١) تفسير الماتريدي:٤٥٦/٢.
(٢) تفسير الطبري:١٠٩/٧.
(٣) معاني القرآن:٤٥٧/١.
(٤) تفسير السمرقندي:٢٣٨/١.
(٥) تفسير الطبري:١٠٩/٧.
(٦) تفسير البيضاوي:٣٣/٢.
(٧) تفسير السمرقندي:٢٣٨/١.
(٨) انظر: تفسير البيضاوي:٣٣/٢.
(٩)الآية (٢٦) من سورة التوبة.
(١٠)نواسخ القرآن:٣٣٣.وقد ذكر دعوى النسخ في هذه الآية هبة الله بن سلامة في ناسخه ص: ٢٩، ولم يتعرض له غيره من أصحاب أمهات كتب النسخ كما لم يذكر النسخ أحد من الطبري وابن الجوزي، وابن كثير في تفاسيرهم.

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)} [آل عمران : ١١٢]

التفسير:

جعل الله الهوان والصغار أمرًا لازمًا لا يفارق اليهود، فهم أذلاء محتقرون أينما وُجِدوا، إلا بعهد من الله وعهد من الناس يأمنون به على أنفسهم وأموالهم، وذلك هو عقد الذمة لهم وإلزامهم أحكام الإسلام، ورجعوا بغضب من الله مستحقين له، وضُرِبت عليهم الذلّة والمسكنة، فلا ترى اليهوديَّ إلا وعليه الخوف والرعب من أهل الإيمان; ذلك الذي جعله الله عليهم بسبب كفرهم بالله، وتجاوزهم حدوده، وقتْلهم الأنبياء ظلمًا واعتداء، وما جرَّأهم على هذا إلا ارتكابهم للمعاصي، وتجاوزهم حدود الله.

قوله تعالى:{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا}[آل عمران:١١٢]، "أي : ألزمهم الله الذلة والصَّغَار أينما كانوا، فلا يأمنون"[١].

قال الطبري: أي: " ألزم اليهود المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم الذلة أينما كانوا من الأرض ، وبأي مكان كانوا من بقاعها ، من بلاد المسلمين والمشركين"[٢].

قال الحسن:" أذلهم الله فلا مَنْعة لهم ، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين"[٣].

وعن الحسن أيضا:" أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية"[٤].

قال ابن عباس:" هم أصحاب القبالات كفروا بالله العظيم"[٥].

قوله تعالى:{إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاس}[آل عمران:١١٢]، " أي: إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين"[٦].

قال ابن كثير:" أي: إلا بذمة من الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة، و {وَحَبْلٍ مِنَ النَّاس }: أي : أمان منهم ولهم ، كما في المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أمَّنَه واحد من المسلمين ولو امرأة ، وكذا عَبْد ، على أحد قولي العلماء"[٧].

قال قتادة:" إلا بعهد من الله وعهد من الناس"[٨]. وروي عن ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، والسدي[١١]، والضحاك[١٢]، وعكرمة[١٣]، وابن زيد[١٤]، مثل ذلك.

قال الطبري:" وأما {الحبل} الذي ذكره الله في هذا الموضع ، فإنه السبب الذي يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم ، من عهد وأمان تقدم لهم عقده قبل أن يُثقفوا في بلاد الإسلام"[١٥].

قال الزجاج:" والحبل العهد، فأعلم الله أنهم بعد عز كانوا فيه يبلغون في الذلة ما لا

---

(١) تفسير ابن كثير:١٠٤/٢.
(٢) تفسير الطبري:١١٠/٧.
(٣) أخرجه الطبري(٧٦٣١):ص١١١/٧.
(٤)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٨٧):ص٧٣٥/٣.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٨٦):ص٧٣٥/٣.
(٦) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٧) تفسير ابن كثير:١٠٤/٢.
(٨) أخرجه الطبري(٧٦٣٣):ص١١١/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٦٣٦):ص١١٢/٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٦٣٨٢):ص١١١/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٦٣٦):ص١١٢/٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٦٤١):ص١١٣/٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٦٣٢٥):ص١١١/٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٦٤٠):ص١١٢/٧.
(١٥) تفسير الطبري:١١١/٧.

يبلغه أهل مكة، وكانوا ذوي منعة ويسار، فأعلم الله أنهم يذلون أبدا إلا أن يعزوا بالذمة التي يعطونها في الإسلام. وما بعد الاستثناء، ليس من الأول أنهم أذلاء إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه"[١].

أخرج الطبري عن ابن زيد:" في قوله : {أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس}، قال :إلا بعهد ، وهم يهود. قال : والحبل العهد. قال : وذلك قول أبي الهيثم بن التَّيِّهان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتته الأنصار في العقبة:أيها الرجل ، إنا قاطعون فيك حبالا بيننا وبين الناس، يقول : عهودًا ، قال : واليهود لا يأمنون في أرضٍ من أرض الله إلا بهذا الحبل الذي قال الله عز وجل. وقرأ : {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}[سورة آل عمران : ٥٥] ، قال : فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود في شرق ولا غرب ، هم في البلدان كلها مستذلّون ، قال الله: {وَقَطَّعْنَاهُم فِي الأَرْضِ أُمَمًا }[سورة الأعراف : ١٦٨] ، يهود"[٢].

قوله تعالى:{وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}[آل عمران:١١٢]،" أي: رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله"[٣].

قال الربيع بن أنس:" فحدث عليهم من الله غضب"[٤].

قال الطبري:أي:" وتحمَّلوا غضب الله فانصرفوا به مستحقِّيه"[٥].

قال السمرقندي:" استوجبوا الغضب من الله تعالى. ويقال: رجعوا بغضب من الله"[٦].

قال ابن كثير: " أي : أُلزموا فالتزَمُوا بغضب من الله ، وهم يستحقونه"[٧].

قال الثعلبي:" ذمه لهم وتوعده إياهم في الدنيا، وإنزال العقوبة عليهم في العقبى، وكذلك بغضه وسخطه"[٨].

وفي تفسير:{بَاءُوا}[آل عمران:١١٢]، ثلاثة أقوال:

أحدها:أن معناه: "استوجبوا". قاله سعيد بن جبير[٩]. وروي عن الضحاك نحو ذلك[١٠].

والثاني: أي: رجعوا". وهذا قول الكسائي[١١].

والثالث: أن المعنى: أنهم احتملوا وأقروا به، ومنه الدعاء المأثور: "أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت". وهذا قول أبي عبيدة[١٢].

قوله تعالى:{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ}[آل عمران:١١٢]،" أي: لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم"[١٣].

قال ابن كثير:"أي:أُلزموا المسكنة قدرًا وشَرْعًا"[١٤].

قال الطبري:" ومعنى {المسكنة}: ذل الفاقة والفقر وخُشوعهما"[١٥].

---

(١) معاني القرآن:٤٥٧/١.
(٢) أخرجه الطبري(٧٦٤٠):ص١١٢/٧-١١٣.
(٣) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٤)أخرجه ابن أبي حاتم(٣٩٩٣):ص٧٣٦/٣
(٥) تفسير الطبري:١١٦/٧.
(٦) تفسير السمرقندي:٢٣٩/١.
(٧) تفسير ابن كثير:١٠٤/٢.
(٨)تفسير الثعلبي:٢٠٦/١.
(٩)انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٩٢):ص٧٣٦/٣
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٩٢):ص٧٣٦/٣.
(١١) انظر: تفسير الثعلبي:٢٠٦/١.
(١٢) انظر:تفسير الثعلبي:٢٠٦/١.
(١٣) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(١٤) تفسير ابن كثير:١٠٤/٢.
(١٥) تفسير الطبري:١١٦/٧.

قال الثعلبي:أي:" جعلت عليهم وألزموا الذلة الذل والهوان، و{المسكنة}:يعني ذي فقر، ومنه سمي الفقير مسكينا لسكونه وقلة حركاته. يقال: ما في بني فلان أسكن من فلان، أي أفقر"[١].

وفي تفسير:{ الْمَسْكَنَةُ}[آل عمران:١١٢]، قولان:

أحدهما: أنها الفاقة. قاله أبو العالية[٢]، وروي عن السدي والربيع بن أنس نحو ذلك[٣].

والثاني: انها الخراج(الجزية). وهذا قول عطية[٤]، والضحاك[٥]. ويدل عليه قوله: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة : ٢٩].

قال الكلبي:" قال الكلبي: فترى الرجل منهم غنياً، وعليه من البؤس والفقر والمسكنة"[٦].

قال السمرقندي:"ويقال: إنهم يظهرون من أنفسهم الفقر، لكيلا تضاعف عليهم الجزية"[٧].

قوله تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ}[آل عمران:١١٢]، " أي: ذلك الذل والصغار، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً"[٨].

قال ابن كثير:" أي: وإنما حملهم على ذلك الكِبْر والبَغْي وَالْحسَد ، فأعْقَبَهم ذلك الذّلة والصَّغَار والمسكنة أبدا ، متصلا بذلة الآخرة"[٩].

قال الطبري:أي:" بدلا مما كانوا يجحدون بآيات الله وأدلته وحججه ، ويقتلون أنبياءه بغير حق ظلمًا واعتداء"[١٠].

قال الزجاج:أي:" أمرهم ذلك وحقهم ذلك بكفرهم، فأعلم الله أنهم جعلت عقوبتهم هذه العقوبة الغليظة في الدنيا والآخرة لتغليظ ما ركبوه"[١١].

قال الثعلبي:" {يكفرون بآيات الله}، يعني: بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وإنه الرحيم في التوراة والإنجيل والفرقان"[١٢].

قال ابن مسعود:" كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم تقوم بقلهم من آخر النهار"[١٣].

قال الثعلبي:"ومعنى:{ويقتلون الأنبياء بعير الحق}: مثل أشعيا وزكريا ويحيى وسائر من قتل اليهود من الأنبياء، وفي الخبر: إن اليهود قتلوا سبعين نبيا من أول النهار [في ساعة واحدة، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار في ذلك اليوم"[١٤].

وقال السمرقندي:المعنى: " ذَلِكَ الذي يصيبهم بسبب كفرهم بمحمد-صلى الله عليه وسلم- وبالقرآن، {وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ}، يعني: رضوا بما فعل آباؤهم، فكأنهم قتلوهم "[١٥].

---

(١) تفسير الثعلبي:٢٠٦/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٩٥):ص٧٣٦/٣.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٩٥):ص٧٣٦/٣.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٩٦):ص٧٣٦/٣.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩٩٦):ص٧٣٦/٣.
(٦) تفسير السمرقندي:٢٣٩/١.
(٧) تفسير السمرقندي:٢٣٩/١.
(٨) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٩) تفسير ابن كثير:١٠٤/٢.
(١٠) تفسير الطبري:١١٧/٧.
(١١) معاني القرآن:٤٥٧/١.
(١٢)تفسير الثعلبي:٢٠٧/١.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢):ص١٢٦/١.
(١٤) تفسير الثعلبي:٢٠٧/١.
(١٥) تفسير السمرقندي:٢٣٩/١.

وقوله:{ويقتلون}، قراءة العامة بالتخفيف من "القتل"، وقرأ السلمي بالتشديد من التقتيل(١).

وقوله:{النبيين}، القراءة المشهورة بالتشديد من غيرهم، وتفرد نافع بهمز النبيئين، [ومده] فمن همز معناه: المخبر، من قول العرب: أنبأ النبي إنباءا، ونبأ ينبئ تنبئة بمعنى واحد، فقال الله عز وجل: {فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا}[التحريم:٣] (٢).

ومن حذف الهمز فله وجهان(٣):

أحدهما: إنه أراد الهمز فحذفه طلبا للخفة لكثرة استعمالها.

والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الرفيع مأخوذ من النبؤة وهي المكان المرتفع، يقال: نبيء الشيء عن المكان، أي ارتفع(٤) .

قال الشاعر(٥):

إن جنبي عن الفراش لناب ... كتجافي الأسر فوق الظراب

وفيه وجه آخر: قال الكسائي: النبي بغير همز: الطريق، فسمي الرسول نبيا، وإنما دقائق الحصا لأنه طريق إلى الهدى(٦)، ومنه قول الشاعر(٧):

لأصبح رتما دقاق الحصى ... مكان النبي من الكاثب

قوله تعالى:{ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[آل عمران:١١٢]، أي: إنما حَمَلهم على الكفر بآيات الله وقتْل رُسُل الله" بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى"(٨).

قال الطبري:أي:" فعلنا بهم ذلك بكفرهم ، وقتلهم الأنبياء ، ومعصيتهم ربَّهم ، واعتدائهم أمرَ ربهم"(٩).

قال السمرقندي:استحقوا ذلك"الغضب، بأفعالهم، كلما ذكر الله عقوبة قوم في كتابه بيّن المعنى الذي يعاقبهم لذلك، لكيلا يظن أحد أنه عذّبهم بغير جُرْم"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : إنما حَمَلهم على الكفر بآيات الله وقتْل رُسُل الله وقُيِّضوا لذلك أنّهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ، عز وجل ، والغشيان لمعاصي الله ، والاعتداء في شرع الله"(١١).

قال قتادة:" اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بهما هلك من هلك قبلك من الناس"(١٢).

الفوائد:

١- أن هؤلاء الذين ينتسبون للكتاب ولاسيما اليهود منهم، قد ضربت عليهم الذلة، فهم أرذل الناس.

٢- أن هؤلاء قد يكون لهم عزة بحبل من الله وحبل من الناس، وهو إما الاسلام او الذمة، وإن كان هو الاسلام فإن الاستثناء منقطع، لأنهم إذا أسلموا لم يكونوا من أهل الكتاب، بل صاروا من المسلمين، وعلى معنى الذمة، فإن الاستثاء متصل.

٣- أن الناس قد ينصر بعضهم بعضا بالباطل، يتضح من قوله:{وحبل من الناس}.

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي:٢٠٧/١.
(٢) انظر: تفسير الثعلبي:٢٠٧/١.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي:٢٠٧/١، وتفسير القرطبي:٤٣١/١.
(٤) انظر: كتاب العين:١٩٠/٦، والصحاح:٢٥٠/٦.
(٥)انظر: كتاب العين:١٩٠/٦.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٢٠٧/١.
(٧)انظر: كتاب العين:١٩٠/٦، والصحاح:٢٥٠/٦.
(٨) صفوة التفاسير:٢٠٢.
(٩) تفسير الطبري:١١٧/٧.
(١٠) تفسير السمرقندي:٢٣٩/١.
(١١) تفسير ابن كثير:١٠٤/٢.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٣):ص١٢٦/١.

٤- إثبات الغضب لله تعالى، ومذهب أهل السنة والجماعة في مثل هذه الصفة إثباتها على الوجه اللائق.
٥- إثبات العلة، أي أن أفعال الله تعالى معللة، أي مقرونة بالحكمة، لقوله:{ذلك بأنهم}.
٦- أن الكفر بآيات الله سبب للعقوبات.
٧- عتو بني اسرائيل بالكفر وقتل الأنبياء والمعصية والعدوان.

القرآن
{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)} [آل عمران : ١١٣]
ليس أهل الكتاب متساوين: فمنهم جماعة مستقيمة على أمر الله مؤمنة برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يقومون الليل مرتلين آيات القرآن الكريم، مقبلين على مناجاة الله في صلواتهم.
في سبب نزول الآية أقوال:
أحدها: أخرج الطبري عن ابن عباس:" لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سَعْية ، وأسَيْد بن سعية ، وأسد بن عُبيد ، ومن أسلم من يهود معهم ، فآمنوا وصدَّقوا ورغبوا في الإسلام ، ورسخوا فيه، قالت : أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا أشرارنا! ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم ، وذهبوا إلى غيره ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم :{ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله} إلى قوله : {وأولئك من الصالحين} "[(١)].
الثاني:وقال مقاتل بن سليمان:" وذلك أن اليهود قالوا لابن سلام وأصحابه: لقد خسرتم حين استبدلتم بدينكم دينا غيره وقد عاهدتم الله بعهد ألا تدينوا إلا بدينكم، فقال الله- عز وجل- :{ليسوا سواء}"[(٢)].
الثالث: أخرج الطبري عن عبد الله بن مسعود قال : "احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، كان عند بعض أهله ونسائه : فلم يأتنا لصلاة العشاء حتى ذهب ليلٌ ، فجاء ومنا المصلي ومنا المضطجع ، فبشَّرنا وقال:إنه لا يصلي هذه الصلاة أحدٌ من أهل الكتاب! فأنزل الله : {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون}"[(٣)].
الرابع: وأخرج الطبري عن منصور، قال:" بلغني أنها نزلت : {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون}، فيما بين المغرب والعشاء"[(٤)].
الخامس: نقل الثعلبي:" عن عطاء في قوله: {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة}. الآية. تريد أربعين رجلا من أهل نجران من العرب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى -عليه السلام- وصدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكان من الأنصار منهم عدة قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، منهم أسعد ابن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس هرمة بن أنس، وكانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقرون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله عز وجل بالنبي صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه"[(٥)].
قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً} [آل عمران : ١١٣]، " أي: ليس أهل الكتاب مستوين في المساوئ"[(٦)].

---

(١) تفسير الطبري(٧٦٤٤):ص٧/١٢٠-١٢١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٢٩٦.
(٣) تفسير الطبري(٧٦٦١):ص٧/١٢٧.
(٤) تفسير الطبري(٧٦٦٣):ص٧/١٢٩.
(٥) تفسير الثعلبي:٣/١٢٣.
(٦) صفوة التفاسير:٢٠٤.

قال مقاتل:" يقول ليس كفار اليهود، والذين في الضلالة بمنزلة ابن سلام وأصحابه الذين هم على دين الله"[١].

قال ابن كثير:" أي : لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا"[٢].

قال الماتريدي:" أي: لا سواء بين من آمن منهم -يعني: من أهل الكتاب- ومن لم يؤمن منهم؛ لأن منهم من قد آمن"[٣].

وفي تفسير قوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً} [آل عمران : ١١٣]، وجهان:

أحدهما: أن المعنى: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم". قاله ابن مسعود[٤]، والسدي[٥].

الثاني: أن المعنى: أن أهل الكتاب ليسوا متساوين في الصلاح والفاسد والخير والشر، وهذا معنى قول ابن عباس[٦]، وقتادة[٧]، وابن جريج[٨].

قوله تعالى: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ } [آل عمران : ١١٣]،" أي: منهم طائفة مستقيمة على دين الله"[٩].

قال ابن كثير:" أي : قائمة بأمر الله ، مطيعة لشَرْعه مُتَّبعة نبيَّ الله، فهي: { قَائِمَةٌ } يعني مستقيمة"[١٠].

وفي تفسير قوله تعالى:{أمةٌ قَائِمَةٌ}} [آل عمران : ١١٣]، أقوال:

أحدها : أنها أمة مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام، وهو معنى قول الحسن[١١]، ومجاهد[١٢]، وابن جريج[١٣]، ومقاتل بن سليمان[١٤].

الثاني : أن المعنى: أنها أمة مطيعة، قائمة بطاعة الله ، وهو قول السدي [١٥].

الثالث : أنها قائمة على كتاب الله وما أمر به فيه، وهو قول ابن عباس[١٦]، وقتادة [١٧]، والربيع[١٨].

الرابع: أنها قائمة في الصلاة، وعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل كقوله تعالى: {والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما} [الفرقان: ٦٤] . وقوله:{إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل} [المزمل: ٢٠] . وقوله: {قم الليل} [المزمل: ٢] . وقوله: {وقوموا لله قانتين} [البقرة: ٢٣٨][١٩] .

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٦/١.

(٢) تفسير ابن كثير:١٠٥/٢.

(٣) تفسير الماتريدي:٤٥٩/٢.

(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٤٠٠٠):ص٧٣٧/٣.

(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٤٠٠١):ص٧٣٧/٣.

(٦)انظر: تفسير الطبري(٧٦٤٥):ص١٢١/٧.

(٧)انظر: تفسير الطبري(٧٦٤٦):ص١٢١/٧.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٦٤٧):ص١٢١/٧.

(٩) صفوة التفاسير:٢٠٤.

(١٠) تفسير ابن كثير:١٠٥/٢.

(١١) انظر: النكت والعيون:٤١٧/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥٠):ص١٢٣/٧.

(١٣) انظر: النكت والعيون:٤١٧/١.

(١٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٦/١.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥٤):ص١٢٣/٧.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥٣):ص١٢٣/٧.

(١٧) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥١):ص١٢٣/٧.

(١٨) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥٢):ص١٢٣/٧.

(١٩) انظر: محاسن التأويل:٣٨٩/٢.

الخامس: أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق، ملازمة له، غير مضطربة في التمسك به، كقوله: {إلا ما دمت عليه قائما} [آل عمران: ٧٥] أي ملازما للاقتضاء، ثابتا على المطالبة. ومنه قوله تعالى: {قائما بالقسط} [آل عمران: ١٨](١) .

والظاهر هو القول الأخير، وإن كانت الأقوال الأخرى متقاربة المعنى مع ما قاله ابن عباس وقتادة، " مستقيمة على الهدى وكتاب الله وفرائضه وشرائع دينه ، والعدلُ والطاعةُ وغير ذلك من أسباب الخير، من صفة أهل الاستقامة على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونظير ذلك ، الخبرُ الذي رواه النعمان بن بشير ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :"مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم ركبوا سفينة " (٢)، ثم ضرب لهم مثلا، فالقائم على حدود الله : هو الثابت على التمسك بما أمره الله به ، واجتناب ما نهاهُ الله عنه"(٣).

قوله تعالى:{يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران : ١١٣]، " أي: يتهجدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة"(٤).

قال ابن كثير:" أي : يقومون الليل ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم"(٥).

قال الطبري:أي:" يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم ، وهم مع ذلك يسجدون فيها"(٦).

وفي قوله تعالى:{يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانآءَ اللَّيْلِ}[آل عمران:١١٣]، قولان :

أحدهما : ساعات الليل، وهو قول الحسن(٧)، وقتادة(٨)، والربيع(٩)،وابن جريج(١٠)، وأبي عبيدة(١١)، ومنه قول المتنخل الهذلي(١٢):

حُلْوٌ وَمُرٌّ كَعَطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ ... فِي كُلِّ إِنْيٍ حذاه اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

الثاني : جوف الليل ، وهو قول ابن عباس(١٣)، والسدي(١٤) .

واختلف في المراد بالتلاوة في هذا الوقت على قولين :

أحدهما : صلاة العَتْمَة ، وهو قول عبد الله بن مسعود(١٥) .

الثاني : صلاة المغرب والعشاء ، رواه الثوري عن منصور(١٦) .

وفي تفسير قوله:{وَهُمْ يَسْجُدُونَ}[آل عمران:١١٣]،ثلاثة أقوال :

أحدها : يعني سجود الصلاة (١٧).

الثاني : يريد الصلاة ،لأن القراءة لا تكون في السجود ولا في الركوع ، وهذا قول الزجاج(١٨)، والفراء (١٩).

---

(١)انظر: محاسن التأويل:٣٨٩/٢.
(٢) أخرجه الطبري(٧٦٥٥):ص/١٢٤/٧.
(٣) تفسير الطبري:١٢٣/٧-١٢٤.
(٤)صفوة التفاسير:٢٠٤.
(٥) تفسير ابن كثير:١٠٥/٢.
(٦) تفسير الطبري:١٢٩/٧.
(٧)انظر:تفسير ابن أبي حاتم(٤٠١٣):ص٧٣٩/٣. النكت والعيون:٤١٨/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥٦):ص١٢٦/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥٧):ص١٢٦/٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥٨):ص١٢٦/٧.
(١١) انظر: تفسير ابن المنذر(٨٣٣):ص٣٤٢/١.
(١٢)) ديوان الهذليين ٢ : ٣٥ ، ومجاز القرآن ١ : ١٠٢ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٠٦ ، واللسان " أنى ".
(١٣) انظر: تفسير ابن المنذر(٨٣٠):ص٣٤١/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٦٥٩):ص١٢٦/٧.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٧٦٦٢):ص١٢٨/٧.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٦٦٣):ص١٢٩/٧.
(١٧)انظر: النكت والعيون:٤١٨/١.
(١٨) انظر: معاني القرآن:٤٥٩/١.
(١٩) انظر: النكت والعيون:٤١٨/١.

ونظيره قوله: {وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف : ٢٠٦]، أي: يصلون، وفي القرآن: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ} [الفرقان : ٦٠]، أي: صلوا، وقوله: {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} [النجم : ٦٢][١].

الثالث : معناه يتلون آيات الله أناء الليل وهم مع ذلك يسجدون[٢].

الفوائد:

١-الثناء على القيام بطاعة الله والثبات عليها.

٢-الثناء على من يتلون كتاب الله قراءة وعملا.

٣-فضيلة السجود.

القرآن

{يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)} [آل عمران : ١١٤]

التفسير:

يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالخير كله، وينهون عن الشر كلّه، ويبادرون إلى فعل الخيرات، وأولئك مِن عباد الله الصالحين.

قوله تعالى:{يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ }[آل عمران:١١٤]،أي:" ، يصدِّقون بالله وبالبعث بعد الممات"[٣].

قال سعيد بن جبير:" يصدقون بتوحيد الله واليوم الآخر، ويصدقون بالغيب الذي فيه جزاء الأعمال"[٤].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني: يصدقون بتوحيد الله والبعث الذي فيه جزاء الأعمال"[٥].

قال أبو السعود:" صفة أخرى لأمة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى أي يؤمنون بها على الوجه الذي نطق به الشرع والإطلاق للإيذان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذي يطلق عليه الإيمان بهما لا يذهب الوهم إلى غيره وللتعريض بأن إيمان اليهود بهما مع قولهم عزير ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الإيمان بهما في شئ أصلا ولو قيد بما ذكر لربما توهم أن المنتفي عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاق الإيمان على إيمانهم بالأصل وهيهات"[٦].

قوله تعالى:{ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ }[آل عمران:١٣٠]، أي:" يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله ، وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به، وينهون الناس عن الكفر بالله ، وتكذيب محمد وما جاءهم به من عند الله"[٧].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني: إيمانا بمحمد- صلى الله عليه وسلم- وينهون عن المنكر، يعني: عن تكذيب بمحمد- صلى الله عليه وسلم-"[٨].

قال الزجاج:"ومعنى: {ويأمرون بالمعروف} ههنا أي يأمرون باتباع النبي - صلى الله عليه وسلم –{وينهون عن المنكر}: عن الإقامة على مشاقته - صلى الله عليه وسلم –"[٩].

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي:١٣١/٣.
(٢)انظر: النكت والعيون:٤١٨/١.

(٣) تفسير الطبري:١٣٠/٧.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠١٥):ص٧٣٩/٣.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٦/١.
(٦) تفسير أبي السعود:٧٤/٢.
(٧) تفسير الطبري:١٣٠/٧.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٦/١.
(٩) معاني القرآن:٤٦٠/١.

قال أبو السعود:" صفتان أخريان لأمة أجريتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود في الفضائل المتعلقة بتكميل الغير إثر بيان مباينتهم لهم في الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم في الاحتساب بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فإنه أمر بالمنكر ونهي عن بالمعروف"(١).

قوله تعالى:{ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}[آل عمران:١١٤]، أي:" ويبتدرون فعل الخيرات"(٢).

قال مقاتل بن سليمان:" يعنى شرائع الإسلام"(٣).

قال أبو السعود:" صفة أخرى لأمة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليته والقيام به وآثر الفور على التراخي أي يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادتهم إلى الشرور وإيثار كلمة فى على ما وقع في قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ } [آل عمران : ١٣٣]..الخ، للإيذان بأنهم مستقرون في أصل الخير متقلبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها"(٤).

قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}[آل عمران:١١٤]،أي: أولئك" هم من عداد الصالحين"(٥).

قال أبو السعود:" أي: من جملة من صلحت أحوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثناءه"(٦).

قال الماتريدي:" أي: ومن ذلك فعله - فهو صالح"(٧).

قال السمعاني:" وصفهم الله تعالى وشكرهم"(٨).

قال المراغي:" أي وهؤلاء الذين اتصفوا بجليل الصفات من الذين صلحت أحوالهم، وحسنت أعمالهم، فرضيهم ربهم، وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا فيمن أسلم منهم: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره.

والوصف بالصلاح هو غاية المدح، ونهاية الشرف والفضل، فقد مدح الله به أكابر الأنبياء كإسماعيل وإدريس وذى الكفل فقال: {وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}، وقال حكاية عن سليمان: {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ} .

ولأنه ضد الفساد، وهو ما لا ينبغى فى العقائد والأفعال، فهو حصول ما ينبغي فى كل منهما، وذلك منتهى الكمال، ورفعة القدر، وعلوّ الشأن"(٩).

قال الراغب:" وبيّن تعالى في آخر الآية أن فاعل ذلك من الصالحين، والأقرب في {من} أن تكون للتبيين وأنهم هم الصالحون، ولذلك قال في الأول {وأولئك هم المفلحون}"(١٠).

ويجدر القول بأن "المسارعة والمبادرة والعجلة تتقارب، لكن السرعة أعمها

والمبادرة لا تكاد تستعمل إلا في البدن، والعجلة أكثر ما تستعمل فيما يتحرى عن غير فكر وروية، أو في إمضاء العزيمة قبل استكمال الروية، ولهذا يقال: "العجلة من الشيطان "، وقال

---

(١) تفسير أبي السعود:٧٤/٢.
(٢) تفسير الطبري:١٣٠/٧.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٦/١.
(٤) تفسير أبي السعود:٧٤/٢.
(٥) تفسير الطبري:١٣٠/٧.
(٦) تفسير أبي السعود:٧٤/٢.
(٧) تفسير الماتريدي:٤٦٠/٢.
(٨) تفسير السمعاني:٣٥٠/١.
(٩) تفسير المراغي:٣٧/٤.
(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني:٨١٠/٢.

تعالى: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه)، فإن قيل: لو كانت مذمومة لما قال موسى: (وعجلت إليك رب لترضى).

قيل: موسى عليه السلام أورد ذلك على سبيل الاعتذار إبانة أنه قصد فعلا محمودا، وإن تحرى العجلة فيه، ومن قصد فعلا محمودا فقد يعذر في وقوع ما يكره منه، والمسارعة في الخير هي أن يتدرج الإنسان في ازدياد العرفة بفضله، واختياره والسرور بتعاطيه، وتقديمه على الأمور الدنيوية، وأن لا تؤخره عن أول وقت إمكان فعله وعلى ذلك قوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ } [الحديد : ٢١] ، ومدح تعالى قوما فقال: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة : ١٠] ، أي يسابقون بهممهم وأبدانهم، فلذلك كرره، ولمراعاة المسارعة وكون بعض المسارعين أعلى منزلة من بعض قال تعالى: {هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ } [آل عمران : ١٦٣] "(١).

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية:" وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين، ومن الإيمان بالله، لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيرا، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض. ومن الإيمان باليوم الآخر، لأنهم يصفونه بخلاف صفته. ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنهم كانوا مداهنين. ومن المسارعة في الخيرات، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها. والمسارعة في الخير: فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر سارع في توليه والقيام به وآثر الفور على التراخي وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم واستحقوا ثناءه عليهم. ويجوز أن يريد بالصالحين المسلمين فلن يكفروه لما جاء وصف الله عز وعلا بالشكر في قوله: {وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} [التغابن : ١٧] في معنى توفيه الثواب نفى عنه نقيض ذلك"(٢).

الفوائد:

١-الثناء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢-الثناء على المسارعة في الخيرات.

٣-الثناء على من تلك صفته بالصلاح.

القرآن

{وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)} [آل عمران : ١١٥]

التفسير:

وأيُّ عمل قلَّ أو كثُر من أعمال الخير تعمله هذه الطائفة المؤمنة فلن يضيع عند الله، بل يُشكر لهم، ويجازون عليه. والله عليم بالمتقين الذين فعلوا الخيرات وابتعدوا عن المحرمات; ابتغاء رضوان الله، وطلبًا لثوابه.

قوله تعالى: {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ } [آل عمران : ١١٥]، "أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله"(٣).

قال الربيع بن أنس:أي:"لن يضل عنكم"(٤).

قال مقاتل:" فلن يضل عنهم بل يشكر ذلك لهم"(٥).

قال الماتريدي:" أي: كيف يكفره، وهو الشكور الذي يقبل اليسير، ويعطي الجزيل"(٦).

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني:٨١٠/٢.

(٢) الكشاف:٤٠٣/١.

(٣) صفوة التفاسير:٢٠٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٢٠):ص٧٤٠/٣.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٦/١.

(٦)تفسير الماتريدي:٤٦١/٢.

قال المراغي:" أي وما يفعلوا من الطاعات فلن يحرموا ثوابه ولن يستر عنهم كأنه غير موجود"[١].

قال السعدي:أي:" وأنهم مهما فعلوا {من خير} قليلا كان أو كثيرا {فلن يكفروه} أي: لن يحرموه ويفوتوا أجره، بل يثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى"[٢].

و قوله تعالى: {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ } [آل عمران : ١١٥]، قرئت بالياء والتاء، قال الزجاج" وكلاهما صواب - كما قال الله عز وجل: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) - فالخطاب لسائر الخلق، ومن قال (فلن تكفروه) فهو لهؤلاء المذكورين وسائر الخلق داخل معهم في ذلك"[٣].

وفي حرف حفصة: " فلن تتركوه ": أي: لن تتركوه دون أن تجزوا عليه[٤].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران : ١١٥]، أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر المتقين"[٥].

قال الثعلبي:أي:المؤمنين"[٦].

قال السمرقندي:" أي عليم بثوابهم، وهم مؤمنو أهل الكتاب، ومن كان بمثل حالهم"[٧].

عن ابن عباس:"{المتقين}، أي الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء منه"[٨].

وقال السدي:" {المتقين}، هم المؤمنون"[٩].

وقيل لمعاذ بن جبل:"من المتقون؟ قال:" قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة"[١٠].

الفوائد:

١-أن من فعل خيرا أثيب عليه، لأن المراد هنا تمام الإثبات، أي أنهم يعطون أجرهم كاملا بلا نقص.

٢-كمال عدل الله عزّ وجل لكون العامل إذا عمل عملا أثيب عليه، ولو حوسب على ما أعطاه من النعم لهلك، لكن يثاب وتكون نعم الله عليه مجرد فضل من الله.

٣-ثبوت الثواب على العمل الخير قليلا أم كثيرا، لقوله:{من خير}، وهي في سياق الشرط فتكون عامة.

٤-إثبات علم الله تعالى.

٥-الثناء على أهل التقوى.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)} [آل عمران : ١١٦]

التفسير:

---

(١) تفسير المراغي:٣٧/٤.
(٢) تفسير السعدي:١٤٣.
(٣) معاني القرآن للزجاج:٤٦٠/١.
(٤) انظر: تفسير الماتريدي:٤٦١/٢.
(٥) صفوة التفاسير:٢٠٤.
(٦) تفسير الثعلبي:١٣٢/٣.
(٧) تفسير السمرقندي:٢٤٠/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٢٢):ص٧٤٠/٣-٧٤١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٢٣):ص٧٤١/٣.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٢١):ص٧٤٠/٣.

إن الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسله، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا من عذاب الله في الدنيا ولا في الآخرة، وأولئك أصحاب النار الملازمون لها، لا يخرجون منها.

في سبب نزول الآيتان[١١٦-١١٧]، وجوه:

أحدها: قال مقاتل:" ثم ذكر نفقة سفلة اليهود من الطعام والثمار على رءوس اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه يريدون بها الآخرة"[١].

الثاني: نقل ابن حجر عن ابن ظفر:"لما تضمن قوله تعالى فيما قبله وصف المؤمنين، ذكر بعدها ما اعتمده الكفار وأهل الكتاب من إنفاق أموالهم في الصد عن سبيل الله وإن ذلك لا يغني عنهم شيئا"[٢].

الثالث: أخرج الطبري عن مجاهد، أن المراد:" نفقة الكافر في الدنيا"[٣].

الرابع: نقل الثعلبي وتبعه ابن حجر[٤] عن يمان بن المغيرة: أنه" يعني: نفقات أبي سفيان وأصحابه ببدر وأُحُد على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم"[٥].

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}[آل عمران:١١٦]، " أي: إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم"[٦].

قال الطبري:أي:" الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا به وبما جاءهم به من عند الله"[٧].

قال ابن عثيمين: يشمل كل من كفر بالله، فهذا حكمه"[٨].

وأصْلُ (الكفر) عند العرب : تَغطيةُ الشيء، ولذلك سمَّوا الليل " كافرًا "، لتغطية ظُلمته ما لبِسته، كما قال الشاعر[٩] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلا رَثِيدًا، بَعْدَ مَا ... أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ

وقال لبيدُ بن ربيعة[١٠]:

يَعْلُو طَرِيقَة مَتْنِهَا مُتَوَاتِرًا ... فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومُ غَمَامُهَا

يعني غَطَّاها، فكذلك الذين جحدوا النبوّة من الأحبار من اليهود غَطَّوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكَتَمُوه الناسَ - مع علمهم بنبوّته، ووُجُودِهم صِفَتَه في كُتُبهم[١١].

قوله تعالى:{ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}[آل عمران:١١٦]،" أي: لن تفيدهم الأموال والأولاد في الآخرة، من عذاب الله وأليم عقابه "[١٢].

قال الطبري:" لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا ، وأولاده الذين ربَّاهم فيها ، شيئًا من عقوبة الله يوم القيامة إن أخرها لهم إلى يوم القيامة ، ولا في الدنيا إنْ عجَّلها لهم فيها"[١].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٧٣٧/٢.

(٢) العجاب:٧٣٩/٢.

(٣) تفسير الطبري(٦٧٧٦):ص١٣٥/٧، وابن أبي حاتم(٤٠٢٤):ص٧٤١/٣، وإسنادهما حسن.

(٤) انظر: العجاب:٧٣٩/٢.

(٥)تفسير الثعلبي:١٣٣/٣، ولم أجد هذا القول في تفسير الطبري وابن أبي حاتم، وأسباب النزول للواحدي، وتفسير ابن كثير- ولباب النقول للسيوطي.

(٦) صفوة التفاسير: ٢٧/١.

(٧) تفسير الطبري: ١٣٣/٧.

(٨) تفسير ابن عثيمين:٨٦/٢..

(٩)الشعر لثعلبة بن صعير المازني ، شرح المفضليات : ٢٥٧ . والضمير في قوله " فتذكرا " للنعامة والظليم . والثقل : بيض النعام المصون ، والعرب تقول لكل شيء نفيس خطير مصون : ثقل . ورثد المتاع وغيره فهو مرثود ورثيد : وضع بعضه فوق بعض ونضده . وعنى بيض النعام ، والنعام تنضده وتسويه بعضه إلى بعض . وذكاء : هي الشمس.

(١٠) انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني: ١٠٠، ويروى " ظلامها " . يعني البقرة الوحشية ، قد ولجت كناسها في أصل شجرة ، والرمل يتساقط على ظهرها .

(١١) تفسير الطبري: ٢٥٥/١.

(١٢) صفوة التفاسير: ١٧١/١.

قال السمعاني:" أي: لا تدفع أموالهم بالفدية، ولا أولادهم بالنصرة من عذاب الله؛ وذلك أن الإنسان يدفع عن نفسه بفداء المال، وتارة بالاستعانة بالأولاد"[٢].

قال الزجاج:" أي لا تمنعهم أولادهم مما هو نازل بهم، لأنهم مالوا إلى الأموال في معاندتهم النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن الرياسة إنما قامت لهم - أعني - رؤساء إليهود - بمعاندتهم النبي - صلى الله عليه وسلم -"[٣].

قال الصابوني:" أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً"[٤].

قال أبو السعود:" وتأخيرُ الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفي بينهما إما لعراقة الأولادِ في كشف الكروب أو لأن الأموال أولُ عُدّة يُفزع إليها عند نزول الخطوب"[٥].

قال الثعلبي:" وإنما خص الأولاد لأنهم أقرب الأنساب إليه"[٦]، وإنما سمى المال غنى لأنه ينفع الناس ويدفع عنهم الفقر والنوائب"[٧].

قال الراغب:" ولما ذكر في الآية الأولى أن ما يفعله الإنسان من الخير لن يكفر، بين أن ما يعدونه خيرا إنما ينفع بعد الإيمان، فأما مع افتقاده فلا نفع، وذكر أجل ما هو عندهم خير، وهو الأموال والأولاد، وأنها لا تغني عنهم، وعلى ذلك ما حكى عن الكفار: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ} [الحاقة : ٢٨]"[٨].

قوله تعالى:{ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[آل عمران:١١٦]، " أي: أولئك الملازمون للنار"[٩] "لا يخرجون منها أبدا"[١٠].

قال المراغي:" لأن ظلمة أرواحهم، وفساد عقائدهم، وسوء أعمالهم، اقتضت خلودهم فى تلك الهاوية المظلمة المستعرة التي وقودها الناس والحجارة، قد أعدت لكل من جحد بآيات ربه، وأعرض عن دعوة أنبيائه ورسله، ولم يصغ إلا لداعى الهوى والشهوات"[١١].

قال الطبري:" وإنما جعلهم أصحابها ، لأنهم أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها ، كصاحب الرجل الذي لا يفارقه ، وقرينه الذي لا يزايله، ثم أكد ذلك بإخباره عنهم إنهم " فيها خالدون " ، أنّ صحبتهم إياها صحبة لا انقطاع لها ، إذْ كان من الأشياء ما يفارق صاحبه في بعض الأحوال ، ويزايله في بعض الأوقات ، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النارَ التي أصْلوها ، ولكنها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع"[١٢].

الفوائد:

١-من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الكفار لا ينتفعون بأموالهم ولا أولادهم.

٢-ومن الفوائد أيضا: إن الكفار مهما كثرت قوتهم عددا ومددا، فإنها لن تغني عنهم من الله شيئا.

٣- ومن فوائدها: تمام قدرة الله وسلطته على العباد إذ إن الكفار العتاة لا يستطيعون أن يدفعوا شيئا بأموالهم وأولادهم مما قضاه الله عزّ وجل.

---

(١) تفسير الطبري: ١٣٣/٧.
(٢) تفسير السمعاني:٣٥٠/١.
(٣) معاني القرآن:٤٦٠/١.
(٤) صفوة التفاسير:٢٠٤.
(٥) تفسير أبي السعود: ١٠/٢.
(٦) تفسير الثعلبي:١٣٣/٣.
(٧) تفسير الثعلبي: ١٨/٣.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني:٨١٣/٢-٨١٤.
(٩) تفسير المراغي:٤٠/٤.
(١٠) تفسير السعدي:٤١٣.
(١١) تفسير المراغي:٤٠/٤.
(١٢) تفسير الطبري:١٣٣/٧-١٣٤.

٤-أن الكفار في النار مخلدون فيها، خلدوا أبديا ليس له غاية.

القرآن

{مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)} [آل عمران : ١١٧]

التفسير:

مَثَلُ ما ينفق الكافرون في وجوه الخير في هذه الحياة الدنيا وما يؤملونه من ثواب، كمثل ريح فيها برد شديد هَبَّتْ على زرع قوم كانوا يرجون خيره، وبسبب ذنوبهم لم تُبْقِ الريح منه شيئًا. وهؤلاء الكافرون لا يجدون في الآخرة ثوابًا، وما ظلمهم الله بذلك، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وعصيانهم.

قوله تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ}[آل عمران:١١٧]،" أي : شَبَهُ ما يتصدق به الكافر، كشبه ريح فيها برد شديد"[١].

وفي معنى " النفقة " التي ذكرها في هذه الآية، قولان:

القول الأول: أنها النفقة المعروفة في الناس. قاله مجاهد[٢]، ورجحه الطبري[٣]، وهو الظاهر.

وفي المراد بهذه النفقة، خمسة أقوال:

أحدها : أنها نزلت في أبي سفيان وأصحابه يوم بدر عند تظاهرهم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وهذا قول يمان بن المغيرة[٤].

الثاني: أن المراد: نفقات الكفار وصدقاتهم. وهذا معنى قول مجاهد[٥].

الثالث : أنه نزلت في نفقة المنافقين مع المؤمنين في حرب المشركين على جهة النفاق[٦].

الرابع: وقال مقاتل: يعني نفقة "سفلة اليهود"[٧]، "على علمائهم ورؤسائهم كعب بن الأشرف وأصحابه"[٨].

الخامس: وقال الضحاك:"مثل نفقة الكفار من أموالهم في أعيادهم وعلى أضيافهم وما يعطي بعضهم بعضا على الضلالة"[٩].

القول الثاني: أن ذلك قوله الذي يقوله بلسانه، مما لا يصدِّقه بقلبه. وهذا قول السدي[١٠].

قال الماتريدي:" ضرب مثل نفقة الكفار التي أنفقوها بريح فيها صر أصابت حرث قوم، وذلك - والله أعلم - أنهم كانوا ينفقون ويعملون جميع الأعمال: من عبادة الأصنام والأوثان، ويقولون: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى}، ظنوا أن تلك الأعمال والنفقات التي أنفقوها في صد الناس - تنفعهم في الآخرة، وتقربهم إلى الله، فأخبر أنها لا تنفع، فكان كالريح التي فيها صر وبرد، ظنوا أن فيها رحمة، وشيئا ينفع زروعهم، وينمو بها، فإذا فيها نار أحرقت حرثهم؛ كما طمعوا من أعمالهم ونفقاتهم التي في الدنيا - بالآخرة؛ قربة وزلفة إليه، فإذا هي مهلكة لأبدانهم؛ كالريح التي فيها صر كانت مهلكة؛ محرقة لزروعهم وحرثهم"[١١].

وفي تفسير "الصرّ" أقوال :

---

(١) تفسير الطبري:١٣٤/٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٦٦٧):ص١٣٥/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري:١٣٥/٧-١٣٦.
(٤) انظر: العجاب:٧٣٩/٢، وذكره الماوردي دون نسبته، انظر: النكت والعيون:٤١٨/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٦٦٧):ص١٣٥/٧.
(٦) انظر: النكت والعيون:٤١٨/١.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٧/١.
(٨) هذه الزيادة من تصرف ابن حجر في العجاب:٧٣٨/٣.
(٩) تفسير السمرقندي:٢٤١/١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٦٦٨):ص١٣٥/٧-١٣٦.
(١١) تفسير الماتريدي:٤٦١/٢-٤٦٢.

أحدها : هو البرد الشديد ، وهو قول ابن عباس[١]، والحسن[٢]، وقتادة[٣]، والربيع[٤]، والسدي[٥]، وعكرمة[٦]، وابن زيد[٧]، والضحاك[٨]، وشرحبيل بن سعد[٩].
والثاني : برد وجليد. قاله عطاء[١٠].
والثالث: أنه نار. وهذا قول ابن عباس[١١] أيضا ومجاهد[١٢].
قال ابن كثير:" وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد - سيّما الجليد - يحرق الزروع والثمار ، كما يحرق الشيء بالنار"[١٣].
والرابع: أنه صوت لهب النار التي تكون في الريح ، وهو قول الزجاج [١٤].
قال الماوردي:" وأصل الصّر: صوت من الصرير"[١٥]، ومنه قوله تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} [الذاريات : ٢٩]. قيل: "هي: الصوت"[١٦].
قوله تعالى:{أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ }[آل عمران : ١١٧]،" أي:أصابت هذه الريح زرع قوم عصوا الله ، وتعدَّوا حدوده، فأفسدته وأهلكته"[١٧].
قال مقاتل:" فلم يبق منه شيئا كما أهلكت الريح الباردة حرث الظلمة فلم ينفعهم حرثهم، فكذلك أهلك الله «نفقات» سفلة اليهود ومنهم كفار مكة التي أرادوا بها الآخرة فلم تنفعهم نفقاتهم"[١٨].
قال الزجاج:أي:" فعاقبهم الله بإذهاب زرعهم – فأهلكته، فأعلم أن ضرر نفقتهم عليهم كضرر هذه الريح في هذا الزرع وقيل إنه يعني: به أهل مكة حين تعاونوا وأنفقوا الأموال على التظاهر على النبي - صلى الله عليه وسلم -،وقال بعضهم: {مثل ما ينفقون}، أي: مثل أعمالهم في شركهم كمثل هذه الريح... وجملته أن ما أنفق في التظاهر على عداوة الدين مضر مهلك أهله في العاجل والأجل"[١٩].
قال الماتريدي:" أي: يتأسفون على ما أنفقوا تأسف صاحب الزرع على ما كان أنفق فيه"[٢٠].
قال ابن كثير:" أي : أحرقته ، يعني بذلك السَّفْعة إذا نزلت على حَرْث قد آن جدَاذُه أو حَصَاده فدمَّرَته وأعدَمَتْ ما فيه من ثمر أو زرع ، فذهبت به وأفسدته ، فعَدمَه صاحبه أحوج ما

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٧٦٧٠):ص١٣٦/٧.
(٢) انظر: النكت والعيون: ٤١٨/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٦٧٣):ص١٣٦/٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٦٧٤):ص١٣٦/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٦٧٥):ص١٣٦/٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٦٦٩):ص١٣٦/٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٦٧٧):ص١٣٧/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٦٧٨):ص١٣٧/٧.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٢٥):ص٧٤١/٣.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٢٨):ص٧٤١/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٢٦):ص٧٤١/٣.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٢٧):ص٧٤١/٣.
(١٣) تفسير ابن كثير:١٠٦/٢.
(١٤) انظر: معاني القرآن:٤٦١/١.
(١٥) النكت والعيون:٤١٨/١.
(١٦) تفسير الماتريدي:٤٦٢/٢.
(١٧) تفسير الطبري:١٣٤/٧.[بتصرف].
(١٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٧/١.
(١٩) معاني القرآن:٤٦١/١.
(٢٠)تفسير الماتريدي:٤٦٢/٢.

كان إليه. فكذلك الكفار يمحق الله ثوابَ أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرةَ هذا الحرث بذنوب صاحبه، وكذلك هؤلاء بَنَوْهَا على غير أصْل وعلى غير أساس"[1].

قوله تعالى:{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[آل عمران : ١١٧]، " أي: وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب"[2].

أخرج ابن أبي حاتم "عن عباس في قوله: {لكن أنفسهم يظلمون}، قال: يضرون"[3].

وقال الحسن: "ينقصون"[4].

قال السمرقندي:" يعني أصحاب الزرع هم ظلموا أنفسهم بمنع حق الله تعالى، فكذلك الكفار أبطلوا ثواب أعمالهم بالشرك بالله تعالى"[5].

قال الماتريدي:" والظلم: ما ذكرنا: هو وضع الشيء في غير موضعه، فهو - والله أعلم - قال: هم الذين وضعوا أنفسهم في غير موضعها، لا أن وضع الله أنفسهم ذلك الموضع؛ لأنهم عبدوا غير الله، ولم يجعلوا أنفسهم خالصين سالمين لله، فهم الذين ظلموا أنفسهم؛ حيث أسلموها لغير الله، وعبدوا دونه، فذلك وضعها في غير موضعها؛ لأن وضعها موضعها هو أن يجعلوها خالصة لله، سالمة له"[6].

وقيل: ما ضروا الله بعبادتهم غيره وبكفرهم به، إنما ضروا أنفسهم؛ إذ لا حاجة له إلى عبادتهم"[7].

الفوائد:

١-إثبات القياس، لقوله:{مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ}، لأن المثل إلحاق للأصل بالفرع، إلحاق للمشبه بالمشبه به، وهذا هو اصل القياس.

٢-حسن او تمام بلاغة القرآن، وذلك بقياس الغائب على الشاهد، ووجهه أن الريح التي فيها صرّ وأصابت حرث قوم ظلموا انفسهم كل يعرف أنها مدمرة ومهلكة، فكذلك أعما الكافرين هالكة لا خير فيها، لأن الكفر مدمر لها.

٣-أن الكافر لن ينتفع بما عمل في الآخرة، لأنه إذا هلك عمله وزال فإنه لن ينفعه، لكن قد ينفعه في الدنيا، فيدفع عنه به من البلاء ما يدفع، أو يحصل من الخير الذي يرجوه ما يحصل بسبب الإنفاق الذي أنفقه من ماله.

٤-انتفاء الظلم عن الله.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)} [آل عمران : ١١٨]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، تُطْلعونهم على أسراركم، فهؤلاء لا يَقْتُرون عن إفساد حالكم، وهم يفرحون بما يصيبكم من ضرر ومكروه، وقد ظهرت شدة البغض في كلامهم، وما تخفي صدورهم من

---

(١) تفسير ابن كثير:١٠٦/٢.
(٢) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٣١):ص٧٤٢/٣.
(٤) تفسير يحيى بن سلام:٦٢/١.
(٥)تفسير السمرقندي:٢٤١/١.
(٦)تفسير الماتريدي:٤٦٢/٢.
(٧) تفسير الماتريدي:٤٦٢/٢.

العداوة لكم أكبر وأعظم. قد بيَّنّا لكم البراهين والحجج، لتتعظوا وتحذروا، إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: قال ابن عباس:" : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والحِلف في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل فيهم ، ينهاهم عن مباطنتهم تخوُّف الفتنة عليهم منهم : {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم} إلى قوله : {وتؤمنون بالكتاب كله}"[١].

الثاني: وأخرج الطبري عن مجاهد في قول الله عز وجل : {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا }، في المنافقين من أهل المدينة. نهى الله عز وجل المؤمنين أن يتولّوهم"[٢]. وري عن ابن عباس[٣] أيضا، والسدي[٤]، وقتادة[٥]، والربيع[٦]، وابن جريج[٧]، وابن زيد[٨]، نحو ذلك.

الثالث: وقال مقاتل:" يعني المنافقين عبد الله بن أبي، ومالك بن دخشم الأنصاري، وأصحابه دعاهم اليهود إلى دينهم منهم إصبغ ورافع ابني حرملة وهما رءوس اليهود فزينوا لهما ترك الإسلام حتى أرادوا أن يظهروا الكفر فأنزل الله- عز وجل- يحذرهما ولاية اليهود {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة}"[٩].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ}[آل عمران : ١١٨]،أي:" يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقروا بما جاءهم به نبيهم من عند ربهم، لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم من دون أهل دينكم وملّتكم"[١٠].

قال ابن كثير: "يقول تبارك وتعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي : يُطْلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، قوله: {مِنْ دُونِكُمْ}،أي : من غيركم من أهل الأديان ، وبطانة الرجل : هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخل أمره"[١١].

قال الزجاج:" الدخلاء الذين يستبطنون ويتبسط إليهم، يقال فلان بطانة لفلان أي مداخل له ومؤانس، فالمعنى أن المؤمنين أمروا ألا يداخلوا المنافقين ولا اليهود، وذلك أنهم كانوا لا يبقون غاية في التلبيس على المؤمنين. فأمروا بألا يداخلوهم لئلا يفسدوا عليهم دينهم"[١٢].

قال الطبري:" وإنما جعل " البطانة " مثلا لخليل الرجل ، فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه ، لحلوله منه - في اطّلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده وكثير من أقاربه - محلَّ ما وَلِيَ جَسده من ثيابه"[١٣].

قوله تعالى:{لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا}[آل عمران : ١١٨]،" أي لا يقصرون لكم في الفساد"[١٤].

---

(١) أخرجه الطبري(٧٦٨٠):ص١٤١/٧.
(٢) تفسير الطبري(٧٦٨١):ص١٤١/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٦٨٣):ص١٤١/٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٦٨٦):ص١٤٣/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٦٨٢):ص١٤١/٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٦٨٤):ص١٤١/٧-١٤٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٦٨٧):ص١٤٣/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٦٨٨):ص١٤٣/٧.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٧/١.
(١٠) تفسير الطبري:١٣٨/٧.
(١١) تفسير ابن كثير:١٠٦/٢.
(١٢) معاني القرآن:٤٦١/١-٤٦٢.
(١٣) تفسير الطبري:١٣٨/٧.
(١٤) صفوة التفاسير:٢٠٥.

قال ابن كثير:" أي : يَسْعَوْنَ في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة"[1].
قال الزجاج:" أي لا يبقون غاية في إلقائهم فيما يضرهم، وأصل « الخبال» في اللغة: ذهاب الشيء، قال الشاعر[2]:
ابني سليمي لستم ليد ... إلايدا مخبولة العضد
أي قد ذهبت عضدها"[3].
قال الثعلبي:" أي لا يقصرون ولا يتركون عهدهم وطاقتهم فيما يورثكم فوق الشر والفساد. يقال: ما ألوته خيرا أو شرا أي ما قصرت في فعل ذلك. ومنه قول ابن مسعود في عثمان: ولم تأل عن خير لأخرى باديه ، وقال امرؤ القيس[4]:
وما المرء مادامت حشاشة نفسه ... بمدرك أطراف الخطوب ولا آل
أي مقصر في الطلب، والخبال: الشر والفساد، قال الله تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} [التوبة : ٤٧]"[5].
قوله تعالى:{ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ}[آل عمران : ١١٨]، " أي: تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد"[6].
قال الطبري:أي:" يتمنون لكم العنَت والشر في دينكم وما يسوءكم ولا يسرُّكم"[7].
قال الثعلبي:" أي تمنوا ضركم وشركم وإثمكم وهلاككم"[8].
قال الواحدي: أي:" تمنَّوا ضلالكم عن دينكم"[9].
قال ابن كثير:أي:" ويودون ما يُعْنتُ المؤمنين ويخرجهم ويَشُقّ عليهم"[10].
وفي قوله تعالى:{ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ}[آل عمران : ١١٨]، تفسيران :
أحدهما : ودوا إضلالكم عن دينكم ، وهو قول السدي[11] .
والثاني : ودوا أن تعنتوا في دينكم، أي: تحملون على المشقة فيه، وهو قول ابن جريج[12].
قال الزجاج:" ومعنى العنت: إدخال المشقة على الإنسان، يقال فلان متعنت فلانا، أي يقصد إدخال المشقة والأذى عليه، ويقال قد عنت العظم يعنت عنتا إذا أصابه شيء بعد الجبر، وأصل هذا كله مرق قولهم: (اكمة عنوت) إذا كانت طويلة شاقة المسلك، فتأويل أعنت فلانا، حملته على المشقة"[13].
قوله تعالى:{ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ }[آل عمران : ١١٨]، " أي: ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم"[14].
قال مقاتل:" قد ظهرت العداوة بألسنتهم"[1].

---

(١) تفسير ابن كثير:١٠٦/٢.
(٢)في ديوانه ص ٢١ (١)؛ ولسان العرب ١١/ ١٩٨ (خبل)؛ ومقاييس اللغة ٢/ ٢٤٣؛ ومجمل اللغة ٢/ ٢٥٦؛ وتهذيب اللغة ٧/ ٤٢٧؛ وتاج العروس (خبل)؛ وأساس البلاغة ص ١٠٣ (خبل)؛ وينسب إلى طرفة بن العبد؛ انظر ديوان أوس ص ١٤٩، وفيه: " أَبَنِي لُبَيْنَي لَسْتُمَ بيَدٍ... إلا يَدًا لَيْسَتْ لَهَا عَضُدُ".
(٣) معاني القرآن:٤٦٢/١.
(٤) انظر: لسان العرب: ٦/ ٢٨٤.
(٥) تفسير الثعلبي:١٣٤/٣.
(٦) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٧) تفسير الطبري:١٤٠/٧.
(٨) تفسير الثعلبي:١٣٤/٣.
(٩) الوجيز:٢٢٨.
(١٠) تفسير ابن كثير:١٠٦/٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٦٨٩):ص١٤٣/٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٦٩٠):ص١٤٤/٧.
(١٣) معاني القرآن:٤٦٢/١.
(١٤) صفوة التفاسير:٢٠٥.

قال الثعلبي:"أي:" قد ظهرت امارة العداوة من أفواههم بالشتيمة والوقيعة في المسلمين. وقيل: باطلاع المشركين على أسرار المؤمنين. وقيل: هو مثل قوله: {ولتعرفنهم في لحن القول}[محمد:٣٠]"[٢].

قال الطبري:" والذي بدا لهم منهم بألسنتهم ، إقامتهم على كفرهم ، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمونَ من الضلالة. فذلك من أوكد الأسباب في معاداتهم أهل الإيمان ، لأن ذلك عداوة على الدين ، والعداوة على الدين العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر منهما ، وذلك انتقال من هدى إلا ضلالة كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك. فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين ، ومقامهم عليه ، أبينُ الدلالة لأهل الإيمان على ما هم عليه من البغضاء والعداوة"[٣].

وفي قراءة عبد الله: "{قد بدأ البغضاء}"[٤].

قوله تعالى:{وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ }[آل عمران : ١١٨]،" اي: وما يبطنونه لكم من البغضاء أكثر مما يظهرونه"[٥].

قال قتادة:" وما تخفي صدورهم أكبر مما قد أبدوا بألسنتهم"[٦]. وروي عن الربيع مثل ذلك[٧].

قال مقاتل:" يعنى ما تسر قلوبهم من الغش أكبر مما بدت بألسنتهم"[٨].

قوله تعالى:{قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ }[آل عمران : ١١٨]، أي:" قد بينا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه"[٩].

قال الصابوني:" أي: وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين"[١٠].

قال مقاتل:" يقول ففي هذا بيان لكم منهم"[١١]

قال الواحدي" أيْ: علامات اليهود في عداوتهم"[١٢].

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}[آل عمران : ١١٨]، " أي: إن كنتم عقلاء"[١٣].

قال الطبري:" إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه ، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم ، ومبلغ عائدته عليكم"[١٤].

قال أبو السعود:" أي إن كنتم من أهل العقل أو إن كنتم تعقلون ما بين لكم من الآيات والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه"[١٥].

الفوائد:

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٧/١.
(٢) تفسير الثعلبي:١٣٤/٣.
(٣) تفسير الطبري:١٤٥/٧.
(٤) الكشاف:٤٠٦/١.
(٥) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٦) أخرجه الطبري(٧٦٩٣):ص١٤٧/٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٦٩٤):ص١٤٧/٧.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٧/١-٢٩٨.
(٩) الكشاف:٤٠٦/١.
(١٠) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٧/١-٢٩٨.
(١٢) الوجيز:٢٢٨.
(١٣) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(١٤) تفسير الطبري:١٤٨/٧.
(١٥) تفسير أبي السعود:٧٦/٢.

١-تحريم اتخاذ البطانة التي ليست منّا، لأن الأصل في النهي: التحريم، عليه فإن تجنب البطانة السيئة من مقتضيات الإيمان.
٢-بيان عنياة الله تعالى بعباده المؤمنين إذ حذرهم إى أمور قد تخفى عليهم وذلك باتخاذا لبطانات السيئة.
٣-أن أعداء الاسلام يودّون لنا ما يشق علينا في الدنيا والدين.
٤-أن في قلوب أعداء الاسلام من العداوة والبغضاء أكثر مما يبدو.
٥-منّة الله تعالى علينا ببيان آياته.
٦-أنه كلما كان الإنسان أشد عقلا أو أقوى عقلا كان أفهم لآيات الله.

القرآن

{هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)} [آل عمران : ١١٩]

التفسير:

ها هو ذا الدليل على خطئكم في محبتهم، فأنتم تحبونهم وتحسنون إليهم، وهم لا يحبونكم ويحملون لكم العداوة والبغضاء، وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبونهم؟ وإذا لقوكم قالوا -نفاقًا-: آمنَّا وصدَّقْنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض بدا عليهم الغم والحزن، فعَضُّوا أطراف أصابعهم من شدة الغضب، لما يرون من ألفة المسلمين واجتماع كلمتهم، وإعزاز الإسلام، وإذلالهم به. قل لهم -أيها الرسول-: موتوا بشدة غضبكم. إن الله مطَّلِع على ما تخفي الصدور، وسيجازي كلا على ما قدَّم مِن خير أو شر.

في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أخرج الطبري عن مجاهد: "نزلت هذه الآية في المنافقين"[١].

الثاني: أنها نزلت في الإباضية. وهذا قول أبي الجوزاء[٢].

الثالث: أنها نزلت في اليهود. . وهذا قول مقاتل بن حيان[٣].

قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ}[آل عمران : ١١٩]، "أي: ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم ولا يحبونكم"[٤].

قال مقاتل بن حيان:" ها أنتم أولاء معشر الأنصار"[٥].

قال الطبري:أي:"ها أنتم ، أيها المؤمنون ، الذين تحبونهم ، تحبون هؤلاء الكفار، فتودونهم وتواصلونهم وهم لا يحبونكم بل يبطنون لكم العداوة والغش"[٦].

قال ابن قتيبة:"أي: ها أنتم يا هؤلاء تحبونهم"[٧].

قال ابن كثير:" أي : أنتم - أيها المؤمنون - تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان ، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم ، لا باطنا ولا ظاهرا"[١].

---

(١) تفسير الطبري(٧٦٩٨):ص١٥١/٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٧٠١):ص١٥٢/٧. وابن أبي حاتم(٤٠٥١):ص٧٤٥/٣، و" الإباضية " ، فرقة من الحرورية ، وهم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي ، الخارج في أيام مروان بن محمد. ومن قولهم : إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة ، وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال ، وما سواه حرام ، وإن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد. وقالوا : إن مرتكب الكبيرة موحد ، لا مؤمن.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٤٩):ص٧٤٤/٣.
(٤) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٤٥):ص٧٤٤/٣.
(٦) تفسير الطبري:١٤٨/٧.
(٧) غريب القرآن لابن قتيبة:١٠٩.

قال ابن أبي زمنين:" يقول للمؤمنين: أنتم تحبون المنافقين؛ لأنهم أظهروا الإيمان، فأحبوهم على ما أظهروا، ولم يعلموا ما في قلوبهم"[٢].

قال الزجاج:" خطاب للمؤمنين، أعلموا فيه أن منافقي أهل الكتاب لا يحبونهم وأنهم هم يصحبون هؤلاء المنافقين بالبر والنصيحة التي يفعلها المحب وأن المنافقين على ضد ذلك، فأعلم الله جل وعز المؤمنين ما يسره المنافقون وهذا من آيات النبي - صلى الله عليه وسلم –"[٣].

قال قتادة:" فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوى له ويرحمه. ولو أن المنافق يقدر على ما يقدر عليه المؤمن منه ، لأباد خضراءه"[٤].

وقال ابن جريج:" المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن ، يرحمه. ولو يقدر المنافق من المؤمن على مثل ما يقدر المؤمن عليه منه ، لأباد خضراءه"[٥].

ولأهل العلم في قوله تعالى:{ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ}[آل عمران : ١١٩]، ثلاثة اوجه من التفسير:

أحدهما: أنهم المنافقون يجامعون المؤمنين بألسنتهم على الإيمان، فيحبونهم المؤمنون على ذلك. قاله الحسن[٦]، وروي عن قتادة [٧]نحوه.

والثاني: انهم الإباضية، وهذا قول أبي الجوزاء[٨].

والثالث: أنهم اليهود، والمعنى: تحبونهم يعني اليهود ولا يحبونكم. وهذا قول مقاتل بن حيان[٩].

قوله تعالى: { وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ}[آل عمران : ١١٩]، أي: وأنتم "تصدقون بكتب الله كلها"[١٠].

قال مقاتل:" كتاب محمد- صلى الله عليه وسلم- والكتب كلها التي كانت قبله"[١١].

قال ابن كثير:" أي : ليس عندكم في شيء منه شك ولا رَيْب ، وهم عندهم الشك والرِّيَب والحِيرة"[١٢].

قال الصابوني:" أي: وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها"[١٣].

قوله تعالى: { وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا}[آل عمران : ١١٩]، أي:" إذا لقوا المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطوهم بألسنتهم تقيةً حذرًا على أنفسهم منهم فقالوا لهم :قد آمنا وصدقنا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم "[١٤].

---

(١) تفسير ابن كثير:١٠٨/٢.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٣١٤/١.
(٣) معاني القرآن:٤٦٢/١.
(٤) أخرجه الطبري(٧٦٩٦):ص١٥١/٧.
(٥) أخرجه الطبري(٧٦٩٧):ص١٥١/٧.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٤٦):ص٧٤٤/٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٦٩٦):ص١٥١/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٧٠١):ص١٥٢/٧. و" الإباضية " ، فرقة من الحرورية ، وهم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي ، الخارج في أيام مروان بن محمد. ومن قولهم : إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة ، وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال ، وما سواه حرام ، وإن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد. وقالوا : إن مرتكب الكبيرة موحد ، لا مؤمن.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٤٩):ص٧٤٤/٣.
(١٠) معاني القرآن:٤٦٣/١.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٨/١.
(١٢) تفسير ابن كثير:١٠٨/٢.
(١٣) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(١٤) تفسير الطبري:١٥١/٧.

قال مقاتل بن حيان:" يعني: المنافقين إذا لقوا المؤمنين أظهروا الإيمان فيحبونهم على ما أظهروا لهم، ويرون أنهم صادقون بما يقولون ولا يعلمون بما في قلوبهم من الشك والكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم"[١].

قال الربيع بن أنس :"قوله: {وإذا لقوكم}، يعني: أهل النفاق إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم"[٢].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني صدقنا بمحمد- صلى الله عليه وسلم- وبما جاء به، وهم كذبة يعني اليهود مثلها فى المائدة- {وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر ...} إلى آخر الآية[٣] "[٤].

قال الزجاج:" أي نافقوكم"[٥].

قوله تعالى: { وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ}[آل عمران : ١١٩]، "أي: وإذا خلت مجالسهم منكم عضواً أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم"[٦].

قال المراغي: أي:" وإذا هم صاروا فى خلاء حيث لايراهم المؤمنون أظهروا شدة العداوة والغيظ منهم، حتى ليبلغ الأمر إلى عضّ الأنامل كما يفعل أحدنا إذا اشتد غيظه، وعظم حزنه على فوات مطلوبه، وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين، واجتماع كلمتهم، وصلاح ذات بينهم، ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلا إلى التشفي منهم، فاضطروا إلى مداراتهم"[٧].

قال قتادة:" إذا لقوا المؤمنين قالوا : " آمنا " ، ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم ، فصانعوهم بذلك " وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ " ، يقول : مما يجدون في قلوبهم من الغيظ والكراهة لما هم عليه. لو يجدون ريحًا لكانوا على المؤمنين، فهم كما نعت الله عز وجل"[٨].

قال الطبري: أي:" وإذا هم خلوا فصاروا في خلاء حيث لا يراهم المؤمنون، عضوا - على ما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم - أناملَهم ، وهي أطراف أصابعهم ، تغيُّظًا مما بهم من الموجدة عليهم ، وأسىً على ظهرٍ يسنِدون إليه لمكاشفتهم العداوة ومناجزتهم المحاربة"[٩].

قال أبيّ:" كان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية :{وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ} ، قال : هم الإباضية"[١٠].

وفي الأنامل قولان:

أحدهما: أنها أطراف الأصابع. قاله قتادة[١١]، والربيع[١٢]، والزجاج[١٣].

والثاني:أنها الأصابع. وهذا قول عبدالله[١٤]، والسدي[١٥]، والضحاك[١٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٥٢):ص٧٤٥/٣.
(٢)أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٥٢):ص٧٤٥/٣.
(٣) المائدة: ٦١.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٨/١.
(٥) معاني القرآن:٤٦٣/١.
(٦) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٧) تفسير المراغي:٣٦/٤-٤٧.
(٨) أخرجه الطبري(٧٦٩٩):ص١٥٢/٧.
(٩) تفسير الطبري:١٥١/٧-١٥٢.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٧٠١):ص١٥٢/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٧٠٢):ص١٥٣/٧.
(١٢)انظر: تفسير الطبري(٧٧٠٣):ص١٥٣/٧.
(١٣) انظر: معاين القرآن:٤٦٤/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٧٠٤):ص١٥٣/٧-١٥٤.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٧٧٠٣):ص١٥٣/٧.
(١٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٥٤):ص٧٤٦/٣.

قال الراغب:" والغيظ هو الغضب والغم، فإن الغضب يقال فيما معه القدرة، على الانتقام، والغم فيما ليس معه قدرة الانتقام، والغيظ فيما ليس معه تمام القدرة على الانتقام، ولذلك يستعمل في صفات الله الغضب دون الغيظ"(١).

قوله تعالى: { قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ}[آل عمران : ١١٩]، " أي: قل يا محمد: أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا"(٢).

قال الحجازي: أي:" أخبرهم يا محمد، أنهم لا يدركون ما يؤملون، فإن الموت دون ذلك"(٣).

قال الثعلبي:" إن قيل: كيف لا يموتون والله تعالى إذا قال لشيء كن فيكون؟

فالجواب: أن المراد ابقوا بغيضكم إلى الممات فإن مناكم عن الاسعاف محجوبة"(٤).

قال الطبري:" وخرَج هذا الكلام مخرج الأمر ، وهو دعاء من الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يدعو عليهم بأن يهلكهم الله ، كمَدًا مما بهم من الغيظ على المؤمنين ، قبل أن يروا فيهم ما يتمنون لهم من العنت في دينهم ، والضلالة بعد هداهم ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد : أهلكوا بغيظكم "(٥).

قال ابن كثير:" أي : مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن الله مُتمّ نعمته على عباده المؤمنين ومُكَمّلٌ دينه ، ومُعْلٍ كلمتَه ومظهر دينَه ، فموتوا أنتم بغيظكم"(٦).

قال الماتريدي:" إنما كان يغيظهم ما كان للمسلمين من السعة، والنصر، والتكثر، والعز؛ فيكون في ذلك دعاء لهم بتمام ذلك، حتى لا يروا فيهم الغير"(٧).

قال السعدي:" ي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم، وتموتون بغيظكم، فلن تدركوا شفاء ذلك بما تقصدون"(٨).

قوله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[آل عمران : ١١٩]، " أي: إن الله علام بما تكنة سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين"(٩).

قال الطبري:أي:" إن الله ذو علم بالذي في صدور جميع خلقه"(١٠).

قال مقاتل:" يعني: يعلم ما في قلوبهم من العداوة والغش للمؤمنين "(١١).

قال الثعلبي:أي:" بما في القلوب من خير وشر"(١٢).

قال ابن كثير:" أي : هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم ، وتُكنُّه سَرَائرُكُم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها ، فلا خروج لكم منها"(١٣).

وفي حرف حفصة: " {قل موتوا بغيظكم لن تضرونا شيئا}"(١٤).

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٢٧/٢.
(٢) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٣) التفسير الواضح، للحجازي:٢٧٢/١.[بتصرف].
(٤) تفسير الثعلبي:١٣٦/٣.
(٥) تفسير الطبري:١٥٤/٧.
(٦) تفسير ابن كثير:١٠٨/٢.
(٧) تفسير الماتريدي:٤٦٥/٢.
(٨) تفسير السعدي:٩٧٣.
(٩) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(١٠) تفسير الطبري:١٥٥/٧.[بتصرف].
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٨/١.
(١٢) تفسير الثعلبي:١٣٦/٣.
(١٣) تفسير ابن كثير:١٠٨/٢.
(١٤)تفسير الماتريدي:٤٦٥/٢.

الفوائد:
١-بيان علم الله تعالى بما في القلوب، لأن المحبة والكراهية من أعمال القلوب، ولايطلع عليها إلا الله تعالى، لكن لها آثار تدل عليها.
٢-التحذير ممن يبدي أنه ناصح لك وقلبه كاره لك، وعليه يجب عدم الاغترار بمن ظاهر حاله النصح، بل يجب القياس على الأفعال، لأن العبرة بالأفعال لا بالأقوال.
٣-أن هذه الأمة الاسلامية تؤمن بجميع الكتب المنزلة من عند الله.
٤-إثبات الأسباب، لقوله:{من الغيظ}، لأن {من} سببية، أي بسبب الغيظ، فكل مسبب له سبب قطعا.
٥-ينبغي للمسلم أن يكون قويا أمام أعدائه، لقوله:{قل موتوا بغيظكم}.
٦-إثبات علم الله لما في القلوب على وجه صريح، لقوله:{إن الله عليم بذات الصدور}، ودلالة هذه الجملة على علم الله بما في القلوب دلالة مطابقة، ودلالة قوله:{ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم} دلالة التزام.

القرآن
{إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)} [آل عمران : ١٢٠]
التفسير:
ومن عداوة هؤلاء أنكم -أيها المؤمنون- إن نزل بكم أمرٌ حسن مِن نصر وغنيمة ظهرت عليهم الكآبة والحزن، وإن وقع بكم مكروه من هزيمة أو نقص في الأموال والأنفس والثمرات فرحوا بذلك، وإن تصبروا على ما أصابكم، وتتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، لا يضركم أذى مكرهم. والله بجميع ما يعمل هؤلاء الكفار من الفساد محيط، وسيجازيهم على ذلك.
قوله تعالى: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ }[آل عمران : ١٢٠]،" أي: إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخصبٍ ونصرة وغنيمة ونحو ذلك ساءتهم"(١).
قال قتادة:" فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهورًا على عدوهم ، غاظهم ذلك وساءهم"(٢).
قال الربيع:" قال : هم المنافقون ، إذا رأوا من أهل الإسلام جماعة وظهورًا على عدوهم ، غاظهم ذلك غيظًا شديدًا وساءهم"(٣).
قال ابن كثير:" وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ، ونصر وتأييد ، وكثروا وعزّ أنصارهم ، ساء ذلك المنافقين"(٤).
قال الراغب:" الحسنة: عبارة عن كل ما يستحسنه الإنسان مما يسره من نعمة ينالها في بدنه وماله، وجاهه، والسيئة تضادها، والمس والإصابة يستعملان في الخير والشر، إلا أن المصيبة اختصت، بما يسوء"(٥).
وقرأ السلمي: {يمسسكم}، بالياء(٦).
قوله تعالى: {وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا}[آل عمران : ١٢٠]، "أي: وإن أصابكم ما يضركم
من شدةٍ وجدبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم"(١).

(١) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٢)أخرجه الطبري(٧٧٠٥):ص١٥٥/٧.
(٣)أخرجه الطبري(٧٧٠٦):ص١٥٦/٧.
(٤) تفسير ابن كثير:١٠٨/٢-١٠٩.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٣٠/٢-٨٣١.
(٦) تفسير الثعلبي:١٣٦/٣.

قال قتادة:" وإذا رأوا من أهل الإسلام فُرقة واختلافًا ، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين ، سرَّهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به. فهم كلما خرج منهم قَرْنٌ أكذبَ الله أحدوثته ، وأوطأ محلَّته ، وأبطل حجته ، وأظهر عورته ، فذاك قضاء الله فيمن مضى منهم وفيمن بقى إلى يوم القيامة"(٢).

قال الربيع:" وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافًا ، أو أصيب طرفٌ من أطراف المسلمين ، سرَّهم ذلك وأعجبوا به"(٣).

قال ابن كثير:" وإن أصاب المسلمين سيئة إما: جَدْب أو أُديل عليهم الأعداء ، لما لله في ذلك من الحكمة ، كما جرى يوم أُحُد ، فَرح المنافقون بذلك"(٤).

قوله تعالى: { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}[آل عمران : ١٢٠]،" أي: وإن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم"(٥).

قال ابن كثير:" يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكَيْدِ الفُجّار ، باستعمال الصبر والتقوى ، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة لهم إلا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه"(٦).

قال الزمخشري: أي:" وإن تصبروا على عداوتهم وتتقوا ما نهيتم عنه من موالاتهم. أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله في اجتنابكم محارمه كنتم في كنف الله فلا يضركم كيدهم. ... وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى. وقد قال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا في نفسك"(٧).

قال الطبري:" ويعني بـ {كيدهم} ، غوائلهم التي يبتغونها للمسلمين ، ومكرهم بهم ليصدّوهم عن الهدى وسبيل الحق"(٨).

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب:{ لا يَضُرُكُمْ } مخففة بكسر الضاد، وقرأ الضحاك بضم الضاد وجزم الراء خفيفة(٩).

قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}[آل عمران : ١٢٠]، أي: "إن الله عالم بما يعمل هؤلاء الكفار"(١٠).

قال الواحدي: يعني:" عالمٌ به فلن تعدموا جزاءه"(١١).

قال الزمخشري: "بمعنى أنه عالم بما يعملون في عداوتكم فمعاقبهم عليه"(١٢).

وقرأ الأعمش والحسن: {تعملون}، بالتاء(١٣)، والمعنى:"إن الله بما تعملون من الصبر والتقوى وغيرهما محيط، ففاعل بكم ما أنتم أهله"(١٤).

الفوائد:

---

(١) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٢)أخرجه الطبري(٧٧٠٥):ص١٥٥/٧-١٥٦.
(٣)أخرجه الطبري(٧٧٠٦):ص١٥٦/٧.
(٤) تفسير ابن كثير:١٠٩/٢.
(٥) صفوة التفاسير:٢٠٥.
(٦) تفسير ابن كثير:١٠٩/٢.
(٧) الكشاف:٤٠٨/١.
(٨) تفسير الطبري:١٥٦/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري:١٥٦/٧، وتفسير الثعلبي:١٣٧/٣ .
(١٠) تفسير الطبري:١٥٨/٧، وتفسير الثعلبي:١٣٧/٣.
(١١) الوجيز:٢٢٩.
(١٢) الكشاف:٤٠٨/١.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:١٣٧/٣.
(١٤) الكشاف:٤٠٨/١.

١-أن العدو لا تقبل شهادته على عدوه، لأن العدو إذا اصابت عدوه حسنة ساءته، وإذا أصابته سيئة فرح بها.
٢-أن العدوّ مهما أظهر لك من الصداقة فإنه كاذب.
٣-التحذير من تولية اليهود والنصارى لأمور المسلمين لأنهم لا يألوننا خبالا ويسرون بما يسوؤنا ويساؤون بما يسرنا.
٤-الاستعانة بالصبر والتقوى أمام كيد أعداء الاسلام، لأن الصبر والتقوى يدفع الأعداء، لقوله:{وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم}.
٥-إحاطة الله سبحانه وتعالى بعمل هؤلاء في كل شيء، في العلم والتدبير وإحباط أعمالهم وتدميرهم، فالله محيط بهم من كل وجه، ولكن قد يتأذى المسلم بكيد هؤلاء ابتلاءا من الله، فيجب الوثوق بوعد الله تعالى وانتظار الفرج منه تعالى.

القرآن

{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)} [آل عمران : ١٢١]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- حين خَرَجْتَ من بيتك لابسًا عُدَّة الحرب، تنظم صفوف أصحابك، وتُنْزِل كل واحد في منزله للقاء المشركين في غزوة «أُحُد» . والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة قال: "قلت لعبد الرحمن بن عوف: يا خالي أخبرني عن قصتكم يوم أحد فقال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا :{ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} إلى قوله: {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا}، قال: هم الذين طلبوا الأمان من المشركين"(١).

قوله تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ} [آل عمران : ١٢١]، " أي: اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلك"(٢).

قال مجاهد:" النبي صلى الله عليه وسلم مشى يومئذ على رجليه يبوئ المؤمنين"(٣).

قال قتادة:" يوم أحد، غدا نبي الله صلى الله عليه وسلم من أهله إلى أحد"(٤).

قال الزمخشري:" واذكر إذ غدوت من أهلك بالمدينة وهو غدوه إلى أحد من حجرة عائشة رضى الله عنها"(٥).

قوله تعالى: { تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [آل عمران : ١٢١]، أي:" تتخذ للمؤمنين معسكرًا وموضعًا لقتال عدوهم"(٦).

قال مقاتل:" يعني:توطن لهم مقاعد للقتال في الخندق قبل أن يستبقوا إليه ويستعدوا للقتال"(٧).

قال الزجاج:" روى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى في منامه كان عليه درعا حصينة. فأولها المدينة، فأمر - صلى الله عليه وسلم - المسلمين - حين أقبل إليهم المشركون

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٧٤):ص٧٤٩/٣.
(٢) صفوة التفاسير:٢٠٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٦٧):ص٧٤٨/٣.
(٤) أخرجه ابن المنذر(٨٦٢):ص٣٥٧/١.
(٥) الكشاف:٤٠٨/١.
(٦) تفسير الطبري:١٦٥/٧.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٨/١.

بالإقامة بها إلى أن يوافيهم المشركون فتكون الحرب بها فذلك تبوئة المقاعد للقتال، وقال بعضهم معناه: مواطن للقتال، والمعنى واحد"(1).

قال الماتريدي:" قيل: تهيئ للمؤمنين أمكنة القتال، وقيل: {تبوئ}: تنزل المؤمنين، وقيل: {تبوئ المؤمنين}: تتخذ للمؤمنين مقاعد لقتال المشركين، وقيل: {تبوئ}: توطن، وقيل: تستعد للقتال، كله يرجع إلى واحد"(2).

وفي قراءة عَبْد اللَّه :{تبوىء للمؤمنين مقاعد للقتال}، قال الفراء:" والعرب تفعل ذلك، فيقولون:ردفك وردف لك"(3).

وقرأ يحيى بن وثاب: {تبوي المؤمنين}، خفيفة غير مهموزة، قال الثعلبي:" والتشديد أفصح وأشهر، وتصديقه قوله تعالى: {ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق} ، وقال {لنبوئنهم من الجنة غرفا}"(4).

واختلف في أي حرب كان قوله تعالى: { تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [آل عمران : ١٢١]، وفيه وجوه:

أحدها: أنه يوم أحد. قاله ابن عباس(5)، وهو معنى قول عبدالرحمن بن عوف(6)، وهو قول الأكثرين(7).

قال قتادة:" ذلك يوم أحد، غدا نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم من أهله إلى أحُد يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال"(8).

قال الربيع:" فغدا النبي صلى الله عليه وسلم من أهله إلى أحد يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال"(9).

والثاني: أنه يوم الأحزاب. وهذا قول الحسن(10).

والثالث: وقيل: أنه كان يوم الخندق(11).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران : ١٢١]، " أي: والله سميع لأقوالكم عليمٌ بأحوالكم"(12).

قال محمد بن إسحاق:" أي : سميع لما يقولون ، عليم بما يخفون"(13).

قال الماتريدي:" يحتمل. سميع لمقالتكم؛ عليم بسرائركم، ويحتمل: سميع بذكركم الله والدعاء له؛ لأنهم أمروا بالذكر لله، والثبات للعدو بقوله - عز وجل -: (فاثبتوا واذكروا الله كثيرا)، وعليم بثوابكم، ويحتمل قوله: {سميع عليم}: البشارة من الله - عز وجل - بالنصر لهم، والأمن من ضرر يلحقهم؛ كقوله - تعالى - لموسى وهارون: {فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٤) قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (٤٥)} [طه:٤٤-٤٥]، ثم قال - عز وجل -: {قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} [طه: ٤٦]، أمنهما من عدوهما بقوله - عز

---

(١) معاني القرآن:١/٤٦٥.
(٢) تفسير الماتريدي:٢/٤٦٦.
(٣) معاني القرآن:١/٢٣٣.
(٤) تفسير الثعلبي:٣/١٣٩.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٦٩):ص٣/٧٤٨.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٧٤):ص٣/٧٤٩.
(٧) انظر: تفسير الماتريدي:٢/٤٦٦.
(٨) أخرجه الطبري(٧٧٠٩):ص٧/١٦٠.
(٩) أخرجه الطبري(٧٧١٠):ص٧/١٦٠.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٠٧٠):ص٣/٧٤٨.
(١١)انظر: تفسير الماتريدي:٢/٤٦٦.
(١٢) صفوة التفاسير:٧/٢٠٧.
(١٣) أخرجه الطبري(٧٧١٩):ص٧/١٦٥.

وجل -: {أسمع وأرى}، فعلى ذلك يحتمل ذا في قوله - عز وجل -: {سميع عليم}، ويكون سميع: أي: أسمع دعاءكم؛ بمعنى: أجيب، وأعلم ما به نصركم وظفركم"(١).
الفوائد:
١-حسن تدبير رسول الله-صلى الله عليه وسلم- في الحرب.
٢-أنه ينبغي للقائد أن يبوئ أمكنة المقاتلين يعرّف كل واحد منهم مكانه وعمله، لأن للنظام فوائد كبيرة ولاسيما في هذه الأعمال.
٣-شهادة الله تعالى للذين خرجوا في احد بأنهم مؤمنون، لأن المنافقين رجعوا قبل أن يصلوا إلى مكان القتال في أثناء السير.
٤-إثبات هذين الإسمين لله، وهما: السميع والعليم، فالسميع يتعلق بالأصوات، والعليم يتعلق بما هو اعم، بما يدرك بالسمع وماما يدرك بالبصر وغير ذلك، فالعليم هو من اوسع الأسماء دلالة.

القرآن
{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)} [آل عمران : ١٢٢]
التفسير:
اذكر -أيها الرسول- ما كان من أمر بني سَلِمة وبني حارثة حين حدثتهم أنفسهم بالرجوع مع زعيمهم المنافق عبد الله بن أُبيٍّ; خوفًا من لقاء العدو، ولكن الله عصمهم وحفظهم، فساروا معك متوكلين على الله. وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون.
سبب النزول:
أخرج البخاري(٢) ومسلم(٣) وغيرهما(٤)، من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار:" سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}"(٥).
قوله تعالى:{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا}[آل عمران:١٢٢]، "أي: حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع"(٦).
قال الواحدي:أي:" أنْ تجبنا، وذلك أنَّ هؤلاء همُّوا بالانصراف عن الحرب فعصمهم الله"(٧).
قال الطبري:" همَّا أن يضعفا ويجبنا عن لقاء عدوّهما"(٨).
قال ابن عباس: " الفشل : الجبن"(٩).
وقال محمد بن إسحاق:"{أن تفشلا}: أي أن يتخاذلا"(١٠).
قال عكرمة:" : نزلت في بني سلِمة من الخزرج ، وبني حارثة من الأوس ، ورأسهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول"(١).

(١) تفسير الماتريدي:٤٦٧/٢.
(٢)في "صحيحه" كتاب "المغازي" باب غزوة أحد "الفتح" "٧/ ٣٥٧" وكتاب التفسير "الفتح" "٨/ ٢٢٥".
(٣)في "صحيحه"، كتاب "فضائل الصحابة"، باب من فضائل الأنصار "٤/ ١٩٤٨".
(٤)كالطبري "٧/ ١٦٧" "٧٧٢٨" وابن حاتم "٢/ ١/ ٥١١" "١٣٢٠" و"٥١٤" "١٣٣٠".
وزاد السيوطي "٢/ ٣٠٥" نسبته إلى سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في "الدلائل".
(٥) العجاب:٧٤٠/٢-٧٤١.
(٦) صفوة التفاسير:٢٠٧.
(٧) الوجيز:٢٢٩.
(٨) تفسير الطبري:١٦٨/٧.
(٩) أخرجه الطبري(٧٧٣١):ص١٦٨/٧.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٤٠٧٦):ص٧٤٩/٣.

قال قتادة:" وذلك يوم أحد ، والطائفتان : بنو سلِمة وبنو حارثة ، حيان من الأنصار ، همُّوا بأمر فعصمهم الله من ذلك، وقد ذكر لنا أنه لما أنزلت هذه الآية قالوا : ما يسرُّنا أنَّا لم نَهُمَّ بالذي هممنا به ، وقد أخبرنا الله أنه ولينا"(٢).

أي :"لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية. وإن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى"(٣).

وقال السدي:" خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد في ألف رجل ، وقد وعدهم الفتحَ إن صبروا. فلما رجع عبد الله بن أبي ابن سلول في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم ، فلما غلبوه وقالوا له : ما نعلم قتالا ولئن أطعتنا لترجعنَّ معنا وقال [الله عز وجل] : " إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا " ، وهم بنو سلمة وبنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي ، فعصمهم الله ، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمئة"(٤).

وقال الحسن:" هما طائفتان من الأنصار همتا أن تفشلا فعصمهما الله، فهزم الله عدوهم"(٥).

أخرج الطبري عن مجاهد في قول الله : " {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا}، قال : بنو حارثة ، كانوا نحو أحُد ، وبنو سلِمة نحو سَلْع ، وذلك يوم الخندق"(٦).

قال الثعلبي:" {إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا}: تجبنا وتضعفا وتتخلفا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم بنو أسامة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد في ألف رجل، وقيل: تسعمائة وتسعين رجلا، وقال الزجاج: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد وقت القتال ثلاثة آلاف، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد وقد وعد أصحابه الفتح إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخزل عبد الله بن أبي الخزرجي ثلث الناس فرجع في ثلاثمائة، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم أبو جابر السلمي فقال: أنشدكم الله في نبيكم وفي أنفسكم. فقال عبد الله بن أبي: لو نعلم قتالا لاتبعناكم. وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أبي فعصمهم الله فلم ينصرفوا، ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرهم الله عظيم نعمته بعصمته فقال: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما"(٧).

قال الزمخشري:" وعن ابن عباس رضى الله عنه: «أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا»، والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه، كما قال عمرو بن الأطنابة:

أقول لها إذا جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى

حتى قال معاوية: عليكم بحفظ الشعر، فقد كدت أضع رجلي في الركاب يوم صفين، فما ثبت منى إلا قول عمرو بن الأطنابة. ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية"(٨).

قوله تعالى:{ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}[آل عمران:١٢٢]، أي:"والله ناصرهما ومتولي امرهما"(٩).

قال الثعلبي:أي"ناصرهما وحافظهما"(١٠).

---

(١)أخرجه الطبري(٧٧٢٤):ص١٦٦/٧-١٦٧.
(٢) أخرجه الطبري(٧٧٢١):ص١٦٦/٧.
(٣) محاسن التأويل:٤٠٢/٢.
(٤)أخرجه الطبري(٧٧٢٣):ص١٦٦/٧-١٦٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٧٥):ص٧٤٩/٣.
(٦) تفسير الطبري(٧٧٢٠):ص١٦٦/٧.
(٧) تفسير الثعلبي:١٣٩/٣.
(٨) الكشاف:٤٠٩/١-٤١٠.
(٩) صفوة التفاسير:٢٠٧.
(١٠) تفسير الثعلبي:١٣٩/٣.

قال البيضاوي:" ي عاصمهما من اتباع تلك الخطرة، ويجوز أن يراد والله ناصرهما فما لهما يفشلان ولا يتوكلان على الله"[١].

قال محمد بن إسحاق:" أي : المدافع عنهما ما همَّتا به من فشلهما، وذلك أنه إنما كان ذلك منهما عن ضعف ووهن أصابهما ، من غير شك أصابهما في دينهما ، فتولى دفع ذلك عنهما برحمته وعائدته حتى سلمتا من وهنهما وضعفهما ، ولحقتا بنبِّيهما صلى الله عليه وسلم"[٢].

وقرأ ابن مسعود: {وَاللهُ وَلِيُّهُمْ} ، قال الطبري:"وإنما جاز أن يقرأ ذلك كذلك ، لأن الطائفتين، وإن كانتا في لفظ اثنين ، فإنهما في معنى جماع ، بمنزلة : الخصمين والحزبين [٣].

قوله تعالى:{ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران:١٢٢]، أي:" وعلى الله فليتوكل في أمورهم أهل الإيمان به"[٤].

قال مقاتل:" يعني فليثق المؤمنون به "[٥].

قال البيضاوي:" أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر"[٦].

قال أبو السعود:أي:" في جميع أمورهم فإنه حسبهم وإظهار الاسم الجليل للتبرك والتعليل فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى واللام في المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته"[٧].

قال محمد بن إسحاق:" أي : من كان به ضعف من المؤمنين أو وهَن ، فليتوكل عليّ ، وليستعن بي أعنِه على أمره ، وأدفع عنه ، حتى أبلغ به وأقوّيه على نيته"[٨].

قال ابن عطية:" أمر في ضمنه التغبيط للمؤمنين بمثل ما فعله بنو حارثة وبنو سلمة من المسير مع النبي صلى الله عليه وسلم"[٩].

الفوائد:

١-أن الدعاية ولو كانت باطلة ربما تؤثر على المؤمن.

٢-أن الله تعالى قد يلطف بالمؤمن حتى يثبته على الحق.

٣-منّة الله تعالى على هاتين الطائفتين، إذ إن الله كان وليا لهما، ولهذا فرحت الطائفتان بهذه الولاية.

٤-وجوب التوكل على الله وأنه من مقتضى الإيمان، وأنه إذا قوي الإيمان قوي التوكل.

القرآن

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)} [آل عمران : ١٢٣]

التفسير:

ولقد نصركم الله -أيها المؤمنون- بـ «بدر» على أعدائكم المشركين مع قلة عَدَدكم وعُدَدكم، فخافوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه; لعلكم تشكرون له نعمه.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ}[آل عمران:١٢٣]، أي:"ولقد نصركم الله يوم بدر وأنتم يومئذ قليلون"[١٠].

---

(١) تفسير البيضاوي:٣٦/٢.
(٢) أخرجه الطبري(٧٧٣٢):ص١٦٨/٧.
(٣) تفسير الطبري:١٦٩/٧.
(٤) تفسير الطبري:٢٤٣/٢٣.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٩/١.
(٦) تفسير البيضاوي:٣٦/٢.
(٧) تفسير أبي السعود:٧٨/٢.
(٨) أخرجه الطبري(٧٧٣٢):ص١٦٨/٧-١٦٩.
(٩) المحرر الوجيز:٥٠١/١.
(١٠) تفسير الطبري:١٦٩/٧.

قال ابن إسحاق:" يقول : وأنتم أقل عددًا وأضعف قوة"[1].

قال الحسن:" : يقول : " وأنتم أذلة " ، قليل ، وهم يومئذ بضعة عشر وثلثمئة"[2].

قال ابن عباس:" عدد أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر وكان المهاجرون منهم سبعة وسبعين، وكان الأنصار مائتين وستة وثلاثين"[3].

قال ابن كثير:" أي : قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله ، لا بكثرة العَدَد والعُدَد ؛ ولهذا قال في الآية الأخرى : { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(٢٥) ثُمَّ أَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ(٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة : ٢٥ - ٢٧]"[4].

قال الراغب:" وجعلهم أذلة لا على الحقيقة والمصدوقة، - فمن نصره الله فغير ذليل، ولكن على اعتبار العامة لقلتهم وقلة عدتهم، وهذه أيام تابع الله ذكرها وذكر المسلمين بعظم ما أولاهم فيها تثبيتا لقلوبهم، وتذكيرا بنعمه عليهم"[5].

قال الضحاك:"«بدر»، ماء عن يمين طريق مكة ، بين مكة والمدينة"[6].

قال قتادة:" وبدر ماء بين مكة والمدينة ، التقى عليه نبي الله صلى الله عليه وسلم والمشركون ، وكان أول قتال قاتله نبي الله صلى الله عليه وسلم وذكر لنا أنه قال لأصحابه يومئذ : " أنتم اليوم بعدَّة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت " : فكانوا ثلثمئة وبضعة عشر رجلا والمشركون يومئذ ألفٌ ، أو راهقوا ذلك"[7].

واختلف في المعنى الذي من أجله سمي بدر " بدرًا " على قولين:

أحدهما: أنه سمي بذلك ، لأنه كان ماء لرجل يسمى " بدرًا "[8] ، فسمي باسم صاحبه. قاله الشعبي[9]، ورجّحه الراغب[10]، والبيضاوي[11] وغيرهما.

والثاني: أن ذلك اسم سميت به البقعة ، كما سمى سائر البلدان بأسمائها من غير إضافة إلى اسم صاحب. وهذا قول عبدالله بن جعفر[12]، ومحمد بن صالح[13]، ويحيى بن النعمان الغفاري[14].

قوله تعالى:{ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[آل عمران:١٢٣]، أي:" فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه، لتشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر"[15].

قال ابن إسحاق:" أي : فاتقون ، فإنه شكر نعمتي"[16].

قال ابن الجوزي:" أي لتكونوا من الشاكرين."[1].

---

(١) أخرجه الطبري(٧٧٣٣):ص١٧٠/٧.

(٢)أخرجه الطبري(٧٧٣٩):ص١٧٢/٧.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٨٩):ص٧٥١/٣.

(٤) تفسير ابن كثير:١١١/٢.

(٥) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٣٩/٢.

(٦)أخرجه الطبري(٧٧٣٧):ص١٧١/٧.

(٧)أخرجه الطبري(٧٧٣٨):ص١٧١/٧.

(٨) قال العز بن عبدالسلام:" {بِبَدْرٍ} اسم ماء سمي باسم صاحبه:بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة".[تفسير العزبن عبدالسلام:٢٨١/١]

(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٧٣٤):ص١٧٠/٧.

(١٠) انظر: تفسير راغب الأصفهاني:٨٣٨/٢-٨٣٩.

(١١) انظر: تفسير البيضاوي:٣٦/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٧٣٦):ص١٧٠/٧.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٧٣٦):ص١٧٠/٧.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٧٣٤):ص١٧٠/٧-١٧١.

(١٥) تفسير الطبري:١٦٩/٧.

(١٦) أخرجه الطبري(٧٧٣٣):ص١٧٠/٧.

قال الراغب:" أمرهم بالتقوى المؤدية إلى شكرهم لها"[٢].
قال سفيان يعني ابن عيينة: على كل مسلم أن يشكر الله في نصره ببدر، يقول الله: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون}"[٣].
قال الثعلبي:" جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ست وعشرون غزوة، فأول غزوة غزاها غزوة ودان، وهي غزوة الأبواء، ثم غزوة بواط إلى ناحية رضوى، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع، ثم غزوة بدر الأولى بطلب كرز بن جابر، ثم غزوة بدر الكبرى التي قتل الله فيها صناديد قريش، ثم غزوة بني سليم حتى بلغ الكدر ماء لبني سليم، ثم غزوة السويق يطلب أبا سفيان بن حرب حتى بلغ قرقرة الكدر، ثم غزوة ذي أمر وهي غزوة غطفان إلى نجد، ثم غزوة نجران: موضع بالحجاز فوق الفرع، ثم غزوة أحد ثم غزوة الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع من نجد، ثم غزوة بدر الأخيرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قريظة، ثم غزوة بني لحيان، ثم غزوة بني قردة، ثم غزوة بني المصطلق من بني خزاعة لقي فيها، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالا فصده المشركون، ثم غزوة خيبر، ثم غزوة الفتح: فتح مكة، ثم غزوة حنين لقي فيها، ثم غزوة الطائف حاصر فيها، ثم غزوة تبوك.
قاتل منها في تسع غزوات: غزوة بدر الكبرى، وهو يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وأحد في شوال سنة ثلاث، والخندق، وبني قريظة في شوال سنة أربع، وبني المصطلق، وبني لحيان في شعبان سنة خمس، وخيبر سنة ست، والفتح في رمضان سنة ثمان، وحنين في شوال سنة ثمان. فأول غزوة غزاها بنفسه وقاتل فيها بدر وآخرها تبوك"[٤].
الفوائد:
١-امتنان الله سبحانه وتعالى على رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وأصحابه بنصرهم في بدر، والنصر لهم للأمة إلى يوم القيامة.
٢-أنه النصر لايكون بكثرة العدد وقوة العُدد، وإنما يكون من عند الله وحده.
٣-أنه كلما كان الإنسان أذلّ كان أقرب إلى نصر الله.، والعكس صحيح.
٤-أنه من منّ الله عليه بنعمة كان ذلك موجبا لتقوى الله، لأن تقوى الله من الشكر لله.

القرآن
{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤)} [آل عمران : ١٢٤]
التفسير:
اذكر -أيها النبي- ما كان من أمر أصحابك في «بدر» حين شقَّ عليهم أن يأتي مَدَد للمشركين، فأوحينا إليك أن تقول لهم: ألن تكفيكم معونة ربكم بأن يمدكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين من السماء إلى أرض المعركة، يثبتونكم، ويقاتلون معكم؟
في سبب نزول الآية أقوال:
أحدها: أخرج الطبري عن الشعبي قال : "حُدِّث المسلمون أن كرزَ بن جابر المحاربي يريد أن يمدّ المشركين ببدر ، قال : فشق ذلك على المسلمين ؛ فأنزل الله عز وجلّ : {ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم} إلى قوله : {من الملائكة مسوِّين}، قال : فبلغته هزيمة المشركين ، فلم يمدّ

(١) زاد المسير:٣٢٠/١.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٣٩/٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٠٩١):ص٧٥١/٣.
(٤) تفسير الثعلبي:١٤٠/٣.

أصحابه ، ولم يمدُّوا بالخمسة"[1]، وروي نحو ذلك المعنى عن مالك بن ربيعة[2]، وابن عباس[3]، والحسن[4]، وقتادة[5]، والربيع[6]، ومجاهد[7].
والثاني: أن ذلك الإمداد كان يوم الاحزاب. وهذا قول عبد الله بن أبي أوفى[8].
والثالث: أن الآية في سياق معركة أحد، إذ وعدهم الله عز وجل المدد إن صبروا، فلم يصبروا فلم يمدوا. وهذا قول عكرمة[9]، والضحاك[10]، وابن زيد[11].
والرابع: ونقل الثعلبي وجها آخر، فقال:" وكان هذا يوم أحد حين انصرف أبو سفيان وأصحابه وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن يدخل المشركون المدينة، فبعث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فقال: «اخرج على آثار القوم فانظر ما يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد أجبنوا الخيل وركبوا وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، فو الذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم» . قال علي -رضي الله عنه-:«فخرجت في آثارهم أنظر ما يصنعون، فإذا هم قد أجبنوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أي ذلك كان فأخفه حتى تأتيني، فلما رأيتهم قد توجهوا إلى مكة أقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم لما بي من الفرح، وانصرفوا إلى مكة وانصرفنا إلى المدينة، فأنزل الله تعالى في ذلك:{ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم}، يعني: أن انصرفوا إليكم ودخلوا المدينة"[12].

قوله تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ}[آل عمران : ١٢٤]، أي:" إذ تقول يامحمد للمؤمنين بك من أصحابك"[13].

قوله تعالى:{أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ}[آل عمران : ١٢٤]، أي:" أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة"[14].

قال الماوردي:" والكفاية مقدار سد الخلة ، والاكتفاء الاقتصار عليه ، والإمداد إعطاء الشيء حالاً بعد حال ، والأصل في الإمداد هو الزيادة ومنه مد الماء وهو زيادته "[15].

وفي الفرق بين أمدّه ويمده، قولان:

أحدهما: أن كل ما كان على جهة القوة والإعانة، قيل فيه: أمده يمده إمدادا، وكل ما كان على جهة الزيادة قيل: مده يمده مدا، ومنه قوله: { وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ} [لقمان : ٢٧]. وهذا قول المفضل[16].

والثاني: وقيل: أن المد في الشر، والإمداد في الخير. يدل عليه قوله تعالى: {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة : ١٥]، وقوله : {وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} [مريم : ٧٩].

---

(١)
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٧٤٧):ص١٧٥/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٠):ص١٧٥/٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٧٤٥):ص١٧٤/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٤):ص١٧٧/٧-١٧٨.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٥):ص١٧٨/٧.
(٧)انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٧):ص١٧٨/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٨):ص١٧٨/٧-١٧٩.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٩):ص١٧٩/٧-١٨٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦١):ص١٨٠/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦٢):ص١٨٠/٧.
(١٢) تفسير الثعلبي:١٤٢/٣-١٤٣.
(١٣) تفسير الطبري:١٧٣/٧.
(١٤) صفوة التفاسير:٢٠٧.
(١٥) النكت والعيون:٤٢١/١.
(١٦) انظر: تفسير الثعلبي:١٤٣/٣.

وقال في الخير {أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ } [الأنفال : ٩] ،وقال: {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ} [آل عمران : ١٢٥]، وقال: {وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ} [الإسراء : ٦] [(١)].

وفي قراءة أبي: "{ألا يكفيكم أن يمدكم ربكم}، أي: يعطيكم ويعينكم"[(٢)].

قوله تعالى:{مُنْزَلِينَ}[آل عمران : ١٢٤]، أي:" منزلين لنصرتكم"[(٣)].

قال ابن عباس:" لم تُقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَددًا ومَددًا لا يضربون"[(٤)].

وأخرج الطبري عن أبي داود المازني ، وكان شهد بدرًا، قال: "إني لأتبعُ رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي ، فعرفت أن قد قتله غيري"[(٥)].

أخرج الطبري عن عن محمد بن إسحاق قال: "حدثني عبد الله بن أبي بكر : أنه حُدِّث عن ابن عباس : أن ابن عباس قال : حدثني رجل من بني غفار قال : أقبلت أنا وابن عمّ لي حتى أصعدنا في جبل يُشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، ننتظر الوقعة ، على من تكون الدَّبْرة فننتهبُ مع من ينتهب. قال : فبينا نحن في الجبل ، إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم[(٦)]. قال : فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت"[(٧)].

وأخرج الطبري بسنده عن عكرمة مولى ابن عباس قال : "قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهلَ البيت ، فأسلم العباس وأسلمتْ أم الفضل وأسلمتُ. وكان العباس يهاب قومه ويكرَهُ أن يخالفهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه. وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلّف عن بدر وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة. وكذلك صنعوا ، لم يتخلّف رجل إلا بعث مكانه رجلا. فلما جاء الخبرُ عن مُصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعِزًّا. قال : وكنت رجلا ضعيفًا ، وكنت أعمل القِداح أنحتها في حجرة زمزم ، فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح ، وعندي أم الفضل جالسة ، وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرُّ رجليه بشرٍّ حتى جلس على طُنُب الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهري. فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم! قال : قال أبو لهب : هلُمّ إليّ يا ابن أخي ، فعندك الخبر! قال : فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال : يا ابن أخي أخبرني ، كيف كان أمرُ الناس ؟ قال : لا شيء والله ، إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا! وايم الله ، مع ذلك ما لمتُ الناس ، لقينا رجالا بيضًا على خيل بلق ما بين السماء والأرض ما تلِيق شيئًا ، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت : تلك الملائكة!"[(٨)].

وعن ابن عباس قال : "كان الذي أسر العباس أبا اليَسَر كعب بن عمرو أخو بني سلِمة ، وكان أبو اليسر رَجلا مجموعًا ، وكان العباس رجلا جسيما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي اليسر : " كيف أسرت العباس أبا اليسر ؟! قال : يا رسول الله ، لقد أعانني عليه

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي:١٤٣/٣.
(٢) تفسير الثعلبي:١٤٣/٣.
(٣) صفوة التفاسير:٢٠٧.
(٤) أخرجه الطبري(٧٧٥٠):ص١٧٥/٧.
(٥) أخرجه الطبري(٧٧٥١):ص١٧٥/٧-١٧٦.
(٦)قوله : " أقدم " هي كلمة زجر تزجر بها الخيل ، وأمر لها بالتقدم. وحيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة يومئذ. ويقال هو فرس جبريل عليه السلام.
(٧) تفسير الطبري(٧٧٤٩):ص١٧٥/٧.
(٨) أخرجه الطبري(٧٧٥٣):ص١٧٦/٧-١٧٧.

رجلٌ ما رأيته قبل ذلك ولا بعده ، هيئته كذا وكذا! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد أعانك عليه ملك كريم " [١].

واختلف المفسرون في هذا الوعد:هل كان يوم بَدْر أو يوم أُحُد ؟ على أقوال :

أحدها: إن الله عز وجل كان وعد المؤمنين يوم بدر أن يمدَّهم بملائكته ، إن أتاهم العدو من فورهم ، فلم يأتوهم ، ولم يُمَدُّوا. وهذا عامر الشعبي[٢].

والثاني: كان هذا الوعد من الله لهم يوم بدر ، فصبر المؤمنون واتقوا الله ، فأمدهم بملائكته على ما وعدهم. وهذا قول مالك بن ربيعة[٣]،وابن عباس[٤]، والحسن[٥]، وقتادة[٦]، والربيع[٧]، ومجاهد[٨].

والثالث: أن ذلك الإمداد كان يوم الاحزاب، وإنما وعدهم يوم بدر أن يمدَّهم إن صبروا عند طاعته وجهاد أعدائه ، واتقوه باجتناب محارمه ، أن يمدهم في حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب ، فأمدَّهم حين حاصروا قريظة. وهذا قول عبد الله بن أبي أوفى[٩].

والرابع: وقال آخرون بنحو معنى القول الثالث، غير أنهم قالوا : لم يصبر القوم ولم يتقوا ولم يُمدوا بشيء في أحُد. وهذا قول عكرمة[١٠]، والضحاك[١١]، وابن زيد[١٢].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبرَ عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : ألن يكفيَكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددًا لهم ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف ، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله. ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآف ، ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم، وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم ، على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صحَّ من الوجه الذي يثبت أنهم أمِدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف. وغير جائز أن يقال في ذلك قولٌ إلا بخبر تقوم الحجة به. ولا خبر به كذلك ، فنسلم لأحد الفريقين قوله. غير أنّ في القرآن دلالةً على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة ، وذلك قوله : {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سورة الأنفال : ٩] فأما في يوم أحُد ، فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبينُ منها في أنهم أمدوا. وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا ، ويُنالَ منهم ما نيل منهم، فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره"[١٣].

وفي قوله تعالى: {مُنْزَلِينَ}[آل عمران:١٢٤] قراءتان[١٤]:

إحداهما: {مُنْزِلِينَ}: بكسر الزاي، مخففا، يعني منزلين النصر. وهي قراءة أبو حيوة.

(١) أخرجه الطبري(٧٧٥٤):ص١٧٧/٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٧٤٣):ص١٧٣/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٧٤٧):ص١٧٥/٧.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٠):ص١٧٥/٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٧٤٥):ص١٧٤/٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٤):ص١٧٧/٧-١٧٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٥):ص١٧٨/٧.
(٨)انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٧):ص١٧٨/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٨):ص١٧٨/٧-١٧٩.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٧٥٩):ص١٧٩/٧-١٨٠.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦١):ص١٨٠/٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦٢):ص١٨٠/٧.
(١٣) تفسير الطبري:١٨٠/٧-١٨١.
(١٤) انظر: تفسير الثعلبي:١٤٣/٣.

والثانية: {مُنْزَلِينَ}، مشددة مفتوحة الزاي على التكثير، وتصديقه قوله: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ} [الأنعام : ١١١]. وهي قراءة الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف وعمر ابن ميمون وابن عامر.

الفوائد:

١- إدخال الأمل في قلوب الناس عند اشتداد الازمات.

٢- إثبات الربوبية الخاصة، لقوله:{أن يمدكم ربكم}، والربوبية نوعان: خاص، مثل هذه الآية الكريمة، وعام: مثل قوله:{الحمد لله ربا عالمين}[الفاتحة:٢].

٣- أن الملائكة اجسام يحصون بالعدد.

٤- أن موطن الملائكة هو السماء، هذا هو الأصلـ لقوله:{منزلين}.

القرآن

{بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)} [آل عمران : ١٢٥]

التفسير:

بلى يكفيكم هذا المَدَد. وبشارة أخرى لكم: إن تصبروا على لقاء العدو وتتقوا الله بفِعْل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، ويأت كفار «مكة» على الفور مسرعين لقتالكم، يظنون أنهم يستأصلونكم، فإن الله يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين أي: قد أعلموا أنفسهم وخيولهم بعلامات واضحات.

قوله تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا}[آل عمران : ١٢٥]،" أي: بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتقيتم الله وأطعتم أمره"[١].

قوله تعالى: {وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا }[آل عمران : ١٢٥]،" أي: يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه"[٢].

وفي قوله: {وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا }[آل عمران : ١٢٥]، وجهان:

أحدهما: يعني: من وجههم هذا ، وهو قول ابن عباس[٣]، والحسن[٤] ، وقتادة[٥]، وعكرمة[٦]، والربيع[٧]، والسدي[٨]، وابن زيد[٩].

والثاني : أن المعنى: من غضبهم هذا ، وهو قول مجاهد[١٠]، والضحاك[١١]، وأبي صالح[١٢]، وعكرمة في إحدى الروايات عنه[١٣].

قال الماوردي:" وأصل الفور فور القِدْر ، وهو غليانها عند شدة الحمى ، ومنه فَوْرُ الغضب لأنه كَفَوْرِ القِدْر "[١٤].

---

(١) صفوة التفاسير:٢٠٧.

(٢) صفوة التفاسير:٢٠٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦٩):ص١٨٢/٧.

(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦٦):ص١٨١/٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦٤):ص١٨١/٧.

(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦٣):ص١٨١/٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦٧):ص١٨٢/٧.

(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٧٦٨):ص١٨٢/٧.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٧٧٠):ص١٨٢/٧.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٧٧٣):ص١٨٢/٧.

(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٧٧٥):ص١٨٣/٧.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٧٧٢):ص١٨٢/٧.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٧٧١):ص١٨٢/٧.

(١٤) النكت والعيون:٤٢١/١.

قوله تعالى: {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ}[آل عمران : ١٢٥]، " أي: يزدكم الله مدداً من الملائكة"[١].

قوله تعالى:{مُسَوِّمِينَ}[آل عمران : ١٢٥]، أي:" معلَّمين على السلاح ومدربين على القتال"[٢].

عن السدي : "{مسومين}: معلمين"[٣].

قال مقاتل:" يعني معلمين بالصوف الأبيض في نواصي الخيل، وأذنابها عليها البياض معتمين بالبياض وقد أرخوا أطراف العمائم بين أكتافهم"[٤].

قال ابن كثير:" أي : معلمين بالسِّيما"[٥].

قال الماتريدي:" وقوله: {مسومين}قيل: {منزلين}؛ و{مسومين} سواء، وهو من الإرسال؛ ومن التسويم، وقيل: معلمين بعلامة، وذلك - والله أعلم - ليعلم المؤمنين حاجتهم إلى العلامة، لا أن الملائكة يحتاجون إلى العلامة"[٦].

قال الثعلبي:" والسومة: العلامة التي يعلم بها الفارس نفسه في الحرب"[٧].

أخرج الطبري بسنده عن الزبير بن المنذر ، عن جده أبي أسيد - وكان بدريًا - فكان يقول: "لو أن بصري فُرِّج منه، ثم ذهبتم معي إلى أحد ، لأخبرتكم بالشِّعب الذي خرجت منه الملائكة في عمائم صُفر قد طرحوها بين أكتافهم"[٨].

وقال علي-كرّم الله وجهه-:" كان سيما الملائكة أهل بدر الصوف الأبيض، وكان سيما الملائكة أيضا في نواصي خيولهم"[٩].

وعن أبي هريرة في هذه الآية:"{مسومين}، قال: بالعهن الأحمر"[١٠].

واختلفوا في التسويم على قولين:

أحدهما : أنه كان بالصوف في نواصي الخيل وآذانها ، وهو قول علي-كرّم الله وجهه-[١١]، وابن عباس[١٢]، والحسن[١٣]، وقتادة[١٤]، ومجاهد[١٥] ، والضحاك[١٦].

الثاني : أن الملائكة نزلت يوم بدر على خيل بلق وعليهم عمائم صفر ، وهو قول هشام بن عروة[١٧]، وعبدالله بن الزبير[١٨]، والربيع[١٩].

---

(١) صفوة التفاسير:٢٠٧.
(٢) صفوة التفاسير:٢٠٧.
(٣) أخرجه الطبري(٧٧٨٥):ص١٨٨/٧.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٩/١.
(٥) تفسير ابن كثير:١١٣/٢.
(٦) تفسير الماتريدي:٤٧١/٢.
(٧) تفسير الثعلبي:١٤٤/٣.
(٨) تفسير الطبري(٧٧٧٧):ص١٨٥/٧.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٠٧):ص٧٥٤/٣.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٠٨):ص٧٥٤/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤١٠٧):ص٧٥٤/٣، وزاد المسير:٣٢١/١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٧٨٦):ص١٨٨/٧.
(١٣) انظر: النكت والعيون:٤٢٢/١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٧٨٠):ص١٨٧/٧.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(٧٧٧٨):ص١٨٧/٧.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٧٨٨):ص١٨٨/٧.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٧٧٨٩):ص١٨٨/٧.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٧٧٩٠):ص١٨٨/٧.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(٧٧٨٣):ص١٨٧/٧.

قال الزجاج:" ومعنى {مسومين}: أخذ من السومة، وهي العلامة، كانوا يعلمون بصوفة أو بعمامة أو ما أشبه ذلك، و{مسومين}: معلمين. وجائز أن يكون مسومين: قد سوموا خيلهم وجعلوها سائمة"[١].

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {مُسَوِّمِينَ}[آل عمران : ١٢٥]، على وجهين[٢]:

أحدهما: {مسومين} بكسر الواو، في قرأءة ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ، بمعنى أن الملائكة سوَّمتْ لنفسها.

والثاني: وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي {مسومين} مفتوحة، بمعنى أن الله سوَّمها.

الفوائد:

١-أن الصبر والتقوى من اسباب النصر.

٢-أن الله زادهم على ما بشّرهم به الرسول-صلى الله عليه وسلم- ألفين إذا صبروا واتقوا.

٣-أن من نعمة الله على العبد أن يكون الذي يولاه الملاة، لأن الملائكة تثبت على الخير، بخلاف الشياطين فإنها تثبت على الشر.

القرآن

{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)} [آل عمران : ١٢٦]

التفسير:

وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة إلا بشرى لكم يبشركم بها ولتطمئن قلوبكم، وتطيب بوعد الله لكم. وما النصر إلا من عند الله العزيز الذي لا يغالَب، الحكيم في تدبيره وفعله.

قوله تعالى:{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ } [آل عمران : ١٢٦]،" } أي : وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم"[٣].

قال مجاهد:" إنما جعلهم الله ليستبشروا بهم"[٤].

قال مقاتل:" يعني مدد الملائكة"[٥].

قال الزجاج:" وما جعل ذكر المدد إلا بشرى لكم ولتمكنوا في حربكم"[٦].

قوله تعالى:{وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ } [آل عمران : ١٢٦]،أي:" وتطييبا لقلوبكم وتطمينا"[٧].

قال مقاتل:" يعني لتسكن إليه قلوبكم"[٨].

قال الزمخشري:أي:" وتطمئن به قلوبكم وتروا حفاية الله بكم، وإلا فالكثرة لا تغني شيئا إلا أن ينصر الله"[٩].

قوله تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} [آل عمران : ١٢٦]،أي: و ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده"[١٠].

قال محمد بن إسحاق:" الأمر عندي إلا بسلطاني وقدرتي، وذلك أن العز والحكم إلي، لا إلى أحد من خلقي"[١١].

---

(١) معاني القرآن:٤٦٧/١.
(٢) انظر: السبعة:٢١٦، وتفسير الطبري:١٨٤/٧.
(٣) تفسير ابن كثير:١١٤/٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١١٦):ص٧٥٥/٣.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:١٠٣/٢.
(٦) معاني القرآن:٤٦٧/١.
(٧) تفسير ابن كثير:١١٤/٢.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:١٠٣/٢.
(٩) الكشاف:٥٠٥/١.
(١٠) صفوة التفاسير:٢٠٨.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١١٨):ص٧٥٥/٣.

قال مقاتل:" وليس النصر بقلة العدد ولا بكثرته، ولكن النصر من عند الله"[١].

قال ابن كثير:أي:"وإلا فإنما النصر من عند الله ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال : { ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ. } [محمد : ٤ - ٦]"[٢].

قوله تعالى:{الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران : ١٢٦]، " أي: الغالب الذي لا يغلب في أمره الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة"[٣].

قال مقاتل:" {عزيز}، يعني: منيع، {حكيم} في أمره حكم النصر"[٤].

قال ابن كثير:"أي : هو ذو العزة التي لا تُرام ، والحكمة في قدره والإحكام"[٥].

الفوائد:

١-أن إمداد الشخص بما يعينه سبب لسروره وبشارته.

٢-أنه مهما عظمت الأسباب إذا لم يؤيد الله الإنسان بنصر فإنه لن ينتصر.

٣-يجب على المرء مع أخذ الأسباب أن يعتمد على ربه، وأن يؤمل النصر منه سبحانه وتعالى.

٤-أن النصر من مقتضى اسمه: العزيز الحكيم.

٥-أن الله لن ينصر إلا من اقتضت الحكمة نصره.

القرآن

{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧)} [آل عمران : ١٢٧]

التفسير:

وكان نصر الله لكم بـ «بدْر» ليهلك فريقًا من الكفار بالقتل، ومن نجا منهم من القتل رجع حزينًا قد ضاقت عليه نفسه، يَظْهر عليه الخزي والعار.

قوله تعالى:{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران : ١٢٧]، " أي: ذلك التدبير الإلهي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر"[٦].

قال ابن قتيبة: يعني:" بأسْر وقتل"[٧].

قال الثعلبي:" أي: ليهلك طائفة من الذين كفروا، نظيره قوله: {فقطع دابر القوم الذين ظلموا}[الأنعام:٤٥]، أي: أهلك، وفي الأنفال: {ويقطع دابر الكافرين}[الأنفال:٧]، وفي الحجر: {أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين}[الحجر:٦٦]"[٨].

قال السدي:" معناه: ليهدم ركنا من أركان الشرك بالقتل والأسر، فقتل من سادتهم وقادتهم يوم بدر سبعين، وأسر منهم سبعين"[٩].

قال الماوردي:" ولم يقل وسطاً لأن الطرف أقرب للمؤمنين من الوسط ، فاختص القطع بما هو إليهم أقرب كما قال تعالى :{ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ} [التوبة : ١٢٣] "[١٠].

قال الحسن:" هذا يوم بدر ، قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة"[١].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:١٠٣/٢.

(٢) تفسير ابن كثير:١١٤/٢.

(٣) صفوة التفاسير:٢٠٨.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:١٠٣/٢.

(٥) تفسير ابن كثير:١١٤/٢.

(٦) صفوة التفاسير:٢٠٨.

(٧) غريب القرآن:١١٠.

(٨) تفسير الثعلبي:١٤٥/٣.

(٩) تفسير الثعلبي:١٤٥/٣.

(١٠) النكت والعيون:٤٢٢/١.

قال محمد بن إسحاق:" : ليقطع طرفًا من المشركين بقتل ينتقم به منهم"[٢].
قال قتادة:"فقطع الله يوم بدر طرفًا من الكفار ، وقتل صناديدهم ورؤساءهم ، وقادتهم في الشر"[٣].
وقال السدي:" أنه كان يوم أحد ، كان الذي قتل منهم ثمانية عشر رجلاً"[٤].
قوله تعالى:{ أَوْ يَكْبِتَهُمْ} [آل عمران : ١٢٧]، أي:" أو يخزيهم بالخيبة مما رجوا من الظفر بكم"[٥].
قال قتادة: "يخزيهم"[٦].
قال السدي: "يلعنهم"[٧]
قال الزجاج: "أي: يهزمهم"[٨].
وقال الخليل:" الكبت : الصرع على الوجه"[٩].
قال النضر بن شميل: "يغيظهم"[١٠]
قال المبرد: "يظفر عليهم"[١١]
وقال أبو عبيدة: "الكَبْت: الإهلاك، تقول العرب: كبته الله لوجهه، أي صرعه الله"[١٢].
وقيل: معنى{ يَكْبِتَهُمْ }:" هو أن يغيظهم ويحزنهم، وكذلك قال في قوله في سورة المجادلة: {كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}[المجادلة:٥] ويقال: كبت الله عدوّك، وهو بما قال أبو عبيدة أشبه. واعتبارُها قوله: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ}[الأحزاب:٢٥]، لأن أهل النظر يرون أن "التاء" فيه منقلبة عن "دال"، كأن الأصل فيه: يَكْبِدُهُم أي يصيبهم في أكبادهم بالحزن والغيظ وشدة العداوة. ومنه يقال: فلان قد أحرق الحزن كبدَه. وأحرقت العداوة كبده. والعرب تقول للعدو: أسود الكبد. قال الأعْشَى[١٣]:
فما أُجْشِمْتُ من إتيان قَوْمٍ ... هُمُ الأعداءُ والأكبادُ سُودُ
كأن الأكباد لما احترقت بشدة العداوة اسودت. ومنه يقال للعدو: كاشح؛ لأنه يخبأ العداوة في كَشْحِهِ. والكَشْحُ: الخاصرةُ وإنما يريدون الكبد لأن الكبد هناك"[١٤].
قوله تعالى:{فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} [آل عمران : ١٢٧]، أي:" : فيرجعوا عنكم خائبين ، لم يصيبوا منكم شيئًا مما رجوا أن ينالوه منكم"[١٥].
قال محمد بن إسحاق:" أي ويرجع من بقى منهم فلا خائبين لم ينالوا شيئا مما كانوا يأملون"[١٦].
قال الزجاج:" الخائب الذي لم ينل ما أمل"[١٧].

---

(١) أخرجه الطبري(٧٧٩٨):ص١٩٢/٧.
(٢) أخرجه الطبري(٧٧٩٩):ص١٩٢/٧.
(٣) أخرجه الطبري(٧٧٩٦):ص١٩٢/٧.
(٤) النكت والعيون:٤٢٢/١.
(٥) تفسير الطبري:١٩٣/٧.
(٦) أخرجه الطبري(٧٨٠٢):ص١٩٤/٧.
(٧) تفسير الثعلبي:١٤٥/٣.
(٨) معاني القرآن:٤٦٧/١.
(٩) النكت والعيون:٤٢٢/١.
(١٠) تفسير الثعلبي:١٤٥/٣.
(١١) تفسير الثعلبي:١٤٥/٣.
(١٢) مجاز القرآن:١٠٢.
(١٣)ديوانه ٢١٥ ،واللسان ٣٧٨/٤.
(١٤) غريب القلآن لابن قتيبة:١١٠-١١١.
(١٥) تفسير الطبري:١٩٣/٧.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٢٣):ص٧٥٦/٣.
(١٧) معاني القرآن:٤٦٧/١.

قال الماوردي:" والفرق بين الخائب والآيس أن الخيبة لا تكون إلا بعد أمل ، واليأس قد يكون قبل أمل "[١].

الفوائد:

١- إثبات الحكمة لله تعالى في أفعاله وتشريعاته، وذلك لأن اللام للتعليل والتعليل هو الحكمة.

٢- أن الله يسلط المؤمنين على الكفار ليقطع طرفا من الذين كفروا، وليس كل الذين كفروا، لأن حكمة الله أن يبقى الإيمان والكفر متصارعين دائما حتى يتبين المؤمن الخالص من غيره.

٣- أن مآل الكفار واحد من هذه الأمور: إهلاكهم أو خذلانهم.

القرآن

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)} [آل عمران : ١٢٨]

التفسير:

ليس لك -أيها الرسول- من أمر العباد شيء، بل الأمر كله لله تعالى وحده لا شريك له، ولعل بعض هؤلاء الذين قاتلوك تنشرح صدورهم للإسلام فيسلموا، فيتوب الله عليهم. ومن بقي على كفره يعذبه الله في الدنيا والآخرة بسبب ظلمه وبغيه.

اختلف في سبب نزول الآية على أقوال:

أحدها: ذكر أن الله عز وجل إنما أنزل هذه الآية على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لما أصابه بأحُد ما أصابه من المشركين ، قال ، كالآيس لهم من الهدى أو من الإنابة إلى الحق : " كيف يفلح قومٌ فعلوا هذا بنبيهم!! وهذا قول ابن عباس[٢]، وأنس بن مالك[٣]، والحسن[٤]، وقتادة[٥]، وأبو جعفر[٦]، ومقسم[٧]، والربيع[٨]، والكلبي[٩].

والثاني: أنها نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه دعا على قوم ، فأنزل الله عز وجل : ليس الأمر إليك فيهم. وهذا قول أبي هريرة[١٠]، وابن عمر[١١]، والحارث بن هشام[١٢]، وعكرمة[١٣]، وقتادة[١٤].

والثالث: نقل الثعلبي عن عبد الله بن مسعود: "أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوا على المدبرين عنه من أصحابه يوم أحد، وكان عثمان منهم، فنهاه الله عز وجل عن ذلك وتاب عليهم، فأنزل هذه الآية"[١٥].

---

(١) النكت والعيون:١/٤٢٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٨١٧):ص٧/١٩٩.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٨٠٥)-(٧٨٠٨):ص٧/١٩٥-١٩٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(٧٨٠٩):ص٧/١٩٦-١٩٧.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٨١١):ص٧/١٩٧.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٨١٣):ص٧/١٩٧-١٩٨.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٨١٦):ص٧/١٩٨-١٩٩.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي:٣/١٤٥.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:٣/١٤٥.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٨٢١):ص٧/٢٠٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٨١٨):ص٧/١٩٩.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٨٢٠):ص٧/٢٠١.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:٣/١٤٥.
(١٤)انظر: تفسير الثعلبي:٣/١٤٥.
(١٥) تفسير الثعلبي:٣/١٤٥.

والرابع: ونقل الثعلبي عن عبد الله بن الحسن، قال:" قال حمزة(١): اللهم إن لقينا هؤلاء غدا فإني أسألك أن يقتلوني ويبقروا بطني ويجدعوا أنفي وأذني، فتقول لي يوم القيامة: فيم فعل بك هذا؟ فأقول:فيك. فلما كان يوم أحد قتل فبقر بطنه وجدعت أذنه وأنفه، فقال رجل سمعه: أما هذا فقد أعطي في نفسه ما سأل في الدنيا، والله يعطيه ما سأل في الآخرة، قالوا: فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ما بأصحابهم من جدع الآذان والأنوف وقطع المذاكير، قالوا: لئن أدالنا الله عليهم لنفعلن بهم مثل ما فعلوا، ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، فأنزل الله تعالى هذه الآية"(٢).

والخامس: ونقل الثعلبي عن مقاتل: "نزلت هذه الآية في بئر معونة وهم سبعون رجلا من قراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أميرهم المنذر بن عمرو، وبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد، ليعلموا الناس القرآن والعلم، فقتلهم جميعا،عامر بن الطفيل، وكان فيهم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق فلما قتل رفع بين السماء والأرض، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجدا شديدا وحزن عليهم شهرا فنزلت ليس لك من الأمر شيء"(٣).

قال ابن حجر:"الجمهور على أنها نزلت في الدعاء على المشركين"(٤).

قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} [آل عمران : ١٢٨]، " أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله"(٥).

قال محمد بن إسحاق:" أي : ليس لك من الحكم شيء في عبادي ، إلا ما أمرتك به فيهم"(٦).

قال الطبري:" ليس إليك ، يا محمد ، من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري ، وتنتهيَ فيهم إلى طاعتي ، وإنما أمرهم إليّ والقضاء فيهم بيدي دون غيري ، أقضى فيهم وأحكمُ بالذي أشاء"(٧).

قال ابن كثير:" أي : بل الأمر كله إلي ، كما قال : { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [الرعد : ٤٠] وقال { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [البقرة : ٢٧٢]. وقال { إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [القصص : ٥٦]"(٨).

قال الماتريدي:أي:" إنما أنت عبد مأمور؛ فليس لك من الأمر؛ إنما ذلك إلى الواحد القهار، الذي لا شريك له ولا ند؛ كقوله: {يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [آل عمران : ١٥٤] "(٩).

قال المراغي:" أي ليس إليك أيها الرسول من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى، وتنتهى فيهم إلى طاعتى، ثم أمرهم بعد ذلك، والقضاء فيهم بيدي دون غيرى، أقضى فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة، أو عاجل العذاب بالقتل والنقم، أو آجله بما أعددت لأهل الكفر بي من العذاب فى الآخرة"(١٠).

---

(١)أي قبل حرب أحد.
(٢) تفسير الثعلبي:١٤٦/٣.
(٣) تفسير الثعلبي:١٤٧/٣.
(٤) العجاب: ٧٤٦/٢.
(٥) صفوة التفاسير:٢٠٨.
(٦) أخرجه الطبري(٧٨٠٤):ص١٩٥/٧.
(٧) تفسير الطبري:١٩٤/٧.
(٨) تفسير ابن كثير:١١٤/٢.
(٩) تفسير الماتريدي:٤٧٣/٢.
(١٠) تفسير المراغي:٦٠/٤.

قوله تعالى: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [آل عمران : ١٢٨] أي:" أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب"(١).

قال محمد بن إسحاق:" أو أتوب عليهم برحمتي ، فإن شئتُ فعلتُ ، أو أعذبهم بذنوبهم {فإنهم ظالمون}، أي قد استحقوا ذلك بمعصيتهم إياي"(٢).

قال العز بن عبدالسلام: أي:"بل إلى الله - تعالى - التوبة عليهم، أو الانتقام منهم"(٣).

قال الثعلبي:" وقال بعضهم: (أو) بمعنى (حتى) يعني: ليس لك من الأمر شيء حتى يتوب عليهم أو يعذبهم"(٤).

أخرج البخاري(٥) والنسائي(٦) "من طريق معمر عن الزهري حدثني سالم -هو ابن عبد الله- ابن عمر عن أبيه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: "اللهم العن فلانا وفلانا" بعد ما يقول: "سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد"، فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} الآية"-صلى الله عليه وسلم-"(٧).

وقال أحمد:" حدثنا هشيم نا حميد عن أنس: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كسرت رباعيته يوم أحد وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه فقال: "كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ " فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}"(٨) .

وعن أنس بن مالك قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين شُجَّ في جبهته وكسِرت رباعيته : لا يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم! فأوحى الله إليه : { ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون} " (٩).

وعن الحسن : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم أحُد : كيف يفلح قوم دمَّوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله عز وجل!! فنزلت : { ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون} "(١٠).

وقال قتادة:" ذكر لنا أن هذه الآية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ، وقد جُرح نبي الله صلى الله عليه وسلم في وجهه وأصيبَ بعضُ رباعيته ، فقال وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم! فأنزل الله عز وجل : " ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون "(١١).

الفوائد:

١-أن النبي-صلى الله عليه وسلم- لايملك شيئا من الأمر الكوني.

٢-أن النبي-صلى الله عليه وسلم- مكلف يأمره الله تعالى وينهاه.

---

(١) صفوة التفاسير:٢٠٨.

(٢) أخرجه الطبري(٧٨٠٤):ص١٩٥/٧.

(٣) تفسير العز بن عبدالسلام:٢٨٢/١.

(٤) تفسير الثعلبي:١٤٧/٣.

(٥)في كتاب "المغازي والتفسير والاعتصام" كما في "التحفة" "٥/ ٣٩٤"، وانظر "الفتح "٨/ ٢٢٥-٢٢٦". زاد البخاري: "وعن حنظلة بن أبي سفيان عن سالم بن عبد الله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام. فنزلت".[كتاب "المغازي"، باب غزوة أحد "الفتح" "٧/ ٣٦٥"].

(٦)في كتاب "الصلاة" باب لعن المنافقين في القنوت "٢/ ٢٠٣" وفيه: "يدعو على أناس من المنافقين" وفي "التفسير" "ص٣٦" الرقم "٩٦" عزاه إليه في "التحفة" "٥/ ٣٩٤-٣٩٥". وأخرجه الواحدي من هذا الطريق، وفيه هذه الجملة انظر "ص١١٧".

(٧) العجاب:٧٤٧/٢.

(٨)في "مسنده" "٣/ ٩٩" ورواه الواحدي "ص١١٦" من طريق عبيدة بن حميد عن حميد.

(٩) أخرجه الطبري(٧٨٠٨):ص١٩٦/٧.

(١٠) أخرجه الطبري(٧٨٠٩):ص١٩٦/٧-١٩٧.

(١١) أخرجه الطبري(٧٨١١):ص١٩٧/٧..

٣-أن الله تعالى قد يتوب على أعتى الناس وأشدهم كفرا لعموم قوله:{أو يتوب عليهم}.
٤-أنه تعالى قد يعذب الكافرين عذابا ليس للمسلمين فيه يد، بل هو من عند الله وحده.
٥-انه تعالى لايعذب إلا بذنب، لقوله:{فإنهم ظالمون}، والظالم مستحق العذاب لأنه ينكل بالله، والله لايحب الظلم.

القرآن

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)} [آل عمران : ١٢٩]

التفسير:

ولله وحده ما في السموات وما في الأرض، يغفر لمن يشاء من عباده برحمته، ويعذب من يشاء بعدله. والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}[آل عمران : ١٢٩]،أي: ولله " ملك السماوات والأرض"[١].

قال السمرقندي:أي:" إن جميع الخلق في ملكه وعبيده"[٢].

قال البيضاوي: يعني:" خلقا وملكا فله الأمر كله لا لك"[٣].

قال ابن كثير:" أي : الجميع ملك له ، وأهلهما عبيد بين يديه"[٤].

قال الطبري: أي:" ليس لك يا محمد ، من الأمر شيء ، ولله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما يشاء ، ويقضي فيهم ما أحب"[٥].

قال ابن عباس:" قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم"[٦].

قوله تعالى:{يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ}[آل عمران : ١٢٩]، " فيتوب على من أحب من خلقه العاصين، ثم يغفر له"[٧].

قال مجاهد:" يغفر لمن يشاء الكثير من الذنوب"[٨].

وقال الضحاك:" يغفر لمن يشاء الذنب العظيم"[٩].

قوله تعالى:{وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}[آل عمران : ١٢٩]، أي:" ويعاقب من شاء منهم على جرمه فينتقم منه"[١٠]

روي عن مجاهد:" قوله: {ويعذب من يشاء} على الصغيرة"[١١].

وروي عن الضحاك: "{وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}، على الذنب الصغير إذا أصرَّ على ذلك"[١٢].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[آل عمران : ١٢٩]، أي:" والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم"[١].

---

(١) صفوة التفاسير:٢٠٨.
(٢) تفسير السمرقندي:٢٤٥/١.
(٣) تفسير البيضاوي:٣٨/٢.
(٤) تفسير ابن كثير:١١٦/٢.
(٥) تفسير الطبري:٢٠٣/٧.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٣٢):ص٧٥٨/٣.
(٧) تفسير الطبري:٢٠٣/٧.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٣٣):ص٧٥٨/٣.
(٩) تفسير السمرقندي:٢٤٥/١.
(١٠) تفسير الطبري:٢٠٣/٧.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٣٥):ص٧٥٨/٣.
(١٢) تفسير السمرقندي:٢٤٥/١.

قال البيضاوي: يعني:" لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم"(٢).
قال ابن إسحاق:" أي يغفر الذنوب ، ويرحم العباد ، على ما فيهم"(٣).
قال الطبري:أي:" وهو الغفور الذي يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح ، والرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلا على عظيم ما يأتون من المآثم"(٤).
قال الراغب:" بين بهذه الآية تحقيق ما قدمه بأنه هو المالك للكل، وله المشيئة في غفران من شاء وتعذيب من شاء"(٥).
الفوائد:
١-بيان عموم ملك الله سبحانه وتعالى، لقوله: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، لأن{ما} من صيغ العموم.
٢-أفاد تقديم الخبر في قوله: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، انفراد الله تعالى بملك السماوات والأرض.
٣-إثبات تعدد السماوات، بأنها سبع سماوات، وأما الأرض فقد ذكر بصيغة الافراد والمراد الجنس فيشمل جميع الأرضين، وقد بينت السنة انها سبع.
٤-إثبات المغفرة لله، وإثبات التعذيب، ويتفرغ من ذلك إثبات تمام سلطانه في ملكه، وأن الأمر له في التعذيب والمغفرة.
٥-إثبات المشيئة، وهي مقرونة بالحكمة الإلهية في المغفرة والتعذيب.
٦-إثبات الاسمين الكريمين من اسماء الله تعالى: الغفور الرحيم، وإثبات ما تضمناه من صفة وهي المغفرة والرحمة.

القرآن
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)} [آل عمران : ١٣٠]
التفسير:
يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه احذروا الربا بجميع أنواعه، ولا تأخذوا في القرض زيادة على رؤوس أموالكم وإن قلَّت، فكيف إذا كانت هذه الزيادة تتضاعف كلما حان موعد سداد الدين؟ واتقوا الله بالتزام شرعه; لتفوزوا في الدنيا والآخرة.
سبب النزول:
أخرج الطبري عن عطاء:" كانت ثقيف تدَّاين في بني المغيرة في الجاهلية ، فإذا حلّ الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخِّرون ؟ فنزلت : {لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة} "(٦). وروي عن مجاهد نحو ذلك(٧).
قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}[آل عمران : ١٣٠]، أي:" يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله"(٨).

---
(١)التفسير الميسر:٦٦.
(٢) تفسير البيضاوي:٣٨/٢.
(٣) أخرجه الطبري(٧٨٢٢):ص٢٠٣/٧.
(٤) تفسير الطبري:٢٠٣/٧.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٤٩/٣.
(٦) تفسير الطبري(٧٨٢٣):ص٢٠٤/٧.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤١٣٨):ص٧٥٩/٣.
(٨) تفسير الطبري:٢٠٤/٧.

قوله تعالى:{ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً }[آل عمران : ١٣٠]، أي:" ، لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد إذ هداكم له ، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم"(١).

قال ابن إسحاق:" أي : لا تأكلوا في الإسلام إذ هداكم الله له ، ما كنتم تأكلون إذ أنتم على غيره ، مما لا يحل لكم في دينكم"(٢).

قال الطبري:" وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم : أنّ الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول له الذي عليه المال : أخِّر عنى ديْنك وأزيدك على مالك. فيفعلان ذلك. فذلك هو " الربا أضعافًا مضاعفة " ، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه"(٣).

قال سعيد بن جبير:" وذلك أن الرجل كان يكون له على الرجل مال فإذا حل لأجل طلبه من صاحبه، فيقول المطلوب أخر عني وأزيدك في مالك، فيفعلان ذلك فذلك الربا أضعافا مضاعفة، فوعظهم الله تعالى"(٤). وروي عن مقاتل بن حيان نحو ذلك(٥).

قال ابن وهب:" سمعت ابن زيد يقول في قوله : " لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة " ، قال : كان أبي يقول : إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن. يكون للرجل فضل دين ، فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : تقضيني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضى ، وإلا حوَّله إلى السن التي فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حِقَّة ، ثم جَذَعة ، ثم رباعيًا ، ثم هكذا إلى فوق وفي العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل ، فإن لم يكن عنده أضعفه أيضًا ، فتكون مئة فيجعلها إلى قابل مئتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمئة ، يضعفها له كل سنة أو يقضيه. قال : فهذا قوله : {لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة }"(٦).

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس:" نهى الله تعالى عن الربا كأشد النهي، فاتقوا الربا والريبة، وكان يقول: الربا من الكبائر"(٧).

وقال قتادة:" إياكم وما خالط هذه البيوع من الربا فإن الله قد أوسع الحلال وأكثره وأطابه، ولا يلجئنكم إلى المعصية فاقة"(٨).

وقرأ أبو جعفر وشيبة:{مضعفة}(٩).

قال الراغب:" إن قيل: لم قال: (أضعافا مضاعفة) فجمع بين اللفظتين؟

قيل: قال بعضهم ذلك للتأكيد.

وقيل مضاعفة من الضعف لا من الضعف، ومعناه ما تعدونه ضعفا هو ضعف، أي نقص، كقوله: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو} [الروم : ٣٩]،وقوله: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا} [البقرة : ٢٧٦]، ومن هذا أخذ بعض المحدثين(١٠):

زيادة شيب وهي نقص زيادتي ... وقوة جسم وهي من قوتي ضعف"(١١).

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ }[آل عمران : ١٣٠]،" أي: اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه"(١٢).

---

(١) تفسير الطبري:٢٠٤/٧.
(٢) أخرجه الطبري(٧٨٢٤):ص٢٠٤/٧.
(٣) تفسير الطبري:٢٠٤/٧.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٤٢):ص٧٥٩/٣.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤١٤٢):ص٧٥٩/٣.
(٦) أخرجه الطبري(٧٨٢٦):ص٢٠٤/٧-٢٠٥.
(٧) تفسير ابن أبي حاتم(٤١٤٠):ص٧٥٩/٣.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٤١):ص٧٥٩/٣.
(٩) انظر: تفسير الثعلبي:١٤٧/٣.
(١٠) البيت من شواهد الراغب في تفسيره:٨٥١/٣، ولم أتعرف على قائله.
(١١) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٥٠/٣-٨٥١.
(١٢) صفوة التفاسير:٢٠٨.

قال ابن إسحاق:" أي : فأطيعوا"[1].
قال سعيد بن جبير:" واتقوا الله في أمر الربا فلا تأكلوا"[2].
قال الطبري: أي:" واتقوا الله أيها المؤمنون ، في أمر الربا فلا تأكلوه ، وفي غيره مما أمركم به أو نهاكم عنه ، وأطيعوه فيه"[3].
قوله تعالى:{ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[آل عمران : ١٣٠]، "أي: لتكونوا من الفائزين"[4].
قال سعيد:" يعني: لكي تفلحون"[5].
قال الطبري:أي: " لتنجحوا فتنجوا من عقابه ، وتدركوا ما رغَّبكم فيه من ثوابه والخلود في جنانه"[6].
قال ابن إسحاق:" أي :لعلكم أن تنجوا مما حذركم من عذابه ، وتدركوا ما رغبكم فيه من ثوابه"[7].
قال الراغب:" إن قيل: ما اتصال هذه الآية بما قبلها؟
قيل: إنه لما نهى عن الكفر فيما تقدم، وقبح صورته، وحذر منه، وبين قدرته عليهم حيث قال: {ولله ما في السماوات} نهى –هاهنا- عن تعاطي أفعال الكفرة"[8].
الفوائد:
١-تعظيم شأن الربا وخطره، ووجهه أنه صدر الخطاب في شأنه بالنداء.
٢-أن اجتناب الربا من مقتضيات الإيمان، وأن أكله منقص للإيمان، لأنه من كبائر الذنوب.
٣-تحريم أكل الربا، لقوله:{ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا}، والأصل في النهي التحريم.

القرآن
{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١)} [آل عمران : ١٣١]
التفسير:
واجعلوا لأنفسكم وقاية بينكم وبين النار التي هُيِّئت للكافرين.
قوله تعالى: {وَاتَّقُوا النَّارَ}[آل عمران:١٣١]، "أي احذروا نار جهنم"[9].
قال الطبري: أي:" واتقوا ، أيها المؤمنون ، النارَ أن تصلوْها بأكلكم الربا بعد نهيي إياكم عنه"[10].
قوله تعالى:{ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران : ١٣١]، أي:" التي هيئت للكافرين"[11].
قال محمد بن إسحاق:" أي: التي جعلت دارا لمن كفر بي"[12].
قال السمرقندي:" يعني: خُلقت وهيئت للكافرين"[13].
قال مقاتل بن حيان:" من أكل الربا فلم ينته فله النار"[1].

---

(١) أخرجه الطبري(٧٨٢٧):ص٢٠٥/٧، وابن أبي حاتم(٤١٤٤):ص٧٦٠/٣.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٤٣):ص٧٥٩/٣.
(٣) تفسير الطبري:٢٠٥/٧.
(٤) صفوة التفاسير:٢٠٨.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٤٥):ص٧٦٠/٣..
(٦) تفسير الطبري:٢٠٥/٧.
(٧) أخرجه الطبري(٧٨٢٧):ص٢٠٥/٧، وابن أبي حاتم(٤١٤٦):ص٧٦٠/٣.
(٨) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٤٩/٣.
(٩)صفوة التفاسير:٢٠٨.
(١٠) تفسير الطبري:٢٠٦/٧.
(١١)صفوة التفاسير:٢٠٨.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٥٠):ص٧٦٠/٣.
(١٣) تفسير السمرقندي:٢٤٦/١.

قال الطبري: أي:" التي أعددتها لمن كفر بي ، فتدخلوا مَدْخَلَهم بعد إيمانكم بي ، بخلافكم أمري ، وترككم طاعتي"[٢].

قال سعيد بن جبير:" فخوف آكل الربا من المؤمنين بالنار التي أعدت للكافرين"[٣].

عن معاوية بن قرة: "كان الناس يتأولون هذه الآية:{واتقوا النار التي أعدت للكافرين}: اتقوا أن لا أعذبكم بذنوبكم في النار التي أعددتها للكافرين"[٤].

قال الثعلبي:" ثم خوفهم فقال: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين}، وفيه دليل على أن النار مخلوقة ردا على الجهمية، لأن المعدوم لا يكون معدا"[٥].

قال الراغب:" إعداد الشيء تهيئته قبل الحاجة إليه، وإنما أراد تقديره وإيجاده، فلا حاجة به تعالى إلى الإعداد، وأصله من :العد، وقولك: أعددت كذا لكذا، أي اعتبرت قدره بقدره"[٦].

ويجدر القول بأن المعتزلة يرون:أنه "من أتى بالكبيرة ومات عليها فإنه يخلد في النار كالكافر، فإنه وعد لأكل الربا النار كما وعد الكفار. وقال أكثر أهل العلم والتفسير: هذا الوعيد لمن استحل الربا ومن استحل الربا فإنه يكفر ويصير إلى النار. ويقال: معناه اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبوا النار، لأن من الذنوب ما يستوجب به نزع الإيمان ويخاف عليه، فمن ذلك عقوق الوالدين"[٧].

و إن قيل: "ما وجه ذكر:{اتقوا النار}، بعد قوله: {اتقوا الله}؟

قيل: قد تقدم أن قوله: {اتقوا الله} يقال باعتبار ذاته، واتقوا النار باعتبار عقابه، فالأول للأولياء الأصفياء، ولذلك وصله بالفلاح الذي هو أعلى درجة الثواب، والثاني للمذنبين، فلذلك وصله بالرحمة، ولما كانت المنزلة الأولى لا تحصل إلا لمن حصلت له المنزلة الثانية، حث كافة الناس على الاستعانة بتقوى عقوبته، والطاعة له ولرسوله في ترك الربا وغيره من المعاصي؛ ليصلوا إلى الرحمة ذريعة إلى الفلاح"[٨].

وإن قيل: "الفلاح لا يخرج من أن يكون رحمة؟

قيل: صحيح، ولكن الرحمة أعم من الفلاح، فكل فلاح رحمة، وليس كل رحمة فلاحا، ومن قال في قوله: {أعدت للكافرين} دلالة أن لا فاسق فيها، فليس باستدلال يوجب الركون إليه، لأن ما يصح أن يشترك فيه أقوام إذا قيل: أعد لفلان. فليس فيه أنه لم يعد لغيره. ثم قد ثبت أن النار دركات، فأكثر ما في ذلك أن النار المعدة للكافر ليست للفاسق"[٩].

الفوائد:

١-وجوب اتخاذ ما يقي من النار، لقوله:{ وَاتَّقُوا النَّارَ}، والأصل في الأمر الوجوب.

٢-أن النار موجودة الآن، لقوله:{ الَّتِي أُعِدَّتْ}.

٣-أن أهل النار هم الكافرون، لقوله:{ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}، وأما الفساق الذين يعذبون بالنار على قدر أعمالهم ثم يخرجون منها، فإن النار لم تعدّ لهم، فعذاب النار يخفف ويثقل بحسب عمل الإنسان.

القرآن

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)} [آل عمران : ١٣٢]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٤٩):ص٧٦٠/٣.
(٢) تفسير الطبري:٢٠٦/٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٤٨):ص٧٦٠/٣.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٤٧):ص٧٦٠/٣.
(٥) تفسير الثعلبي:١٤٨/٣.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٥٣/٣.
(٧) تفسير السمرقندي:٢٤٦/١.
(٨)تفسير الراغب الأصفهاني:٨٥٣/٣-٨٥٤.
(٩) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٥٤/٣.

التفسير:
وأطيعوا الله -أيها المؤمنون- فيما أمركم به من الطاعات وفيما نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من الأشياء، وأطيعوا الرسول; لترحموا، فلا تعذبوا.

قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [آل عمران : ١٣٢]، "أي اطيعوا الله ورسوله"(١).

قال سعيد بن جبير:"يعني: في تحريم الربا"(٢).

قال الطبري: أي:" وأطيعوا الله ، أيها المؤمنون ، فيما نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من الأشياء ، وفيما أمركم به الرسول. يقول : وأطيعوا الرسول أيضًا كذلك"(٣).

قوله تعالى:{ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران : ١٣٢]، أي:" لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله"(٤).

قال سعيد بن جبير:" يعني: لكي ترحمون فلا تعذبون"(٥).

قال الطبري: " لترحموا فلا تعذبوا"(٦).

وقد أخرج الطبري : عن ابن إسحاق : {وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون}، معاتبة للذين عصوْا رسوله حين أمرهم بالذي أمرهم به في ذلك اليوم وفي غيره - يعني : في يوم أحُد"(٧).

الفوائد:
١-وجوب طاعة الله ورسوله، لقوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}، لأن الأصل في الأمر الوجوب.
٢-جواز اقتران اسم الرسول باسم الله في الأمر الذي يكون مشتركا بينهما، لقوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}.
٣-أن طاعة الله ورسوله سبب للرحمة، لقوله: :{ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

القرآن
{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)} [آل عمران : ١٣٣]

التفسير:
وبادروا بطاعتكم لله ورسوله لاغتنام مغفرة عظيمة من ربكم وجنة واسعة، عرضها السموات والأرض، أعدها الله للمتقين.

سبب النزول:
أخرج الطبري بسنده عن عطاء بن أبى رباح : "أنهم قالوا : يا نبي الله ، بنو إسرائيل أكرم على الله منا! كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه :اجدع أذنك، اجدع أنفك، افعل! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين}، إلى قوله :{والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم}، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بخير من ذلك " ؟ فقرأ هؤلاء الآيات"(٨).

---

(١) صفوة التفاسير:٢٠٨.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٥١):ص٧٦٠/٣.
(٣) تفسير الطبري:٢٠٦/٧.
(٤) صفوة التفاسير:٢٠٨.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٥٣):ص٧٦١/٣.
(٦) تفسير الطبري:٢٠٦/٧.
(٧) تفسير الطبري(٧٨٢٩):ص٢٠٦/٧-٢٠٧.
(٨) تفسير الطبري(٧٨٤٩):ص٢١٩/٧.

ونقله الثعلبي عن عطاء"[١]، وروي عن ابن مسعود نحو ذلك[٢].

قوله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [آل عمران : ١٣٣]، " أي: بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره"[٣].

قال الطبري:أي:" وبادروا وسابقوا إلى ما يستر عليكم ذنوبكم من رحمته ، وما يغطيها عليكم من عفوه عن عقوبتكم عليها "[٤].

عن سعيد :"{ وسارعوا}، يقول: سارعوا بالأعمال الصالحة"[٥]، "{إلى مغفرة من ربكم}، قال: لذنوبكم"[٦].

قوله تعالى: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} [آل عمران : ١٣٣]،" أي: وإلى جنة واسعة عرضها السماء والأرض"[٧].

قال سعيد بن جبير:" يعني عرض سبع سموات وسبع أرضين لو لصق بعضهن إلى بعض فالجنة في عرضهن"[٨].

قال ابن عباس:" تُقرن السموات السبع والأرضون السبع ، كما تُقرن الثياب بعضها إلى بعض ، فذاك عرض الجنة"[٩].

وفي رواية ابن أبي حاتم عن كريب قال: "أرسلني ابن عباس إلى رجل من أهل الكتاب أسأله عن هذه الآية جنة عرضها السماوات والأرض قال: فأخرج أسفار موسى فجعل ينظر قال: تلفق كما يلفق الثوب، وأما طولها فلا يقدر قدره إلا الله"[١٠]، وروي عن يزيد بن أبي مالك نحو ذلك[١١].

والله تعالى وصف عرض الجنة بالسموات والأرضين، أي: عرضها بعرض السموات والأرض ، تشبيها به في السعة والعظم ، كما قيل : {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[سورة لقمان : ٢٨] ، يعني : إلا كبعث نفس واحدة ، وكما قال شقيق بن جزء بن رياح الباهلي[١٢]:

كأَنَّ عَذِيرَهُمْ بِجَنُوب سِلَّى ... نَعَامٌ قَاقَ فِي بَلَدٍ قِفَارِ

أي : عذيرُ نعام ، وكما قال ذوالخرق الطهوي[١٣]:

حَسِبتَ بُغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقًا ... وَمَا هي ، وَيْبَ غَيْرِكَ بِالعَنَاقِ

يريد صوت عناق[١٤].

عن يعلى بن مرة قال : لقيت التنوخيّ رسول هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمص ، شيخًا كبيرًا قد فُنِّد.قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل ، فناول الصحيفة رجلا عن يساره. قال قلت : من صاحبكم الذي يقرأ ؟ قالوا : معاوية. فإذا كتاب

---

(١) تفسير الثعلبي:١٤٨/٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٨٥٠):ص٢١٩/٧-٢٢٠.
(٣) صفوة التفاسير:٢١٠.
(٤) تفسير الطبري:١٠٨/٧.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٥٤):ص٧٦١/٣.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٥٥):ص٧٦١/٣.
(٧) صفوة التفاسير:٢١٠.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٥٨):ص٧٦٢/٣.
(٩) أخرجه الطبري(٧٨٣٠):ص٢٠٧/٧.
(١٠)تفسير ابن أبي حاتم(٤١٥٧):ص٧٦٢/٣.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤١٥٧):ص٧٦٢/٣.
(١٢) انظر: الكامل ٢ / ١٩٦ ، معجم البلدان (سلى) ، واللسان (فوق) (سلل). وينسب لأعشى باهلة ، وللنابغة خطأ.
(١٣) انظر: نوادر أبي زيد: ١١٦، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٦١ - ٦٢، واللسان (ويب) (عنق) (عقا) (بغم) وغيرها.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:٢٠٨/٧.

صاحبي : " إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار ؟ " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار ؟"[١].

وعن طارق بن شهاب قال : "جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال : تقولون :{جنة عرضها السموات والأرض}، أين تكون النار ؟ فقال له عمر : أرأيت النهار إذا جاء أين يكون الليل ؟ أرأيت الليل إذا جاء ، أين يكون النهار ؟ فقال : إنه لمثلها في التوراة ، فقال له صاحبه : لم أخبرته ؟ فقال له صاحبه : دعه ، إنه بكلٍّ موقنٌ"[٢]. وروي عن ابن عباس نحو ذلك[٣].

قال ابن عثيمين:"الآية لا تدل على أن الجنة ملأت السماوات والأرض وصارت في محلها، بل تدل على أن عرضها عرض السماوات والأرض وإن كانت هي فوقهم، ولذلك نقول أن الجنة فوق السماوات والأرض كلها، كما ثبت عن النبي-صلى الله عليه وسلم-«إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقها أو وفوقُها-روي بالوجهين- عرش الرحمن»[٤]، وهذا يدل أن الجنة فوق السماوات، وأما النار فهي أسفل السافلين، وعلى هذا فلايكون في الآية إشكالا اطلاقا، ويحتمل أن تقول: إن هذا اليهودي أراد أن يلبس ويشبّه في القرآن ويتبع ما تشابه، وإن النبي-صلى الله عليه وسلم- -إذا صحّ الحديث- أجابه على وجه يبهت فيه ولا يتكلم على مقتضى عقله، فقال: «أين الليل إذا جاء النهار»"[٥].

قوله تعالى: { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران : ١٣٣]، "أي هيئت للمتقين لله "[٦].

قال ابن إسحاق:" أي : دارًا لمن أطاعني وأطاع رسولي"[٧].

قال ابن كثير:" أي : كما أعدّت النار للكافرين"[٨].

قال الطبري:أي:" أعدها الله للمتقين ، الذين اتقوا الله فأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم ، فلم يتعدوا حدوده ، ولم يقصِّروا في واجب حقه عليهم فيضيِّعوه"[٩].

قال الزجاج:" أي لمن اتقى المحارم، وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - «أن بين مصراعي باب الجنة مسيرة أربعين عاما»[١٠]، وليأتين عليه يوم يزدحم عليه الناس؛ كما تزدحم الإبل وردت خمصا. ظماء"[١١].

قال سعيد بن جبير:"{ أعدت للمتقين}، يعني: الذين يتقون الشرك"[١٢].

الفوائد:

١-الأمر بالمسارع إلى المغفرة والرحمة والجنة.

٢-أن التخلية قبل التحلية، لأنه قال:{إلى مغفرة من ربكم وجنة}، فبالمغفرة الزحزحة عن النار التي أوجبتها الذنوب، وبالجنة دخول الجنة.

---

(١) أخرجه الطبري(٧٨٣١):ص٢٠٩/٧.
(٢)أخرجه الطبري(٧٨٣٥):ص٢١٢/٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٧٨٣٦):ص٢١٢/٧.
(٤) رواه البخاري(٢٧٩٠).
(٥) تفسير ابن عثيمين:١٦٩/٢.
(٦) صفوة التفاسير:٢١٠.
(٧) أخرجه الطبري(٧٨٣٧):ص٢١٣/٧.
(٨) تفسير ابن كثير:١١٧/٢.
(٩) تفسير الطبري:٢١٣/٧.
(١٠) أخرجه أحمد ١٧٤/٤، ومسلم "٢٩٦٧" "١٤" في الزهد والرقائق في أوله، والنسائي في "الكبرى" كما في "التحفة" ٢٣٤/٧، والطبراني في "الكبير" ٢٨٠/١٧، والمزي في "تهذيب الكمال" ١٤٥/٨-١٤٦ في ترجمة خالد بن عمير، من طريق سليمان بن المغيرة.
وأخرجه أحمد ١٧٤/٤ و ٦١/٥، ومسلم "٢٩٦٧" "١٥"، والطبراني ١٧/"٢٨١" و "٢٨٢"، والحاكم ٢٦١/٣ من طرق عن حميد بن هلال، به مختصراً ومطولاً.
وأخرجه ابن ماجة "٤١٥٦" في الزهد: باب معيشة أصحاب، وابن حبان في حصيحه:(٧١٢١):ص٥٩/١٦.
(١١) معاني القرآن:٤٦٩/١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٥٩):ص٧٦٢/٣.

٣-أن المغفرة لاتكون إلا من الله.
٤-بيان سعة الجنة.
٥-أن الجنة موجودة الآن، لقوله:{أعدت}، والإعداد: التهيئة.

القرآن

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)} [آل عمران : ١٣٤]

التفسير:

الذين ينفقون أموالهم في اليسر والعسر، والذين يمسكون ما في أنفسهم من الغيظ بالصبر، وإذا قَدَروا عَفَوا عمَّن ظلمهم. وهذا هو الإحسان الذي يحب الله أصحابه.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ}[آل عمران : ١٣٤]، "أي: الذين يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء"[١].

قال ابن عباس:" يقول : في العسر واليسر"[٢]. وروي عن سعيد بن جبير مثل ذلك[٣].

قال ابن كثير:" أي : في الشدة والرخاء ، والمَنْشَط والمَكْرَه ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال، كما قال : { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً } [البقرة : ٢٧٤]، والمعنى : أنهم لا يشغلهم أمْر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مَرَاضِيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر"[٤].

قال الطبري:أي:" أعدت الجنة التي عرضها السموات والأرض للمتقين ، وهم المنفقون أموالهم في سبيل الله ، إما في صرفه على محتاج ، وإما في تقوية مُضعِف على النهوض لجهاده في سبيل الله"[٥].

قوله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ }[آل عمران : ١٣٤]، أي: والذين "يمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام"[٦].

قال مقاتل بن سليمان:" وهو الرجل يغضب في أمر فإذا فعله وقع في معصية، فيكظم الغيظ ويغفر"[٧].

قال ابن كثير:" أي : إذا ثار بهم الغيظ كظموه ، بمعنى : كتموه فلم يعملوه"[٨].

قال الطبري:أي:" والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه يقال منه :كظم فلان غيظه، إذا تجرَّعه ، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرةٌ على إمضائه ، باستمكانها ممن غاظها ، وانتصارها ممن ظلمها، وأصل ذلك من : كظم القربة، يقال منه : كظمتُ القربة، إذا ملأتها ماء، وفلان كظيمٌ ومكظومٌ، إذا كان ممتلئًا غمًّا وحزنًا. ومنه قول الله عز وجل ، {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}[سورة يوسف : ٨٤] يعني : ممتلئ من الحزن"[٩].

عن أبي هريرة في قوله : {والكاظمين الغيظ }: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه ، ملأه الله أمنًا وإيمانًا"[١٠].

---

(١) صفوة التفاسير:٢١٠.
(٢) أخرجه الطبري(٧٨٣٨):ص٢١٤/٧.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤١٦٣)-(٤١٦٤):ص٧٦٢/٣-٧٦٣.
(٤) تفسير ابن كثير:١١٩/٢.
(٥) تفسير الطبري:٢١٣/٧.
(٦) صفوة التفاسير:٢١٠.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠١/١.
(٨) تفسير ابن كثير:١١٩/٢.
(٩) تفسير الطبري:٢١٤/٧.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٨٤٢):ص٢١٦/٧.

قال ابن عباس:" فـ {الكاظمين الغيظ }، كقوله : {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}[سورة الشورى : ٣٧] ، يغضبون في الأمر لو وقعوا به كان حرامًا ، فيغفرون ويعفون ، يلتمسون بذلك وجه الله"(١).

قوله تعالى: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}[آل عمران : ١٣٤]، أي:" والصافحين عن الناس عقوبَة ذنوبهم إليهم وهم على الانتقام منهم قادرون"(٢).

قال ابن كثير:أي:" وعَفَوْا مع ذلك عمن أساء إليهم... أي : مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم ، فلا يبقى في أنفسهم مَوجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال : { وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } فهذا من مقامات الإحسان"(٣).

قال ابن عباس:" و{العافين عن الناس}، كقوله : {وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ} إلى(ألا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) [سورة النور : ٢٢] ، يقول : لا تقسموا على أن لا تعطوهم من النفقة شيئًا واعفوا واصفحوا"(٤).

وروي عن الربيع بن أنس(٥)، وأبي العالية(٦)، ومكحول(٧):{والعافين عن الناس}، قال: "عن المملوكين".

وقال زيد بن أسلم(٨)، ومقاتل: "عمن ظلمهم وأساء إليهم"(٩).

ورد في بعض الآثار : "يقول الله تعالى : ابنَ آدَمَ ، اذْكُرْنِي إذَا غَضِبْتَ ، أَذْكُرُكَ إذَا غَضِبْتُ ، فلا أمحقك فيمن أمحق"(١٠).

وفي الحديث : "ثلاث أُقْسِمُ عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عِزا ، ومن تواضع لله رفعه الله "(١١).

وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عُقبة ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة القُرشي ، عن عُبَادة بن الصامت ، عن أبي بن كعب ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من سره أن يُشْرَف له البنيان ، وترفع له الدرجات فَلْيَعْفُ عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويَصِلْ من قطعه"(١٢).

قوله تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران : ١٣٤]، أي: والله" يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها"(١٣).

قال ابن إسحاق:" أي : وذلك الإحسان ، وأنا أحب من عمل به"(١٤).

روي عن إسحاق، قال: "وحدثت عن ابن حيان، في قوله عز وجل: {الذين ينفقون} قرأ حتى {والله يحب المحسنين} قال: يغيظون في الأمر، فيغفرون، ويعفون عن الناس، ومن يفعل ذلك فهو محسن، {والله يحب المحسنين} "(١).

---

(١) أخرجه الطبري(٧٨٤٣):ص٧/٢١٦-٢١٧.
(٢) تفسير الطبري:٧/٢١٥.
(٣) تفسير ابن كثير:٢/١١٩-١٢١.
(٤) أخرجه الطبري(٧٨٤٣):ص٧/٢١٧.
(٥) أخرجه ابن المنذر(٩٢٨):ص١/٢٨٤.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٦٧):ص٣/٧٦٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٦٧):ص٣/٧٦٣.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي:٣/١٦٧.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٠١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٣٨٨):ص٣/٩٦٥.
(١١)رواه الترمذي في السنن برقم (٢٣٢٥) من حديث أبي كبشة الأنماري.
(١٢)) المستدرك (٢/٢٩٥) وتعقبه الذهبي فقال : "فيه أبي أمية بن يعلى ضعفه الدارقطني وإسحاق بن يحيى بن طلحة عن عبادة عن أبي ، وإسحاق لم يدرك عبادة". ورواه الطبراني في الكبير (١/١٦٧) من طريق أبي أمية بن يعلى عن موسى بن عقبة.
(١٣) صفوة التفاسير:٢١٠.
(١٤) أخرجه الطبري(٧٨٣٩):ص٧/٢١٥.

قال الطبري:أي:" فإن الله يحب من عمل بهذه الأمور التي وصف أنه أعدَّ للعاملين بها الجنة التي عرضُها السموات والأرض ، والعاملون بها هم احسنون ، وإحسانهم ، هو عملهم بها"(٢).

عن أبي رجاء ، عن الحسن قال : "يقال يوم القيامة : ليقم من كان له على الله أجر. فما يقوم إلا إنسان عفا ، ثم قرأ هذه الآية : {والعافين عن الناس والله يحب المحسنين }"(٣).

نقل الثعلبي عن السقطي:"الإحسان أن يحسن وقت الإمكان، فليس في كل وقت يمكنك الإحسان"(٤).

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن مقاتل بن حيان: {والعافين عن الناس}، ومن فعل ذلك وهو محسن {والله يحب المحسنين}، بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك: إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصمه الله، وقد كانوا كثيرا في الأمم التي مضت"(٥).

وقال مقاتل بن سليمان:" ومن يفعل هذا فقد أحسن فذلك قوله: {والله يحب المحسنين}، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: إني أرى هؤلاء في أمتي قليلا، وكانوا أكثر في الأمم الخالية"(٦).

الفوائد:

١-فضيلة الإنفاق على كل حال.

٢-الثناء على من انفق في السراء والضراء، وذلك لأن الإنفاق في السراء ليس بغريب، فكل انسان يهون عليه ان ينفق إذا كان في السراء، لكن الإنفاق في الضراء هو الذي يدل على كون الإنسان ينفق طلبا للأجر لا زهدا في المال.

٣-أنه ينبغي للإنسان أن يكظم الغيظ، لأن ذلك من صفات أهل الجنة.

٤-الحث على العفو عن الناس، لكنه مقيد بما إذا كان أصلح.

٥-إثبات المحبة لله تعالى.

٦-الحث على الإحسان، لأن الله يحب الإحسان والمحسنين، والشأن كل الشأن ان يحبك الله، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أحبابه.

القرآن

{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)} [آل عمران : ١٣٥]

التفسير:

والذين إذا ارتكبوا ذنبًا كبيرًا أو ظلموا أنفسهم بارتكاب ما دونه، ذكروا وعد الله ووعيده فلجأوا إلى ربهم تائبين، يطلبون منه أن يغفر لهم ذنوبهم، وهم موقنون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، فهم لذلك لا يقيمون على معصية، وهم يعلمون أنهم إن تابوا تاب الله عليهم.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: نقل الثعلبي عن عطاء:" نزلت هذه الآية في نبهان التمار وكنيته أبو مقبل أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرا فقال لها: إن هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فهل لك فيه؟ قالت: نعم، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية"(٧).

---

(١) أخرجه ابن المنذر(٩٣٠):ص٣٨٤/١.

(٢) تفسير الطبري:٢١٥/٧.

(٣) أخرجه الطبري(٧٨٤١):ص٢١٥/٧.

(٤) تفسير الثعلبي:١٦٧/٣.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم(٤١٦٨):ص٧٦٣/٣.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠١/١.

(٧) تفسير الثعلبي:١٦٨/٣. قال ابن حجر:" وهو من رواية موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو كذاب،

الثاني:ونقل الثعلبي أيضا عن مقاتل والكلبي: "آخا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين أحدهما من الأنصار والآخر من ثقيف، فخرج الثقفي في غزاة واستخلف الأنصاري على أهله، فاشترى لهم اللحم ذات يوم، فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها فدخلت المرأة بيتا فتبعها فاتقته بيدها، فقبل يدها ثم ندم وانصرف، فقالت له: والله ما حفظت غيبة أخيك ولا نلت حاجتك، فخرج الأنصاري ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه، فلما رجع الثقفي لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله.

فقالت: لا أكثر الله في الاخوان مثله ووصفت له الحال، والأنصاري يسيح في الجبال تائبا مستغفرا، وطلبه الثقفي حتى وجده، فأتى به أبا بكر -رضي الله عنه- رجاء أن يجدا راحة عنده فخرجا، وقال الأنصاري: هلكت، قال: وما أهلكك؟ فذكر له القصة، فقال أبو بكر:

ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي ما لا يغار للمقيم، ثم لقى عمر -رضي الله عنه- فقال: مثل ذلك، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مثل مقالتهما، فأنزل الله تعالى:{والذين إذا فعلوا فاحشة}"(١).

ونقله الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وفي الأخير:" فقال عمر: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخاص هذا به أم للناس عامة؟ قال: «بل للناس عامة في التوبة»"(٢).

الثالث: وقال مقاتل:" وذلك أن رجلا خرج غازيا وخلف رجلا في أهله وولده، فعرض له الشيطان في أهله، فهوى المرأة فكان منه ما ندم، فأتى أبا بكر الصديق- رضي الله عنه- فقال:هلكت. قال: وما هلاك. قال: ما من شيء يناله الرجل من المرأة إلا وقد نلته غير الجماع فقال أبو بكر- رضى الله عنه-: ويحك أما علمت أن الله- عز وجل- يغار للغازي ما لا يغار للقاعد، ثم لقي عمر- رضي الله عنه- فأخبره. فقال له مثل مقالة أبي بكر- رضي الله عنه- ثم أتى النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال له، مثل مقالتهما فأنزل الله- عز وجل- فيه {والذين إذا فعلوا فاحشة}"(٣).

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [آل عمران : ١٣٥]، أي: والذين إذا ارتكبوا ذنباً قبيحاً كالكبائر "(٤).

قال الزمخشري: أي:" فعلة متزايدة القبح"(٥).

قال ابن كثير:أي:"والذين إذا صدر منهم ذنب"(٦).

قال الثعلبي:" يعني قبيحة خارجة عما أذن الله فيه، وأصل الفحش: القبيح والخروج عن الحد"(٧).

قال المراغي:" أي والذين إذا فعلوا من القبيح ما يتعدى أثره إلى غيره كالغيبة ونحوها"(٨).

وفي معنى "الفاحشة" ها هنا أقوال:

أحدها : أنها الزنا، قاله جابر(٩)، والسدي(١٠)، ومقاتل(١١).

المشهور في هذه القصة نزول {إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} وسيأتي في تفسير هود".[العجاب:٣/٧٥٥-٧٥٦].

(١) تفسير الثعلبي:٣/١٦٨.

(٢) انظر: العجاب:٢/٧٥٧.

(٣)تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٠١-٣٠٢.

(٤) صفوة التفاسير:٢١٠.

(٥) الكشاف:١/٤١٦.

(٦) تفسير ابن كثير:٢/١٢١-١٢٢.

(٧) تفسير الثعلبي:٣/١٦٨.

(٨) تفسير المراغي:٤/٧٢.

(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٨٤٦):ص٧/٢١٨.

(١٠)انظر: تفسير الطبري(٧٨٤٧):ص٧/٢١٨.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٠٢.

والثاني : الكبائر من المعاصي[١].
والثالث: أنها الظلم. قاله إبراهيم النخعي[٢].
والرابع: أنها طوافهم بالبيت عراة. وهذا قول زيد بن اسلم[٣].

قال الطبري:" ومعنى الفاحشة ، الفعلة القبيحة الخارجة عما أذِن الله عز وجل فيه. وأصل الفحش : القبح ، والخروج عن الحد والمقدار في كل شيء. ومنه قيل للطويل المفرط الطول : إنه لفاحش الطول ، يراد به : قبيح الطول ، خارج عن المقدار المستحسن. ومنه قيل للكلام القبيح غير القصد : كلام فاحش ، وقيل للمتكلم به : أفحش في كلامه ، إذا نطق بفُحش"[٤].

روي عن عمران بن حصين، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أرأيتم الزاني، والسارق، وشارب الخمر ما تقولون فيهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هي فواحش وفيهن عقوبة"[٥].

قوله تعالى:{ أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [آل عمران : ١٣٥]، أي:" أو ظلموا انفسهم بارتكاب المعاصي وتعريضها للعقاب"[٦].

قال محمد بن إسحاق: "أي: بمعصية"[٧].

قال مقاتل بن حيان:أي:" أصابوا ذنوبا"[٨].

قال مقاتل بن سليمان:" ما كان نال منها دون الزنا"[٩].

قال الأصم:" {فعلوا فاحشة}: الكبائر {أو ظلموا أنفسهم}: بالصغائر"[١٠].

قال الثعلبي:" وقيل: فعلوا فاحشة فعلا وظلموا أنفسهم قولا"[١١].

قال الزمخشري: أي:" أو أذنبوا أى ذنب كان مما يؤاخذون به"[١٢].

قال الواحدي:" يعني: ما دون الزِّنا من قُبلةٍ أو لمسةٍ أو نظرٍ"[١٣].

قال إبراهيم النخعي:" الظلم من الفاحشة ، والفاحشة من الظلم"[١٤].

قال الطبري:" يعني به : فعلوا بأنفسهم غير الذي كان ينبغي لهم أن يفعلوا بها. والذي فعلوا من ذلك ، ركوبهم من معصية الله ما أوجبوا لها به عقوبته"[١٥].

قال البيضاوي:" بأن أذنبوا أي ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، ولعل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك"[١٦].

قال المراغي:يعني:" أو فعلوا ذنبا يكون مقصورا عليهم كشرب الخمر ونحوه"[١٧].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١/٤٢٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري(٧٨٤٨):ص٧/٢١٨.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤١٧٤):ص٣/٧٦٤.
(٤) تفسير الطبري:٧/٢١٨.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٧١):ص٣/٧٦٤.
(٦) أوضح التفاسير:١/٧٨.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٧٧):ص٣/٧٦٤.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٧٦):ص٣/٧٦٤.
(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٠٢.
(١٠) تفسير الثعلبي:٣/١٦٩.
(١١) تفسير الثعلبي:٣/١٦٩.
(١٢) الكشاف:١/٤١٦.
(١٣) الوجيز:٢٣٢.
(١٤) أخرجه الطبري(٧٨٤٨):ص٧/٢١٨.
(١٥) تفسير الطبري:٧/٢١٨.
(١٦) تفسير البيضاوي:٢/٣٨.
(١٧) تفسير المراغي:٤/٧٢.

قال الماتريدي:"ظلموا انفسهم، حيث لم يسلموا أنفسهم لله خالصين، والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، فإذا لم يسلموا له - وضعوا أنفسهم في غير موضعها، لذلك صاروا ظلمة أنفسهم"(١).

قوله تعالى:{ ذَكَرُوا اللَّهَ} [آل عمران : ١٣٥]، أي:" ذكروا وعيد الله على ما أتوا من معصيتهم إياه "(٢).

قال مقاتل بن حيان:" ذكروا الله عند تلك الذنوب والفاحشة"(٣).

قال محمد بن إسحاق:" ذكروا نهي الله عنها وما حرم عليهم منها"(٤).

قال الواحدي:" أيْ: ذكروا عقاب الله"(٥).

قوله تعالى:{ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ } [آل عمران : ١٣٥]، أي:"طلبوا الغفران لأجل ذنوبهم"(٦).

قال الطبري:أي:" فسألوا ربهم أن يستُر عليهم ذنوبهم بصفحه لهم عن العقوبة عليها"(٧).

قال ابن كثير:" أي : تابوا من ذنوبهم ، ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقْلِعِين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه"(٨).

قوله تعالى:{وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران : ١٣٥]،أي: " وأي أحد يغفر الذنوب؛ ما يغفرها إلا الله"(٩).

قال محمد بن إسحاق:"وعرفوا أنه لا يغفر الذنوب إلا هو"(١٠).

قال الصابوني:أي: "لا يغفر الذنوب إلا الله"(١١).

عن الأسود بن سَرِيع ؛ "أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بأسير فقال : اللهمُ إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «عَرَفَ الحقَّ لأهْلِهِ»"(١٢).

قوله تعالى:{ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا} [آل عمران : ١٣٥]،أي: " ولم يقيموا على ذنوبهم عامدين للمقام عليها"(١٣).

قال مجاهد:" لم يمضوا على المعصية"(١٤).

قال مقاتل: لم"يقيموا "(١٥).

قال الحسن:" إتيان الذنب عمدا إصرار حتى يتوب"(١٦).

وقال السدي:" فيسكتوا ولا يستغفروا"(١٧).

وقال عطاء:"يغمضوا"(١٨).

---

(١) تفسير الماتريدي:٤٨٧/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢١٩/٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٧٨):ص٧٦٤/٣.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٧٩):ص٧٦٤/٣.
(٥) الوجيز:٢٣٢.
(٦) الكشاف:٥١٠/١.
(٧) تفسير الطبري:٢١٩/٧.
(٨) تفسير ابن كثير:١٢٥/٢.
(٩) معاني القرآن للزجاج:٤٦٩/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٨٣):ص٧٦٦/٣.
(١١) صفوة التفاسير:٢١١.
(١٢)المسند (٣٤٥/٣).
(١٣) تفسير الطبري:٢١٩/٧.
(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٨٥):ص٧٦٦/٣.
(١٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٢/١.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٨٦):ص٧٦٦/٣.
(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٨٧):ص٧٦٦/٣.
(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٨٧):ص٧٦٦/٣.

قال محمد بن إسحاق:" أي لم يقيموا على معصيتي، كفعل من أشرك بي فيما عملوا به من كفر بي"(١)

قال الواحدي:" أيْ: لم يقيموا ولم يدوموا، بل أقرُّوا واستغفروا"(٢).

قال الزجاج:" الإصرار الإقامة على الشيء"(٣).

قال القرطبي:" الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه"(٤).

قال الزمخشري:" الإصرار معناه: اعتزام الدوام على الأمر، وترك الإقلاع عنه، ومنه صر الدنانير: أي الربط عليها، ومنه قول أبي السمال قعنب العدوي: «علم الله أنها مني صرى» "(٥).

وقال سهل بن عبدالله:" والإصرار هو التسويف، والتسويف أن يقول: أتوب غدا، وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غدا وغدا لا يملكه!"(٦).

وأصل "الإصرار": الثبات على الشيء، قال الحطيئة: يصف الخيل(٧):

عوابِسُ بالشُّعْثِ الكُماةِ إذا ابْتَغَوْا ... عُلالَتَها بالمُحْصَداتِ أَصَرَّتِ

أي ثبتت على عدوها"(٨).

روي عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، أنه قال:" لم يصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة"(٩).

وفي رواية اخرى عن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس كبيرة بكبيرة مع الاستغفار وليس صغيرة بصغيرة مع الإصرار»"(١٠).

وقال قتادة:" إياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قدما قدما في معاصي الله، لا تنهاهم مخافة الله عن حرام حرمه الله، ولا يتوبون من ذنب أصابوه، حتى أتاهم الموت وهم على ذلك"(١١).

قوله تعالى:{وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [آل عمران : ١٣٥]، أي: وهم يعلمون "أن الذي أتوه حرام ومعصية"(١٢).

قال مقاتل:" أنها معصية"(١٣).

قال السدي:" فيعلمون أنهم قد أذنبوا ثم أقاموا ولم يستغفروا"(١٤).

قال عبدالله بن عبيد بن عمير:" وهم يعلمون إن تابوا، تاب الله عليهم"(١٥).

قال ابن أبي نجيح:" {وهم يعلمون} أنه يغفر لمن استغفر ويتوب على من تاب"(١٦).

قال محمد بن إسحاق:" {وهم يعلمون} ما حرمت عليهم من عبادة غيري"(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٨٨):ص٧٦٦/٣.

(٢) الوجيز:٢٣٢.

(٣) معاني القرآن:٤٦٩/١.

(٤) تفسير القرطبي:٢١١/٤.

(٥) الطشاف:٥١٠/١.

(٦)تفسير القرطبي:٢١١/٤.

(٧) انظر: تفسير الثعلبي:١٦٩/٣، وتفسير القرطبي:٢١١/٤.

(٨) تفسير الثعلبي:١٦٩/٣.

(٩) أخرجه وابن أبي حاتم(٤١٨٤):ص٧٦٦/٣، و الترمذي كتاب الدعوات رقم ٣٥٥٩ قال: "هذا حديث غريب": ٥/ ٥٢١.

(١٠)مسند الشهاب: ٢/ ٢٠٤، وتفسير الثعلبي:١٦٩/٣.

(١١) تفسير الثعلبي:١٦٩/٣.

(١٢) الوجيز:٢٣٢.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٢/١.

(١٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩٢):ص٧٦٧/٣.

(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩٠):ص٧٦٧/٣.

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩١):ص٧٦٧/٣.

قال الصابوني: أي:"وهم عالمون بقبحه"[٢].

قال الطبري:أي:" وهم يعلمون أنّ الله قد تقدم بالنهي عنها ، وأوعد عليها العقوبة من ركبها"[٣].

الفوائد:

١-أن المتقي لايكون محصوما من فعل الفاحشة أو ظلم النفس، عليه فإن فعل الفاحشة لايخدش التقوى إذا استغفر الإنسان وتاب، فليس الشأن في ان لا يفعل الإنسان المعصية، كل إنسان لابد أن يعصى، لكن الشأن في أنه إذا فعل المعصية رجع إلى الله وتاب.

٢-أن الذنوب على قسمين: فواحش ودونها، أي: الكبائر والصغائر.

٣-أن المبادرة بالتوبة من صفات المتقين، لأن التوبة واجب، والتسويف في التوبة من الشيطان.

٤-أن ذكر الله تعالى سبب للتوبة والرجوع إلى الله.

٥-أنه لا احد يغفر الذنوب إلا الله.

٦-أن الرجل إذا أذنب فاستغفر، ثم اذنب فاستغفر، ثم اذنب فاستغفر، فإنه يغفر له وإن تكرر الذنب منه، لأن الله قال هنا: :{ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، ولم يقل: ولم يعيدوا ما فعلوا، كما يجب أن لايكون استغفاره بلسانه فقط وقلبه منطو على الرجوع، فإن كان كذلك فإن الاستغفار لايفيده.

٧-توبيخ من أصرّ على الذنب وهو عالم به، ولهذا قال العلماء أن الاصرار على المعصية الصغيرة يجعلها كبيرة، لأن إصراره عليها يل على تهاونه بمن عصاه.

القرآن

{أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)} [آل عمران : ١٣٦]

التفسير:

أولئك الموصوفون بتلك الصفات العظيمة جزاؤهم أن يستر الله ذنوبهم، ولهم جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها المياه العذبة، خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا. ونِعْمَ أجر العاملين المغفرة والجنة.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ}[آل عمران :١٣٦]، " أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب"[٤].

قال ميمون بن مهران:" وجبت لهم المغفرة"[٥].

قال ابن كثير:" أي : جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من الله"[٦].

عن سعيد بن جبير: في قول الله تعالى: {أولئك}، يعني: الذين فعلوا ما ذكر الله في هذه الآية"[٧].

أخرج ابن أبي حاتم عن عاصم، عن أبي عثمان:" أنه كان إذا تتلى هذه الآية: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم إلى قوله: جزاؤهم مغفرة من ربهم قال: نعم ما جازاك على الذنب"[١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩٣):ص٧٦٧/٣.
(٢) صفوة التفاسير:٢١١.
(٣) تفسير الطبري:٢١٩/٧.
(٤) صفوة التفاسير:٢١١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩٦):ص٧٦٧/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:١٢٦/٢.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩٤):ص٧٦٧/٣.

قوله تعالى: {وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[آل عمران :١٣٦]، " أي: ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار"[٢].

قال مقاتل بن حيان:" جعل جزاؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار"[٣].

قال الطبري:أي:" تجري خلال أشجارها الأنهار وفي أسافلها ، جزاء لهم على صالح أعمالهم"[٤].

نقل الثعلبي عن شهر بن حوشب: "طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب"[٥].

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا}[آل عمران :١٣٦]، أي:"ماكثين فيها أبدا"[٦].

قال الطبري:أي:" دائمي المقام في هذه الجنات التي وصفها"[٧].

قوله تعالى: {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[آل عمران :١٣٦]، "أي: نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله"[٨].

قال ابن إسحاق:" أي: ثواب المطيعين"[٩].

قال مقاتل بن حيان:" أجر العاملين بطاعة الله الجنة"[١٠].

قال الطبري:" يعني : ونعم جزاء العاملين لله ، الجنات التي وصفها"[١١].

قال ابن كثير:" يمدح تعالى الجنة"[١٢].

الفوائد:

١-بيان جزاء المتقين وأنه جزاء لايدركه الإنسان بتصوره، لأنه أعظم مما يتصور.

٢-أن جزاءهم متضمن لحصول المطلوب ودرء المكروه، يؤخذ من قوله"مغفرة" و"جنة"، فبالمغفرة درء المكروه، وبالجنة حصول المطلوب.

٣-أن مغفرة الله عزّ وجل للمرء من أعظم الثواب.

٤-بيان حال الجنات التي وعدها المتقون وما يصوره قوله:{تجري من تحتها الأنهار}، من النعيم العظيم.

٥-أن أهل الجنة خالدون فيها، وقد دلّت النصوص أن هذا التخليد أبدي.

٦-عظم هذا الأجر، والله تعالى هو العظيم جل وعلا وقد أثنى على هذا النعيم.

٧-بيان فضل الله تعالى على عباده إذ جعل هذا الجزاء أجرا بمنزلة الأجر المحتم الذي لابد من ان يناله العبد.

القرآن

{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)} [آل عمران : ١٣٧]

التفسير:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٤١٩٥):ص٧٦٧/٣.
(٢) صفوة التفاسير:٢١١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩٧):ص٧٦٧/٣.
(٤) تفسير الطبري:٢٢٧/٧.
(٥) تفسير الثعلبي:١٧٠/٣.
(٦) صفوة التفاسير:٢١١.
(٧) تفسير الطبري:٢٢٧/٧.
(٨) صفوة التفاسير:٢١١.
(٩) أخرجه الطبري(٧٨٦٦):ص٢٢٧/٧.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤١٩٨):ص٧٦٧/٣.
(١١) تفسير الطبري:٢٢٧/٧.
(١٢) تفسير ابن كثير:١٢٦/٢.

يخاطب الله المؤمنين لمَّا أُصيبوا يوم «أُحد» تعزية لهم بأنه قد مضت من قبلكم أمم، ابتُلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين فكانت العاقبة لهم، فسيروا في الأرض معتبرين بما آل إليه أمر أولئك المكذبين بالله ورسله.

قوله تعالى:{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} [آل عمران : ١٣٧]، أي: "قد مضت من قبلكم وقائع من أنواع المؤاخذات والبلايا للأمم المكذبين"(١).

عن مجاهد:"قوله: {قد خلت من قبلكم سنن} من الكفار والمؤمنين في الخير والشر"(٢).

قال مقاتل:" يعني عذاب الأمم الخالية فخوف هذه الأمم بعذاب الأمم ليعتبروا فيوحدوه"(٣).

قال محمد بن إسحاق:" أي: قد مضت مني وقائع نقمة، في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي، في عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، فرأوا مثلات قد مضت مني فيهم، ولمن كان على مثل ما هم عليه، مثل ذلك مني، وإن أمليت لهم، أي: لا تظنوا أن نقمتي انقطعت عن عدوكم وعدوي، للدولة التي أدلتهم بها عليكم، لأبتليكم بذلك، لأعلم ما عندكم"(٤).

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين الذين أُصِيبوا يومَ أُحُد ، وقُتِل منهم سبعون : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } أي : قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين"(٥).

قال الطبري:أي:قد" مضت وسلفت منى فيمن كان قبلكم، يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به ، من نحو قوم عاد وثمود وقوم هود وقوم لوط ، وغيرهم من سُلاف الأمم قبلكم سنن ، يعني : مثُلات سيرَ بها فيهم وفيمن كذَّبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم ، بإمهالي أهلَ التكذيب بهم ، واستدراجي إياهم ، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجَّلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم ، ثم أحللت بهم عقوبتي ، وأنزلتُ بساحتهم نِقَمي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرًا "(٦).

قال الزجاج:" معنى قد خلت قد مضت، ومعنى سنن أهل سنن أي أهل طرائق.

والسنة الطريقة، وقول الناس: فلان على السنة معناه على الطريقة، ولم يحتاجوا " أن يقولوا على السنة المستقيمة لأن في الكلام دليلا على ذلك، وهذا كقولنا " مؤمن " معناه مصدق وفي الكلام دليل على أنه مؤمن بأمور الله- عز وجل - التي أمر بالإيمان بها"(٧).

قوله تعالى:{فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [آل عمران : ١٣٧]،" أي: فسيروا في الأرض، فانظروا الحال التي قد انتهى بها الكاذبون "(٨).

قال قتادة:" يقول: " بما متعهم في الدنيا قليلا، ثم صيرهم إلى النار"(٩).

قال الحسن:" فينظروا كيف عذب الله قوم نوح، وقوم لوط، وقوم صالح، والأمم التي عذب الله"(١٠).

قال الزجاج:" المعنى: إنكم إذا سرتم في أسفاركم عرفتم أخبار قوم اهلكوا بتكذيبهم"(١١).

---

(١) محاسن التأويل:٤١٦/٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٠١):ص٧٦٨/٣.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٣/١.

(٤) أخرجه ابن المنذر(٩٤٩):ص٣٩١/١.

(٥)تفسير ابن كثير:١٢٦/٢.

(٦) تفسير الطبري:٢٢٨/٧.

(٧) معاني القرآن:٤٧٠/١.

(٨) زهرة التفاسير١٤١٩/٣..

(٩) أخرجه ابن المنذر(٩٤٤):ص٣٩٠/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٠٤):ص٧٦٩/٣.

(١١) معاني القرآن:٤٧٠/١.

قال ابن أبي زمنين:" أي: كان عاقبتهم أن دمر الله عليهم، ثم صيرهم إلى النار؛ يحذرهم بذلك"[١].

قال السمرقندي:" أي اقرءوا القرآن فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ لأن من لم يسافر فإنه لا يعرف ذلك، وأما من قرأ القرآن فإنه يعرف ذلك"[٢].

قال الطبري:أي:" فسيروا - أيها الظانّون ، أنّ إدالتي مَنْ أدلت من أهل الشرك يوم أحُد على محمد وأصحابه ، لغير استدراج مني لمن أشرك بي ، وكفرَ برسلي ، وخالف أمري - في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون وحدانيتي ، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي ، وما الذي آل إليه غِبُّ خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي ، فتعلموا عند ذلك أنّ إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد ، إنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم : من تعجيل العقوبة عليهم ، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي"[٣].

قال المراغي:" أي فسيروا فى الأرض وتأملوا فيما حل بالأمم قبلكم ليحصل لكم العلم الصحيح المبنى على المشاهدة والاختبار، وتسترشدوا بذلك إلى أن المصارعة قد وقعت بين الحق والباطل فى الأمم السالفة، وانتهى أمرها إلى غلبة أهل الحق لأهل الباطل، وانتصارهم عليهم ما تمسكوا بالصبر والتقوى، ويدخل فى ذلك اتباع ما أمر الله به من الاستعداد للحرب وإعداد العدة لقتال العدو كما أمر الله به فى قوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}، وجرى ذلك على سنن مستقيمة وأسباب مطردة لا تغيير فيها ولا تبديل.

والسير فى الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم- نعم العون على معرفة تلك السنن والاعتبار بها، وقد نستفيد هذه الفائدة بالنظر فى كتب التاريخ التي دونها من ساروا فى الأرض، ورأوا آثار الذين خلوا، فتحصل لنا العظة والعبرة، ولكنها تكون دون اعتبار الذين يسيرون فى الأرض بأنفسهم، ويرون الآثار بأعينهم"[٤].

قال ابن عثيمين:"والمراد بالسير هنا، سير القلوب وسير الأقدام، أما سير القلوب فهو بالتفكر في عاقبة الأمم السابقة زمنا ومكانا"[٥].

والأمر في قوله:{ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، للإرشاد، للوقوف على ديار الهالكين الغابرين لتعتبروا[٦].

قال القاسمي:" والأمر بالسير والنظر. لما أن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرا في الاعتبار والروعة، أقوى من أثر السماع"[٧].

عن عباد بن منصور قال: "سألت الحسن عن قوله: فسيروا في الأرض قال: ألم تسيروا في الأرض؟"[٨].

الفوائد:

١-أن الله تعالى قد أهلك أمما قبل الأمة، و{سنن} جمع كثرة لا جمع قلة.

٢-تسلية هذه الأمة من وجه، وتحذيرها من وجه آخر.

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين:٣٢٠/١.
(٢) تفسير السمرقندي:٢٤٨/١.
(٣) تفسير الطبري:٢٢٨/٧-٢٢٩.
(٤)تفسير المراغي:٧٧/٤-٧٨.
(٥) تفسير ابن عثيمين:١٩٩/٢.
(٦) انظر: أيسر التفاسير، للجزائري:٣٨١/١.
(٧) محاسن التأويل:٤١٦/٢.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٠٣):ص٧٦٨/٣.

٣-إثبات القياس، لأن المقصود بقوله:{فسيروا في الأرض}، النظر والاعتبار، وأن يقاس ما حضر على ما مضى وسلف.
٤-أن عاقبة المكذبين بالله ورسله وخيمة.

القرآن
{هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)} [آل عمران : ١٣٨]
التفسير:
هذا القرآن بيان وإرشاد إلى طريق الحق، وتذكير تخشع له قلوب المتقين، وهم الذين يخشون الله، وخُصُّوا بذلك; لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم.
قوله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ} [آل عمران : ١٣٨]، " أي هذا الذي تقدم بيان للناس كافة"[١].
قال عامر الشعبي:" بيان من العمى"[٢].
قال محمد بن إسحاق:" هذا تفسير للناس إن قبلوه "[٣].
وقال قتادة:" وهو هذا القرآن، جعله الله بيانا للناس عامة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة"[٤].
قال الجزائري:" أي: ما ذكر في الآيات بيان للناس به يتبينون الهدى من الضلال وما لازمهما من الفلاح، والخسران"[٥].
قال السعدي:" أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين"[٦].
قال المراغي:" وذلك يدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة بنحو قولهم لو كان محمد رسولا حقا لما غلب فى وقعة أحد، فهذا الهدى والبيان يرشد إلى أن سنن الله حاكمة على الأنبياء والرسل كما هى حاكمة على سائر خلقه، فما من قائد يخالفه جنده، ويتركون حماية الثّغر الذي يؤتون من قبله، ويخلون بين عدوهم وبين ظهورهم، والعدو مشرف عليهم، إلا كان جيشه عرضة للانكسار إذا كر العدو عليه- قطع خط الرجعة- ولا سيما إذا كان بعد فشل وتنازع، ومن ثم كان هذا البيان لجميع الناس، كلّ على قدر استعداده للفهم وقبول الحجة"[٧].
قوله تعالى: {وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران : ١٣٨]، أي:" وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة"[٨].
قال الصابوني:" أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة، وإنما خصّ المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس"[٩].
قال عامر الشعبي:" هدى من الضلالة، وموعظة من الجهل "[١٠].
قال محمد بن إسحاق:" أي " نور وأدب للمتقين "، {للمتقين} " لمن أطاعني، وعرف أمري"[١١].

---
(١) تفسير المراغي:٤/٧٧.
(٢) أخرجه ابن المنذر(٩٤٥):ص١/٣٩٠.
(٣) أخرجه ابن المنذر(٩٤٦):ص١/٣٩٠.
(٤) أخرجه ابن المنذر(٩٤٧):ص١/٣٩٠.
(٥) أيسر التفاسير: ١/٣٨١.
(٦) تفسير السعدي:١٤٩.
(٧) أيسر التفاسير:١/٣٨١.
(٨) تفسير المراغي:٤/٧٧.
(٩) صفوة التفاسير:٢١١.
(١٠) أخرجه ابن المنذر(٩٤٥):ص١/٣٩٠.
(١١) أخرجه ابن المنذر(٩٤٨):ص١/٣٩٠.

عن عباد بن منصور قال: "سألت الحسن عن قوله: {وهدى}، قال: هو القرآن"[1].
وعن السدي:" قوله:{هدى}، قال: نور"[2].
وعن سعيد بن جبير: {وهدى}، يعني: تبيان"[3].
وعن ابن عباس:{وموعظة للمتقين}، الذين من بعدهم إلى يوم القيامة"[4].
وقال أبو العالية وقتادة:" موعظة للمتقين خاصة"[5].
وعن الحسن: {وموعظة للمتقين}، يعدهم فيتقوا نعمة الله ويحذونها"[6].
وروي عن عطية والسدي قالا: "لأمة محمد صلى الله عليه وسلم[7].

قال المراغي:" وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة، فلأنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقائق، ويتعظون بما ينطبق عليها من الوقائع، فيستقيمون ويسيرون على النهج السوىّ، ويتجنبون نتائج الإهمال التي تظهر لهم من مضرة عاقبتها، فالمؤمن حقا هو الذي يهتدى بهدى الكتاب ويسترشد بمواعظه كما قال: «ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» فالقرآن يهدينا فى مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نروز أنفسنا ونعرف كنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا فنسير على سنن الله فى طلبه وفى حفظه، وأن نعرف كذلك حال خصمنا ونضع الميزان بيننا وبينه، وإلا كنا غير مهتدين ولا متعظين"[8].

الفوائد:
١-أن القرآن بيان للناس في كل شيء، فهو عام من حيث التبيين وعام من حيث المبيّن له.
٢-أن القرآن صالح لهداية المؤمن والكافر، لقوله:{للناس}.
٣-أنه علم للمتقين، يعني لا ينتفع به إلا المتقون.
٤-أن من لم يتعظ بالقرآن فليتهم نفسه، لقوله:{وموعظة للمتقين}.
٥-فضيلة التقوى، وأنها سبب للاهتداء والاتعاظ بالقرآن، وكلما ازداد الإنسان تقوى ازداد هدى وموعظة.

القرآن

{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)} [آل عمران : ١٣٩]

التفسير:

ولا تضْعُفوا -أيها المؤمنون- عن قتال عدوكم، ولا تحزنوا لما أصابكم في «أُحد» ، وأنتم الغالبون والعاقبة لكم، إن كنتم مصدقين بالله ورسوله متَّبعين شرعه.

في سبب نزول الآية ثلاثة وجوه:

أحدها: أخرج الطبري عن الزهري قال : كثر في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم القتلُ والجراح ، حتى خلص إلى كل امرئ منهم البأسُ ، فأنزل الله عز وجل القرآن ، فآسَى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به قومًا من المسلمين كانوا قبلهم من الأمم الماضية ، فقال : {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنم مؤمنين} إلى قوله: {لبرز الذين كُتب عليهم القتلُ إلى مضاجعهم }[9]"[10].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١١):ص٣/٧٦٩.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١٢):ص٣/٧٧٠.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١٣):ص٣/٧٧٠.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١٥):ص٣/٧٧٠.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١٦):ص٣/٧٧٠.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١٨):ص٣/٧٧٠.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١٨):ص٣/٧٧٠.
(٨) تفسير المراغي:٤/٧٨.
(٩)لآية: (١٥٤)، يعني:نزل خمس عشرة آية.
(١٠) تفسير الطبري(٧٨٨٤):ص٧/٢٣٤.

الثاني: أخرج الطبري عن ابن جريج:" : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشِّعب ، فقالوا : ما فعل فلان ؟ ما فعل فلان ؟ فنعى بعضهم بعضًا ، وتحدَّثوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فكانوا في همّ وحزَن. فبينما هم كذلك ، إذ علا خالد بن الوليد الجبلَ بخيل المشركين فوقهم ، وهم أسفلُ في الشِّعب. فلما رأوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فرحوا ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم لا قوة لنا إلا بك ، وليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر !. قال : وثاب نفرٌ من المسلمين رُماة ، فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله ، وعلا المسلمون الجبلَ. فذلك قوله : {وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}"[1].

الثالث: أخرج الطبري عن ابن عباس قال : "أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم لا يعلُون علينا . فأنزل الله عز وجل: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}"[2].

قوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا}[آل عمران : ١٣٩]، أي:" ولا تضعفوا بالذي نالكم من عدوكم بأحد ، من القتل والقروح"[3].

قال مجاهد[4]، والربيع بن أنس[5]، ومحمد بن إسحاق[6]، ومقاتل بن حيان[7]:" ولا تضعفوا"[8].

قال ابن جريج:" ولا تضعفوا في أمر عدوكم"[9].

قال الحسن:" يأمر محمدًا ، يقول : ولا تهنوا ، أن تمضوا في سبيل الله"[10].

قال ابن كثير:" ثم قال مسليا للمؤمنين : { وَلا تَهِنُوا }، أي : لا تَضعفوا بسبب ما جرى"[11].

قوله تعالى: { وَلَا تَحْزَنُوا} [آل عمران : ١٣٩]، أي:" ولا تأسوْا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ"[12].

قال محمد بن إسحاق:" ولا تأسوا على ما أصابكم"[13].

قال قتادة : يعني [يعزّي][14] أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كما تسمعون ، ويحثهم على قتال عدوهم ، وينهاهم عن العجز والوَهن في طلب عدوهم في سبيل الله"[15].

قوله تعالى: { وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ}[آل عمران:١٣٩]، أي: فإنكم أنتم " الظاهرُون عليهم ، ولكم العُقبَى في الظفر والنُّصرة عليهم"[16].

قال الضحاك:"وأنتم الظاهرون"[17].

قال ابن كثير:" أي : العاقبة والنّصرة لكم أيها المؤمنون"[1].

---

(١) تفسير الطبري(٧٨٩٠):ص٢٣٥/٧.
(٢) تفسير الطبري(٧٨٩٢):ص٢٣٦/٧.
(٣) تفسير الطبري:٢٣٣/٧.
(٤)أخرجه الطبري(٧٨٨٧):٢٣٤/٧، و ابن أبي حاتم(٤٢١٩):ص٧٧٠/٣.
(٥)أخرجه الطبري(٧٨٨٩):٢٣٥/٧، و ابن أبي حاتم(٤٢١٩):ص٧٧٠/٣.
(٦)أخرجه الطبري(٧٨٩١):٢٣٥/٧.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢١٩):ص٧٧٠/٣.
(٨) أخرجه الطبري(٧٨٨٧)، و(٧٨٨٩)، و(٧٨٩١):ص٢٣٤/٧-٢٣٥.
(٩) أخرجه الطبري(٧٨٩٠):ص٢٣٥/٧.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٨٨٦):ص٢٣٤/٧.
(١١) تفسير ابن كثير:١٢٦/٢.
(١٢) تفسير الطبري:٢٣٣/٧.
(١٣) أخرجه الطبري(٧٨٩١):ص٢٣٥/٧.
(١٤) بدلا من"يعني". في رواية الطبري.
(١٥) أخرجه الطبري(٧٨٨٤):ص٢٣٤/٧، وابن أبي حاتم(٤٢٢٠):ص٧٧١/٣.
(١٦) تفسير الطبري:٢٣٣/٧.
(١٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٢١):ص٧٧١/٣.

قوله تعالى: { إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران : ١٣٩]، أي:" إن كنتم مصدِّقي نبيي محمد صلى الله عليه وسلم فيما يَعدكم ، وفيما ينبئكم من الخبر عما يؤول إليه أمركم وأمرهم"(٢).

قال محمد بن إسحاق:" أي : لكم تكون العاقبة والظهور، إن كنتم صدَّقتم نبيي بما جاءكم به عني"(٣).

الفوائد:

١-ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن الوهن عن العمل في المستقبل، وعن الحزن على ما مضى، لأن الحزن على ما فات لايرد الفائت.

٢-ينبغي ان يكون الإنسان قوي العزيمة لايضعف ولايجبن، لكي لايفوته الخير الكثير، فالمستقبل لاتدري ما النتيجة فيه.

٣-أن هذه الأمة هي العليا بشرط أن تؤمن.

٤-التلميح بالتوبيخ إذا حصل الوهن والحزن، لاسيما إذا قلنا ان "الواو" حالية، يعني: كيف يليق بكم أن تهنوا وتحزنوا وأنتم الأعلون؟

٥-أنه كلما ازداد إيمان الأمة ازدادت علوّا، لأنه رتّب العلوّ على الإيمان، والمرتب على شيء يزيد بزيادته وينقص بنقصه.

القرآن

{إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)} [آل عمران : ١٤٠]

التفسير:

إن أصابتكم -أيها المؤمنون- جراح أو قتل في غزوة «أُحد» فحزنتم لذلك، فقد أصاب المشركين جراح وقتل مثل ذلك في غزوة «بدر» . وتلك الأيام يُصَرِّفها الله بين الناس، نصر مرة وهزيمة أخرى، لما في ذلك من الحكمة، حتى يظهر ما علمه الله في الأزل ليميز الله المؤمن الصادق مِن غيره، ويُكْرِمَ أقوامًا منكم بالشهادة. والله لا يحب الذين ظلموا أنفسهم، وقعدوا عن القتال في سبيله.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: أخرج الطبري عن عكرمة عن ابن عباس قال : "لما كان قتال أحد وأصاب المسلمين ما أصابَ ، صعد النبي صلى الله عليه وسلم الجبل ، فجاء أبو سفيان فقال : يا محمد! يا محمد! ألا تخرج ؟ ألا تخرج ؟ الحربُ سجال : يوم لنا ويوم لكم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أجيبوه ، فقالوا : لا سواء ، لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار! فقال أبو سفيان : لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم! فقال رَسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم. فقال أبو سفيان : اعْلُ هُبَل! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : الله أعلى وأجل! فقال أبو سفيان : موعدكم وموعدنا بدرٌ الصغرى قال عكرمة : وفيهم أنزلت {وتلك الأيام نداولها بين الناس}"(٤). وأخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة(٥).

الثاني: نقل الثعلبي عن " راشد بن سعد: لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كئيبا حزينا جعلت المرأة تجيء بزوجها وابنها وأبيها مقتولين وهي تلدم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أهكذا يفعل برسولك؟»، فأنزل الله تعالى :{إن يمسسكم قرح}"(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير:١٢٧/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٣٣/٧.
(٣) أخرجه الطبري(٧٨٩٢):ص٢٣٦/٧.
(٤) تفسير الطبري(٧٩٠٨):ص٢٤٠/٧.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٢٢٥):ص٧٧١/٣-٧٧٢.
(٦) تفسير الثعلبي:١٧٢/٣.

الثالث: أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عكرمة قال: لما أبطأ على النساء الخبر خرجن يستخبرن، فإذا رجلان مقتولان على دابة، أو على بعير، فقالت امرأة من الأنصار: من هذان؟ قالوا: فلان وفلان أخوها وزوجها، أو زوجها وابنها. فقالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: حي. قالت: فلا أبالي، يتخذ الله من عباده الشهداء، ونزل القرآن على ما قالت: {ويتخذ منكم شهداء}"[1].

قوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ } [آل عمران : ١٤٠]،" أي : إن كنتم قد أصابتكم جراحٌ وقُتل منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح"[2].

قال الزمخشري:"المعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا. ونحوه: {فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} [النساء : ١٠٤].

وقيل: كان ذلك يوم أحد، فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن قلت: كيف قيل {قرح مثله} وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟

قلت: بلى كان مثله، ولقد قتل يومئذ خلق من الكفار. ألا ترى إلى قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ } [آل عمران : ١٥٢]"[3].

قال الراغب:" الفرق بين المس واللمس: أن اللمس أخص، فإنه بالحاسة، والمس به وبغيره، وهو ههنا عبارة عن الإصابة والقرح أعم من الجرح، فإن الجرح إصابة الجارحة في الأصل، والقرح يقال له ولما يحدث من ذاته، نحو :قرح البعير، إذا خرج به قرحة، وهي شبه جرب"[4].

و قرئ :"{قرح}، بفتح القاف وضمها، وهما لغتان كالضعف والضعف. وقيل: هو بالفتح الجراح، وبالضم ألمها. وقرأ أبو السمال {قرح}، بفتحتين. وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد"[5].

قال الفراء:" وقد قرأ أصحابُ عبد الله :{قُرْح}، وكأن القُرْح : ألم الجراحات ، وكأن القَرْحَ الجراحاتُ بأعيانها "[6].

قال الحسن:" أن يقتل منكم يوم أحد فقد قتلتم يوم بدر مثله"[7].

قال الربيع:" يقول: إن كان أصابكم قرح فقد أصاب عدوكم قرح مثله، ويعزي أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويحثهم على القتال"[8].

قال أبو صخر:" القرح: الجراح. يقول: فقد مس القوم جراح مثله وهو يوم أحد"[9].

عن مجاهد:"{إن يمسسكم قرح}: جراح وقتل"[10].

وروي عن السدي وقتادة، والربيع بن أنس:" أنها الجراحات"[11].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٤٢٣٩):ص٧٧٤/٣.

(٢) تفسير ابن كثير:١٢٧/٢.

(٣) الكشاف:٤١٨/١.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٧٦/٣-٨٧٧.

(٥) الكشاف:٤١٨/١.

(٦) معاني القرآن:٢٣٤/١.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٢٧):ص٧٧٢/٣.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٢٨):ص٧٧٢/٣.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٢٩):ص٧٧٢/٣.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٢٦):ص٧٧٢/٣.

(١١) تفسير ابن أبي حاتم: ٧٧٢/٣.

قوله تعالى: { وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ } [آل عمران : ١٤٠]،أي:" وتلك الأيام يُصَرِّفها الله بين الناس"(١).

قال محمد بن إسحاق:" أي نصرِّفها للناس ، للبلاء والتمحيص"(٢).

قال مقاتل:" يوم لكم ببدر ويوم عليكم بأحد مرة للمؤمنين ومرة للكافرين"(٣).

قال الزجاج:" أي: نجعل الدولة في وقت من الأوقات للكافرين على المؤمنين إذا عصوا فيما يؤمرون به، من محاربة الكفار، فأما إذا أطاعوا فهم منصورون أبدا، كما قال الله - عز وجل: {أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة : ٢٢] "(٤).

قال ابن كثير:"أي : نُديل عليكم الأعداء تارة ، وإن كانت العاقبة لكم لما لنا في ذلك من الحكم"(٥).

قال الطبري:أي:" أيام بدر وأحُد، ويعني بقوله : {نداولها بين الناس} ، نجعلها دُوَلا بين الناس مصرَّفة. ويعني بـ {الناس }، المسلمين والمشركين، وذلك أن الله عز وجل أدال المسلمين من المشركين ببدر ، فقتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين. وأدال المشركين من المسلمين بأحُد ، فقتلوا منهم سبعين ، سوى من جرحوا منهم"(٦).

قال المراغي:" أي إن مداولة الأيام سنة من سنن الله فى المجتمع البشرى، فمرة تكون الدولة للمبطل، وأخرى للمحق، ولكن العاقبة دائما لمن اتبع الحق، وإنما تكون الدولة لمن عرف أسباب النجاح ورعاها حق رعايتها كالاتفاق وعدم التنازع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة، وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من القوة"(٧).

قال الزمخشري:" والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة، نداولها: نصرفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كقوله وهو من أبيات الكتاب(٨):

فيوما علينا ويوما لنا ... ويوما نساء ويوما نسر

ومن أمثال العرب: الحرب سجال"(٩).

قال ابن عباس:" أدال المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد"(١٠). وفي رواية أخرى له:" فإنه كان يوم أحُد بيوم بدر ، قُتل المؤمنون يومَ أحد ، اتخذ الله منهم شهداء ، وغلب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر المشركين ، فجعل له الدولة عليهم"(١١)

قال الحسن:" جعل الله الأيام دولا أدال الكفار يوم أحُد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١٢).

قال قتادة:" إنه والله لولا الدُّوَل ما أوذي المؤمنون ، ولكن قد يُدال للكافر من المؤمن ، ويبتلى المؤمن بالكافر"(١٣).

قال الربيع:" فأظهر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين يوم بدر ، وأظهر عليهم عدوَّهم يوم أحُد. وقد يدال الكافر من المؤمن ، ويبتلى المؤمن بالكافر...

---

(١) التفسير الميسر:٦٧.
(٢) أخرجه الطبري(٧٩١٠):ص٢٤١/٧.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٤/١.
(٤) معاني القرآن:٤٧٠/١.
(٥) تفسير ابن كثير:١٢٧/٢.
(٦) تفسير الطبري(٢٣٩/٧.
(٧) تفسير المراغي:٧٩/٤.
(٨) البيت لنمر بن تولب، انظر: نهاية الارب في فنون الأدب:٦٧/٣.
(٩) الكشاف:٤١٩/١.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٩٠٦):ص٢٤٠/٧.
(١١) أخرجه الطبري(٧٩٠٧):ص٢٤٠/٧.
(١٢) أخرجه الطبري(٧٩٠٢):ص٢٣٩/٧.
(١٣) أخرجه الطبري(٧٩٠٣):ص٢٣٩/٧.

وأما من ابتلى منهم من المسلمين يوم أحد ، فكان عقوبة بمعصيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١).

قال السدي:" {وتلك الأيام نداولها بين الناس}، يومًا لكم ، ويومًا عليكم"(٢).

قال الماتريدي:" تحتمل الآية وجوها: يوما للمؤمنين ويوما عليهم، وذلك أن الأمر بمجاهدة العدو والقتال معهم محنة من الله - تعالى - إياهم يمتحنهم ويبتليهم؛ مرة بالظفر لهم والنصر على عدوهم، ومرة بالظفر للعدو عليهم؛ كقوله - عز وجل -: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)، وكقوله: (وبلوناهم بالحسنات والسيئات)، يمتحن عباده، بجميع أنواع المحن، بالخير مرة، وبالشر ثانيا.

ويحتمل المداولة -أيضا وجها آخر: وهو أن الظفر والنصر لو كان أبدا للمؤمنين- لكان الكفار إذا أسلموا لم يسلموا إسلام اختيار؛ ولكن إنما آمنوا إيمان قهر وكره وجبر؛ لما يخافون على أنفسهم من الهلاك إذا رأوا الدولة والظفر للمؤمنين، وإن كان الظفر والنصر أبدا للكفار؛ فلعلهم يظنون أنهم المحقون فيمنعهم ذلك عن الإسلام.

ويحتمل أن ما يصيب بمعصية المؤمنين إنما يصيب بمعصية سبقت منهم، أو خلاف كان منهم؛ من ترك أمر أو ارتكاب نهي"(٣).

قال الراغب:" والدول والدور يتقاربان، لكن الدور أعم، فإن الدولة لا تقال إلا في الحظ الدنيوي، وكذلك الجد، ولهذا قيل: "لا ينفع ذا الجد منك الجد"، أي: الحظوظ الدنيوية غير نافعة في القيامة،، نحو: (يوم لا ينفع مال ولا بنون}"(٤).

قوله تعالى: { وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا }[آل عمران : ١٤٠]،" أي: فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد ويميز بين المؤمنين والمنافقين"(٥).

قال قتادة والربيع:" ليعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ، ويعلم الصادق من الكاذب"(٦).

قال محمد بن إسحاق:" أي : ليميِّز بين المؤمنين والمنافقين"(٧).

قال مقاتل:" يعني: وليرى إيمان الذين آمنوا منكم عند البلاء فيتبين إيمانهم أيشكوا في دينهم أم لا"(٨).

قال الطبري: أي:" وليعلم الله الذين آمنوا منكم ، أيها القوم ، من الذين نافقوا منكم"(٩).

قال الماتريدي:" ي: ليعلم ما قد علم بالغيب أنه يؤمن بالامتحان مؤمنا شاهدا، وليعلم ما قد علم أنه يكون كائنا، وجائز أن يراد بالعلم: المعلوم؛ كقوله: الصلاة أمر الله، أي: بأمر الله"(١٠).

قوله تعالى:{ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}[آل عمران : ١٤٠]،" أي : وليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه بها"(١١).

قال محمد بن إسحاق:" وليكرم من أكرَم من أهل الإيمان بالشهادة"(١٢).

قال ابن كثير:" يعني : يُقْتَلُون في سبيله ، ويَبْذُلون مُهَجهم في مرضاته"(١٣).

قال ابن عباس:" كانوا يسألون الشهادة ، فلقوا المشركين يوم أحد ، فاتخذ منهم شهداء"(١).

---

(١) أخرجه الطبري(٧٩٠٤):ص٢٣٩/٧-٢٤٠.
(٢) أ×رجه الطبري(٧٩٠٥):ص٢٤٠/٧.
(٣) تفسير الماتريدي:٤٩٢/٢.
(٤) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٧٧/٣-٨٧٨.
(٥) صفوة التفاسير:٢١١.
(٦) أخرجه الطبري(٧٩٠٣)، و(٧٩٠٤):ص٢٣٩/٧-٢٤٠.
(٧) أخرجه الطبري(٧٩١٢):ص٢٤٣/٧.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٤/١.
(٩) تفسير الطبري:٢٤٢/٧.
(١٠) تفسير الماتريدي:٤٩٣/٢.
(١١) تفسير الطبري:٢٤٣/٧.
(١٢) أخرجه الطبري(٧٩١٢):ص٢٤٣/٧.
(١٣) تفسير ابن كثير:١٢٧/٢.

قال ابن جريج:" فإن المسلمين كانوا يسألون ربهم : ربنا أرنا يومًا كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ، ونُبليك فيه خيرًا ، ونلتمس فيه الشهادة ! فلقوا المشركين يوم أحد ، فاتخذ منهم شهداء"(٢).

قال الضحاك:" كان المسلمون يسألون ربهم أن يُريهم يومًا كيوم بدر ، يبلون فيه خيرًا ، ويرزقون فيه الشهادة ، ويرزقون الجنة والحياة والرزق ، فلقوا المشركين يوم أحد ، فاتخذ الله منهم شهداء ، وهم الذين ذكرهم الله عز وجل فقال:{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} الآية ، [سورة البقرة : ١٥٤] "(٣).

قال قتادة:" فكرَّم الله أولياءه بالشهادة بأيدي عدوِّهم ، ثم تصير حواصل الأمور وعواقبها لأهل طاعة الله"(٤).

عن أبي الضحى قال: نزلت: {ويتخذ منكم شهداء}، فقتل منهم يومئذ سبعون، منهم أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، أخو بني عبد الدار، والشماس بن عثمان المخزومي، وعبد الله بن جحش الأسدي، وسائرهم من الأنصار"(٥).

أخرج الحاكم عن جابر-صحيحا-: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا ذكر أصحاب أحد والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحصن(٦) الجبل»"(٧).

قوله تعالى:{ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[آل عمران : ١٤٠]،"أي: والله لايحب المعتدين"(٨).

عن ابن عباس:{الظالمين}، يقول: الكافرين"(٩).

قال محمد بن إسحاق:" أي : المنافقين الذي يظهرون بألسنتهم الطاعة ، وقلوبهم مصرَّة على المعصية"(١٠).

قال السمعاني:" يعني: أنه ما جعل اليد للكفار يوم أحد لحبه إياهم؛ ولكن ليبتليكم، ويجعلكم شهداء"(١١).

قال النسفي: قوله:" {والله لاَ يُحِبُّ الظالمين} اعتراض بين بعض التعليل وبعض ومعناه والله لا يحب من لبس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين في سبيله وهم المنافقون والكافرون"(١٢).

قال السعدي:" {الظالمين}: الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكأن في هذا تعريضا بذم المنافقين، وأنهم مبغضون لله، ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله"(١٣).

الفوائد:

١-بيان رأفة الله سبحانه وتعالى برسول الله-صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام-رضوان الله عليهم- بهذه التسلية العظيمة: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ}.

---

(١) أخرجه الطبري(٧٩١٥):ص٢٤٣/٧.

(٢) أخرجه الطبري(٧٩١٣):ص٢٤٣/٧.

(٣) أخرجه الطبري(٧٩١٦):ص٢٤٣/٧-٢٤٤.

(٤) أخرجه الطبري(٧٩١٤):ص٢٤٣/٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٣٧):ص٧٧٣/٣-٧٧٤.

(٦) وفي رواية "بحضن الجبل، وفي مجمع الزوائد(١٠١١٩):ص١٢٣/٦:"بجص الجبل" قال:يعني سفح الجبل، وثبته ابن الملقن:"بنحص الجبل"، بالضم، أي: أجل الجبل، معنى أن يكون استشهد معهم. و قال ابن أبي الزناد: نحص الجبل أسفله.[انظر: مغازي الواقدي:٢٥٦/١].

(٧) المستدرك(٢٤٠٧):ص٨٦/٢، وقال :" هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، وانظر: الدر المنثور: الدر المنثور:٣٧٦/٢.

(٨) صفوة التفاسير:٢١١.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٤٢):ص٧٧٤/٣.

(١٠) أخرجه الطبري(٧٩١٧):ص٢٤٤/٧.

(١١) تفسير السمعاني:٣٦١/١.

(١٢) تفسير النسفي:٢٦٩/١.

(١٣) تفسير السعدي:١٤٩.

٢-أنه ينبغي للإنسان ان يعزي المصاب بمثل هذه التعزية، وذلك بذكر النظائراو ما هو أعظم، كأن يقول له مثلا: يا اخي أنت لست أول من أصيب...الخ.
٣-أن الله تعالى جعل هذه الدنيا دولا تتقلب لئلا يركن الإنسان إليها.
٤-تمام سلان الله تعالى في خلقه، وأن له التدبير المطلق، ليظهر أو يتبيّن بذلك تمام سلطان الله تعالى.
٥-أن الله قد يبتلي العبد بالمصائب ليعلم إيمانه من عدمه.
٦-أن الله قد يقدر المكروه لحكم بالغة كثيرة.
٧-أن علم الله تعالى بالاشياء على قسمين: علم بنها ستوجد وهذا أزلي، وعلم بأنها وجدت، وهذا يكون عند الوجود، ولهذا قال: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}.
٨-فضيلة الشهادة، لكونها اصطفاء من الله تعالى لخواص عباده.
٩-فضيلة شهداء أحد، لقوله: { وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ }.
١٠-إثبات المحبة لله، وجهه نفيه عن الظالمين يدل على ثبوتها لغيرهم أو لضدهم.
١١-التحذير من الظلم، لأنه مؤدي إلى عدم محبة الله له.

القرآن
{وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)} [آل عمران : ١٤١]
التفسير:
وهذه الهزيمة التي وقعت في «أُحد» كانت اختبارًا وتصفية للمؤمنين، وتخليصًا لهم من المنافقين وهلاكًا للكافرين.
قوله تعالى: {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران : ١٤١]، أي:" وليختبرَ الله الذين صدَّقوا الله ورسوله"(١).
قال محمد بن إسحاق:" أي " يختبر الذين آمنوا، حتى يخلصهم من البلاء الذي نزل بهم، وكيف صبرهم ويقينهم"(٢).
قال الماتريدي:" أي: يمحص ذنوبهم وسيئاتهم"(٣).
قال الطبري:أي:" فيبتليهم بإدالة المشركين منهم ، حتى يتبين المؤمن منهم المخلصَ الصحيحَ الإيمان ، من المنافق"(٤).
قال ابن كثير:" أي : يكفر عنهم من ذنوبهم ، إن كان لهم ذنوب وإلا رُفِعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به"(٥).
قال التستري:" يعني تخليصهم من عيوب الذنوب، كما أخلصوا له بالعمل، وهو الجهاد في سبيل الله"(٦).
قوله تعالى:{ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [آل عمران : ١٤١]، أي: "ويهلك الكافرين ويستأصلهم"(٧).
قال محمد بن إسحاق:" أي: " يبطل أمر المنافقين، قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، حتى يظهر منهم كفرهم الذي يستترون به منكم "(٨).

---

(١) تفسير الطبري:٢٤٥/٧.
(٢) أخرجه ابن المنذر(٩٦٩):ص٣٩٨/١.
(٣) تفسير الماتريدي:٤٩٦/٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٤٥/٧.
(٥) تفسير ابن كثير:١٢٧/٢.
(٦) تفسير التستري:٥٠.
(٧) تفسير الماتريدي:٤٩٦/٢.
(٨) أخرجه ابن المنذر(٩٦٩):ص٣٩٨/١.

قال الفراء:أي:" ينقصهم ويفنيهم"[1].

قال الزجاج:أي:" ليستأصلهم، وجائز أن يكون يمحقهم يحبط أعمالهم، وتأويل المحص في اللغة: التنقية والتخليص، قال محمد بن يزيد - رحمه الله -: يقال محص الحبل محصا، إذا ذهب منه الوبر حتى يملص وحبل محص أو ملص بمعنى واحد، قال وتأويل قول الناس: محص عنا ذنوبنا: أي أذهب عنا ما تعلق بنا من الذنوب... قال أبو إسحاق: وقرأت عليه أيضا عن الخليل: المحص التخليص يقال: محصت الشيء أمحصه محصا إذا خلصته، وقال بعض أهل اللغة: {وليمحص الله الذين آمنوا}، أي: وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا - ولم يخبروا بحقيقة المحص ما هو"[2].

قال ابن كثير:" أي : فإنهم إذا ظفروا بَغَوا وبَطروا فيكون ذلك سَبَبَ دمارهم وهلاكهم ومَحْقهم وفنائهم"[3].

قال التستري:" أي: وليهلك الكافرين بالذنوب عن الابتلاء"[4].

١-أن الله تعالى قد يبتلي مؤمن من اجل تمحيصه، وذلك من وجهين:

الأول: بيان منْ إيمانه صادق يصبر على الضراء، ومنْ إيمانه مهتز لايصبر.

والثاني: أن هذه المصائب فيها تمحيص للمؤمنين بتكفير السيئات.

٢-محق الكافرين، ويستفاد من هذا أن النعمة قد تكون سببا للنقمة، فإن انتصار الكفار يوجب فرحهم وبطرهم حتى إذا بطروا محقوا.

٣-أن الكافر مآله المحق.

٤-أن الله تعالى له التدبير الكامل في عباده، لقوله:{وليمحّص}، فإن هذا الفعل كان فيه خير للمؤمنين وشر للكافرين.

القرآن

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)} [آل عمران : ١٤٢]

التفسير:

يا أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- أظننتم أن تدخلوا الجنة، ولم تُبْتَلوا بالقتال والشدائد؟ لا يحصل لكم دخولها حتى تُبْتلوا، ويعلم الله علما ظاهرا للخلق المجاهدين منكم في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء.

سبب النزول:

قال مقاتل بن سليمان:" وذلك أن المنافقين قالوا للمؤمنين يوم أحد بعد الهزيمة: لم تقتلون أنفسكم، وتهلكون أموالكم، فإن محمدا لو كان نبيا لم يسلط عليه القتل. قال المؤمنون: بلى من قتل منا دخل الجنة. فقال المنافقون: لم تمنون أنفسكم الباطل، فأنزل الله- تعالى- :{أم حسبتم}، معشر المؤمنين {أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله}"[5]. وأخرج الطبري نحوه عن الضحاك[6].

قوله تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ}[آل عمران : ١٤٢]، "} أي : أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تُبْتَلوا بالقتال والشدائد"[7].

قال محمد بن إسحاق:" أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتصيبوا من ثواب الكرامة"[1].

---

(١) معاني القرآن:١/١٣٥.
(٢) معاني القرآن:١/٤٧١-٤٧٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٢/١٢٧.
(٤) تفسير التستري:٥٠.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٣٠٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٩١٦):ص٧/٢٤٣-٢٤٤.
(٧) تفسير ابن كثير:٢/١٢٧.

قوله تعالى:{وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ }[آل عمران : ١٤٢]، " أي: ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد؟"[٢].

قال محمد بن إسحاق:" يقول: لم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكاره، حتى أعلم صدق ذلك منكم الإيمان بي، والصبر على ما أصابكم في"[٣].

قال ابن كثير:" أي : لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تُبْتَلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقارنة الأعداء"[٤].

قال الزجاج:" المعنى ولما يقع العلم بالجهاد والعلم بصبر الصابرين، ولما يعلم الله ذلك واقعا منهم. لأنه - جل وعز -يعلمه غيبا، وإنما يجازيهم على عملهم"[٥].

قال الأخفش:" فان قال قائل: "ولما يعلم الله الصابرين" {ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم} فهو لم يعلمهم؟ قلت بل قد علم، ولكن هذا فيما يذكر أهل التأويل ليبين للناس، كأنه قال "ليعلمه الناس" كما قال {لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا} وهو قد علم ولكن ليبين ذلك"[٦].

وقرأ الحسن: {ويعلم الصابرين}، بالكسر على العطف، ومن، قرأ {ويعلم الصابرين} فعلى النصب بالواو[٧].

الفوائد:

١-بيان أن التمني رأس مال المفاليس.

٢-أن الجنة لاتدرك بالتمني.

٣-أن الجنة غالية لكون ثمنها غاليا، وذلك ببذل النفوس في طاعة الله والجهاد لإعلاء كلمته.، والجنة رخيصة لأن هذا الأمر يسير جدا على من سهل له الله ووفقه.

٤-ان الله تعالى يمتحن العبد بما يدل على صبره أو ضجره.

٥-أن جزاء الله سواء كان عقوبة أو مثوبة لابد أن يسبقه ما يمتحن فيه العبد.

٦-أن علم الله عزّ وجل الأزلي لايترتب عليه الثواب والعقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على علم الله المقرون بالفعل، الذي يكون علما بالشيء بعد وجوده.

٧-أن الجهاد سبب لدخول الجنة، ولافرق بين الجهاد بالسلام والجهاد بالعلم.

٨-أن الصبر درجة عالية وأنه سبب لدخول الجنة.

القرآن

{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)} [آل عمران : ١٤٣]

التفسير:

ولقد كنتم -أيها المؤمنون- قبل غزوة «أُحد» تتمنون لقاء العدو; لتنالوا شرف الجهاد والاستشهاد في سبيل الله الذي حَظِي به إخوانكم في غزوة «بدر» ، فها هو ذا قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا.

في سبب نزول الآية، أربعة وجوه:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٥٠):ص٧٧٥/٣.

(٢) صفوة التفاسير:٢١١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٥١)، و(٤٢٥٢):ص٧٧٥/٣-٧٧٦.

(٤) تفسير ابن كثير:١٢٧/٢.

(٥) معاني القرآن:٤٧٢/١.

(٦) معاني القرآن:٧٠/١.

(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج:٤٧٢/١.

أحدها: أخرج الطبري عن عكرمة:" إن أناسًا من المؤمنين لم يشهدوا يوم بدر والذي أعطاهم الله من الفضل ، فكانوا يتمنون أن يروا قتالا فيقاتلوا ، فسيق إليهم القتال حتى كان بناحية المدينة يوم أحد ، فأنزل الله عز وجل : ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، الآية"(١).

الثاني: قال مقاتل:" وذلك حين أخبر الله- عز وجل- عن قتلى بدر وما هم فيه من الخير. قالوا: يا نبي الله أرنا يوما كيوم بدر. فأراهم الله- عز وجل- يوم أحد فانهزموا فعاتبهم الله- عز وجل- فقال- سبحانه-: {ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه}"(٢).

الثالث: قال الحسن:" بلغني أن رجالا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : لئن لقينا مع النبي صلى الله عليه وسلم لنفعلن ولنفعلن ، فابتلوا بذلك ، فلا والله ما كلُّهم صَدق الله ، فأنزل الله عز وجل:{ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون}"(٣).

الرابع: وقيل: سببه أن قوما سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يأذن لهم أن يأتوا المشركين في رحالهم ويقاتلوهم، فقال - صلى الله عليه وسلم -:"لم أؤمر بذلك "(٤).

قوله تعالى: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ}[آل عمران : ١٤٣]، " أي: ولقد كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة، من قبل أن تذوقوا شدّته"(٥).

قال الطبري:أي:" ولقد كنتم ، يا معشر أصحاب محمد تمنون القتال"(٦).

قال محمد بن إسحاق:" أي : لقد كنتم تمنون الشهادة على الذي أنتم عليه من الحق قبل أن تلقوا عدوكم يعني الذين استنهضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على خروجه بهم إلى عدوهم ،لما فاتهم من الحضور في اليوم الذي كان قبله ببدر ، رغبة في الشهادة التي قد فاتتهم به "(٧).

قال قتادة:" : كانوا يتمنون أن يلقوا المشركين فيقاتلوهم ، فلما لقوهم يوم أحد ولّوا"(٨).

قوله تعالى:{فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}[آل عمران : ١٤٣]، أي:"فقد رأيتموه بأعينكم"(٩).

قال محمد بن إسحاق:" أي : الموتَ بالسيوف في أيدي الرجال ، قد خلّى بينكم وبينهم ، وأنتم تنظرون إليهم ، فصددتُم عنهم"(١٠).

قال الطبري:" يعني : قد رأيتموه بمرأى منكم ومنظر ، أي بقرب منكم"(١١).

قال الواحدي:" أي: رأيتم أسباب الموت وما يتولد منه الموت كالسيف والأسنة وأنتم بصراء تتأملون الحال في ذلك كيف هي، فلم انهزمتم؟ ! وهذا محذوف، وهو مراد، لأنه موضع العتاب"(١٢).

قال الراغب:" أراد أنكم تمنيتم الحرب فلم تحيرتم؟"(١٣).

قال البيضاوي:" أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنوا وانهزموا عنها، أو على تمني الشهادة فإن في تمنيها تمني غلبة الكفار"(١).

---

(١) تفسير الطبري(٧٩٣٤):ص٢٤٩/٧.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٤/١.
(٣) أخرجه الطبري(٧٩٣٥):ص٢٤٩/٧-٢٥٠.
(٤) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٨٩/٣.
(٥) صفوة التفاسير:٢١١-٢١٢.
(٦) تفسير الطبري:٢٤٨/٧.
(٧) أخرجه الطبري(٧٩٣٧):ص٢٥٠/٧.
(٨) أخرجه الطبري(٧٩٣٣):ص٢٤٩/٧.
(٩) صفوة التفاسير:١٢١.
(١٠) أخرجه الطبري(٧٩٣٧):ص٢٥٠/٧.
(١١)تفسير الطبري:٢٤٨/٧
(١٢) الوجيز:٤٩٨/١-٤٩٩.
(١٣) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٨٩/٣.

وفي قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}[آل عمران : ١٤٣]، وجوه:
أحدها: ان معناه التوكيد. قاله الأخفش[٢].
والثاني: أن المعنى: وأنتم تنظرون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم -.
والثالث:معناه: وأنتم تنظرون إلى السيوف. قاله ابن عباس[٣].
والرابع: أن المعنى: وأنتم بصراء كما تقول: قد رأيت كذا وكذا، وليس في عينيك عمة ، أي قد رأيته رؤية حقيقية، وهو راجع إلى معنى التوكيد. أفاده الزجاج[٤].
الفوائد:
١- إقامة الحجة على من كانوا يتمنون الموت وقد رأوه، ومع ذلك حصل منهم تخاذل.
٢- لاينبغي للإنسان أن يتمنى المكروه، لأنه ربما ينكص ولايصبر.

القرآن
{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)} [آل عمران : ١٤٤]
التفسير:
وما محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا رسول من جنس الرسل الذين قبله يبلغ رسالة ربه. أفإن مات بانقضاء أجله أو قُتِل كما أشاعه الأعداء رجعتم عن دينكم،، تركتم ما جاءكم به نبيكم؟ ومن يرجعُ منكم عن دينه فلن يضر الله شيئًا، إنما يضر نفسه ضررًا عظيمًا. أما مَن ثبت على الإيمان وشكر ربه على نعمة الإسلام، فإن الله يجزيه أحسن الجزاء.
في سبب نزول الآية وجوه:
أحدها: أخرج الطبري عن قتادة::" ذاكم يوم أحُد ، حين أصابهم القَرْح والقتل ، ثم تناعوا نبي الله صلى الله عليه وسلم تَفِئة ذلك ، فقال أناسٌ : لو كان نبيًّا ما قتل ! وقال أناس من عِلْيَة أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم : قاتلوا على ما قاتل عليه محمدٌ نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به ! فقال الله عز وجل:{وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن ماتَ أو قتل انقلبتم على أعقابكم}"[٥].
الثاني: قال الربيع:" وذكر لنا والله أعلم ، أنّ رجلا من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحَّط في دمه ، فقال : يا فلان ، أشعرت أنّ محمدًا قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل ، فقد بلَّغ ، فقاتلوا عن دينكم. فأنزل الله عز وجل:{ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم} "[٦].
الثالث: وقال الضحاك:" نادى منادٍ يوم أحد حين هزم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : ألا إنّ محمدًا قد قتل ، فارجعوا إلى دينكم الأول ! فأنزل الله عز وجل : {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} ، الآية "[٧].
الرابع: وقال مجاهد:" ألقى في أفواه المسلمين يومَ أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فنزلت هذه الآية : {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} الآية"[٨].

---
(١) تفسير البيضاوي:٤٠/٢.
(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج:٤٧٣/١.
(٣) انظر: زاد المسير:٣٣٠/١.
(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج:٤٧٣/١.
(٥) تفسير الطبري(٧٩٤١):ص٢٥٣/٧.
(٦) أخرجه الطبري(٧٩٤٢):ص٢٥٣/٧.
(٧) أخرجه الطبري(٧٩٤٧):ص٢٥٧/٧.
(٨) أخرجه الطبري(٧٩٤٨):ص٢٥٧/٧.

الخامس: قال ابن عباس:" أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتزل هو وعصابة معه يومئذ على أكمة ، والناس يفرُّون ، ورجل قائم على الطريق يسألهم : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وجعل كلما مروا عليه يسألهم ، فيقولون : والله ما ندري ما فعل ! فقال : والذي نفسي بيده ، لئن كان النبي صلى الله عليه وسلم قُتل ، لنعطينَّهم بأيدينا ، إنهم لعشائرنا وإخواننا ! وقالوا : إن محمدًا إن كان حيًّا لم يهزم ، ولكنه قُتل ! فترخَّصوا في الفرار حينئذ. فأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم : {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} ، الآية كلها"(١).

السادس: قال ابن جريج:" قال : أهل المرض والارتياب والنفاق ، حين فرّ الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم : قد قتل محمد ، فألحقوا بدينكم الأول ! فنزلت هذه الآية"(٢)

قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ } [آل عمران : ١٤٤]، "أي: ليس محمد إلا رسول الله مضت قبله رسل"(٣).

قال الزجاج:" المعنى: إنه يموت كما ماتت الرسل قبله"(٤).

قوله تعالى:{أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران : ١٤٤]، أي:" أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم؟"(٥).

قال قتادة:" يقول: " إن مات نبيكم أو قتل، ارتددتم كفارا بعد إيمانكم "(٦).

قال الزجاج:" أي: ارتددتم عن دينكم - وروي أن بعض من كان في يوم أحد ارتد، وبعضهم مضى مسافة ثلاثة أيام، فأعلم الله جل وعز أن الرسل ليست باقية في أممها أبدا وأنه يجب التمسك بما أتت به، وإن فقد الرسول بموت أو قتل"(٧).

قال سعيد بن جبير:" ما سمعنا أن نبيا قط قتل في القتال"(٨).

قوله تعالى:{وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا} [آل عمران : ١٤٤]، " أي: ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله شيئا"(٩).

قال مقاتل:" يقول: ومن يرجع إلى الشرك بعد الإيمان {فلن يضر الله شيئا} بارتداده من الإيمان إلى الشرك إنما يضر بذلك نفسه"(١٠).

قال محمد بن إسحاق:" أي [ومن]يرجع عن دينه، [فـ]لن ينقص ذلك عن الله، ولا ملكه، ولا سلطانه، ولا قدرته"(١١).

قال المراغي:" أي: ومن يرجع عن جهاده ومكافحته الأعداء فلن يضر الله شيئا بما فعل، بل يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب، وحرمانها من الثواب، فالله قد وعد بنصر من ينصره ويعزّ دينه، ويجعل كلمته هى العليا، وهو لا محالة منجز وعده"(١٢).

قوله تعالى:{وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران : ١٤٤]، "أي: وسيثيب الله المطيعين، وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا"(١٣).

---

(١) أخرجه الطبري(٧٩٤٩):ص٢٥٧/٧.
(٢) أخرجه الطبري(٧٩٥٣):ص٢٥٨/٧.
(٣) صفوة التفاسير:٢١٢.
(٤) معاني القرآن:٤٧٣/١.
(٥) صفوة التفاسير:٢١٢.
(٦) أخرجه ابن المنذر(١٠٠٢):ص٤١٧/١.
(٧) معاني القرآن:٤٧٣/١-٤٧٤.
(٨) أخرجه ابن المنذر(١٠٠١):ص٤١٧/١.
(٩) صفوة التفاسير:٢١٢.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٥/١.
(١١) أخرجه ابن المنذر(١٠٠٤):ص٤١٧/١.
(١٢) تفسير المراغي:٨٨/٤.
(١٣) صفوة التفاسير:٢١٢.

قال محمد بن إسحاق:" أي:من أطاعه، وعمل بأمره"(١).
قال مقاتل:" يعني: الموحدين لله في الآخرة"(٢).
قال ابن أبي زمنين:" يعني: المؤمنين يجزيهم بالجنة"(٣).
قال الواحدي:أي:" الطّائعين لله من المهاجرين والأنصار"(٤).
قال البيضاوي:أي:الشاكرين" على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه"(٥).
قال ابن كثير:"أي : الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حيا وميتا"(٦).
قال أبو السعود:أي:" وسيجزي الله "الثابتين على دين الإسلام، سموا بـ{الشاكرين}، لأن الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين"(٧).
قال المراغي:" وفى الآية إرشاد إلى أن المصايب التي تحل بالإنسان لا مدخل لها فى كونه على حق أو باطل، فكثيرا ما يبتلى صاحب الحق بالمصائب والرزايا، وصاحب الباطل بالنعم والعطايا.
وفيها إيماء إلى أنا لا نعتمد فى معرفة الحق والخير على وجود المعلّم بحيث نتركهما عند موته، بل نسير على منهاجهما حين وجوده وبعد موته.
والخلاصة- إن الله أوجب علينا أن نستضىء بالنور الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، أما ما يصيب جسمه من جرح أو ألم، وما يعرض له من حياة أو موت، فلا مدخل له فى صحة دعوته، ولا فى إضعاف النور الذي جاء به، فإنما هو بشر مثلكم خاضع لسنن الله كخضوعكم"(٨).
أخرج البخاري بسنده عن عن عُقيل عن ابن شهاب ، عن أبي سَلَمة ؛ "أن عائشة ، رضي الله عنها ، أخبرته أن أبا بكر ، رضي الله عنه ، أقبل على فَرَس من مَسْكنه بالسُّنْح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يُكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمَّم رَسُول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُغَشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه صلى الله عليه وسلم ثم أكب عليه وقَبَّله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي. والله لا يجمع الله عليك موْتَتَين ؛ أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها.
وقال الزهري : وحدثني أبو سَلَمة عن ابن عباس ، أن أبا بكر خرج وعمر يُحَدِّث الناس فقال : اجلس يا عمر فأبى عمرُ أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عُمَرَ ، فقال أبو بكر : أما بعد ، مَنْ كانَ يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حَيّ لا يموت ، قال الله تعالى : { وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ } إلى قوله : { وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } قال : فوالله لكأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها الناس منه كلهم ، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها.
وأخبرني سعيد بن المُسَيَّب أن عُمر قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعقرتُ حتى ما تقلني رجلاي وحتى هَوَيتُ إلى الأرض"(٩).
الفوائد:
١-بيان أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ليس ربّا فيدعي ولا إلها فيعبد، فهو -صلى الله عليه وسلم-بشر يلحقه الموت كما يحلق جميع الرسل.

---

(١) أخرجه ابن المنذر(١٠٠٤):ص٤١٧/١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٥/١.
(٣) تفسير ابن أبي زمنين:٣٢٢/١.
(٤) الوجيز:٢٣٥.
(٥) تفسير البيضاوي:٤١/٢.
(٦) تفسير ابن كثير:١٢٨/٢.
(٧) تفسير أبي السعود:٩٤/٢.
(٨) تفسير المراغي:٨٩/٤.
(٩)صحيح البخاري برقم (٤٤٥٢ ، ٤٤٥٣ ، ٤٤٥٤).

٢-أنه ينبغي الدليل بذكر النظائر لغرض الاقناع، لقوله:{قد خلت من قبله الرسل}، فإن من سمع هذا يقول: مادام الرسل السابقون ماتوا، فيكون ذلك تسلية له.

٣-إثبات ان محمدا-صلى الله عليه وسلم- خاتم الرسل، لقوله:{قد خلت من قبله الرسل}، لأن "الـ" هنا للعموم ولم يقل: "رسل"، بل قال:"الرسل"، وإذا كان الرسل كلهم قد خلوا من قبله لزم من ذلك أن يكون هو-صلى الله عليه وسلم- آخرهم.

٤-أن الارتداد عن الإسلام انقلاب على العقب، ومن تمسك بالاسلام فإنه التقدمي، لأن الاسلام يحث على التقدم لكل فضيلة.

٥-أ، الله تعالى غنيّ عن طاعة الطائعين.

٦-انتفاء الضرر عن الله تعالى، وأنه لن يضره شيء.

٧-الحثّ على الشكر.

القرآن

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)} [آل عمران : ١٤٥]

التفسير:

لن يموت أحد إلا بإذن الله وقدره وحتى يستوفي المدة التي قدرها الله له كتابًا مؤجَّلا. ومن يطلب بعمله عَرَض الدنيا، نعطه ما قسمناه له من رزق، ولا حظَّ له في الآخرة، ومن يطلب بعمله الجزاء من الله في الآخرة نمنحه ما طلبه، ونؤته جزاءه وافرًا مع ما له في الدنيا من رزق مقسوم، فهذا قد شَكَرَنا بطاعته وجهاده، وسنجزي الشاكرين خيرًا.

سبب النزول:

قال الثعلبي:" نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد طلبا للغنيمة"(١).

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [آل عمران : ١٤٥]، أي:" وما ينبغي لنفس أن تموت إلا بقدر الله"(٢)..

قال مقاتل:" يعنى: أن تقتل حتى يأذن الله فى موته"(٣).

قال محمد بن إسحاق:" أي : أن لمحمد أجلا هو بالغه ، إذا أذن الله له في ذلك كان"(٤).

قال الطبري:يعني:" وما يموت محمد ولا غيره من خلق الله إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله الله غاية لحياته وبقائه ، فإذا بلغ ذلك من الأجل الذي كتبه الله له ، وأذن له بالموت ، فحينئذ يموت. فأما قبل ذلك ، فلن يموت بكيد كائد ولا بحيلة محتال، وقد قيل إنّ معنى ذلك : وما كانت نفسٌ لتموت إلا بإذن الله"(٥).

قال المراغي:"أي: ليس من شأن النفوس ولا من سنة الله فيها أن تموت بغير إذنه تعالى ومشيئته"(٦).

قوله تعالى: {كِتَابًا مُؤَجَّلًا } [آل عمران : ١٤٥]، أي:" كتب الله ذلك كتابا ذا أجل"(٧).

قال مقاتل:" في اللوح المحفوظ"(٨).

---

(١) تفسير الثعلبي:١٧٩/٣.

(٢)تفسير الثعلبي:١٧٨/٣.[بتصرف].

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٥/١.

(٤) أخرجه الطبري(٧٩٥٤):ص٢٦٠/٧.

(٥) تفسير الطبري:٢٦٠/٧.

(٦) تفسير المراغي:٨٩/٤.

(٧) معاني القرآن للزجاج:٤٧٤/١.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٥/١.

قال الثعلبي:" يعني: أن لكل نفس أجلا هو بالغه ورزقا مستوفيه، لا يقدر أحد على تقديمه وتأخيره"(١).

قال الزجاج:" الأجل هو الوقت المعلوم"(٢).

قال عمر بن عبدالعزيز:" لا تموت نفس ولها في الدنيا عمر ساعة إلا بلغته"(٣).

قال المراغي:" أي أثبته الله مقرونا بأجل معين لا يتغير، ومؤقتا بوقت لا يتقدم ولا يتأخر، فكثير من الناس يتعرضون لأسباب المنايا بخوض غمرات الحروب، أو يتعرضون لعدوى الأمراض، أو يتصدون لأفاعيل الطبيعة، وهم مع ذلك لا يصابون بالأذى فالشجاع المقدام قد يسلم فى الحرب، ويقتل الجبان المتخلف ويفتك المرض بالشاب القوى، ويترك الضعيف الهزيل، وتغتال عوامل الأجواء الكهل المستوي وتتجاوز الشيخ الضعيف، فللأعمار آجال، وللآجال أقدار لا تخطوها، والأقدار هى السنن التي عليها تقوم نظم العالم وإن خفيت على بعض الناس، وإذا كان محيانا ومماتنا بإذن الله فلا محل للخوف والجبن، ولا عذر فى الوهن والضعف.

وفى الآية تحريض على الجهاد وتشجيع على لقاء العدو، فإنه إذا كان الأجل محتوما ومؤقتا بميقات، وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المعارك واقتحم المهالك فلا محل إذا للخوف والحذر- إلى ما فيها من الإشارة إلى كلاءة الله وحفظه لرسوله مع غلبة العدوّ له والتفافهم عليه وإسلام قومه له نهزة للمختلس، فلم يبق سبب من أسباب الهلاك إلا قد حصل، ولكن لما كان الله حافظا وناصرا له لم يضرّه شىء، وفيها إشارة إلى أن قومه قد قصّروا فى الذبّ عنه"(٤).

قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا } [آل عمران : ١٤٥]، "أي: ومن قصد بعمله حظ الدنيا أعطاه الله شيئا من ثوابها"(٥).

قال مقاتل:" يعني الذين تركوا المركز يوم أحد وطلبوا الغنيمة"(٦).

قال محمد بن إسحاق:" أي : فمن كان منكم يريد الدنيا ، ليست له رغبة في الآخرة ، نؤته ما قسم له منها من رزق ، ولا حظ له في الآخرة"(٧).

قال الثعلبي:" يعني ومن يرد بطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله"(٨).

قال ابن كثير:"أي : من كان عمله للدنيا فقد نال منها ما قدّرَه الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب"(٩).

قال الطبري:أي:" من يرد منكم ، أيها المؤمنون ، بعمله جزاءً منه بعضَ أعراض الدنيا ، دون ما عند الله من الكرامة لمن ابتغى بعمله ما عنده نعطه منها ما قُسم له فيها من رزق أيام حياته ، ثم لا نصيب له في كرامة الله التي أعدها لمن أطاعه وطلب ما عنده في الآخرة"(١٠).

قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} [آل عمران : ١٤٥]، أي:" ومن قصد الآخرة أعطاه الله حظا من ثوابها"(١١).

قال محمد بن إسحاق:" ومن يرد ثواب الآخرة نوته منها ما وعده ، مع ما يُجرى عليه من رزقه في دنياه"(١).

---

(١) تفسير الثعلبي:١٧٩/٣.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٥/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٧٠):ص٧٧٩/٣.

(٤) تفسير المراغي:٨٩/٤.

(٥) تفسير المراغي:٩٠/٤.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٥/١.

(٧) أخرجه الطبري(٧٩٥٥):ص٢٦٢/٧-٢٦٣.

(٨) تفسير الثعلبي:١٧٩/٣.

(٩) تفسير ابن كثير:١٣٠/٢.

(١٠) تفسير الطبري:٢٦٢/٧.

(١١) تفسير المراغي:٩٠/٤.

قال مقاتل:" الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير الأنصاري من بني عمرو حتى قتلوا"[٢].
قال ابن كثير:أي:"ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا"[٣].
قال الزجاج:" وليس في هذا دليل أنه يحرمه خير الدنيا، لأنه لم يقل: ومن يرد ثواب الآخرة
لم نؤته إلا منها، والله عز وجل ذو الفضل العظيم"[٤].
قال المراغي:" وفيها تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد، فتركوا موقعهم الذي أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بلزومه، وكأنه يقول لهم إن كنتم تريدون ثواب الدنيا فالله لا يمنعكم ذلك، وما عليكم إلا أن تسلكوا سبيله، ولكن ليس هذا هو الذي يدعوكم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، بل يدعوكم إلى خير ترون حظا منه فى الدنيا، والمعوّل عليه ما فى الآخرة.
فأنتم بين أمرين: إما إرادة الدنيا، وإما إرادة الآخرة، ولكل منهما سنن تتبع، وطرق تسلك، وفى معنى الآية قوله تعالى: {مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} .
ومن هدى الإسلام أن يطلب المرء بعمله خيرى الدنيا والآخرة معا، ويقول:{رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً} والله يعطيه كل ما يطلب أو بعضه يحسب سنن الله وتدبيره لنظم الحياة.
وعلى الإنسان أن يعلم أن له طورين:
أحدهما: طور عاجل قصير، وهو طور الحياء الدنيا.
والثاني: طور آجل أبدىّ، وهو طور الحياة الآخرة.
وسعادته فى كل من الطورين مرتبطة بإرادته وما توجهه إليه من العمل، فالناس إنما يتفاضلون بالإرادات والمقاصد: فقوم يحاربون حبا فى الربح والكسب، أو ضراوة بالفتك والقتل، فإذا غلبوا أفسدوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل، وقوم يحاربون دفاعا عن الحق وإقامة لقوانين العدل، فإذا غلبوا عمروا الأرض وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فهل يستوى الفريقان، وهما فى المقصد مفترقان؟
كذلك يطلب الرجل الربح والكسب أحيانا بكل وسيلة مستطاعة طلبا للذاته، والحصول على شهواته، فيغلو فى الطمع، ويمعن فى الحيل، ولا يبالى أمن الحرام أكل أم من الحلال؟ يأكل الربا أضعافا مضاعفة، فيجمع القناطير المقنطرة، وهو مع ذلك يمنع الماعون، ولا يحضّ على طعام المسكين، ولو سئل البذل فى المصالح العامة كان أشد الناس بخلا وأقبضهم كفا، بينا يطلب آخر الكسب طلبا للتجمل وحبا للكرامة فى قومه وعشيرته، فيقتصد فى الطلب، ويتحرى الربح الحلال، ويلتزم الصدق والأمانة، ويبتعد عن الفسوق والخيانة، وهو مع هذا ينفق مما أفاء الله به عليه، فيواسى البائسين، ويساعد المعوزين، وتكون له اليد الطّولى فى الأعمال النافعة لأمته، فيشيد لها المدارس والمعابد، والملاجئ والمستشفيات، فهل ينظر الناس إلى هذين نظرة متساوية، وهل هما فى القرب عند الله بمنزلة واحدة، أو يفضل أحدهما الآخر بحسن القصد والإرادة والميل إلى الخير وحب المصلحة العامة.
وقصارى القول- إن أقدار الرجال تتفاوت وتختلف باختلاف إرادتهم، فبينما تتسع دائرة وجود الشخص بحسب كبر إرادته وسعة مقصده، فتحيط بالكرة الأرضية، بل فوق ذلك بما يكون له من الكرامة فى العالم العلوي- إذا بآخر تضيق دائرة وجوده إذا هو أخلد إلى الشهوات،

---

(١) أخرجه الطبري(٧٩٥٥):ص٢٦٣/٧.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٥/١.
(٣) تفسير ابن كثير:١٣٠/٢.
(٤) معاني القرآن:٤٧٥/١.

وركن إلى اللذات، فيكون حظه من عمله كحظ الحشرات، يأكل ويشرب ويبغى على الضعيف ويخاف من القوى.

والله قد جعل عطاءه للناس معلقا على إرادتهم، ولا يقدر مثل هذا إلا القليل منهم"[١].

قوله تعالى: {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران : ١٤٥]، أي: وسيثيب الله "الموحدين في الآخرة"[٢].

قال الثعلبي:" أي الموحدين المطيعين"[٣].

قال السمعاني:" يعني: المؤمنين"[٤].

قال ابن كثير:" أي : سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شُكْرهم وعملهم"[٥].

قال أبو السعود:أي {الشاكرين}نعمة الإسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر إلى ما خلقت هي لأجله من طاعة الله تعالى لا يلويهم"[٦].

قال البيضاوي:أي:" وسنجزي الشاكرين الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد"[٧].

قال النسفي: أي:" وسنجزي الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد"[٨].

قال محمد بن إسحاق:" أي : ذلك جزاء الشاكرين ، يعني بذلك ، إعطاء الله إياه ما وعده في الآخرة ، مع ما يجري عليه من الرزق في الدنيا"[٩].

قال عباد بن منصور:" سألت الحسن عن قوله: {وسنجزي الشاكرين}، قال: يعطي الله العبد بنيته الدنيا والآخرة"[١٠].

وقرأ الأعمش: "{وسيجزي}، بالياء، يعني الله سبحانه"[١١].

قال ابن الجوزي:" قوله تعالى: {ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها}، جمهور العلماء على أن هذا الكلام محكم واستدلوا عليه بشيئين:

أحدهما: أنه خبر والخبر لا يدخله النسخ.

والثاني: أنهم قالوا: ما أحد إلا وله من الدنيا نصيب مقدر، ولا يفوته ما قسم له. فمن كانت همته ثواب الدنيا أعطاه الله منها ما قدر له وذلك هو الذي يشاؤه الله، وهو المراد بقوله: {عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد}[١٢]، ولم يقل يؤته منها ما يشاء هو، ويمكن أن يكون المعنى: لمن يريد أن يفتنه أو يعاقبه.

---

(١)تفسير المراغي:٩٠/٤.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٠٥/١.
(٣) تفسير الثعلبي:١٧٩/٣.
(٤) تفسير السمعاني:٣٦٣/١.
(٥) تفسير ابن كثير:١٣٠/٢.
(٦) تفسير أبي السعود:٩٤/٢.
(٧) تفسير البيضاوي:٤١/٢.
(٨) تفسير النسفي:٢٩٨/١.
(٩) أخرجه الطبري(٧٩٥٦):ص٢٦٣/٧.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٧٤):ص٧٨٠/٣.
(١١) تفسير الثعلبي:١٧٩/٣.
(١٢)الآية (١٨) من سورة الإسراء.

وذهب السدي إلى أنه منسوخ[1] بقوله: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد} وليس هذا بقول من يفهم الناسخ والمنسوخ، فلا يعول عليه"[2].

الفوائد:

١-أن آجال الأنفس محددة، وأنه لايمكن ان يتقدم الإنسان أو يتأخر عن الأجل الذي قدّره الله له.

٢-تسلية أصحاب الرسول-صلى الله عليه وسلم- حين قيل لهم أن محمدا-صلى الله عليه وسلم- قتل.

٣-إثبات أن كل شيء حتى الموت مخلوق، لقوله:{إلا بإذن الله}، وما كان صادرا عن إذن فهو مخلوق، ويدل عليه قوله: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ } [الملك : ٢].

٤-أن الناس لهم مشارب ولكل مسلك.

٥-الردّ على الجبرية، لقوله:{ومن يرد}، إذ اثبت للإنسان إرادة، والجبرية يقولون أن الانسان ليس له إرادة.

٦-أن الذي يريد بالعمل الصالح الأمور الدنيوية، فليس له حظ في الآخرة.

٧-إيثار إرادة الآخرة على الدنيا.

٨-إثبات الجزاء على العمل.

٩-الحث على الشكر، لأن الإخبار بأن الله سيجزي الشاكرين يراد به الحص على الشكر.

القرآن

{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)} [آل عمران : ١٤٦]

التفسير:

كثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لِمَا نزل بهم من جروح أو قتل; لأن ذلك في سبيل ربهم، وما عَجَزوا، ولا خضعوا لعدوهم، إنما صبروا على ما أصابهم. والله يحب الصابرين.

قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}[آل عمران:١٤٦]، " أي: وكم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون وعُبَّاد صالحون كثير"[3].

قال الزجاج:أي:" وكأين من نبي قتل ومعه { رِبِّيُّونَ }الجماعات الكثيرة، وقال بعضهم الربوة عشرة آلاف"[4].

قال محمد بن إسحاق:" وكأين من نبي أصابه القتل ومعه جماعات"[5].

قال الحسن:" قد كانت أنبياء الله قبل محمد قاتل معها علماء"[6]، وروي عنه أيضا أن:"الربيون من العلماء مأخوذ من الرب؛ لأنهم على دين الرب وطريقه"[7].

قال الضحاك:"الربيون: الربوة الواحدة ألف "[8].

وقال عطاء الخراساني:"الربوة: عشرة آلاف في العدد"[1].

---

(١)ورد هبة الله في ناسخه (٣٠) هذه الآية مع الآيات المنسوخة، وأعرض غيره من علماء النسخ والتفسير عن إدخالها ضمن الآيات المنسوخة. وأما ابن الجوزي- رحمه الله- فقد أورد في تفسيره شبيها لما ذكر هنا مناقشة وردا. انظر: زاد المسير ١/ ٤٧٠.

(٢) نواسخ القرآن:٣٣٣-٣٣٤.

(٣) صفوة التفاسير:٢١٢.

(٤) معاني القرآن:٤٧٦/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٧٥):ص٧٨٠/٣.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٧٥):ص٧٨٠/٣.

(٧) تفسير السمعاني:٣٦٣/١.

(٨) أخرجه ابن المنذر(١٠٠٩):ص٤١٩/١.

أخرج سفيان عن عبد الله في قوله:{وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير}، قال: "الوف"[2].

وفي قوله تعالى:{ رِبِّيُّونَ}[آل عمران:١٤٦]، أربعة أقاويل :

أحدها: أنهم الذين يعبدون الرب وأحدهم رِبّيٌّ ، قاله الأخفش[3]، لأن "العرب تنسب الشيء إلى الشيء فيغير حركته كما يقول بصري منسوب إلى بصرة، فكذلك {ربيون}، منسوب إلى «الرب»"[4].

الثاني: أنهم الجماعات الكثيرة، و"الربيون" جمع "الربية"، وهي الفرقة، وهو قول ابن مسعود[5]، وابن عباس[6]، والحسن[7]، والسدي[8]، وقتادة[9]، وعكرمة[10]، ومجاهد[11]، والربيع[12]، والضحاك[13]، وابن إسحاق[14].

ومنه قوله حسان[15]:

وإذا معشر تجافوا عن الحق ... حملنا عليهم ربيا

والثالث: انهم العلماء الكثيرون ، وهو قول ابن عباس أيضا[16]، والحسن[17] أيضا.

والرابع:أن "الربيون":الأتباع . والربانيون : الولاة ، والربيون الرعية ، وهو قول أبن زيد[18].

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ }[آل عمران:١٤٦]، ثلاثة اوجه من القراءة[19]:

أحدها: قرأ ابن كثير وحده :{ وكآئن}، الهمزة بين الألف والنون على وزن:"فاعل".

والثاني: وقرأ الباقون: {وكأين}، الهمزة بين الكاف والياء مشددة على وزن: "كعين".

والثالث: وقرأ ابن محيصن: (كأي) ممدودا بغير نون[20].

واختلفت القراءة في قوله تعالى: { قَاتَلَ مَعَهُ}[آل عمران:١٤٦]، على قراءتين[21]:

إحداهما: { قتل معه}، قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وهي قراءة ابن عباس واختيار أبي حاتم، وحسّنه الأخفش [22].

ومن قرأ {قتل} فله ثلاثة أوجه[23]:

---

(١) أخرجه ابن المنذر(١٠١٠):ص٤١٩/١.
(٢) تفسير سفيان الثوري:٨١.
(٣) انظر: معاني القرآن:٢٣٥/١.
(٤) تفسير الثعلبي:١٨١/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٧٩٥٧)-(٧٩٦٠):ص٢٦٥/٧-٢٦٦.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٧٩٦١):ص٢٦٦/٧، و(٧٩٧٩):ص٢٦٨/٧.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٧٩٦٦):ص٢٦٧/٧.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٧٩٧٧):ص٢٦٨/٧.
(٩) انظر: تفسير الطبري(٧٩٦٧):ص٢٦٧/٧.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(٧٩٦٩):ص٢٦٧/٧.
(١١) انظر: تفسير الطبري(٧٩٧١):ص٢٦٧/٧.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٧٩٧٣):ص٢٦٨/٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٧٩٧٤):ص٢٦٨/٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٧٩٧٨):ص٢٦٨/٧.
(١٥) انظر: تفسير الثعلبي:١٨١/٣، والقرطبي:٢٣٠/٤، والدر المنثور:٨٢/٢.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(٧٩٦٤):ص٢٦٦/٧.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٧٩٦٥)، و(٧٩٦٨):ص٢٦٧/٧.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(٧٩٨٠):ص٢٦٩/٧.
(١٩) انظر: السبعة في القراءات:٢١٧.
(٢٠) انظر: تفسير الثعلبي:١٨٠/٣.
(٢١) انظر: السبعة في القراءات:٢١٧.
(٢٢) انظر: معاني القرآن:٢٣٥/١.
(٢٣) انظر: تفسير الثعلبي:١٨١/٣.

أحدها: أن يكون القتل واقعا على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قراءة (قتل) فيكون في الآية إضمار معناه ومعه ربيون كثير كما يقال: قتل الأمير معه جيش عظيم، أي ومعه، ويقول: خرجت معي تجارة، أي ومعي.

والوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومعه من الربيين، ويكون وجه الكلام: قتل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني فلان، وإنما قتلوا بعضهم ويكون قوله: فما وهنوا راجعا إلى الباقين الذين لم يقتلوا.

والوجه الثالث: أن يكون القتل للربيين لا غير.

والقراءة الثانية: {قاتل} بالألف، قرأ بها عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي، وهي قراءة ابن مسعود واختيار أبي عبيد.

قال الثعلبي:" فمن قرأ (قاتل) فلقوله:{فما وهنوا}، ويستحيل وصفهم بأنهم لم يهنوا بعد ما قتلوا، ولقول سعيد بن جبير: «ما سمعنا أن نبيا قط قتل في القتال»"(١).

وقال أبو عبيد: "إن الله تعالى إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه، وإذا حمد من قتل خاصة لم يدخل فيه غيرهم، فقاتل أعم"(٢).

وتقرأ { رِبِّيُّونَ}، بكسر الراء، وهو الأكثر، وبعضهم قرأ {ربيون} بضم الراء، وهي لغة بني تميم (٣).

قوله تعالى: { فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }[آل عمران:١٤٦]، "أي: ما جبنوا ولا ضعفت هممهم لما أصابهم من القتل والجراح"(٤).

قال الزجاج:أي:" فما فتروا"(٥).

قال الماوردي:" الوهن : الانكسار بالخوف، والمعنى: فلم يهنوا بالخوف"(٦).

عن ابن عباس: " {فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله} ، قال: لقتل أنبيائهم "(٧).

قال أبو مالك:" يعني: فما عجزوا عن عدوهم"(٨).

قال محمد بن إسحاق:"{فما وهنوا} لفقد نبيهم"(٩).

قال السدي:" فما وهن الربيون لما أصابهم في سبيل الله من قتل النبي"(١٠).

قال الحسن:" لكي لا يهن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم"(١١).

قوله تعالى: { وَمَا ضَعُفُوا }[آل عمران:١٤٦]، :أي: وما ضعفوا عن الجهاد "(١٢).

قال الزجاج:أي:" وما جبنوا عن قتال عدوهم"(١٣).

قال الماوردي:" الضعف نقصان القوة، والمعنى: ولا ضعفوا بنقصان القوة"(١٤).

قال محمد بن إسحاق:" {وما ضعفوا} عن عدوهم "(١٥).

---

(١) تفسير الثعلبي:١٨١/٣.
(٢) تفسير الثعلبي:١٨١/٣.
(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج:٤٧٦/١، وتفسير الثعلبي:١٨١/٣.
(٤) صفوة التفاسير:٢١٢.
(٥) معاني القرآن:٤٧٦/١.
(٦) النكت والعيون:٤٢٨/١.
(٧) أخرجه ابن المنذر(١٠١٦):ص٤٢٠/١-٤٢١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٨٤):ص٧٨١/٣.
(٩) أخرجه ابن المنذر(١٠١٨):ص٤٢١/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٨٥):ص٧٨١/٣.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٨٧):ص٧٨١/٣.
(١٢) صفوة التفاسير:٢١٢.
(١٣) معاني القرآن:٤٧٦/١.
(١٤) النكت والعيون:٤٢٨/١.
(١٥) أخرجه ابن المنذر(١٠١٨):ص٤٢١/١.

قال قتادة:" يقول:ما عجزوا وما تضعضعوا لقتل نبيهم"[1].
عن الضحاك: {ربيون كثير} قال: " فالربيون: الجموع، قتل نبيهم في قتالهم، فلم يهنوا لذلك، ولم يضعفوا لإيمانهم "[2].
قال السدي:" ما ضعفوا في سبيل الله لقتل النبي"[3].
قوله تعالى: { وَمَا اسْتَكَانُوا }[آل عمران:١٤٦]،" أي ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم"[4].
قال الزجاج:أي:" ما خضعوا لعدوهم"[5].
قال الماوردي:" الاستكانة: الخضوع، والمعنى: ولا استكانوا بالخضوع"[6].
قال الراغب:"الاستكانة: الخشوع والتضرع للمخافة"[7].
قال الماتريدي:" قيل: لم يذلوا في عدو لهم، ولم يخضعوا لقتل نبيهم؛ بل قاتلوا بعده على ما قاتلوا معه؛ فهلا قاتلتم أنتم على ما قاتل عليه نبيكم؛ كما قاتلت القرون من قبلكم إذا أصيب أنبياؤهم"[8].
قال زيد بن أسلم:" وما استكانوا لعدوهم"[9].
عن ابن جريج قال: "بلغني عن ابن عباس أنه قال في قوله: {وما استكانوا}، قال: تخشعوا"[10].
قال قتادة:" يقول: " ما ارتدوا عن بصيرتهم، ولا عن دينهم، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله، حتى لحقوا بالله"[11].
قال محمد بن إسحاق:" {وما استكانوا} لما أصابهم في الجهاد، عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر "[12].
قال السدي:" يقول: ما ذلوا حين قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس لهم أن يعلونا لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون"[13].
قوله تعالى: { وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ }[آل عمران:١٤٦]، "أي: والله يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله"[14].
قال الماتريدي:يعني:" على قتال عدوهم، وعلى كل مصيبة تصيبهم"[15].
قال محمد ابن إسحاق: "{والله يحب الصابرين} لما أصابهم في الجهاد عن الله، وعن دينهم وذلك الصبر"[16].
الفوائد:
١-العناية الربانية الخاصة لهذه الأمة، إذ يسليهم بما حصل للأمم السابقة.

---

(١) أخرجه ابن المنذر(١٠١٩):ص٤٢١/١.
(٢) أخرجه ابن المنذر(١٠١٧):ص٤٢١/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٨٨):ص٧٨١/٣.
(٤) صفوة التفاسير:٢١٢.
(٥) معاني القرآن:٤٧٦/١.
(٦) النكت والعيون:٤٢٨/١.
(٧) تفسير الراغب الأصفهاني:٨٩٨/٣.
(٨) تفسير الماتريدي:٥٠٢/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٩٣):ص٧٨٢/٣.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٩٥):ص٧٨٢/٣.
(١١) أخرجه ابن المنذر(٢١١٩):ص٤٢٢/١.
(١٢) أخرجه ابن المنذر(١٠١٨):ص٤٢١/١.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٩١):ص٧٨٢/٣.
(١٤) صفوة التفاسير:٢١٢.
(١٥) تفسير الماتريدي:٥٠٢/٢.
(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٩٦):ص٧٨٢/٣.

٢-أن الجهاد مشروع في غير هذه الأمة، لأن القتال من الأنبياء وأتباعهم لا يكون إلا عن جهاد، وهو كذلك.
٣-الثناء على من سبق ممن يستحق الثناء.
٤-الإشارة إلى انحطاط مرتبة الذين يذلون لأعداء الله.
٥-إثبات المحبة لله تعالى.
٦-الحث على الصبر، لقوله:{ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}.

القرآن

{وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)} [آل عمران : ١٤٧]

التفسير:

وما كان قول هؤلاء الصابرين إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وما وقع منا مِن تجاوزٍ في أمر ديننا، وثبِّت أقدامنا حتى لا نفرَّ من قتال عدونا، وانصرنا على مَن جحد وحدانيتك ونبوة أنبيائك.

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} [آل عمران : ١٤٧]، أي:" وما كان قول هؤلاء الصابرين إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا"[(١)].

قال الطبري: أي:" لم يعتصموا ، إذ قتل نبيهم ، إلا بالصبر على ما أصابهم ، ومجاهدة عدوهم ، وبمسألة ربهم المغفرة والنصر على عدوهم"[(٢)].

قال ابن إسحاق:" أي : فقولوا كما قالوا ، واعلموا أنما ذلك بذنوب منكم ، واستغفروا كما استغفروا ، وامضوا على دينكم كما مضوا على دينهم ، ولا ترتدُّوا على أعقابكم راجعين"[(٣)].

قال الماتريدي:" قيل: وما كان قول الأمم السالفة عند قتل نبيهم - إلا أن قالوا: (ربنا اغفر لنا ذنوبنا) الآية، يقول: يعلم الله هذه الأمة ويعاتبهم: هلا قلتم أنتم حين نعي إليكم نبيكم كما قالوا القوم في الأمم السالفة؟!"[(٤)].

قال الزمخشري:" هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين، هضما لها واستقصارا"[(٥)].

قوله تعالى:{وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا} [آل عمران : ١٤٧]، "أي: وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك"[(٦)].

عن ابن عباس:" قوله: {وإسرافنا في أمرنا}، يقول:خطايانا"[(٧)].

وعن مجاهد:"{إسرافنا في أمرنا}، خطايانا وظلمنا أنفسنا"[(٨)].

وعن الضحاك: "قوله: {وإسرافنا في أمرنا}، فهي: الخطايا الكبائر"[(٩)].

قال الزمخشري:"والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع، وأقرب إلى الاستجابة"[(١٠)].

---

(١) التفسير الميسر:٦٨.
(٢) تفسير الطبري:٧/٢٧١-٢٧٢.
(٣) أخرجه الطبري(٧٩٩٣):ص٧/٢٧٣، وابن أبي حاتم(٤٣٩٧):ص٣/٧٨٢-٧٨٣.
(٤) تفسير الماتريدي:٢/٥٠٢..
(٥) الكشاف:١/٤٢٤.
(٦) صفوة التفاسير:٢١٢.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٩٨):ص٣/٧٨٣.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٢٩٩):ص٣/٧٨٣.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٤٣٠٠):ص٣/٧٨٣.
(١٠) الكشاف:١/٤٢٤.

قال المراغي:" وفى هذا إيماء إلى أن الذنوب والإسراف فى الأمور من عوامل الخذلان، والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفلاح، ومن ثم سألوا ربهم أن يمحو من نفوسهم أثر الذنوب وأن يوفقهم إلى دوام الثبات حين تزلّ الأقدام. وقد قدموا طلب المغفرة من الذنوب على طلب النصر ليكون الدعاء فى حيز القبول، فإن الدعاء المقرون بالخضوع والطاعة الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة.

وفى طلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التي دل عليها قوله: (رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) إعلام بأنهم لا يعوّلون على كثرة العدد بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله بثبات الأقدام والتمسك بأهداب الحق"(١).

قال الراغب:" الفرق بين الدنب والإسراف من وجهين:

أحدهما: أن الإسراف نجاوز الحد فى فعل ما يجب، والذنب عام فيه وفي التقصير، فإذا كل إسراف ذنب، وليس كل ذنب إسرافا.

والثاني: أن حقيقة الذنب: التقصير وترك الأمر حتى يفوت، ثم يؤخذ بالذنب. والذنب إذن في الأصل مقابل الإسراف، وكلاهما مذمومان، أحدهما: من جهة التفريط. والآخر: من جهة الإفراط"(٢).

قوله تعالى:{ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}[آل عمران: ١٤٧]، أي:"وثبّت اقدامنا في مواطن الحرب"(٣).

قال ابن إسحاق:"واسألوه كما سألوه أن يثبّت أقدامكم"(٤).

قال الزجاج:" أي ثبتنا على دينك. وإذا ثبتهم على دينهم ثبتوا في حربهم - قال الله عز وجل – {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا } [النحل : ٩٤]،المعنى: تزل عن الدين"(٥).

قوله تعالى:{وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران : ١٤٧]، أي:" وانصرنا على مَن جحد وحدانيتك ونبوة أنبيائك"(٦).

قال ابن إسحاق:"واستنصروه كما استنصروه على القوم الكافرين. فكل هذا من قولهم قد كان وقد قُتل نبيهم ، فلم يفعلوا كما فعلتم"(٧).

قال الماتريدي:" يحتمل: النصر عليهم بالحجج والبراهين. ويحتمل: النصر بالغلبة والهزيمة عليهم"(٨).

الفوائد:

١-أن هؤلاء الربيين كملت منهم الأفعال والأقوال، إذ ما وهنوا لما اصابهم، بل لجأوا إلى الله تعالى بسؤال المغفرة، لأن ما أصابهم إنما هو بسبب الذنوب.

٢-أن الإنسان مفتقر إلى مغفرة الله غا الإفتقار.

٣-أن الإنسان لايخلو من الإسراف على نفسه، إما في غلو أو تقصير.

٤-أن الإنسان مفتقر إلى تقبيت القدم من الله عزّ وجل.

٥-أن النصر من عند الله وحده.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

----

(١) تفسير المراغي:٩٣/٤.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني:٩٠٠/٣.

(٣) صفوة التفاسير:٢١٢.[بتصرف].

(٤) أخرجه الطبري(٧٩٩٣):ص٢٧٣/٧، وابن أبي حاتم(٤٣٠١):ص٧٨٣/٣.

(٥) معاني القرآن:٤٧٧/١.

(٦) التفسير الميسر:٦٨.

(٧) أخرجه الطبري(٧٩٩٣):ص٢٧٣/٧، وابن أبي حاتم(٤٣٠٢):ص٧٨٣/٣.

(٨) تفسير الماتريدي:٥٠٣/٢.

انتهى الجزء الثامن من التفسير ويليه الجزء التاسع بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (١٤٨) من سورة «آل عمران».